

تراثنا

صُنِعَ الْإِنْسَانُ
فِي ١٤٠٧ هـ

في
صناعة الإنسان

تأليف
أبي العباس أحمد بن علي الفلّيشندي

١٨٤١ هـ - ١٤١٨ م

الجزء الرابع عشر

نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية
ومذيلة

تصويبات واستدراكات وفهارس تفصيلية
مع دراسة واقية

وزارة الثقافة والارشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

تراثنا

صنعة الإنشاء

في
صناعة الإنشاء

تأليف
أبي العباس أحمد بن علي الفلّافشندي

٨٤١ هـ - ١٤١٨ م

الجزء الرابع عشر

نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية
ومذيلة

تصويبات واستدراكات وفهارس تفصيلية
مع دراسة واقية

وزارة الثقافة والاعمال القومي
المؤسسة المصرية
للتأليف والترجمة والنشر

مطالعہ کوستا اسواس و شرکاء

• شارع وقف انجمن برطانیہ بالظہر - ۱۹۸-۹۰
القضاء

فهرس

الجزء الرابع عشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

منصة

- الباب الرابع — من المقالة التاسعة في المحدث الواقعة بين ملوك
 الإسلام وملوك الكفر، وفيه فصلان ... ٢
- الفصل الأول — في أصول تتعين على الكاتب معرفتها ،
 وفيه ثلاثة أطراف ... ٢
- الطرف الأول — في بيان رتبها ومعناها وذكر ما يرادفها
 من الألفاظ ... ٢
- » الثاني — في أصل وضعها ... ٤
- » الثالث — فيما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة المحدث ،
 وفيه نوعان ... ٧
- النوع الأول — ما يختص بكتابة المحدث بين أهل الإسلام
 وأهل الكفر ... ٧
- » الثاني — ما تشترك فيه المحدث الواقعة بين أهل الكفر
 والإسلام وعقود الصلح الجارية بين زعماء
 المسلمين، وهي ضربان ... ٩
- الضرب الأول — الشروط العادية التي جرت العادة أن يقع الاتفاق
 عليها بين الملوك في كتابة المحدث خلا ما تقدم ... ٩
- الضرب الثاني — مما يلزم الكاتب في كتابة المحدث — تحرير
 أوضاعها، وترتيب قوانينها ، وإحكام معاقدها ١١
- الفصل الثاني — في صورة ما يكتب في المهادنات والسجلات ،
 ومذاهب الكتاب في ذلك، وفيه طرفان ... ١٦
- الطرف الأول — فيما يستبد ملوك الإسلام فيه بالكتابة عنهم ،
 وتخلد منه نسخ بالأبواب السلطانية، وتدفع
 منه نسخ إلى ملوك الكفر، وذلك على نوعين ... ١٦

صفحة

- النقط الأول — ما يكتب في طرة الهدنة من أعلى الدرج ... ١٦
- » الثاني — ما يكتب في متن الهدنة، وهو على نوصين ... ١٧
- النوع الأول — ما تكون الهدنة فيه من جانب واحد،
وفيه مذهبان ... ١٧
- المذهب الأول — أن تفتح الهدنة بلفظ: «هذا ما عاهدن عليه» الخ ١٧
- » الثاني — أن تفتح المهادنة قبل لفظ: «هذا» بعبارة ... ٢٦
- النوع الثاني — من الهدن الواقعة بين ملك مسلم وملك كافر —
أن تكون الهدنة من الجانبين جميعا، وفيها للكتاب
ثلاثة مذاهب ... ٢٩
- المذهب الأول — أن تفتح الهدنة بلفظ: «هذه هدنة»
ونحو ذلك ... ٢٩
- الثاني — أن تفتح الهدنة بلفظ: «استقرت الهدنة بين
فلان وفلان» الخ ... ٣١
- » الثالث — أن تفتح المهادنة بخطبة مبتدأة بـ «الحمد لله» ٧١
- الطرف الثاني — فيما يشارك فيه ملوك الكفر ملوك الإسلام
في كتابة نسخ من دواوينهم ... ٧٢
- الباب الخامس — من المقالة التاسعة في عقود الصلح الواقعة بين
ملكين مسلمين، وفيه فصلان ... ٧٩
- الفصل الأول — في أصول تعتمد في ذلك ... ٧٩
- » الثاني — فيما جرت العادة بكتابته بين الخلفاء وملوك
المسلمين على تعاقب الدول، مما يكتب في الطرة
والمتن، وفيه فوتران ... ٨٤

صفحة

- النوع الأول - ما يكون القذف من الجانبين ٨٤
 » الثاني - ما يكون القذف من جانب واحد ،
 وفيه منجهان ٩٧
 المنهج الأول - أن يفتح عقد الصلح بلفظ : « هذا » ... ٩٧
 » الثاني - أن يفتح عقد الصلح بجملة مفتوحة بـ « والحمد لله »
 وربما كرر فيها التحميد ١٠٠
 الباب السادس - من المقالة التاسعة في القسوخ الواردة على العقود
 السابقة ، وفيه فصلان ١٠٨
 الفصل الأول - القسوخ ، وهو ما وقع من أحد الجانبين دون
 الآخر ١٠٨
 » الثاني - المفاضة ، وهي ما تكون من الجانبين جميعا ... ١٠٩

المقالة العاشرة

- في فنون من الكتابة يتداولها الكُتّاب وتنافس في عملها ليس لها تعلق
 بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها ، وفيها بابان ١١٠
 الباب الأول - في الحديّات ، وفيه خمسة فصول (الصواب : ستة
 فصول) ١١٠
 الفصل الأول - في المقامات ١١٠
 » الثاني - في الرسائل ، وهي على أصناف ١٣٨
 المصنف الأول - الرسائل الملوكية ، وهي على ضربين ... ١٣٩
 الضرب الأول - رسائل التزوّ ، وهي أعظمها وأجلّها ... ١٣٩
 » الثاني - « الصيّد » ١٦٥
 المصنف الثاني - من الرسائل - ما يرد منها مورد المدح والتقرّض ١٧٢

صفحة	
٢٠٤	الصف الثالث - من الرسائل - المفارحات
٢٤٠	» الرابع - » الأسئلة والأجوبة
٢٥١	» الخامس - » ما تكتب به الحوادث والمآثرات
	الفصل الثالث - من الباب الأول من المقالة المباشرة ،
٢٨٢	في قِصصات البنق
	» الرابع - من الباب الأول من المقالة المباشرة ،
٣٠٠	في الصَّدَقَات، وفيه طرفان
٣٠٠	الطرف الأول - في الصدقات الملوية وما في معناها
٣١١	» الثاني - في صَدَقَات الرُّسَاء والأعيان وأولادهم
	الفصل الخامس - من الباب الأول من المقالة المباشرة فيما يكتب
	عن العلماء وأهل الأدب ، مما جرت العادة
	بمراجعة التراجم فيه ، ومحاولة الفصاحة
٣٢٢	والإلاغة، وفيه طرفان
	الطرف الأول - فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب ،
٣٢٢	وهو على صفتين
	الصف الأول - الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعروضات
٣٢٢	الكتب، ونحوها
	» الثاني - التقریضات التي تكتب على المصنفات المصنفة
٣٣٥	والقصائد المنظومة
	الطرف الثاني - فيما يكتب عن القضاة ، وهو على أربعة
٣٤٠	أصناف
٣٤٠	الصف الأول - التقاليد الحكيمة
٣٤٦	» الثاني - إحصاءات المدالة

٣٥٠ ...	الصفحة
٣٥٠ ...	الصفحة الثالث - الكتب إلى التواب وما في معناها ...
٣٥٣ ...	الرابع - ما يكتب في أنشأت الكتب ...
٣٥٥ ...	الفصل السادس - في العمرات التي تكتب للحاج ...
٣٦٠ ...	الباب الثاني - من المقالة العاشرة في المنزلات ...

الخاتمة

٣٦٦ ...	في ذكر أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة، وفيها أربعة أبواب ...
٣٦٦ ...	الباب الأول - في الكلام على البريد، وفيه فصلان ...
٣٦٦ ...	الفصل الأول - في مقتضات يحتاج الكتب إلى معرفتها، ويتعلق
٣٦٦ ...	الفرض من ذلك بثلاثة أمور ...
٣٦٦ ...	الأمر الأول - معرفة معنى لفظ البريد لغة وأصطلاحاً ...
٣٦٧ ...	الثاني - أول من وضع البريد وما آل إليه أمره إلى الآن ...
٣٧١ ...	الثالث - بيان معالم البريد ...
٣٧٢ ...	الفصل الثاني - من الباب الأول من الخاتمة في ذكر مراكو
٣٧٢ ...	البريد، ويشتمل على ستة مقاصد ...
٣٧٢ ...	المقصد الأول - في مركز قلعة الجبل المحروسة بالديار المصرية التي
٣٧٣ ...	هي قاعدة الملك، وما يتفرع عنه من المراكز،
٣٧٣ ...	وما تنهى إليه مراكو كل جهة ...
٣٧٩ ...	الثاني - في مراكو غزوة، وما يتفرع عنها من البلاد الشامية ...
٣٨١ ...	الثالث - في ذكر مراكو دمشق وما يتفرع عنه من المراكز ...
٣٨٣ ...	الرابع - في مراكو حلب، وما يتفرع عنه من المراكز ...
٣٨٥ ...	الخامس - في مراكو طرابلس، وما يتفرع عنه من المراكز ...
٣٨٥ ...	السادس - في معرفة مراحل الحجاز الموصلة إلى مكة
٣٨٥ ...	المشرقة والمدينة المنورة ...

صفحة	
الباب الثاني - من الخاتمة فى مطارات الحمام الرسائلى، وذكر أبراجها المقررة بطرق الديار المصرية والبلاد الشامية، وفيه فصلان...	٣٨٩
الفصل الأول - فى مطاراته	٣٨٩
» الثاني - فى أبراج الحمام المقررة لاطارتها بالديار المصرية، والبلاد الشامية	٣٩٢
الباب الثالث - من الخاتمة فى ذكر عين التلج، والمراكب المعتمة لحمل التلج الذى يحمل من الشام إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية، وفيه ثلاثة فصول	٣٩٥
الفصل الأول - فى نقل التلج	٣٩٥
» الثاني - فى المراكب المعتمة لنقل التلج من الشام...	٣٩٦
» الثالث - فى المجن المعتمة لنقل ذلك...	٣٩٦
الباب الرابع - من الخاتمة فى المناور والمحرقات، وفيه فصلان	٣٩٨
الفصل الأول - فى المناور	٣٩٨
» الثاني - فى المحرقات	٤٠١

صنعة الإنشاء

في

صناعة الإنشاء

تأليف

أبي العباس أحمد بن علي الفلّيشندي

٨٤١ هـ - ١٤١٨ م

الجزء الرابع عشر

نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية
ومندوبة

بتصويبات واستدراكات وفهارس تفصيلية
مع دراسة وافية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصل الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الباب الرابع

من المقالة التاسعة

(في الهدنة الواقعة بين ملوك الإسلام وملوك الكفر ، وفيه فصلان)

الفصل الأول

في أصول تتعين على الكاتب معرفتها ، وفيه ثلاثة أطراف

الطرف الأول

(في بيان رتبها ومعناها ، وذكر ما يرادفها من الألفاظ)

أما رتبها فإنها متأنرة - عند قوة السلطان - عن عقد الجزية : لأن في الجزية ما يدل على ضعف المعقود له ، وفي الهدنة ما يدل على قوته .

وأما معناها فالهدنة في اللغة المصالحة ، يقال : هادته يهادته مهادنة إذا صالحه والأسم الهدنة . وهي إما من هدن بفتح الدال يهدن بضمها هدونا إذا سكن ، ومنه قولهم : « هدنة على دخن » . أي سكون على غل ، أو تكون قد سميت بذلك لما يوجد من تأخير الحرب بسببها .

(١) أي من باب قتل كما في المصباح وبه ضبط بالقلم خمسة خطية من الصلاح ولكن ضبطه في القاموس واللسان وكذا المحكم بالقلم فيد أنه من باب ضرب ، قل فيه لفتين .

(٢) هذا هو أحد شق التفصيل . أي الهدنة إما من الهدن بمعنى السكون أو من الهدن بمعنى التريث والتأخير .

ورادتها الفاظ أخرى :

أحدها — المُوَادَّة، ومعناها المصالحة أيضا، أخذنا من قولهم : عليك بالمودع يريدون بالسكينة والوقار، فتكون راجعة إلى معنى السكون . وإما أخذنا من توديع الثوب ونحوه : وهو جعله في صوان يصونه، لأنه بها تحصل الصيانة عن القتال . وإما أخذنا من الدعة : وهي الخفض والهاء ، لأن بسببها تحصل الراحة من تعب الحرب وكلفه .

الثاني — المسألة ومعناها ظاهر : لأن وقوعها يسلم كل من أهل الجانبين من الآخر .

الثالث — المقاضاة، ومعناها [الهاتكة مفاعلة من القضاء بمعنى الفصل والحكم] .
الرابع — المواصفة ، سُميت بذلك لأن الكاتب يصف ما وقع عليه الصلح من الجانبين . على أن التَّكَلُّب محضون لفظ المواصفة بما إذا كانت المهادنة من الجانبين، ولا شك أن ذلك جارٍ في لفظ المُوَادَّة والمسألة والمُقَاضَاة أيضا : لأن المفاعلة لا تكون إلا بين اثنين إلا في الفاظ قليلة محفولة، على ما هو مقرر في علم العربية .
أما لفظ الهدنة فإنه يصدق أن يكون من جانب واحد، بأن يقد الأهل الهدنة لمن هو دونه . على أنها عند التحقيق ترجع إلى معنى المفاعلة، إذ لا تتصور إلا من اثنين .
وأما في الشرع فعبارة عن صلح يقع بين زعيمين في زمن معلوم بشروط مخصوصة، على ما سيأتي بيانه فيما بعد، إن شاء الله تعالى .

والأصل فيها أن تكون بين ملكين مسلم وكافر، أو بين اثنين، أو بين أحدهما وثاني الآخر . وعلى ذلك رتب الفقهاء رحمهم الله باب الهدنة في كتبهم . قال صاحب

«مواد اليان» . وقد يتعاقد عظماء أهل الإسلام على التواضع والتسالم وأخصاص المودة والتصافي، والتوازر والتعاون، والتعاضد والتناصر؛ ويشترط الأضعف منهم للأقوى تسليم بعض ما في يده والتفادي عنه بمحافظته والالتقياد إلى أتباعه، والطاعة والاحترام في المخاطبة، والمجاملة في المعاملة، أو الإمداد بجيش، أو امتثال الأوامر والنواهي وغيرها مما لا يحصى .

قلت : وقد يكون المليك مقساوين في الرتبة أو متقاربين ، فيقع التعاضد بينهما غل المسألة والمصافاة، والموازرة والمعاونة، وكف الأذى والإضرار وما في معنى ذلك، دون أن يلزم أحدهما للآخر شيئاً يقوم به أو إتاوة يجملها إليه ؛ ولكل مقام مقال، والكتاب المساهر يوفي كل مقام حقه ، ويعطي كل فصل من الفصول مستحقه .

الطرف الثاني

(في أصل وضعها)

أما مهادنة أهل الكفر فالأصل فيها قوله تعالى : ﴿ فَيُجَاهِدُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ الآية، وقوله : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ .

وما ثبت في صحيح البخاري من حديث عروة بن الزبير رضي الله عنه : « أَنْ قُرَيْشًا وَجَّهَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ حِينَ « صَدَّه قُرَيْشٌ عَنِ الْبَيْتِ - سَهِيلَ بْنِ عَمْرٍو ، فَقَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَاتِ [أَكْتُبْ] بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كِتَابًا ، فَدَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « الْكَاتِبَ . فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

«الرحيم». فقال سُهَيْلٌ: أما الرحمن فوالله ما أدرى ماهو؟ ولكن أكتبُ.
 «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كما كُنْتَ تَكْتُبُ». فقال المسلمون: والله لا نكتبُ إلا،
 «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أكتبُ:
 «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ». ثم قال: هذا ما قاضَى عليه محمدُ رسولُ الله. فقال سُهَيْلٌ:
 «وَاللَّهِ لو كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ما صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ»
 «ولكن أكتب محمد بنُ عبد الله»، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: وَاللَّهِ
 «إِنِّي لِرَسُولِ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتَنِي، أكتبُ محمد بنُ عبد الله، ثم قال النبي
 «صلى الله عليه وسلم: على أن تُحْمِلُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَتَعْلُوفُ بِهِ. فقال
 «سُهَيْلٌ: والله لا تَحْدِثُ الْعَرَبُ أَنَا قَدْ أَخَذْنَا ضُمْفَةً، ولكن ذلك من
 «الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فكتب. قال سُهَيْلٌ: وعلى أنه لا يَأْتِيكَ مَنَّا رَجُلٌ
 «وإن كان على دينِكَ إلا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا. قال المسلمون: سُبْحَانَ اللَّهِ!
 «كَيْفَ يَرُدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا! فِينَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ جَاءَ
 «أَبُو جَنْدَلٍ يَرْسُفُ فِي قُبُورِهِ، وَقَدْ نَخَرَجَ مِنْ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ
 «أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ. فقال سُهَيْلٌ: هذا يا محمد أولُ ما أَقْضَيْكَ عَلَيْهِ أَنْ
 «تَرُدَّهُ إِلَيَّ. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ»
 «قال: فوالله [إِذَا] لَا أَصَالِحُكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا. قال النبي صلى الله
 «عليه وسلم: فَأَجِزْهُ لِي. قال: ما أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ. قال بلَى فافْعَلْ -»

«قال : ما أنا بفاعل . قال مِكَرَزُ بْنُ حَفِصٍ : بلى قد أجزأته لك . قال :
«أبو جندب : أى معشر المسلمين : أردُّ إلى المشركين وقد جئتُ مسلماً؟»
«ألا ترون ما قد لقيتُ؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً فى الله تعالى .»
«قال عمر بن الخطاب : فأتيتُ النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت :
«ألسنتُ نبيَّ الله حقاً؟ قال بلى ! قلتُ : ألسنا على الحق وعدونا على
«الباطل؟ قال بلى ! قلتُ : فلم تعطى الدِّينَةَ فى ديننا إذا؟ قال : إني
«رسولُ الله ولستُ أعصيه وهو ناصرى» .

قلت : ههنا ما أورده البخارى فى حديث طويل^(١) . والذي أورده أصحابُ
السِّير أن الكاتب كان على بن أبى طالب ، وأن نُسْنة الكلب .

«هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو على وضع الحرب»
«عن الناس عشر سنين ، وأنه من أحبَّ أن يدخلَ فى عقدِ محمد»
«وعنده دخلَ فيه ، ومن أحبَّ أن يدخلَ فى عقدِ قریش وعندهم
«دخل فيه» .

وأشهد فى الكتاب على الصُّلح رجالاً من المسلمين والمشركين .

(١) ذكر هذا الحديث بتمامه فى كتاب الصلح وهو فى ج ٤ من "أرشاد السارى" لقسطلانى ومه كان

الطرف الثالث

(فما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة المدين)

قال في "مواد البيان" : وهذا الفن من المكتبات له من القوة على خيل،
ومن الملكة موضع كبير، ويتعين على الكاتب أن يحل له فكره، ويعمل فيه نظره،
ويتوقف عليه توقراً يحكم مبادئه، ويهذب معانيه .
والذى يلزم الكاتب في ذلك نوعان :

النوع الأول

(ما يختص بكتابة المذنب بين أهل الإسلام وأهل الكفر)

وهي الشروط الشرعية المعتبرة في صحة العقد، بحيث لا يصح عقد المذنب مع
إهمال شيء منها . وهي أربعة شروط :

الأول — في العاقد . ويختص الحال فيه باختلاف المقود عليه : فإن كان المقود
عليه إقليماً : كالحند والروم ونحوهما، أو مهادة الكفار مطلقاً، فلا يصح العقد فيه إلا
من الإمام الأعظم أو من نائبيه العام المفوض إليه التحدث في جميع أمور الملكة .
وإن كان على بعض القرى والأطراف، فلا حاجة للولاية المجاورين لم عقد الصلح معهم .

الثاني — أن يكون في ذلك مصلحة المسلمين : بأن يكون في المسلمين ضعف
أو في المال قلة، أو توقع إسلامهم بسبب اختلاطهم بالمسلمين، أو طمع في قبولهم
الجزية من غير قتال وإنفاق مال . فإن لم تكن مصلحة فلا يهادنون بل يقاتلون حتى
يسلموا أو يرقوا الجزية إن كانوا من أهلها .

الثالث — أن لا يكون في العقد شرط ياباه الإسلام : كما لو شرط أن يترك
بأيهم مال مسلم، أو أن يرده عليهم أسير مسلم أفلت منهم، أو شرط لهم على المسلمين

مَالٌ مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، أَوْ شُرْطَ رَدِّ مُسْلِمِيهِمْ، فَلَا يَصِحُّ الْعَقْدُ مِنْ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بِخِلَافِ مَا لَوْ شُرْطَ رَدُّ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ أَوْ الْمَرْأَةِ الْكَافِرَةِ فَإِنَّهُ لَا يَنْتَعِ الصَّحَّةُ. قَالَ الْقَزَالِي : وَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنْ يَقُولَ : ^(١) عَلَى أَنْ مَنْ جَاءَكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَدَّ دَعْوَاهُ، وَمَنْ جَاءَنَا مُسْلِمًا رَدَّ دَعْوَاهُ . فَإِنْ كَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ وَخِيفٌ عَلَيْهِمْ، جَازَ اتِّزَامُ الْمَالِ لَمْ دَفْعًا لِلشَّرِّ، كَمَا يَحْوزُ فَكُّ الْأَسِيرِ الْمُسْلِمِ إِذَا عَجَزْنَا عَنْ أَنْتَرَاعِهِ .

الرابع — أَنْ لَا تَزِيدَ الْمُدَّةَ عَنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ عِنْدَ قُوَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْنِهِمْ، وَلَا يَحْوزُ أَنْ تَبْلُغَ سَنَةً بِحَالٍ، وَفِيهَا دُونَ سَنَةٍ وَفَوْقَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ قَوْلَانِ لِلشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَحْمَهُمَا أَنَّهُ لَا يَحْوزُ. أَمَّا إِذَا كَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ وَهَنٌ وَخَوْفٌ، فَإِنَّهُ يَحْوزُ الْمَهَادَنَةَ إِلَى عَشْرِ سِنِينَ ؛ فَقَدْ هَادَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَهْلَ مَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ كَمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ . وَلَا يَحْوزُ الزِّيَادَةُ عَلَيْهِمَا عَلَى الصَّحِيحِ ، وَفِي وَجْهِ تَحْوزِ الزِّيَادَةِ عَلَى ذَلِكَ لِلصَّلَاحَةِ . فَلَوْ أُطْلِقَ الْمُدَّةُ فَالصَّحِيحُ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهَا قَائِدَةٌ ، وَقِيلَ : إِنْ كَانَتْ فِي حَالِ ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ حُمِلَتْ عَلَى عَشْرِ سِنِينَ، وَإِنْ كَانَتْ فِي حَالِ الْقُدْرَةِ : فَقَدْ قِيلَ تَعْمَلُ عَلَى الْأَقَلِّ : وَهُوَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، وَقِيلَ عَلَى الْأَكْثَرِ : وَهُوَ مَا يَقَارِبُ السَّنَةَ . وَلَوْ صَرَّحَ بِالزِّيَادَةِ عَلَى مَا يَحْوزُ عَقْدُ الْمُدَّةِ عَلَيْهِ : فَإِنْ زَادَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فِي حَالِ الْقُوَّةِ أَوْ عَلَى عَشْرِ سِنِينَ فِي حَالِ الضَّعْفِ صَحَّ فِي الْمُدَّةِ الْمُتَعَبَّرَةِ وَبَطُلَ فِي الزَّائِدِ . فَإِنْ أَحْتَجَّ إِلَى الزِّيَادَةِ عَلَى الْعَشْرِ، عَقِدَ عَلَى عَشِيرٍ ثُمَّ عَشِيرٍ ثُمَّ عَشِيرٍ قَبْلَ تَقَعُّيِ الْأَوَّلَى، قَالَهُ الْفُورَانِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ أَهْلِهَا الشَّافِعِيَّةِ . وَذَهَبَ أَهْلُ مَالِكٍ رَحِمَهُمُ اللَّهُ إِلَى أَنَّ مُدَّتَهَا غَيْرُ مُحْدُودَةٍ، بَلْ يَكُونُ مَوْكُولًا إِلَى أَجْتِهَادِ الْإِمَامِ وَرَأْيِهِ .

(١) يَبَاضُ فِي الْأَسْلِ بِفَرْكَةٍ وَلَهُ « نَهَادَكُمْ عَلَى الْخِ » .

النوع الثاني

(ما تشترك فيه الهدن الواقعة بين أهل الكفر والإسلام، وعقود الصلح

الجارية بين زعماء المسلمين، وهي ضربان)

الضرب الأول

(الشروط العادية التي جرت العادة أن يقع الاتفاق عليها بين

الملوك في كتابة الهدن خلا ما تقدم)

وليس لها حدٌ محضرها، ولا ضابطٌ يضبطها، بل بحسب ما تدعو الضرورة إليه

في تلك الهدنة بحسب الحال الواقع .

فمن ذلك — أن يشترط عليه أن يكون لوليّه موالياً، ولعدوه مُعادياً، ولُساليمة مُسالمًا، ولُحاربه مُحاربًا، ولا يُواطىء عليه عدوًّا، ولا يوقع عليه صلحًا، ولا يُوافق على ما يقدح في أمره، ولا يقبل سُؤال سائل، ولا يذلّ باذل، ولا رسالة مُراسل مما يخالف الاتفاق الجاري؛ والأخذ على يد من سعى في قضيّ الصلح ونكث العهد إن كان من أهل طاعته، والمُقاتلة إن كان من المُخالفين له، وأنه إذا جنى من أهل مملكتهم جاني كان عليه إحضاره أو الأخذ منه بالجنابة .

ومن ذلك — أن يشترط عليه أن يكف عن بلاده وأعماله، ويُتطوّر قُوّوه، وشايع نواحيه — أيديّ الداخلين في جماعته، والمُتضمّنين إلى حوزته، ولا يُجهّز لها جيشًا، ولا يُحاول لها غزوًا، ولا يُبدأ أهلها بمنازعة، ولا يشرع لهم في مُقارعة، ولا يتناوهم بمكيّدة ظاهرة ولا باطنة، ولا يعاملهم بأذنية جليّة ولا خفيّة، ولا يطلق لأحدٍ ممن ينوب عنه في إمارة جيشه، ومن يُنسب إلى جمعيته، ويُتصرف

على إرادته - عتاً إلى شيء من ذلك بوجه من الوجوه، ولا سبب من الأسباب،
وأن لا يمازج حُدود مملكته إلى المملكة الأخرى بنفسه ولا بسكر من عساكره .

ومن ذلك - أن يشترط عليه أن يُفْرِجَ عَمَّنْ هُوَ فِي حَوْزِهِ مِمَّنْ أَحَاطَتْ بِهِ
رَبْقَةُ الْأَمِيرِ، وَمُكْتَنَمٌ مِنَ الْمَسِيرِ إِلَى بِلَادِهِمْ : بِأَنْفُسِهِمْ وَحَدِيثِهِمْ وَجِلْدِهِمْ وَأَتَابِهِمْ،
وَأَصْنَافِ أَمْوَالِهِمْ، فِي أَتَمِّ حِرَاسَةٍ، وَأَكْمَلِ خِفَافَةٍ، دُونَ كُلْفَةٍ وَلَا مَشْوَةٍ تَلْحَقُهُمْ
عَلَى إِطْلَاقِهِمْ، وَنَحْوِ ذَلِكَ .

ومن ذلك - أن يشترط عليه مَالاً يَجِلُّ إِلَيْهِ فِي كُلِّ سَنَةٍ، أَوْ أَنْ يُسَلِّمَ إِلَيْهِ
مَا يَخْشَاهُ : مِنْ حُصُونٍ وَقِلَاجٍ وَأَطْرَافٍ وَسَوَاحِلَ مِمَّا وَقَعَ الْأَسْتِلاءُ عَلَيْهِ مِنْ بِلَادِ
الْمُسْلِمِينَ، أَوْ أَحَبَّ أَتْرَافِهِ أَوْ أَسْتَضَافَتِهِ مِنْ بِلَادٍ مَن يُعَادِيهِ مِنْ مُلُوكِ الْكُفَرِ،
وَأَنْ يُنْقِىَ مَن بَهَا مِنْ أَهْلِهَا، وَيُقَرِّدَهُمْ فِيهَا بِحَرَمِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَمَوَاشِيهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ
وَسِلَاحِهِمْ وَالْأَتَمِّ، دُونَ أَنْ يَقْتَسِمَ عَنْ ذَلِكَ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ مَالاً، أَوْ يَطْلُبَ عَنْهُ
بَدَلاً، وَمَا يَغْرِطُ فِي هَذَا السَّلَكِ .

ومن ذلك - أن يشترط عليه عَدَمُ التَّمَرُّضِ لِعُجَارِ مَمْلَكَتِهِ، وَالْمَسَافِرِينَ مِنْ
رَجِيئِهِ، بَرًّا وَبَحْرًا بَنُوْجَ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَذْيَةِ وَالْإِخْرَارِ، فِي أَنْفُسِهِمْ وَلَا فِي أَمْوَالِهِمْ،
وَالْقَبَاوِيرِينَ لِلْبَحْرِ عَدَمُ رُكُوبِ الْمَرَكَبِ الْحَرِيَّةِ الَّتِي لَا يَتَادُ التَّجَارُ رُكُوبَ مِثْلِهَا .

ومن ذلك - أن يشترط عليه إِحْضَاءُ مَا وَقَعَتْ عَلَيْهِ الْمَعَاكِدَةُ^(١)، وَأَنْ لَا يَرْجِعَ مِنْ
ذَلِكَ وَلَا عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، وَلَا يُؤْتِرْ شَيْئًا عَنِ الْوَقْتِ الَّذِي^(١)

ومن ذلك - أن يشترط عليه أَنَّهُ إِذَا بَقِيَ مِنْ مُدَّةِ الْمُئْتَدَةِ مُدَّةٌ غَرَبِيَّةٌ مِمَّا يَحْتَاجُ
إِلَى التَّعْيِيرِ فِيهِ، أَنْ يَعْلِمَهُ بِمَا يُرِيدُهُ مِنْ مُهَادَنَةٍ أَوْ غَيْرِهَا .

ومن ذلك - أن يشترط عليه أنه إذا أفضى أمد المدة على أحد من الطامنين وهو في بلاد الآخرين، أن يكون له الأمن حتى يلحق مأمته .

ومن ذلك - أن يشترط ما لا يجعله إليه في الحال أو في كل سنة ، أو حصواً ، أو بلاداً يسلمها من بلاده ، أو مما يطلب عليه من بلاد مهادنه ، إلى غير ذلك من الأمور التي يجري عليها الاتفاقات مما لا تحصى كثرة .

الضرب الثاني

(مما يلزم الكتاب في كتابة المدة - تحرير أوضاعها ، وترتيب

قوانينها ، وإحكام معاقبتها)

وفلك باعتبار أمور :

منها - أن يكتب المدة فيما يناسب الملك الذي تجرى المدة بينه وبين ملكه ولم أر من تعرض في المدة لمقدار قطع الورق وإن كثرت كتابتها في الزمن المتقدم بين ملوك الديار المصرية وبين ملوك الفريج ، كما سيأتي ذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى . والذي ينبغي أن يراعى في ذلك مقدار قطع الورق الذي يكتب فيه الملك الذي تمع المدة معه : من قطع العادة أو الثلث أو النصف .

ومنها - أن يأتي في أختائها براءة الاستهلال : إما يذكر تحسين موقع الصلح والتدب إليه ويمن طاقته ، أو يذكر السلطان الذي تصدر عنه المدة ، أو السلطانين المتهادين ، أو الأمر الذي ترتب عليه الصلح ، وما يجري هذا المجرى مما يقتضيه الحال ويستوجب البقام .

ومنها - أن يأتي بعد التصدير بمقدمة يذكر فيها السبب الذي أوجب المدة ودعاً إلى قبول المودة .

فإن كانت الهدنة مع أهل الكفر، أحتج للإجابة إليها بالآتيار بأمر القرآن والآيات إليه، حيث أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالمطوعة على الصلح والإجابة إلى السلم بقوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ . وما وردت به السنة من مصالحه صلى الله عليه وسلم قرئنا عام الحديثية، وذكر ما سنع له من آيات الصلح وأحاديثه، وما جرى عليه الخلفاء الراشدون من بعده، وكفهم عن القتال ووقفاً عند ما حذ لهم . وأنه لولا ذلك لشرعوا الأئمة إلى مخالفتهم في الدين، وركضوا الحياة إلى جهاد من يليهم من المؤمنين .

وإن كان الصلح بين مسلمين أحتج بخبر قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ . وبأحاديث التحذير من قتال المسلمين كقوله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا لَقِيَ الْمُسْلِمَانِ بَيْنَهُمَا قَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» وما يجرى هذا الخبر .

ومنها - أن يراعى المقام في تجهيل المتهاذين أو أحدهما بحسب ما يقتضيه الحال، ووصف كل واحد منهما بما يليق به: من التعظيم، أو التوسيط، أو انحطاط الرتبة بحسب المقام، ويجرى على حسب ذلك في الشدة واللين .

فإن كانت الهدنة بين متكافئين سوى بينهما في التعظيم، وجرى بهما في الشدة واللين على حد واحد، إلا أن يكون أحدهما أسنى من الآخر، فيراعى للأسنى ما يجب له على الحدوث من التأديب معه، ويراعى للحدث ما يجب له على الكبير من الحنو والشفقة .

وإن كانت الهدنة من قوى لضعيف، أخذ في الاستعداد، آتياً بما يدل على علو الكلمة، وأنيساط القدرة، وحصول النصرة، وأستكمال العدد، وظهور الأيد،

وَوُفُورُ الْجُنْدِ، وَقُصُورُ الْمُلُوكِ عَنِ الْمُطَاوَلَةِ، وَتَجَزُّمُ عَنِ الْمُحَاوَلَةِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا يَخْطُرُ فِي هَذَا السَّلَكِ، لَا سَمِيًّا إِذَا كَانَ الْقَوِيُّ مُسْلِمًا وَالضَّعِيفُ كَافِرًا، فَإِنَّهُ يَجِبُ الْأَزْدِيَادُ مِنْ ذَلِكَ، وَذِكْرُ مَا لِلْإِسْلَامِ مِنَ الْعِزَّةِ، وَمَا تَوَالَّى لَهُ مِنَ النُّصْرَةِ؛ وَذِكْرُ الْوَقَائِعِ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا نُصْرَةُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْكُفَّارِ فِي الْمَوَاطِنِ الْمَشْهُورَةِ، وَالْأَمَّا كُنْ الْمَعْرُوفَةُ، وَمَا فِي مَعْنَى ذَلِكَ .

وَأِنْ كَانَتِ الْهُدْنَةُ مِنْ ضَعِيفٍ لِقَوِيٍّ، أَخَذَ فِي الْمَلَايَةِ بِحَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ، مَعَ إِظْهَارِ الْجَلَادَةِ، وَمَسَاكِ الْقُوَّةِ، خُصُوصًا إِذَا كَانَ الْقَوِيُّ الْمُعْقُودُ مَعَ الْهُدْنَةِ كَافِرًا. وَإِنْ شَرَطَ لَهُ مَا لَا عِنْدَ ضَعِيفِ الْمُسْلِمِينَ لِلضَّرُورَةِ أَتَى فِي كَلَامِهِ بِمَا يَقْتَضِي أَنَّ ذَلِكَ رَغْبَةٌ فِي الصَّلَاحِ الْمَأْمُورِ بِهِ، لَا عَنْ خَوَرٍ طِبَاجٍ وَضَعِيفِ قُوَّةٍ، إِذَ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ فَلَا تَهَيَّأُوا لِلْحَرْبِ إِلَى الْيَوْمِ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ .

ومنها - أَنْ يَحْفَظَ مَنْ سَقِطَ يَدْخُلُ عَلَى الشَّرِيعَةِ بَقِيصَةً، إِنْ كَانَتِ الْمَهَادَنَةُ مَعَ أَهْلِ الْكُفْرِ، أَوْ يَجُورُ إِلَى سُلْطَانِهِ وَهَيْبَتِهِ، إِنْ كَانَتْ بَيْنَ مُسْلِمَيْنِ؛ وَتَجِدُ كُلَّ الْحَدِيثِ مِنْ خَلَلٍ يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ مِنْ إِهْمَالٍ شَيْءٍ مِنَ الشَّرْطِ، أَوْ ذِكْرٍ شَرَطَ فِيهِ خَلَلٌ عَلَى الْإِسْلَامِ أَوْ ضَرَّرَ عَلَى السُّلْطَانِ، أَوْ ذِكْرٍ لَفِظَ مُشْتَرَكٍ أَوْ مَعْنَى مُلْتَبِسٍ يُوقِعُ شُبْهَةً تُوجِبُ السَّبِيلَ إِلَى التَّأْوِيلِ، وَأَنْ يَأْخُذَ الْمَأْخُذَ الْوَاضِحَ الَّذِي لَا تَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ مُعَارَضُهُ، وَلَا تَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ مُنَاقَضُهُ، وَلَا يَدْخُلُهُ تَأْوِيلٌ .

ومنها - أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ الْهُدْنَةَ وَقَعَتْ بَعْدَ اسْتِخَارَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَرْوِيَةِ النَّظَرِ فِي ذَلِكَ وَظُهُورِ الْخَيْرِ فِيهِ، وَمُشَاوَرَةِ ذَوِي الرَّأْيِ وَأَهْلِ الْحِجَى، وَمُوَافَقَتِهِمْ عَلَى ذَلِكَ .

ومنها - أَنْ يُبَيِّنَ مَدَّةَ الْهُدْنَةِ . فَقَدْ تَخَدَّم أَنَّ الصَّحِيحَ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يُبَيِّنِ الْمَدَّةَ فِي مُهَادَنَةِ أَهْلِ الْكُفْرِ فَسَلَتْ الْهُدْنَةُ .

قال في "العرف": وقد جرت العادة أن يَحْبُوبَهَا مَلَّةٌ سَيِّئَةٌ تَحْسِبُهُ فِجْرًا حسابًا بِالْقَمَرِيَّةِ. ويذكرُ سَيِّئَةً وَاشْتَهَرًا وَأَيَّامًا وَسَاعَاتٍ حَتَّى يَسْتَوْفِيَ السَّيِّئَةَ الشَّعْبِيَّةَ الْمَهَادَنَ عَلَيْهِ. أما في عقد الصلح بين مسلمين فإنه لا يشترط ذلك، بل ربما قالوا: إن ذلك صار لازماً للأبد، حتى في الولد وولد الولد.

ومنها - أن يبين أن المنة وقعت بين المالكين أخصيما، أو بين تأيبيهما، أو بين أحدهما وتأيب الآخر، ويستوفى ما يجب لكل قسم منها.

فإن كانت بين المالكين أخصيما بنسب واسطة بين ذلك، ذكر ما أخذ عليهما من المهود والمواثيق، والأيمان الصادرة من كل منهما، وذكر ما وقع من الإشهاد بذلك عليهما، وما جرى من ثبوت حكمه إن جرى فيه ثبوت ونحو ذلك.

وإن كانت بين المكتوب عنه وتأيب الآخر، يبين ذلك، وتعرض إلى المستند في ذلك: من حضور كاتب من الملك الغائب بتفويض الأمر في ذلك إلى تأيبيه، وأنه وصل على يده أو يد غيره، والإشارة إلى أنه معنون بعنوانه، مختم بخطه المتعارف عنه أو وكالة عنه. وتعرض إلى قيام البينة بها وثبوتها بمجلس الحكم ونحو ذلك من المستندات.

وإن كانت بين تأييين، يبين ذلك وذكر مستند كل تأيب منهما على ما تقدم ذكره. وتعرض إلى أن التأيب في ذلك قام فيه باختياره وطواعيته، لاعتباره إكراه ولا إجبار، ولا قسر ولا ظنة، بل لما رأى لنفسه ولتسنيته في ذلك من المصلحة والحظ. وأن كاتب المنة قرئ عليه ويُن له فصلاً فصلاً، وترجم له بموافق به، إن كان لا يعرف العربية ونحو ذلك.

ومنها - أن يتعرض إلى ما يجري من التحليف في آخرها: على الوفاء، وعدم النكث والإخلال بشيء من الشروط، أو الخروج عن شيء من الالتزامات،

أو مَحَالَّةُ التَّأْيِيلِ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، أَوِ اسْتِغْنَى فِي تَقْضِيهِ أَوْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ ،
وَمَا فِي مَعْنَى ذَلِكَ :

فَإِنْ كَانَتْ بَيْنَ مَلِكَيْنِ، مَوْضِعٌ لِلتَّحْلِيلِ كُلِّ مَنِمَا عَلَى التَّوْفِيقِ بِذَلِكَ .

وَإِنْ كَانَتْ بَيْنَ أَحَدِهِمَا وَنَائِبِ الْآخَرِ، حُلْفُ الْمَلِكِ كَمَا تَقْدَمُ، وَسَمَاتِي صُورَةُ
الْحَلِيفِ الَّذِي يَقَعُ فِي الْهَدَنِ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْإِيمَانِ فَيَأْخُذُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَمِنْهَا - أَنْ يُجَرِّدَ أَمْرَ التَّارِيخِ بِالْعَرَبِيِّ وَمَا يُؤَرِّخُ بِهِ فِي مَمْلَكَةِ الْمَلِكِ الْمُتَهَادِنِ : مِنْ
السُّرْيَانِيِّ وَالرُّومِيِّ وَغَيْرِهِمَا . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَلَمْ عَادَةً أَنْ يَحْسُبُوهَا مَدَّةَ
سِنِينَ تَحْسِبُهَا فَيَحْرُرُ حَسَابَهَا بِالْقَمَرِيَّةِ، وَيَذْكُرُ سِنِينَ تَوَاشَرًا وَإِيَّامًا وَسَاعَاتٍ حَتَّى
يَسْتَكْمِلَ السِّنِينَ الشَّمْسِيَّةَ الْمُتَهَادِنَ عَلَيْهَا . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى التَّارِيخِ مِنْ
الْمَقَالَةِ الثَّلَاثَةِ كَيْفِيَّةَ مَعْرِفَةِ التَّوَارِيخِ وَأَسْتَخْرَاجِهَا .

وَمِنْهَا - أَنْ يَقَعَ الْإِنْشَاءُ عَلَى كُلِّ مِنَ الْمُتَعَادِلِينَ بِذَلِكَ، وَلَا بَأْسَ بِإِثْبَاتِ ذَلِكَ .
وَقَدْ بَرَّرَتِ الْعَادَةُ أَنَّهُ يَنْهَدُ عَلَى كُلِّ مَلِكٍ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ دَوْلَتِهِ لِيُقَضَى عَلَيْهِمْ عَلَى مَلِكِهِمْ
بِقَوْلِهِمْ وَإِنْ كَانَ مُخَالَفًا فِي الدِّينِ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ «أَشْهَدُ عَلَى مُصَالَحَتِهِ مَعَ قُرَيْشٍ رِجَالًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرِجَالًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» .
وَرَبَّمَا طَلَبَ النَّائِبُ عَنِ الْمَلِكِ الْغَائِبِ إِحْضَارَ نُسْخَةٍ مُهَادِنَةٍ مِنْ جِهَةِ مُسْتَقْبَلِهِ
عَلَى مَا وَقَعَ بِهِ الْعَقْدُ، مَشْمُولَةً بِخَطِّ الْكُتُبِ، مَشْهُودًا عَلَيْهِ فِيهَا بِأَهْلِي مَمْلَكَتِهِ،
أَوْ مُجَهَّزًا إِلَيْهِ نُسْخَةً يَكْتُبُ عَلَيْهَا خَطَّهُ، وَيَنْهَدُ عَلَيْهِ فِيهَا أَهْلُ مَمْلَكَتِهِ . وَالْغَائِبُ
الْأَكْثَرُ بِالرُّسُلِ فِي ذَلِكَ .

الفصل الثاني

في صورة ما يُكْتَبُ في المهادنات والسِّجَلَات، ومَذَاهِبِ
الْكُتُبِ في ذلك، وفيه طُرُقَانِ

الطَّرَفُ الْأَوَّلُ

(فِيَا يَسْتَبْدُّ مَلُوكُ الْإِسْلَامِ فِيهِ بِالْكَتَابَةِ عَنْهُمْ - وَتُخَلَّدُ مِنْهُ نُسخٌ بِالْأَبْوَابِ
السُّلْطَانِيَةِ، وَتُدْفَعُ مِنْهُ نُسخٌ إِلَى مَلُوكِ الْكُفْرِ)
ثم ما يُكْتَبُ في ذلك على تَمَاطِينٍ :

النَّسْطُ الْأَوَّلُ

(مَا يُكْتَبُ فِي طُرُقِ الْهُدْنَةِ مِنْ أَعْلَى الدَّرَجِ)

وقد جرت العادة أن يفتح بلفظ « هذا » أو لفظ « هذه » وما في معنى ذلك ،
مثل أن يكتب : « هذا عَقْدُ صُلْحٍ » أو « هذا كِتَابُ هُدْنَةٍ » أو « هذه مُوَادَعَةٌ »
أو « هذه مُوَاصَفَةٌ » وما أشبه ذلك . وربما حُذِفَ الْمُبْتَدَأُ وهو « هذا » وأُكْفِيَ
بِالْخَبَرِ عنه ، مثل أن يقال : « كِتَابُ هُدْنَةٍ » أو « كِتَابُ مُوَادَعَةٍ » أو « عَقْدُ مُصَالَحَةٍ »
وما أشبه ذلك .

وهذه نسخة بعقد صلح أنشأها لِيُنْسَجَ عَلَى مَوَالِيهَا ، وهى :

هذا عَقْدُ صُلْحٍ آتَتْظَمَتْ بِهِ عُقُودُ الْمَصَالِحِ ، وَأَنْتَقَسَتْ بِوَاسِطَتِهِ سُبُلُ الْمَنَاجِحِ ؛
وَتَحَدَّثَتْ بِحُسْنِ مَقْدَمَتِهِ الْغَادِي وَتَرَمَّ بِحُسْنِ نَتِيجَتِهِ الرَّابِحُ . عَاقَدَ عَلَيْهِ السُّلْطَانُ فَلَانٌ
فَلَانًا الْقَائِمَ فِي عَقْدِ هَذَا الصُّلْحِ عَنْ مُرْسِلِهِ فَلَانٍ ، حَسَبَ مَا فُوضَ إِلَيْهِ الْأَمْرُ فِي ذَلِكَ
فِي كِتَابِهِ الْوَاصِلِ عَلَى يَدِهِ ، الْمُرَوِّجِ بِكَذَا وَكَذَا ، الْمُعْتَوَّنِ بِمُتَوَانِهِ ، الْمُخْتَوِّمِ بِطَائِبِهِ

المتعارف عنه - على أن يكون الأمر كذا وكذا . ويشرح ملخص ما يقع من الشروط التي يقع عليها الاتفاق بينهما في الصلح إلى آخرها ، ثم يقال : على ما شريح فيه .

المسألة الثاني

(ما يكتب في متن الهدنة ، وهو على نوعين)

النوع الأول

(ما تكون الهدنة فيه من جانب واحد)

بأن يكون الملكان متكافئين ، [فيتأقذان إما على حصن^(١)] وإما على مال يعطيه الملك المعقود له الهدنة لعاقبتها ، كما كان يكتب عن صاحب الديار المصرية .
وللكتاب فيه مذهبان :

المذهب الأول

(أن تختص الهدنة بلفظ : « هذا ما هادن عليه »)

أو « هذه هدنة أو موادة أو موصفة أو سلم أو صلح » أو نحو ذلك على نحو ما تقدم في الكلام على العدة)

وعلى ذلك كتب كتاب القضية بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش عام الحديبية ، على ما تقدم ذكره في الكلام على أصل مشروعتها .

وهذه نسخة هدنة كتب بها عن سلطان قوي ، للملك المضعوف ، باشتراط مال يقوم به المضعوف للقوي في كل سنة أو حصون يسلمها له أو نحو ذلك ، وهي :

هذا ما هادن عليه ، وأجل إليه ، مولانا السلطان فلان - خلد الله سلطانته وشرق به زمانه - الملك فلان الفلاني . هادنه حين ترددت إليه رسله ، وتوالت عليه

(١) الزيادة من المقام لاستقامة الكلام .

كُتِبَ ؛ وَأَمَلَهُ ، يُجَاهِلُهُ ؛ وَسَأَلَهُ ، لِيَكْتَفَ عَنْهُ أَسْلَهُ ؛ حِينَ أَبَتْ صِفَاحُهُ أَنْ تَصْفَحَ ،
وَسَمَاءُ عَجَاجِهِ بِالسَّمَاءِ إِلَّا أَنْ تَسْفَحَ ؛ فَرَأَى - سَدَّ اللَّهُ أَرَامَهُ - أَنْ الصَّلَحَ أَصْلَحَ ،
وَأَنْ مُعَامَلَةَ اللَّهِ أَرْجَحَ ؛ وَهَادَنَ هَذَا الْمَلِكُ (وَيُسَمِّيهِ) عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ ، وَوَلَدِهِ
وَنَفْسِهِ ؛ وَجَمِيعِ بِلَادِهِ ، وَكُلِّ طَائِفَةٍ وَتَلَادِهِ ؛ وَمَالَهُ مِنْ مَلِكٍ وَمَالٍ ، وَجِهَاتٍ
وَأَعْمَالٍ ؛ وَعَسْكَرٍ وَجُنُودٍ ، وَجُجُوجٍ وَحُشُودٍ ؛ وَرَعَايَا فِي مَمْلَكَتِهِ مِنَ الْمُقِيمِ وَالطَّائِرِ ،
وَالسَّائِرِ بِهَا وَالسَّائِرِ - هَذِهِ مَثَلُهَا أَوَّلُ تَارِيخٍ هَذِهِ السَّاعَةِ الرَّاهِتَةِ وَمَا يَتَلَوُّهَا ، مَتَى
كَذَا وَكَذَا مِنْ سَنِينَ وَأَنْشُهُرٍ وَسَاعَاتٍ ، يَحْمِلُ فِيهَا هَذَا الْمَلِكُ فَلَانٌ إِلَى بَيْتِ مَالِ
الْمُسْلِمِينَ ، وَلِأَيِّ نَحْتِ يَدِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ فَلَانٍ قَسِيمٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فِي هَذِهِ الْمَتَةِ
كَذَا وَكَذَا - يَقُومُ بِهِ هَذَا الْمَلِكُ مِنْ مَالِهِ ، وَمَا يَتَكَفَّلُ بِبَيَاتِهِ مِنْ حَزْبِيَّةِ أَهْلِ بِلَادِهِ
وَتَرَجِ أَعْمَالِهِ ؛ عَلَى أَهْطِ كَذَا وَكَذَا - قِيَامًا لَا يُجُوجُ مَعَهُ إِلَى تَكْلِفِ مُطَالَبَةٍ ،
وَلَا إِلَى تَأَوُّلِهِ بِيَدِ مُعَالَبَةٍ .

عَلَى أَنْ يَكْتَفَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ عَنْهُ بِأَسَائِهِ ، وَخَبَلَهُ الْمُطَلَّةَ عَلَيْهِ فِي صَبَاحِهِ
وَمَسَائِهِ ؛ وَيَضُمُّ عَنْ بِلَادِهِ أَطْرَافَ جُنُودِهِ وَعَسَاكِرِهِ وَأَتْبَاعِهِمْ ، وَيُؤَمِّنُهُ مِنْ بَطَانَتِهِمْ
وَسِرَاعِيهِمْ ، وَيَمْنَعُ عَنْ بِلَادِ هَذَا الْمَلِكِ الْمُتَاجِعَةِ لِبِلَادِهِ ، وَالْمُزَاجِعَةِ لِدَوَاقِقِ أَمْدَادِهِ ،
وَيُرَدِّدُ عَنْهَا وَعَمَّنْ جَاوَرَهَا مِنْ بَقِيَّةِ مَا فِي مَمْلَكَتِهِ ، وَهِيَ كَذَا وَكَذَا أَيْدَى النَّهَبِ ،
وَيَكْتَفُ الْفَارَاتِ وَيَمْنَعُ الْأَذَى ، وَيُرَدِّدُ مِنْ تَرَجٍ مِنْ رَعَايَا هَذَا الْمَلِكِ إِلَيْهِ ،
مَا لَمْ يَدْخُلْ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ وَيَشْهَدُ الشَّهَادَتَيْنِ ، وَيُفَرِّقُ بِالْكَلِمَتَيْنِ الْمُتَعَدِّيَيْنِ ؛
وَيُؤَمِّنُ جَلَابَةَ هَذَا الْمَلِكِ وَجُجَاهَةَ الْمُتَرَدِّدِينَ مِنْ بِلَادِهِ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ فِي عَوَارِضِ
الْإِشْغَالِ ، وَلَا يَحْصِلُ طَلِبُهُمْ ضَرَرٌ فِي نَفْسٍ وَلَا مَالٍ ؛ وَإِنْ أَخَذَتِ الْمُتَجَرِّمَةُ مِنْهُمْ
مَالًا أَوْ قَتَلَتْ أَحَدًا ، أَسَرَ بِأَهْصَافِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْمُتَجَرِّمِ ، وَأَنْ يُؤَخَّذَ بِحَقِّهِمْ مِنْ ذَلِكَ
الْمُجْرِمِ . وَعَلَيْهِ مِثْلُ ذَلِكَ فَيَمْنَعُ يَدْخُلُ إِلَيْهِ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ ، وَأَنْ لَا يَفْسَحَ لِنَفْسِهِ

ولا لأحد من جميع أهل بلاده في إيوائه مُستَصِر، ولا يرخص للذي عَمِيَ منهم ولا متبصر.

وأنه كلما وردت إليه كتب مولانا السلطان فلان أو كتب تَوَاهٍ، أو أحد [من المتعلقين^(١)] بأشبابه، يسارع إلى استئله والتدليل به في وقته الحاضر ولا يؤخره ولا يمهله، ولا يطرحه ولا يهمله.

وعليه أن لا يكون عينا للكفار، على بلاد الإسلام وإن دنت به أو بعثت النار، ولا يواطئ على مولانا السلطان فلان أعداءه [وأولم النار^(٢)] وأن يقرم ما يلزمه من المسكة بالمسكة، ويفعل ما تسكت عنه به الإسته وما أشبهها من الأليسة. وعليه أن ينهي ما يتجدد عنده من أخبار الأعداء ولو كانوا أهل ملته، ويُبَيِّنَ على سوء مقاصدهم، ويعرف ما بهم سماعه من أحوال ما هم عليه.

هذه هذنة ثم عليها الضلع إلى منتهى الأجل المعين فيه ما استمسك بشروطها، وقام بمقوقها، ووقف عند [حدها المترم به^(٣)]، وصرف إليها عنان اجتياده وبقى عليها قواعد وفاته، وصان من التكديف فيها سرائر صفاته؛ سال هو في هذه الهذنة المقررة، وأجابه مولانا السلطان إليها على شروطها المحترمة، وشهد به الحضور بالملكيتين وتضمنته هذه الهذنة المسطرة؛ وبالله التوفيق.

قلت: الظاهر أنه كان يكتب بهذه النسخة عن صاحب الديار المصرية والممالك الشامية، لمتملك سيس، فإن في خلال كلام المقر الشهابي بعد قوله: ولا يواطئ على مولانا السلطان فلان أعداءه: «وأولم النار»، وقد تقدم في الكلام على الممالك

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٦٨).

(٢) » » (ص ١٦٩) وما يأتي قريبا.

(٣) يبين له في الأصل والصحيح من التعريف (ص ١٦٩).

أن مملك سييس كان يما إلى التار ويميل إليهم، ويساعدكم في حرب المسلمين ويكثر في سوانهم .



وعلى مثل ذلك يكتب لكل ملك مضعوف في مُهادنة الملك القوي له .

وهذه نسخة هدية من هذا النمط، كتب بها أبو إسحق الصابي، عن صفصام الدولة، بن عضيد الدولة، بن ركن الدولة، بن بويه الديلمي، بأمر أمير المؤمنين الطائع لله، الخليفة العباسي ببغداد يومئذ، لوردس المعروف بسفلاروس ملك الروم، حين حيل بينه وبين بلاده، وأتمس أن يفرج له طريقه إلى بلاده، على شروط أترمها، وحُصُون يُسلِّها، على ما سيأتي ذكره، وهي :

هذا يكتب من صفصام الدولة، وشمس الملة، أبي كاليبجار، بن عضيد الدولة وتاج الملة أبي نجاج، بن ركن الدولة أبي علي، مولد أمير المؤمنين، كتبه لوردس ابن ينيتر المعروف بسفلاروس ملك الروم .

إنك سألت بسفارة أخينا وعُشيتا، وصاحب جيشنا (أبي حرب ربار بن شهر اكوته) تأمل حالك في تطاول حبيبك، وأعتياقك عن مُراجعة بلديك، وبذلت - متى أفرج عنك، وخلط طريقك، وأذن لك في الخروج إلى وطنك، والعود إلى مقر سلطانك - أن تكون أولينا وألياً، ولعدونا عدواً، وليأينا سلماً، ولحربنا حرباً : من جميع الناس كلهم، على اختلاف أحوالهم وأديانهم، وأجناسهم وأجيالهم، ومقارهم وأوطانهم؛ فلا نُصالح لنا ضدنا مبائناً، ولا نواطئ علينا عدواً محالفاً؛ وأن تكف عن تطرؤ الثغور والأعمال التي في أيدينا وأيدي الداخلين في طاعتنا : فلا تجهز إليها جيشاً، ولا نحاول ما غزوا؛ ولا تبدأ أهلها بمنازعه، ولا تشرع لهم في مُقارعة، ولا ننزلهم بمكيده ظاهرة ولا باطنة، ولا نقابلهم بأذية جلية ولا خفية؛ ولا نطلق لأحد من

ينوبُ عنك في قيادة جيوشك، ومن يُنسبُ إلى جملتك، ويتصرف على إرادته، -
الاجترأ على شيء من ذلك على الوجوه والأسباب كلها؛ وأن تُخرج عن جميع
المسلمين وأهل ذمتهم الحاصلين في محابس الروم، ممن أحاطت ببقية ربة الأُسُر،
وأشملت عليه قبضة الحضر والقصر، في قديم الأيام وحديثها، وبعيد الأوقات
وقريبها، المقيمين على أديانهم، والمختارين للعود إلى أوطانهم؛ وتضيئهم بما
يُنهض به أمتهم، وتُكثّرهم من البروز والمسير بنفوسهم وحريمهم وأولادهم وبناتهم
وأتباعهم، وأصناف أموالهم، مؤثّرين مضمّنين، متبدّرين محروسين، غير
ممنوعين، ولا معوقين، ولا مطالبين بمثوية ولا كلفة صغيرة ولا كبيرة.

وأن تُسلمَ تيمّة سبعة من الحصون، وهي: حصن أرحكاه المعروف بحصن
المهندس، وحصن السنانة، وحصن حبيب، وحصن اكل، وحصن انديب،
وحصن حالي، وحصن تل حرم، برساتيقها ومزارعها إلى من نُكتبتك بتسليمها إليه،
مع من بها من طبقات أهلها أجمعين، المختارين لسكناها والاستقرار فيها، بحريمهم
وأولادهم وأشباههم ومواشيهم وأصناف أموالهم وغلاتهم وأزوادهم وسلاحهم وآلاتهم،
ليكونَ جميعها حاصلاً في أيدينا وأيدي المسلمين، على غابر الأيام والسنين؛ من غير
أن تلتبسَ عنها أو عن شيء منها مالا، ولا بدّلاً، ولا عوضاً من الأعواض كلها.

وعلى أنك تُخفي ما عهده على نفسك من ذلك كله باباً باباً، وتبي به أولاً،
منذ وقت وصولك إلى أوائل أعمالك، وإلى غاية استيلائك عليها، وتقاد أمرك
فيها، ولا ترجع عن ذلك ولا عن بعضه، ولا تُؤخر شيئاً منه عن الوقت الذي يقدر
فيه عليه، ولا تُرخصَ لنفسك في تجاوز له ولا عدول عنه. ومتى سعت طامعة من
الطوائف التي تُنسبُ إلى الروم والأرمن وغيرهم في أمرٍ يخالف شرائط هذا الكتاب،

كان عليك منهم من ذلك إن كانوا من أهل الطاعة والقبول منك ، أو مجاهدتهم
ومماستهم إن كانوا من أهل العنود عنك ، والخلاف عليهم حتى تصرفهم عما يرومونه ،
وتحول بينهم وبين ما يحاولونه ، بمشيئة الله وإذنه ، وتوفيقه وعونه .

وأشترطت علينا بعد الذي شرطته لنا من ذلك التخليّة عن طريقك وطريقي من
تضمّنته بجلتك ، واشتغلت عليه رقتك : من طبقات الأصحاب والألعياع ، في جميع
أعمالنا حتى تنفّذ عنها إلى ما وراعا ، غير ممّوق ، ولا معتقل ، ولا مؤذّي ،
ولا معارض ، ولا مطالب بمشوّية ولا كُفّة ، ولا تمنّوج من أنبياء زائد ولا آله ،
ولا تؤثّر عليك أحدًا نأواك في أعبالك ، ونازعت سلطان بلادك ، وباضك عنه
وناصبت العدواة فيه : بمن ينسب إلى الروم والأرمن والخرزبة وسائر الأمم المضادة
لك ، ولا توقع معه صلحا عليك ، ولا موافقة على ما يهود بتلك أو قدح في أمرك ،
ولا تقبل سؤال سائل ، ولا بئل باذل ، ولا رسالة مرّاسل فيها خالف شرائط هذا
الكتاب أو عاد بإعلاؤه ، أو إعلال وبيّقه من نتائج .

ومنى وقد البنا رسول من جهة أحد من أضدادك ، راغبا إلينا في شيء يخالف
ما نعتقد بيننا وبينك - أمتنعنا من إجابه إلى ملّحمه ، ورددناه سائبا خاليا من
ملكه . وإذا سلمت الحصون المقّمت ذكرهما إلى من نكاتبك بالتسليم إليه ، كان لك
علينا أن نهرّ من فيها وفي رسائليها على نعمهم ومنّا لهم وضياعهم وأملاكم ،
وأن لا نزيّلهم عنها ولا عن شيء منها ، ولا نحول بينهم وبين ما نحويه أيديهم من جميع
أموالهم ، وأن نجرّهم في المعاملات والجابات على رؤسهم الجارية الماضية التي
عوملوا عليها ، على مرّ السنين ، وإلى الوقت الذي يقع فيه التسليم ، من غير فسح
ولا تغيير ولا قضي ولا تبديل .

فَأْتَيْنَا إِلَى مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الطَّائِعِ فِيهِ مَا سَأَلْتَ وَاتَّجَسَّتْ، وَصَحْنَتْ وَشَرَطَتْ
وَأَشْرَطَتْ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ؛ وَأَسْتَأْذَنَاهُ فِي قَبُولِهِ مِنْكَ، وَإِقْبَاجِ الْمُعَاهَدَةِ عَلَيْهِ مِنْكَ؛
فَأَذِنَ - أَدَامَ اللَّهُ تَمَكُّنَهُ - لَنَا فِيهِ، وَأَمَرَنَا بِأَنْ نَحْكُمَهُ وَنُخَصِّبَهُ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ أَنْتِظَامِ
الْأُمُورِ، وَجِبَاطَةِ الثُّغُورِ، وَصَلَاحِ الْمُسْلِمِينَ، وَالتَّنْفِيسِ عَنِ الْمَأْسُورِينَ .

فَأَمَضَيْنَاهُ عَلَى شُرَاطِهِ، وَتَرَضَيْنَا جَمِيعًا بِهِ، وَطَقْنَاكَ عَلَيْهِ، وَحَلَقْنَا لَنَا بِالْجَمِينِ الْمُؤَكَّدَةَ
الَّتِي يَحْلِفُ أَهْلُ شَرِيكَتِكَ بِهَا، وَيَهْرَجُونَ مِنَ الْحِنْثِ فِيهَا عَلَى الْوَقَايَةِ؛ وَأَشْهَدْنَا عَلَى
نُفُوسِنَا، وَأَشْهَدْتَ عَلَى نَفْسِكَ اللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ، وَمَلَائِكَتِهِ الْمُقَرَّبِينَ، وَأَنْبِيََاءِهِ الْمُرْسَلِينَ،
وَأَخَانَا وَوُدَّتَنَا أَبَا حَرِيبٍ رِوَابِ بْنِ شَهْرٍ أَكُوْبِهِ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْ حَضَرِ الْحِلَاسِ
الَّذِي بَرَّئَ فِيهِ ذَلِكَ، بِاسْتِقْرَارِ جَمِيعِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، وَلَزُومِهِ لَنَا وَلَكَ .

ثُمَّ حَضَرَ بَعْدَ تَمَامِ هَذِهِ الْمَوَاقِفَةِ وَأَسْتَمْرَارِهَا، وَثُبُوتِهَا وَأَسْتِقْرَارِهَا، قُسْطَنْطِينُ
ابْنُ بَيْنِيرٍ أَخُو وَرْدَسَ بْنِ بَيْنِيرٍ، وَأَرْمَاتُوسُ بْنُ وَرْدَسَ بْنِ بَيْنِيرٍ، فَوَقَعَا عَلَى هَذَا
الْكِتَابِ، وَأَحَاطَا بِهِ عِلْمًا، وَأَسْتَوْعَبَاهُ مَعْرِفَةً، وَشَهِدَا عَلَى وَرْدَسَ بْنِ بَيْنِيرٍ مَلِكِ الرُّومِ
بِإِقْرَارِهِ بِهِ، وَالْإِثْرَامَةِ لِيَاهِهِ . ثُمَّ تَبَرَّعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِأَنْ أُوجِبَ عَلَى نَفْسِهِ التَّمَسُّكُ
بِهِ وَالْمُقَامُ عَلَيْهِ مَتَى قَامَ وَرْدَسُ بْنُ بَيْنِيرٍ فِيهَا هُوَ مَوْسُومٌ بِهِ مِنْ مَلِكِ الرُّومِ، وَجَعَلَ
جَمِيعَ الشَّرَاطِطِ الثَّابِتَةِ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْمَقْصُودِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ أَمَانَةً فِي ذِمَّتِهِ، وَطَوْقًا
فِي عُنُقِهِ، وَهَذَا يُسَأَلُ عَنْهُ، وَحَقًّا يُطَالَبُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِهِ؛ وَصَارَ هَذَا الْعَقْدُ
جَامِعًا لَهُمْ وَلَنَا، وَلِأَوْلَادِنَا وَأَوْلَادِهِمْ، وَوَعَيْنَا وَوَعْيِهِمْ، مَا عَشْنَا وَطَاشُوا، يَلُومُنَا
وَالْيَأُمُّ الْوَفَاءُ بِمَا فِيهِ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِمْ، وَلَنَا وَلَهُمْ، عَلَى مُرُورِ الْقِيَالِ وَالْأَيَّامِ، وَأَخْتِلَافِ
الْأَدْوَارِ وَالْأَعْوَامِ .

أَمَضَى وَأَنْفَعَهُ تَحْمِيصُ الدَّوْلَةِ وَتَمَسُّسُ الْمِلَّةِ أَبُو كَالِيَجَارِ ذَلِكَ صُكُّهُ عَلَى شُرَاطِهِ
وَحُدُودِهِ، وَالْأَثَرَةُ وَرْدَسُ بْنُ بَيْنِيرٍ الْمَعْرُوفُ بِسُخْلَارُوسَ مَلِكِ الرُّومِ، وَأَخُوهُ

قُسَطنطين ، وأبنة أرماتوس بن وردس بن بينير ، وصَحَبُوا الوَقَّاهُ به ، وأشهدوا كلَّ واحدٍ منهم على نفوسهم بِالرَّضَا به ، طامعينَ غير مُكرِهين ولا مُجبرين ، لَاعِلَةً بهم من مَرَضٍ ولا غيره ، بعد أن قرأه عليهم ، وقسره لهم وساطبهم باللغة الرومية من وثيق به ، وقبَّهوا عنه ، وقبَّهوا معنى لَقِظْهُ ، وأحاطوا علماً ومعرفةً به ، بعد أن ملكوا نفوسهم ، وتصرفوا على اختيارهم ، وتمكَّنوا من إيتارهم ، ورأوا أن في ذلك حَقْلًا لهم ، وصلاًحاً لثانهم ، وذلك في شعبان سنة ست وسبعين وثلاثمائة .

وقد كُتِبَ هذا الكُتُبُ على ثلاث نسخٍ متساويات ، خُذْتُ اثنتين منها بدواوين مَينِيَّةِ السلام ، وسلمت الثالثة إلى وردس بن بينير ملك الروم وأخيه وأبنة المذكورين معه فيه .



وهذه نُسخةٌ هَدَيْتُ من مَلِكٍ مضعوفٍ لِمَلِكٍ قَوِيٍّ ، كُتِبَ بها الفقيه أبو عبد الله ابن ^(١) أحدُ كُتُبِ الأَنْدَلُسِ ، عن بعض ملوك الأَنْدَلُسِ من المسلمين ، من أتباع « المهدي بن تومرت » القائم بدعوة الموحدين ، مع « دون فرانده » صاحب قشتالة من ملوك القَرْمُجِ بِقَدِّ الصُّلَحِ على مُرْسِيَّةٍ من بلاد الأَنْدَلُسِ ، وهي : هذا عَقْدًا بعد استخارة الله تعالى واسترشاده ، وأستعانت به وأستعجله ؛ نيابةً عن الإمارة العَلِيَّةِ بِحُكْمِ أَسْتَدَانَا إلى أوامرِها العالية ، وآرائِها الحَسَّادِيَّةِ . عَقْدَناه - والله الموقِّعُ - لِقَشْتَالَةِ مع فلانِ النَّائِبِ في عَقْدِهِ معنا عن مُرْسَلِهِ إلينا ، المَلِكِ الأَجَلِّ الأَسْنَى المَجْبَلِّ « دون فرانده » مَلِكِ قَشْتَالَةِ ، وَطُلُطِلَةَ ، وَفَرْطَبَةَ ، وَلِيُونَةَ ، وَبَلَنْسِيَّةَ - أدام الله كرامته وميزته بتقواه - حين وصلنا من قبَلِهِ كُتُبٌ مَحْنُومٌ بِطَائِفِهِ المعلوم له المُتَعَارِفِ عنه ، تَقَوِيضًا منه إليه ، في كل ما يُعَقَّدُ له وعليه . وعَقْدَنا على أن يكونَ

السلم بيننا وبين مُرسِلِهِ المذكورَ لِعامَيْنِ آتَيْنِ ، أولُها شهرُ الحَرَمِ الذى هو أوَّلُ سَنَةِ تاريخِ هذا الكَلْبِ ، الموافقُ من الأشهرِ العَجِيبَةِ شهرَ كذا ، على جميعِ ما نَحْنُ نَظَرُنا الآنَ من البلادِ الرَّاجِعَةِ إلى الدَّعْوَةِ المَهْدِيَّةِ - أَسْمَاها الله تَعَالَى - حَوَاضِرِها وتُفَوِّرِها ، مَوَاسِطِها وأَطرافِها ، من جزيرةِ شَسَقَرِ إلى يَمَّةِ والمنصورة وما يليها - حرسِ الله جميعها - سَلَامًا مَحَافِظًا عليها من الجهتين ، مَحْفُوظًا مَهْجُها عندَ أهلِ المِلَّتَيْنِ ، لا غَدرَ فيها ، ولا إخلالَ في مَعْنَى من معانيها ، ولا تُشْنُ في مُنْهَبِ غَارِها ، ولا تُذَمَّرُ مَسِيرَها ، ومَهْما وقعَ اغوارُ ، أو حَدَثَ أقدارُ ، على جِهَةِ المِجَاهِرَةِ ، لِمَا أَتَصَلَّتْ والمُسَافِرَةِ ، فإن كانَ من جِهَةِ النصارى ، فعلى ملكِ قَسْطَلَةَ تُسْرِجُ لِالأسلَافِ ، ورَدُّ الفَتَانِ والتَّهَبِ ، والإنصافُ من النِّعْمَةِ إن عُدِمَتِ البِينُ ، وأَعُوذَ الطَّلَبُ . وعلينا مِثْلُ ذلكِ سِوَاهُ ، لِيُقَابَلَ بِالوَقَاءِ ؛ هذا بعدَ أن يُفِجَّ الأَمْرُ ويُعْلَمَ من أين كانَ .

ومن هذه المهادنة أن لا يُتَسَبَّبَ إلى الحُصُونِ بالسَّيْرِ ولا بالثَّرِّ ، ولا يُتَجَاوَزَ النصارى حُدُودَ بلادهم وأَرْضَهم بِنَيْءٍ من البِنَاءِ ، ولا يَصِلَ من بَلَدٍ قَسْطَلَةَ مَدَدُ نَحْائِلِنَا ، ولا مَعُونَةُ لُفَاتِنَا . وكل ما يَرِجِعُ إلى هذه الدَّعْوَةِ ، ويدخلُ في الطَّاعَةِ من البلادِ بعدَ هذا القَدِّ فَيَاخُلُ في السَّلَمِ ، بِزِيَادَةِ نِسْبَتِهِ من المالِ الذى هو شَرْطُ فِي صِحَّةِ هذا الحُكْمِ . وإذا بَقِيَ من مُدَّةِ هذه المُسَالَمَةِ شَهْرَانِ آتَيْنِ ، فعلى ملكِ قَسْطَلَةَ أن يُسَلِّمَنَا بِفَرَضِهِ في المهادنةِ أو سِوَاهَا ، إعلَامًا من مَنَاهِبِ الوَقَاءِ أَوْطَاهَا .

وقد أَلْتَمَسَ رَسولُ المذكورِ لنا هذه الشُّرُوطَ ، وأَحْكَمَ مِنَّا - نِيَابَةً عَنْهُ فِيهَا - المُقَوِّدَ والرُّبُوطَ ؛ على كُلِّ ما ذَكَرناه . وأَلْتَمَسْنَا في هذا السَّلَمِ لِمَلِكِ قَسْطَلَةَ المذكورةِ - مَكافَأَةً عن وَفَاءِ عَهْدِهِ ، وَحِجَّةِ عَقْدِهِ - مائةَ أَلْفِ دِينَارٍ وَاحِدَةٍ ، وأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ في كُلِّ عامٍ من عَامِي هذا الصُّلْحِ المُقَسَّمِ الوُصْفِ ، مَقَمًا ذلكَ على ثَلَاثَةِ أَثْنَمِ

في العام، ليقاضها بتمامه، ويوفى عنها على التمام والكمال، قبض منها كذا ليوصلها إلى مرسله، وأكرّم له تخليص باقى كذا عند آهضاء كذا على أوفى وجه وأجمل، فإن وُفِّى له بذلك بعد الأربعين يوما المؤقّعة، فالسّلم باقية وحكمها ثابت، وإلا فالسّلم مفسوخة ولا حكم لها إن عجز عن الوفاء له، بحصول ما بقى من الشروط في أنيصحاب الحكم وأتصل العمل، إن شاء الله تعالى .

وعلى ما تضمنه هذا الكتاب أمضى فلانٌ - أعزّه الله - بحكم النيابة، عن الأمر العالي - أسماء الله - هنا المقدّ الصليحي، وأشهد بما فيه على نفسه وحضره المصل طور (٩) المذكور، قرّج له الكتاب وبُيئت له معانيه، وقرّر على مضامينه، فالترم ذلك كله عن مرسله ملك قشالة حسب ما فوض إليه فيه، وأشهد بذلك على نفسه، في حقيقته وجواز أمره في كذا، والله الموفق لما يرضاه، ومقدّم الخير والخير فيما قضاه، بمته والسلام .

المذهب الثاني

(أن تفتح المهادنة قبل لفظ «هنا» بيمينية)

وهذه نسخة هندية بين ملكين متكافئين دون تقرير متى من الجانبين، كتب بها الفقيه المحدث أبو الرّبع بن سالم من كتاب الأتليس، في عقد صلح على بلنسية وغيرها من شرق الأتليس، ومعى :

وسيد، فهذا كتاب موادمة أمضى عقدها وأترمه، وأبرم عهدا وعمة ؛ فلان الملك أدغون، وقومط بريسوتنة، ويرنسبمقت بشل، حافظة (٩) بن طرة، بن أدغوش، ابن ريموند، أدام الله كرامته بقواه له خاتما وعنوانا، المعهود صدوره في أمثاله من المرافعات الصليحية تضرعا وإعلانا، متضمنا من الإحالة في عقد المسألة

عليه، والتفويض في إبرام أسبائيا والتزام قصورها وأبوابها إليه، ما أوجب صحيح النظر، وصريح الرأي المتبر؛ مقارنة فيه، وموافقة منه على ما يحفظ حق المسلمين ويوفي، جنوحا منه إلى ما جتح إليه من ذلك متقاضيه، وتحرياً للعمل على شاكلة الصواب والإيثار لما يقتضيه، بعد محاولات بلغ منها النظر فآيته من الاجتهاد، وإراغيات قرن بها من استخارة الله تعالى واستنجاده ما رضى فيه من فضله العميم منهود التسديد والإيجاد، فأجل ذلك عن إضفاء عهد السلم للملك أرغون على بلنسية وكافة جهاتها أطرافاً ومواسط، وتغوراً وبساتين، وكذلك شاطبة ودانيه، وما ينظم معهما من أحوازها ويرجع إلى حكم بلنسية وحالها من الجهة الثانية والدانية؛ لمدة عامين اثنين، خمسين متصليين، وأيام متصلة بهما كذلك. وهذا يمحصر أمره، ويحقق عدده؛ أن تفتحه يوم الأحد الرابع والعشرين لشهر نور، الموافق لما شير ذي القعدة المؤرخ به هذا الكتاب، الذي هو من عام أحد وعشرين وسبعمائة بتاريخ الهجرة - مسألة تضع بها الحرب بين الجانبين أوزارها، وعهد للهدنة بين الطامختين آثارها، وترفع اللبنة (٩) عن ذكر من الملتين أذيتها وأضرارها، البر والبحر في ذلك سين، والمسايرة فيها بالأذى والمجاهرة ممنوعان، وحقبة اللازم من ذلك غني بيلانه ووضوحه عن الإيضاح والتبيان؛ لا أنفاس ولا إشكال، ولا غائلة ولا أختيال؛ ليس إلا الأامن الكافل لكافة من تستل عليه كافة المواضع المذكورة من المسلمين، ومن تحويه بلاد ملك أرغون من الطوائف أجمعين. وكل منتم إلى خدمة هذه المملكة الأرغونية بما كان من وجوه الأتقاء، أو ناظر في جزء منها كائناً ما كان من الأجزاء؛ فهو في هذا الحكم داخل، وتحت هذا الريط الصلحي واصل؛ ولا حجة لمن كان له منهم حصن ينفرد به عن هذه المملكة، على ما لم في ذلك من العوائد المتعارفة. فإن نقض بجزء منه وذهب إلى أن يكون في حصنه منفرداً فهو

وما أختار، إذا تنكَّب الإضرار؛ فإن رام التطرُّق بشيء إلى أحد الجانبين كان على المسلمين وعلى أهل أَرْغُونَ الظاهرُ على استِزَالِهِ، والظاهرُ على قتالِهِ، حتى يَكْفُوا ضرَّره، ويَقْضُوا أثرَهُ.

والحدودُ الفاصلةُ بين الجزأين هي أوساطُ المسافات، على ما عُرِفَ من مُتَقَدِّمِ المسالمتِ؛ ويدكُلُ فريقٍ منهم مُطْلَقَةً فيما وراءَ حَدِّه بما شاء، من أنشاءِ رِسمِ الإصلاحِ والانتشاء؛ وكلٌّ من قصد المسلمين من رجالِ المملكةِ الأَرْغُونِيَّةِ رِسمًا من تَبَعَةِ الفسادِ فقبُولُ قصْدِهِ مُبَاحٌ، وليس في استِخدامِهِ والإحسانِ إليه جُنَاحٌ، والطريقُ للتَّجَارِ المَعْهُودِ وُصُولُهُمْ من بلادِ أَرْغُونَ إلى بَلَنْيَسَةَ في البَرِّ والبحرِ مُبَاحَةٌ الأَيْتَابُ، مَحْفُوفَةٌ بِالْأَمْنَةِ التَّامَّةِ فِي الْحَيَاقَةِ وَالنَّهَابِ؛ وعلى تِجَارِ البَحْرِ منهم أَنْ يَحْتَجِبُوا رُكُوبَ الْأَجْفَانِ الْحَرِيَّةِ الَّتِي يُمَكِّنُ بِهَا الْإِضْرَارَ، وَيَسْتَفِي عَنْ^(١) التَّجَارِ؛ وَالْأَسْتِزْهَابِ مَرْفُوعٌ عَنْ هَوْلَاءِ الْوَاصِلِينَ بِرِسمِ التَّجَارَةِ عَلَى اخْتِلَافِهِمْ، وَتَبَايُنِ أَصْنَافِهِمْ؛ فِيمَا لَمْ يَجْنِهِ أَيْدِيهِمْ، وَلَا كَانَ مَنُوبًا إِلَى تَعْدِيهِمْ؛ وَكُلُّ مُتَقَدِّمٍ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ بِأَذْنِ شَيْءٍ يَطْرُقُ إِلَى حُكْمِ هَذِهِ السَّلْمِ خِلَافًا، أَوْ يُلْحِقُ بِمَعْدَاهَا إِخْلَافًا؛ فَعَلَى أَهْلِ مَوْضِعِهِ الْإِنْصَافُ مِنْ جَنَاحِهِ، وَصَرْفُ مَا سَلَبَتْهُ يَدَاهُ، وَإِحْضَارُهُ مَعَ ذَلِكَ لِعَاقِبِ مَا أَنَاءَ. وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ أَنْ يَتَسَبَّبَ بِاسْتِزْمَالِ، إِلَى الْإِنْصَافِ مِنْ جَنَاحِهِ حَالٌ؛ بَلْ يَقُومُ بِتَقْضِيهِ ذَلِكَ حَيْثُ يُحِبُّ، وَيَطْلُبُهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يَنْبَغِي فِيهِ الطَّلَبُ، حَتَّى يَخَاطَبَ الظَّاهِرَ عَلَى الْمَمْلَكَةِ الَّتِي تُسَبِّتُ إِلَيْهَا هَذِهِ الْإِذَاذِيَّةُ، وَصَدَرَتْ عَنْ أَهْلِهَا [تِلْكَ] الْإِحْيَايَةُ؛ يَطْلُبُ الْإِنْصَافُ مِنْ عُدُوَانِهَا، وَتَعَادُلُهُ عَلَى الْأَعْدَارُ فِي شَأْنِهَا؛ وَعَلَيْهِ - وَلَا بَدَّ - التَّخْلِيصُ مِنْهَا عَمَلًا بِالْوَفَاءِ الَّذِي يَحِبُّ الْعَمَلُ بِهِ، وَقِيَامًا بِحَقِّ الْمَهْدِ الَّذِي أَكَّدَ الْأَعْتِلَاقُ بِسَبِيهِ؛ وَمَتَى غَادَرَ مَقَادِرَ مِنْ أَحَدِ الْمَلِكَيْنِ حِصْصَةً مِنْ حُصُونِ

(١) بياض بالأمول وله ٥ عن وكريها .

الأحرى لله الأمن على الكمال، والرغنى الحافظ للنفيس والمال؛ حتى يلحق بأمته، ويعود سلباً إلى وطنه.

فعلى هذه الشروط المحققة، والرؤوس الموقفة، انعقد هذا السلم، وعلى من ذكر من المسلمين وأهل أرغون الحكم؛ وهذا الكتاب ينطق في ذلك بالحق اللازم للعائفتين، ويغرب عن حقيقة ما انعقد بين من سمي من أهل الملثين؛ وألزم كله عن ملك أرغون النائب عنه بتفويضه إليه، واستنابته إياه عليه؛ الزعم بطره أب ندادف بكديش (٩) على أتم وجه الأكرام، وأبرم ذلك ملك أرغون بأوتق ملائق الإبرام، وكل ذلك بعد أن بينت له الفصول المتضمنة غاية التبيين وأتمها حق الإنفهام؛ وألزم نفسه مع ذلك وصول كتاب هذا الملك الذي تولى النيابة عنه في هذا العقد، مصرحاً بإكترامه وإمضائه فيه عمله، وفق ما تضمنه كتابه الذي أرسله، وأشهد مع ذلك زعماء دولته وكبراء القائمين عليه، تحقيقاً لمعناه، وتوثيقاً لمبناه، إن شاء الله تعالى.

النوع الثاني

(من المحدث الواقعة بين ملك مسلم وملك كافر - أن تكون الهدنة

من الجانبين جميعاً)

وفيهما للكتاب ثلاثة مذاهب :

المذهب الأول

(أن تفتح الهدنة بلفظ : «هذه هدنة» ونحو ذلك)

قال في «التعريف» : وسيل الكتاب فيها أن يكتب بعد البسملة : هذه هدنة استقرت بين السلطان فلان والسلطان فلان، هادئ كل واحد منهما الآخر على الوفاء عليه، وأجل له أجلاً ينتهي إليه؛ لما اقتضته المصلحة الجامعة، وحُسمت به مواد

الآمالِ الطَّامِعِ ؛ تَاكَّدَتْ بَيْنَهُمَا أَسْبَابُهَا ، وَفُتِحَتْ بَيْنَهُمَا أَبْوَابُهَا ؛ وَعَلَيْهِمَا عَهْدُ اللَّهِ عَلَى الْوَفَاءِ بِشَرْطِهَا ، وَالْإِكْتِهَاءِ إِلَى أَمَدِهَا ، وَمَدَّ حَيْلَ الْمُوَادَعَةِ إِلَى آخِرِ مُدَدِهَا ؛ ضَرَبَا لَهَا أَجَلًا أَوَّلُهُ سَاعَةٌ تَارِيخُهُ وَإِلَى نَهَايَةِ الْمُدَّةِ ، وَهِيَ مُدَّةٌ كَذَا وَكَذَا ؛ عَلَى أَنْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُعْمِدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَرِيحِهِ سَيْفَ الْحَرْبِ ، وَيَكُفُّ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ السَّهَامِ الرَّاشِقَةِ ، وَمُقْتَلِ الرَّمَاثِ الْخَطَّاطَةِ ، وَتُقَرَّرُ عَلَى مِرَابِطِهَا الْخَيْلُ الْمُغْنِيَةُ . وَبِلَادُ السُّلْطَانِ فَلَانٍ كَذَا وَكَذَا ، وَبِلَادُ السُّلْطَانِ فَلَانٍ كَذَا وَكَذَا ، وَمَا فِي بِلَادِ كُلِّ مِنْهُمَا مِنَ الثَّقُورِ وَالْأَطْرَافِ وَالْمَوَاتِي وَالرَّسَاتِيقِ وَالْجِهَاتِ وَالْأَعْمَالِ : بَرًّا وَبَحْرًا ، وَنَهْلًا وَجَبَلًا ، وَنَائِيًا وَدَانِيًا ، وَمَنْ فِيهَا : مِنْ مَلِكِهَا الْمَسْمُومِ وَبَيْتِهِ ، وَأَهْلِهِ وَأَمْوَالِهِ ، وَجُنْدِهِ وَعَسَاكِرِهِ ، وَنَخَاصٍ مِنْ يَتَعَلَّقُ بِهِ وَسَائِرِهِ ؛ وَرَعَايَاهُ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِمْ ، وَعَلَى اخْتِرَادِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ ؛ الْبَادِي وَالْحَاضِرُ ، وَالْمَقِيمُ وَالسَّائِرُ ، وَالتَّجَارُ وَالسَّفَارَةُ ، وَجَمِيعُ الْمُتَرَدِّدِينَ مِنْ [سَائِرِ] النَّاسِ أَجْمَعِينَ . عَلَى أَنْ يَكُونَ عَلَى فَلَانٍ كَذَا وَ[عَلَى فَلَانٍ] كَذَا [وَعَيْنَ مَا يَمِينُ] ^(١) : مِنْ مَالٍ ، أَوْ بِلَادٍ ، أَوْ مَسَاعِدَةٍ فِي حَرْبٍ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ، يَقُومُ بِذَلِكَ لِمُصَاحِبِهِ ، وَيَنْهَضُ مِنْ حَقِّهِ الْمَقَرَّرِ بِوَجْهِهِ ؛ وَعَلَيْهِمَا الْوَفَاءُ الْمُؤَكَّدُ الْمَوَاتِيْقِ ، وَالْمَحَافِظَةُ عَلَى الْعَهْدِ وَالنَّهْضُ بِسَبِيهِ الْوَثِيقِ - هَذِهِ صَحِيحَةٌ صَرِيحَةٌ ، تَطْلُقُ بِهَا ، وَتَصَادَقُ طَلِبُهَا ، وَعَلَى مَا تَقَضَّمَتْهُ الْمَوَاصِفَةُ [الْمُسْتَوْجِبَةُ بَيْنَهُمَا فِيهَا ، وَأَشْهَدُ اللَّهُ عَلَيْهِمَا بِمَضْمُونِهَا ، وَتَوَاقَعَا عَلَى ذُبُونِهَا ، وَشَهِدَ مَنْ حَضَرَ مَقَامَ كُلِّ مِنْهُمَا عَلَى هَذِهِ الْمُدَّةِ وَمَا تَقَضَّمَتْهُ مِنَ الْمَوَاصِفِ] ^(٢) ، وَجَرَتْ بَيْنَهُمَا عَلَى حُكْمِ الْمُتَنَاصَفِ ، رَأْيَا فِيهَا سُكُونُ الْجَمَاحِ ، وَغَضُّ طَرْفِ الطَّلَاحِ .

وَعَلَى أَنْ عَلَى كُلِّ مِنْهُمَا رِغَايَةٌ مَا جَاوَرَهُ مِنَ الْبِلَادِ وَالرَّيْعَةِ ، وَحَمْلَتُهُمْ فِي قَضَائِيَاهُمْ عَلَى الْوُجُوهِ الشَّرْعِيَّةِ ؛ وَمَنْ تَزَحَّ مِنْ إِحْدَى الْمَمْلُوكَتَيْنِ إِلَى الْأُخْرَى أُعِيدَ ، وَمَا أُخِذَ مِنْهَا بِالْيَدِ الْغَاصِبَةِ أَسْتُعِيدَ ؛ وَهَذَا تَمَّ الْإِشْهَادُ ، وَقُرِئَ عَلَى الْمَسَامِعِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ .

المذهب الثاني

(أن تُنْتَحَ المُنْدَنَة : بلفظ : « آسَقَرَتِ المُنْدَنَة بين فلان وفلان »
ويُقَدَّم فيه ذِكْرُ المَلِكِ المُسْلِمِ)

وعلى ذلك كانت المُنْدَنُ تُكْتَبُ بين ملوك الديار المصرية ، وبين ملوك القَرْجِجِ ،
المتغلبين على بعض البلاد الشامية .

وهذه نُسخة مُنْدَنَةٍ على هذا النَظْمِ . دُونَ تَنْوِيرٍ مِنَ الجَانِبَيْنِ ؛ كُتِبَتْ بَيْنَ المَلِكِ
الظَّاهِرِ « بَيْرِسِ البَنْدَقْدَارِي » صَاحِبِ الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ ، وَبَيْنَ الأَسِيَّارِ بِحَضْرَةِ
الأَكَرَادِ وَالمَرْقَبِ ، فِي رَابِعِ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ تَحْمِيسٍ وَسِتِينَ وَسَمْتَاةٍ ، وَهِيَ :

آسَقَرَتِ المُنْدَنَةُ المَبَارَكَةُ المِيعُونَةُ بَيْنَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ المَلِكِ الظَّاهِرِ رُكْنِ الدِّينِ
أَبِي الفَتْحِ « بَيْرِسِ » الصَّالِحِي النَّجْمِيَّ ، وَبَيْنَ المَقْدَمِ الكَبِيرِ المُهَيَّأِ فُلَانٍ مُقَدَّمِ بَيْتِ
الأَسِيَّارِ الفُلَانِي بَعْكَاءَ ، وَالبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ ، وَبَيْنَ فُلَانٍ مُقَدَّمِ حِصْنِ الأَكَرَادِ ، وَبَيْنَ
فُلَانٍ مُقَدَّمِ حِصْنِ المَرْقَبِ ، وَجَمِيعِ الإِخْوَةِ الأَسِيَّارِ ، لِمُدَّةِ عَشْرِ سِنِينَ مُتَوَالِيَةٍ
وَعَشْرَةِ أَشْهُرٍ وَعَشْرَةِ أَيَّامٍ وَعَشْرِ سَاعَاتٍ : أَوَّلَهَا يَوْمُ الاِثْنَيْنِ رَابِعُ رَمَضَانَ سَنَةِ
تَحْمِيسٍ وَسِتِينَ وَسَمْتَاةٍ مِنَ الهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ،
المَوَافِقِ لِلْيَوْمِ الثَّلَاثِينَ مِنْ أَيَّامِ سَنَةِ أَلْفٍ وَتَحْمِيسَاةٍ وَتِسْعَةٍ وَسَبْعِينَ سَنَةٍ

لِلْإِسْكَندَرِ بْنِ فِيلِيسِ البُيُوتَانِيِّ - عَلَى أَنْ جَمِيعَ المَمْلَكَةِ الخِصْمِيَّةِ وَالتَّشِيرِيَّةِ وَالتَّجَوِيَّةِ
وَبِلَادِ الدَّعْوَةِ المَبَارَكَةِ ، وَاقَعَتْ عَلَيْهَا الاِخْتِلَافُ المَبَارَكُ ، وَمُسْتَقَرَّةٌ لَهَا هَذِهِ المُنْدَنَةُ المِيعُونَةُ
بِجَمِيعِ حُدُودِ هَذِهِ المَمَالِكِ المَعْرُوفَةِ ، وَبِلَادِهَا المَوْصُوفَةِ ؛ وَقُرَاهَا وَضِيَاعِهَا ، وَسَبِيلِهَا
وَجَبِيلِهَا ، وَطَائِرِهَا وَظَامِرِهَا ، وَمَزْرُوعِهَا وَمُعْطَلِهَا ، وَطُرُقَاتِهَا وَمَبَاهِجِهَا ، وَقَلَاعِهَا

(١) الأسيتار بتقديم الموحدة على التاء هو رئيس الطائفة الدينية المعروفة في الكتب العربية بالاسبتارية .

(٢) يخاض بالأصول .

وَحُصُونَهَا - عَلَى مَا يَفْضُلُ فِي كُلِّ مَمْلَكَةٍ، وَيُسَرَّحُ فِي هَذِهِ الْمُدُنَةِ الْمُبَارَكَةِ لِلدَّيَةِ الْمُتَبَيَّنَةِ إِلَى آخِرِهَا .

وَعَلَى أَنْ الْمُسْتَقَرَّ بِمَمْلَكَةٍ خَصَّ الْمَحْرُوبَةِ أَنْ جَمِيعَ الْمَوَاضِعِ وَالْقُرَى وَالْأَرْضِ الَّتِي مِنْ نَهْرِ الْعَاصِي، وَتَقَرَّبَ إِلَى الْحَدِّ الْمَعْرُوفِ مِنَ الْقَرْيَةِ لِبَلَدِ الْمُنَاصَفَاتِ : عَاصِمًا وَدَائِرًا، وَمِمَّا فِيهَا مِنَ الْفَلَاتِ صَغِيرًا وَكَبِيرًا، وَالْعِدَادِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْفَوَائِدِ جَمِيعًا - تَقَرَّرَ أَنْ يَكُونَ النِّصْفُ مِنْ ذَلِكَ لِلْسلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ رُحْمَى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَبُو الْفَتْحِ «بِيرِس» ، وَالنِّصْفُ لِبَيْتِ الْإِسْتِخَارِ .

وَعَلَى أَنْ كَلَّامًا مِنَ الْجُهَتَيْنِ يَتَّخِذُ وَيُخَرِّصُ فِي عِمَارَةِ بَلَدِ الْمُنَاصَفَاتِ الْمَذْكُورَةِ بِجِهَتِهِ وَطَاقَتِهِ، وَمَنْ دَخَلَ إِلَيْهَا مِنَ الْفَلَاحِينَ بِدَوَابِّ، أَوْ مِنَ الثَّرَاكِينِ، أَوْ مِنَ الْعَرَبِ، أَوْ مِنَ الْأَكْرَادِ، أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ، أَوْ الْفَتَاةِ - كَانَ عَلَيْهِمُ الْعِدَادُ بِكَارِي الْعَادَةِ . وَيَكُونُ النِّصْفُ لِلْسلْطَانِ، وَالنِّصْفُ لِبَيْتِ الْإِسْتِخَارِ .

وَعَلَى أَنْ الْمَلِكَ الظَّاهِرَ يَجْعَلُ بَلَدَ الْمُنَاصَفَاتِ الْمَقْدَمَ ذِكْرُهَا مِنْ جَمِيعِ عَسْكَرِهِ وَأَتْبَاعِهِ، وَمَنْ هُوَ فِي حُكْمِهِ وَطَاعَتِهِ، وَمِنْ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ الْبَاطِلِينَ فِي طَاعَتِهِ كَافَّةً . وَكَذَلِكَ مَقْدَمَ بَيْتِ الْإِسْتِخَارِ وَأَصْحَابِهِ يَحْمُونَ بِلَادَ مَوْلَانَا الْسلْطَانِ الْدَّخِلَةِ فِي هَذِهِ الْمُدُنَةِ .

وَعَلَى أَنْ جَمِيعَ مَنْ يَتَعَدَّى نَهْرَ الْعَاصِي مُغْرِبًا لِرَغْوِ دَوَابِّهِ : سِوَاهُ أَقَامَ أَوْ لَمْ يَأْتِ، كَانَ عَلَيْهِ الْعِدَادُ سِوَى قَنَاطَةِ الْبَلَدِ وَدَوَابِّهِ، وَمَنْ يَخْرُجُ مِنْ مَدِينَةِ حِمَصَ وَيَعُودُ إِلَيْهَا، وَمَنْ عَرَبَ مِنْهُمْ وَمَاتَ كَانَ عَلَيْهِ الْعِدَادُ .

وَعَلَى أَنْ يَكُونَ أَمْرُ فَلَاحِي بَلَدِ الْمُنَاصَفَاتِ فِي الْحَبْسِ وَالْإِطْلَاقِ وَالْجَلَايَةِ رَاجِعًا إِلَى نَائِبِ مَوْلَانَا الْسلْطَانِ، بِاتِّفَاقٍ مِنْ نَائِبِ بَيْتِ الْإِسْتِخَارِ، عَلَى أَنْ يَحْكُمَ فِيهِ بِشَرْعَةِ الْإِسْلَامِ إِنْ كَانَ مُسْلِمًا، وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا يَحْكُمُ فِيهِ بِمَقْتَضَى دَوْلَةِ حِمَصَ الْأَكْرَادِ .

وأن يكونَ الفلاحونَ الساكنونَ في بلادِ المناصِفاتِ جميعها مُطلقينَ من السُّخْرِ من الجانيينَ .

وعلى أن المَلِكَ الظاهرَ لا يأخذُ في بَلَدِ المناصِفاتِ المذكورةِ : من تُركانٍ ولا عَرَبٍ ولا أَتْكِادٍ ولا غَيْرِهِم عِدَادًا ولا حَقًّا من حقوقِ بَلَدِ المناصِفاتِ ، إلا ويكونُ النِّصْفُ منه لِلْمَلِكِ الظاهرِ ، والنِّصْفُ الآخرُ لِبَيْتِ الأَسِيَّارِ .

وعلى أن المَلِكَ الظاهرَ لا يَتَقَسَّمُ بمنعُ أَحَدٍ من الفَلَّاحينَ المعروفينَ بِسُكْنَى بلادِ المناصِفاتِ من الرُّجوعِ إليها ، والسَّكْنِ فيها إذا أَخْتَارُوا العَوْدَ . وكذلك يَبْتَ الأَسِيَّارِ لا يمنعونَ أَحَدًا من الفَلَّاحينَ المعروفينَ بِسُكْنَى بلادِ المناصِفاتِ من الرُّجوعِ إليها والسَّكْنِ فيها إذا أَخْتَارُوا العَوْدَ .

وعلى أن المَلِكَ الظاهرَ لا يَمْنَعُ أَحَدًا من العُرَبِ والتُّركِ وغيرِهِم : مِمَّنْ يُودَى العِدَادَ ، من الدُّخُولِ إِلَى بَلَدِ المناصِفاتِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُحَارِبًا لِبَعْضِ القَرَبِجِ الداخليينَ في هذه المَدِينَةِ ، فله المَنعُ من ذلك . وَأَنْ تَكُونَ خُشَارَاتُ الْمَلِكِ الظاهرِ وَخُشَارَاتُ عَسَاكِرِهِ وَغِلْمَانِهِمْ وَأَهْلُ بَلَدِهِ تَرعى في بلادِ المناصِفاتِ أَمِنَةً من القَرَبِجِ والنَّصَارَى كافَّةً . وكذلك خُشَارَاتُ بَيْتِ الأَسِيَّارِ وَخُشَارَاتُ عَسْكَرِهِمْ وَغِلْمَانِهِمْ وَأَهْلُ بَلَدِهِمْ تَرعى أَمِنَةً من المسلمينَ كافَّةً في بَلَدِ المناصِفاتِ . وعندَ خروجِ الخُشَارَاتِ من المَرَاغَى وتَسْلِيمِهَا لِأَمْحَابِهَا ، لا يُؤْخَذُ فيها حَقٌّ ولا عِدَادٌ ولا تُعَارَضُ من الجَلْهَتَيْنِ .

وعلى أن تَكُونَ مِقْصِدَةُ السَّلَاحِ الرُّومِيَّةِ مِمَّا تَحْصَلُ مِنْهَا ، يَكُونُ النِّصْفُ مِنْهُ لِلْمَلِكِ الظاهرِ والنِّصْفُ لِبَيْتِ الأَسِيَّارِ . وكذلك المَصَايِدُ الَّتِي فِي الشَّطِّ الغَرِبِيِّ من العاصِي يَكُونُ النِّصْفُ مِنْهُ لِلْمَلِكِ الظاهرِ والنِّصْفُ لِبَيْتِ الأَسِيَّارِ . وَيَكُونُ لِبَيْتِ الأَسِيَّارِ فِي كُلِّ سَنَةٍ خَمْسُونَ دِينَارًا صُورِيَّةً عَنِ القَشِّ ، وَيَكُونُ القَشُّ جَمِيعُهُ لِلْمَلِكِ الظاهرِ يَتَصَرَّفُ تَوَابُهُ فِيهِ عَلَى حَسَبِ اخْتِيَارِهِمْ . وَيَكُونُ اللَّيْنُوقُ مَنْاصِفَةً : النِّصْفُ

منه لَمَّا الظاهر والنَّصَفُ لَيْتَ الْإِسْتِارَ . وَتَحْزَرُ أَنَّ الطَّاحُونَ الْمُسْتَجِدَّ الْمَعْرُوفَ
بِأَنْشَاءِ بَيْتِ الْإِسْتِارِ، الَّذِي كَانَ حَصَلَ الْحَرْبِ فِيهِ، وَالْبُسْتَانُ الَّذِي هُنَاكَ الْمَعْرُوفُ
بِأَنْشَاءِ بَيْتِ الْإِسْتِارِ أَيْضًا يَكُونُ مُنَاصِفَةً . وَأَنْ يَكُونَ مُتَوَلَّى أَمْرِهِمَا نَائِبٌ مِنْ جِهَةِ
تَوَابِ السُّلْطَانِ وَنَائِبٌ مِنْ جِهَةِ بَيْتِ الْإِسْتِارِ ، يَتَوَلَّى أَمْرَهُمَا وَتُصَرَّفُ فِيهِمَا
وَقَبَضُ مُتَحَصِّلِهِمَا . وَتَحْزَرُ أَنَّ مَهْمَا يَجِدُّهُ بَيْتُ الْإِسْتِارِ عَلَى الْمَاءِ الَّذِي تَقْدُرُ بِهِ
الطَّاحُونَ وَيَسْقِي الْبُسْتَانَ مِنَ الطَّوَّاحِينَ وَالْأُبْنَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، يَكُونُ مُنَاصِفَةً بَيْنَ الْمَلِكِ
الظَّاهِرِ وَبَيْنَ بَيْتِ الْإِسْتِارِ .

وَأَمَّا الْمُسْتَقَرُّ بِمَمْلَكَةِ شِيزَرِ الْمَحْرُوسَةِ ، فَهِيَ شِيزَرُ ، وَأَبُو قَيْسٍ وَأَعْمَالُهُ ، وَغَيْبَاتُ
وَأَعْمَالُهَا ، وَنِصْفُ زَاوِيَةِ بَقْرَاسِ الْمَعْرُوفَةِ بِحِمَايَةِ بَيْتِ الْإِسْتِارِ وَأَعْمَالُهَا ، وَجَمِيعُ
أَعْمَالِ الْمَمْلَكَةِ الْكُشْمُورِيَّةِ وَالْبِلَادِ الْمَذْكُورَةِ بِمُحْدُوذِهَا الْمَعْرُوفَةِ بِهَا ، وَقُرَاهَا الْمُسْتَقَرَّةُ
بِهَا ، وَسَهْلُهَا وَجَبَلُهَا وَطَامِرُهَا وَغَامِرُهَا .

وَمَا اسْتَقَرَّ بِمَمْلَكَةِ الْمَلِكِ الْمُتَّصُورِ ، نَاصِرِ الدِّينِ «مُحَمَّدُ» بْنِ الْمَلِكِ الْمُظْفَرِ أَبِي الْقَتَنِحِ
«مُحَمَّدُ» بْنِ الْمَلِكِ الْمُتَّصُورِ «مُحَمَّدُ» بْنِ عَمْرِ بْنِ شَاهَنْشَاهِ بْنِ أَيُّوبَ فَهِيَ : حِمَاةُ
الْمَحْرُوسَةِ وَقِلَاعُهَا وَمُنْشَا ، وَلِلْمَعْرَِّةِ وَقُرَاهَا وَسَهْلُهَا وَجَبَلُهَا وَأَنْهَارُهَا ، وَمَنَافِصُهَا وَثَمَارُهَا
وَعَامِرُهَا وَغَامِرُهَا ، وَبِلَادُ رُقِيَّةِ وَبِلَادُ بَارِينَ بِمُحْدُوذِهَا وَثُغُمُهَا وَعَامِرُهَا وَدَائِرُهَا
وَجَمِيعُ مَنْ فِيهَا وَمَا فِيهَا . عَلَى أَنَّ الْمَلِكَ الْمُتَّصُورَ لَا يَرْخُصُ لِلتَّرْكَانِ وَلَا لِلْعَرَبِ أَنْ
يَقْرَءُوا بِلَدَ رُقِيَّةِ وَبَارِينَ سِوَى ثَلَاثِينَ بَيْتًا يَحْمِلُونَ الْقَلْعَةَ لِقَلْعَةِ بَارِينَ ، وَإِنْ أَرَادُوا
الزِّيَادَةَ يَكُونُ بِمَرَاجِعَةِ الْإِخْوَةِ الْإِسْتَارِيَّةِ وَالْإِتِّفَاقِ مَعَهُمْ عَلَى ذَلِكَ .

وَعَلَى أَنَّهُ إِنْ تَعَدَّى أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ بِأَذْيَةٍ ، أَوْ تَعَدَّى أَحَدٌ مِنَ الْقَرَنِيَّةِ فِي بِلَادِهِ
بِأَذْيَةٍ ، كَانَتْ الْمُهْلَةُ فِي ذَلِكَ تَحْمَةً عَشْرَ يَوْمٍ ، فَإِنْ أَنْكَشَفَتِ الْأَخْبِيذَةُ ،

أعبدت . وإلا تُحْفَظِ الْجَهَنَّةُ الْمُدْعَى عليها أنها ما عَلِمَتْ وما أَحَسَّتْ ، وكما لَمْ ،
كذلك عَلِيمٌ .

والمستقر لملكة الصاحيتين : نَجْمُ الدِّينِ وَبَحَالِ الدِّينِ ، والأَمِيرُ صَارِمُ الدِّينِ نَائِي
الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ ، وَوَلَدُ الصَّاحِبِ رَضَى الدِّينِ ، وهى : مِصْبَايُفُ والرَّصَافَةُ وَبِجْعُ
قِلَاعِ الدَّعْوَةِ وَحُصُونِهَا وَسَبُلُهَا وَوَعْرُهَا وَعَامِرُهَا وَدَائِرُهَا ، وَمُنْتَهَا وَبِلَادُهَا ،
وَضِيَاعُهَا وَمُطَرَفَاتُهَا ، وَمِيَاهُهَا وَمَتَابِعُهَا ، وَجَمِيعُ بِلَادِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ بِجَمَلِيَّ بَهْرًا وَلِلْمُكَلَّمِ ،
وَكُلُّ مَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ حُنُودُ بِلَادِ الدَّعْوَةِ وَتَحْتُمُوهَا - أَنْ يَكُونَ الْجَمِيعُ آمِنِينَ مِنْ عُلَى
الرَّصِيفِ الَّذِى بَشَّرَ إِلَى نَهَايَةِ الْأَرْضِ الَّتِى مُحْصُونُ الدَّعْوَةِ وَبِلَادُهَا . وَحِمَايَةُ
الْقَرْيَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِمِرْطَارِ (٩) يَكُونُ لَهُ أَسْوَةُ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ . وَإِنْ عَلِمَ الْأَحْصَابُ أَنَّ أَحَدًا
مِنَ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ قَدْ حَبَرَ إِلَى بَيْتِ الْإِسْتِبَارِ الْأَذْيَةِ ، أَعْلَمُوا بَيْتَ الْإِسْتِبَارِ قَبْلَ أَنْ تَجْرِيَ
أَذْيَةُ ، وَمَا لَمْ يَعْلَمُوا بِهِ عَلَيْهِمُ الْيَمِينُ أَنَّهُمْ مَا عَلِمُوا بِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَحْلِفُوا بِرَدِّهَا الْأَذْيَةِ
الَّتِى تَجْرِي .

وَيَحْذَرُ أَنْ يَكُونَ قَلَاوُحُ بَيْتِ الْإِسْتِبَارِ رَائِحِينَ وَغَائِدِينَ وَمَتَصَرِّفِينَ فِي بَيْعِهِمْ
وِشْرَانِهِمْ ، مَطْمَئِنِّينَ لَا يَتَمَدَّى أَحَدٌ عَلَيْهِمْ . وَكَذَلِكَ جَمِيعُ فَلَاحِي بِلَادِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ
لَا يَتَمَدَّى أَحَدٌ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْ يَكُونُوا آمِنِينَ مَطْمَئِنِّينَ فِي جَمِيعِ بِلَادِ الْإِسْتِبَارِيَّةِ ، وَإِنْ
تَعَدَّى أَحَدٌ مِنَ الْجَهَنِّينَ فِي سُوقٍ أَوْ طَرِيقٍ ، فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، تَكُونُ الْمَهْلَةُ خَمْسَةَ عَشَرَ
يَوْمًا ، فَإِنْ رَدَّتْ الشَّكْوَى كُلُّهَا فَمَا يَكُونُ إِلَّا الْخَيْرَ بَيْنَهُمْ ، وَمِنْ تَوَجُّهَتْ عَلَيْهِ الْيَمِينُ
حَلْفٌ ، وَمِنْ لَمْ يَفْعَلْ يَحْلَفُ وَإِلَّا يَرُدُّ الْأَذْيَةَ . وَتَكُونُ الْقَبِيحَةُ الَّتِى رَهَنًا عَبْدُ الْمَسِيحِ
رَبِيسُ الْمَرْقَبِ الْإِسْتِبَارِ ، وَهِيَ الْمَشْرِيقَةُ تَكُونُ آمَنَةً إِنْ كَانَ الْحَالُ آسَاقًا عَلَيْهَا إِلَى
أَنْعَرُوقِيَّتٍ عِنْدَ كَلْبَةِ هَذِهِ الْمُدَّةِ الْمُبَارَكَةِ بَيْنَ الْأَحْصَابِ وَأَحْبَابِهِمْ . وَيَحْمِلُ الْأَمْرُ
فِي الْحَقِيقَةِ .

ويطلق ما هو على بلاد الدعوة المباركة من جميع مآليات الاستبصار على حماية مضايقات والرصافة، وهو في كل سنة ألف ومائتا دينار قومسية، ونحسون مئدا حنطة، ونحسون مئدا شعيرا، ولا تنق قطيعة على بلاد الدعوة جميعها، ولا يتعرض بيت الاستبصار ولا توأبهم ولا غلباتهم إلى طلب قديم من ذلك ولا جديد، ولا متكرر ولا ماض، ولا حاضر ولا مستقبل على اختلافه .

وتقرر أن تكون جميع المباحات من الجهتين مطلقا مما يختص بالملكية المحصية، يسترق بها الصعاليك . وأن توأب الملك الظاهر يحمونهم من أذية المسلمين من بلاده المذكورة، وأن توأب بيت الاستبصار يصونونهم ويحرسونهم ويحمونهم من التصاريف والقرع من جميع هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة . ولا يتعرض أحد من المسلمين كافة من هذه البلاد الداخلة في [هذه] الهدنة [إلى بلاد الاستبارية] بأذية ولا إغارة، ولا يتعرض أحد من جميع القرعة من هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة بمجذودها الجارية في يد توأب الاستبصار في أيديهم، إلى بلاد الملك الظاهر بأذية ولا إغارة .

وعلى أنه متى دخل في بلاد المناصقات أحد من يجب عليه العدا وأمنع من ذلك، وكان عدا إحدى الجهتين حاضرا : إما عدا ديوان الملك الظاهر، إما عدا بيت الاستبصار، فلنائب العدا الحاضر من إحدى الجهتين أن يأخذ من ذلك الشخص المحتج عن العدا أو الخارج من بلد المناصقات رهنا بمقدار ما يجب عليه من العدا، بحضور رئيس من رؤساء بلد المناصقات، ويترك الرهن عند الرئيس ودعة إلى أن يحضر النائب الآخر من الجهة الأخرى، ويوصل إلى كل من الجهتين حقه من العدا .

وإن خرج أحد من يجب عليه العدا، ونجى النائب الحاضر عن أخذ رهنه : فإن دخل بلدا من بلاد الملك الظاهر، كان على التواب إبطال بيت الاستبصار إلى حقه

مما يجب على الخارج من العباد . وكذلك إن دخل الخارج المذكور إلى بيت الاستار، كان عليهم أن يوصلوا إلى ثواب الملك الظاهر حقهم مما يجب على الخارج من العباد . وكذلك يتمد ذلك في المملكة الحوية وبلاد الدعوة المحروسة .

وعلى أن التجار والسفّار والمترددين من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آمينين من الجهتين : الجهة الإسلامية ، والجهة الفرنجية والنصرانية ، في البلاد التي وقعت هذه الهدنة عليها - على النفوس والأموال والدواب وما يتعلق بهم ، يحميم السلطان وثوابه ، ويتعاهدون البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصيفات - من جميع المسلمين . ويحميم بيت الاستار في بلادهم الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصيفات - من الفرنج والنصارى كافة .

وعلى أن يتردد التجار والمسافرون من جميع المترددين على أى طريق اختاروه من الطرق الداخلة في عقد هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة المختصة بالملك الظاهر ، وبلاد مهاديه ، وبلاد المناصيفات ، وخاص بيت الاستار والمناصيفات ، يكونوا الساكنون والمترددون ، في الجهتين آمينين مطمئنين على النفوس والأموال ، يحمي كل جهة الجهة الأخرى .

وعلى أن ما يختص بكل جهة من هذه الجهات : الإسلامية ، والفرنجية الاستبارية . لا يكون عدداً على ما تحب في المناصيفات : من الدواب والغنم والبقر والحمال وغيرها ، على العاد المقررة في ذلك .

وعلى أن إطلاق الرقبة لا يكون ما تنافي من الجهتين : الإسلامية ، والفرنجية الاستبارية . ومتى وقعت دعوى على الجهة الأخرى ، وقف أمرها في الكشف عنها أربعين يوماً ، فإذا ظهرت أعيدت على صاحبها ، وإن لم تظهر حلف ثلاثة

فَقَرَّ مَنْ يَخْتَارُهُمْ صَاحِبُ الدَّعْوَى عَلَى مَا يَعْلَمُونَهُ فِي تِلْكَ الدَّعْوَى، وَإِنْ ظَهَرَتْ بَعْدَ الْيَمِينِ أَعِيدَتْ إِلَى صَاحِبِهَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَعَوَّضَ عَنْهَا أُعِيدَ الْعَوَضُ .

وَعَلَى أَنْ يَكْشِفُوا عَنِ الْأَخِيَّةِ يَجْهَلِهِمْ وَمَآقِيمَهُمْ . وَمَتَى تَحَقَّقَتْ أَعِيدَتْ إِلَى صَاحِبِهَا ، فَإِنْ حَلَفُوا بِرَدِّهِ مِنَ الدَّعْوَى ، وَإِنْ ظَهَرَتْ بَعْدَ الْيَمِينِ أَعِيدَتْ عَلَى صَاحِبِهَا ، وَإِنْ آمَنَعَ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ مِنَ الْيَمِينِ حَلَفَ الْمُدَّعَى ، وَلَا يَسْتَحِقُّ عَوَضَ مَا عَدِمَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ . وَكَذَلِكَ يَجْرَى الْأَمْرُ فِي الْقَتْلِ : عَوَضُ الْفَارِسِ فَارِسٌ ، وَعَوَضُ الرَّاجِلِ رَاجِلٌ ، وَعَوَضُ الْبَرَكِلِ بَرَكِلٌ ، وَعَوَضُ النَّاسِ نَاسٌ ، وَعَوَضُ الْفُلَّاحِ فُلَّاحٌ . وَإِذَا آتَمَضَتِ الْأَرْبَعُونَ يَوْمًا الْمَذْكُورَةُ لَكَشْفِ الدَّعْوَى وَلَمْ يَخْلِفِ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ لِلدَّعَى وَجِبَ عَلَيْهِ الْعَوَضُ حَتَّى يَرُدَّ، وَإِنْ رَدَّ الْيَمِينَ عَلَى الْمُدَّعَى وَمَضَى عَلَى ذَلِكَ عَشْرَةَ أَيَّامٍ ، وَلَمْ يَخْلِفِ صَاحِبُ الدَّعْوَى بَطَلَتْ دَعْوَاهُ وَحُكْمُهَا ، وَإِنْ حَلَفَ أَخَذَ الْعَوَضُ .

وَمَتَى هَرَبَ مِنْ أَحَدَى الْجَاهِلَيْنِ إِلَى الْأُخْرَى أَحَدٌ وَدَعَاهُ مَالٌ لِنَفْسِهِ أُعِيدَ جَمِيعٌ مَامَعَهُ، وَكَانَ الْمَহারِبُ خَيْرًا بَيْنَ الْمَقَامِ وَالْعُودِ . وَإِنْ هَرَبَ عَبْدٌ وَنَجَّاهُ عَنْ دِينِهِ، أُعِيدَ مَنَّهُ ، وَإِنْ كَانَ بَاقِيًا عَلَى دِينِهِ أُعِيدَ .

وَعَلَى أَنْ لَا يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنَ الْقَاطِنِينَ فِي بِلَدِ الْمَنَاصِفَاتِ : مِنَ الْفُلَّاحِينَ وَالْعَرَبِ وَالتَّكَلَبِينَ وَغَيْرِهِمْ ، إِلَى بِلَادِ الْقَرْمُجِ وَالنَّصَارَى كُلِّهَا لِإِغَارَةٍ وَلَا أَذْيَةٍ يَعْلَمُ الْمَلِكُ الظَّالِمُ وَبِلَادِ مُعَاهِدِيهِ ، [وَلَا يَدْخُلُ أَحَدٌ] بِلَادِ السَّامِيِّينَ لِإِغَارَةٍ وَلَا أَذْيَةٍ يَعْلَمُ بَيْتَ الْأَسْبَاطِ وَلَا رِضَاهُمْ وَلَا إِيْتَانَهُمْ .

وَعَلَى أَنَّ الدَّعَاوِيَ الْمُنْتَقِمَةَ عَلَى هَذَا الصَّلَاحِ يَحْمِلُ أَثَرُهَا عَلَى شَرْطِ الْمُواصَفَةِ الَّتِي بَيْنَ الْمَلِكِ الظَّالِمِ وَبَيْنَ مُعَاهِدِيهِ وَبَيْنَ بَيْتِ الْأَسْبَاطِ .

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ «وَيَسْتَحِقُّ» كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ .

وعلى أن هذه الهدنة تكون ثابتة مستقرة، لا تنقضى بموت أحد من الجهتين، ولا وفاة ملك ولا مقدم، إلى آخر الملة المذكورة، وهي : عشرين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، أولها يوم تاريخه .

وعلى أن ثواب الملك الظاهر ومعاذيه لا يترك أحدًا من التركان ، ولا من العربان ، ولا من الأكراد ، يدخل بلاد المناصقات بغير اتفاق من بيت الاستار أو رضاه ، إلا أن يكفلوه على نفوسهم في هذه الطوائف المذكورة ، ويماموا حاله ، لئلا يتلبس منهم أذية أو ضرر أو فساد ببلد المناصقات وبلد النصارى . ولتواب مولانا السلطان أن تتركهم على شرط أنهم يعلم بيت الاستار في قدر زولم المكان ، إن كان المكان قريباً . وإن ظهر منهم فساد كان الثواب يجابون بيت الاستار . وعلى أن المهادة بمحودها يكون الحكم فيها كما في المناصقات ، والحدود في هذه البلاد جميعها تكون على ما تشهد به نسخ الهدنة ، وما استقر الحال عليه إلى آخر وقت .

وعلى أن تحل أمور المملكة الحنيفة على ما كان مستقرًا في الأيام الأشرفية ، على ما قرره الأمير علم الدين «سنجر» .

هذا ما وقع الاتفاق والتراضى عليه من الجهتين . وبذلك جرى القلم الشريف السلطانى الملكى الظاهرى : حجة بمقتضاه ، وتأكيده لما شريح أعلاه ، كُتِبَ في تاريخ كذا وكذا .



وهذه نسخة هدنة من هذا النمط . عُقدت بين السلطان الملك الظاهر «بيبرس» أيضا ، وبين ملكة بيروت من البلاد تشامية ، في شهر سنة سبع وستين وسمائة حين كانت ببلدها ، وهي .

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين «بيبرس» وبين الملكة الجليلة المصونة الفاتمة، فلانة أبنة فلان: مملكة يروت وجميع جبالها وبلاها النخبة مدة عشرين متواليه؛ أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع وستين ومئاة الموافق لثامع إيار سنة ألف وخمسمائة وثمانين يونانية - على يروت وأعمالها المضافة إليها، الجارى عادتهم فى أنصرف فيها فى أيام الملك الناصر العادل، أبى بكر بن أيوب، وأيام ولده الملك المعظم عيسى، وأيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز. والقاعدة المستقرة فى زمنهم إلى آخر الأيام الظاهرية، بمقتضى الهدنة الظاهرية. وذلك مدينة يروت، وأما كتبها المضافة إليها: من حد جليل إلى حد صيدا، وهى المواضع الآتى ذكرها: جونية بمحدودها، والعذب بمحدودها، والعصفورية بمحدودها، والراوق بمحدودها، ريسن الفيل بمحدودها، والرح والشوف بمحدودها، وانطلياس بمحدودها، والحديدة بمحدودها، وحسوس بمحدودها، والبشرية بمحدودها، والدكوانة وبرج قراجار بمحدودها، وفرينة بمحدودها، والنصرانية بمحدودها، وجلدا بمحدودها، والتامة بمحدودها، ورأس الفيقه، والوطاء المعروف بمدينة يروت، وجميع ما فى هذه الأماكن من الرعايا والتجار، وبين سائر أصناف الناس أجمعين، والصادرين منها والواردين إليها من جميع أجناس الناس، والمترددن إلى بلاد السلطان فلان، وهى: الحيرة وأعمالها وقلاعها وبلاها وكل ما هو مختص بها، والمملكة الأنطاكية وقلاعها وبلاها، وجبله والألافة وقلاعها وبلاها، وحصن المحروسة وقلاعها وبلاها وما هو مختص بها، ومملكة حصن عكا وما هو منسوب إليه، والمملكة الحموية وقلاعها وبلاها وما هو مختص بها، والمملكة الرجية وما هو مختص بها: من قلاعها وبلاها، والمملكة البعلبكية وما هو مختص بها: من قلاعها وبلاها، والمملكة النسيقية وما هو مختص بها: من قلاعها وبلاها ورعاياها

وَمَالِكِيهَا، وَالْمَلَكَةُ الشَّقِيقِيَّةُ وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا مِنْ قِلَاعِهَا وَبِلَادِهَا وَرَعَايَاها، وَالْمَلَكَةُ
الْقُدْسِيَّةُ وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا، وَالْمَلَكَةُ الْحَلِيبِيَّةُ وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا، وَالْمَلَكَةُ الْكَرْكِيَّةُ وَالشَّوْبِكِيَّةُ
وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا مِنْ الْقِلَاعِ وَالْبِلَادِ وَالرَّمَايَا، وَالْمَلَكَةُ النَّابِلِيَّةُ، وَالْمَلَكَةُ الصَّرْخِيَّةُ،
وَمَلَكَةُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ جَمِيعًا : بِشُقُورِهَا، وَحُصُونِهَا، وَمَالِكِيهَا، وَبِلَادِهَا،
وَسَوَاحِلِهَا، وَبَرِّهَا، وَبَحْرِهَا، وَرَعَايَاها، وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا، وَالسَّاكِنِينَ فِي جَمِيعِ هَذِهِ
الْمَالِكِ : الْمَذْكُورَةِ وَمَا لَمْ يَذْكُرْ مِنْ مَمَالِكِ السُّلْطَانِ وَبِلَادِهِ، وَمَا سَيَفْتَحُهُ اللَّهُ تَعَالَى
عَلَى يَدِهِ وَيَدِ نُوَابِهِ وَغُلَامَانِهِ يَكُونُ دَاخِلًا فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ الْمُبَارَكَةِ، وَمُسْتَظْفًى فِي جُمْلَةِ
شُرُوطِهَا، وَيَكُونُ جَمِيعُ الْمُرْتَدِّينَ مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ وَإِلَيْهَا آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
وَأَمْوَالِهِمْ وَبَضَائِعِهِمْ، مِنَ الْمَلِكَةِ فَلَانَةَ وَغُلَامَانِهَا، وَجَمِيعَ مَنْ هُوَ فِي حُكْمِهَا وَطَاعَتِهَا :
بَرًّا وَبَحْرًا، لَيْلًا وَنَهَارًا، وَمَنْ مَرَاكِهَا وَشَوَانِهَا . وَكَذَلِكَ رِعْيَةُ الْمَلِكَةِ فَلَانَةَ وَغُلَامَانِهَا
يَكُونُونَ آمِنِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَبَضَائِعِهِمْ مِنَ السُّلْطَانِ وَمَنْ جَمَعَ نُوَابِهِ وَغُلَامَانَهُ
وَمَنْ هُوَ تَحْتَ حُكْمِهِ وَطَاعَتِهِ : بَرًّا وَبَحْرًا، لَيْلًا وَنَهَارًا : فِي جَبَلَةٍ، وَاللَّادِقِيَّةِ،
وَجَمِيعِ بِلَادِ السُّلْطَانِ، وَمَنْ مَرَاكِه وَشَوَانِهِ .

وَعَلَى أَنْ لَا يُجَسَّدَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ التُّجَّارِ الْمُرْتَدِّينَ رَسْمٌ لَمْ يَجْرِبْ بِهِ عَادَةً، بَلْ يُجْرَوْنَ
عَلَى الْعَوَائِدِ الْمُسْتَمِرَّةِ، وَالْفَوَاعِدِ الْمُسْتَقَرَّةِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ . وَإِنْ عُدِمَ لِأَحَدٍ مِنَ الْجَانِبَيْنِ
مَالٌ، أَوْ أُخِذَتْ أُخْبِيَّةٌ، وَصَحَّتْ فِي الْجِهَةِ الْأُخْرَى رُدَّتْ إِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً،
أَوْ قِيمَتُهَا إِنْ كَانَتْ مَفْقُودَةً . وَإِنْ خَنَى أَمْرُهَا كَانَتْ الْمُدَّةُ لِلْكَشْفِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا،
فَإِنْ وَجِدَتْ رُدَّتْ، وَإِنْ لَمْ تَوْجَدْ حَلَفَ وَإِلَى تِلْكَ الْوَلَايَةِ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ، وَحَلَفَ
ثَلَاثَةً تَهْرُمُ مِنْ بَخَارِهِمُ الْمُدَّعَى، وَبَرَّتْ جِهَتُهُ مِنْ تِلْكَ الدَّعْوَى . فَإِنْ أَبَى الْمُدَّعَى
عَلَيْهِ عَنِ الْيَمِينِ حَلَفَ الْوَالِي الْمُدَّعَى، وَأَخَذَ مَا يَدَّعِيهِ . وَإِنْ تَبَيَّنَ لِأَحَدٍ مِنَ الْجَانِبَيْنِ
خَطَأٌ كَانَ أَوْ عَمْدًا، كَانَ عَلَى الْقَائِلِ فِي جِهَتِهِ الْعِصْ عَنْ ظَنِّهِ : فَارِسُ بَفَارِسَ،

وَبَرِيكِلْ بَرِيكِلْ ، وَرَاجِلْ بَرَايِلْ ، وَفَلَّاحْ بَفَلَّاحْ . وإن هرب أحدٌ من الجانيين إلى الجانب الآخر بمال لغيره، ردّ من الجاهنين هو والمال، ولا يُتَدَرَّبُ بَعْدُ .

وعلى أنه إن تاجر فرنجي صدر من يروت إلى بلاد السلطان يكون داخلًا في هذه الهدنة، وإن عاد إلى غيرها لا يكون داخلًا في هذه الهدنة .

وعلى أن المليك ثلاثة لا تمكن أحدًا من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة يروت وبلادها ؛ وتنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء ، وتكون البلاد من الجاهنين محفوظة من المتجرمين المفسدين .

وبذلك اتفقت الهدنة للسلطان ، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بها وهودها والوفاء بها إلى آخر ممتها من الجاهنين : لا ينقضها مرور زمان، ولا يغير شروطها حين ولا أوان ؛ ولا تنقض بموت أحد من الجانيين . وعند انقضاء الهدنة تكون التجار آمنين من الجاهنين مدة أربعين يوما ، ولا يمنع أحد منهم من العود إلى مستقره ، وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة الخط الشريف حجة فيها، والله الموفق، في تاريخ كذا وكذا .



وهذه نسخة هدنة عقدت بين السلطان المليك الظاهر «بيرس» وولده المليك السعيد، وبين الفرنج الاسبتارية، على قلعة لُد بالشام، في سنة تسع وستين وستائة، وهي : استقرت الهدنة المباركة بين السلطان المليك الظاهر ركن الدين «بيرس الصالحى» قسيم أمير المؤمنين وولده المليك السعيد ناصر الدين «محمد بركة خاقان» خليل أمير المؤمنين ؛ وبين المباشير المقدم الجليل افريز أولدكال مقدم جميع بيت اسبتار سرجوان بالبلاد الساليلية ، وبين جميع الإخوة الاسبتارية ، لمدة عشرين سنين

كواويل مُتواليات مُتتابعات، وعَشْرَةُ أَشْهُرٍ، أَوَّلُهَا مُسْتَهْلُ رَمَضَانَ سَنَةِ تِسْعٍ وَسِتِّينَ وَسِتِّمِائَةِ لِلْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، الْمَوَافِقُ لِلثَّامِنِ عَشَرَ مِنْ تِسْعِ سَنَةِ أَلْفٍ وَخَمِيسِيَّةِ وَأَثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ لِلْإِسْكَانْدَرِيَّةِ فِيلَسُ الْيُونَانِيَّةِ - عَلَى أَنْ تَكُونَ قَلْعَةُ لُدٍّ بِكَمَالِهَا وَرَبِضُهَا وَأَعْمَالُهَا، وَمَا هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهَا وَعُصُوبٌ مِنْهَا، بِمُحْدُودِهَا الْمَعْرُوفَةِ بِهَا مِنْ تَقَادُمِ الزَّمَانِ، وَمَا أَسْتَقْرَأُ لَهَا الْآنَ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ : مِنَ الْمَوَاضِعِ، وَالْمَصَائِدِ، وَالْمَلَاكِهِ، وَالْبَسَائِنِ، وَالْمَعَاصِرِ، وَالطَّوَالِغِ، وَالْخَزَائِرِ : سَبِيلُهَا وَجَبَلُهَا، وَعَاصِمُهَا، وَدَوَائِرُهَا، وَمَا يَجْرِي بِهَا مِنْ أَنْهَارٍ، وَيَنْبُعُّ بِهَا مِنْ عُيُونٍ، وَمَا هُوَ مَبْنِيٌّ بِهَا مِنْ عِمَارَةٍ، وَمَا أَسْتَجِدُّ بِهَا مِنَ الْقَرَارِجِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ؛ وَكُلُّ مَا عُحِرَ فِي أَرْضِ الْمُنَاصِفَاتِ عَلَى دَوْرِهَا وَأَنْهَارِهَا، وَمَا بِمُحْدُودِ ذَلِكَ مِنْ نَهْرٍ بِدَرَةِ إِلَى جِهَةِ الشِّمَالِ، وَمَا أَسْتَقْرَأُ لِبَلَدَةِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَاتِ إِلَى آخِرِ الْأَيَّامِ النَّاصِرِيَّةِ مِنَ الْحُدُودِ الْمَعْرُوفَةِ بِهَا وَالْمُسْتَقَرَّةِ لَهَا، وَحِصْنٍ بَرَزِيٍّ وَمَا يُنْسَبُ إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْبِلَادِ وَالضِّيَاعِ وَالْقُرَى الَّتِي كَانَتْ مُنَاصِفَةً - تَكُونُ جَمِيعُ بَلَدَةِ وَهَذِهِ الْجِهَاتِ خَاصًّا إِلَى آخِرِ الزَّائِدِ لِلْمَلِكِ الْقَاطِعِ، وَلَا يَكُونُ لِبَيْتِ الْأَسْتَارِ وَلَا لِلرَّقَبِ فِيهَا حَقٌّ وَلَا طَلَبٌ بِوَجْهِهِ وَلَا سَبَبٌ إِلَى حِينَ أَقْفَاءِ مَدَّةِ الْهَدْنَةِ وَمَا بَعْدَهَا إِلَى آخِرِ الزَّائِدِ، وَلَا لِأَحَدٍ مِنْ جَمِيعِ الْفَرَنْجَةِ فِيهَا تَعَلُّقٌ وَلَا طَلَبٌ بِوَجْهِهِ وَلَا سَبَبٌ .

وَكَذَلِكَ مِمَّا كَانَ مُنَاصِفَةً، كَقَلْعَةِ الْعَلِيقَةِ فِي بِلَادِهَا لِبَيْتِ الْأَسْتَارِ، يَكُونُ ذَلِكَ جَمِيعُهُ لِلدِّيَّانِ الْمُعْتَمَرِ وَالْخَاصِّ الشَّرِيفِ، وَلَا يَكُونُ لِلرَّقَبِ فِيهَا شَيْءٌ وَلَا لِبَيْتِ الْأَسْتَارِ .

وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا هُوَ فِي بِلَادِ الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ جَمِيعُهَا وَقَلَاعُهَا مِنَ الْقُرَى - لَا تَكُونُ فِيهَا مُنَاصِفَةً لِبَيْتِ الْأَسْتَارِ وَلَا لِلرَّقَبِ، وَلَا حَقٌّ، وَلَا رَسْمٌ، وَلَا شَرْطٌ، وَلَا طَلَبٌ

في جميع بلاد الدَّعْوَة : مِصْيَافِ المحروسة ، والكَهْفِ ، والمِنَقَةِ ، والقُدْسُوسِ ،
والخَوَاطِي ، والرَّصَافَةِ ، والعلِيْقَةِ . وكلُّ ما هو في هذه القِلاع وفي بلادها من مُنَاصِفَةٍ ،
يكون ذلك خاصاً لذلك الظاهر ، وليس ليت الاستِبار ولا الفرِجَة فيه حَديثٌ
ولا طَلَبٌ .

وعلى أن تكون بلاد المَرْقَبِ وحُدُودُها من نَهْرٍ لَدَى مُقْبَلًا ومُغْرَبًا إلى حدود بلاد
مَرْقَبَةِ المعروفة بها ، الدَّاخلِ جَمِيعُها في الفَتْوحِ الشريفِ ، وأسْتَقْرَارُها بِحُكْمِ ذلك
في الخَاصِّ المَبَارِكِ الشَّرِيفِ ، وَحَدِّ البُيُوتِ المَحَاضِيَةِ لِسُورِ الرِّضِ ، تستقرُّ جَمِيعُها
مُنَاصِفَةً بين السُّلْطَانِ وبين بَيْتِ الأَسْتِبارِ نِصْفَيْنِ بالسَّوِيَّةِ ، وما في جميع هذه البلاد :
من بَسَاتينَ ، وطَوَاحِينَ ، وعِمَارَتٍ ، ومَصَايِدَ ، ومَلَاحَاتٍ ، وَوُجُوهِ العَيْنِ ، والمُسْتَفْلَاتِ
الصَّغِيرَةِ والثَّنَوِيَّةِ ، والقَطَاطِي ، والحُقُوقِ المستخرجة ، وما هو مَزْرُوعٌ من الفِئْدَنِ
لأَهْلِ الرِّضِ وبِبادِرِها : يكونُ ذلك مُنَاصِفَةً بين السُّلْطَانِ وبين بَيْتِ الأَسْتِبارِ
سَرَجَوَانِ بالسَّوِيَّةِ نِصْفَيْنِ .

وما هو دَاخِلُ الرِّضِ ودَاخِلُ المَرْقَبِ ، فإنه مُطْلَقٌ من المَلِكِ الظَّاهِرِ لِلْقَسَمِ
الكَبِيرِ اِفْرَازِ أولَدِ كَالِ مَقْدَمِ بَيْتِ الأَسْتِبارِ مَرَجَوَانِ وَخِيَالَتِهِ ، وَرِجَالِهِ وَحَمَّالَتِهِ
وَرِجَالَتِهِ وَرَبِيعَتِهِ ، بِرَسْمِ إقامَتِهِمْ وَسُكْنَاهُمْ من دَاخِلِ الأَسْوَارِ ، وعن سُورِ الرِّضِ
المَحَاضِيَةِ لِسُورِ تَكُونُ مُنَاصِفَةً جَمِيعُها ، بما فيه من حَقُوقِ طُرُقَاتٍ وَأَحْكَارٍ ،
وَمَرَايِ الْمَوَاشِي على أَخْتِلَافِ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا ، وَجَمِيعِ السَّخْرِيَّاتِ ، وكلِّ أَرْضٍ
مَزْرُوعَةٍ أَوْ غَيْرِ مَزْرُوعَةٍ مِمَّا أُخِذَ مِنْهُ من حَقٍّ أَوْ عِدَادٍ يَكُونُ مُنَاصِفَةً .

وكلُّ ما هو من المَوَاطِي والمَرَايِسِ البَحْرِيَّةِ المعروفة جَمِيعُها بِمَحْضِنِ المَرْقَبِ : من
مِينَا بَلَدَةٍ إِلَى مِينَا القَطْرَةِ المُجَاوِرَةِ لِحُدُودِ مَرْقَبَةٍ - تَكُونُ هِيَ وما يَحْتَصِلُ مِنْهَا من

الحقوق المستخرجة من الصادرين والواردين والتجار، وما يتعقد عليه ارتفاعها،
وتشهد به الحسابات - جميعه مناصفة . وما يدخل في ذلك من أجناس البضائع
على اختلافها يؤخذ الحق [منه] مناصفة على العادة الجارية من غير تغيير لقاعدة من
حين أخذ بيت الاستتار المرقب إلى تاريخ هذه الهدنة المباركة مناصفة على العادة
الجارية، بل تجرى التجار في الحقوق على عادتهم في البضائع التي يحضرونها والمتجر
كلنا من كان .

يعتمد ذلك في كل ما يصل للتريدين والمقيمين بالقلة والريض : من عامة وغير
عامة، وخيالة وغير خيالة، على اختلاف أجناسهم، خلا ما يصل للإخوة ولعلمائهم
المعروفين بالإخوة الاستتارية من الحبوب والمثونة والكسوة والخيل التي هي رسم
رؤوسهم خاصة، لا يكون عليها حق، بشرط أنه لا يكون فيها للتجار شيء من ذلك،
وما خلا ذلك جميعه يؤخذ الحق منه مناصفة على ما شرعناه .

وعلى أنه لا يتمي أحد من الإخوة الخيالة، والوزراء، والكاتب، والنواب،
والمستخدمين شيئا على اسم بيت الاستتار، ليستطلق الحق وينع من استبداده، ولو
أنه أقرب أبخ إلى المقدم أو ولد المقدم . إذا ظهر منه خلاف ما وقع عليه الشرط،
أخذ جميع ماله مستهلكا للبهتين : للديوان السلطاني المعمور، وليت الاستتار،
إن كان خارجا من البحر أو نازلا إلى البحر، صادرا وواردا، وكذلك في البر صادرا
وواردا بعد المراقبة على ذلك ومحميه .

وعلى أن ثواب المباشير المقدم الكبير ليت الاستتار، وولاته وكُتَّابه ومُستخدميه
وغلبائه، يكونون آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وجميع ما يتعلق بهم .
وكذلك غلبائنا وولائنا وثوابنا ومُستخدمونا وكُتَّابنا ورعايا بلادنا يكونون آمنين

مُطْمَئِنِّينَ عَلَى نَفْسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، مُتَّقِينَ عَلَى مَصَالِحِ الْبِلَادِ وَأَخْذِ الْحُقُوقِ ، وَمَا نَزَلَ الْمُقَاسِمَاتِ وَالطَّرَقَاتِ وَالْبَسَاتِينَ وَالطَّوَاحِينَ ، وَالْحُقُوقِ الْمَقْرُورَةِ عَلَى الْفَدَنِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهَا . وَكَذَلِكَ الرَّأْسَةِ وَاسْتِخْرَاجُ وَجْهِ الْعَيْنِ ، وَالْحُبُوبِ ، وَالتَّصَارِيفِ الْجَارِي بِهَا الْعَادَةُ الْمَقْرُورَةُ عَلَى الْفَدَنِ ، مِنْ جَمِيعِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا .

وَعَلَى أَنْ جَمِيعَ الضَّمَانَاتِ يَكُونُ تَوَابُ السُّلْطَانِ وَتَوَابُ بَيْتِ الْأَسْتِثَارِ مُتَّفِقِينَ بِجُمْلَةٍ عَلَى ذَلِكَ ، لَا يَنْفَرِدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا بِاتِّفَاقٍ وَتَتَرْتِيلٍ فِي دِفَاطِرِ الدِّيَوَانِ الْمَعْمُورِ وَدِيَوَانِ بَيْتِ الْأَسْتِثَارِ ، وَلَا يُطْلَقُ وَلَا يُجْبَسُ إِلَّا بِاتِّفَاقٍ مِنَ الْجُهَيْنِ ، وَلَا يَنْفَرِدُ وَاحِدٌ دُونَ آخَرٍ .

وَعَلَى أَنْ أَىُّ مُسْلِمٍ تَصَدَّرُ مِنْهُ أَذِيَّةٌ يَحْكُمُ فِيهَا بِمَا يَقْضِيهِ الشَّرْعُ الشَّرِيفُ فِي تَأْذِيهِ ، يَتِمُّ ذَلِكَ فِيهِ تَأْثِينًا : مِنْ شَيْءٍ يَحِبُّ عَلَيْهِ ، أَوْ قَطْعٌ . أَوْ أَدَبٌ بِحُكْمِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ : مِنْ شَيْءٍ ، وَقَطْعٌ ، وَكُلُّ أَعْيُنٍ ، بِمِثْلِ لَا يُمْكِنُ ذَلِكَ إِلَّا بِحَضُورِ نَائِبٍ مِنْ جِهَةِ بَيْتِ الْأَسْتِثَارِ ، حَاضِرٍ يُعَايِنُ ذَلِكَ بَعِيْنَهُ ، وَيَكُونُ قَدْ عَرَفَ الذَّنْبَ وَتَحَقَّقَهُ . وَإِنْ كَانَ ذَنْبُهُ يَسْتَوْجِبُ جُنَايَةً أَوْ غَرَامَةً دَرَاهِمَ أَوْ نَهْشٍ أَوْ مَوَاشٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِ ، يَكُونُ مَا يُسَادِئُ مُنَاصَفَةً لِلدِّيَوَانِ الْمَعْمُورِ وَلِبَيْتِ الْأَسْتِثَارِ وَصَاحِبِ الْمَرْقَبِ . فَإِنْ كَانَ فِيهَا قَسَاسٌ وَبَضَائِعُ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِ ، وَصَاحِبُهُ مُسْلِمٌ ، يَأْخُذُ بِضَاعَتَهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِرَاضٍ مِنَ الْجُهَيْنِ بَعْدَ آدَاءِ الْحَقِّ لِلدِّيَوَانِ الْمَعْمُورِ وَلِبَيْتِ الْأَسْتِثَارِ . وَإِنْ لَمْ يُعْرِفْ صَاحِبُ الْبِضَاعَةِ وَكَانَتْ لِمُسْلِمٍ ، أُعِيدَتْ لِلرَّزَانَةِ السُّلْطَانِيَّةِ وَلَا يَكُونُ لِبَيْتِ الْأَسْتِثَارِ فِيهَا تَعَلُّقٌ . وَإِنْ كَانَ صَاحِبُ الْبِضَاعَةِ نَصْرَانِيًّا عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِ النَّصْرَانِيِّ ، تَوْخَذُ بِضَاعَتَهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِرَاضٍ مِنْ جِهَتِنَا ، بَعْدَ آدَاءِ الْحَقِّ . وَإِنْ لَمْ يُعْرِفْ صَاحِبُ الْبِضَاعَةِ ، وَكَانَتْ لِنَصْرَانِيٍّ ،

تَبَيَّ تحتَ يَدِ بَيْتِ الأَسْطَر ، خلا من كان من بلاد مملكة السُّلْطَانِ على أختلاف دِينِهِ : إن كان نصرانياً أو ذِمِّيًّا ، على أختلاف جِنْسِ دِينِهِ ، ليس لِبَيْتِ الأَسْطَر عليهم أَعْتَرَأُ ، ويَحُلُّ ذلك جميعه على أختلاف أَجْناسِ البضائع للذَّيْوانِ المَعْمُورِ .

وعلى أنه متى أَنْكَسَرَ مَرَكَبٌ ، وظهر إلى بَرِّ المَوَانِي بِضَاعَةٌ ، وقصدَ صَاحِبُهُ شَيْلَهُ إلى جِهَةٍ يَخْتَارُهَا في الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، ولا يُتَبَعُ ، فيؤْخَذُ الحَقُّ منه : إن باعَ يُوْخَذُ الحَقُّ ، وإن حَمَلَ يُوْخَذُ الحَقُّ ، ويكونُ الحَقُّ لِلْجِهَتَيْنِ : وهو الحَقُّ المعروفُ الجارى به العادة .

وعلى أن التَّجَّارَ السَّافِرَةَ والمُتَرَدِّدِينَ بالبضائع من بلاد المُسْلِمِينَ والنَّصَارَى متى ما خَرَجُوا من المَوَانِي المحدودة أعلاه يتوجَّهُونَ بِخَفَّارَةِ الْجَنَّةِينِ مِنْ غَيْرِ حَقٍّ : لا يُتَنَاولُ من الخَفَّارَةِ شَيْءٌ مَنسُوبٌ إلى نفوسهم إلى أن يُخْرِجَهُمْ وَيُحْضِرَهُمْ إلى بَرِّ حُدُودِ المَرْقَبِ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ تحتَ حِفْظِ الجِهَتَيْنِ . ومتى وصلَ التَّجَّارُ من مملكة السُّلْطَانِ إلى بلادِ المَرْقَبِ وموانئها ، فَالْتَّرْتِيبُ على الخَفَّارَةِ من الجِهَتَيْنِ ، مع تَدْرُكِ الرُّؤَسَاءِ الحِفْظِ للطُرُقَاتِ صادراً ووَارِداً ، بحيثُ لَيْسَ يَحْضُرُونَ إلى بلادِ المَرْقَبِ ، وبِئِ المَوَانِي بالمَرْقَبِ المحدودة أعلاه ، طَبِيبِينَ آمِنِينَ على أرواحهم وأموالهم بالخَفَّارَةِ من الجِهَتَيْنِ ، على ما شَرَحْنَاهُ .

وعلى أن غلمانَ المباشيرِ المُقَدَّمِ لِبَيْتِ الأَسْطَر والإخوةَ والخِيَالَةَ والرَّعِيَّةَ المُقْبِضِينَ بِقَلْعَةِ المَرْقَبِ والرَّيْضِ ، يَكُونُونَ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ على أَتَمِّهِمْ وَأَمُوالِهِمْ ومن يَلُودُ بِهِمْ وَيَتَلَقَّى ، في حالِ صُدُورِهِمْ ووُرُودِهِمْ إلى بلادنا الجارية في مَمْلَكَتِنَا في الْبَرِّ ، مِنَّا ومن نَوَاسِنَا بِالمملكة والبلادِ الجارية في حَكْمِنَا ، ومن وَلَدِنَا المَلِكِ السَّعِيدِ ، ومن أَمْرَانِنَا وَعَسَاكِرِنَا المَنْصُورَةِ . وإن قَتَلَ قَتِيلٌ أو أُخِذَتْ أَخِيذَةٌ في حدودِ المناصِفِ ببلاد

المُرقَب ، فيَقَعُ الكَشْفُ عن ذلك عِشرين يوماً : فإنَّ وُجِدَ فاعِلُ ذلك ، يُؤْخَذُ الفاعِلُ بِذَنبِهِ . وإن لم يَظْهَرْ فاعِلُ ذلك مِئةَ عِشرين يوماً فَيُمْسِكُ رُؤَسَاءُ مَكَانِ قَطْعِ الطَّرِيقِ وأَخِذَ الأَخِيَّةِ ، وَقَتْلَ القَتِيلِ ، إن كان أَخَذَ وَقَتْلَ - مَكَانَ مَنْ قَتَلَ القَتِيلَ أو أَخَذَ الأَخِيَّةَ - أَقْرَبَ التَّهْرَاءِ إلى الذي قَطَعَ عليه الطَّرِيقَ أو قَتَلَ قَتِيلًا . فإن خَفِيَ الفاعِلُ لذلك ، وَعُجِزَ عن إحضاره بعد عِشرين يوماً ، يُزِمُّ أَهْلُ نَوَابِ الجِهَتَيْنِ مِنَ التَّهْرَاءِ الأَقْرَبِ لذلك المَكَانِ بِأَلْفِ دِينَارٍ صُورِيَّةٍ : لِلدِّيَّانِ السُّلْطَانِي النَّصْفُ ، وَلِغَيْبِ الأَسْبَاطِ النَّصْفُ ، وَلَا تُنْكَاسِلُ الوَلَاةُ فِي طَلَبِ ذلك ، وَيَكُونُ طَلَبُهُ يَدًا وَاحِدَةً ، وَلَا يَخْصُ الواحِدُ ذَنبَ الآخَرِ . وَلَا يَحِبِّي أَحَدٌ مِنْهُمْ لِأَخِذِ الفَلَّاحِ فِي هَذَا أَوْ غَيْرِهِ فِي مَصْلَحَةِ عِمَارَةِ البَلَدِ ، وَاسْتِخْرَاجِ الحَقُوقِ ، وَمُقَاسِمَةِ الغِلَالِ ، وَطَلَبِ المُفْسِدِينَ لَيْلًا وَنَهَارًا .

وعَلَى أَنْ لَا تَتَغَيَّرَ المُهْدَنَةُ المُبَارَكَةُ بِأَمْرِ مِنَ الأُمُورِ ، لِأَمْنِ جِهَتِنَا وَلَا مِنْ جِهَةٍ وَادِنَا الْمَلِكِ السَّعِيدِ ، إِلَى أَقْبَضَاءِ مَذَبِهَا المَعِينَةِ أَعْلَاهُ وَفُرُوعِهَا . وَلَا تَتَغَيَّرُ بِتَغْيَرِ المَقْدَمِ المُبَاشِرِ لَيْتَ الأَسْبَابِ الحَاكِمِ عَلَى المَرْقَبِ وَغَيْرِهِ . وَإِذَا جَرَتْ قِضْبَةٌ فِي أَمْرِ مِنَ الأُمُورِ يَعْرِفُهُمْ نَوَابُنَا ، وَيَحْقُقُ الكَشْفُ إِلَى مِئَةِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، فَن يَكُونُ لِلْبِدَايَةِ يُخْرِجُ مِنْهَا عَلَى مَنْ يَثْبِتُ (؟) وَيَكُونُ قَدْ عَرَفَ دَيْنَهُ الذي بَدَأَ مِنْ جِهَةٍ كُلِّ وَاحِدٍ . وَإِذَا تَغَيَّرَ النَوَابُ بِالمَرْقَبِ وَحَضَرَ نَائِبٌ مُسْتَجِدٌّ يَعِمِدُ مَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ المُهْدَنَةُ ، وَلَا يُخْرِجُ عَنْ هَذِهِ المُوَاصِفَةِ . وَإِنَّا نَسْتَحِبُّ مِنَ المُسْلِمِينَ أَحَدًا عَلَى اخْتِلَافِ أَجْناسِهِ ، إِنْ كَانَ تَمَلُّوكًا أَوْ غَيْرَ تَمَلُّونَةٍ ، أَوْ مَعْتُوكًا أَوْ غَيْرَ مَعْتُوكٍ ، أَوْ كَاتِبًا مِنْ كَانِ مِنَ المُسْلِمِينَ عَلَى اخْتِلَافِ مَنَازِلِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ غُلَامًا أَوْ غَيْرَ غُلَامٍ - يَرُدُّ بِجَمِيعِ مَا يُوجَدُ مَعَهُ ، إِنْ كَانَ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا يَرُدُّ . وَلَوْ أَنَّ المُتَسَحِّبَ دَخَلَ الكَنِيسَةَ وَجَلَسَ فِيهَا يُمْسِكُ يَدَهُ وَيَخْرُجُ وَيَسَلِّمُ لِنَوَابِنَا بِجَمِيعِ مَا مَعَهُ ، وَإِنْ كَانَ حَيَلًا أَوْ قَاشًا أَوْ دَرَاهِمًا أَوْ ذَهَبًا

وما يتعامل الناس به، يسلم بما معه إلى نوابنا على ما شرعناه . وكذلك إذا تسحب أحد من جهتهم من القرع أو التصاري إلى أبوابنا الشريفة ، أو وصل إلى جهة نوابنا يمسك ويسلم بما يحضر معه : من الخيل والأقشعة والمعدة وجميع ما يصل إن كان قليلا أو كثيرا ، يمسكه نوابنا ويسلمون ذلك بما معه لنائب المقدم الماسر المقيم بالمرقب ، وأخذوا الخطوط بذلك بتسليمه بما حضر معه .

وعلى أنهم لا يكون لهم حديث مع قلعة المليقة ، ولا الرعية الذين فيها ، ولا مع نواب ابن الرديني المقيمين فيها : لا يكاتب ، ولا بمشافهة ، ولا برسالة ، ولا بقول ، ولا يطلع أحد من جهتهم إليهم ، ولا يمكن أحد من الحضور إليهم ، [والوصول] إلى جهتهم من القلعة المذكورة ، ولا تسير إليهم مشونة ولا تجارة ولا جلب على اختلاف أجناسه ، ولا تكون بينهم معاملة . وإن حضر أحد من جهة قلعة المليقة إليهم يسكون ويسلمون لنوابنا ويأخذوا بذلك خطوطهم .

وعلى أنهم لا يعمدون عمارة قلعة ، ولا في القلعة عمارة ، ولا في البدنة ولا في أبراجها ، ولا يعمدون [إصلاح شيء منها إلا إذا عاينه نوابنا أو أبحروا أنه يحتاج إلى الضرورة في ترميم يرمونه بعد أن يعاينه نوابنا من هذا التاريخ ، ولا يعمدون عمارة في ربضها ، ولا في سورها ، ولا في أبراجها ، ولا يعمدون حفر خندق ، وعمارة خندق ، أو يعمدون بناء خندق أو قطع جبل ، أو تحصن عمارة ، أو تحصن بقطع جبل ، منسوباً لتحصين يمنع لو يذفع . ولم نأذن لهم بسوى البناء [على] أثر الدور التي أحرقت عند دخول السراكر محبة الملك السعيد . وقد أذننا لهم في عمارة باطن الرض على أثر الأساس القديم .

وعلى أن يصيون وأعمالها ، ورومه (؟) وأعمالها ، والقلعة وأعمالها ، ويتدوب وأعمالها ، الجارية تحت نظر الأمير سيف الدين محمد بن عثمان صاحب صهيون -

يمرر بحكم هذه البلاد المختصة به حكم بلادنا في المهادنة، بحكم أن بلادنا المذكورة جارية في ممالك الشريعة .

وعلى أنه لا يمكن بيت الاستار من دخول رجل غريبة في البر ولا في البحر إلى بلادنا، بأذنه ولا ضرر يعود على الدولة . وعلى بلادنا وحصوننا ورعيتنا ، إلا أن يكونوا يدا غالية ، محبة ملك متوج .

وعلى أن البرج الداخل في المناصفة ، وهو برج معاوية الذي عند المحاصية الداخلة في مناصيف المرقب الآن ، يحرق ما يحصن منه ، وهو النصف من البرج المذكور أعلاه . وأن الحرس المعروف بمسير بلدة لم يكن لبيت الاستار فيه شيء من البرج ، وأنه خالص للديوان المعمودون بيت الاستار . وأن الدار المستجدة عمارتها بقلمة المرقب يرسم الماسر المقدم الكبير ، الذي هو عازر تكيل عمارة سقف القبة بالجماعة والكليس ، لا تتكلم عمارتها ، ويبقى على حاله ، وهو في وسط القلعة الظاهر منه قليل إلى البر الشرقي وهو المذكور أعلاه .

وعلى أن ثواب الاستار بالمرقب لا ينفون شيئاً من مقاطعات البلاد ولا شيئاً من حقوقها الجارية بها عادة أن بيت الاستار يستخرجونه ولا ينفون منه شيئاً ، وكل ما كان يستأدى من البلاد في أيدي الاستار قبل هذه الهدنة يظلون ثواباً عليه ولا ينفون منه شيئاً قليلاً ولا كثيراً من ذلك .

وعلى أن السلطان يأمر نوابه بحفظ مناصفات بلاد المرقب الداخلة في هذه الهدنة ، من المفسدين والمتلصصين والحرامية ممن هو في حكمه وطاعته . وكذلك المستر المقدم افرز أولد كال يلزم ذلك من الجهة الأخرى . ومتى وقع - والباذ بالله - فسح بسبب من الأنساب ، كان التجار والسقار آمينين من الجهتين إلى

أن يهودوا بأموالهم ، ولا يُمْنُون من السَّفر إلى أَمَاكِتِهِم من الجهتين ، وتكون
النهاية لهم أربعين يوماً . وتكون هذه الهدنة منعقدة بشروطها المذكورة ، مُستقرة
بقواعدها المسطورة للثة المئنة ، وهي : عَشرَ سنين وعشرة أشهرٍ كوايلَ ، أوَّلُها
مُسْتَهْلُ رَمَضَانَ سنة تسع وستين وسمائة إلى آخرِها ، متتابعة متواليّة ، لا تفسخُ
بموت أحدٍ من الجهتين ، ولا يَزالُ وآلٍ وقيام غيره مَوْضِعِهِ ، ولا زوالِ رِجُلٍ غَريبَةٍ ،
ولا حَضُورِ يَدٍ غَالِيَةٍ ، بل يلزمُ كُلُّا من الجهتين حِفْظُها إلى آخرِها ، ومن تَوَلَّى بعد
الآخرِ حِفْظَها إلى آخرِها ، بالشروطِ المشروطة فيها أوَّلًا وآخرًا . وانلُطَّ أعلاه ، حجة
بمقتضاه ، إن شاء الله تعالى . في تاريخ كذا وكذا .



وهذه نُسخةُ هُدْنَةٍ عُدَّتْ بين السلطانِ المَلِكِ المنصورِ « قَلَاوُون » الصالحِ
صاحبِ الدِّيارِ المِصرِيَّةِ والبلادِ الشَّامِيَّةِ وولَدِهِ المَلِكِ الصَّالِحِ « عَلِيٍّ » وَبَنِي عَهْدِهِ ،
وبين حُكَّامِ القَرْجِ بِعُكَّا وما معها من بلادِ سَوَاحِلِ الشَّامِ ، في شهورِ سنة اثنتين
وثمانين وسمائة ، وهي يومئذٍ بأبليسهم . وصورتُها .

أستقرَّتِ الهدنةُ بين مولانا السلطانِ المَلِكِ المنصورِ سَيِّفِ الدِّينِ أَبِي الفَتْحِ
« قَلَاوُون » المَلِكِ الصَّالِحِ وولَدِهِ السلطانِ المَلِكِ الصَّالِحِ علاءِ الدِّينِ « عَلِيٍّ » -
خَلَّدَ اللهُ تَعَالَى سُلْطَنَتَهُمَا - وبين الحُكَّامِ بِمَمْلَكَةِ عُكَّا ، وصَيْدَا ، وَعَثَلِيَّتْ ، وبلادِها
التي أُنْقِذَتْ طليها هذه الهدنةُ ، وهم : الشَّيْخَانِ أودِهَيْسِلِ المملَكةِ بِعُكَّا ، وحَضْرَةُ
المَقْدَمِ الجليلِ افِرِيزِ كاسام دسا حول (١) مَقْدَمِ بَيْتِ الدُّبُوبَةِ ، وحَضْرَةُ المَقْدَمِ الجليلِ
افِرِيزِ سَكْفِلِ للوردِ (٢) مَقْدَمِ بَيْتِ الاسْجَارِيَّةِ ، والمرشَأُ الأَجَلُ افِرِيزِ كورات نائِبُ
مَقْدَمِ بَيْتِ الاسْجَارِ الآمن - لثمة عَشرَ سنين كوايِلَ ، وعَشرَةَ أَشْهُرَ ، وعَشرَةَ أَيَّامَ ،

وعشر ساعات : أوّلها يومُ الخميس خامسُ ربيعِ الأوّل سنةِ اثنتين وعشرين وستمائة للهجرة النبوية، صلواتُ الله على صاحبها وسلّامه، الموافقُ للثالث من حزيران سنة ألف وثمانمائة وأربع وتسعين لعلية الإسكندرية فيلبس اليوناني - على جميع بلاد السلطان وولده، وهى التى فى مملكتها وتحت حكمها وطاعتها وما تحويه أيديهما يومئذ : من جميع الأقاليم والممالك، والقلاع، والحُصُون الإسلامية، وتغر دسباط، وتغر الإسكندرية المحروستين، وتُسُقرو، وسُقريّة وما ينسب إليها من الموانى والسواحل، وتغر قوّة، وتغر رَشيد، والبلاد الحجازية، وتغر غزّة المحروس، وما منها من الموانى والبلاد، والمملكة الكركية، والشوبكية وأعمالها، والصلب وأعمالها، وبُصرى وأعمالها، ومملكة بلاد الخليل صلواتُ الله عليه وسلّامه، ومملكة القدس الشريف وأعمالها، وبَيْتِ لَحِم وأعماله وبلاده، وجميع ما هو داخلُ فيها ونسوبُ منها، وبَيْتِ جبريل، ومملكة تَابَلَس وأعمالها، ومملكة الأطرون وأعمالها، وعسقلان وأعمالها وموانئها وسواحلها، ومملكة بافَا والزُملة ومينائها، وقيسارية ومينائها وسواحلها وأعمالها، وأرسُوف وأعمالها، وقلعة قاقون وأعمالها وبلادها، وأعمال العوجاء وما معها من الملاحة، والفتوح السعيد وأعمالها ومزارعها، وبَيْسَان وأعمالها وبلادها، والطور وأعماله، والجُيون وأعماله، وجنين وأعمالها، وعين جالوت وأعمالها، والقِيَمون وأعماله وما يُنسبُ إليه، وطبرية ومُجبرتها وأعمالها وما معها، والمملكة الصفدية وما يُنسبُ إليها، وتينين وهونين وما معها من البلاد والأعمال، والشقيف المحروس المَرُوف بشقيف أرثون وما معه من البلاد والأعمال وما هو منسوبُ إليه، وبلاد القرن وما معه خارجاً عما عيّن فى هذه الهدية المباركة، ونضيفُ مدينة إسكندرونة، ونضيفُ ضيعة مارب بُدُنِهما وكُرومِهما وبساتينِهما وحُقوقِهما ؛ وما عدا ذلك من حُقوق إسكندرونة

المذكورة ، يكون جميعه مجلّوده وبلايه للسلطان الملك المنصور ولولده النصف ،
والنصف الآخر لملكه عكا . والقلاع العزى وأعماله ، وشعرا وأعمالها ، وشقيف
يرون وأعماله ، والعاصي جميعها ولا ما وضيها (١) ، وبانياس وأعمالها ، وقلة الصنية
وأعمالها وما معها من البحيرات والأعمال ، وكوكب وأعمالها وما معها ، وقلة عجلون
وأعمالها ، ودمشق والمملكة الدمشقية - حرمها الله تعالى - وما لها من القلاع والبلاد
والممالك والأعمال ، وقلة بعلبك المحروسة وما معها وأعمالها ، ومملكة حصص وما لها
من الأعمال والحدود ، ومملكة حماة المحروسة ومدنيتها وقلمتها وبلادها وحدودها ،
وبلاطس وأعمالها ، وصهيون وأعمالها ، وبرزيه وأعمالها ، وتوحيات حصن
الأكراذ المحروس وأعماله ، وصافيتا وأعمالها ، و ^(٢) أعمالها ، والعريمة
وأعمالها ، وقدقيا وأعمالها ، وحلبا وأعمالها ، والقليعة وأعمالها ، وحصن عكار
وأعماله وبلاديه ، وقلة شيزر وأعمالها ، وأقامية وأعمالها ، وجبله وأعمالها ،
وأبو قيس وأعماله ، والمملكة الحلبية وما هو مضاف إليها من القلاع والمدن والبلاد
والحصون ، وأنطاكية وأعمالها وما دخل في الفتوح المبارك ، وبقراس وأعمالها ،
والدربسك وأعمالها ، والرؤيدان وأعمالها ، وعيتاب وأعمالها ، وحارم وأعمالها ،
ويبرين وأعمالها ، وسبح الحديد وأعماله ، وقلة تجم وأعمالها ، وشقيف دركوش
وأعماله ، والشعر وأعماله ، وبكاس وأعماله ، والسويداء وأعمالها ، والباب وبراغا
وأعمالها ، والبيرة وأعمالها ، والرحية وأعمالها ، وسامية وأعمالها ، وشميمس
وأعمالها ، وقدس وأعمالها وما هو منسوب إليها ، وجميع ما هو منسوب لولانا
السلطان ولولده من البلاد التي عيّنت في هذه الهدية المباركة ، والتي لم تُعين .

(١) أوردتها ياقوت في معجم البلدان هكذا : رزويه ، وذكر أن العامة تقول : برزيه كما هنا .

(٢) يباض بالأصل .

وعلى جميع الساكِر ، وعلى جميع الرعايا من سائر الناس أجمعين : على اختلافهم ، وتغير أقاليمهم وأجناسهم وأديانهم ، للقاطنين فيها ، والمترددين في البر والبحر ، والسَّهْل والجبل ، في الليل والنهار ، يكونون آمنين مطمئنين في حالي سُكُورهم وورودهم - على أنفسهم ، وأموالهم ، وأولادهم ، وحرِّهم ، وبضائعهم ، وغلبنهم ، وأتباعهم ، ومواسمهم ، ودوابهم ، وعلى جميع ما يتعلق بهم ، وكل ما تحوى أنفسهم من سائر الأشياء على اختلافها ، من الحكماء بمملكة عكا : وهم كَفِيلُ المملكة بها ، والمُقسَّمُ أفرز كليم دسا حول (؟) مقدَّمُ بَيْتِ الديوية ، والمُقسَّمُ أفرز بيكوك للورد (؟) ، وأفرز اهداب نائبُ مُقدَّمِ بَيْتِ الاسhtar الآمين ، ومن جميع القرنج والإخوة ، والفرسان الداخلين في طاعتهم وتحويه مملكتهم الساحلية ، ومن جميع القرنج على اختلافهم ، الذين يستوطنون عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه المُنْدَةِ من كلِّ وأصيل إليها في برٍّ أو بحرٍ على اختلاف أجناسهم وأقاليمهم ، لا ينال بلاد السُّلطان وولده ، ولا حُصُونُهما ، ولا قلاعهما ، ولا بلادهما ، ولا ضياعهما ، ولا حصارهما ، ولا جيوشهما ، ولا عرَبهما ، ولا تُركمانهما ، ولا أكرادهما ، ولا رعايائهما ، على اختلاف الأجناس والأفكار ، ولا ما تحويه أيديهم من المواشي والأموال والفلل وسائر الأشياء منهم غنر ولا سوء ، ولا يخشون من جميعهم أمرا مكرها ولا إغارة ، ولا قمرضا ولا أذية .

وكنلك ما يستفتحهُ ويضيفهُ السُّلطان وولده على يديهما ، وعلى يد أتباعهما وعساكرهما : من بلاد ، وحُصُون ، وقلاع ، ومليك ، وأعمال ، وولايات ، برًّا وبحرًا ، سهلًا ووعرًا .

وكذلك جميع بلاد القرنج التي استقرت الآن عليها هذه المُنْدَةُ : وهي مدينة عكا وبساتينها ، وأراضيها وطواحينها ، وما يختص بها من كرمها ، وما لها من

حُقُوقِ حَوَاقِمَا ، وما تَهْتَزُّ لَهَا مِنْ بِلَادٍ فِي هَذِهِ الْمُدُنَةِ هِيَ : البَصَّةُ وَمَرْزَعَتُهَا ،
 مجدل ، حصين ، رأس عبده ، المَنَوَاتُ وَمَرْزَعَتُهَا ، الكَابِرَةُ وَمَرْزَعَتُهَا ، نصف وفيه
 جعمون ، كَفَرُ بَرْدَى وَمَرْزَعَتُهَا ، كَوَكَبُ عَمَقَا وَمَرْزَعَتُهَا ، المُونِيَّةُ ، كَفَرُ يَاسِيفَ
 وَمَرْزَعَتُهَا ، تُوسِيَانُ ، مَكْرُ حَرْسِينَ وَمَرْزَعَتُهَا ، الحَدِيدَةُ ، النِّفَاضَةُ ، العَطْوَانِيَّةُ ، مَرْتَوْقَا
 الحَاثَرِيَّةُ ، ثَمَرَا الطَّرِيقِ ، الرُّبُوبُ ، النُّابُوحَةُ وَمَرْزَعَتُهَا ، العَرِجُ وَمَرْزَعَتُهَا ، المَزْرَعَةُ
 السَّعِيرِيَّةُ الْبَيْضَاءُ ، دَعُوقُ وَالطَّاحُونُ ، كَرْدَاهُ وَالطَّاحُونُ ، حَدْرُولُ ، تَلُ النُّحْلُ ،
 الْفَارُ ، الرِّخُ وَالْمَجْدَلُ ، تَلُ كَيْسَانُ ، الْبُرُودُ ، الرَّامُونُ ، سَاسَا السِّيَاسِيَّةُ ، الشَّيْخِيَّةُ ،
 الْمَشْرِيقَةُ ، الْعَطْرَانِيَّةُ ، الْمُنِيرُ ، الْكَلِيلُ ، هَرَبَا سَيْفِ الْعَرَبِيَّةِ ، هَوْشَةُ ، الزَّرَاعَةُ
 الْجَدِيدَةُ الشَّيَالِيَّةُ ، الرَّحَاحِيَّةُ ، قَسْلَةُ ، كَفَرُ نَبْتَلُ ، الدُّوِيرَاتُ ، مَاصُوبُ ، مَقَاسُ
 الْعَبَّاسِيَّةُ ، سِيْعَاهُ ، عَيْنُ الْمَلِكِ ، الْمَنْصُورَةُ ، الرِّصْفِيَّةُ ، حَامَا ، سَرْطَا ، كَفَرَتَا ،
 أَرْضُ الزَّرَاعَةِ ، رُولُسُ ، صَفْدُ عَدَى ، سَفَرْمُ . هَذِهِ الْبِلَادُ الْمَذْكُورَةُ [تَكُونُ]
 خَاصًّا لِلْفَرَنْجِ . حَيْفَا وَالْكُرُومُ وَالْبَسَاتِينُ الَّتِي لَهَا جَمِيعُهَا ، وَالْقَصْرُ وَهُوَ الْحَوْشُ
 وَكَفَرُ تُوتَا ، وَهِيَ : الْكَنِيسَةُ ، وَالطَّيْرَةُ ، وَالسَّعْبَةُ ، وَالسَّعَادَةُ ، وَالْمَرْ ، وَالْبَاجُورُ ،
 وَسُومَرَا . تَكُونُ حَيْفَا وَهَذِهِ الْبِلَادُ الْمَذْكُورَةُ بِمَحْدُودِهَا وَأَرْضِهَا خَاصَّةً لِلْفَرَنْجِ .
 وَكَذَلِكَ قَرْيَةُ مَارَسَا بَارَهُ بَهَا ، الْمَعْرُوفَةُ بِهَا وَكُرُومُهَا وَغُرُوبُهَا يَكُونُ خَاصًّا لِلْفَرَنْجِ .
 وَدِيرُ السِّيَاحِ ، وَدِيرُ مَارَلَبَاسَ بِأَرْضَيْهِمَا الْمَعْرُوفَةُ بِمَا وَكُرُومُهُمَا وَبَسَاتِينُهُمَا يَكُونُ
 خَاصًّا لِلْفَرَنْجِ .

وعلى أن يكونَ لِلْمَلِكِ الْمَنْصُورِ وَلَوْلَاهِ الصَّالِحُ : مِنْ بِلَادِ الْيَزِيدِ ، وَهِيَ :
 الدَّالِيَّةُ ، وَدُونُهُ ، وَضَرْبَةُ الرِّجِّ . وَالكَرْكُ ، وَمَعْلِيَا ، وَالرَّامُونُ ، وَلُوسُهُ ، وَيَسُورُ ،

(١) لم تقف على أكثر هذه البلاد بعد البحث عنها فسمي بافتوت وتقويم البلدان . فذلك تبعاً للأصول
 في الإعمال واللفظ .

ونخبة يونس، ونخبة خميس، ورشما، ودوايه، يكون خاصاً للفرنج في بلاد أخرى ذكرها . وما عدا ذلك من البلاد الجبلية جميعها للسلطان ولولده بكالها .

وتكون جميع هذه البلاد الكاوية وما عيّن في هذه الهدنة المباركة من البلاد الساحلية آمنة من السلطان الملك المنصور ولده الملك الصالح ، وآمنة من عساكرهما وجنودهما ومن خديهما، وتكون هذه البلاد المشروحة أعلاه، للداخلة في هذه الهدنة المباركة : الخاص بها ، وما هو مناصفة - مطمئنة هي ورباها، وسائر أجناس الناس فيها ، والقاطنين بها ، والمتريدين إليها على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، والمتريدين إليها من جميع بلاد القرنجة والسفار ، والمتريدين منها إليها في برّ وبحر، في ليل أو نهار، سهل وجبل ، آمنين على النفوس والأموال والأولاد، والمراكب والدواب ، وجميع ما يتعلق بهم ، وكلّ ما تحويه أيديهم من الأشياء على اختلافها ، من السلطان ولده ، وجميع من هومت طاعتها . لا ينالهم ولا ينال هذه البلاد المذكورة التي انعقدت عليها الهدنة سوء ولا ضرر ولا إغارة ، ولا ينال إحدى الجهتين المذكورتين : الإسلامية والقرنجية من الأخرى ضرر ولا أذية ، ويكون ما تقرّر أنه يكون خاصاً للفرنج حسب ما عيّن أعلاه لهم ، وما تقرّر أن يكون للسلطان ولولده خاصاً لها ، والمناصفات تكون كما شريح . ولا يكون للفرنج من البلاد والمناصفات إلا ما شريح في هذه الهدنة وعيّن فيها من البلاد .

وعلى أن الفرنج لا يمدّدون في غير عكا وعثليت وصيدا : ممّا هو خارج عن أنوار هذه الجهات الثلاث المذكورات ، لا قلعة ، ولا برجا ، ولا حصنا ، ولا مستجدا .

وعلى أنه متى هرب أحد - كائنا من كان - من بلاد السلطان ولده إلى عكا والبلاد الباعية المعينة في هذه الهدنة ، وقصد الدخول في دين النصرانية وتصر

بإرادته، يُردُّ جميع ما يروحُ معه ويبقى عُرباناً . وإن كان ما يقصدُ الدُخُولُ في دين النصرانية ولا يقتصر، ردُّ إلى أبايها العالِيَةِ بجميع ما يروحُ معه، بشفاعَةِ نَفَقَةٍ بعد أن يُعطى الأمان . وكذلك إذا حضر أحدٌ من عكَّا والبلادِ السَّاحِلِيَةِ الداخِلَةِ في هذه المُدَنَةِ، وقصدَ الدُخُولَ في دين الإسلام وأسلم بإرادته، ردُّ جميع ما معه ويبقى عُرباناً . وإن كان ما يقصدُ الدُخُولَ في دين الإسلام ولا يُسلمُ، ردُّ إلى الحُكَّامِ بعكَّا، والمُقلِّمينَ بجميع ما يروحُ معه بشفاعَةِ بعد أن يُعطى له الأمان .

وعلى أنَّ المُنوعاتِ المعروفَ مَنعُها قَدِيمًا تَسْتَقِرُّ على قَاعِدَةِ المَنعِ من الجهتين . ومتى وُجدَ مع أحدٍ من مُجْمَرِ بلادِ السُّلطانِ ولَدَه من المسلمين وغيرهم على اختلاف أديانهم وأجناسهم شَيْءٌ من المُنوعاتِ بعكَّا والبلادِ السَّاحِلِيَةِ الداخِلَةِ في هذه المُدَنَةِ، مثلَ عَدَةِ السَّلاحِ وغيره، يُعادُ على صاحِبِهِ الذي أَشْرَاهُ منه، ويعادُ إليه مَنعُهُ، ويردُّ ولا يُؤخَذُ ماله استهلاكًا، ولا يُؤدَّى . وللسُّلطانِ ولولَدِهِ أن يفتصلا في من يخرجُ من بلادِهِما من رَجِيعَتِهما، على اختلاف أديانهم وأجناسهم، بشَيْءٍ من المُنوعاتِ . وكذلك كَفِيلُ المُلْكَةِ بعكَّا والمُقتَسِمُونَ لهم أن يفتصلوا في رَجِيعَتِهِم الذين يخرجُونَ بالمُنوعاتِ من بلادِهِم الدَّاخِلَةِ في هذه المُدَنَةِ .

ومتى أَخِلَّتْ أَخِيذَةٌ من الجانِبَيْنِ، أو قُتِلَ قَتِيلٌ من الجانِبَيْنِ، على أَى وَجْهِ كَانَ - والعِياذُ بِاللَّهِ - رُدَّتِ الأَخِيذَةُ بَعِيْهَا إن كانت مَوْجُودَةً، أو قِيَمَتْها إن كانت مَفْقُودَةً . والقَتِيلُ يكونُ المَوْضُ عنه بَنَظِيرَهُ من جَنَسِهِ : فارسٌ بفارسٍ، وبرَكْلٌ ببرَكْلٍ، وتامِرٌ بتامِرٍ، ورَاجِلٌ برَاجِلٍ، وفَلَّاحٌ بفَلَّاحٍ . فإِذَا خَفِيَ أَمْرُ القَتِيلِ والأَخِيذَةِ، كانت المَهْلَةُ في الكَشْفِ أربعين يومًا، فإن ظهرتْ الأَخِيذَةُ أو تَمَيَّنَ أَمْرُ المَقْتُولِ، رُدَّتِ الأَخِيذَةُ بَعِيْهَا ويكونُ المَوْضُ عن القَتِيلِ بَنَظِيرَهُ، وإن لم تَظْهَرِ

كَانَتْ الْيَمِينُ عَلَى الْوَالِي الْمَكَانِ الْمَدْعَى عَلَيْهِ، وَتَلَاةً تَقْرِعُ اخْتِيارَ الْمَدْعَى طَلِبِهِ،
 مِنْ تِلْكَ الْوِلَايَةِ . وَإِنْ أَسْتَعِ الْوَالِي عَنْ الْيَمِينِ حُلْفَ مِنْ الْجَهَةِ الْمُتَمَيِّعَةِ ثَلَاثَةً تَقْرِ
 تَحْضَارِهِمُ الْجَهَةَ الْأُخْرَى وَأَخَذَ قِيمَتَهَا . وَإِنْ لَمْ يُنْصِفِ الْوَالِي وَلَا رَدَّ الْمَالَ، أَنْتَهَى
 الْمَدْعَى أَمْرَهُ إِلَى الْحُكَّامِ مِنَ الْجَهَتَيْنِ ، وَتَكُونُ الْمَهْلَةُ بَعْدَ الْإِنْهَاءِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ،
 وَيُلْزَمُ الْوَلَاةُ مِنَ الْجَهَتَيْنِ بِالْوَقَافِ بِهَذَا الشَّرْطِ .

وَمَنْ أَخْطَأَ تَحِيلاً أَوْ اخِيَصَةً ، أَوْ قَدَّرُوا عَلَى اخْتِذِ حَقٍّ وَلَمْ يَأْخُذْهُ كُلُّ وَاحِدٍ
 فِي وِلَايَتِهِ، يَتَعَيَّنُ عَلَى الَّذِي يُولِيهِ مِنْ مُلُوكِ الْجَهَتَيْنِ إِعَاةَةُ السِّيَاسَةِ فِيهِ : مَنْ أَخَذَ
 الرُّوْحَ وَالْمَالَ وَالشَّقْطَ ، وَالْإِنْكَارَ النَّصَامَ عَلَى مَنْ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ الْإِنْكَارُ إِذَا قُصِلَ ذَلِكَ
 فِي وِلَايَتِهِ وَأَرْضِهِ .

وَإِنْ هَرَبَ أَحَدٌ بِمَالٍ وَأَعْرِفَ بِيَعْضِهِ وَأَنْكَرَ مَعْصَ مَا يُدْعَى بِهِ عَلَيْهِ، لَزِمَهُ أَنْ
 يَتَلَفَّ أَنْهُ لَمْ يَأْخُذْ سِوَى مَارَدِهِ . فَإِنْ لَمْ يَقْنَعْ الْمَدْعَى بِبَيْنِ الْهَارِبِ، حَقَّقَ الْوَالِي تِلْكَ
 الْوِلَايَةَ أَنَّهُ لَمْ يَطْلُغْ عَلَى أَنَّهُ وَصَلَ مَعَهُ غَيْرُ مَارَدِهِ . وَإِنْ أَنْكَرَ أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ مَعَهُ شَيْءٌ
 أَصْلًا، اسْتَعْلَفَ الْهَارِبُ أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ مَعَهُ لِلدَّعَى شَيْءٌ .

وَعَلَى أَنَّهُ إِذَا أَنْكَسَرَ مَرَكَبٌ مِنْ مَرَاكِبِ تُجَّارِ السُّلْطَانِ وَوَلَّيَهُ الَّتِي أَنْقَضَتْ
 عَلَيْهَا الْمُدْنَةَ ، وَرَعَيْتَهُمَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ : عَلَى اخْتِلَافِ أَجْناسِهِمْ وَأَذْيَانِهِمْ ،
 فِي مَيْتَةٍ عَكًّا وَسَوَاحِلِهَا ، وَالْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ الَّتِي أَنْقَضَتْ عَلَيْهَا الْمُدْنَةَ ، كَانَ كُلُّ مَنْ
 فِيهَا أَمَّا عَلَى الْأَقْسَمِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَنْبَاجِ وَالنَّاسِ . فَإِنْ وَجَدَ أَحْصَابُ هَذِهِ الْمَرَاكِبِ
 الَّتِي تَشْكُرُ سُلْطَمَ مَرَاكِبِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ [إِلَيْهِمْ] . وَإِنْ عَلِمُوا بِمَوْتِ أَوْ خَرَقِ أَوْ غِيَةِ ،
 فَيُحْتَفَظُ بِمَوْجُودِهِمْ وَيُسَلَّمُ لِنَوَاقِبِ السُّلْطَانِ وَوَلَّيِهِ . وَكَذَلِكَ الْمَرَاكِبُ الْمُتَوَجَّهَةُ
 مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ الْمُتَقَدِّدَةِ عَلَيْهَا الْمُدْنَةُ لِلْفَرَجِ ، يَجْرِي لَهَا مِثْلُ ذَلِكَ فِي بِلَادِ

السلطان وولده، ويحفظ بموجودها إن لم يكن صاحبها حاضراً إلى أن يسلم لتكفيل المملكة بكتا أو المقدم .

ومنى توفى أحد من التجار الصادرين والواردين : على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، من بلاد السلطان وولده ، في عكا وصيدا وحلب ، والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة على اختلاف أجناسهم وأديانهم [فيحفظ على ماله حتى يسلم لنواب السلطان وولده] ، وإذا توفى أحد في البلاد الإسلامية الداخلة في هذه الهدنة ، يحفظ على ماله إلى حين يسلم إلى كفيل المملكة بكتا والمقدمين .

وعلى أن شواني السلطان وولده إذا عمرت وترجت لا تنزعش بأذية إلى البلاد الساحلية التي أعتقت عليها هذه الهدنة . ومنى قصبت الشواني المذكورة جهة غير هذه الجهات ، وكان صاحب تلك الجهة معاهدا للحكام بملكه عكا ، فلا تدخل إلى البلاد التي أعتقت عليها هذه الهدنة ولا تروء منها . وإن لم يكن صاحب تلك الجهة التي قصبها الشواني المنصورة معاهدا للحكام بملكه عكا والبلاد التي أعتقت عليها الهدنة ، فلها أن تدخل إلى بلادها وتترود منها . وإن أنكر شيء من هذه الشواني - والباذ بالله - في مينا من مواني البلاد التي أعتقت عليها الهدنة وسواحلها : فإن كانت قاصدة من له مع ملكه عكا ومقدي بيوتها عهد ، فيلزم كفيل المملكة بكتا ومقدي البيوت بحفظها ، وتمكين رجالها من الزوادة وإصلاح ما أنكر منها ، والعود إلى البلاد الإسلامية ، و[لا] يطل حركة ما سكر منها - والباذ بالله - أو يرميه البحر . هذا إذا كانت قاصدة من له مع ملكه عكا ومقديها عهد . فإن [قصبت من] لم يكن لها معهم عهد ، فلها أن تروء وتعمر رجالها من البلاد المتعقد عليها هذه الهدنة ، وتوجه إلى البلاد المرسوم لها بقصدها ، ويعتمد هذا الفصل من الجهتين .

وعلى أنه متى تحرك أحد من ملوك الفرنجة وغيرهم من جوار البحر لقصده الحضور لمصره السلطان وولده في بلادهما المتفق عليها هذه الهدنة ، فليرم ثابت المملكة والمقتدين بعكا ، أن يعرفوا السلطان وولده بحركتهم قبل وصولهم إلى البلاد الإسلامية الداخلة في هذه الهدنة بمدة شهرين . وإن وصلوا بعد انقضاء مدة شهرين ، فيكون كفيل المملكة بعكا ، والمقتدون برئيس من عهدته الجين في هذا الفصل . ومتى تحرك عدو من جهة البر من التتار وغيرهم ، فأتى من سبق الخبر إليه من الجيوش يعرف الجهة الأخرى بما سبق الخبر إليه من أمرهم .

وعلى أنه إن قصد البلاد الشامية - والبادية - عدو من التتار وغيرهم في البر ، وأمازات الصاكر الإسلامية من قدام العدو . ووصل العدو إلى القرب من البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة وقصدوها بمصره ، فيكتب إلى [كفيل] المملكة بعكا ، والمقتدين بها أن يتدبروا عن بيوتهم ورجعتهم وإلاهم بما تصل قوتهم إليه . وإن حصل - والبادية - جفل من البلاد الإسلامية إلى البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ، فليرم كفيل المملكة بعكا ، والمقتدين بها حفظهم والدفع عنهم ومنع من يقصدهم بضرر ، ويكونون آيين مطمئنين بما معهم .

وعلى أن النائب بمملكة عكا ، والمقتدين بها يؤصون في سائر البلاد الساحلية التي وقعت الهدنة عليها ، أنهم لا يمكنون حرامية البحر من الزوادية من عندهم ولا من حمل ماء . وإن طفرأوا بأحد منهم يمسكونه ، وإن كانوا يبيعون عندهم بضائع فيمسكها كفيل المملكة بعكا والمقتدون حتى يظهر صاحبها وقسم إليه . وكذلك يعتمد السلطان وولده .

وعلى أن الرهائن بعكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ، كل من عليه منهم مبلغ أو غلة ، فيحلف وإلى ذلك المكان الذي منه الرجينة ، ويحلف المباشر والكايب

في وقت أخذ هذا الشخص رهينة أنه عليه كفا وكذا : من دراهم أو غلة أو بقير أو غيره . فإذا حلف الوالي والمباشر والكايب قدام نائب السلطان وولده على ذلك يقوم أهل الرهينة عنه بما للفرج عليه ويطلقونه . وأما الرهائن الذين أخذوا مفسوين إلى الجفل والأخيشاء أنهم لا يهربون إلى بلاد الإسلام ويتمتع الولاة والمباشرون من العيين عليهم ، فأولئك يطلقون .

وعلى أن لا يمتد على التجار المسافرين : الصادريين والواردين من الجهتين حق لم تجر به عادة ، ويحرموا على عوائدهم المستمرة إلى آخر وقت ، وتؤخذ منهم الحقوق على السادة المستمرة ، ولا يمتد عليهم رسم ولا حق لم تجر به عادة . وكل مكان عيرف باستخراج الحق فيه يستخرج بذلك المكان من غير زيادة من الجهتين ، في حالتي سفرهم وإقامتهم ؛ ويكون التجار والسفار والمترقدون آمنين مطمئنين محقرين من الجهتين في حالتي سفرهم وإقامتهم ، وصُدورهم وورودهم بما يحببتهم من الأصناف والبضائع التي هي غير ممنوعة .

وعلى أنه ينادى في البلاد الإسلامية والبلاد الفرنجية الداخلة في هذه الهدنة : أنه من كان من فلاحى بلاد المسلمين يعود إلى بلاد المسلمين مسلماً كان أو نصرانياً . وكذلك من كان من فلاحى بلاد الفرنج مسلماً كان أو نصرانياً ، معروفاً قرارياً من الجهتين ، ومن لم يمتد بعد المنادة يطرد من الجهتين . ولا يمكن فلاحو بلاد المسلمين من المقام في بلاد الفرنج المتعبد عليها هذه الهدنة ، ولا فلاحو بلاد الفرنج من المقام في بلاد المسلمين التي أمنت عليها هذه الهدنة ؛ ويكون عود الفلاح من الجهة إلى الجهة الأخرى بأمان .

وعلى أن تكون كنيسة الناصرة وأربع بيوت من أقرب البيوت إليها لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب : كبيرهم وصغيرهم على اختلاف أجناسهم وأقاربهم :

من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه المندنة ، ويصلى بالكنيسة الإسماعيلية والرهبان ، وتكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصرة خاصة ، ويكونون أميين مطمئنين في توجيههم وحضورهم إلى حدود البلاد الداخلة في هذه المندنة . وإذا نُقِبَت الحجارة التي بالكنيسة المذكورة ترمى برا ، ولا يحط بحجر منها على حجر لأجل بنايته ، ولا يتعرض إلى الأقساء والرهبان ، وذلك على وجه الهبة لأجل زوار دين الصليب بغير حق .

ويلزم السلطان وولده حفظ هذه البلاد المشروحة التي أُنقِذت عليها المندنة من قسبهما وعساكرهما وجنودهما ، ومن جميع المتجربة والمتلصصين والمفسدين : ممن هو داخل تحت حكمهما وطاعتها . ويلزم كفيل الملكة بكاف المقيمين بها حفظ هذه البلاد الإسلامية المشروحة التي أُنقِذت عليها المندنة ، من قسبهم وعساكرهم وجنودهم ، وجميع المتجربة والمتلصصين والمفسدين : ممن هو داخل تحت حكمهم وطاعتهم بالملكة الساحلية الداخلة في هذه المندنة . ويلزم كفيل الملكة بكاف ، ومقدي البيوت بها الحكم بكاف والبلاد الساحلية الداخلة في هذه المندنة - القيام بما تضمنته هذه المندنة من الشروط جميعها ، شرطا شرطا ، وفصلا فصلا ، والعمل بأحكامها ، والوقوف مع شروطها إلى انقضاء مئتها . وبني كل منهم بما حلف به من الأيمان المؤكدة : من أنه يقي بجميع ما في هذه المندنة على ما حلفوا به .

تستمر هذه المندنة المباركة بين السلطان وولده وأولادها وأولاد أولادهم ، وبين الحكماء بملكية عكا ، وصيدا ، وعنتي ، وهم الشيخان أودرا (٩) المقسمون المذكورون فلان وفلان إلى آخرها . لا تستمر بموت مملوك أحد الجهتين ، ولا بتغير مقدم وتولية غيره ، بل تستمر على حالها إلى آخرها وانقضائها ، بشرطها المحدودة ،

وقَوَّاعِيهَا الْمُقَرَّرَةُ ، كَامِلَةٌ تَامَةٌ . وَفِي أَتَقَضَّتْ هَذِهِ الْمُهْدَنَةُ الْمُبَارَكَةُ ، أَوْ وَقَعَ
- وَالْيَاذُ بَاقِهِ - فَسَخَّ ، كَانَتْ الْمُهْلَةُ فِي ذَلِكَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا مِنَ الْجَهْتَيْنِ . وَيُنَادَى
بِرُجُوعِ كُلِّ أَحَدٍ إِلَى وَطَنِهِ بَعْدَ الْإِشْهَادِ ، لِيَعُودَ النَّاسُ إِلَى مَوَاطِنِهِمْ أَمِينِينَ مُطْمَئِنِّينَ ،
وَلَا يَخْشَوْنَ مِنَ السَّفَرِ مِنَ الْجَهْتَيْنِ ، وَلَا تَبْطُلُ بَعْزَلُ أَحَدٍ مِنَ الْجَهْتَيْنِ ، وَتُسَيِّدُ
أَحْكَامُهَا مُتَابِعَةً مُتَوَالِيَةً ، بِالسَّنِينَ وَالشُّهُورِ وَالْأَيَّامِ إِلَى أَتَقَضَّاتِهَا ؛ وَيَزِمُ الْمُتَوَلَّى
حِفْظَهَا وَالْعَمَلُ بِشُرُوطِهَا وَقُصُوبُهَا ، وَقُرُوعُهَا وَأَصُولُهَا ؛ وَيَجْرَى الْحَالُ فِيهَا عَلَى
أَجَلِ الْحَالَاتِ إِلَى آخِرِهَا . وَعَلَى جَمِيعِ ذَلِكَ وَقَعَ الرِّضَا وَالْمَصْفُوحُ وَالْإِتْمَانُ ، وَحَلَفَ
عَلَيْهَا مِنَ الْجَهْتَيْنِ ، وَاقَّهَ الْمُوَقِّقُ .



وهذه نُسخةُ هُدْنَةٍ ، عُقِدَتْ بَيْنَ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ ، صَلَاحِ الدِّينِ « خَلِيل » ابْنِ
الْمَلِكِ الْمُتَّصِرِ سَيِّفِ الدِّينِ « قُلاوُونَ » صَاحِبِ الدِّيارِ الْمِصْرِيَّةِ وَالْبِلَادِ الشَّامِيَةِ ؛
وَبَيْنَ دُونِ حَاكِمِ الرِّيدِ أَرْغُونَ ، صَاحِبِ بَرْشَلُونَةَ مِنَ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ ؛ عَلَى يَدِ رُسُلِهِ :
أَخَوَيْهِ وَصَهْرَيْهِ الْآتِي ذِكْرَهُمْ ، فِي صَفَرِ سَنَةِ أَرْبَعِينَ وَتِسْعِينَ وَسِمَّائَةٍ ، وَهِيَ :

أَسْتَقْبَرْتُ الْمَوَدَّةَ وَالْمُصَادَقَةَ بَيْنَ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ ، وَبَيْنَ حَضْرَةِ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ ،
الْمَكْرَمِ ، الْخَطِيرِ ، الْبَاسِلِ ، الْأَسَدِ ، الضَّرْفَامِ ، الْمَفْعَمِ ، الْمَجْلِلِ « دُون » حَاكِمِ
الرِّيدِ أَرْغُونَ ، وَأَخَوَيْهِ دُونِ وَلَدَرِيك ، وَدُونِ بِيدَرُو ، وَبَيْنَ صَهْرَيْهِ الَّذِينَ طَلَبَ
الرَّسُولَانِ الْوَاصِلَانِ إِلَى الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ عَنْ مُرْسِلِهِمَا الْمَلِكِ دُونِ حَاكِمِ أَنْ يَكُونَا
دَاخِلِينَ فِي الْمُهْدَنَةِ وَالْمُصَادَقَةِ ، وَأَنْ يَتَرَمَّ الْمَلِكُ دُونِ حَاكِمِ عَنْهَا بِكُلِّ مَا أَلْتَمَسَ بِهِ عَنْ
نَفْسِهِ ، وَيَتَذَرَّكَ أَمْرَهُمَا . وَهِيَ الْمَلِكُ الْجَلِيلُ ، الْمَكْرَمُ ، الْخَطِيرُ ، الْبَاسِلُ ، الْأَسَدُ ،
الضَّرْفَامُ ، دُونِ شَانِجِه ، مَلِكُ قَشْتَالَةَ ، وَطَلِيظَلَّةَ ، وَلِيُونُ ، وَبَلْتَيْسِيَّةَ ، وَأَشِيلِيَّةَ ،
وَقُرْطَبَةَ ، وَمَرْسِيَّةَ ، وَجِيَّانَ ، وَالغَرْبَ ، الْكَفِيلُ بِمَمْلَكَةِ أَرْغُونَ وَبَرْتَال - وَالْمَلِكُ

الْجَلِيلُ دُونَ أَنْفُوشَ مَلِكٍ بُرْخَال، مِنْ تَارِيخِ يَوْمِ الْخَمِيسِ تَامِعِ عَشْرِ صَفَرِ سَنَةِ
 اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ وَسِمَّائَةَ، الْمَوَاقِيقِ ثَلَاثِ بَقِيَّةٍ مِنْ جَنَيرِ سَنَةِ أَلْفٍ وَمِائَتَيْنِ وَأَثْنَتَيْنِ
 وَتِسْعِينَ لِمَوْلَانَا السَّيِّدِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَفَكَانَ بِمَحْضُورِ رَسُولِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ،
 وَهُمَا : الْمُقْتَضِمُ الْكَبِيرُ وَصُودِيْعَارُ مَوْنَدِ الْحَاكِمِ، عَنْ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ فِي بَلَنَسِيَّةٍ،
 وَرَفِيقُهُ الْمُقْتَضِمُ الْمُتَمَدِّدُ دِيْمُونُ الْمَانِ قَرَارِي بَرَحْلُونَةَ، الْوَاصِلَيْنِ بِكَلَابِ الْمَلِكِ دُونَ
 حَاكِمٍ، الْمُخْتَوِمُ بِحَتْمِ الْمَلِكِ الْمَذْكُورِ، الْمُقْتَضِي مَعْنَاهُ أَنَّهُ حَمَلَهُمَا جَمِيعًا أَخَوَاهُمُ
 وَمَطْلُوبُهُمْ، وَسَأَلَ أَنْ يَقُومَا فِيمَا يَقُولَانِهِ عَنْهُ، فَكَانَ مَضْمُونُ مُشَافَهَتِهِمَا وَسُؤَالِهِمَا تَقَرَّرَ
 قَوَاعِدِ الصُّلْحِ وَالْمُؤَدَّةِ وَالْمُصَادَقَةِ . وَالشَّرُوطُ الَّتِي يَشْتَرِطُهَا الْمَلِكُ الْأَشْرَفُ عَلَى الْمَلِكِ
 دُونَ حَاكِمٍ، وَأَنَّهُ يَلْتَزِمُ بِجَمِيعِ هَذِهِ الشَّرُوطِ الْآتِي ذِكْرُهَا، وَيَحْتَلِفُ الْمَلِكُ الْمَذْكُورُ
 عَلَيْهَا هُوَ وَأَخَوَاهُ وَصِهْرَاهُ الْمَذْكُورُونَ . وَوَضَعَ الرِّسُولَانِ الْمَذْكُورَانِ خُطُوبَهُمَا بِجَمِيعِ
 الْفُصُولِ الْآتِي ذِكْرُهَا، بِأَمْرِهِ وَمَرْضُومِهِ . وَأَنَّ الْمَلِكَ دُونَ حَاكِمٍ وَأَخُوَيْهِ وَصِهْرِيهِ
 يَلْتَزِمُونَ بِهَا، وَهِيَ : أَسْتَقْرَارُ الْمُؤَدَّةِ وَالْمُصَادَقَةِ مِنَ التَّارِيخِ الْمَقْدَمِ ذِكْرُهُ، عَلَى مَمَرِ
 السِّنِينَ وَالْأَعْوَامِ، وَتَعَاقِبِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ : بَرًّا وَبَحْرًا، سَهْلًا وَوَعْرًا، قُرْبًا وَبُعْدًا .

وَعَلَى أَنْ تَكُونَ بِلَادُ السَّلْطَانِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ، وَقِلَاعُهُ، وَحُصُونُهُ، وَثُقُورُهُ،
 وَمَسَالِكُهُ، وَمَوَاقِي بِلَادِهِ وَسَوَاحِلُهَا، وَبُرُورُهَا، وَجَمِيعُ أَقَالِمِهَا وَمُدُنِهَا، وَكُلُّ مَا هُوَ
 دَاخِلٌ فِي مَمْلَكَتِهِ، وَتَحْتَسُوبُ مِنْهَا، وَمُنْسُوبٌ إِلَيْهَا : مِنْ سَائِرِ الْأَقَالِمِ الرُّومِيَّةِ،
 وَالْعِرَاقِيَّةِ، وَالْمَشْرِقِيَّةِ، وَالشَّامِيَّةِ، وَالْحَلَبِيَّةِ، وَالْفَرَاتِيَّةِ، وَالْبَغْدَادِيَّةِ، وَالْجَزَائِرِيَّةِ، وَالْأَنْدَلُسِيَّةِ،
 وَالْمَغْرِبِيَّةِ، وَالْقُرْبِ .

وَسَعْدُ هَذِهِ الْبِلَادِ وَالْأَقَالِمِ وَمَوَانِيهَا وَسَوَاحِلُهَا مِنَ الْبَرِّ الشَّامِيِّ مِنَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ
 وَالْبِلَادِ الرُّومِيَّةِ السَّاحِلِيَّةِ، وَهِيَ : مِنْ طَرَابُلُسَ الْقُرْبِ، وَسَوَاحِلِ بَرْقَةِ،
 وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ، وَدِيْمَاطِ، وَالطَّنِينَةِ، وَقَطِيَا، وَغَزَّةَ، وَعَسْقَلَانَ، وَيَاقَا،

وَأَرْسُوفَ ، وَقِيَّسَارِيَّةَ ، وَعَثَلِيَّتَ ، وَحِقَّا ، وَعَكَّا ، وَصُورَ ، وَصَيْبَا ، وَيُثُوتَ ،
وَجَبِيلَ ، وَالْبَيْرُونَ ، وَأَنْقَسَةَ طَرَابُلُسَ الشَّامِ ، وَأَنْطَرَسُوسَ ، وَمَرْقِيَةَ ، وَالْمَرْقَبَ ،
وَسَاحِلَ الْمَرْقَبَ : بَابِيَّاسَ وَغَيْرَهَا ، وَجَبَلَةَ ، وَاللَّاذِقِيَّةَ ، وَالسُّوَيْدِيَّةَ وَجَمِيعَ الْمَوَانِ
وَالْبُرُورِ إِلَى قَتَرِيْمِيَّاطَ وَبُحَيْرَةِ تَبْيَسَ .

وَحُلَّهَا مِنَ الْبَرِّ الْغُرْبَى : مِنْ تُؤْتَسَ وَإِقْلِيمِ إِفْرِيقِيَّةَ وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، وَطَرَابُلُسَ
الْفَرْسِ وَتُفُورَهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، وَبَرْقَةَ وَتُفُورَهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، إِلَى قَتَرِ
الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ وَرَشِيدَ وَبُحَيْرَةِ تَبْيَسَ وَسَوَاحِلِهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا .

وَمَا تَحْتَوِيهِ هَذِهِ الْبِلَادُ وَمِمَّا لَيْكُ الْمَذْكُورَةُ وَالَّتِي لَمْ تُذَكَّرْ ، وَالْمَدَائِنُ وَالتُّغُورُ
وَالسَّوَاحِلُ وَالْمَوَانِ وَالتُّغُرَاتُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَالصُّدُورُ وَالْوُرُودُ ، وَالْمَقَامُ وَالسَّفَرُ ،
مِنْ عَسَاكِرَ وَجُنُودَ ، وَتُرُكَّانَ ، وَاسْخَرَادَ ، وَعُزْبَانِ ، وَرَطَايَا ، وَنُجْمَارَ ، وَشَوَانِ ،
وَمَرَاكِبَ ، وَسُفُنَ ، وَأَمْوَالَ ، وَمَوَاشِيَ ، عَلَى اخْتِلَافِ الْأَدْيَانِ وَالْأَنْهَارِ وَالْأَجْنَاسِ ،
وَمَا تَحْتَوِيهِ الْأَيْدِي مِنْ سَائِرِ أَصْنَافِ الْأَمْوَالِ وَالْأَسْلِحَةِ وَالْأَمْنِيَّةِ وَالْبَضَائِعِ وَالنَّجَارِ ،
قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا ، قَرِيبًا كَانَ أَوْ بَعِيدًا ، بَرًّا كَانَ أَوْ بَحْرًا - أَمِنَةً عَلَى الْأَنْفُسِ ،
وَالْأَرْوَاحِ ، وَالْأَمْوَالِ ، وَالْحَرِيمِ ، وَالْأَوْلَادِ مِنَ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ وَمِنْ أَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ
الْمَذْكُورِينَ ، وَمِنْ أَوْلَادِهِمْ ، وَقُرْمَانِهِمْ ، وَخِيَالَتِهِمْ ، وَمُعَاهِدِهِمْ ، وَعَمَلَتِهِمْ ،
وَرِجَالِهِمْ ، وَكُلٌّ مِنْ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ . وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا سَيَفْتَحُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدِ الْمَلِكِ
الْأَشْرَفِ ، وَعَلَى يَدِ أَوْلَادِهِ وَعَسَاكِرِهِ وَجُيُوشِهِ ، مِنْ الْقِلَاعِ وَالْحُصُونِ ، وَالْبِلَادِ
وَالْأَقْلَامِ ، فَإِنَّهُ يَجْرِي عَلَيْهِ هَذَا الْحُكْمُ .

وَعَلَى أَنْ تَكُونَ بِلَادُ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ وَبِلَادُ أَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ وَمِمَّا لَيْكُ الْمَذْكُورَةُ
فِي هَذِهِ الْمُدُنِ ، وَهِيَ : أَرْغُونُ وَأَعْمَالُهَا وَبِلَادُهَا : صَقْلِيَّةٌ وَجَزِيرَتُهَا وَبِلَادُهَا

(١) خبر قوله : أَنْ تَكُونَ بِلَادُ السُّلْطَانِ الْوَارِدَةُ فِي الصَّفْحَةِ قَبْلَ .

وأعمالها، برؤيتها وأعمالها وإلادها، جزيرة ماققة، وقوصرة وإلادها وأعمالها،
مبورقة وإباسة وإلادها، وأرسوار (٩) وأعمالها، وما سيفتمه الملك دون حاكم
من بلاد أملائه القرنج المبادرين له بتلك الأقاليم - أميين من الملك الأشرف
وأولاده، وعساكره وجيوشه، وشوانيه وعمائره، هى ومن فيها من قرسان وخيالة
ودعايا . وأهل بلاده أميين مطمئين على الأئس والأموال، والحريم والأولاد،
فى البر والبحر، والصعود والورود .

وعلى أن الملك دون حاكم هو وأخواته وصهره أصدقاء من مصادق الملك الأشرف
وأولاده، وأعداء من يائديهم من سائر الملوك الفرنجية وغير الملوك الفرنجية . وإن
قصد الباب برومية، أو ملك من ملوك القرنج : متوجا كان أو غير متوج، كبيرا كان
أو صغيرا، أو من الجنوية، أو من البادية . أو من سائر الأجناس على اختلاف
القرنج والرؤم، واليوت : بيت الإخوة الديوية، والاستارية، والرؤم، وسائر
أجناس النصارى - مصرة بلاد الملك الأشرف، بحارية أو أدية، بمنهم الملك دون
حاكم هو وأخواته وصهره ورفقوتهم، ويمرون شوانيه ومرايكهم، ويقصدون
بلادهم، ويشغلونهم بنفوسهم عن قصد بلاد الملك الأشرف وموانيه وسواحلها
وتغوره المذكورة، وغير المذكورة، ويأتملونهم فى البر والبحر بشوانيه وعمائره،
وقرسانهم وخيالاتهم ورجالتهم .

وعلى أنه متى خرج أحد من أمائى الملك الأشرف من القرنج من شروط
المدينة المستقرة بينه وبينهم، ووقع ما يوجب فسخ الهدنة، لا يبينهم الملك دون
حاكم ولا أحد من أخوته ولا صهره، ولا خيالاتهم، ولا قرسانهم، ولا أهل
بلادهم، بقتيل ولا خيالة، ولا سلاح ولا رجالة، ولا مال ولا تجدة، ولا ميرة،
ولا مراكب ولا شوان ولا غير ذلك .

وعلى أنه متى طلب الباب برومية، وملوك الفرنج، والروم، والتتار، وغيرهم من الملك دون حاكم أو من أخويه أو من صهره أو من بلادهم، إنجاذاً، أو معلونة: بجيلة، أو رجالة، أو مال، أو مراكب، أو شوان، أو سلاح - لا يؤايقهم على شيء من ذلك، لا في سر ولا جهر، ولا يمين أحداً منهم ولا يؤايقه على ذلك. ونرى أظلموا على أن أحداً منهم يقصد بلاد الملك الأشرف لمحاربه أو لمصرته بنى، يعرف الملك الأشرف بخبرهم، وبالجهة التي اتفقوا على قصصها في أقرب وقت، قبل حوطينهم من بلادهم، ولا يتخفيه شيئاً من ذلك.

وعلى أنه متى أنكر مراكب من المراكب الإسلامية في بلاد الملك دون حاكم، أو بلاد أخويه أو بلاد صهره، [فعلهم] أن ينفقروهم، ويحفظوا مراكبهم وأموالهم، ويساعدوهم على عمارة مراكبهم، ويجهزهم وأموالهم وبضائعهم إلى بلاد الملك الأشرف. وكذلك إذا أنكرت مراكب من بلاد دون حاكم، وبلاد أخويه وصهره، ومعاهده في بلاد الملك الأشرف، يكون لهم هذا الحكم المذكور أعلاه.

وعلى أنه متى مات أحد من تجار المسلمين ومن نصارى بلاد الملك الأشرف، أو ذمة أهل بلاده، في بلاد الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهره وأولاده ومعاهده، لا يمارضوهم في أموالهم ولا في بضائعهم، ويحمل مالهم ويؤجودهم إلى بلاد الملك الأشرف: ليفعل فيه ما يختار. وكذلك من يموت في بلاد الملك الأشرف من أهل مملكة الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهره ومعاهدهم، فلهم هذا الحكم المذكور أعلاه.

وعلى أنه متى عبر على بلاد الملك دون حاكم أو بلاد أخويه أو صهره أو معاهده رسل من بلاد الملك الأشرف قاصدين جهة من الجهات القريبة أو البعيدة،

صَادِرِينَ أَوْ وَارِدِينَ ، أَوْ رِوَاكِهِم الرِّجْحُ فِي بِلَادِهِمْ ، تَكُونُ الرُّسُلُ وَغِلْمَانُهُمْ وَأَتْبَاعُهُمْ ،
وَمَنْ يَصِلُ مَعَهُمْ مِنْ رُسُلِ الْمُلُوكِ أَوْ غَيْرِهِمْ - آمِنِينَ مَحْفُوظِينَ فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ ،
وَيُجَهِّزُهُمْ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ .

وَعَلَى أَنَّ الْمَلِكَ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ مَتَى جَرَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ بِلَادِهِمْ قَضِيَّةٌ
تُوجِبُ فَسْحَ الْمُهَادَنَةِ ، كَانَ عَلَى كُلِّ مِنَ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ طَلَبُ
مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَفِعْلُ الْوَاجِبِ فِيهِ .

وَعَلَى أَنَّ الْمَلِكَ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ يَضْحَكُ كُلُّ مَنْهُمْ لِأَهْلِ بِلَادِهِ وَغَيْرِهِمْ
مِنَ الْفَرَحِ ، أَنَّهُمْ يَحْلِبُونَ إِلَى الثَّنَوْرِ الْإِسْلَامِيَّةِ : الْحَدِيدِ وَالْيَاسَافِ وَالنَّشَبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى أُسِرَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْبَرِّ أَوْ الْبَحْرِ ، مِنْ مَبْدَأِ تَارِيخِ هَذِهِ الْمُهَادَنَةِ
مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ : شَرْقِيَّهَا وَغَرْبِيَّهَا ، أَقْصَاهَا وَأَذْنَاهَا ، وَوَصَلُوا بِهِ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ
حَاكِمِ وَبِلَادِ أَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ لِيَبْعُوهُ بِهَا ، فَيَلْزَمُ الْمَلِكُ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ
فَكَ أَسْرَهُ وَحَمَلَهُ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى كَانَ بَيْنَ تِجَّارِ الْمُسْلِمِينَ ، وَبَيْنَ تِجَّارِ بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوَيْهِ
وَصِهْرِيهِ مُعَامَلَةٌ فِي بَضَائِعِهِمْ ، وَهُمْ فِي بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ ، كَانَ أَمْرُهُمْ مَحْوِلًا عَلَى
مُوجِبِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى رَكِبَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَرَاكِبِ بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ
وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ ، وَحَمَلَ بَضَاعَتَهُ مَعَهُمْ وَعُدَّتِ الْبِضَاعَةُ ، كَانَ عَلَى الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ
وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ رَدُّهَا إِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً ، أَوْ قِيَمَتَهَا إِنْ كَانَتْ مَقْذُودَةً .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى هَرَبَ أَحَدٌ مِنَ بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْمُهَادَنَةِ إِلَى
بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ ، أَوْ تَوَجَّهَ بِبِضَاعَةٍ لغيرِهِ وَأَقَامَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ ،

كان على الملكِ دون حاكم وعلى أخويه وصهره رُدُّ الحارِبِ أو المقيم ببضاعة غيره،
والمَسَالِ معه إلى بلاد الملكِ الأشرف ما دام مُسْلِمًا . وَبِنَ تَصَرُّ ، يَرُدُّ الْمَالُ الَّذِي
معه خاصّة . ولملكة الملكِ دون حاكم وأخويه وصهره فيمن يهرب من بلادهم
إلى بلاد الملكِ الأشرف هذا الحكم المذكور أعلاه .

وعلى أَنَّهُ إِذَا وَصَلَ مِنْ بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ وَبِلَادِ أَخَوَيْهِ وَصَهْرِهِ وَمُعَاهِدِيهِ
مِنَ الْفَرَنْجِ مِنْ يَقْصِدُ زِيَارَةَ الْقُدْسِ الشَّرِيفِ ، وَعَلَى يَدِهِ كَتَابَ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ
وَحُتْمَهُ إِلَى نَائِبِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ بِالْقُدْسِ الشَّرِيفِ ، يُفَسِّحُ لَهُ فِي الزِّيَارَةِ مَسْجُودًا
بِالْحَقِّ لِقَبْضِ زِيَارَتِهِ وَيَعُودُ إِلَى بِلَادِهِ آتِيًا مُطْعَمًا فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ ، رَجُلًا كَانَ
أَوْ امْرَأَةً ؛ بَحِثْ إِنْ كَانَ الْمَلِكُ دُونَ حَاكِمٍ لَا يَكْتُبُ لِأَحَدٍ مِنْ أَعْدَائِهِ وَلَا مِنْ أَعْدَاءِ
الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ فِي أَمْرِ الزِّيَارَةِ بَشْيَرًا .

وعلى أَنَّ الْمَلِكَ دُونَ حَاكِمٍ يَحْرُسُ جَمِيعَ بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ هُوَ وَأَخَوَاهُ وَصَهْرَاهُ
مِنْ كُلِّ مَضَرَّةٍ ، وَيَمْتَنِعُ كُلُّ مَنْهُمْ فِي أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَعْدَاءِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ لَا يَصْنُلُ
إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ ، وَلَا يُجِئُ عَلَيْهِمْ عَلَى مَضَرَّةٍ بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ وَلَا رَعَايَاهُ ،
وَأَنَّهُ يَسَاعِدُ الْمَلِكَ الْأَشْرَفَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِكُلِّ مَا يَشْتَبِيهِ وَيَخْتَارُهُ .

وعلى أَنَّ الْحَقُوقَ الْوَاجِبَةَ عَلَى مَنْ يَصْنُرُ وَيَرُدُّ وَيَتَرَدَّدُ مِنْ بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ
وَأَخَوَيْهِ وَصَهْرِهِ ، إِلَى تَقْرِى الْإِسْكَندَرِيَّةِ وَدِيْمَاطِ ، وَالتَّنْفُورِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَالْمَسَالِكِ
السُّلْطَانِيَّةِ ، بِسَائِرِ أَصْنَافِ الْبَضَائِعِ وَالتَّاجِرِ عَلَى اخْتِلَافِهَا ، تَسْتَمِرُّ عَلَى حُكْمِ الضَّرَائِبِ
الْمُسْتَقَرَّةِ فِي الدِّيَّوَانِ الْمَسْمُورِ إِلَى آخِرِ وَقْتٍ ، وَلَا يُحْدِثُ عَلَيْهِمْ فِيهَا حَادِثٌ . وَكَذَلِكَ
يَحْرَى الْحُكْمُ عَلَى مَنْ يَتَرَدَّدُ مِنَ الْبِلَادِ السُّلْطَانِيَّةِ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ وَأَخَوَيْهِ
وَصَهْرِهِ .

تَسْتَمِرُّ هَذِهِ الْمَوْدَّةُ وَالْمُعَادَاةُ عَلَى حُكْمِ هَذِهِ الشَّرْطِ الْمَشْرُوحَةِ أَعْلَاهُ مِنْ
الْجِهَاتِ عَلَى الدَّوَامِ وَالِاسْتِمْرَارِ، وَتَجْرَى أَحْكَامُهَا وَقَوَائِمُهَا عَلَى أَجَلِ الْإِسْتِمْرَارِ،
فَإِنْ الْمَسَالِكَ بَهَا قَدْ صَارَتْ مَمْلُوكَةً وَاحِدَةً وَشَيْئًا وَاحِدًا، لَا تَنْقَضُ بِمَوْتِ أَحَدٍ مِنْ
الْجَانِبَيْنِ، وَلَا بِعِزِّ وَآلٍ وَتَوَلِّيَةٍ غَيْرِهِ، بَلْ تُؤَيِّدُ أَحْكَامُهَا، وَتُدْرِمُ أَيَّامُهَا، وَشُهُورُهَا
وَأَعْوَامُهَا. وَعَلَى ذَلِكَ أَنْتَظَمْتُ وَأَسَقَرْتُ فِي التَّسَارِيخِ الْمَذْكُورِ أَعْلَاهُ، وَهُوَ كَذَا
وَكَذَا، وَاللَّهُ الْمَوْفِيُّ بِكَرَمِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قُلْتُ : وَهَذِهِ النُّسخُ الْخَمْسُ الْمُتَقَدِّمَةُ الذِّكْرُ قَبْلُهَا مِنْ تَذَكُّرَةِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُكَرَّمِ ،
أَحَدِ كُتَّابِ الْإِنْشَاءِ بِالْدَوْلَةِ الْمَنْصُورِيَةِ «قَلَاوِزُ» الْمُسَاءَةِ : «تَذَكُّرَةُ الْأَلِيْبِ، وَزُهْرَةُ
الْأَلِيْبِ» مِنْ نُسخَةٍ يَنْقُطُهَا، ذَكَرَ فِيهَا أَنَّ النُّسخَةَ الْأُولَى مِنْهَا كَتَبَهَا بِحَقِّهَا عَلَى مَدِينَةِ
صَفَد. وَلَيْسَ مِنْهَا مَا هُوَ حَسَنُ التَّرْتِيبِ، رَائِقُ الْأَلْفَاظِ، بَهِجُ الْمَعَانِي، بَلِغُ الْمَقَاصِدِ،
غَيْرِ النُّسخَةِ الْأُخْرَى الْمَقْهُودَةِ بَيْنَ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ وَبَيْنَ الْمَلِكِ دُونِ حَاكِمٍ. أَمَّا سَائِرُ
النُّسخِ الْمُتَقَدِّمَةِ فَإِنَّهَا مُبْتَدَلَةُ الْأَلْفَاظِ، غَيْرُ رَاقِيَةِ التَّرْتِيبِ، لَا يَصْدُرُ مِثْلُهَا مِنْ كَاتِبٍ
عِنْدَهُ أَذْنَى مُسَارَسَةٍ لِصِنَاعَةِ الْكَلَامِ. وَالْعَجَبُ مِنْ صُدُورِ ذَلِكَ فِي زَمَنِ «الظَّاهِرِ
بَيْرْسٍ» وَ«الْمَنْصُورِ قَلَاوُونَ» وَهُمَا مِنْ هُمَا مِنْ عُلَمَاءِ الْمُلُوكِ!! وَكِتَابَةُ الْإِنْشَاءِ يَوْمَئِذٍ
بِيَدِ بَنِي عَبْدِ الظَّاهِرِ الَّذِينَ هُمْ يَتُّ الْقَصَاحَةِ وَرُؤُوسُ أَرْبَابِ الْبَلَاغَةِ!! وَلَمَّا
ذَلِكَ إِنَّمَا وَقَعَ، لِأَنَّ الْقَرَنَ كَانُوا مُجَاوِرِينَ لِلْمَسَامِينِ يَوْمَئِذٍ بِلَادِ الشَّامِ، فَيَقَعُ الْأَفْئَاقُ
وَالْتِرَاضِي بَيْنَ الْجِهَتَيْنِ عَلَى فَصْلٍ فَصْلٍ، فَيَكْتُبُهُ كَاتِبٌ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ مِنْ جِهَتِي
الْمَسَامِينِ وَالْمَرْجِ بِالْفَافِظِ مُبْتَدَلَةٍ غَيْرِ رَاقِيَةٍ، طَلَبًا لِلسَّرْعَةِ، إِلَى أَنْ يَتِمَّ بِهِمُ الْحَالُ
فِي الْأَفْئَاقِ وَالتِّرَاضِي، إِلَى أَحْرَفُصُولِ الْمُدَّةِ، فَيَكْتُبُهَا كَاتِبُ الْمَلِكِ الْمُسْلِمِ عَلَى صُورَةِ
مَا جَرَى فِي الْمُسَوَّدَةِ، لِيُطَاقَ مَا كَتَبَ بِهِ كَاتِبُ الْقَرَنِ. إِذْ لَوْ عَدَلَ فِيهَا كَاتِبُ

السلطان إلى الترتيب ، وتحسين الاقفاط وبلاغة التركيب ، لاختل الحال فيها عما وافق عليه كاتب الفرنج أولا ، فيكونه حينئذ ، ويرون أنه غير ما وقع عليه الاتفاق ، لقصورهم في اللغة العربية ، فيحتاج الكاتب إلى إبقاء الحال على ما توافق عليه الكتّابان في المصوّدة . وبالجملة فإنما ذكرت النسخ المذكورة - على ثقافة لفظها ، وعدم أنسجام ترتيبها - لاشتمالها على الفصول التي جرى فيها الاتفاق فيما تقدم من الزمان ، ليستمد منها الكاتب ما الله لا يحضر بباله من مقاصد المهادئات ، أغنانا الله تعالى عن الحاجة إليها .

وأعلم أنه قد جرت العادة ، أنه إذا كتبت الهدنة ، كتب قربنها عين يحلف به السلطان أو نائبه القائم بقصد الهدنة ، على التوبة بقصوها وشروطها ؛ وعين يحلف عليها القائم عن الملك الكافر بقصد الهدنة ، ممن يابئن له في عقدتها عنه ، بكتاب يصدر عنه بذلك ، أو تجهز نسختها إلى الملك الكافر ليحلف عليها ، ويكتب خطه بذلك ، وتعاد إلى الأبواب السلطانية .

المذهب الثالث

(أن تفتح المهادنة بخطبة مبتدأة به الحمد لله)

وعلى هذا جرى صاحب "مواد اليان" أمره في كتابة الهدنة ، حيث قال : والرسم فيها أن تفتح بحمد الله تعالى على الهداية إلى دين الإسلام الذي أذل كل دين وأعزّه ، وغذل كل شرع ونصره ، وأخفى كل مذهب وأظهره ؛ والتوغل في توحيده ، وتقديسه وتمجيده ؛ والثناء عليه بالآله ، والصلاة على خير أنبيائه ؛ بحمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : ولم يأت بصورة هُدنية مُنتظمة على هذا الترتيب ، بل أشار إلى كَيْفِيَّةِ عملها . ثم قال : والْبَلِيغُ يَكْتَفِي بِقَرِيحَتِهِ فِي تَرْتِيبِ هَذِهِ الْمَعَانِي إِذَا دُعِيَ إِلَى الْإِنْشَاءِ فِيهَا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَلَمْ أَقِفْ لِفَيْهِ عَلَى صُورَةٍ هُدْنِيَّةٍ مُفْتَحَةٍ بِالتَّحْمِيدِ ، وَلَا يَنْحَى أَنْ الْإِبْتِدَاءَ بِهِ فِي كُلِّ مُهِمٍّ مِنَ الشُّهُودِ وَجَلَائِلِ الْوَلَايَاتِ وَتَحْوَ ذَلِكَ هُوَ الْمَعْمُولُ عَلَيْهِ فِي زَمَانِنَا .

الطرف الثاني

(فِيمَا يُسَارِكُ فِيهِ مُلُوكُ الْكُفْرِ مُلُوكَ الْإِسْلَامِ فِي كِتَابَةِ نُسخٍ مِنْ دَوَائِبِهِمْ)

إِطْلِعْ أَنَّ الْعَالِمَ فِي الْهَدَنِ الْوَاقِعَةِ بَيْنَ مُلُوكِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَبَيْنَ مُلُوكِ الْكُفْرِ أَنَّ تُكْتَبَ نَسْخَةٌ تَحْلَدُ بِدِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِالْدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَتُنْسخُ تَهْجُرُ إِلَى الْمَلِكِ الْمُهْلَدِينَ . وَرُبَّمَا كُتِبَتْ نَسْخَةٌ مِنْ دِيْوَانِهِ مُفْتَحَةً بِحَمْدِ

وَهَذِهِ نَسْخَةٌ هُدْنِيَّةٌ وَرَدَّتْ مِنْ جِهَةِ الْأَشْكِرَى ، صَاحِبِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ ثَمَانِينَ وَسَقَامَةَ ، مَوْرَعَةً بِتَارِيخٍ مُوَافِقٍ لِأَوَانِ الْحَرَمِ مِنْ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ ، فَعُرِّبَتْ فَكَانَتْ تُسَخَّطُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ أَبُو مُكْرَمٍ فِي "تَذَكُّرِهِ" :

إِذْ قَدْ أَرَادَ السُّلْطَانُ الْعَظِيمُ ، النَّسِيبُ ، الْعَالِي ، الْعَزِيزُ ، الْكَبِيرُ الْخَفِيسُ ، الْمَلِكُ ، الْمَنْصُورُ ، سَيِّفُ الدِّينِ « قَلَاوُونَ » صَاحِبُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَدِمَشْقَ وَحَلَبَ ، أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَمْلَكَتِي عَجَبَةً - فَمَلَكْتِي تُؤَثِّرُ ذَلِكَ ، وَتَخْتَارُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِزِّ سُلْطَانِهِ عَجَبَةً . وَلِهَذَا وَجِبَ أَنْ يَتَوَسَّطَ هَذَا الْأَمْرَ بَيْنَ وَأَتَقَاتُ : لِنَدْوَمِ الْحَبَّةِ الَّتِي بِهِذِهِ الْعُصُورَةِ فِيمَا بَيْنَ مَمْلَكَتِي وَعِزِّ سُلْطَانِهِ ثَابِتَةً بِلَا تَشْوِيشٍ . فَمَلَكْتِي هَذَا الْيَوْمَ ، وَهُوَ يَوْمُ الْخَمِيسِ الثَّامِنُ مِنْ شَهْرِ إِيَّارٍ مِنَ التَّارِيخِ [الرَّوْيُ] التَّالِيَةِ لِسَنَةِ سِتِّ مِائَةٍ وَآلَافٍ

وصباهة ونسج وعنانين لآدم - تخلف بأناجيل الله الملقمة، والصليب المتكرم المحي،
 أن علكتي تكون حافظة للسلطان العظيم، النسيب، العالى، العزيز، الكبير الجفيس،
 سيف الدين «قلاوون» صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب، ولولده ولوارث
 ملك عز سلطانة: محبة مستقيمة، وصداقة كاملة نية، ولا يحرك ملكي أبدا على
 عز سلطانة حربا، ولا على بلاده ولا على قلايعها، ولا على عساكره، ولا يحرك
 ملكي أبدا على حرب، بحيث إن هذا السلطان العظيم، النسيب، العالى، العزيز،
 الكبير الجفيس، الملك المنصور سيف الدين «قلاوون» صاحب الديار المصرية
 ودمشق وحلب، يحفظ مثل ذلك لملكتي ولولدي لملكتي الحبيب الكينوس،
 الانجالوس، الدوقس، بالاولوغس. الملك ايرلك، ولا يحرك عز سلطانة على
 تملكيتنا حربا قط، ولا على بلادنا، ولا على قلايعنا، ولا على عساكرنا، ولا يحرك
 أحدا آخر أيضا على حرب مملكتنا. وأن تكون الرسل المترددون عن عز سلطانة أيضا
 مطلقا [آمين، لم] أن يعبروا في بلاد مملكتي بلا مانع ولا عائق، ويتوجهوا إلى حيث
 يسيرون من عز سلطانة، وكذلك يهودون إلى عز سلطانة. وأن لا يحصل للتجار
 الواردين من بلاد عز سلطانة [ضرر] من بلاد مملكتي، لا يحذرون من أحد جورا
 ولا غلما، بل يكون لهم مباحا أن يعملوا متاجرهم. ونظير هذا - التجار الواردون إلى بلاد
 عز سلطانة من أهل بلاد ملكي، يقومون بالحق الواجب على بضائعهم، وليعلم كذلك
 التجار الواردون من بلاد عز سلطانة إلى بلاد ملكي بالحق الواجب على بضائعهم.
 وإن حضر من بلاد سوداق تجار وأرادوا السفر إلى بلاد عز سلطانة، فلا ينال
 هؤلاء تمويق في بلاد ملكي، بل في عودهم وعودهم يكونون بلا مانع ولا عائق بهد
 القيام بالحق الواجب. وهؤلاء التجار الذين من بلاد عز سلطانة والذين من أهل
 سوداق إن حضر صحبتهم ممالك وتجار، فليعودوا بهم إلى بلاد عز سلطانة بلا عائق

ولا مانع ، ما خلا إن كانوا نصاريّ ، لأنّ شرعنا وترتيب منّحينا لا يسمع لنا في أمر النصاريّ بهذا .

وأما إن كان في بلاد عزّ سلطانة ممالك نصاريّ : روم وغيرهم من أجناس النصاريّ ، مفسكون يدين النصاريّ ، ويحصل لقوم منهم العتق ، فليكنّ للذين معهم عتائق مباح ومطلق من عزّ سلطانة ، أن يفتدوا في البحر إلى بلاد تملكّي . وكذلك إن أراد أحد من أهل بلاد عزّ سلطانة أن يبيع مملوكاً نصرانياً هذه صورته لأحد من رؤس مملكتي ، أو تجار وأناس بلاد مملكتي ، أن لا يحد في هذا تعويفاً ، بل يتسروا المذكور ويقتلوا به في البحر إلى بلاد مملكتي بلا عائق . وأيضاً إن أراد هذا السلطان العظيم القسيب ، أن يرسل إلى بلاد ملكي بضائع متجراً ، وأرادت مملكتي أن ترسل إلى بلاد عزّ سلطانة بضائع متجراً ، فليكنّ هكذا : وهو إن أراد عزّ سلطانة أن تكون بضائع متاجره في بلاد ملكي متبّاة من القيام بكلّ الحقوق ، فليكنّ أيضاً بضائع متاجر مملكتي في بلاد عزّ سلطانة متبّاة مثل ذلك من كلّ الحقوق ، وإن أراد أن تقوم متاجر ملكي في بلاده بالحقوق الواجبة [تقوم] بمثل ذلك . وأيضاً أن يطلق عزّ سلطانة لملكّي أن يرسل أناساً من بلاد تملكّي إلى بلاد عزّ سلطانة ، فيشترون لى خيلاً جيداً ويحملونها إلى بلاد ملكي . وكذلك إن أراد عزّ سلطانة شيئاً من خيرات بلاد ملكي ، فتملكّي أيضاً تطلق ليزّ سلطانة أن يرسل أناسه ليشتروه ويحملوه إلى عزّ سلطانة .

ولما كان في البحر كرساليه من بلاد غربيّة ، وقد يتفق في بعض الأوقات أن يسمّلوا خسارة في بلاد ملكي ، وكذلك يمدون هؤلاء الكرسالية قوماً من بلاد عزّ سلطانة فيعملون لهم خسارة ، ثم إن هؤلاء الكرسالية يفعلون هذا في الآفاق في تحوّم بلاد ملكي . لأجل هذا صار : إذا حصر قوم من بلاد تملكّي إلى بلاد عزّ

سُلْطَانِهِ بِتَجَرٍّ يُسْكُونُ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ وَيُزْمِنُونَ . وَلَمَّا قَلِعَ مَرْسُومُ
مِنْ عِزِّ سُلْطَانِهِ فِي كُلِّ بِلَادِهِ أَنْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مَمْلَكَتِي لَا يَقْرَأَ هَذَا السَّبَبَ
وَلَا يُسَكِّكَ ، وَإِنْ مَرَّضَ أَنْ يَقُولَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ : إِنَّهُ قُرِّمَ أَوْ عُلِمَ
مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مَمْلَكَتِي فَلْيُحَرِّفْ مُلْكِي بِذَلِكَ . وَإِذَا كَانَ الَّذِي وَضَعَ الْقِرَامَةَ مِنْ أَهْلِ
بِلَادِ مَمْلَكَتِي ، فُلْئَنِي بِأَمْرٍ ، وَتَعَادُ تِلْكَ الْحَسَارَةُ إِلَى بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ . وَكَذَلِكَ إِنْ
قَالَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مَمْلَكَتِي : إِنَّهُ ظَلِمَ أَوْ غُرِّمَ مِنْ أَحَدٍ مِنْ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ ،
بِأَمْرِ عِزِّ سُلْطَانِهِ ، وَتَعَادُ الْقِرَامَةُ إِلَى بِلَادِ مَمْلَكَتِي . وَأَيْضًا إِذَا قَدْ أَزْمَعَتِ الْحَبْشَةُ أَنْ
تُصِيرَ بِهَذِهِ الصُّورَةِ ، وَتَكُونَ الصَّدَاقَةُ بَيْنَ مَمْلَكَتِي وَعِزِّ سُلْطَانِهِ خَالِصَةً ، حَتَّى إِنَّهُ
أَرْسَلَ يَقُولُ لِمَمْلَكَتِي عَلَى مَعُونَةٍ وَتَجْدَةِ مَمْلَكَتِي فِي الْبَحْرِ لِمَصْرَةِ الْمَدُونِ الْمُشْرَكَ ، فَمَمْلَكَتِي
تَفَوِّضُ هَذَا الْأَمْرَ إِلَى آخِيَارِ عِزِّ سُلْطَانِهِ ، أَنْ يَرْبِطَ فِي نَسْخَةِ الْبَيْعِ مَعَ بَيْتَةِ
الْفُصُولِ الْمَعْنِيَةِ فِيهِ ، وَتَأْتِي الصُّورَةُ كَيْفَ تَعَيَّنَ وَتَجِدُ مَمْلَكَتِي فِي الْبَحْرِ . وَإِنْ كَانَ
لَا يُرِيدُ تَجْدَةً وَمَعُونَةً مَمْلَكَتِي ، فَمَمْلَكَتِي تَسْمَحُ بِهَذَا الْفَصْلِ أَنْ لَا يَضْمَهُ عِزُّ سُلْطَانِهِ
فِي نُسْخَةِ بَيْعِيهِ ، وَهَذِهِ الْبَيْعُ مَا يَحْفَظُ مَمْلَكَتِي لِعِزِّ سُلْطَانِهِ ثَابِتَةً غَيْرَ مَرْتَعِزَةٍ إِنْ كَانَ
هَذَا السُّلْطَانُ الْعَظِيمُ يَحْلِفُ لِي بِبَيْتِهَا ، وَأَنَّهُ يَحْفَظُ الْحَبْشَةَ لِمَمْلَكَتِي ، ثَابِتَةً غَيْرَ
مَرْتَعِزَةٍ ، وَالسَّلَامُ .



وهذه نسخة أحتاج ، كتبت من الأبواب السلطانية عن الملك المنصور « قلاوون »
عن نظير المندنة المتقدمة ، الواردة من قَيْلِ صَاحِبِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، مُفْتَحَةً بِبَيْعِ
مُوَافَقَةٍ لَهَا ، وَهِيَ :

أَقُولُ وَأَنَا فُلَانٌ : إِنَّهُ لَمَّا رَغِبَ حَضْرَةُ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ ، كَرِيمِ خَائِلِ ، الدُّوْقَسُ ،
الْأَمْبَاطُولُسُ ، الْكِيْنِيُوسُ ، الْبَالَاوُلُوغُسُ ، ضَابِطُ مَمْلَكَةِ الرُّومِ وَالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ الْعُظْمَى ،

أكبر مُلوكِ الْمَسِيحِيَّةِ ، أَبَاهُ الله - أَنْ يَكُونَ بَيْنَ تَمَلُّكِهِ وَبَيْنَ عِزِّ سُلْطَانِي ، حُبَّةٌ وَصِدَاقَةٌ وَمَوَدَّةٌ لَا تَتَغَيَّرُ بِتَغْيِيرِ الْأَيَّامِ ، وَلَا تُزُولُ بِزَوَالِ السِّنِّينِ وَالْأَعْوَامِ ، وَأَتَكَّدُ فَذَلِكَ يَمِينٌ حَلَفَ عَلَيْهَا ، تَارِيخُهَا يَوْمُ الْخَمِيسِ ثَامِنِ شَهْرِ لِمَاوِ سَنَةِ سِتَّةِ آلَافٍ وَسَبْعِمِائَةٍ وَتِسْعِ وَثَمَانِينَ لَأَدَمَ ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ ، بِمَحْضُورِ رَسُولِ عِزِّ سُلْطَانِي ، الْأَمِيرِ تَاصِرِ الدِّينِ أَبِي الْجَزَيْرِيِّ ، وَالْبَطْرِكِ الْجَلِيلِ إِنْثَايُوسِ بَطْرِكِ الْأَسْكَدَرِيَّةِ ، وَحَضِرِ رَسُولَاهُ فَلَانُ وَفَلَانُ إِلَى عِزِّ سُلْطَانِي بِنُسخَةِ الْيَمِينِ ، مُتَمَسِّينَ أَنْ يَتَوَسَّطَ هَذَا الْأَمْرُ أَيْضًا بَيْنِي وَأَخَافُكَ مِنْ عِزِّ سُلْطَانِي ، لِتُدْوَِمَ الْحُبَّةُ بَيْنَ تَمَلُّكِهِ وَبَيْنَ سُلْطَانِي : وَتَكُونَ ثَابِتَةً مُسْتَمَرَّةً عَلَى الدَّوَامِ وَالْإِسْتِمْرَارِ .

فَمِنْ سُلْطَانِي مِنْ هَذَا الْيَوْمِ ، وَهُوَ يَوْمُ الْاِثْنَيْنِ مُسْتَهْلُ رَمَضَانَ الْمَعْظَمِ ، سَنَةِ ثَمَانِينَ وَسِتِّمِائَةٍ لِلْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، عَلَى صَاحِبِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ : يَخْلُفُ بَاقِيَهُ الْعَظِيمِ ، الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَالسَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، وَبِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، وَبِمَنْ أَنْزَلَهُ ، وَبِمَنْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ، عَدُوٌّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى اسْتِمْرَارِ الصَّدَاقَةِ ، وَاسْتِقْرَارِ الْمَوَدَّةِ النَّعِيَّةِ ، لِلْمَلِكِ الْجَلِيلِ كَرِيمِخَائِيلَ ، صَاحِبِ مَمْلَكَةِ الرُّومِ وَالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ الْعُظْمَى ، وَلَوْلَدِهِ مَمْلَكَةِ الْحَبِيبِ الْكَبِيرِ بِيوسِ الْإِنجَالُوسِ ، الدُّوقِسِ ، الْبَالَاوُلُوغِسِ ، الْمَلِكِ إِيْرَانْدَرُوبِنُفُوسِ ، وَلِوَارِثِيهِ مَمْلَكَةِ مُلْكِهِ . وَلَا يَحْرُكُ عِزِّ سُلْطَانِي أَبَدًا عَلَى مَمْلَكَةِ حَرْبًا ، وَلَا عَلَى بِلَادِهِ ، وَلَا عَلَى قِلَاعِهِ ، وَلَا عَلَى عَصَاكِيرِهِ : فَبِرٌّ وَلَا بَحِيرٌ . وَلَا يَحْرُكُ عِزِّ سُلْطَانِي أَحَدًا آخَرَ عَلَى حَرْبِهِ ، بِمِثْلِ إِنْ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ كَرِيمِخَائِيلَ يَحْفَظُ مِثْلَ ذَلِكَ لِعِزِّ سُلْطَانِي ، وَلِثُلَّتِيهِ ، وَلِإِلَادِيهِ ، وَلِقِلَاعِيهِ ، وَلِسَاكِيرِي ، وَلَوْلَدِيهِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ علاءِ الدِّينِ «عَلِيٌّ» وَلِوَارِثِيهِ مُلْكِي مِنْ أَوْلَادِي ؛ وَيَسْتَمِرُّ عَلَى هَذِهِ الصَّدَاقَةِ وَالْمَوَدَّةِ النَّعِيَّةِ ، وَلَا يَحْرُكُ مُلْكُهُ عَلَى عِزِّ سُلْطَانِي حَرْبًا قَطُّ ، وَلَا عَلَى

بلادي ، ولا على قلاعي ، ولا على عساكري ، ولا على مملكتي ، ولا يحرك أحدنا
آخر على حرب مملكة عز سلطان في البر ولا في البحر ، ولا يساعد أحدنا من أضداد
عز سلطان ، ولا أعدائي من سائر الأديان والأجناس ، ولا يؤاqqه على ذلك ،
ولا يقسح لهم في العبور إلى مملكة عز سلطان لمضرة شيء فيها بجهد وطاقة .

وأن الرسل المسيرين من مملكة عز سلطان إلى بربركة وأولاده وبلادهم
وتلك الجهات ، وبحر سوداق وبره ، يكونون آمنين مطمئنين مطلقا : لهم أن يبروا
في بلاد مملكة الملك الجليل ، كرميخايل من أولها إلى آخرها ، بلا مانع ولا عائق :
أرسلوا في بر أو بحر ، على ما تقتضيه مصلحة ذلك الوقت للملك عز سلطان ، آمنين
مطمئنين ، غير ممنوعين بجميع من يصل معهم من رسل تلك الجهات وغيرها ، وكل
من معهم من سماليك وجوار وغير ذلك . وأن لا يحصل للتجار الواردين من مملكة
الملك الجليل كرميخايل إلى بلاد عز سلطان جور ولا ظلم ، ويتددون آمنين
مطمئنين يملكون متاجرهم ، ولهم الرعاية في الصدور والورود ، والمقام والسفر :
بحيث يكون لتجار مملكة عز سلطان في بلاد مملكة الملك الجليل كرميخايل مثل
ذلك ، ويكونون مرصين ، لا يحدون من أحد في بلاد مملكة الملك الجليل كرميخايل
جورا ولا ظلما . ومن عليه حق واجب في الجهتين على ما استقر عليه الحال ، يقوم به
من غير حيف ولا ظلم .

وأن من حضر من التجار : من سوداق وغيرها بماليك وجوار تمكنهم
مملكة الملك الجليل كرميخايل من الحضور بهم إلى مملكة عز سلطان ولا تمنعهم .
وأن الكرسالية متى تمرضوا إلى أخذ أحد من التجار المسلمين في البحر ، وثبتت
الكرسالية إلى رعية مملكة الملك الجليل كرميخايل ، يسير عز سلطان إلى في طلبهم ،

ولا يتعرض أحد من ثواب مملكة عز سلطانى الى هذا الجنس بسببهم ، إلا أن يتحقق أنهم أخذون ، أو تظهر عين المال معهم ، على ما تضمنته نسخة يمين الملك الجليل سكر ميخائيل ، ولملكة الملك الجليل كرميخائيل من بلاد عز سلطانى مثل ذلك .

وعلى أن الرسل المتردين من الجهتين : من مملكة عز سلطانى ، ومن مملكة الملك الجليل كرميخائيل ، يكونون آمينين مطمئنين فى سقرهم ومقامهم : برأ وبجراً ، وتكون رعية بلاد عز سلطانى ، ورعية بلاد الملك الجليل كرميخائيل ، فى الجهتين من المسلمين وضيهم آمينين مطمئنين ، صاديرين واردين ، محترمين مرعيين . وهذه اليمين لا تزال محفوظة ملحوظة ، مستمرة مستقرة ، على الدوام والاستمرار .

قلت : وهذه النسخة والنسخة الواردة من صاحب القسطنطينية المتقدمة عليها ، وإن عبرتهما فى خلالها بلفظ اليمين ، فإنهما بعقد الصلح أشبه ، واليمين جزء من أجزاء ذلك ، ولذلك أوردتها فى عقود الصلح دون الإيمان .

الباب الخامس من المقالة التاسعة

(في عقود الصلح الواقعة بين ملّكين مسلمين ، وفيه فصلان)

الفصل الأول

في أصول تُعَمَّدُ في ذلك

اعلم أنّ الأصل في ذلك ما ذكره أصحاب السير وأهل التاريخ ، أنه لما وقع الحرب بين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وبين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، في صيفين ، في سنة سبع وثلاثين من الهجرة - توافقا على أن يُقيمَا حكمين بينهما ، ويعملا بما يتفقان عليه . فأقام أمير المؤمنين عليّ أبا موسى الأشعريّ حكما عنه ، وأقام معاوية عمرو بن الماص حكما عنه . فاتفق الحكمان على أن يُكتبَ بينهما كتابٌ بعقد الصلح ، واجتمعا عند عليّ رضي الله عنه ، وكتب كتاب القضية بينهما بحضوره ، فكتب فيه بعد النسيئة :

هذا ما تناهى أمير المؤمنين عليّ ، فقال عمرو : هو أميركم ، أما أميرنا فلا . فقال [الأحنف : لا تمنح أسم أمير المؤمنين فإني أخاف إن محوتها أن لا ترجع إليك أبدا . لا تمحوها وإن قتل الناس بعضهم بعضا ، فأبى ذلك عليّ مليا من النهار . ثم إن الأشعث^(١) ابن قيس قال : أتح أسم أمير المؤمنين ، فأجاب عليّ ومجاه . ثم قال عليّ : الله أكبر ! سنة بسنة . وانه إلى لكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ، فكتبت : محمد رسول الله ، فقالوا : لست برسول الله ، ولكن أكتب اسمك وأسم أبيك .

(١) يابض في الأصل والتصحيح من الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٣٨ .

فَأَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَحْوِهِ ، قُلْتُ : لَا أَسْتَطِيعُ أَنْفَعِلَ ! فَقَالَ
إِنِّكَ أَرَيْتَهُ فَأَرَيْتَهُ فَعَاهَدَ بِيَدِهِ ، وَقَالَ : « إِنَّكَ سَتُدْعَى إِلَى مِثْلِهَا فَجِيبْ » .



وهذه نسخة كتاب القضية بين أمير المؤمنين عليّ وبين معاوية ، فيما رواه
أبو عبد الله الحسين بن نصر بن مزاحم المقرئ ، في "كتاب صفين والحكمين"
بسنده إلى محمد بن عليّ الشعمي ، وهو :

هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما ،
فما تراضيا من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . قضية عليّ على
أهل العراق ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب ، وقضية معاوية على أهل
الشام ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب ، أنا رضيانا أن نذلّ عند حكم
كتاب الله بيننا حكما فيما اختلفنا فيه من قاتلته إلى خاتمته ، نجي ما أحيا ، ونميت
ما أمات . على ذلك تقاضينا ، وبه تراضينا . وإن علينا وشيعته رضوا أن يبعثوا
عبد الله بن قيس ناظرا ومحاكما ، ورضى معاوية وشيعته أن يبعثوا عمرو بن العاص
ناظرا ومحاكما ، على أنهم أخذوا عليها عهد الله وميثاقه ، وأعظم ما أخذ الله على
أحد من خلقه ، ليتخذان الكتاب إماما فيما بينهما ، لا يتدوانا إلى غيره في الحكم
بما وجدنا فيه مسطورا ، وما لم يجداه مسمى في الكتاب رداه إلى سنة رسول الله
أبجامة ، لا يتمدان لما خلافا ، ولا يتيمان في ذلك لما هوى ، ولا يدخلان
في شبهة .

وأخذ عبد الله بن قيس ، وعمرو بن العاص على عليّ ومعاوية عهد الله وميثاقه
بالرضا بما حكما به من كتاب الله وسنة نبيه ، ليس لما أن ينقض ذلك تخالفا إلى

غَيْرُهُ ، وَأَنَّهُمَا آمَنَانِ فِي حُكُومَتِهِمَا عَلَى دِيْنَاهُمَا وَأُمُورِهِمَا وَأَهْلِيهِمَا ، مَا لَمْ يَتَدَوَّا الْحَقَّ ، رَضِيَ بِذَلِكَ رَاضٍ أَوْ أَنْكَرَ مُنْكَرٌ . وَأَنَّ الْأُمَّةَ أَنْصَارُ لَهَا عَلَى مَا قَضَى بِهِ مِنَ الْعَدْلِ .

فَإِنْ تَوَفَّى أَحَدُ الْحَكَمَيْنِ قَبْلَ أَقْضَاءِ الْحُكُومَةِ ، فَأَمِيرُ شِيعَتِهِ وَأَصْحَابُهُ يَخْتَارُونَ رَجُلًا ، لَا بِالْوَأْنِ عَنْ أَهْلِ الْمَعْلِيَّةِ وَالْإِفْطَاطِ ، عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ مِنَ الْمَهْدِ وَالْمِيثَاقِ وَالْحُكْمِ بِكَلَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، وَلَهُ مِثْلُ شَرْطِ صَاحِبِهِ .

وَإِنْ مَاتَ وَاحِدٌ مِنَ الْأَمِيرَيْنِ قَبْلَ الْقَضَاءِ ، فَلِشِيعَتِهِ أَنْ يُؤَلِّوا مَكَانَهُ رَجُلًا يَرْضَوْنَ عَدْلَهُ .

وَقَدْ وَقَعَتِ الْقِضِيَّةُ بَيْنَنَا وَالْأَمْنُ وَالْتِفَافُ ، وَوُضِعَ السَّلَاحُ . وَعَلَى الْحَكَمَيْنِ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ : لَيَحْكُمَا بِكَلَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، لَا يَدْخُلَانِ فِي شُبْهَةٍ وَلَا يَأْتَوَانِ اجْتِهَادًا ، وَلَا يَتَعَمَّدَانِ جَوْرًا ، وَلَا يَنْعِمَانِ هَوًى ، وَلَا يَعْتَدُونَ مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ . فَإِنْ لَمْ يَفْعَلَا بَرِئَتِ الْأُمَّةُ مِنْ حُكْمِهِمَا ، وَلَا عَهْدُ لَهَا وَلَا ذِمَّةٌ .

وَقَدْ وَجِبَتِ الْقِضِيَّةُ عَلَى مَا سَمِعْنَا فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ مَوْقِعِ الشَّرْطِ عَلَى الْأَمِيرَيْنِ وَالْحَكَمَيْنِ وَالْفَرِيقَيْنِ ، وَاللَّهُ أَقْرَبُ شَهِيدًا وَأَذْنُ حَفِيطًا ، وَالنَّاسُ آمِنُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَأُمُورِهِمْ إِلَى أَقْضَاءِ مُدَّةِ الْأَجَلِ ، وَالسَّلَاحُ مَوْضُوعٌ ، وَالسَّبِيلُ مَحْلٍ ، وَالشَّاهِدُ وَالْغَائِبُ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ سَوَاءٌ فِي الْأَمْرِ . وَلِلْحَكَمَيْنِ أَنْ يَتَزَلَّزَلَا مَتَزَلَّزَلًا عَدْلًا بَيْنَ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَأَهْلِ الشَّامِ ، وَلَا يَمْضُرَّهَا فِيهِ إِلَّا مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَمْلَأَ مِنْهُمَا وَتَرَايَ .

وَأَجَلُ الْقَاضِيَيْنِ الْمُسْلِمُونَ إِلَى رَمَضَانَ : فَإِنْ رَأَى الْحَكَمَانِ تَحْجِيلَ الْحُكُومَةِ فِيهَا وَجْهًا لَهَا ، عَجَلًا . وَإِنْ أَرَادَا تَأْخِيرَهُ بَعْدَ رَمَضَانَ إِلَى أَقْضَاءِ الْمَوْسَمِ ، فَإِنْ ذَلِكَ إِلَيْهِمَا . فَإِنْ هَلَمْ يَحْكَمَا بِكَلَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ إِلَى أَقْضَاءِ الْمَوْسَمِ ، فَالْمُسْلِمُونَ عَلَى

أشريم الأول في الحرب، ولا شرط بين واحد من الفريقين . وعلى الأمة عهد الله وميثاقه على التمام على ما في هذا الكتاب . وهم يد على من أراد في هذا الكتاب الحساد أو ظلمًا ، أو أراد له نقصًا .

شهد على ما في هذا الكتاب من أصحاب علي : الأشعث بن قيس ، وعبد الله ابن عباس ، والأشعث بن الحرث ، وسعيد بن قيس الحمداني ، والحسين والطفيل أبناء الحرث بن المطلب ، وأبو أسيد بن ربيعة الأنصاري ، وخباب بن الارت ، وسهل بن حنيف الأنصاري ، وأبو اليسر بن عمرو الأنصاري ، ورقاعة بن رافع ابن مالك الأنصاري ، وعوف بن الحرث بن المطلب القرشي ، وبريدة الأسلمي ، وعقبة بن عامر الجهني ، ورافع بن خديج الأنصاري ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ، والحسن والحسين أبناء علي ، وعبد الله بن جعفر الهاشمي ، والعمربن عجلان الأنصاري ، ومجرب بن عدي الكندي ، ورفاعة بن سمى البجلي ، وعبد الله بن الطفيل الأنصاري ، وزيد بن حمية الدكري^(١) ، ومالك بن كعب الحمداني ، وربيعة بن شرحبيل ، وأبو صفرة ، والحارث بن مالك ، ومجرب بن يزيد ، وعقبة بن حمية .

ومن أصحاب معاوية : حبيب بن مسلمة التميمي ، و[أبو] الأعور السلمي ، وبسر ابن أرطاة القرشي ، ومعاوية بن خديج الكندي ، والمخارق بن الحرث الجعفي ، وزميل بن عمرو السكسكي ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي ، وحمزة بن مالك الحمداني ، وسبع بن زيد الجعفي ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعلقمة بن مرثد

(١) في الكامل لابن الأثير "ابن حمية التميمي" .

(٢) في خلاصة أسماء الرجال : الفهرى .

(٣) في الكامل : "سبيع بن يزيد الاصانم" .

الكلبي، وخالد بن الحصين السكسكي، وعقمة بن يزيد الحضرمي، ويزيد بن الحز
المعيني، ومسروق بن حملة العكي، ومخير بن يزيد الحنظلي، وعبد الله بن عامر
القرشي، ومروان بن الحكم، والوليد بن عقبة القرشي، وعقبة بن أبي سفيان،
ومحمد بن أبي سفيان، ومحمد بن عمرو بن العاص، ويزيد بن عمرو الجندابي، وعمار
ابن الأخوص الكلبي، ومسعدة بن عمر القتي، وعاصم بن المستنير الجندابي،
وعبد الرحمن بن ذي كلاج الحنظلي، والصبح بن جلهمة الحنظلي، وثمامة بن
حوشب، وعقمة بن حكيم، وحمزة بن مالك .

وإن يبتنا على ما في هذه الصحيفة عهد الله وميثاقه . وكتب عمير يوم الأربعاء
لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين .

وأخرج أيضا بسنده إلى أبي إسحق الشيباني أن عقد الصلح كان عند سعيد
ابن أبي بردة في صحيفة صقراء عليها خاتمان : خاتم في أسفلها، وخاتم في أعلاها .
في خاتم علي «عهد رسول الله» وفي خاتم معاوية «عهد رسول الله» .

قلت : وذكر روايات أخرى فيها زيادة ونقص أضربنا عن ذكرها خوفاً
الإطالة، إذ فيها ذكرنا مقتضب على أن المؤرخين لم يذكروا من ذلك إلا طرقات يسيرة .

الفصل الثاني

من الباب الخامس من المقالة التاسعة

(فيما جرت العادة بكتابه بين الخلفاء وملوك المسلمين على تصاقب الدول،

تما يُكتب في الطرة والمتن)

أما الطرة : فليعلم أن الذي ينبغي أن يكتب في الطرة هنا : « هذا عقد صلح »
ويكل على ما تقدم في الهدنة . ولا يكتب فيه : « هذه هدنة » لما سبق إلى
الأذهان من أن المراد من الهدنة ما يجري بين المسلمين والكفار .
وأما المتن فعلى نوعين :

النوع الأول

(ما يكون العقد فيه من الجانبين)

ولم أر فيه للكتاب إلا الاستفتاح بلفظ : « هذا » . وعليه كتب كاتب القضية
بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وبين معاوية بن أبي سفيان
رضي الله عنه ، على ما تقدم ذكره .

وعلى ذلك استكتب هرون الرشيد ولديه : محمد الأمين ، وعبد الله المأمون :
المهديين اللذين عهد فيهما بالخلافة بعده لأبنه الأمين ، وولي نرمان ابنه المأمون ،
ثم عهد بالخلافة من بعد الأمين للمأمون ، وأشهد فيهما ، وبعث بهما إلى مكة فعلقا
في بطي الكعبة ، في جملة المعلقات التي كانت تعلق فيها ، على عادة العرب السابقة :
من تعليق القصائد ونحوها . وبذلك تسمى القصائد السبع المشهورة : بالمعلقات ،
لتعليقهم إياها في جوف الكعبة .

أما عهد الأمين، فنُسخت بعد البسملة - على ما ذكره الأزرقي في أخبار مكة - ما صُورته :

هذا كتاب لعبد الله هرون أمير المؤمنين، كتبه [له] محمد ابن أمير المؤمنين في محبة من بدنه وعقله، وجواز من أمره، طائفاً غير مكره .

إن أمير المؤمنين هرون ولأني العهد من بعده، وجعل لي البيعة في رقاب المسلمين جميعاً، وولّى أحمى عبد الله بن أمير المؤمنين هرون العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين من بعدى، برضا منى وتسليم، طائفاً غير مكره . ولأه نراسان بثغورها، وكورها، وجنودها، ونراجها، وطرازاها، وبريدها، ويوت أموالها، وصداقاتها، وعشيرها وعشورها، وجميع أعمالها، في حياته وبعد وفاته . فشرطت لعبد الله ابن أمير المؤمنين على الوفاء بما جعله له أمير المؤمنين هرون : من البيعة والعهد، وإلابة الخلافة وأمور المسلمين بعدى، وتسليم ذلك له ، وما جعل له من ولاية نراسان وأعمالها ، وما أقطعه أمير المؤمنين هرون من قطعة، وجعل له من عقدة أو ضبعة من ضبايعه وعقده، أو ابتاع له من الضبايع والعقد . وما أعطاه في حياته ومجته : من مال، أو حلي، أو جوهر، أو متاع، أو كسوة، أو رقيق، أو متزل، أو دواب، قليلا، أو كثيرا، فهو لعبد الله ابن أمير المؤمنين مؤقرا عليه، مسلما له . وقد عرفت ذلك كله شيئا فشيئا باسمه وأصنافه ومواضعه، أنا وعبد الله ابن هرون أمير المؤمنين . فإن اختلفنا في شيء منه فالقول فيه قول عبد الله بن هرون أمير المؤمنين ، لا أتبعه بشيء من ذلك ، ولا أخذه منه ، ولا أنتقصه، صغيرا ولا كبيرا [من ماله] ولا من ولاية نراسان ولا غيرها مما ولّاه أمير المؤمنين الأعمال، ولا أعزله عن شيء منها، ولا أخلطه، ولا استبدل به غيره، ولا أقدم عليه

في العهد والخلقة أحدا من الناس جميعا، ولا أدخل عليه سكرودا في نفسه ولا فيه، ولا شعره ولا بشره، ولا خاص ولا عام من أموره ولايته، ولا أمواله، ولا قتلهم، ولا عقده؛ ولا أخبر عليه شيئا لسبب من الأسباب، ولا أخذه ولا أحدا من عماله وكتابه وولاه أمره - ممن يحبه وأقام معه - بحاسية، ولا أتبع شيئا جرى على يديه وأيديهم في ولاية خراسان وأعمالها وغيرها مما ولاه أمير المؤمنين في حياته وصحته : من الجبائية، والأموال، والطراز، والبريد، والصدقات، والعشر والشور، وغير ذلك؛ ولا أمر بذلك أحدا من الناس، ولا أرخص فيه لنفسي، ولا أحدث نفسي فيه بشيء أمضيه عليه، ولا أتمس قطعة له، ولا أقص شيئا مما جعله له هرون أمير المؤمنين وأعطاه في حياته وعلاقته وسلطانه من جميع ما سميت في كتابي هذا . وأخذ له على وعلى جميع الناس البيعة، ولا أرخص لأحد - من جميع الناس كلهم في جميع ما ولّاه - في خلمه ولا علاقته، ولا أسمع من أحد من البرية في ذلك قولاً، ولا أرضى بذلك في سر ولا علانية، ولا أخص عليه، ولا أتناقل عنه، ولا أقبل من بر من العباد ولا فاجر، ولا صادق ولا كاذب، ولا ناصح ولا غاش، ولا قريب ولا بعيد، ولا أحد من ولد آدم عليه السلام : من ذكر ولا أنثى - مشورة، ولا حيلة، ولا ميكدة في شيء من الأمور : سرها وعلانياتها، وحققها وباطلها، وظاهرها وباطلها، ولا سبب من الأسباب، أريد بذلك إفساد شيء مما أعطيت عبدا لله بن هرون أمير المؤمنين من نفسي، وأوجبته له على، وشرطت وسميت في كتابي هذا .

وإن أراد به أحد من الناس أجمعين سوءاً أو مكروهاً، أو أراد خلمه أو محاربتة، أو الوصول إلى نفسه ودمه، أو حرمه، أو ماله، أو سلطانه أو ولايته : جميعاً أو قوادم، مبرين أو مظهرين له - فإني أنصره وأحوطه، وأدفع عنه، كما أدفع عن نفسي، ومهجتي، وديني، وشعري، وبشري، وحرمي، وسلطاني ؛ وأجهز الجنود

إليه ، وأُعيِنَ على كُلِّ مَنْ عَثَّه وَخَالَفَهُ ، وَلَا أَسْلَمَهُ [وَلَا أَخَذَهُ] وَلَا اتَّخَذَ عَنْهُ ،
وَيَكُونُ أَمْرُهُ وَأَمْرُهُ فِي ذَلِكَ وَاحِدًا [أبدأ] مَا كُنْتُ حَيًّا .

وإن حدث بأمير المؤمنين هرون حَدَثُ الْمَوْتِ ، وَأَنَا وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
بَحْضَرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَوْ أَحَدُنَا ، أَوْ كُنَّا غَائِبِينَ عَنْهُ جَمِيعًا : جَمْعَيْنِ كُنَّا أَوْ مُتَحَرِّقِينَ ،
وَلَيْسَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هُرُونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي وَلَايَتِهِ بِجُرَاسَانَ [فَقَسَلُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ أُنْصِبَهُ إِلَى تُرْسَانَ] وَأَنْ أَسْلَمَ لَهُ وَلَا يَتَنَا بِأَعْمَالِ كُلِّهَا وَجُنُودِهَا ، وَلَا
أَعُوْقُهُ عَنْهَا ، وَلَا أَحْبِسُهُ قَلِيلًا ، وَلَا فِي شَيْءٍ مِنَ الْبُلْدَانِ دُونَ تُرْسَانَ ، وَأُعْجَلُ إِفْخَاصَهُ
لِلْإِثْرَانِ وَالْإِلَّا عَلَيْهَا مُقَرَّدًا بِهَا ، مُقَرَّدًا إِلَيْهِ جَمِيعَ أَعْمَالِهَا كُلِّهَا ، وَأُخْصِصَ مَعَهُ
مَنْ ضَمَّ إِلَيْهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : مِنْ قُوَّادِهِ ، وَجُنُودِهِ ، وَرَاحِلَتِهِ ، وَكُنَّاهِ ، وَعَمَّالِهِ ،
وَمَوَالِيهِ ، وَخَدَمِهِ ، وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ صُنُوفِ النَّاسِ بِأَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَلَا أَحْبِسُ عَنْهُ
أَحَدًا ، وَلَا أَشْرِكُ مَعَهُ فِي شَيْءٍ مِنْهَا أَحَدًا ، وَلَا أُرْسِلُ أَمِينًا وَلَا كَاتِبًا وَلَا بَنْدَارًا ،
وَلَا أَضْرِبُ عَلَى يَدِيهِ فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ .

وَأُعْطِيَتْ هُرُونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ هُرُونَ عَلَى مَا شَرَطْتُ لَهُمَا عَلَى نَفْسِي ،
مِنْ جَمِيعِ مَا سَمِيتُ وَكُتِبَتْ فِي كِتَابِي هَذَا - عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ ، وَذِمَّةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
وَذِمَّتِي ، وَذِمَّةُ آبَائِي وَذِمَّةُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَشَدُّ مَا أَخَذَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ
وَوَلَدِهِمْ أَجْمَعِينَ : مِنْ عُهُودِهِ وَمَوَاقِفِهِ ، وَالْأَيْمَانِ الْمُؤَكَّدَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
بِالْوَقَافِ بِهَا ، وَنَهَى عَنْ قَهْضِهَا وَتَبْدِيلِهَا .

فإن أنا قَهَضْتُ شَيْئًا مِمَّا شَرَطْتُ لَهُرُونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِعَدِ اللَّهِ بْنِ هُرُونَ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَسَمِيتُ فِي كِتَابِي هَذَا ، أَوْ حَدَّثْتُ نَفْسِي أَنْ أَقْضَى شَيْئًا مِمَّا أَنَا عَلَيْهِ ،

أَوْ قِيْرْتُ أَوْ بَلْتُ، أَوْ حُلْتُ أَوْ غَدَرْتُ، أَوْ قِلْتُ [ذلك] من أَمِيْدٍ من الناس : صَغِيْرًا أَوْ كَبِيْرًا ، بَرًّا أَوْ فَاجِرًا ، ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى ، وَجَاعَةً أَوْ فَرَادَى - فَبَرِثْتُ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَمِنْ وَلايَتِهِ ، وَمِنْ دِيْنِهِ ، وَمِنْ عَهْدِ صَلَّيْ اللَّهَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَقِيْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَفْرَأَ مُنْشَرَكًا . وَكُلُّ أَمْرَأَةٍ هِيَ الْيَوْمَ لِي أَوْ أَتَزَوَّجُهَا إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً طَالِقٌ ثَلَاثًا ، الْبَتَّةَ ، طَلَاقُ الْحَرْجِ ، وَعَلَى الْمَثْنَى لِلْمَا يَبْتَئِ اللَّهُ الْحَرَامَ ثَلَاثِينَ حُجَّةً : تَقَرَّرَ وَاجِبًا لَه تَعَالَى فِي عُنِّي ، حَاقِيًا رَاجِلًا ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنِّي إِلَّا الْوَقْفَةَ بِذَلِكَ . وَكُلُّ مَالٍ هُوَ لِي الْيَوْمَ ، أَوْ أَمْلِكُكَ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً هَذِي بِالْكَفَّةِ الْحَرَامِ . وَكُلُّ تَمْلُوكٍ هُوَ لِي الْيَوْمَ ، أَوْ أَمْلِكُكَ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً أحرار لَوْجَه اللَّه عَزَّ وَجَلَّ .

وَكُلُّ مَا جَلَسْتُ لِأَمِيْرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلِبَيْدِ اللَّهِ بْنِ هُرُونِ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَكَبَيْتُهُ وَشَرَطْتُهُ لَهَا ، وَحَفَفْتُ عَلَيْهِ ، وَسَمَيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا لَا زِمَ لِي الْوَقْفَةُ بِهِ ، لَا أَصْخِرُ غَيْرَهُ ، وَلَا أَنْوِي إِلَّا إِدَاءَهُ . فَإِنْ أَصْخِرْتُ أَوْ نَوَيْتُ غَيْرَهُ فَهَذِهِ الْعُقُودُ وَالْمَوَائِقُ وَالْأَيْمَانُ كُلُّهَا لَا زِمَةَ لِي ، وَاجِبَةٌ عَلَيَّ . وَتَقَوَّدَ أَمِيْرُ الْمُؤْمِنِينَ وَجُنُودُهُ وَأَهْلُ الْأَقَاقِ وَالْأَمْصَارِ فِي حِلٍّ مِنْ خَلْعِي وَإِخْرَاجِي مِنْ وَلايَتِي عَلَيْهِمْ ، حَتَّى أَكُونَ سُوقَةً مِنَ السُّوقِ ، وَكَرَجُلٍ مِنْ عَرَضِ الْمُسْلِمِينَ ، لَا حَقَّ لِي عَلَيْهِمْ ، وَلَا وَلايَةَ ، وَلَا تَبِعَةَ لِي قَبْلَهُمْ ، وَلَا تَبِيسَةَ لِي فِي أَعْنَاقِهِمْ ، وَهُمْ فِي حِلٍّ مِنَ الْأَيْمَانِ الَّتِي أَعْطَوْنِي ، بَرَاءً مِنْ تَبِعَتِهَا وَوَزِيرَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

تَبَيْتُهُ سُلَيْمَانَ بْنَ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَنْصُورِ ، وَعِيسَى بْنَ جَمَقَرٍ ، وَجَمَقَرُ بْنُ جَمَقَرٍ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمَهْدِيِّ ، وَجَمَقَرُ بْنُ مُوسَى أَمِيْرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِسْحَاقُ بْنُ مُوسَى أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِسْحَاقُ بْنُ عِيسَى بْنِ عَلِيٍّ ، وَأَحْمَدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَلِيٍّ ، وَسُلَيْمَانَ بْنَ

جعفر بن سليمان، وعيسى بن صالح بن علي، وداود بن عيسى بن موسى، وبيحي
 ابن عيسى بن موسى، وداود بن سليمان بن جعفر، ونزيمة بن حازم، وهرثمة بن
 أمية، وبيحي بن خالد، والفضل بن يحيى، وجعفر بن يحيى، والفضل بن الربيع
 مولى أمير المؤمنين، والقاسم بن الربيع مولى أمير المؤمنين، ودمانة بن عبد العزيز
 القسبي، وسليمان بن عبد الله بن الأصم، والربيع بن عبد الله الحارثي، وعبد الرحمن
 ابن أبي الشمر الساسي، ومحمد بن عبد الرحمن قاضي مكة، وعبد الكريم بن شعيب
 الجهمي، وإبراهيم بن عبد الله الجهمي، وعبد الله بن شعيب الجهمي، ومحمد بن عبد الله
 ابن حنبل الجهمي، وإبراهيم بن عبد الرحمن بن نبيه الجهمي، وعبد الواحد بن عبد الله
 الجهمي، وإسماعيل بن عبد الرحمن بن نبيه الجهمي، وأبان مولى أمير المؤمنين، ومحمد
 ابن منصور، وإسماعيل بن صبح، والحارث مولى أمير المؤمنين، وخالد مولى
 أمير المؤمنين .

وكتب في ذي الحجة سنة ست وثمانين ومائة :



وأما ما كتبه المأمون، فنصه بعد البسملة :

هذا كتاب لعبد الله هرون أمير المؤمنين، كتبه له عبد الله بن هرون أمير المؤمنين،
 في حجة من غلله، وجواز من أمره، وصديق نية فيما كتب من كتابه، ومعرفة
 ما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته ولجماعة المسلمين .

إن أمير المؤمنين هرون ولاني العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين في سلطانه
 بعد أبي محمد بن هرون أمير المؤمنين، وولاني في حياته وبعده خراسان وكورها،
 وجميع أعمالها : من الصدقات والعشور والبريد والطراز وغير ذلك . واشترط لي على

محمد بن أمير المؤمنين الوفاء بما عقد لي من الخلافة والولاية للعباد والبلاد بعده ،
 وولايي ثمرسان وجميع أعمالها ، ولا يعرض لي في شيء مما أطلبني أمير المؤمنين ،
 أو أتباع لي من الضياع والمقد والنور والرابع ، أو أبتعت منه [نفسى] من ذلك ،
 وما أعطاني أمير المؤمنين هرون من الأموال والجواهر والكسا والمتاع والنواب
 في سبب محاسنه [لأصحابي] ، ولا يتبع لي في ذلك ولا لأحد منهم أثرا ، ولا يدخل
 على ولا على أحد ممن كان معي ومعي ، ولا عمالي ولا كفاي ، ومن استعنت به من جميع
 الناس - مكرها : في دم ، ولا نفس ، ولا شعر ، ولا بشر ، ولا مال ، ولا صغير ،
 ولا كبير .

فأجاب به إلى ذلك وأقر به ، وكتب له به كتابا كتبه على نفسه ورضى به أمير المؤمنين
 [هرون وقبله وعرف صدق نيته . فشرط لعبد الله هرون أمير المؤمنين]
 وجعلت له على نفسي أن أسمع لمحمد بن أمير المؤمنين وأطيعه ولا أعصيه ، وأنصحه
 ولا أغشه ، وأوقى بيعته ولا يسه ، ولا أغدر ولا أنكث ، وأنفذ كتبه وأموره ،
 وأحسن مؤازرته ومكافئته ، وأجاهد عدوه في ناحيتي بأحسن جهاد ما وقى لي بما
 شرط لي ولعبد الله هرون أمير المؤمنين ، وسماه في الكتاب الذي كتبه لأمر المؤمنين
 ورضى به أمير المؤمنين ، ولم ينقص شيئا من ذلك ، ولم ينقص أمرا من الأمور التي
 اشترطها لي عليه هرون أمير المؤمنين .

وإن احتاج محمد بن هرون أمير المؤمنين إلى جند وكتب لي يأمرني
 بأشخاصهم إليه ، أو إلى ناحية من النواحي ، أو إلى عدو من أعدائه خالفه أو أراد
 قصف شيء من سُلطانه وسُلطاني الذي أسنده هرون أمير المؤمنين إلينا وولانا -
 أن أقد أمره ولا أخالفه ، ولا أقصر في شيء كتب به إلي .

وإن أراد محمد بن أمير المؤمنين هرون أن يؤتى رجلاً من ولده العهد والخلافة من بعده، فذلك له ما يؤتى لي بما جعل لي أمير المؤمنين هرون، واشترط لي عليه، وشرطه على نفسه في أمري، وعلى إفاذ ذلك والوفاء له بذلك، ولا أنقض ذلك ولا أغیره، ولا أبطله، ولا أقدم [قبله] أحداً من ولدي، ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين، إلا أن يؤتى هرون أمير المؤمنين أحداً من ولده العهد من بعدى، فيلزمني الوفاء بذلك.

وجعلتُ لأمر المؤمنين ومحمد بن أمير المؤمنين على الوفاء بما اشترطتُ وسميتُ في كتابي هذا، ما وقى لي محمد بن أمير المؤمنين هرون بجميع ما اشترط لي هرون أمير المؤمنين عليه في نفسي، وما أعطاني أمير المؤمنين هرون من جميع الأشياء المساءة في الكتاب الذي كتبه له. [وعلى] عهد الله تعالى وميثاقه، وذمة أمير المؤمنين، وذمتي، وذمة آبائي، وذمت المؤمنين، وأشد ما أخذ الله عز وجل على النيسين والمرسلين من خلقه أجمعين من عهوده ومواثيقه، والأيمان المؤكدة التي أمر الله عز وجل بالوفاء بها.

فإن أنا نقضت شيئاً مما اشترطتُ وسميتُ في كتابي هذا له، أو غيرتُ، أو بطلتُ، أو نكحتُ، أو غدرتُ - فبرئت من الله عز وجل ومن ولايته ومن دينه، ومن عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقيت الله سبحانه وتعالى يوم القيامة كافراً مشركاً. وكل امرأة لي اليوم أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً البتة [طلاق] الحرج. وكل مملوك لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله تعالى. وعلى المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجة، نذراً وإجباً على وفي عني،

حَافِيًا وَاجِلًا ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مَنِّي إِلَّا الْوَقَاءَ بِهِ ، وَصَكُلُ مَالٍ هُوَ الْيَوْمَ أَوْ أَمَلِكُهُ
إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً هَذِي بِالْحُكْمَةِ . وَكُلَّ مَا جِئْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ هُرُونُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
أَوْ شَرِطْتُ فِي كِتَابِي هَذَا لَا زِمَ لِي ، لَا أَشْغُرْ غَيْرَهُ وَلَا أَنْوِي سِوَاهُ .

شَهِدَ فَلَانٌ وَفَلَانٌ ، بِأَسْمَاءِ الشُّهُودِ الْمَقْدَمِ ذِكْرَهُمْ فِي كِتَابِ الْأَمِينِ الْمُبْتَدِ بِذِكْرِهِ .

قَالَ الْأَزْرُقِيُّ : وَلَمْ يَزَلْ هَذَانِ الشَّرْطَانِ مَطْعَيْنِ فِي جَوْفِ الْكُتُبَةِ حَتَّى مَاتَ
هُرُونُ الرَّشِيدِ ، وَبَعْدَ مَا مَاتَ بَسْتَيْنِ فِي خِلَافَةِ الْأَمِينِ . فَكَلَّمَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ
مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْحَجَّيَّ فِي إِثْبَانِهِ بِهِمَا ، فَزَعَمَهُمَا مِنَ الْكُتُبَةِ وَذَهَبَ بِهِمَا إِلَى بَغْدَادَ ،
فَاخْذَهُمَا الْفَضْلُ نَحْرَهُمَا وَحَرَقَهُمَا بِالنَّارِ .

قُلْتُ : وَعَلَى نَحْوِ مَا كَتَبَ أَبُو إِسْحَاقَ الصَّائِي مُوَاصِفَةً بِالْمُصْلَحِ بَيْنَ
شَرَفِ الدَّوْلَةِ وَزَيْنِ الْمِلَّةِ أَبِي الْقَوَارِسَ ، وَصَمَّامِ الدَّوْلَةِ وَشَمْسِ الْمِلَّةِ أَبِي كَالِيَجَارَ ،
أَبْنَى عَضِدِ الدَّوْلَةِ بْنِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهَ ، فِي النِّصْفِ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ سِتٍّ وَسَبْعِينَ
وثلثمائة .

وَنَصَّهَا بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ الشَّرِيفَةِ :

هَذَا مَا أَتَمَّقُ وَأَصْطَلِحُ وَتَتَلَهَّدُ وَتَتَأَقَّدُ عَلَيْهِ شَرَفُ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ الْمِلَّةِ أَبِي الْقَوَارِسَ ،
وَصَمَّامُ الدَّوْلَةِ أَبُو كَالِيَجَارَ أَبْنَا عَضِدِ الدَّوْلَةِ وَتَاجِ الْمِلَّةِ أَبِي مُجَاجِ بْنِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ
أَبِي عَلِيٍّ ، مَوْلِيَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الطَّائِعِ لَهُ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ ، وَأَدَامَ عِزَّهُ وَتَأَيَّدَهُ ،
وَنَصَرَهُ وَعُظُّوهُ وَإِذْنَهُ .

إِنَّمَقًا وَتَصَالِحًا ، وَتَمَاهِدًا وَتَتَأَقَّدًا ، عَلَى تَحْوِي اللَّهِ تَعَالَى وَإِثَارِ طَاعَتِهِ ، وَالْاِخْتِصَامِ
بِحَبْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَالْاِكْتِنَاءِ إِلَى حُسْنِ تَوْفِيقِهِ وَمَعُونَتِهِ ، وَالْإِقْرَارِ بِأَهْرَاقِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ،
لِاشْرَافِهِ لَهُ وَلَا مِثْلَ ، وَلَا حِدٍّ وَلَا يَدٍ ، وَالصَّلَاةِ عَلَى عَجْدِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

آله وسلم تسليما، والطاعة لأمر المؤمنين الطائعين لله، والالتزام بوثائق بيئته، وعلاقته
 دعوته، والتوازر على موالاة وليه، ومعاداة عدوه؛ وعلى أن يمسكا [ذات] بينهما
 بالسير الحميدة، والسُنن الرشيدة، التي سنها لها السلف الصالح من آباؤهما وأجدادها
 في التألف والتوازر، والتماضيد والتغاير؛ وتعتظيم الأصغر للأكبر، وإشبال^(١) الأكبر
 على الأصغر، والاشتراك في النعم، والتقاوض في الخطوط والقسمة؛ والاتحاد بملوص
 الطوبا، والحقايق، وسلامة الخواطر، وطهارة القنائر، ورفع ما خالف ذلك من
 أسباب المناقصة، وجرائر المضايقة؛ وجوالب النبوه، ودواجي الفرقه؛ والإقتران
 لأعداء الدولة، والإزصاد لهم؛ والاجتماع على دفع كل نايح، وقمع كل مُقاوم؛
 وإظهار أئيف كل ضار متجبر، وإضرار خذ كل متطاول مُستكبر؛ حتى يكون
 الموالي لأحدهم متصورا من جماعتهم، والمُعادي له مقصودا من سائر جوانبهم؛
 فلا يحد المتأيد على أحدهم مفزعا عند أحد من الباقين ولا اعتصاما به، ولا أليجا
 إليه؛ لكن يكون مرميا بجميع سباهم، ومضروبا بأساليب قهقهم، ومأخوذا بكثبة
 بأسيهم وقوتهم، ومقصودا بغالب تجديتهم وشنتهم؛ إذ كانت هذه الآداب القويمة،
 والطرائق السليمة؛ جارية للنول تجري الجنن الدافعة عنها، والمعاقيل الماسية لها؛
 ويمثلها تلعين النعم وقسكن، كما أن بأضدادها تشمت وتغير.

ولما وفق الله تعالى شرف الدولة وزين الملك أبا القوارس، وخصصام الدولة
 وتشم الملك أبا كاليبجار اعتقاد هذه الفضائل وإيتارها، والتظاهرة بها وأتشفاعها؛
 ودعاهما مولاها الطائعين لله أمير المؤمنين إلى مادعاهما إليه من الصالحات والتألف،
 والتصافي والتخالص؛ وأمر خصصام الدولة أبا كاليبجار بمراسلة شرف الدولة

أَبِي الْفَوَارِسِ فِي إِحْكَامِ مَعَايِدِ الْأَخُوَّةِ، وَإِبْرَامَ وَتَائِيَةَ الْأُفْقَةِ - أَمْتَلَ ذَلِكَ وَأَصْنَى
إِلَيْهِ شَرَفُ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ الْمِلَّةِ أَبُو الْفَوَارِسِ: أَصْنَى إِلَيْهِ شَرَفُ الدَّوْلَةِ إِصْفَاءُ الْمُسْتَوْثِقِ
الْمُسْتَصِيبِ، وَتَحْبَلُهُ تَحْبَلُ السَّالِمِ الْكَلْبِيبِ؛ وَتَعْدُ إِلَى بَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ رَسُولُهُ أَبَا نَصْرٍ
نَرْشِيدِ بْنِ دِيَارِ بْنِ مَافَتَةَ بِالْمَعْرُوفِ مِنْ كِفَايَتِهِ، وَالْمَشْهُورِ مِنْ أَصْطِنَاجِ الْمَلِكِ السَّعِيدِ
عَضِيدِ الدَّوْلَةِ وَتَاجِ الْمِلَّةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ لَهُ، وَإِدْبَاعُهُ إِيَّاهُ وَدِيمَةُ الْإِحْسَانِ الَّتِي يَحِقُّ
عَلَيْهِ أَنْ يُسَاوَى فِي حِفْظِهَا بَيْنَ الْجَهَنِّيِّينَ، وَيُوَارِي فِي رِعَايَتِهَا بَيْنَ كَلَا الْفَرِيقَيْنِ .

بَقَرْتُ بَيْنَ مَحْصَمِ الدَّوْلَةِ وَتَمَسُّ الْمِلَّةِ أَبِي كَالِيْبَارَ وَيَنْتَهِي مُحَاطَاتُ اسْتَعَزَّتْ
عَلَى أُمُورِ آتَتِ الْمَفَاوِضَةُ عَلَيْهِمَا، وَأُثْبِتَ مِنْهَا فِي هَذِهِ الْمَوَاصِفَةِ مَا أَحْتِجُّ إِلَى إِثْبَاتِهِ
مِنْهَا [أَمْرٌ] عَامٌّ لِلْفَرِيقَيْنِ، وَقَسِمَانِ يَخْتَصُّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا .

فَالأَمْرُ الَّذِي يَجْمَعُهُمَا عُمُومُهُ، وَيَكْتَفِيهِمَا شُمُولُهُ، فَهُوَ: أَنْ يَتَقَالَصَ شَرَفُ
الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ الْمِلَّةِ أَبُو الْفَوَارِسِ، وَمَحْصَمُ الدَّوْلَةِ وَتَمَسُّ الْمِلَّةِ أَبُو كَالِيْبَارَ فِي ذَاتِ
بَيْنِهِمَا، وَيَتَصَافِيَا فِي سَرَائِرِ قُلُوبِهِمَا، وَيَرْفُضَا مَا كَانَ جَزَاءً عَلَيْهِمَا سَفَاهُ الْأَتْبَاعِ:
مَنْ تَرَكَ التَّوَالُصَ، وَاسْتَيْمَالَ التَّقَاطُعَ، وَيَرْجِعَا عَنْ وَحْشَةِ الْفُرْقَةِ، إِلَى أُنْسِ الْأُفْقَةِ؛
وَعَنْ مَقْصَصَةِ التَّنَافُرِ وَالتَّهَابُرِ، إِلَى مَقْبَةِ التَّيَّارِ وَالتَّلَاطُفِ؛ فَيَكُونُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا
مُرِيدًا لِصَاحِبِهِ مِنَ الصَّلَاحِ مِثْلَ الَّذِي يُرِيدُهُ لِنَفْسِهِ، وَمُتَّقِدًا فِي الذَّبِّ عَنْ بِلَادِهِ
وَحُدُودِهِ مِثْلَ الَّذِي يَتَّقِدُهُ فِي الذَّبِّ عَمَّا يَخْتَصُّ بِهِ؛ وَمُسِيرًا مِثْلَ مَا يُظْهَرُ: مِنْ
مُؤَالَاةٍ وَلَيْسَ، وَمُعَادَاةٍ عَدُوِّهِ؛ وَالْمُرَامَاةَ لِمَنْ رَامَاهُ، وَالْمُصَافَاةَ لِمَنْ صَافَاهُ؛ فَانْجَمَ
عَلَى أَحَدِهِمَا نَائِجٌ، أَوْ رَاحَتُهُ مَرَاغِمٌ، أَوْ هَمٌّ بِهِ حَاسِدٌ، أَوْ دَلْفٌ إِلَيْهِ مُعَانِدٌ، أَوْ تَقَا
جَمِيعًا عَلَى مُقَارَعَتِهِ: قَرِيبًا كَانَ أَوْ بَعِيدًا، وَزَافِدًا عَلَى مُدَافَعَتِهِ: دَانِيًا كَانَ أَوْ قَاصِيًا؛
وَسَمَحَ كُلُّ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى الْمُوَاسَاةِ فِي ذَلِكَ فِي سَائِرِ أَحْدَاثِ الزَّمَانِ

وَنُوبِهِ ، وَتَصَارِيفِهِ وَغَيْرِهِ ؛ بِمَا يَتَّبِعُ وَشَتْمُ عَلَيْهِ طَوُّهُ مِنْ مَالٍ وَعُدَّةٍ ، وَرَجَالٍ
وَتَجَدُّ ، وَاجْتِهَادٍ وَقُدْرَةٍ ؛ لَا يَقْبَلُ أَحَدٌ مِنْهُمَا عَنْ أُخِيهِ ، وَلَا يَحْدِلُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ ،
وَلَا يَتْرُكُ نَصْرَتَهُ ، وَلَا يَنْصَرِفُ عَنْ مُؤَاوَزَتِهِ وَمُطَاقَرَتِهِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي
تَسْتَحِيلُ بِهَا النَّيَاتُ : مِنْ إِرْغَابٍ مُرْغِبٍ ، وَحِيلَةٍ مُخْتَلٍ ، وَمُحَاوَلَةٍ مُحَاوِلٍ . وَلَا يَقْبَلُ
أَحَدُهُمَا مُسْتَأْمِنًا إِلَيْهِ مِنْ جِهَةٍ صَاحِبِهِ : مِنْ جُنْدِيٍّ ، وَلَا عَامِلٍ ، وَلَا كَاتِبٍ ،
وَلَا صَاحِبٍ ، وَلَا مُتَصَرِّفٍ فِي وَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ التَّصَرُّفَاتِ كُلِّهَا ؛ وَلَا يُجِيرُ عَلَيْهِ هَارِبًا ،
وَلَا يَقْصِمُ مِنْهُ مُوَارِبًا ؛ وَلَا يَتَطَرَفُ لَهُ حَسَدًا ، وَلَا يَحْقِيقُهُ حَقًّا ، وَلَا يَنْتَكِلُ لَهُ
حَرِيصًا ، وَلَا يَتَنَاوَلُ مِنْهُ طَوُّقًا ، وَلَا يَتَّخِذُ لَهُ سَبِيلًا ، وَلَا يَسْتَبِئُ إِلَى ذَلِكَ بِسَبَبٍ
بَاطِنٍ ، وَلَا بِأَعْتِلَالٍ ظَاهِرٍ ؛ وَلَا يَدْعُ مُوَافَقَتَهُ ، وَمُطَابَقَتَهُ ، وَمُطَاقَرَتَهُ
فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ ، وَسِرٍّ وَجَهْرٍ ، عَلَى سَائِرِ الْجِهَاتِ ، وَتَصَرُّفِ الْحَسَالَاتِ ، وَوُجُوهِ
التَّأْوِيلَاتِ . يَلْتَرَمُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ذَلِكَ لِصَاحِبِهِ أَلْتَرَامًا عَلَى التَّمَانِيِ وَالْتِمَانِ ،
وَالْتَوَازِيِ وَالْتَقَابِلِ .

وَأَمَّا الْأَمْرُ الَّذِي يَخْتَصُّ شَرَفَ الدُّوَلَةِ وَزَيْنُ الْمِلَّةِ بِهِ ، وَيَلْتَرِمُهُ مَحْضَامُ الدُّوَلَةِ
وَتَشْمُسُ الْمِلَّةُ لَهُ ، فَهُوَ أَنْ يُقَدِّمَهُ مَحْضَامُ الدُّوَلَةِ وَتَشْمُسُ الْمِلَّةُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيُعْطِيَهُ
بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِ سِنِّهِ ، وَيُعْطِيَهُ فِي كُلِّ مَا أَقَادَ الدُّوَلَةَ الْجَامِعَةَ لَهَا صَلَاحًا ،
وَهَاضَ مِنْ عَدُوِّهَا جَنَاحًا ؛ وَطَادَ عَلَى وَلِيِّهَا بَيْرَ ، وَعَلَى عَدُوِّهَا بُلْدَ ، وَأَنْ يُجِئَ
مَحْضَامُ الدُّوَلَةِ النُّخْوَةَ عَلَى مَنَازِمَافِي يَدِهِ مِنْ مَدِينَةِ السَّلَامِ وَسَائِرِ الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ ،
الَّتِي أَحَاطَتْ بِهَا حُقُوقُهُ ، وَضَرَبَتْ عَلَيْهَا حُدُودُهُ ، لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ لَشَرَفِ الدُّوَلَةِ
وَزَيْنِ الْمِلَّةِ أَبِي الْفَوَارِسِ ، ثُمَّ لِنَفْسِهِ . وَيُجْرَى الْأَمْرُ فِي تَقْيِيسِكَ دَوْرَ الضَّرْبِ
الَّتِي يُطَبِّعُ بِهَا الدِّينَارُ وَالْدِّرْهَمُ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْبِلَادِ عَلَى الْمِثَالِ . وَيُوقَى مَحْضَامُ الدُّوَلَةِ
وَتَشْمُسُ الْمِلَّةُ أَبُو كَالِجَارِ شَرَفَ الدُّوَلَةِ وَزَيْنَ الْمِلَّةِ أَبِي الْفَوَارِسِ فِي الْمَكَلَبَاتِ

والمخاطبات حقّ التعظيم ، وشعار التّخيم ، على التّقرير بينه وبين خورشيد بن ديار ابن مافنة في ذلك .

وأما الأمر الذي يختصّ متمصّام الدّولة وتمنّس الملة أبو كاليجار به ، ويقرّره شرف الدولة وزين الملة أبو الفوارس له ، فهو ترك التّعرض لساير ممالكه ، وما يتصلّ بها من حُدودها الجارية معها ، والإفراج منها عما يؤدّه ويُسرع إليه أصحاب شرف الدولة وزين الملة ، وتجنّب التّخيف لها أو لشيء من الحقوق الواجبة فيها ، ومُراعاه في الأمور التي يحتاج فيها إلى نظره وطوّله ، وإجماله وقضله ، وما يجب على الأخ الأصغر مُراعاة أخيه وتاليه فيه ، ممّا ثبتت في هذه الموصافة بحجته ، واشتملت المفاوضة مع خورشيد بن ديار بن مافنة على تحصيله .

أتحقّق شرف الدولة وزين الملة أبو الفوارس ، ومتمصّام الدّولة وتمنّس الملة أبو كاليجار ، بأمر أمير المؤمنين الطّائع لله ، وعلى الاختيار منهما ، والالتزام من صدورهما ، من غير إكراه ولا إجبار ، ولا اضطيار ولا اضطّار . على الرّضا بذلك كلّهما ، والالتزام له ، ويصير جميعه عهداً مرجوعاً إليه ، وعقداً معمولاً عليه ، وحلف كلّ منهما على ما يلتزمه من ذلك يميناً عقدها بأن يخلّف صاحبها بمثلها ، على ما يلتزمه منه . فقال متمصّام الدّولة : والله الذي لا إله إلا هو (وبسمّ التّعين) .

النوع الثاني

(نما يجرى عقد الصلح فيه بين ملكين مسلمين -

ما يكون العقد فيه من جانب واحد)

والكتاب فيه متعاب :

المذهب الأول

(أن يفتح عقد الصلح بلفظ : « هذا » كما في النوع السابق)

وهذه نسخة عقد صلح من ذلك ، كتب بها أبو إسحق الصبائي ، بين الوزير أبي نصر سابور بن أردشير ، والثريقتين : أبي أحمد الحسين بن موسى ، وأبي الحسين محمد آبنه الرضى ، بما انعقد من الصلح والضمير بين الوزير المذكور ، وبين النقيب أبي أحمد الحسين وولده محمد ، حين تزوج آبنه محمد المذكور بنت سابور المذكور ، وجعله على نسختين ، لكل جانب نسخة ، بعد البسملة ماضوته :

هذا كتاب لسابور بن أردشير ، كتبه له الحسين بن موسى الموسوى ، وولده محمد بن الحسين الموسوى .

إنا وإناك - عند ما وصله الله بيننا من الصبر والتخلطه ، ونجته من الحال والموت - آتينا أن ينقذ بيننا وبينك ميثاق مؤكّد ، وعهد مجدّد ، تسكن النفوس إليهما ، وتطمئن القلوب ممهما ، وتزداد الأئمة بهما على مرّ الأيام ، وتماقب الأعوام ، ويكون ذلك أصلاً مستقراً ترجع جميعاً إليه ، ونعوّل ونعتدّ عليه ، وتوارثه أعقابنا ، وتبعنا فيه أخلاقنا .

فأعطيناك عهد الله وميثاقه ، وما أخذناه على أنبيائه المرسلين ، وملائكته المقربين ، صلى الله عليهم أجمعين ، عن سؤدود مؤثريه - وآله - الصلاح متفيعه - أنا

تُخْلِصُ لَكَ جَمِيعًا وَكُلَّ وَاحِدٍ مِّنَّا إِخْلَاصًا مَّجْمُوعًا يَسْأَلُ ظَاهِرُهُ بِإِطْنِهِ ، وَيَوَافِقُ
حَافِيَهُ عَالِيَهُ ؛ وَأَنَا نَوَالِي أَوْلِيَاءَكَ ، وَتُعَلِّدِي أَعْدَاءَكَ ؛ وَتَصِلُ مِنِّي وَصْلَكَ ، وَتَقْطَعُ مِنِّي
قَطْعَكَ ، وَتَكُونُ مَعَكَ فِي نَوَائِبِ الزَّمَانِ وَشِدَائِيهِ ، وَفِي قَوَائِدِهِ وَعَوَائِدِهِ ؛ وَحَيْثُمَا لَكَ
صَحَابًا شَهِدَ اللَّهُ بِزُورِهِ لَنَا ، وَوَجَّوْهُهُ عَلَيْنَا ، وَأَنَا نَصُونُ الْكَرَمَةَ عَلَيْنَا ، الْأَيُّمَةَ عِنْدَنَا ،
فَلَانَةَ بِنْتِ فُلَانٍ - أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهَا - الْمُتَحَلِّةَ إِلَيْنَا ؛ كَمَا تَصَانُ الْعُيُونُ بِجُفُونِهَا ،
وَالْقُلُوبُ بِسِقَافِهَا ؛ وَتُجَرِّبُهَا بِجُرَى كَرَامَتِ حَرَمِنَا ، وَتَقَائِسُ بَنَاتِنَا ، وَمِنْ تَضَمُّنِهِ
مَنَازِلُنَا وَأَوْتَاطُنَا ؛ وَتَنْتَاهِي فِي إِجْلَالِهَا وَإِعْظَامِهَا ، وَالتَّوَسُّعَةِ عَلَيْهَا فِي مَرَاغِدِ عَيْشِهَا ،
وَعَوَارِضِ أَوْتَاطِرِهَا ، وَسَائِرُ مَوْثِقَاتِهَا وَمُؤَنِّسَاتِهَا ، وَالتَّهَوُّضِ وَالْوَفَاءِ بِالْحَقِّ الَّذِي أَوْجِبَهُ
إِلَهُهُ عَلَيْنَا هَذَا ؛ فَلَا تُقَدِّمُ شَيْئًا أَلْفَتَهُ : مِنِّي إِشْبَالِي عَلَيْهَا ، وَإِحْسَانِي إِلَيْهَا ،
وَدَبِّي عَنْهَا ، وَغُمَامَاتِي دُونَهَا ، وَتَسْهَدُ لِمَسَارَّهَا ، وَتَوَسِّعُ لَهَايَهَا ؛ وَتَكُونُ جَمِيعًا وَكُلُّ وَاحِدٍ
مِنَّا مُقْبِعِينَ لَكَ وَلَهَا عَلَى جَمِيعِ مَا أَشْتَقِلُّ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ فِي حَيَاتِكَ - أَلطافُ اللَّهِ -
وَبَعْدَ الْوَفَاءِ إِنْ تَقَلَّمْتَنَا ، وَحُوشِيَتِ مِنَ السُّوءِ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا ، وَأَحْوَالِكَ أَجْمَعِهَا .
ثُمَّ إِنَّا نَقُولُ - وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا ، طَائِفِينَ مُخْتَارِينَ ، خَيْرُ مُكْرَهِينَ وَلَا مُجْبَرِينَ ،
بَعْدَ تِمَامِ هَذَا الْقَدْرِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ - وَلِزُورِهِ لَنَا وَلَكَ - : وَآلِهِ الَّذِي لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ الطَّالِبُ النَّالِبُ ، الْمَدْرِكُ الْمُتَهْلِكُ ، الضَّارُّ النَّافِعُ ، الْمَطْلُوعُ عَلَى السَّرَائِرِ ، الْمُحِيطُ
بِمَا فِي الضُّمَائِرِ ، الَّذِي يَعْلَمُ خَاتِمَةَ الْأَمِينِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ . وَحَقُّ عَهْدِ النَّبِيِّ ،
وَعَلَى الرِّضَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ وَشَرَفَ ذِكْرُهُمَا ، وَصَدَقَتِ الْأَيُّمَةُ الطَّيِّبِينَ ،
وَالطَّاهِرِينَ ، رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ . وَحَقُّ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، وَمَا أُنْزِلَ فِيهِ مِنْ تَحْلِيلِ
وَتَحْرِيمِ ، وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ ، وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيْبٍ ؛ لَتَقِيَنَّ لَكَ يَا سَابُورُ بْنُ أَرْذَشْبِيرَ ،
وَالْكَرِيمَةَ الْأَيُّمَةَ أَبْنَيْكَ فَلَانَةَ - أَحْسَنَ اللَّهُ رِعَايَتَهَا - بِجَمِيعِ مَا تَضَمَّنَتْ هَذَا الْكِتَابُ ،
وَقَاءَهُ جَمِيعًا ؛ وَلِنَقَرِّمَنَّ لَكَ وَلَهَا شَرِائِعَهُ وَوَعَائِدَهُ ، فَلَا تَنْقُصْهَا ، وَلَا تَنْقُصْهَا ،

ولا تَتَّبِعْهُمَا ، وَلَا تَتَّبِعْهُمَا . وَلَا تَأْكُلْ فِيهَا ، وَلَا تَزُولُ فِيهَا ، وَلَا تَنْمِسُ شَرْجًا وَلَا مَخْطَصًا
 مِنْهَا ، حَتَّى يَجْعَلَ الْمَوْقِفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ، وَالْمَقْدَمُ عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَنَحْنُ يَوْمَئِذٍ نَائِبَتَانِ
 عَلَيْهَا ، وَمُؤَدَّيَانِ لِلْأَمَانَةِ فِيهَا ، آدَاءُ يُشْهَدُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَمَلَايَكَتُهُ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ،
 وَيُحَاسِبُ الْعِبَادَ . فَإِنْ نَحْنُ أَخْلَلْنَا بِذَلِكَ أَوْ يَسَّى مِنْهُ ، أَوْ تَأَوَّلْنَا فِيهِ أَوْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ ،
 أَوْ أَشْمَرْنَا خِلَافَ مَا نُنْظَرُ ، أَوْ أَسْرَرْنَا ضِدَّ مَا نُفْلِحُ ، أَوْ أَكْتَمْنَا طَرِيقًا إِلَى تَقْضِيهِ ،
 أَوْ سَيَّلْنَا إِلَى قَسْبِهِ ، أَوْ أَلْمَنَّا بِإِخْفَارِ ذِمَّةٍ مِنْ ذِمَّتِهِ ، أَوْ أَتَهَكَّ حُرْمَةً مِنْ حُرْمِهِ ،
 أَوْ حَلَّ عَصَمَةٍ مِنْ عَصَمِهِ ، أَوْ إِطْلَلْنَا شَرْطَ مَنْ شُرُوطُهُ ، أَوْ تَجَاوَزْنَا حَدَّ مَنْ
 حُدُودُهُ . فَالَّذِي يَفْعَلُ ذَلِكَ مِتًّا يَوْمَ يَقْطَعُهُ أَوْ يَتَّقِدُهُ ، وَحِينَ يَدْخُلُ فِيهِ وَيَسْتَجِيرُهُ -
 بَرَىءٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ شَأْنُهُ ، وَمِنْ نُبُوءَةِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ، وَمِنْ وِلَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ
 أَبِي طَالِبٍ صَلَّي اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمِنْ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ الْعَظِيمِ ، وَمِنْ دِينِ اللَّهِ الصَّحِيحِ
 الْقَوِيمِ ؛ وَلَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْمَرِضِ عَلَيْهِ ، وَالْوُفُوفِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَهُوَ بِه - سَبْحَانَهُ -
 مُشْرِكٌ ، وَلِرَسُولِهِ صَلَّي اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحَالِفٌ ، وَلِأَهْلِ بَيْتِهِ مُعَادٍ ، وَلِأَعْدَائِهِمْ مُوَالٍ ؛
 وَعَلَيْهِ الْحُجُّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ الْعَتِيقِ الَّذِي بِحِكَّةٍ : رَاجِلًا ، حَافِيًا ، حَاسِرًا ؛ وَإِمَاؤُهُ
 عَوَاتِقٌ ، وَنِسَاؤُهُ طَوَالِقٌ ، طَلَاقُ الْحَرْجِ وَالسُّنَّةِ ، لَا رَجْعَةَ فِيهِ وَلَا مَتْنُوِيَّةً ، وَأَمْوَالُهُ
 - عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا - مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِ ، وَخَارِجَةٌ عَنْ يَدَيْهِ ، وَحَبِيسَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 وَبَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَأَجْلَاهُ إِلَى حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ .

وهذه اليمين لازمة لنا ، وقد أطلق كل واحد منا سبيل لسانه ، وعقد عليها ضميره ،
 والثبوت في جميعها نسيب فلان بن فلان ، لا يقبل الله من كل واحد منا إلا الوفاء بها ،
 والثبات عليها ، والألتزام بشروطها ، والوقوف على حدودها ، وكفى بالله شبيداً ،
 وجازياً لبياديه وميثاقه . وذلك في يوم كذا ، من شهر كذا ، من سنة كذا .

المذهب الثاني

(أن يُفْتَحَ عَقْدُ الصُّلْحِ بِمُخْطَبَةٍ مُفْتَتِحَةٍ بِ«الْحَمْدُ لِلَّهِ» وَرُبَّمَا كُرِّرَ فِيهَا
التَّحْمِيدُ إِعْلَامًا بِعَظِيمِ مَوْجِعِ النِّعْمَةِ)

وهذه نُسخةُ عَقْدِ صُلْحِ كُتِّبَ بِهَا أَبُو الْحُسَيْنِ أَحْمَدُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ بَعْضِ الْأَمْرَاءِ
(١) لَنْ كَانَ

وَنَصَّهَا عَلَى مَا ذَكَرَهُ فِي "كَلَامِ الْبَلَاغَةِ" فِي التَّرْسِلِ ، بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْعَالَمَ بِقُدْرَتِهِ ، وَكَوَّنَ الْأُمُورَ بِحِكْمَتِهِ ، وَصَرَّفَهَا عَلَى إِرَادَتِهِ .
لَمْ يَلْطَفْ عَنْهُ خَفِيَ ، وَلَا أَمْتَعَ عَنْهُ قَوِيٌّ ، أَسْتَدْعِ الْخَلَائِقَ عَلَى اخْتِلَافِ فِطَرِهَا ،
وَتَبَايُنِ صُورِهَا ، مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ اخْتِزَاهُ ، وَلَا رَسِيمٍ اقْتَفَاهُ ، وَأَيْلُمٍ يَنْعِمُهُ ، فِيمَا رَكِبَهُ
فَيَسِمُ مِنَ الْأَوْدَابِ الدَّالَّةِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ ، لِلنَّاطِقَةِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ ، وَكَتَفُوا بِالْمَعْرِفَةِ بِهِ
- جَلَّ جَلَالُهُ - بِجَهْرِ الْقَوْلِ ، وَشَهَادَةِ الْأَفْهَامِ . ثُمَّ اسْتَظْهَرَ لِمِ فِي التَّبَيُّرِ ، وَغَلِبَهُمْ
فِي الْمُجْجِ ، بِرُسُلٍ أَرْسَلَهَا ، وَأَيَّاتٍ بَيَّنَّهَا ، وَمَعَالِمٍ أَوْصَحَّهَا ، وَمَنَارَاتٍ لِمَسَالِكِ الْحَقِّ
رَفَعَهَا ، وَشَرَعَ لِمِ الْإِسْلَامَ دِينًا وَأَرْضَاهُ وَأَصْلَفَاهُ ، وَفَضَّلَهُ وَأَجْتَبَاهُ ، وَشَرَّفَهُ
وَأَعْلَاهُ ، وَجَعَلَهُ مُهَيِّمًا عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَقَدَّرَ الْعِزَّ لِحُزْنِهِ وَأَهْلِهِ ، فَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ :
(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)
وَأَيَّدَهُ بِأَنْبِيَائِهِ الدَّامِينَ إِلَيْهِ ، وَالتَّائِيهِينَ لَطَرَفِهِ ، وَالْمُسَادِقِينَ لِفَرَاغِهِ ، وَالْمُخْبِرِينَ عَنْ
شَرَائِعِهِ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ ، وَأُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ ، فِي قَرَّةٍ بَعْدَ قَرَّةٍ ، وَبَيِّنَةٍ بَعْدَ بَيِّنَةٍ ، حَتَّى
أَتَتْهُ تَهْدِيدُهُ - جَلَّ جَلَالُهُ - أَنْ بَعَثَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ، الْفَاضِلَ الزَّيْكَ ، الَّذِي قَفَّى بِهِ
عَلَى الرُّسُلِ ، وَنَسَخَ بِشَرِيعَتِهِ شَرَائِعَ الْمَلَلِ ، وَبَيَّنَّه أَدْيَانَ الْأُمَمِ ، عَلَى حِينِ تَرَايَاسِ

قَدَرَهُ ، وَرَأَى حَيْرَهُ ، فَأَبْلَحَ بِهِ نِيرَانُ الْفِتَنِ بَعْدَ اضْطِرَامِهَا ، وَأَصَابَهُ بِهِ سُبُلُ الرِّشَادِ بَعْدَ
إِظْلَامِهَا ؛ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - بِمَا وَجَدَهُ عَنْدهُ مِنَ التَّهْوِضِ بِأَجْبَاءِ الرِّسَالَةِ ،
وَالْقِيَامِ بِإِدَاءِ الْأَمَانَةِ ؛ فَازْرَأَحَ بِذَلِكَ الْعِلَّةَ ، وَقَطَعَ الْمَعْدِرَةَ ؛ وَلَمْ يَبْقِ لِلشَّاكِّ مَوْضِعَ
شُبْهَةٍ ، وَلَا لِلْمَائِدِ دَعْوَى مُمَوَّهَةٍ ؛ حَتَّى مَضَى حَيِّدًا تَنْهَدُ لَهُ آثَارُهُ ، وَتَقُومُ بِتَأْسِيدِ
سُكْنَتِهِ أَخْبَارُهُ ؛ قَدْ خَلَفَ فِي أَمْتِهِ ، مَا أَصَارَهمْ بِهِ إِلَى عَطْفِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَالتَّجَاوِ
مِنْ عِقَابِهِ وَخُفْلِهِ ؛ إِلَّا مِنْ شَيْءٍ بَسُوهُ أَخْيَارِهِ ، وَحَرَّمَ الرِّشَادَ بِمُذْلَلَاتِهِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ أَفْضَلُ صَلَاةٍ وَأَتَمُّهَا ، وَأَوْفَاها وَأَعَمُّهَا .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَصَّ سَيِّدَنَا الْأَمِيرَ بِالتَّوْفِيقِ وَتَوَحَّدَهُ بِالْإِرْشَادِ وَالتَّنْصِيدِ ؛
فِي جَمِيعِ أَمْعَانِهِ ، وَمَوَاقِعِ آرَائِهِ ؛ وَجَعَلَ هِمَّتَهُ (لِذَلِكَ كَانَتْ الْهِمَّةُ مُنْصِرِفَةً إِلَى هَيْمِ الدُّنْيَا
وَزَخَارِفِهَا ، الَّتِي يَقُولُ بِهَا الْأَبْنَاءُ وَتَدْعُوها إِلَى نَقِيبِهَا) ، مَقْصُورَةً عَلَى مَا يَجْمَعُ لَهُ
رِضَا رَبِّهِ ، وَسَلَامَةُ دِينِهِ ؛ وَأَسْقِيَامَةَ أُمُورِ مَمْلَكَتِهِ ، وَصَلَاحَ أَحْوَالِ رِعْيَتِهِ ؛ وَأَيَّدَهُ
فِي هَذِهِ الْحَالِ الْمَعَارِضَ ، وَالشُّبْهَةَ الْوَاقِعَةَ ؛ الَّتِي تَحَارُّ فِي مِثْلِهَا الْآرَاءُ ، وَتَضْطَرِبُ
الْأَهْوَاءُ ؛ وَتَتَنَازَعُ خَوَاطِرُ النُّفُوسِ ، وَتَخْلُجُ وَسَاوِيسُ السُّدُورِ ؛ وَيَتَخَفَّى مَوْضِعُ
الصُّوَابِ ، وَيُسْكَلُ مَنَاجِجُ الصَّلَاحِ - بِمَا اخْتَارَ لَهُ مِنَ السَّبِيلِ وَالْمُؤَادَعَةِ ، وَالصَّلَاحِ
وَالْمُؤَاقَعَةِ الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ عَلَى فَضْلِهِ ، وَالْخَيْرِ الَّذِي فِي صِفَتِهِ ، بِقَوْلِهِ
جَلَّ وَعَزَّ : (وَالصَّلَاحُ خَيْرٌ) وَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا
وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) حَتَّى أَصْبَحَ السَّيْفُ مَقْمُودًا ، وَرَوَاقُ الْأَمْنِ مَمْلُودًا ؛ وَالْأَهْوَاءُ
مُبْتَقَّةً ، وَالْقُلُوبُ مُؤَيَّدَةً ، وَالْكَلِمَةُ مُجْتَمِعَةً ؛ وَنِيرَانُ الْفِتَنِ وَالضَّلَالَةِ خَامِدَةً ،
وَمُطْنُونُ بُنَاتِهَا وَالسَّامِعِينَ لَهَا كَلَذِيهِ ، وَطَبَقَاتُ الْأَوْلِيَاءِ وَالرَّعِيَّةِ - بِمَا أُعِيدَ إِلَيْهِمْ مِنْ

الْأَمْنَةُ تُغَيَّبُ الْخَلِيقَةَ، وَالْأَمْنَةُ مِنْ بَدِ الْوَحْشَةِ - مُسْتَبْشِرَةٌ؛ وَإِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ -
فِي إِطَالَةِ بَهَاءِ الْأَمِيرِ وَإِدَامَةِ دَوْلَتِهِ، وَحِرَاسَةِ نِعْمَتِهِ وَتَثْبِيتِ وِطَانِهِ - رَاضِيَيْنَ،
وَفِي سُلْطَانَتِهِ مُخْلِصَيْنَ . وَلَوْ لَمْ يَكُنِ السَّلَامُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَأْمُورًا بِهِ، وَالصَّلَاحُ خَبْرًا عَنْ
الْخَيْرِ الَّذِي فِيهِ؛ لَكُنَّا فِيَا يَخْطُمُ بِهِ: مِنْ حَقْنِ السَّمَاءِ، وَسُكُونِ الدُّمُوعِ؛ وَيَجْمَعُ
مِنْ انْتِلَالِ الْمَحْمُودَةِ، وَالْقَضَائِلِ الْمَحْدُودَةِ، الْمُقْلَمِ ذِكْرُهَا - مَاحِدًا عَلَيْهِ، وَمَثَلِ
لِلْعُقُولِ السَّالِمَةِ وَالْأَرْوَاحِ الصَّحِيحَةِ مَوْضِعَ الْخَيْرِ فِيهِ، وَحُسْنِ الْعَالِيَةِ عَلَى الْخَاصِّ
وَالْعَامِّ بِهِ؛ فَيَا بَهْلِي الْعُمُودِ، مِنْ مَشَقَّاتِ الظُّنُونِ، إِذِ الدِّينُ وَاقِعٌ، وَالشُّكُّ جَانِحٌ
بَيْنَ الْحَقِّ وَالْمُبْطَلِ، وَالْجَائِرُ وَالْمُقْسِطِ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ جَلَّ تَعَالَاهُ: ﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ
مُؤْمِنُونَ رِيسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَافُوكُمْ فَتَصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نَاطِقًا
لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ مَعَرَّةٍ أَوْ مَضَرَّةٍ تَلْحَقُ بِمَعْظَمِ بَغِيرِهِمْ؛ وَمُؤَثِّرًا تَطْهَرُ بِهِمْ مِنْ ظُنِّ
الْمُتَوَانِ، مَعَ رَفْعِهِ عَنْهُمْ قَرَوَاتِ النَّسَبَانِ، وَكَأَنَّا أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْمَشْرُوكِينَ،
كَأَنَّ كَفَّ أَيْدِيهِمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ؛ نَحْنُ عَلَى بَرِيَّتِهِ، وَإِقْبَاءٌ عَلَى أَهْلِ مَعْصِيَتِهِ؛ إِلَى أَنْ
يَبْقَى لَمْ يَمُوتَ الَّذِي أَذْنَاهُ، وَالْأَمْرُ الَّذِي أَنْصَاهُ، وَمَوْقِعُ الْحَمْدِ فِي طَاقِبَتِهِ، وَالسَّلَامَةُ
فِي خَاتَمَتِهِ . وَبَلَنَّهُمْ مِنْ غَايَةِ الْبَقَاءِ أَمَدُهَا، وَمِنْ مَرَاقِقِ الْمَهْشِ أَرْغَدُهَا، مَقْصُورَةٌ
أَيْدِي التَّرَاتِبِ عَمَّا حَوْلَهُ، وَمَعْصُومَةٌ أَعْيُنُ الْحَوَادِثِ عَمَّا تَوَلَّاهُ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ مَاجِدٌ .

قُلْتُ: وَعَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ كُتِبَ عَقْدُ الصَّلَاحِ بَيْنَ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّصِيرِ
أَبِي السَّعَادَاتِ «فَرَج» بْنِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ «بَرْقُوق»، وَبَيْنَ الْمَقَامِ التَّشْرِيفِ
الْقُطْبِيِّ تَيْمُورُ كُورْكَانِ صَاحِبِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ، بَعْدَ طُرُقِهِ السَّامِ وَقَبْلِهِ دِمَشْقَ
وَتَحْرِيقِهَا وَتَحْرِيقِهَا، وَإِرْسَالِ كِتَابِهِ فِي مَعْنَى طَلِبِ الصَّلَاحِ، وَإِرْسَالِ الْأَمِيرِ أَمْلَاشِ
لِزِمِهِ، الْمَأْسُورِ فِي الدَّوْلَةِ الظَّاهِرِيَّةِ «بَرْقُوق» حَسْبَ الْخَوَاجَا نِظَامِ الدِّينِ مَسْبُوعُودِ
الْكُجْبَانِي . جُهِزَ ذَلِكَ إِلَيْهِ قَرْنَيْنِ كِتَابٍ مِنَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ مُخَصَّاةٍ الْخَوَاجَا

مسعود المذكور، والأمير شهاب الدين بر أظلك، والأمير قانیه، في جمادئ الأولى سنة خمس وثمانمائة، بإشارة المقرّ التّحیّ صاحب دیوان الإنشاء الشريف، من إنشاء الشيخ زين الدّین طاهر، ابن الشيخ بدر الدّین حبیب الحلبيّ، أحد كُتّاب الدّست الشّریف بالأبواب السلطانية، وهو مكتوبٌ في قطع..... بقلم..... (١) ... وفي طوّره ما صوّره :

«مَرْقُومٌ شَرِيفٌ جَلِيلٌ عَظِيمٌ، مَجْبَلٌ مَعَكْرَمٌ جَمِيلٌ نَظِيمٌ؛ مُشْتَمَلٌ عَلَى عَقْدٍ صُلِحَ أَقْتَمُهُ الْمَقَامُ الشَّرِيفُ، الْعَالِيُ، الْقُطْبِيُّ، نُصْرَةُ الدِّينِ، يَمْجُورُ كُورْكَانَ، زِيدَتْ عَظَمَتُهُ، يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ، السُّلْطَانِ، الْمَالِكِ، الْمَلِكِ الْفَاحِشِ أَبِي السَّعَادَاتِ «فرج» بَنِ السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ، الْمَلِكِ الْقَاهِرِ أَبِي سَعِيدِ «بَرْقُوق» خَادِمِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى مُلْكَهُ . أَنْقَذَ بِمَاشَرَةِ السَّافِيرِ عَنِ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْقُطْبِيّ، الْمَشارِ إِلَيْهِ وَوَيْكَلَهُ فِي ذَلِكَ، انْخَلَوْا بِإِظْهَارِ الدِّينِ مَسْعُودَ الْكَجَجَانِي، بِشَهَادَةٍ مِنْ حَضْرَتِهِ مِنَ الْمُنْذُولِ بِالتَّوَكُّلِ الْمَذْكُورِ، عَلَى حُكْمِ إِشَارَةِ مُرْسِلِهِ إِلَيْهِ وَمَضْمُونِ مَكَاتِبِهِ، وَقَصْدِهِ تَجْهِيْزِ الْأَمِيرِ أَطْلَمَشَ لَزِمَهُ . وَحَلَفَ الْمَقَامُ الْقُطْبِيُّ عَلَى الْمُوَاظَةِ وَالْمَصَافَاةِ، وَاتِّحَادِ الْمَمْلَكَتَيْنِ، وَإِجْرَاءِ الْأُمُورِ عَلَى السَّادِ، وَعَمَلِ مَصَالِحِ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ»

والْيَاضُ ثَلَاثَةُ أَوْصَالٍ بَوَصَلَ الطُّورَةِ، وَالْبَسْمَلَةُ فِي أَوَّلِ الْوَصْلِ الرَّابِعِ هَامِشٍ عَنْ يَمِينِهَا، وَتَحْتَ الْبَسْمَلَةِ سَطْرٌ، ثُمَّ بَيْتُ الْعَلَامَةِ، وَانْطَرُ الثَّانِي بَعْدَ بَيْتِ الْعَلَامَةِ . وَالْعَلَامَةُ بِجَلِيلِ الثَّلَاثِ بِاللَّحَبِ مَا صُوِّرَتْ : « اللَّهُ أَمَلِي » .

وَنُسَخَةُ الْمَكْتُوبِ بِعَدِ الْإِسْمَةِ مَا صُوِّرَتْهُ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الصَّلَاحَ خَيْرَ مَا اقْتَضَتْ عَلَيْهِ الْمَصَالِحُ ، وَالْإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ
أَوَّلَى مَا اقْتَضَتْ بِهِ أَسْبَابُ الْمَنَاجِحِ ، وَاحَقَّ مَا نَقَضَتْ بِهِ أَلْسُنُ الْعَامِدِ وَأَتَمَّتْ عَلَيْهِ
أَقْوَامُ الْمَنَاجِحِ .

تَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي جَمَعَتْ أَشْنَاتَ الْقُلُوبِ الطَّوَائِفِ ، وَأَضَافَتْ إِلَى ضِيَاءِ الشَّمْسِ
نُورَ الْقَمَرِ فَاهْتَدَى بِهَا كُلُّ غَالٍ وَرَوَّاحٍ ، وَنَشَهُدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ
شَهَادَةً تُبَلِّغُ قَائِلَهَا أَهْلَى الْمَنَاجِحِ ، وَتَعْتَظِرُ بِجَالِسِ الذِّكْرِ بِرَفِّ رَوَائِعِهَا الرُّوَائِجِ ، وَنَشَهُدُ
أَنْ عَمَّا جَسَدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ مَنْ آتَى بَيْنَ الْمُتَعَاكِينَ فَتَصَحَّحَ بِهِ وَرَأَى الصَّلَاحَ مِنْ
أَعْظَمِ النَّصَاحِ ، وَكُلَّ رَسُولٍ أَهْدَاكَ لِأَخْلَاقِهِ الرَّضِيَّةِ ، وَصِفَاتِهِ الْمَرْضِيَّةِ ، جَوَاحِ
النُّفُوسِ الْجَوَاحِ ، وَسَلَّمْ نَسْلِيًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوَّلَى مَا أَجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ آرَاءُ أَوْلَى الْأَثْبَابِ ، وَرَكَنْتْ إِلَيْهِ قُلُوبُ ذَوِي
الْمَعْرِفَةِ مِنْ أَهْلِ الْمَوَدَّةِ وَالْأَحْبَابِ - أَتِلَاُفُ الْقُلُوبِ بَعْدَ اخْتِلَافِهَا ، وَأَتَصَافُهَا
بِاتِّلَافِهَا بِأَحْسَنِ أَوْصَافِهَا ، وَالْعَمَلُ عَلَى الصَّلَاحِ الَّذِي هُوَ أَصْلَحُ لِلنَّاسِ ، وَأَرْجَى
مَتَابِعِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَدْقَعُ لِلْيَأْسِ وَالْبَاسِ ؛ إِذْ هُوَ مِفْتَاحُ أَبْوَابِ الْخَيْرَاتِ الشَّامِلَةِ ،
وَمِصْبَاحُ مَنَاجِحِ الْفِكَرِ الصَّحِيحَةِ الْكَامِلَةِ ، وَالذَّاعِي إِلَى كُلِّ فِعْلٍ جَمِيلٍ ، وَالسَّاعِي
بِكُلِّ قَوْلٍ هُوَ شِفَاءُ صَدَى النَّفِيلِ وَنَجَاةٌ مِنْ ذَاةِ الْعَمِيلِ .

وَلَا كَانَ الْمَقَامُ الشَّرِيفُ ، الْعَالِي ، الْكَابِرُ ، الْعَالِي ، الْعَامِلُ ، الْمُؤَيَّدُ ،
الْمُقَفَّرُ ، الْمُنَجَّى ، الْمَلَاذِي ، الْوَالِدِيُّ ، الْقُطْبِيُّ ؛ نُصْرَةُ الدِّينِ ، مَلْجَأُ الْتَائِسِينَ ،
مَلَأْتُ الْعَالَمِينَ ، قُطْبُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، تَجُورُ كُورِ كَلْبٍ ، زَيْتُ عِظْمَتِهِ -
هُوَ الْبَادِي بِإِحْيَاءِ هَذِهِ السَّنَةِ الْحَسَنَةِ ، وَالْحَادِي إِلَى الْعَمَلِ بِمَقْتَضَى مَقَاوِظِهِ الشَّرِيفَةِ

التي هي تلك مُتَمَتِّعَتُهُ ، الْوَارِدَةُ إِلَى حَضْرَةِ عَبْدِ اللَّهِ وَوَلِيِّهِ ، السُّلْطَانِ الْمَالِكِ ،
الْمَلِكِ النَّاصِرِ ، زَيْنِ الدُّنْيَا وَالِدَيْنِ ، أَبِي السَّمَادَاتِ « فَرَج » بْنِ السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ
الْمَلِكِ الظَّاهِرِ ، أَبِي سَمِيدٍ « بَرْقُوقِ » خَادِمِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى
مُلْكَهُ - عَلَى يَدِ سَفِيرِ حَضْرَتِهِ ، الْمُنْطَلِقِ السَّامِيِّ ، الشَّيْخِي ، النَّعْلَانِي ، مَسْعُودِ
الْكُجَيَانِي ، الْمُرَوَّخَةِ بِمُتَهَلٍّ شَهْرِ ربيع الأول سنة تاريخه .

وَجُلٌّ مَضْمُونُهَا ، وَسُرْمُكُونُهَا - قَصْدُ إِعْجَاجِ الصُّلْحِ الشَّرِيفِ بَيْنَ الْمَشَارِ
إِلَيْهَا ، وَتَسْجُوعِ الْمَوَدَّةِ وَالْمُحَبَّةِ وَالْمُصَادَقَةِ بَيْنَهُمَا ، وَإِسْبَالُ رِيَاءِ مَحَابِبِهَا طَيْبِهَا ؛
بِقَضَى تَقْوِيضِ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْقُطْبِيِّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ الْأَمْرِ فِي الصُّلْحِ الْمَذْكُورِ إِلَى
الشَّيْخِ نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ الْمَذْكُورِ ، وَتَوَكُّلِهِ إِيَّاهُ فِيهِ ، وَإِقَامَتِهِ مَقَامَ قَبْضِهِ الشَّرِيفِ ،
وَجَعْلِ قَوْلِهِ مِنْ قَوْلِهِ ، وَأَنَّهُ - عَظَّمَ اللَّهُ تَعَالَى شَأْنَهُ - أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ الْعَظِيمَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ ،
وَأَشْهَدُ عَلَيْهِ مِنْ يَقْضُ حَقْلَهُ مِنْ جَمَاعَتِهِ الْمَجْهُوزِينَ مُحِبَّةِ الشَّيْخِ نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ
الْمَذْكُورِ ، وَهَما : الشَّيْخُ بَدْرُ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَالِمِ شَمْسِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ
الْجَزَيْرِيِّ الشَّافِعِيِّ ، وَالصَّدْرُ الْأَجَلُ كُلُّ الدِّينِ كَيْلُ أَغَا ؛ وَأَنَّ ذَلِكَ صَدَرَ عَنِ الْمَقَامِ
الشَّرِيفِ الْقُطْبِيِّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، لِمُؤَاقَفَتِهِ عَلَى الصُّلْحِ الشَّرِيفِ ، وَإِجَابَةِ الْقَصْدِ فِيهِ
بِإِطْلَاقِ الْأَمِيرِ أَطْلَشِ لَزِمِ الْمَقَامِ الْقُطْبِيِّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، وَتَجْهِيزِهِ إِلَى حَضْرَتِهِ الْعَالِيَةِ ؛
وَأَنَّهُ عَاهَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمُحْضُورِ جَمِّ غَفِيرٍ مِنْ أَسْرَاءِ دَوْلَتِهِ وَأَكَابِرِهَا ، وَمَنْ حَضَرَ
تَجْلِسَهُ ، بِإِيمَانِ الشَّرِيعَةِ الْجَامِعَةِ لِأَنْشَاتِ الْحَلِيفِ : بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْبَرِيَّةِ
وَبَارِئُ النَّفْسِ ، عَلَى ذَلِكَ جَمِيعِهِ ، وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ إِلَى الْبِلَادِ الْبَاطِلَةِ فِي مَمْلَكَةِ
مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، وَأَنَّهُ مَعَهَا عَاهَدَ وَصَالِحَ وَعَاقَدَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ
نِظَامُ الدِّينِ مَسْعُودُ الْوَيْكَلِ الْمَذْكُورُ يَقْضِي بِهِ الْمَقَامُ الْقُطْبِيُّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، وَيُخَضِّعُ
وَيَرْضِيهِ . وَأَنْفَصَلَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ .

فبعد ما وقف مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله تعالى ملكه - على المكتبة الشريفة المشار إليها، وقَّعهم مضمونها، ورأى أن المصلحة في الصلح: بمرحاً بما ورد في كتاب الله عز وجل، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم - استخار الله عز وجل، وأمر بتجهيز الأمير أطمش المذكور، وتبليغه للشيخ نظام الدين مسعود المذكور، وأذن لها في التوجه إلى حضرة المقام الشريف القطبي المشار إليه: بموافقة مولانا أمير المؤمنين التوكل على الله - أدام الله تعالى إمامه - على ذلك، وحضور الشيخ الإمام الفرد الأوحى، شيخ الإسلام، سراج الدين، عمر البلقيني - أعاد الله تعالى على المسلمين من بركاته - وقضاة القضاة الحكام - أمر الله تعالى أحكامهم - ومشايخ العلم الشريف والصلاح، وأركان الدولة الشريفة، ومن يصح خطه في هذا الصلح الشريف بالتهادة بمضمونه .

وعقد الصلح الشريف بين مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله تعالى ملكه - وبين الشيخ نظام الدين مسعود الوكيل المذكور عن المقام الشريف القطبي المشار إليه - زيدت عظمته - على حكم مضمون مفاوضته الشريفة المقدم - رغماً، وما قامت به الهيئة الشرعية، بشهادة القديين المذكورين الواصلين بحجة الوكيل المذكور بالتوكيل المشروح فيه . فكان صلحاً صحيحاً شرعياً، تاماً كاملاً معتبراً مرضياً؛ على أحسن الأمور وأجملها، وأفضل الأحوال وأكملها .

وحلف مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله ملكه - وعاهد الله عز وجل نظير ما حلف وعاهد عليه المقام الشريف القطبي المشار إليه من القول والعمل؛ واستقرت بمشيئة الله تعالى الخواطر، وسرت القلوب وقوت التواطر؛ لما في ذلك من حفظ زمام اليهود الشرقة، وإقامة منار الشرح الشريف وأبصار

ظلالِ أعلامِهِ الْوَرَيْفَةِ ؛ وَإِجْرَاءِ كَلِمَةِ الصَّدِّيقِ ، عَلَى لِسَانِ أَهْلِ الْحَقِّ ، وَصَوْنِ
أَمَانَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَشِعَارِ دِينِهِ بَيْنَ الْخَلْقِ ، فَلَا يَتَغَيَّرُ عَقْدُ هَذَا الصُّلْحِ الشَّرِيفِ
عَلَى مَدَى اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ ، وَلَا يَتَقَضَى حُكْمُهُ وَلَا يَخْلُ إِبْرَاهِمُ عَلَى تَوَالِي السِّنِينَ
وَالْأَعْوَامِ .

هذا : عَلَى أَنْ لَا يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْ عَسَاكِرِهَا وَجُنْدِهَا وَمَعَالِيكُمَا إِلَى حُدُودِ
مَمْلَكَةِ الْآخَرِ ، وَلَا يَتَعَرَّضَ إِلَى مَا يَتَلَقَّى بِهِ مِنْ تَمَاكٍ وَقِلَاحٍ ، وَحُصُونِ
وَسَوَاحِلَ وَمَوَانٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ الْأَنْوَاعِ ؛ وَرَدَّائِمًا مِنْ جَمِيعِ الطَّوَائِفِ
وَالْأَجْنَاسِ ، وَهِيَ هُوَ مَخْصُصٌ بِسِلَاحٍ كُلِّ مِنْهَا وَمَعْرُوفٌ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ : حَاضِرُهَا
وَبَائِسُهَا ، وَقَاصِبُهَا وَدَائِمُهَا ، وَطَامِرُهَا وَظَاهِرُهَا ، وَلَا إِلَى مَنْ
فِيهَا مِنَ الرِّعْيَةِ وَالتَّجَارِ وَالْمَسَافِرِينَ ، وَسَائِرِ الْفُلَّادِينَ وَالرَّائِغِينَ فِي السُّبُلِ وَالطَّرِيقِ :
مُتَفَرِّقِينَ وَمَجْتَمِعِينَ .

هذا عَلَى أَنْ يَكُونَ كُلُّ مِنَ الْمُتَقَامِينَ الشَّرِيفِينَ الْمَشَارِ إِلَيْهَا مَعَ الْآخَرِ عَلَى أَكْمَلِ
مَا يَكُونُ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ : مِنْ حُسْنِ الْوَقَاءِ ، وَجَمِيلِ الْمُوَدَّةِ وَالصَّفَاءِ ؛ وَيَكُونَا
فِي الْأَيْتِمَادِ كَالْوَالِدِ وَالْوَلَدِ ، وَعَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي الْأَمْتِرَاجِ وَالْإِخْلَاطِ كَرُوحَيْنِ فِي جَسَدٍ ؛
مَعَ مَا يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ مُصَادَقَةِ الْأَصْدِقَاءِ ، وَمُعَانَاةِ الْأَعْدَاءِ ؛ وَمُسَالَمَةِ الْمُسْلِمِينَ ،
وَعُجَازَةِ الْمُحَارِبِينَ ؛ فِي السَّرِّ وَالْإِعْلَانِ ، وَالظُّهُورِ وَالْكِتْمَانِ ؛ وَبِاللهِ التَّوْفِيقِ ، وَهُوَ
الْعَالِمُ بِمَا تُبْدِي الْأَعْيُنُ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ ،
فِي النِّيَّةِ وَالْحُضُورَةِ وَالْوُجُودِ وَالصُّدُورِ .

الباب السادس

من المقالة التاسعة

(في الفسوخ الواردة على العقود السابقة، وفيه فصلان)

الفصل الأول

الفسخ، وهو ما وقع من أحد الجانبين دون الآخر

قال في "التعريف" : وَقُلْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ إِلَّا مَا يَبْعُثُ بِهِ عَلَى الْيَسَنِ الرَّسُلُ
قال : وقد كتب عَمَى السَّاحِبُ شَرْفُ الدِّينِ [أبو محمد] عَبْدُ الوَهَّابِ رَحِمَهُ اللهُ ،
سنة دخول السَّاحِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ مَلْطِيَّةً ، سنة أربع عشرة وَسَبْعِينَ فَسَخًا عَلَى التَّكْفُورِ
مَمْلُوكِ يَسَى ، كَانَ سَبَابًا لِأَنْ زَادَ قَطِيعَتَهُ . وَلَمْ يَذْكُرْ صُورَةَ مَا كَتَبَهُ فِي ذَلِكَ .

وقد جرت العادة أنه إذا كان الفسخ من الجانب الواحد أن يذكر الكاتب فيه
موجب الفسخ الصادر عن المفسوخ عليه : من ظهور ما يوجب نقض العهد ،
ونكث العقد ، وإقامة الحجّة على المفسوخ عليه من كل وجه .

قال في "التعريف" : والذي أقول فيه : إنه إن كُتِبَ فِيهِ ، كُتِبَ بَعْدَ الْبِسْمَةِ :

هَذَا مَا اسْتَخَارَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ فُلَانٌ ، اسْتِخَارَةً تَبَيَّنَ لَهُ فِيهَا غَدْرُ النَّادِرِ ، وَأُظْهِرَ لَهُ بِهَا
سِرُّ الْبَاطِنِ مَا حَقَّقَهُ الظَّاهِرُ ؛ فَسَخَّ فِيهَا عَلَى فُلَانٍ مَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مِنَ الْمُهَادَنَةِ
الَّتِي كَانَ آخِرَ الْوَقْتِ الْفُلَانِي-آخِرَ مَمْلُوكِيهَا ، وَطَهَّرَ السُّيُوفَ الدُّكُورَ فِيهَا مِنَ الدَّمَاءِ إِلَى
انْقِضَاءِ عَدَّتِهَا ؛ وَذَلِكَ حِينَ بَدَأَ مِنْهُ مِنْ مُوجِبَاتِ النِّقْضِ ، وَحَلَّ الْمُعَادَةَ الَّتِي كَانَتْ
يُسَدُّ بِعَظْمِهَا بَعْضُ (وَهِيَ كَذَا وَكَذَا ، وَتَذَكَّرْ وَتَعَدَّ) مِمَّا يَوْجِبُ كُلَّ ذَلِكَ إِخْفَارَ

الدَّهْمَ ، وَقَضَى الْعَهْدَ الْمَرْغِيَّةَ الْحُرْمَةَ ؛ وَهَذِهِ قَوَاعِدُ الْمُذْنَةِ ، وَتَحْلِيلَةُ مَا كَانَ قَدْ
أَمْسَكَ مِنَ الْأَعْيَةِ ؛ كَتَبَ إِذْئَارًا ، وَقَدَّمَ حِدَارًا ؛ وَمَنْ يَشْهَدُ بِوُجُوبِ هَذَا النَّسْخِ .
وَدُخُولِ مِلَّةٍ تِلْكَ الْمُذْنَةُ فِي حُكْمِ هَذَا النَّسْخِ ؛ مَا تَشْهَدُ بِهِ الْأَيَّامُ ، وَيَحْكُمُ بِهِ عَلَيْهِ
النَّصْرُ الْمَكْتَتَبُ لِلْإِسْلَامِ ؛ وَكُتِبَ هَذَا النَّسْخُ عَنْ فُلَانٍ لِفُلَانٍ وَقَدْ نَبَذَ إِلَيْهِ عَهْدَهُ ،
وَأَنْجَزَ وَعْدَهُ ، وَأَعْتَدَ إِلَيْهِ سَهْمَهُ بَعْدَ أَنْ صَبَرَ مِلًّا عَلَى عُصَالَاتِهِ ، وَأَقَامَ مَدَّةً يُدَارَى
مَرَضُ وَفَاتِهِ وَلَا يَنْجَحُ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ مُدَاوَاتِهِ ؛ وَلْيَنْصَرِّقْ اللَّهُ مِنْ يَنْصَرُّهُ ، وَيَحْذَرُ مَنْ
يَأْمَنُ مَكْرَهُ مَنْ يَحْذَرُهُ ؛ وَأَمَرَ فُلَانٌ بِأَنْ يقرأَ هَذَا الْكِتَابُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ ،
لِيُنْقَلَ مَضْمُونُهُ إِلَى الْبِلَادِ ؛ أَتَقَّةً مِنْ أَسْرِ لَا يَتَأَدَّى بِهِ الْإِعْلَانُ ، وَيَنْصَبُّ بِهِ لِهَذَا
الْقَادِرِ لَوْ لَا يَقَالُ إِذَا يَقَالُ : هَذَا الْقَوَاءُ لَفَدْرَةِ فُلَانٍ بِنِ فُلَانٍ .

الفصل الثاني

المُفَاسَّخَةُ وَهِيَ مَا يَكُونُ مِنَ الْجَانِينِ جَمِيعًا

قال في "التعريف" : وَصُورَةُ مَا يَكْتَبُ فِيهَا : هَذَا مَا أَخْتَارَهُ فُلَانٌ وَفُلَانٌ مِنْ
فَسَخٍ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنَ الْمُهَادَنَةِ الَّتِي هِيَ إِلَى آخِرِ مَدَّةٍ كَذَا . أَخْتَارَا فَسَخَ بَيْنَهُمَا ،
وَنَسَخَ أَنْبَاءَهَا ؛ وَقَضَى مَا أُرِيَمَ مِنْ عَقُودِهَا ، وَأَتَكَّدَ مِنْ عُهْدِهَا ؛ جَرَتْ بَيْنَهُمَا عَلَى
رِضَا مِنْ كُلِّ مَنِهْمَا بِإِقْدَادِ نَارِ الْحَرْبِ الَّتِي كَانَتْ أُطْفِئَتْ ، وَإِتَارَةِ تِلْكَ التَّوَاتُرِ الَّتِي
كَانَتْ كُفَيْتْ ؛ نَبَذَا عَلَى سَوَاءٍ بَيْنَهُمَا ، وَأَعْتَقَادَ مِنْ كُلِّ مَنِهْمَا ؛ أَنَّ الْمَصْلُحَةَ فِي هَذَا
لِحَقَّتِهِ ، وَأَسْقَطَ مَا كَانَ يَحْتَمِلُهُ لِلْآخَرِ مِنْ رِجْقَتِهِ ؛ وَرَضِيَ فِيهِ بِقَضَاءِ السُّيُوفِ ،
وَامْضَاءِ أَمْرِ الْقَدْرِ وَالْقَضَاءِ فِي مَسَاقِلِ الْخُتُوفِ ؛ وَقَدْ أَشْهَدَا عَلَيْهِمَا بِذَلِكَ أَنَّ
وَحَلَقَهُ وَمَنْ حَصَرَ ، وَمَنْ تَمِيعَ وَنَظَرَ ؛ وَكَانَ ذَلِكَ فِي تَارِيخٍ كَذَا وَكَذَا .

المقالة العاشرة

في قُوتٍ من الكُتابة يتداولها الكُتَّابُ وتَنافُسُ في عملها، ليس لها
تعلقٌ بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها، وفيها بابان

الباب الأول

في الجديّات، وفيه خمسة فصول

الفصل الأول

في المقامات

وهي جمع مقامية يفتح الميم، وهي في أصل اللغة أسمٌ للجلس والجماعة من الناس .
وسُميت الأحدثوة من الكلام مقامية، كأنها تُذكر في مجلس واحد يجمع فيه الجماعة
من الناس لسماعها . أما المقامة بالضم، فيمعنى الإقامة، ومنه قوله تعالى حكاية
عن أهل الجنة : (الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ) .

وأعلم أن أولَّ من فتح باب عميل المقامات، علامة الدهر، وإمام الأدب،
البدیع الممداني: فعمل مقاماته المشهورة المنسوبة إليه، وهي في غاية من البلاغة،
وعُلُو الرتبة في الصنعة . ثم تلاه الإمام أبو محمّد القاسم الحريري، فعمل مقاماته
الخمس المشهورة، بغامت نهاية في الحُسن، وأتمت على الجزء الواقفي من الخط،
وأقبل عليها الخاص والعام، حتّى أنست مقامات البدیع وصيرتها كالمرفوضة .
على أن الوزير ضياء الدين بن الأثير في " المثل السائر " لم يؤفقه حقّه، ولا عامله
بالإنصاف، ولا أجمل معه القول . فإنه قد ذكر أنه ليس له يدٌ في غير المقامات،

حتى ذكر عن الشيخ أبي محمد أحمد بن النشأ أنه كان يقول : إن الحيرى رجل مقامات . أى أنه لم يحسن من الكلام المشور سواها ، فإن أتى بغيرها فلا يقول شيئاً . وذكر أنه لما حضر بغداد ، وقف على مقاماته ، قيل : هذا يستلح لكاتب الإنشاء في ديوان الخلافة ، ويحسن أثره فيه ، فأحضر وطف كاتب كتاب فألفم ، ولم يجر لسانه في طويته ولا قصيره ، حتى قال فيه بعضهم :

شيخ لنا من ربيعة القرس • ينفث مثنونه من الحوس ،

انطقه الله بالمشان وفي • بقناداحى المنجوب بالخرس !

وأعذر عنه بأن المقامات منارها جميعها على حكاية تخرج إلى غلص ، بخلاف المكتبات فانها بحر لا ساحل له . من حيث إن العاني تتجدد فيها بتجدد حوادث الأيام ، وهي متجددة على عند الأفاض .

وهذه المقامة التي قدمت الإشارة إليها في خطبة هذا الكتاب ، إلى أن كنت أنشأتها في حدود سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ، عند استقرارى في ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة ، وأنا أشققت - مع الاختصار - على جملة جمعة من صناعة الإنشاء ، وسميتها بـ "الكواكب البدرية" ، في المكاتب البدرية " ووجه القول فيها لتقريب المقر البدرى ، بن المقر اللاتى ، بن المقر الحوى ، بن فضل الله ، صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية يومئذ . جعلت مبناه على أنه لا بد للإنسان من حرفة يتلقى بها ، ويميشة يتسكك بسببها ، وأن الكتابة هي الحرفة التي لا يلقى بطالب العلم سواها ، ولا يجوز له التناول عنها إلى ما عداها ، مع الجحوش فيها إلى تفضيل كتابة الإنشاء وترويجها ، وتهديمها على كتابة الديونة وترشيحها .

وقد اشقت على بيان ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد ، وما ينبغي أن يسلكه من الجواهر ، مع التنبية على جملة من المصطلح بيئت مفاسده ، ومهدت قواعده ، على ما ستقف عليه في خلال مطالعها إن شاء الله تعالى ، وهي :

حكى التأثير بن نظام ، قال : ثم أزل من قبل أن يبلغ برید عمري مرکز التكليف ، ويتفرق جمع خاطري بالكلف بعد التأليف ، أنصب لأفئد السالم إشراك التحصيل ، وأثره توحيد الاستغال عن إشراك التعليل ، مشعرا من ساق الحسد ذيل الاجتهاد ، مستعرا على الوحدة وملزمة الأفراد ، أتهز فرصة الشباب قبل توليها ، وأغنم حالة الصحة قبل نجاها ، قد حالف جفني السهاد ، وخالف طيب الرقاد ، أمرت النفس على الاشتغال كي لا تحمل فتغري الطالب وقبح ، ميملا جانب قصدا عن ركوب الأهواء والميل إليها ، صارقا وجه غائبا عن المطالب الدنيوية والركون إليها ، متعبرا باليق الأماكن وأوفق الأوقات ، قابعا بأذى العيش راضيا بأيسر الأوقات ، أونس من شوارد المقول وحشيا ، وأشرد عن روايض المنقول حوشيا ، وألصقت ضالة الحكمة حيث وجدتها ، وأقيدت نادرة العلم حيث أصبتها ، مقسدا من العلوم أشرفها ، ومؤثرا من الفنون ألقها ، معتمدا من ذلك ما نالقه النفس وبقوله الطبع ، مقبلا منه على ما يستجلى حسنه النظر ويستجلى ذكره السمع ، متبعا من الكتب امتعها تصنيفا ، وأتمها تحريرا وأحسنها تأليفا ، متعجبا من أشيخ الإفادة وأوسعهم علما وأكثرهم تحقيقا ، ومن أقران المذاكرة أروضهم بحثا والطفهم تدقيقا ، عارفا لكل عالم حقه ، وموفيا لكل عليم مستحقه ، قد استغيت بكتابي عن خلل ورفيقي ، وأثرت بيت خلوي على شفيقي وشفيقي ، أجوب فباني الفنون تظهر لي طلائع القوائد فأشبهها عيانا ، وأجول في ميدان الأفكار لتلوح لي كائن المعاني فلا أنفي عنها عيانا ، وأشن غارات المطالعة على كائيب الكتب فأرجع

بالغنية، وأهم على حصون الفاتر ثم لا أولى عن هزيعه؛ بل كلما لاح لي نقة
من البعث تحييت إليها، أو ظهرت لي كريمة من المعاني حملت عليها؛ إلى أن أصبح
لي من الفتح ما أفاضته النعمه، وحصلت من الغنية على ما أفضته النفسه .

فينا أنا أرتع في رياض ما نُقلت، وأجني عمار ما حُولت، إذ طلع على جنش
التكليف حصري، ونرج على كين التكليف فاسري؛ فانسبت في أضيق خناق،
واشد وثاق؛ قد علقني قيد الأكساب عن الاشتغال، وصدني كل الكد من
الأنعام بالطلب والأحवाल؛ فنشني من التبييض ما عيشني، وأخذني من الوحشة
ما أخذني؛ وتعارض في حكم العقل بين الكسب وطلب العلم، وشارباً في التجميع
فلم يجتمع واحدة منهما إلى السلم؛ فصرت مذعوشاً لأحسن صنعا، وقيت مصعباً
لا أدرى أى الأمرين أقرب إلى نفا؛ : إن طلبت العلم للكسب قد أغشت
رؤوساً، وإن تركت الكسب للعلم هلكت ضيعة ومث جوما .

فلسا طبت أن كلا منهما لا يقوم إلا بصاحبه، ولا يتم الواجب في أحدهما
مالم يتم في الآخر بواجبه؛ أكتست كسباً يكون للعلم مؤافاً، ويحمله لإتقائها؛ يكون
فلك الكسب للعلم موضوعاً والعلم عليه محملاً، والجمع ولو بوجه أولى؛ بلغت
أسير المعاش سبر متقصداً، وأسير في قلوب الصائغ سبر متعهد؛ لكن أجد
حرفة طلاق آربي، أو صنعة تجانس طلي .

فينا أنا أسير في معاديهما، وأردد طرفي في مشاعدهما؛ إذ رُفع لي صوت قرع
تسمى برتته، وأخذ قلبي بحته؛ فقفوت أثره متبهاً، وملت إليه مستبهاً؛ فإذا رجلاً
من أحسن الناس شكلاً، وأزبحهم عقلاً؛ وهو يرقم ويثد :

إن كنت تقصدني بطلبك عابداً، هـ حرمت قع صداقة الكذاب؛

السَّائِدِينَ إِلَى الصِّدِّيقِ تَرَى النِّقَا * وَالنَّاعِثِينَ لَمَعَةِ الْأَمْحَابِ ،
وَالنَّاهِضِينَ بِكُلِّ عِبَةٍ مُخْلِ * وَالنَّاطِقِينَ بِفَضْلِ كُلِّ خَطَابِ ،
وَالنَّاطِقِينَ عَلَى الصِّدِّيقِ بِفَضْلِهِمْ * وَالطَّيِّبِينَ رَوَائِحِ الْأَتُوبِ .
وَلَقَدْ جَمَعْتَهُمُ التَّنَاءَ فَطَالَ * بِحَمْدِ الْيَدِ تَحْفُلُ الْأَرْبَابِ !

فلما سمعتُ منه ذلك ، وأعجبني من الوصف ما هناك ؛ فتوتُ منه دَوَّ الوَاجِلِ ،
وجلسْتُ بين يديه جُلُوسَ السَّائِلِ ؛ وقلتُ : هذه وأبيكَ صفاتُ الملوكِ بل ملوكِ
الصفاتِ ، وأكرمُ الفضائلِ بل أفضَلُ المكرماتِ ؛ ولم أكنُ أَعْلَمُ أَنَّ للكتابةِ هذا
الخطرَ الجسيمَ ، والكلابَ هذا الخطَ العظيمَ ؛ فأعرضُ مُغضِباً ، ثم قَوَّ بصره إلى
مُتَّعِجاً ؛ وقال : هيهاتَ فأنك الحزَمُ ، وأخطأك العزمُ ؛ إنها لمن أعظمِ الصَّانِعِ قدراً ،
وأرفعها ذِكْراً ؛ فلقَى القرآنَ الكريمُ بِفَضْلِها ، وجاءتِ السُّنَّةُ النَّزَّاهُ بِتَقْدِيمِ أَهْلِها ؛
فقال تعالى جَلَّ شَأْؤُهُ ، وَتَبَارَكَ أَسْمَاؤُهُ : ﴿ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ
الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فأخبر تعالى إنه عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، حيثُ وصف نفسه بِالْكَرَمِ ؛ إشارةً
إلى أن تَعْلِيمَها من جَرِيدِ نَعْمَةٍ ، وإيذاناً بأن مَنَحَها من فَائِضِ دِيْنِهِ ؛ وقال جلَّتْ
قُدْرَتُهُ : ﴿ تَبَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ فأقسم بِالْقَلَمِ
وما سَطَّرَته الأَقْلَامُ ، وأتى بذلك في أَكْبَدِ قَسَمٍ فكان من أعظمِ الأقسامِ . وقال
تَقَدَّسَتْ عَظَمَتُهُ : ﴿ وَإِنْ عَلَيْكَ لِحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ فجعلَ الكتابةَ من وصفِ
الكرامِ ، كما قد جاءَ قَوْلُها عن جماعةٍ من الأئمةِ عليهم السلامُ ؛ وإنما مُنَحَها النَّبِيُّ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْجِزَةً قد رَيْنَ تعالى سَبَبَها ، حيثُ ذكرَ الحَادِثُ قَوْلَهُ :
﴿ وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾ .

هذا : وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في كثرة الكُتُبِ رَافِعًا ، فقد رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ نَيْفٌ وَثَلَاثُونَ كِتَابًا ؛ هُمْ مُنْجِبَةُ أَحْمَاهِ ، وَخَلَاصَةُ أَثَرِيهِ ؛ مَنْ أَتَمَّتْهُمْ عَلَى أَسْرَارِ الْوَحْيِ وَالْتَقَرُّيلِ ، وَخَاطَبَ بِالنِّسْنَةِ أَقْلَاهُمْ مُلُوكُ الْأَرْضِ فَاجَابُوا بِالْإِذْمَانِ عَلَى الْبُعْدِ وَالْمَدَى الطَّوِيلِ ؛ وَكُتِبَ الْمُلُوكُ أَيْضًا إِلَيْهِ ابْتِدَاءً وَجَوَابًا ، وَكَتَبَ أَحْمَاهُ وَكَاتَبُوهُ فَاحْسَنَ اسْمَاعًا وَأَحْمَ خَطَابًا ؛ وَبَنَى جَرَّتْ سُنَّةُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ فَمَنْ تَلَّاهُمْ ، وَعَلَى تَهْنِئَةِ مَشَتْ مُلُوكُ الْإِسْلَامِ وَمِنْ صَاهَاهُمْ .

فَالْكَتَابَةُ قَانُونُ السِّيَاسَةِ ، وَرُيُوتُهَا قَايَةُ رَبِّ الرِّيَاسَةِ ؛ عِنْدَهَا تَقَفَ الْإِقَانَةُ ، وَإِلَيْهَا تَنْتَهَى مَنَاصِبُ الدُّنْيَا بَعْدَ الْخِلَافَةِ ؛ وَالْكَتَبُ عُمُودُ الْمُلُوكِ الْمُبْصِرَةِ وَأَذَانُهُمُ الْوَاغِيَةِ ، وَالسِّيَتُهُمُ الْخَاطِئَةُ وَعُقُومُ الْحَاوِيَةِ ؛ بَلْ يَحْضُرُ الْحَقُّ الَّذِي لَا تَدْخُلُهُ الشُّكُوكُ ، وَإِنَّ الْمُلُوكَ إِلَى الْكَتَبِ أَحْوَجُ مِنَ الْكَتَبِ إِلَى الْمُلُوكِ ؛ وَتَاهِكُ بِالْكَتَابَةِ شَرَفًا ، وَأَصِلَ بِذَلِكَ رُتْبَةً وَكَثْرًا ؛ أَنَّ صَاحِبَ السَّيْفِ وَالْعِلْمِ يُزَاهِمُ الْكَاتِبَ فِي قَلْبِهِ ، وَلَا يُزَاهِمُ الْكَاتِبُ صَاحِبَ السَّيْفِ وَالْعِلْمِ فِي سَيِّفِهِ وَعَلَيْهِ .

وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَهَمُ الْحَاوُونَ لِكُلِّ وَصِفٍ جَمِيلٍ ، وَشَانُ نَوِيلٍ ؛ الْكِرْمُ شِعَارُهُمْ ، وَالْحِلْمُ دَعَارُهُمْ ؛ وَالْجُودُ جَانَّتُهُمْ ، وَالْخَيْرُ قَادَتُهُمْ ؛ وَالْأَدَبُ مَرْكَبُهُمْ ، وَاللُّطْفُ مَلْعَبُهُمْ ؛ وَهِيَ الْقَائِلُ :

وَيَتَحَوَّلُ كَأَمَّا أَمْتَصَرُوا هـ . مِنْ مَعَانِي تَمَائِيلِ الْكَتَبِ !

فَلَمَّا أَتَقَفَى قِيلُهُ ، وَبَانَتْ سَبِيلُهُ ، قُلْتُ : لَقَدْ ذَكَرْتَ قَوْمًا رَافِعِي وَصْفُهُمْ ، وَشَاقِّي لُطْفُهُمْ ؛ وَدَعَانِي طِيبُ حَدِيثِهِمْ ، وَحُسْنُ أَوْصَافِهِمْ ، وَجَمِيلُ تَوْبَتِهِمْ ؛ لِيَأْنِ أَنْ أُحَلَّ بِنَادِيهِمْ ، وَأَتَزَلَّ بِرَوَادِيهِمْ ؛ فَاجْعَلْ حِرْقَتَهُمْ كَسْبِي ، وَصَنَّتَهُمْ دَائِي ؛ لِيَجْتَمِعَ بِالْعِلْمِ تَمَلُّي ، وَيَتِمَّصَلَ بِالْإِسْتِغْنَالِ حَيْلِي ؛ فَأَكُونَ قَدْ ظَفِرْتُ بِمَنْتَقِي ، وَفَزْتُ بِبَيْتِي .

فَأَيُّ قَيْلٍ مِنَ الْكُتُبِ أَرَدْتَ ؟ وَلِأَيِّ نَوْعٍ مِنَ الْكِتَابَةِ أَشْرْتَ ؟ أَلِكِتَابَةِ الْأَمْوَالِ ؟ أَمْ كِتَابَةِ الْإِنْسَاءِ وَالْخَطَابَةِ ؟ ، أَمْ ضَرَفَهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْكِتَابَةِ ؟ ، فَظَنَرْتُ لِي مُتَسَيِّمًا ، وَأَنْشَدُ مُتَرَمِّمًا :

قَوْمٌ إِذَا أَخَذُوا الْأَقْلَامَ مِنْ غَضَبٍ • ثُمَّ أَشْتَمَلُوا بِهَا مَاءَ الْمَيْتَاتِ ،
نَالُوا بِهَا مِنْ أَعْدِيهِمْ وَإِنْ بَدُّوا • مَا لَمْ يَسْأَلُوا بِحَدِّ الْمَشْرِقِيَّاتِ !

فَقُلْتُ : كَأَنَّكَ تُرِيدُ كِتَابَةَ الْإِنْسَاءِ دُونَ سَائِرِ الْكِتَابَاتِ ، وَهِيَ الَّتِي تَقْصِدُهَا بِالتَّصْرِیحِ وَتُسَيِّرُ إِلَيْهَا بِالْكِتَابَاتِ ، فَقَالَ : وَهَلْ فِي أَنْوَاعِ الْكِتَابَةِ جُمْلَةٌ تَوْعٌ يُسَاوِيهَا ، أَوْ فِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ عَلَى الْإِنْفِلَاقِ صِنْعَةٌ تُضَاهِيهَا ؟ ، إِنَّ لَهَا لَلْقِدْحَ الْمُعْلَى ، وَالْجَبَدَ الْمُحْلَى ، وَالذَّرْوَةَ الْمُخْنِفَةَ ، وَالزُّنْبَةَ الشَّرِيفَةَ ، كُتُبُهَا أَسُّ الْمُلْكِ وَعِمَادُهُ ، وَأَرْكَانُ الْمُلْكِ وَأَعْوَادُهُ ، وَلِسَانُ الْمُلْكَةِ النَّاسِطِ ، وَسَمُّهَا الْمَفُوقُ الرَّاشِقُ ، وَهِيَ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ الطَّلَاقِيَّ حَيْثُ يَقُولُ :

وَلَضْرِبَةٌ مِنْ كَاتِبٍ بَنَانِهِ • أَمْضَى وَأَقْطَعُ مِنْ رَقِيقٍ حُسَامٍ !

قَوْمٌ إِذَا عَزَمُوا عِدَاوَةَ حَاسِدٍ • سَفَكُوا الدَّمَاءَ بِأَسِنَّةِ الْأَقْلَامِ !

فَلَمَّا بَلَغَ الْأَمَلَ ، وَبَنَى عَنِ الْبَيْضِ وَالْأَسَلِ ، بِهِ تُصَانُ الْمَعَالِلُ ، وَتُحَرَّقُ الْجَحَافِلُ :

فَلَمْ يَهْلُ الْبَيْتُشْ وَهُوَ عَرَمَرَمٌ • وَالْبَيْضُ مَا سَلْتُ مِنَ الْأَعْمَادِ !

فَقُلْتُ : إِنْ كُتِبَ الْأَمْوَالُ يَزْعُمُونَ أَنْ لَمْ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ الْأَعْلَى ، وَالطَّرِيقَةَ الْمُتَلَى ، وَيَسْتَشْفِدُونَ لِقَضَائِلِهَا ، وَتَهْتَدِمُ أَهْلِهَا ، بِقَوْلِ الْإِمَامِ أَبِي مُحَمَّدٍ الْقَاسِمِ الْحَرِيرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ ، فِي مَقَامَاتِهِ :

«إِنَّ صَانِعَةَ الْحِسَابِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّحْقِيقِ ، وَصَانِعَةُ الْإِنْسَاءِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّفْطِيقِ ؛

وَقَلَمُ الْحَاسِبِ صَافٍ ، وَقَلَمُ الْمُنْشِئِ خَاطِبٌ ، وَبَيْنَ إِثَارَةِ تَوْطِيفِ الْمَعَامَلَاتِ ، وَتِلَاوَةِ

طَوَامِيرُ السَّيِّئَاتِ ؛ بَوْنٌ لَا يَدْرِيهِ قِيَاسٌ ، وَلَا يَسْتَوِيهِ أَلْيَاسٌ ؛ إِذِ الْإِمَامَةُ تَمَلُّهُ
الْأَيْكَاسُ ، وَالسَّلَاوَةُ تُفَرِّغُ الرَّأْسَ ؛ وَنَحْرَاجُ الْأَوَارِجِ ، يُغْنِي النَّاسِيطِرَ ، وَأَسْتَفْرَاجُ
الْمَدَارِجِ ، يُغْنِي الْخَاسِيطِرَ ؛ وَالْحَسْبَةُ حَفَظَةُ الْأَمْوَالِ ، وَحِمْلَةُ الْأَهْوَالِ ؛ وَالثَّقَلَةُ
الْأَهْجَاتِ ، وَالسَّفَرَةُ الثَّقَاتِ ؛ وَأَعْلَامُ الْإِنْصَافِ وَالْإِكْتِسَافِ ، وَالشُّهُودُ الْمَقَانِعُ
فِي الْأَخْتِلَافِ ؛ وَمَنْهُمْ الْمُسْتَوْفَى الَّذِي هُوَ يَدُ السُّلْطَانِ ، وَقُطْبُ الدِّيَّانِ ، وَمِقْطَاسُ
الْأَعْمَالِ ، وَالْمُهَيِّمُنُ عَلَى الْعُلَمَاءِ ؛ وَإِلَيْهِ الْمَكَابُ فِي السَّلَمِ وَالْمُخْرَجِ ، وَعَلَيْهِ الْمَدَارُ
فِي النَّحْلِ وَالْمُخْرَجِ ؛ وَبِهِ مَتَاطُ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ ، وَفِي يَدِهِ رِبَاطُ الْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ ؛ وَلَوْلَا
قَلَمُ الْحِسَابِ ، لَأَوَدَّتْ ثَمَرَةُ الْاِكْتِسَابِ ، وَلَأَقْصَلُ التَّغَابُنُ إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ ، وَلَكِنْ
نِظَامُ الْمَاعْمَلَاتِ مَحْذُولًا ، وَجُرْحُ الظَّلَامَاتِ مَطْلُولًا ، [وَجِبَدُ النَّصِيفِ مَقْلُولًا] ،
وَسَيْفُ الظُّلَامِ مَسْلُولًا ؛ عَلَى أَنَّ يَرَّاعَ الْإِنْشَاءَ مُتَقَوِّلًا ، وَيَرَّاعَ الْحِسَابَ مُتَقَوِّلًا ؛
وَالْحَاسِبُ مَتَافِشٌ ، وَالْمُنْتَفِشُ أَبُو بَرَّاقِشَ .

فوصفَ بكتابة الأموال بأتم الصفات ، ونبه من شيم أهلها وشيائهم على أكرم
الشيم وأحسن الشيات .

قال : هذه الجمة مُعَارَضَةٌ بِمَنْطَهَا ، بَلْ بَاطِلَةٌ مِنْ أَصْلِهَا ؛ وَأَيْنَ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ
فِي صَدْرِ كَلَامِهِ ؟ :

«اعلموا أن صناعة الإنشاء أرفع ، وصناعة الحساب أتهق ؛ وقلم المكتبة خاطب ،
وقلم المحاسبة خاطب ؛ وأساطير البلاغات تُنسخُ لندرس ، ودسائير الحسابات تُنسخُ
وتُدرس ؛ والمنشئُ جبهة الأخبار ، وحفية الأسرار ؛ ونبيُّ العظماء ، وكبيرُ التلماذ ؛
وقلمه لسان أسرار القول ، وقارنسُ الجواهر ؛ ولقننُ الحكمة ، وترجمانُ الهمم ؛ وهو

البشير والذير، والشفيح والسفير؛ به تُستخلص القياسي، وتُملك التواصي؛ ويُقتاد العاصي، ويُستدقن القاصي؛ وصاحبه يرى من التبعات، آمن كيد السعات؛ مُقرَّط بين الجماعات، غير معرض لنظم الجماعات.

فهذه أرفع المراتب، وأشرف المناقب؛ التي لا يبتورها عين، ولا يشوبها مين، وصدر الكلام يقتضي التبريج، ويُؤنث بالتزيح؛ والرفع، المبلغ في الوصف من النقص؛ فقد يُنتفع بالتزديد اليسر، ولا يُرتفع إلا بالأمر الكير؛ على أنه لو اعتبر نفع كتابة الإنشاء لكان المبلغ، وإقامة الدليل عليه أسوغ؛ وأنى لكأب الأموال، من التأثير في قل الجيوش من غير قتال، وقبح الحصون من غير زل؛ فهذه هي الخسبي التي لا تُساوى، والمثقة التي لا تُساوى:

نك المكارم لا قبان من لبي * شيئا بماء فاداً بعد أبوالا !

قلت: الآن قد أعطت المجه، وبأنت المسج، لما الذي يحتاج كاتب الإنشاء إلى ممارسته؟ فقال: إذا قد تملك من الصنعة بأسبابها، وأتيت الثبوت من أبوابها.

اعلم أن كاتب الإنشاء لا تظهر فصاحته، وتبين بلاغته، وتغوى براعته، وتجل براعته؛ إلا بعد تحصيل جملة من العلوم، ومعرفة الاصطلاح والإحاطة بالرُسوم؛ ثم أهم ما يتبادر بخصيله، ويمتد عليه في جملة الأمر وتفصيله؛ حفظ كتاب الله العزيز الذي هو معدن الفصاحة، وعنصر البلاغة؛ وإدامة قراءته وتكرير متانيه، مع العلم بتفسيره وتدبر معانيه؛ حتى لا يزال دائراً على لسانه حاضر في ذكره، ولا يرح معناه مُتكلماً في قلبه مُصوراً في فكره؛ ليكون مستحضر له في الواقع التي يحتاج إلى الاستنهاد به فيها، ويضطر إلى إقامة الأدلة القاطعة عليها؛ فله المجهه البالغة، ولا ياتيه الأجوبة الدائمة؛ خصوصاً السير والأحكام، وما يتعلق بذلك من مهمات

الذين وقَّعوا الإسلام، وما اشتمل عليه تكلام النبوة من الألفاظ البديعة التي أبكت القضاة، والمعانى الدقيقة التي أعيت البلغاء، مع النظر في معانيها ومعرفه ضريها، والأطلاح على ما للملصاء في ذلك من الأحوال بعيدا وقريبا، لتكون أبدا حجة ظاهرة، وأدلة قوية متظاهرة، فإن الدليل إذا استند إلى النص أشجع النزاع وسلم المدعى وزم، والقصاحة والبلاغة غايتها - بعد كتاب الله تعالى - في كلام من أوتي جوامع الحكيم، والعلم بالأحكام السلطانية وفروعها، وخصوصها وشبوعها، والتوصل في أخبار العرب والمؤلفين، وأهل الصناعة من المحدثين، وما ورد من كل فرعي منهم من الأمثل تراثا وفعلا، وما جرى بينهم من المفاورات والمناقضات حريا وسلما، والتوصل من ذلك على الأخبار البديعة التي اختارها العلماء بها، فتمسكوا بأولها وتلقوا بسببها، والأمثال القريبة التي انتقوها ودوتوها ودوتها، واستيضاح القيسين واستكشاف غوامضها، واستظهار التوضيح واستيفاض عوارضها، والأطلاح على خطاب البلغاء، ورسائل القضاة، وما وقع لهم في مخاطباتهم، ومكتوباتهم، والعلم بأيام العرب وحروبهم، وما كان من الوقائع بين قبائلهم وشعوبهم، والنظر في التواريخ وأخبار الدول الماضية، والقرون الخالية، وسير الملوك وأحوال الملوك، ومعرفه مكابيحهم في الحرب المخذلة من المهلوي والمنجية من الممالك.

مع حصة الباع في اللغة التي هي رأس ماله، وأمن مقالته، وكثرة المدد للإفهام، وميعة بل مئبته وقت الضرورة على الإطلاق، والتوصل الذي هو موطع كلامه، ومسك خاتمه، والتصرف الذي تُعرف به أصول أبنية الكلمة وأحوالها، وكيفية التصرف في اسمائها وأعمالها، وعلم المعاني والبيان واليدج التي هي حلية لسانه، وآية بيانه، ومعرفه أبوابها وفصولها، وتحقيق فروعها وأصولها: من القصاحة وطرائقها، والبلاغة ودقائقها، واختيار المعاني وترتيبها، ونظم الألفاظ وتركيبها، والفصل

والوصول ومواضعهما، والتقديم والتأخير ومواضعهما، ومواطن الخفيف والإحصار، وحكم الروابط والأخبار، وغير ذلك من الحقيقة والمجاز، والنسب والإيجاز، والمحل والمقد، وتمييز الكلام جيده من رديه بصحة النقد، مع معرفة أنواع البديع وطرائقها، والأطالع على غوامض أسرارها وفرائد دقائقها .

على أن أكد شيء يجب تحصيله قبل كل حاصل، ويستوى في الاحتياج إلى معرفته المفضل من الكتاب والقاضل، العلم بالخط وتوابعه : من المبدأ والنقط والشكل، والفرق بين الضاد والطاء المتخافين في الصورة والشكل، مع المعرفة بالآلات الكتابية وصفاتها، وتبين أنواعها وأختلاف صفاتها .

هذه أصوله التي ينبغي عليها، وتوابعه التي يرجع إليها، فلما أحاط بهذه الفنون علماً، واقتنأ بها، غررت عنه المواد، وأضحت له الجواد، فأخذ في الاستعداد، وسهل عليه الاستنباد، فقال عن علم وتصرف عن معرفة واستحسن بديهان، واستند بحجة وتبريد بلبيل وصاغ بترتيب وبنى على أدكلت، وأتسع في العبارة بحاله، وقبح له من باب الأوصاف أقواله، وتلقى كل واقعة بما يابها، وقابل كل قضية بما يساكيها، وعلم المحيد ففسح على منواله، وظهر له التماسر فافترض عن أقواله، وحصل له القوة على فهم الخطب، وأنشأ الجواب بحسب الوقائع والأغراض، على طبق المقاصد والأغراض، ومضى أهل بتيه من ذلك فاشته الفضائل، وعلقت به الرغائل، وقلت بضاعته، وقصت صناعته، وسامت آثاره، وقبعت أخباره، وخطت النور بالمر، ولم يميز بين الصنف والدور، فأخرج الصنعة عن أماكنها، وطمس من الكتابة وبيوه محاسنها، بحر القوم إلى قبيح، وأمسى مهزلة لأبناء جيله .

وَوَرَاءَ ذَلِكَ عُلُومٌ هِيَ كَالنَّاسِاطَةِ لِلْكَتَابِ ، وَالزَّيَادَةُ لِلرَّاسِبِ :

مِنْهَا مَا تَكُنُّ بِهِ مِصَانَعُهُ ، وَتَعْلَمُ بِهِ مَكَاتِبُهُ : كَيْلُ الْكَلَامِ ، وَأَصُولُ الْفَقْهِ وَصَائِرُ الْأَحْكَامِ ، وَالْمَنْطِقُ وَالْجَدَلُ ، وَأَحْوَالُ الْفِرْقِ وَالْتَعَلُّ وَالْمَلَلُ ، وَيَعْلَمُ الْعَرُوضِ وَالْمِيزَانِ الْمُحْكَمَ ، وَيَعْلَمُ الْقَوَائِفَ وَحَلَّ الْمُتَرَجِّمِ ، وَالْحِسَابِ الْمَفْتُوحِ وَمَا يَقْرُبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَامَلَةِ ، وَمَا تُسْتَخْرَجُ بِهِ الْمَجْهُولَاتُ : مِنْ حِسَابِ الْخَطَّائِنِ وَالْذَّرْهِمِ وَالْقَيْنَارِ وَالْجَبْرِ وَالْمُقَابَلَةِ ، وَحِسَابِ النُّورِ وَالْوَصَايَا ، وَالنَّخْتِ وَالْمِيلِ وَمَا لِأَعْمَالِهِ عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْمَزَايَا ، وَالْعِلْمِ بِالْفَيْلَاحَةِ ، وَأَحْوَالِ الْمَسَاحَةِ ، وَيَعْلَمُ عُقُودَ الْأَيْتِيَةِ وَالْمَتَانِظِرِ الْمُحَقَّقَةِ ، وَصَرَائِرَ الْأَهْثَالِ الْمُحْرِقَةِ ، وَيَعْلَمُ جَرَائِمَ الْأَهْثَالِ الْآيَةِ ، وَالْعِلْمِ بِالْآلَاتِ الْحَرْمِيَةِ ، وَيَعْلَمُ الْمَوَاقِيتِ وَالْبَنَكَامَاتِ ، وَالْقَالُومِ وَالزَّيْعَاتِ ، وَيَعْلَمُ تَسْطِيعَ الْكُرَّةِ وَالتَّوَصُّلَ بِهَا إِلَى اسْتِخْرَاجِ الْمَطَالِبِ الْقَلْبِيَّةِ ، وَكَيْفِيَةِ الْأَرْصَادِ وَأَحْكَامِ الْجُجُومِ وَالْآلَاتِ الظُّلْمِيَّةِ ، وَيَعْلَمُ الطَّبَّ وَالْيَطْرَ ، وَأَحْوَالَ سَائِرِ الْحَيَوَانِ وَيَعْلَمُ الْبَيْزَةَ .

وَمِنْهَا مَا تَكُنُّ بِهِ ذَاتُهُ ، وَيَتِمُّ بِهِ أَدْوَاتُهُ ، كَيْلُ التَّصْمِيرِ وَيَعْلَمُ الْأَخْلَاقَ وَيَعْلَمُ السِّيَاسَةَ ، وَيَعْلَمُ تَكْدِيرَ الْمَقْدَرِ وَيَعْلَمُ الْفَرَاغَةَ . وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي أَضْرَبْنَا عَنْ ذِكْرِهَا خَشْيَةَ الْإِطْلَاقِ ، وَأَعْرَضْنَا عَنْ إِبْرَادِهَا خَوْفَ الْمَلَالَةِ ، فَهَذِهِ عُلُومٌ فَضْلَةٌ بِعَظَمِ بِهَايِهَا أَمْرُهُ ، وَفَضِيلَةٌ بِرَفْعِ بِتَحْصِيلِهَا ذِكْرُهُ ، بَلْ لَا يَسْتَنِي عَنْ الْعِلْمِ بِرُؤُوسِ مَسَائِلِهَا ، وَإِشَارَاتِ أَرْبَابِهَا الْآخِلَةِ مِنْ عَمَارِهَا بِطُرَافِ سَوَاحِلِهَا ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ تَرَدَّدَ عَلَيْهِ أَوَقَاتٌ لَا يَسَعُهُ جَهْلُ ذَلِكَ فِيهَا ، وَتَوَخَّاهُ أَزْمَانٌ يَوْذُ لَوْ تَشْتَرَى فَهَشْتَرِيهَا .

قُلْتُ : قَدْ بَانَ لِي عُلُومُهَا ، فَا رُسُومُهَا ؟ قَالَ : إِنَّ أَعْيَانَهَا لِأَعْيُنِهَا حَمَلًا ، وَإِنَّمَا لِكَيْفِيَّةِ الْإِلَهِ وَلَكِنْ سَأَحْدِثُ لَكَ مِمَّا سَأَلْتَ ذِكْرًا ، وَأَتَبَيَّنُكَ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا .

فمن ذلك : المعرفة بالولايات ولواحيها ، حل اختلاف مقاصدها وتباين طرائقها ،
من اليمانيات وأحكامها ، واليهود وأقسامها ، والنقائيد وصفاتها ، والفتاويض
ومضاهاتها ، والمراسيم وأوضاعها ، والتواقيع وأنواعها ، والنحطب ومسابتها ،
والوصايا ومطابقتها ، ثم العلم بالمتنشير ومراتبها ، والمرمات الجنيشية ومعانيها ،
ومعرفة رتب المكتبات وطبقاتها ، ومن يستحق من الرتب أفضاها أو يستوجب
الرفع إلى أعلى درجتها : من المكتبات الصادرة عن الأبواب الشريفة الخليفية ،
والمكتبات الواردة عليها وعلى أرباب المناصب من سائر الآل والمرتبة النبوية ،
وملوك المسلمين والقبائل ، وملوك الكفر وأرباب الديانات ، وأهل الملكة من
الشراب والكشاف والولاء ، والأمراء والوزراء والعربان والقضاة ، وسائر حملة
الأعلام ، وأهل الصلاح وبقية الأعلام ، ونباه الملوك والخوفاة ، ومكتبات
التجار وما عداها بطوراً من المكتبات المستعجلات ، وكتب البشرى بالجلوس على
التحفة والفتح والفقر ، والبشرى ببقاء النيل والقعود من الفزوة والسفر ، وأسرى
الزنايم ، والبطائق المحمولة على أجنحة الحمام ، والمخططات التي يضطر إليها ، ويوصل
في الأمور الباطنة عليها ، وأوراق الجواز في الطرقات ، والإطلاقات في التنسيف
والمنازل المطلقات ، ومعرفة الأوصاف التي يكثر في المكتبات تكرارها ، ويقس
في جيد المراسلات إرفاها وإصدارها : كوصف الأنواء والكواكب ، والأفلاك
النيلية المراتب ، والآلات الملوكية الخليفة للفساد ، والسلاج وآلات الحصار ،
والخيل المسومة ، والجوارح المملئة ، وجيل الوحش وسباعه ، وطير الواجب
وآتباعه ، والأمنكة والرياض ، والمياه والفيض ، وغير ذلك مما يمز ويملأ ، ويرتفع
ويطوى ، وإخوانيات المكتبات وطبقاتها ، وتميز كل طبقة منها عن أخواتها ،
وما تشتمل عليه من الابتداء والجواب ، والتشوق والنتاب ، والفرق والأعذار ،

والشفاعة وطلب الصنيع والشفوع عند الأقدار؛ والتهاني والتعازي، وما يكتب مع الهدية ويحاطب عنها من المجازي وغير المجازي .

وغير ذلك من مقاصد المكتبات التي يتعذر حصرها، ويمتنع على المستقصى ذكرها؛ ومعرفة الطغراء والطرقة والنون والتعريف، والعلامة في العُكُتْ على أماكنها الفارقة بين انحطاط التقدير والتشريف؛ وتزيب الكتاب وطيه وختمه، وتعبية ما في الكتب بضرب من الجيلة وإخفاء ذلك وكتمه؛ وتوسع الإيمان التي يستعمل بها، وتحمك للوفاء بسببها؛ كي يمين البيعة العامة للوفاة والمخالف، وما يخص من ذلك بالتواب وأرباب الوظائف؛ وإيمان أصحاب اليدج والأهواء، وأهل المال والحكام، وكناية المذنب والمواصفات، والأمانات والثغني والمفاسحات؛ ومعرفة الأسماء والكنى والألقاب، وبيان المستندات ومحلها المصطلح عليه في الكتب؛ وكتابة التاريخ وما أخذت به كل طائفة وثابت إليه تمسكا، وما يفتح به في الكتابة تيمنا ويمتنع به تبركا؛ ومعرفة قطع الورق : من كليل البندايي والشامي والثنين والنصف والثلث والمتصوري والعاده، ومن يستحق من هذه المقادير أطلاها أو يؤقف به مع أدنى رتبها من غير زياده؛ والأقلام المناسبة لهذه الأقدار، من الرقاع والتوابيع والثلث ومختصر الطومار، والعلم بالأوضاع وكيفية الترتيب، ومقادير البياض ومباينة ما بين السطور والتعريب؛ ومعرفة الرزاديقي وقطائنها، والنواحي والبُلدان وسكانها، والأهم ومساكنها، وطرق الأقاليم ومسالكها؛ ومساركة البريد ومسافاتهما، وأبراج الحسم ومطاراتها، وفجر النجف والسفن المسنة لنقله، والمحركات المؤدية إلى اجتياح العدو وتخريق قتلته؛ والمتاور وأماكنها، والقصائد ومكانتها .

هذه رؤسوها على سبيل الإجمال، والإشارة إلى مصطلحاتها بأخصر الأقوال .

وأعلم أنَّ حُسْنَ الخَطِّ من الكتابة واسطة عقيدتها، وقوة الملكة على السجج والأزديواج ملاك حطها وعقيدتها، على أنَّ خير الخط ما قرى، وأحسن السجج ما سلم من التكلف وبرى؛ وللكتاب في بحر الكتابة سبع طویل، وتغن يسفر عن كل وجه جميل .

قلت : فهل لهذه الرتبة الرئيسة، والمتقية النفيسة، سبط يلها، أو سلك يضمها؟
 فقال : سبحان الله : إن بيتها لأشهر من قفانك، وأظهر للبيان من شاعيات جبال النبك، أينحى من البدر ضوءه الباهر، وتوره الزاهر؟ إن ذلك لفاصر على «آل فضل الله» حقا، ومنحصر في المقر البري صداقا؛ فهو قطبها الذي تدور عليه، وأبرئ تجديتها التي ترجع في علومها ورؤسوها وسائر أمورها إليه؛ فلوراه «الفاضل عبد الرحيم» لم يرتقي فضلا ولا رضى لقيه مقالا، أو عينه «عبد الحميد الكاتب» فقال : هكنا هكنا وإلا فلا؛ أو عاصره «قدامة» جلس قدامه، أو أدركه «أبن قتيبة» لأتحذه في «أدب الكاتب» شيخه وإمامه؛ أو بعربه «العصابي» لعبا إليه ومال، أو قارن زمانه «الحسن بن سهل» بل «الفضل» أخوه لأتمام بيايه وما زال؛ أو جنح «أبن السديم» إلى مثوانه لأدركه القدم، أو جرى «الصابح بن صياد» في مضمار فضله لثجا وزلت به القدم؛ أو أطلع «أبن منقلة» على حُسْن خطه فقال : هذا هو الجوهر الثمين، أو نظر «أبن هلال» إلى بهجة رواقه فقال : إن هذا هو الفضل الميّن؛ إن تكلم تحت حجر، أو كتب تحت زهرا أو تحيلت ذرا :

يُؤْتِ الشُّؤْلُو الْمَشُورَ مَطِيقُهُ، * وَيَنْظُمُ النَّدَى بِالْأَقْلَامِ فِي الْكُتُبِ !

قد علا نَسَبًا، وفاق حَسَبًا، وورث الفضلَ لا عن كَلَالَةٍ، وأستحقَّ الرتبةَ بِنَفْسِهِ
وإن كانت له بالأصالة :

فَحَيْسَلًا بِالْمَكْرَمَاتِ وَالْمُسْلَى، * وَحَيْلًا بِالْفَضْلِ وَالسُّؤْدِ الْحَضِ!

فلما سمعتُ فك زال عني الإلباس، وقلتُ : ذلك من فضيل الله علينا وعلى
الناس . ثم قلتُ : أقسمتُ عليك بالذي تُسَمِّي إليه، إلا تُدُلِّي عليهِ ؟ فقال : إنه
صنيُّ الملكِ ونجيبه، وكتائبُ سرِّه ووليُّه، والقريبُ منه إذا بعُدوا، والمخصوصُ بالمقامِ
إذا طُرِدوا، والموجهُ إليه الخطابُ إذا حضروا، والمستأثرُ بالورودِ إذا صدرُوا،
والمكلمُ بلسانِ الملكِ إذا سكتوا، والناطقُ بفضيلِ الخطابِ إذا بينوا، والصائِلُ
بُصَامِ لسانِهِ وخطى قلبِهِ، والهاميُّ التَّسَالِكِ يُجِوِّشُ سَطوره وَجُنْدَ كَلِمَةٍ، والمُشْتَتُّ
يُشَمُّ المَدْوِيدِيعَ الفَاظِلَه وَدَقِيقَ حِكْمِهِ، والحائِزُ قَصَبَ السُّبْقِ بِكَرَمِ فَضْلِهِ وَفَضْلِ
كَرَمِهِ، والمُرَوِّى ظَمًا الوافدين إليه بِوَكَيفَ وَبَلِّهِ وَفَائِضِ دِمَائِهِ، والمُجَلِّي غِيَابِهِ
الظُّلَمَ بِنُورِ بَدْرِهِ وَمُضَيَّءُ أَهْلِهِ :

لَا زَالَ بَدْرًا فِي سَمَاءِ سَيَادَةٍ * يُسَارُ إِلَيْهِ فِي الْوَرْدِ بِالْأَنَامِلِ :

بَسِيطَ مَسَاعِيِ التَّجَدُّدِ يَرْكَبُ تَجَمُّدَهُ * مِنَ الشَّرَفِ الْأَعْلَى وَبَدَلِ الْفَوَاحِلِ :

إِذَا سَأَلَ أَعْيُنَ السَّامِعِينَ جَوَابَهُ * وَإِنْ قَالَ لَمْ يَسْرُكْ مَقَالًا لِقَائِلِ !

قلتُ : حَسْبُكَ ! قد دُلِّيَ عليه عَرَفُهُ، وأُرشدني إليه وَصْفُهُ، وَبَانَ لِي عَيْنُهُ
الْفَائِزُ وَحَسَبُهُ السَّمِيمُ، وعرفتُ أَصْلَهُ الرَّأْيَ وَفَرْعَهُ الْكَرِيمَ، (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) .

ثم عَرَجْتُ إِلَى جِهَةِ، وملتُ إِلَى حَيْثُ كَرَاهٍ، فَلَمَّا بِهِ قَدْ بَرَزَ تَتْلَاؤُ أَنْوَارِهِ،
وَتَشْرِيقُ بِالْخَلَالَةِ الْفَارُغِ، قَدْ عَلَتْهُ الْهَيْبَةُ وَغَشِيَتْهُ السُّكُونَةُ وَحَفَّتْهُ الرِّيَاسَةُ وَجَلَّتْهُ
السَّعَادَةُ، وَحَكَمَتْ بِرِزْمَتِهَا قُدْرَهُ الْأَقْدَارِ كَمَا أَتَقَضَتْهُ الْإِرَادَةُ .

فلما رأيته استصغرته الرتبة مع شرفها الباذخ في جانبه ، وعلمت أن ما هممت
من المدح لم يوفّ حقه ولم يتم ببعض واجبه ؛ فظننت هيجت إقدامي ، وحالت حرمتي
بني وبين مرأى ؛ فقلت : إنا لله ! قد فاقمتني مآربي ، ورجعت من قوري إلى
صاحبي ؛ فظهرت له الأسف ، وقصصت عليه القصة قال : لا تخف ؛ إنها لمقبة
عمرية ، وأثرة عدويه ؛ فالفاروق جده ، وبنو عدى قيسله وجنته .

هذا وإنه لألطف وأرق من النسيم السارى ، والماء الجارى ؛ وأخبرني من السنداء
في خدرها ، وأشفق من الوالدة إذا حتمت ولدها إلى صدرها ؛ وأحلم من « معن بن
زائدة » ، وإن كان أقصع من « قس بن ساعدة » :

يُنْضِي حَيَاءً وَيُنْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ * فَلَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَنْتَسِمُ !

بالزائم القاروقية نُصَحَتِ الأُمصار ، والهيبة العمرية أقر المهاجرون والأصهار ؛
ويشهد لذلك قصة « ابن عباس » في العويل وسكوته في خلافة عمر وسمته ، وجوابه
بعد ذلك للقاتل له : هَلَّا قُلْتَ ذَلِكَ فِي زَمَنِ عُمَرَ ؟ بقوله : إِنَّهُ كَانَ مَهِيًا فَهَيْتُهُ ؛
كيف ؟ وما سَلَكَ بَعْدًا إِلَّا وَسَلَكَ الشَّيْطَانُ بَعْدًا غَيْرَ بَقَّةٍ وضائق عليه الحجاج ،
ولم تُثَاثِلْ هَيْجَتَهُ بَهِيَّةَ غَيْرِهِ وَإِنْ عَظُمَتْ سَطَوْتُهُ حَتَّى قَالَ الشَّعْبِيُّ : إِنْ دَرَا عُمَرَ
لَأَهْيَبُ مِنْ سَيْفِ الْحَجَّاجِ ؛ وهو مع ذلك يلطف بالأراذل والمساكين ، ويُسِينُ
الفقراء والمحتاجين ؛ فقد اتضح لك القضييه ، وتحققت أنها سمات إرثيه .

فندد ذلك نخب روعي ، وقوى روعي ؛ وقلت : فهل له أنبأ من الكُلب
فَاتَعَلَّقَ بِجِوَالِمِهِ ، وَأَتَأَسَّى بِهِمْ فِي أَعْوَالِهِمْ وَأَعَالِمِهِمْ ؟ ؛ لكن أَسِمَ بِسِمَةِ الْكَلْبِ ، وَأَثْبَتَ
فِي جُمْلَةِ غُلَامِيْنَ الْبَابِ ؛ قَالَ : أَجَلُ ! وَأُسُّ النَّسَبِ الشَّرِيفِ صِنُوهُ الْكَرِيمِ ،
وَقِسْمُهُ فِي حَسْبِهِ الْعَلِيمِ ؛ بِهِ شُدَّ عَضْدُهُ ، وَقَوِيَ كَيْدُهُ ؛ فَاجْمَعِ الْفَضْلَ لَهُ

ولأخيه ، وورثا سراًيهما « والولاء سراًيه » ، ثم كُتِبَ ديوان الإنسان جُندُه
واتباعه ، وأولياؤه وأشياعه ، وكُتِبَ القُست منهم أربع في المقام ، وكُتِبَ النرج
أجدر بالكتابة وصنعة الكلام .

قلت : اللهم الظنى أليق بمقدارى ، وأقرب لى أوطارى ، ثم ودعت صاحبي
شاكراً له على صنيعه وحامداً له على أدبه ، وتركته ومضت وكان ذلك آخر العهد
به ، ثم جئت إليه هو فرقت إليه قصتي ، وسأله الإسحاق بإجابة دعوتي ،
فقبلها بالقبول ، وأنتم بالمستول ، وقررتني في كتابة النرج الشريف ، وأكتفى
بالعرف عن الشريف ، وطأني الخبر الخبير ، وأستغيت بالبيان عن الآخر ، ثم قلت
عجلاً ، وأئسدت مرعجلاً :

إذا ما بنو الفاروق في المجد أعرفوا ، * وقالوا بفضل الله مالا كُنْهه ،
وجلت دجى الظلماء أنوار بدرهم ، * وعمت قاع الأرض أنواء فضله ،
تألت دوى السباء فيهم وأئسدت : * أبى الفضل إلا أن يكون ليله !

ثم شرفت بتقيل يده ، ومضت إلى ما أنا بصدده ، قد منعتني هيتي من الأياد
به والقرب إليه : وصبرت عاطر مدني وحاليس أديمي وقفا عليه ، وصيرت إلى
الديوان ، فوجدت قوما قد حوهم الحسن وزاتهم الإحسان ، قلت : الحمد لله !
هؤلاء في ذاك الكهف بلا أمتهاء ، وأشبأل ذاك الأسد من غير أمتهاء ، جلست
جُلوس الغريب ، وأطرقت أطراق الكئيب ، إذ كنت في هذه الصنعة عصامياً
لا عظامياً ، ومثماً لا تيامياً ، غير أنى تطلت منها بحال القمر ، وأسوقدت نازها
من أستر الشمر ، ففقوت بالرحب ، وأحلوني من ديوانهم بالمكان الرحب ، وقابلوني
بالجل قبل المعرفة ، وعاملوني بالإحسان والتصفه .

فلما رأيتُ ذلك منهم جَدْتُ مَسْرَى ، وشكُرتُ مَسْعَى ، ودعوتُ لصاحبي أولاً
إذ حَبَّبَ صَنَمَهُمَ لِيْ وَشَاقِي ، ودلّني طيهم وسَاقِي .

ولما تحققتُ أني قد أَتَيْتُ في ديوانه ، وكُنَيْتُ من جُمْلَةِ غُلَامِيه ، رجعتُ
الْفَهْرِيَّ من طَلَبِ الْكُتُبِ ، وَأَسْتَوِيَّ عِنْدِي الْهَلْ وَالْخُصْبِ ، وَأَكْتَفِيَّ
بِنَظَرِي إِلَيْهِ عَنِ الْعُلَامِ وَالشَّرَابِ ، وَتَيَقَّنْتُ أَنْ نَظَرَهُ مِنْهُ لِي تَرْقِيَّ إِلَى السَّحَابِ ؛
وَتَلَوْتُ بِلسَانِ الصَّدِيقِ عَلَى الْمَلَأِ وَهُمْ يَسْمَعُونَ : ﴿ قُلْ فَضَّلِ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ فَيَذَلِّكَ
فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

وفيما تَضَمَّنَتْ هذه المَقَامَةُ من فَضْلِ الْيَكَابَةِ وَشَرَفِ الْكُتُبِ مَنَعٌ من غيرها ،
وَمُنًى عن سواها ، والحمد لله وَالْمِنَّةُ .



وهذه نُسخَةٌ مَقَامِيَّةٌ أَنشأها أَبُو الْقَاسِمِ الْخُوارِزْمِيُّ فِي فَنَائِهِ لِأَدِيبٍ مَعْرُوفٍ بِالْمِيقَةِ ،
وَأَقْطَاعِهِ فِي الْبَحْثِ ، وَقَلِيَّةِ الْخُوارِزْمِيِّ لَهُ . أوردنا آيَنَ حَمْدُونَ فِي "تَذَكُّرِيَّةٍ" وَهِيَ :
وَصِيَّةٌ لِّكُلِّ لَيْبٍ ، مُبْقِظٌ أَرِيبٍ ، عَالِمٌ أَدِيبٍ ؛ يَكْرَهُ مَوَاقِفَ السَّقَطَاتِ ، وَحَقَقُظْ
مِن مَّصَادِفِ النَّطَّاتِ ، وَتَتَلَطَّفُ مِنْ خُزَيَّاتِ الْقَرَطَاتِ ؛ أَنْ يَدْعَى دُونَ مَقَامِهِ ،
وَيَقْتَصِرَ مِنْ تَمَامِهِ ، وَيَنْصُزَ مِنْ سِيَاهِهِ ؛ وَيُظْهِرَ بَعْضَ شِكَايَتِهِ ، وَيُسَاوِمَ بِأَثَرِ
قِيَمَتِهِ ، وَيَسْتَرْكِيئاً مِنْ بَضَائِعِهِ ، وَيَكْتُمُ دَقِيقَ صِنَاعَتِهِ ، وَلَا يَبْلُغُ دَقِيقَ غَايَةِ
أَسْطِطَاعَتِهِ ؛ وَأَنْ يُبَاشِرَ النَّاسَ بِصَدِيقِ الْمُنَاسَحَةِ ، وَجَمِيلِ الْمُسَامَحَةِ ، وَأَنْ لَا يَمِيلَهُ
الْإِعْجَابُ بِمَا يُحْسِنُهُ ، عَلَى الْأَزْدَرَاءِ بِنِ يَسْتَفْرِئُهُ ، وَالْإِقْرَاءَ عَلَى مَنْ مَسْرُوعُهُ وَيُسْنُهُ ؛
لِيَكُونَ خُبْرُهُ أَكْثَرَ مِنْ خَبَرِهِ ، وَنَظَرُهُ أَرْوَعَ مِنْ مَنْظَرِهِ ؛ وَيَكُونَ أَقْرَبُ مِنَ الْإِعْتِبَارِ ،
وَأَبْعَدُ مِنَ الْإِجْلَالِ وَالْإِكْبَارِ .

فليس التقى من قال: لئى أنا التقى، * ولكنه من قيل: أنت كذلكا.

وصكم مدج ملكا بنير شهادة * له نجله إن قيل: أن لست مالا!

ولقد نصرت بالانقضاء، على ذى نباهة وأرضاع، وذلك أنى أصعدت فى بعض
الأعوام، مع جماعة من العوام، بين تاجر وزائر، إلى العزلة والحائر، حتى آتينا
إلى قرية شاربعة، أهله زارعه، وما من إلا من أمته السرية فأعرضته،
واسقته وأمرضته، وقرته فبضته، وكثر منا الجوار، وأستولى علينا السوار،
نفرحنا منها خروج المسجون، وقد هموسنا هموس المرجون، فاسترحنا بالصعود،
من طول القعود :

كانت الطير من الأفاض * ناجية من أحبل القناص،

طية الأقبس بالخلص * متفضات الريش والنواص!

فأستمتت الراحة، ولا استقرت بنا الراحة، حتى وقف علينا واقف، وهتف
بنا هاتف، أيكم الخوارزمي؟ فقالوا له: ذلك الغلام المنفرد، والشاب المستند،
فأقبل إلى، وسلم على، وقال: إن الناظر يستيرك، فليجمل إليه مصيرك، فقم
معه، يتقدمنى وأتبعه، حتى آتتهى بى إلى جلة من الرجال، ذوى بهاء وجلال،
وزينة وجمال، من أشراف الأمصار، وأعيان ذوى الأخطار، من أهل وأسط
وبغداد، والبصرة والسواد .

ترى كل مرهوب العامة لائما * على وجهه بذر تحته قلب ضيق!

فصام إلى ذو المعرفة لإكرامه، وساعده الباقون على قيامه، وأطال فى سؤاله
وسلامه، وجذبوني إلى صدر المجلس فأبيت، ولزمت ذكابه وأحشيت، وأخذوا

يَسْتَعْرِفُونَ عَنِ الْحَالِ، وَالْمَعِيشَةِ وَالْمَالِ؛ وَدَاعِيَةَ الْارْتِمَالِ؛ وَعَنِ النَّيَّةِ وَالْمَقْصِدِ،
وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ، وَالْخَيْرَانِ وَالْبَلَدِ .

وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا حَتَّى مُسَائِلُ، * وَوَصِفُ أَشْوَاقٍ وَمُتْنٌ بِصَالِحٍ،

وَمُسْتَشْفَعٌ فِي أَنْتَ أَقِيمَ لَيَالِيَا * أَرْوَحُ وَأَفْلُدُ عِنْدَهُ غَيْرَ بَارِحٍ !

ثم قال قائلهم: هل بقيت عين الزمان وقبلة، ومالك الفضل وربّه، وقليب الأدب
وغرّبه، وإمام العراق، وتشمس الآفاق؟ . فقلت: ومن صاحب هذه الصفة المهولة،
والكتابة المجهولة؟ فقالوا: أو ما سمعت بكامل هيت، ذي الصوت والصيت؟ :

ذَٰكَ الَّذِي لَوْ عَاشَ [دَهْرًا] إِلَى * زَمَانِهِ ذَا وَأَبْنُ سُوحَانَ،

وَأَبْنُ دُرَيْدٍ وَأَبُو حَاتِمٍ * وَسَيَّوِيهِ وَأَبْنُ سَعْدَانَ،

وَعَامِرُ الشَّعْبِيِّ وَأَبْنُ اللَّيْلِ * وَأَبْنُ كُرَيْرٍ وَأَبْنُ صَفْوَانَ.

قالوا بحسب كلهم: إنّه * سيدنا، أو قال: غلمانِي.

فقلت لهم: قد قلّتم المنة، وحيّتم الجنة، إلى لقاء هذا العالم المذكور، والسيد
المشهور، وقد كانت الرياح تأتي بنفحات هذا الطيب، وهدير هذا الخطيب،
فالآن لا أثر بعد عين، ماصّح لأجله عن سرى القين، آغتنا للفساد، والنم
البارد، ووجدنا للقبالة الشاردة .

أَيُّ أَمْرٍ وَمَا الَّذِي أَنَا ابْنِي * بعد ادراكي المتى والطلاب؟

فأنا ما وجدت عندكم الطعم قريباً فما أريد الثواب .

إنهوا أتم فزوروا علياً: * لأزور الهنئ والادبا:

نن أبلى إن قيل الخوارز * متى أخطأ فله أو أحبا !

فقلت الجماعة : بل أصبت ، ووجدت ما طلبت ؛ وقدما كنا ننشر أعلامك ،
وننقى أحمالك ، وتداول أوصافك ، ونحب مضامك ؛ ونكر لدية ذرك ، ونظم
لديه قدرك ؛ فيحرك منك ساكنه ، وسقط بك أماكنه ؛ ونسأل الله سبحانه أن
يجمع بينك وبينه بمحضنا ، وملايح عينك حينه بمنظرنا ؛ ويلتف غبارك بغباره ،
ويمترج تبارك بباره ، ويخلط مضارك بمضاره ؛ فيعرف منك السابق والشكيت ،
والسوداق والكفيت ؛ ويتبين من الذى يحوى القصب ، فانك كما قال الشاعر :

مما رُحمانِ خطبانِ كانا * من السمرِ المتقفة الصمادِ

تُهل الأرض أن يعلّا عليها * بمثلها نسلم أو نصادى !

فقال [بعض الجماعة] لقد تنكبت الإنصاف ، وأخطأتم الاعتراف ؛ وأبعدتم
القياس ، وأوقمت الكلباس ؛ أين ابن ثلاثين ، إلى ابن ثمانين ؟ ؛ وأين اللبون ،
من البازل الأمون ؟ ؛ وألح الرايح ، من الجواد القارح ؟ ؛ والكودن المبروض ،
من المحرب المروض .

وَأَيْنُ اللَّبُونُ إِذَا مَا زُوِيَ قَرْنٌ * لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةُ الْبَزْلِ الْقَنَاعِيسِ !

كم لديهم بطائح وسباخ ، وساكن صرائف وأكواخ ، بين يديه سوادية أنباط ،
وعلوج أشرط ، ورطاع أخلاط ، وسفل سقاط ؛ فى بلدة إن رأيت سُورها ،
وعبرت جسورها ، صحت : وأغربتاه ، وإن رأيت وجهها غريباً ناديت : وأبتاه ؛
لا أعرف غير التبطية كلاما ، ولا ألقى سوى والدى إماما ؛ فى معشر ما عرفوا
الترحال ، ولا ركبوا الشروج والرحال ، ولا فارقوا الحدار والطلال .

أولئك معشر كينات نيش * خوالف لا تنور مع النجوم !

[فأثبني له] بمصافحة رجل جوال، رجل حلال، بيت وضع، والكوفة أريض،
ويغداد أقهر، وبواسط أحر، وبالجزاز ونيامة فطامه، وبمصر والمغرب كان اختلاطه،
وبتجد والشام بقل عارضه، وباليمن وعمان قويت نواحيه، وبخراسان بلغ أشده،
وبخارا وسمرقند تاهل جده، وبزنة والمند شاب وأكتمل، ومن سيحون وجيحون
عل ونهل، وبميسان والبصرة عود وقرح، وبالجبال جله وجلع، فهو يعد
«المأزني» إمامه، وابن «جني» غلامه، و«المنهي» من روايته، و«المعري» حامل
دوائيه، و«الصائي» باري قلبه، و«الصاحب» رافع عليه، و«ابن مقله» من ناقل
غايته، و«ابن أبي حفصة» بعض حاشيته، وقد قرأ الكتب وتلاها، وحفظ العلوم
ورواها، ودرس الآداب ووعاها، ودون الدواوين وألقها، وأنشأ الحكم وصنفها،
وقصّل المشكلات وشرحها، وأرجل الخطب وقصّها، فهو البحر المورود، والإمام
المقصود، والملمّ المسود، هذا بونٌ ومرقى شديد.

أنظروا بالأعزّل الرابعا، * وبالأكشف الحاسر الدارعا،

وبالكودن السابق السابعا، * وبالمنجل الصارم القاطعا؛

فما أستم كلامه حتى أقبل : فاذا نحن به قد طلع مهرولا، وأقبل مستعجلا؛
فرايت رجلا أجمع، أتم أظع، أطلع أزدح، طويلا عطنط، يثني ذنبا أمتط،
أجمع أحيط، تلتقوه مطمّن، وله مقصحين؛ قصّص في المجلس صدره، وأسند
إلى الخدّة ظهره؛ فما استقر به المكان، حتى قيل له : هنا فلان؛ فقبض من أنفه،
ونظر إلى بشطير من طرفه؛ وقال يعض فيه، هاؤوا ما كنتم فيه؛ تساء للشوّهاء
وجالبيها، والقرعاء وحالبها :

جاء زيد مجبرّوا رسته * فحل لا يمنعه سنه (٩)

أحبّه قومّه على شوقي * إن القرني في عين أمها حته :

كان لنا شيخٌ بالأنبار، كثيرُ الأخبار، قد بلغ من العمر أملاء، ومن السن أعلاء،
قرأت عليه جميع الكتب، وعلم الأساب، و"مسائل ابن السراج"، و"ديوان
ابن العجاج"، و"كتاب الإصلاح"، و"مشروح الإيضاح"، و"شعر الطرماح"،
و"العين" للفرودى، و"الجمهرة" للأزدى، وأكثر من المصنفات، المجهولات
والمعروفات، ينفع في شفايقه، ويزيد في بقايقه، ويتعاطف في محارقه، وجعل
القوم يقسمون بينا الألفاظ، ويحسبون الألفاظ، وما منهم إلا من أغناط لسكوني
وكلامه، وتأخرى وإقدامه.

ثم هذى الشيخُ إذ وُصف له رجلٌ على النيب ثم رآه، فاحتقره وأزدرأه؛
وأشدُّ مُتمتلاً :

لعمري أبك تسع بالمعدي * بعيد الدار خير أن تراه

فقال : هذا المعدي هو ضمرة، بن ضمرة، بن جابر، بن قطن، بن نهشل، بن
دارم، بن مالك، بن حنظلة، بن مالك، بن زيدمة، بن تميم، بن مرة، بن أد،
ابن طابخة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان. والمعدي تصغير
معدى، وهو الذى قالت فيه نديته :

أنى الكريم النهشل المصطفى * أكرم من حامر أو تخشفا!

فقلت : ما بعد هذا المال، وجهٌ للأحتال؛ وما يجب لى بعد هذه الموالحة،
غير المكافئة؛ ولم يبق لى بعد المغالاة، من مراقبه :

ما عني وأنا جلد نابل^(١) * والقوس فيه وتر عابل
تريل عن صفحته القابل !

(١) كذا في النسخ في مادة ن - عل - وفي مادة نعل "حب خائل".

ماضى وأنا [رجل] جلد * والقوس فيه سرور
مثل ذراع البكر أو أشد *

فعطفت عليه عطف الثائر العايف ، وانضت إليه أليقات الطائر الخاطف ؛
فقلت له : يا أخاهيت ، قد قلت ما شئت ، فاجب الآن إذا دُييت ؛ وأزمت مكانك ،
وعص عاتك ، وقصر لسانك ؛ إن نادية صخرة خندقته ، لما وصفته ؛ وما سمعت
في نسبك إياه لخنيف ذكرا ، فأين عن ذلك عذرا ؛ فقال : إن خنيف هي امرأة
ألياس بن مضر ، ظلت على بيتها ففسبوا إليها ، كطهية ومزينة ، وبلعدية وعريته ،
والسلكة وجهته ، ونذبة وأذينة ؛ وكشيب بن البرصاء وابن الدعاء . فقلت له :
سئلت ، فاجبت وأصبت ؛ فأخبرني عن خنيف هل هو اسم موضوع ، أو لقب
موضوع ؛ فوقف عند ذلك حماره ، وتحدث تارة ، وركد جريانه ، وسكن هذيانه ،
وقر عيانه ، وظهر جرائه ؛ وذلك وأتجمع ، وأنطوى وأجتمع ؛ فاضطره الحياء ، وألجأه
الاستجداء ؛ إلى أن قال وهو يخفى لفظه ، ويطلق لفظه : أظنه لقبا . فقلت : هو
كما ظننت فما معناه وما سببه ؟ وكيف كان موجهه ؟ فلم يجد بدا من أن يقول :
لا أدري ، فقال وقد أذقته مر الإمامة ، وأحسن من القوم بتأثير الشامة :

وَوَجَدَ يَجْدُغُ الْأَنفَ لَوْ أَنَّ صَحْبَهُ * تَنَادَوْا وَقَالُوا فِي الْمَنَاجِ : نَمَ !

ثم أقبلوا إلى ، وعكفوا على ؛ بأوجه مثله ، وأليسة متوسله ؛ في شرح الحال ،
والقيام بجواب السؤال ؛ فقلت : هذا بدع عجيب ، أنا أسأل وأنا أجيب ؛ إن ألياس
ابن مضر تزوج ليل بنت ثعلبة^(١) ، بن حلوان ، بن الحاف ، بن قضاة ، بن معد ،
(في بعض النسخ) ، فولد له منها : عمرو وطامر وعمير . ففقدتهم ذات يوم ، فالحى

على تلٍّ باللوم، قال: أنثرني في أترهم، وأنيبي بجرهم؛ فمُنت في طلبهم، وعادت بهم؛ قالت: ما زلت أُخْدِفُ في أتباعهم، حتى ظفرتُ بِلِقَائِهِمْ؛ فقال لها ألياس: أنت خَسِيف. والخندفة في الإكباع، تُهَارِبُ الخَطِو في إسرار، وقال عمرو: يا أباي أنا أدركتُ الصَّيدَ قَلَوِيته، فقال له: أنت مُدْرِكَة إذ حَوَيْته. وقال عامر: أنا طَبَخْتُهُ وشَوَيْته. فقال له: أنت طَامَخَة إذ شَوَيْته. فقال عُمر: أنا أَقَمَمْتُ في الخِلَاء، فقال له: أنت قَمْعَة للاخِيَاء؛ فَلَصِقَتْ بها وبهم هذه الألقاب، وجرت بها إليهم الأَسَاب.

فقال حنظل: هذا علمُ استغْدْنَه، وَفَضْلُ اسْتَرْدْنَه؛ وقد قال الحكيم: مُدَاكِرَة ذَوِي الْأَلْبَاب، نَمَاءٌ في الآدَاب. فقلتُ له مُتَمَلَّا:

أَقُولُ له وَالرَّحُّ بِأَطْرُ مَتْنَه * تَامَلْ خُفَاةَا: إِنِّي أَنَا ذَلِكَا!

ثم لم يَحْتَسِ إِلَّا قَلِيلًا، ولم يُحْسِكْ طَوِيلًا؛ حتى عاد إلى هديره، وأخذ في تَهْدِيره؛ طَمَعًا بَأَن يَأْخُذَ بِالنَّارِ، وَيَعُودَ الْفَيْضُ لَهُ فِي الْقِمَارِ؛ ففصل عن العُلُومِ النَّسِيَه، وَجَلَّ في مِيدَانِ الْعَرِيْه؛ ولم يُحْسِ أَن بَاعَه فِيهَا أَقْصَر، وَطَرَفَه دُونَ حَقَائِقِهَا أَحْسَر؛ فقال: حَضِرْتُ يَوْمًا حَلِيَّةً مِنْ حَلِيَّاتِ الْعُلُومِ، وَمَوْسِمًا مِنْ مَوَاسِمِ الْمَشُورِ وَالْمَنْظُومِ؛ وقد غُصَّ بِكُلِّ خَطِيبٍ مِصْقَعٍ، وَحَكَمَ مُقْعٍ، وَعَالِمٍ مِصْدَعٍ؛ وَمِلْءٍ مِنْ كُلِّ عَتِيقِ صَهَالٍ، وَعَتِيقِ صَسْوَالٍ، وَمِثْلِيَّيْ جَوَالٍ؛ فَأَخَذُوا فِي فُنُونِ الْمَعَارِضَاتِ، وَصُوفِ الْمُنَاقِضَاتِ؛ وَسَلَكُوا فِي مَعَانِي الْقَرِيضِ، كُلَّ طَوِيلٍ عَرِيضٍ؛ حَتَّى أَخَذَ السَّائِلُ مِنْهُمْ بِالْحَقِّقِ، بَيْتَ [الفرزدق]^(١):

وَعَصَّ زَمَانٍ يَا أَبْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدْعُ * مِنْ الْمَالِ إِلَّا مُسَحَّتًا أَوْ مُجْلَفًا!

فَكَثُرَ فِيهِ الْجِدَالُ، وَطَالَ الْمَقَالُ، وَمِنْهُمْ إِلَّا مَنْ أَجَادَ الْفِتْيَاسَ، وَأَصَابَ
الْقِرَاطَ، وَوَقَعَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَأَتَى بِالْحَقِيقِ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ فِي عَهْرِهِمْ سَاهُونَ،
وَفِي صَلَاتِهِمْ يَسْمَهُونَ، فَادَّيْتُهُمْ إِلَى قَسَائِرِعُوا، وَمِنِّي فَاسْتَمَعُوا، فَلَمَّا أَنَا ابْنُ يَمِينِيهَا،
وَعَالِمُ مَا تَحْتَ جِلْدَتِهَا، ثُمَّ إِنِّي أَبَدْتُ لَمْ سِرَّارِهِ، وَأَهْبَيْتُ نَارَهُ، وَحَلَلْتُ عَقْدَهُ،
وَعَمَّضْتُ زُبْدَهُ، وَأَطَرْتُ لَبْدَهُ، وَيَسَّسْتُ حَجَرَهُ، وَأَبْتَسْتُ عَجْرَهُ وَيُجْرَهُ، فَقَالُوا : هَـ
أَبْرُكُ ! فَإِنَّكَ أَسْبَقْنَا إِلَى غَايِهِ، وَاکْشَفْنَا لِنَيَّابِهِ، وَأَجَلْنَا لَشَبِّهِ، وَأَضْرَأْنَا فِي بَدْنِهِ،
وَمَا أَعْلَمُ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِهِ مَنْ يَقُومُ بِعِلْمِ مَا فِيهِ، وَبَطْلِيعِ عَلَى خَافِيهِ .

فَادْرَكَنِي الْإِمْتِصَاضُ، وَأَخَذَنِي الْإِفْطَاضُ، فَانْشَدْتُهُ :

مَنْ ظَنَّ أَنَّ عُقُولَ النَّاسِ نَاقِصَةٌ * وَعَقْلُهُ زَائِدٌ أَرَى بِهِ الطَّعْمَ !

وَقُلْتُ لَهُ : أَذَعَيْتَ ، فَوْقَ مَا وَعَيْتَ ، فَأَخْبَرَنِي عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْيَتِّ ، يَا مُجْرِي
الْكُتْبِ ، وَكَيْفَ نُنْشِدُهُ : وَعَضُّ بِالْفَتْحِ أَوْ وَعَضُّ بِالضَّمِّ ؟ فَقَالَ : كِلَاهُمَا مَرْيُومٌ ،
قُلْتُ : تَبْدِئُ بِالْفِعْلِ ثُمَّ تَعُودُ إِلَى الْأَسْمِ يَا ذَا الْإِعْجَابِ ، تَبِيًّا لِلسَّائِلِ فِي الْجَوَابِ ،
وَأَخْبَرَنِي لَمْ فَتَحْتَ آخِرَ الْمَاضِي ؟ فَأَسْرَعَ مِنْ ضَرْبِ التَّخَاضِي ، وَقَالَ : لِأَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَيْهِ،
لَا يُضَافُ سِوَاهُ إِلَيْهِ . قُلْتُ : هَذَا جَوَابُ تَعْلُمُهُ، وَمِنْ صِبْيَانِ الْمَكْتَبِ لَا تَعْلُمُهُ،
وَأَمَّا أَتَيْتُكَ مِنْكَ الْفَائِدَةُ فِيهَا، وَأَطْلُبُ كَشْفَ خَافِيهَا . فَقَالَ : مَا جَاءَ عَنْ أُمِّهِ
التَّعَاهُ، وَسَائِرِ الرُّوَاهِ، فِي هَذَا غَيْرُ مَا شَرَحْتُهُ، وَلَا زَادَ عَلَيَّ مَا أَوْحَشْتُهُ . قُلْتُ : دَعِ
عَنْكَ هَذَا وَأَخْبِرْنِي عَنْ هَذَا الْيَتِّ، أَلَيْلَةٍ أَمْ لَيْتِهَا؟ فَأَقْبَلَ يَتَرَدَّدُ وَيَتَرَجَّحُ، وَيَتَأَنَّبُ
نَارَةً وَيَتَخَنَّجُ . فَلَمَّا سَدَّ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِهِ، وَحَصَلَ فِي مَضْبِيقِهِ، وَعُضَّ بِرِيقِهِ،
قَالَ : لَا أَعْلَمُ ! . فَقَالَتِ الْجَمَاعَةُ : أَغْلَرْنَا إِلَيْكَ مِنْ أَلْفِي سِلَاحِهِ، وَعَضَّ جَمَاحِهِ،
وَمِنْ أَذْبَرِ بَعْدِ إِقْبَالِهِ، مُدِلَّ عَنْ قِتَالِهِ :

والحق أنج لا يمسد سبيله * والحق يمره ذوو الأبواب!

والآن قد فازت فداحك ، وبانت غرورك وأوضاحك ؛ وأجبت النضال ،
وأدركت الخصال ؛ فأوضح لنا عما سألت ، وأرشدنا إلى ما دللت ؛ فلما قال : هذا
بهت ، ومعالج بهت ؛ قلت حبا وكرامه ، إسمع أنت يا طغامه ؛ إن الفعل من
فاعله ، كالولد من ناجله ؛ لا يخلو الفعل من علامة الفاعل ، في لفظ كل فاعل ؛
وهي الفتحة من ماضيه وواقعه ، والزوائد في مستقبله ومضاريه . وبيان ذلك :
أن الفتحة لا تكون مع التاء والنون ... فتنت الفتحة ، ثم تقول : أخرجت
وأخرجنا ، فسقط ما ذكرنا ؛ وعلامتان لمعنى محال ، لا يوجبهما الحال . فان كانت
النون التي مع الألف ضمير المفعول عادت الفتحة ، فتقول : أخرجنا الأمير ، فهذا
ين . فصفت الجماعة وسمحت ، وحسنت ومجحت ؛ وجعل الأديب يضطرب
أضطراب العصفور ، ويتقلب قلب الصقور ؛ متيقنا أن أسده صار جردا ،
وبأزيه عاد صردا ؛ ودوره اهلبت غشالبا (؟) ، وزيتونه تحول عريبا ، وقناه تغير
قصبيا ؛ وأن مستقيمه تموج ، وجبده تهرج ، وحميمه تدرج ، وجليده تخرج ؛
فقال منشدكم :

تري الرجل النجيف قد دبره * وثمت يشابه أسد مريرو
ويجبك الطيرير فتبليه * فيخلف ظلك الرجل الطيرير
فما عظم الرجال لم بفخر * ولكن غرهم كرم وخيرا

فأخذ الأبلas ، وضافت به الأنفاس ، وسكنت منه الحواس ، ورفقه
الناس ؛ وجعل ينكت الأرض ، ويواصل بكفه الص ، ويتشائم بيومه ،

ويعود على نفسه بآلومه ؛ يَسْحُ جَيْتَهُ ، وَيَكْثُرُ آيَتُهُ . قَعَمْتُ قَعَامَتٍ مَعَ الْجَمَاعَةِ
وَزَكَّكَ ، وَأَسْتَهَانَتْ بِهِ وَفَرَّكَتَهُ ؛ فَلَمَّا بَقِيَ وَحْدَهُ ، تَمَيَّ لِحَدِّهِ ؛ وَأَسْبَلَ دَمْعَتَهُ ،
وَوَدَّ أَنَّ الْأَرْضَ بَلَعَتْهُ :

وكان كمثل البومائين روم * تلوذ بحقوقه الشراة الأكارم ،
فاصبح مثل الأجر الجلد مفردا * طريدا فما تدنو إليه الأباغر !

فقام قَبَحِي ، وَوَقَفَ وَوَدَّعَنِي ؛ وَأَطَالَ الْأَعْيَانُ ، وَأَظْهَرَ التَّوْبَةَ وَالْإِسْتِغْفَارَ ؛
وَقَالَ : مِثْلُكَ مِنْ سَرِّ اللَّحْلِ ، وَأَقَالَ النَّقْرةَ وَالزَّلَّ ؛ فَقَدْ أَغْتَرَرْتُ مِنْ سِنِّكَ بِالْحَدَاثَةِ ،
وَمِنْ اخْلَاقِكَ بِالدَّمَانَةِ . قُلْتُ : كُلُّ ذَلِكَ مَقْهُومٌ مَعْلُومٌ ، وَأَنْتَ فِيهِ مَعْدُورٌ
لَا مَلُومٌ ؛ وَمَا بَحْرِي بَيْنَنَا فَهُوَ مَنِيٌّ غَيْرَ مَدْكُورٍ ، وَمَطْوِيٌّ غَيْرَ مَنْشُورٍ ، وَغَيْثٌ
غَيْرَ مَشْهُورٍ :

[جِدَالٌ] أَهْلُ الْعِلْمِ لَيْسَ بِقَادِحٍ * مَا يَنْ غَالِبِهِمْ إِلَى الْمَغْلُوبِ !

ثم سَكَتَ لِمَا أَعَادَ ، وَزَلَّتْ وَمَادَ ؛ وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ عَهْدٍ بِهِ وَآخِرِهِ ، وَبَاطِنَ
لِقَائِهِ وَظَاهِرِهِ ، وَكُلَّ أَجْتِمَاعٍ وَسَائِرِهِ .

الفصل الثاني

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(فِي الرِّسَالِ)

وهي جمیع رسالة ، والمرادُ فيها أُمُورٌ يَرْتَبُهَا الْكَاتِبُ : مِنْ حِكَايَةِ حَالٍ مِنْ صُدُورِ
أَوْ صَبْدٍ ، أَوْ مَدْحٍ وَتَقْرِيرِضٍ ، أَوْ مُفَاعَلَةٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَجْرِي هَذَا
الْمَجْرَى . وَتُمَيِّتُ رِسَالَةً مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْأَدِيبَ الْمُتَنَشِّئَ لَهَا رُبَّمَا كَتَبَ بِهَا إِلَى غَيْرِهِ

مُخَرَّجاً فِيهَا بِصُورَةِ الْحَالِ، مُفْتَتِحَةً بِمَا تُفْتَتِحُ بِهِ الْمَكَلَّتَاتُ، ثُمَّ تُوسَّعُ فِيهَا فَاتَّسَعَتْ
بِالْمَطْلَبِ وَغَيْرِهَا .

ثم الرِّسَالُ عَلَى أَصْنَافٍ :

الصف الأول

(منها الرِّسَالُ الْمُلُوكِيَّةُ ، وهى على ضربين)

الضرب الأول

(رِسَالُ الْغَزْوِ ، وهى أعظمها وأجلها)

وهذه نُسخة رسالة أنشأها القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر رحمه الله، بفتح
[الْمَلِكِ الظَّاهِرِ] لِقَهْصَارِيَّةٍ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ، وَأَقْبَلَايَها مِنْ أَيْدِى التَّتَارِ، وَأَسْتِلايَهِ عَلَى
مُلْكِهَا، وَجُلُوسِهِ عَلَى تَحْتِ بَنَى مُلْجُوقٍ، ثُمَّ الْعَوْدِ مِنْهَا إِلَى تَمْلِكَةِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ .
كُتِبَ بِهَا إِلَى الصَّاحِبِ بَهَاءِ الدِّينِ بْنِ حَنَّا، وَزَيْرِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ، وَمَعْرُفَةٍ
مَا كَانَ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، وَمَا أَشْمَلَتْ عَلَيْهِ حَالُ تِلْكَ السَّفَرَةِ، وهى :

يُقْبَلُ الْأَرْضَ بِسَاحَاتِ الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ السَّيِّدِيَّةِ، الصَّاحِبِيَّةِ الْبَهَائِيَّةِ؛ لَا زَالَتْ
رُكَّابُ السَّيْرِ تَحْتُ إِلَى أَرْجَائِهَا السَّيْرِ، وَصُرُوفُ الزَّمَنِ تُسَلِّمُ خُدَامَهَا وَيُجَلُّ الْغَيْرَ بِالْغَيْرِ،
وَلَا بَرَحَتْ مَوْطِنُ الْبَرِّ وَمَعْدِنُ الْجُرُودِ وَبَحْرُ الْكَرَمِ وَعُكَاظُ الْخَيْرِ؛ وَيُنْبِئُ بَعْدَ رَفِيعِ
أَدْعِيَتِهِ الَّتِي لَا تَزَالُ مِنَ الْإِجَابَةِ مَحْطُوه، وَلَا تَبْرَحُ يَدَاهُ بِهَا مَبْسُوطَةً، أَنَّ الْعَيْسَى مِنْ
شَانِهِمْ لِنَحَافِ مَوَالِيهِمْ بِمَا يُسَاهِلُونَهُ فِي سَفَرَاتِهِمْ مِنْ عَجَائِبِ، وَإِطْلَاعُهُمْ عَلَى مَا يَرَوْنَهُ
فِي غَزَوَاتِهِمْ مِنْ غَرَائِبِ؛ لِيَقْضُوا بِذَلِكَ حُقُوقَ الْأَسْتِغْنَاءِ، وَتَكُونَ نِعْمَ سَادَاتِهِمْ قَدْ
أَحْسَنَتْ لِأَنْوَاعِهِمُ الْأَسْتِغْنَاءَ؛ وَيَتَعَرَّضُوا لِمَا عِصَاهُ يَعْزُ مِنْ مَرَامِهِمُ الَّتِي
مَاعَنْهُمْ قَبْرُهَا يَتَّقَدُ وَمَا عَنْدَهَا بَاقٍ .

ولما كان المملوك قد انتظم في سلك الخدم والعبيد، وأصبح كم له قصيد في مدح هذا البيت الشريف كل بيت منها قصيد بيت القصيد، وأن في ما يره الرسائل التي قد شاعت، وضاعت فقامت في الوجود وتم رسالة غيرها في غيره ضاعت - رأى أن يخفف الخواطر الشريعة من هذه الفتوة بل مع يختار منها من يؤلف، ويُسند إليها من يؤرخ أو يصنف؛ وإنما قصد أن يخفف بها أبواب مولانا مع بسط القول وأشاع كلياته، لأن الله قد شرف المملوك بعبودية مولانا: والله أعلم حيث يصل رسالته؛ فإن كان المملوك قد طَوَّل في المطارحة، فمولانا يتطوَّل في المسامحة؛ وإن قال أحد: هذا هذى، فما زال شرح الوقائع مَطْوِلاً كما، وتالله ما ورَّخ مثلها في التواريخ الأول، ولمعنى إن خيراً من سيرة ذلك البطال سيرة هذا البطال؛ والأمر أعلى في قرائتها وأشتياها، والتأمل في تجليها حتى تُسفرَ حسنَ قهايا وترفع مسئُول قباها،

قد أحاطت العلوم الشريفة بالعزائم الشريفة السلطانية، وأنها استصعبت ذلك، حتى تصفحت المهالك؛ وميرنا لا يستقر بنا في شيء منها قرار، ولا يقتدح من غير سنايك الخيل ناز، ولا تمر على مدينة إلا مُرور الرياح على الخصال في الأصائل والإبكار؛ ولا هم إلا بمقدار ما يترد الزائر من الأعباء، أو يروود الطائر من النقباء؛ تسبق وقد الرِّيح من حيث تتحى، وتكاد مواطئ خيلنا بما تسعبه أذيل الصوافين تتحى؛ تحيل هنا الخيل البتاق، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا اللحاق، وكل يقول لسلطاننا نصره الله:

أين أزعمت أجهذا المهام؟ * نحن نبت الرأ وأنت النعام!

ومرّ لا يفعل السيف أفعاله ، ولا يسير في مهمته إلا عمه ولا جبيل إلا طاله ،
نساؤه السواري والنوادي ، ولا ينفك الفيت من أنيبك في كل نادر ووادي :
فباشر وجهها طاماً بأشر الفتاة ، * وبلى ثياباً طاماً بلها اللثم !

وكان مولانا السلطان من حلب قد أمر جميع عساكره بأندراج لامات حرهم ،
بحل الآلات طعنهم وضربهم :

فهازله حتى على الشمس حنكه ، * وبأن له حتى على البدر يسم .
يمد يديه في المقاضة ضيغم * وعينه من تحت التريكة أرقم !

ورحلوا من حلب في يوم الخميس ثاني ذي القعدة بجرائد على الأمر المهود ،
قد خففوا كل شيء حتى البؤد والعمود ؛ فميرنا في جبال نشي فيها سلوك الأرض ،
واودية تهلك الأشواط فيها إذا ملئت القروج من الرقص ؛ تزور دياراً ما تحب
مخاها ، ولا نعرف أقصاها من أذناها ، وأستقبلنا الدرب فكان كما قال المتنبي :

رعى الدرب بالخليل المتاق إلى العدا ^(١) * وما علموا أن السهام خيول ،
شوائل تشوال المقارب بالقنا * لها مرع من تحتها وصييل .
[وما هي إلا خطر عرست له * بمخازن لبثها فنا ونصول
هسام إذا ما هم أغنى هومسه * بأرعن وطء الموت فيه تجميل
وخيل برآها الرقص في كل بلدة * إذا عرست فيها قليس قيلول ^(٢)
فلما تجمل من دلك وصنعية * علت كل طود راية ورعيل

(١) القى في ديوان المتنبي : بالجرد الجياد .

(٢) الزيادة من ديوان المتنبي .

عَلَى طَرِيقِهَا عَلَى الطَّرِيقِ رَقِصَةٌ * وَفِي ذِكْرِهَا عِنْدَ الْإِيَّاسِ نُمُودُ!

وَمَرَرْنَا عَلَى مَدِينَةٍ دَلَّوْكَ وَهِيَ رُصُومٌ سَكَّانُهَا ، ضَاحِكَةٌ عَنْ تَبَسُّمِ أَزْهَارِهَا
وَقَهْقَرَةٍ غُذْرَانِهَا ؛ ذَاتُ بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ، وَأَرْكَانٍ مَوْطَلَةٍ ، وَنِيرَانٍ تَرَاوِقِي مَوْقَدَةٍ ،
فِي عَمَدٍ مِنْ كَثَائِمِهَا مُتَمَدَّةٌ ؛ وَسَرْنَا مِنْهَا إِلَى مَرَجٍ اللَّيَاجِ تَتَعَادَى ، وَذَلِكَ فِي لَيْلَةٍ
ذَاتِ أُنْدِيَةٍ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ بَحْدَائِي ؛ عَلَّمَتُنَا مَلَكَمَتَهُ ، وَطَرَفَاتُنَا قَدْ أَصْبَحَ أَمْرُهَا
عَلَيْنَا عُمَهُ ، لَا يَنْبَغُ تَرْبُهَا تَحْتَ قَدَمِ الْمَارِ ، وَكَأَنَّمَا سَالَكُنَا يَمْنَى عَلَى شَقَا جُرُفٍ
حَارٍ ؛ فَبَيْنَا هُنَاكَ لَيْلَةٌ تَسْتَحِيرُ بِالنُّسْبَةِ إِلَى شَيْئَتِهَا لَيْلَةُ الْمَلْسُوعِ ، وَتَقْنَى الْعَيْنُ بِهَا
هَجْمَةً مُجُوعٍ ، وَأَخَذْنَا فِي اخْتِرَاقِ غَابَاتِ أَشْجَارٍ تُخْفِي الرِّيقَ عَنْ رَيْفِهِ ، وَتَشْفُلُهُ عَنْ
أَقْفَافِ طَرِيقِهِ ؛ يَتَبَرَّى مِنْهَا كُلُّ غَضَبٍ يُرْسِلُهُ الْمُتَقَدِّمُ إِلَى وَجْهِ رَيْفِهِ ، كَمَا يَخْرُجُ السَّهْمُ
بِقُوَّةٍ مِنْ مَسْجِنِهِ ؛ حَوْلَهَا مَعَائِرُ أَشْجَارٍ كَأَنَّهَا قُبُورٌ مَعْرِتٌ ، أَوْ جِبَالٌ تَقَطَّرَتْ ؛ بَيْنَا
مَخَاضٌ ، لَا بَلَى مَخَاضٌ ، كَأَنَّهَا بَحَارٌ بَهْرَتْ ؛ مَا خَرَجْنَا مِنْهَا إِلَّا إِلَى جِبَالٍ قَدْ تَمَنَّقَتْ
بِالْجُدَاوِلِ وَتَمَتَّتْ بِالثَّلُوجِ ، وَعُمَيْتٌ مَسَالِكُهَا فَلَا أَحَدٌ إِلَّا وَهوَ قَائِلٌ : فَهَلْ إِلَى
خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ أَوْ إِلَى سَبِيلٍ مِنْ خُرُوجٍ ؛ تَضَيِّقُ مَنَاجِلُهَا بِمَنْشَى الْوَاحِدِ ، وَتَتَفَقَّ
شَجَرَاتُهَا أَلْفَافَ الْأَكْهَامِ عَلَى السَّائِدِ ؛ ذَاتُ أَوْطَارٍ زَلِقَةٍ ، وَصُدُورٍ شَرِيقَةٍ ، وَأَوْدِيَةٍ
بِالْمُرْدَحِمِينَ مُحْتَفِقَةٍ ؛ بَيْنَا يَقُولُ مُتَتَّبِعُهَا : قَدْ نَلَتْ السَّمَاءُ بِسُلْمٍ مِنْ هَذِهِ الشَّوَاهِقِ ،
إِذَا هُوَ مُتَضَائِلٌ قَدْ هَبَطَ فِي مَازِنٍ مُتَضَائِقٍ ؛ لَمْ تَزَلْ هَذِهِ الْجِبَالُ تَأْخُذُنَا وَتَرْتَبِنَا ،
وَتِلْكَ الْمَسَارِبُ تَضُمُّنَا وَتِلْكَ الْمَشَارِبُ تُظْمِنُنَا :

نُسُودُ الشَّمْسِ مَنَابِضُ أَوْجِيَّتِنَا ، * وَ[لَا] نُسُودُ بَيْضِ الْبُذْرِ وَاللَّيْلِ ،
[وَكَلَّا] حَالَمَا فِي الْحُكْمِ وَاحِدَةً * لَوْ أَحْكَمْنَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَى حَكِيمٍ

وَتَرَكُ الْمَاءَ لَا يَنْفَكُ مِنْ سَفَرٍ ، * مَا سَارَ فِي الْقِيمِ مِنْهُ سَارَ فِي الْأَدَمِ !

حتى وصلنا الحَدَثَ الحمراء المَهْمَا الآنَ بِكِتُوكَ ومعناها المحرقة ، كان المَلِكُ قُسْطَنْطِينُ والدُ صَاحِبِ مِيسَ قد أَخَذَهَا مِنْ أَصْحَابِ الرُّومِ وَأَحْرَقَهَا ، وَتَمَلَّكَهَا وَحَمَرَهَا ، بِقَصْدِ الضَّرَرِ لِبِلَادِ الْإِسْلَامِ وَالتَّجَارِ . فلما كان في سِنَةِ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ وَسَبْمَاةَ سِتْرَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ إِلِيَا عَسْكَرَ حَلَبَ فَاتَّحَتَهَا بِالسَّيْفِ وَقَتَلَ مِنْ كَانَ بِهَا مِنَ الرِّجَالِ وَسَبَى الْحَرِيمَ وَالذَّرِيَّةَ ، وَخَرِبَتْ مِنْ ذَلِكَ الْحِينِ ، وَمَا بَقِيَ بِهَا مِنْ يَكَادُ يُبِينُ ، فَشَاهَدْنَا مَا بَعَثَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ بَنَ حَمْدَانِ مِنْهَا وَالْقَتَا تَحْرُجُ الْقَتَا وَمَوْجُ الْمَنَابِي حَوْلَهَا مُتَلَاطِمٌ ، وَقِيلَ حَقِيقَةً هُنَاكَ : عَلَى قَدَرِ أَهْلِ الْعَزَمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ ، وَهِيَ الَّتِي عَنَاهَا أَبُو الطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

غَصَبَ النَّهْرَ وَالْمُلُوكَ عَلَيَّهَا * فَبَنَاهَا فِي وَجَنَةِ النَّهْرِ خَلَا

فِيهِ تَمْشِي مِثْلُ الْعُرْوِيسِ أَخْيَالَا * وَتَقِفُ عَلَى الزَّمَانِ دَلَالَا !

فَبَنَاهَا وَأَبْنَيْنَا وَخَيْلَنَا مَبْنُوءَةً فَوْقَ الْأَحْيَادِ كَمَا تَبَرَّتِ الدَّرَاهِمُ فَوْقَ الْعُرُوسِ ، وَجِيَادُنَا عَلَى الرُّكُوبِ فِي أَعْلَى الْعَيْنِ تَدُوسُ ؛ إِذَا زَلَقَتْ مَشَتْ كَالْأَرَاقِمِ عَلَى الْبُطُونِ ، وَإِنْ تَكَاسَلَتْ جَرَّ مَعْضُهَا بَعْضًا بِالصَّيْلِ : «وَالْحَدِيثُ شُهُونُ» ؛ وَخُضْنَا فِي أَشْيَاءِ ذَلِكَ نَحَافِصَ سَوَايِغَ ، كَأَنَّا لِأَجْلِ عَوْمِ الْخَلِيلِ بِهَا شَمَّى كُلِّ مِنْهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ سَاجِمَ ، كُلُّهَا قُلْنَا : هَذَا بِحُزْنٍ قَطْعُهَا أَفْطَرَضَ لَنَا جَبَلٌ ، وَكُلُّهَا قُلْنَا : هَذَا جَبَلٌ طَلَعْنَا بِأَن لَنَا وَإِذَا يُسْتَهَانُ دُونَ الْمُهْوَى فِيهِ تَقَادُ الْأَجَلِ ؛ لَمْ تَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى وَصَلْنَا كَوَكُصُوا (٩) وَهُوَ النَّهْرُ الْأَزْرَقُ ، وَهُوَ الَّذِي رَدَّ الْمَلِكُ الْكَامِلُ مِنْهُ سَنَةَ التَّرَبُّدَاتِ لِمَا قَصِدَ التَّوَجُّعَ إِلَى الرُّومِ . وَهَذَا النَّهْرُ بَيْنَ الْجِبَالِ مَهْوَى رِجَالِهَا ، وَمَتَوَى عَنَامِهَا ، وَمَلَوَى زِمَامِهَا ، وَمَاوَى قَنَامِهَا ، فَلَوْلَقَ عَرَبَانَهُ رَكُضًا ، وَأَعْجَلَتِ الْخَلِيلُ فَمَا دَرَّتْ هَلْ خَاضَتْ بِلْمَةً أَمْ قَطَعَتْ .

أَرْضًا، وَبَاتَ النَّاسُ مِنْ بَرِّ هَذَا النَّهْرِ الْآخِرِ وَأَصْبَحُوا مُتَسَلِّينَ فِي تِلْكَ الشَّمْسِ، وَوَقَعَ
السَّيَّاحُ يُسْمَعُ مِنْ تِلْكَ الْجِبَالِ الشَّمْسِ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى أَبْجَادِ بَنْدَ مَا تَبَيَّنَتْ يَدُ قَرْسٍ
لِمَصَالِحَةِ صَفَاهَا، وَلَا تَسْلَهُ لِمَكَالِفَةِ رَحَاهَا، وَلَا رِجْلَهُ لِمَطَارِحَةِ قُرَاهَا، وَتَمَزَّتْ
الْخَيْلُ عَلَى الْأَفْصَامِ وَالْأَزْدِجَامِ فِي التَّلَطُّوقِ، وَتَمَوَّدَتْ مَا تَمَوَّدَتْهُ الْأَوْطَالُ مِنَ التَّغْمُرِ
وَالْقَسَقِ، فَصَارَتْ تَحْطُّ الْأَمْطَاطُ الْمَيْتِدَبَ، وَتَرْفَعُ أَرْضَاعَ الْكَوْكَبِ، وَتَسْرِى
سَرِيَانِ انْقِيَالِ، وَتُحْكِنُ حَوَافِرَهَا الْجِيَادَ قَرَوُلَ مِنْهَا الْجِبَالِ، حَتَّى حَصَلَ الْخُرُوجُ مِنْ
مُنْتَهَى أَبْجَادِ بَنْدَ وَهُوَ خِتَاقُ ذَلِكَ الْمَازِقِ الَّذِي كَمَّ أَمْسَكَ عَلَى طَائِرٍ، وَفَمَّ ذَلِكَ
الدَّرْبِ الَّذِي كَمَّ عَصَبَتْ أَنْبَابُهُ عَلَى مُسَاوِقٍ وَمُسَابِقٍ، وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ تَامِينَ
ذِي الْقَعْدَةِ، وَبَاتَ السُّلْطَانُ وَالنَّاسُ فِي وَطْأَةِ هُنَاكَ، وَتَمَحَّجَتِ السُّحُبُ بِمَا شَامَتْ
مِنْ بَرْدٍ وَرَدٍّ، وَجَاءَتِ الرِّيحُ بِمَا أَلَمَّتِ الْجِلْدَ وَأَسْتَفَدَتِ الْجِلْدَ، وَأَنْتَشَرَتِ الْعَاكِرُ
فِي وَطْأَةِ هُنَاكَ حَتَّى مَلَكَتِ الْمَقَاوِزَ، وَمَلَكَتِ الطُّرُقَ عَلَى الْمَارِّ وَأَخَذَتْهَا عَلَى الْجَائِزِ،
وَقَلَّمَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْأَمِيرُ تَمَسَّ الدِّينَ سُقْرًا الْأَشَقْرَ فِي الْجَالِيشِ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْعَاكِرِ،
فَوَقَعَ عَلَى ثَلَاثَةِ آلَافٍ فَارِسٍ مِنَ النَّارِ مُقَدِّمُهُمْ كَرَى، فَأَنْهَزُوا مِنْ يَمِينِ يَدِهِ، وَأَخَذَ
مِنْهُمْ مَنْ قَدَّمَ لِلْسَيْفِ السُّلْطَانِي فَأَكَلَ نَهْمَتَهُ وَأَسَارَ، وَاسْتَمَرَّتْ تِلْكَ سُنَّةٌ فِيمَنْ
يُؤْخَذُ مِنَ النَّارِ وَيُؤْسَرُ، وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ تَامِعِ ذِي الْقَعْدَةِ .

وَبَاتَ النَّارُ عَلَى أَجْمَلِ تَرْتِيبٍ لِأَهْلِهِمْ وَأَجْمَلِ مَنَظَرٍ، وَبَاتَ الْمَسْلُومُونَ عَلَى أَيْمٍ
تَبْقُظُ وَأَعْظَمَ حَذَرٍ، وَلَمْ يَتَحَقَّقُوا قُدُومَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ فِي جُيُوشِ الْإِسْلَامِ، وَلَا أَنَّهُ
حَاضِرٌ بِنَفْسِهِ النَّيْبَةِ لِيَقُومَ فِي نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ هَذَا الْمَقَامَ . فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ
عَاشِرُ ذِي الْقَعْدَةِ تَتَابَعَ الْخَبَرُ بَعْدَ الْخَبَرِ بِأَنَّ الْقَوْمَ قَدْ قَرَّبُوا، وَأَنَّهُمْ قَاتَبُوا وَوَتَبُوا :

وَقَدْ تَمَتَّعُوا غَدَاةَ الدَّرْبِ فِي جَلْبٍ * أَنْ يَبْصُرُوهُ فَلَمَّا أَبْصَرُوهُ عَمُوا !

وسرع مولانا السلطان فوصى جنوده بالثبوت عند المصلعة ، والاحتجاج عند المصانعة ، ورتب جيش الإسلام الحلب ، على ما يجب ، وأرأهم من نور رأيه ما لا على بصير ولا بصيرة يحتاج ، فطلعت الساكر مشرفة على مخزات هوى من بلد أبلستين ، وكان العدو ليلته تلك باتتاً على نهر زمان ، وهو أصل نهر جهان ، وهو نهر جحان المذكور في الحديث النبوي ، وأما الأرض لا تنطق بالهاء .

فلما أقبل الناس من علو الجبل شاهدوا المنل قد ترتبوا أحد عشر طلباً كل طلب يزيد على ألف فارس حقيقة ، وعزلوا عسكر الروم عنهم خيفة منهم ، وجعلوا عسكر الكرج طلباً واحداً بمفرده . ولما شاهدوا سناجق مولانا السلطان المنصورة ومن حولها من المسالك الظاهرية ، وعليهم الخوذ الصفر المقتصره ، وكأنها في شمع الشمس نيراناً ممتدحه ، رجسوا إلى ما كانوا عقودوا من العزائم خفتوا ، وسقط في أيديهم ، وأرأوا أنهم قد ضلوا ، وأقبل بعضهم على بعض يتسألون ، وعلى الموت يترأسون ، فانصبت الخيل إليهم من أعلى الجبل أنصباب السيل ، وبطلت الخيلة منهم ونفي الخيل ، فشمروا عن السواعد ، ووقفوا وقفة رجل واحد ، وهؤلاء المنل كان طاعة التار أبنا - أهلكه الله - قد اختارهم من كل ألف مائة ، ومن كل مائة عشرة ، ومن كل عشرة واحداً لأجل هذا اليوم ، وعرفهم بسيا الشجاعة وعرضهم لهذا السوم ، وكان فيهم من المتقدمين الكبار تدلون ، ومعنى هذا الأسم القاذ ، يعنى أنه ما كان في عسكر قط إلا نفعه ، والمقدم الآخر سوا (٩) وإليه أمر بلاد الروم وعساكر المنل بها ، وأرختوا أخوتدلون ، ويهادر بخشي . ومن مقدمى الأوفى ذلك ، وصبر أبنا ، وقرائق وخواصه :

بعض العوارض طمانون من لحقوا * من القوارس شلالون للسمع !
قد بلغوا بفنهم فوق طاقته * وليس يبلغ ما فيهم من إهم .

فِي الْبَاهِلِيَّةِ إِلَّا أَنْ أَقْسَمَ * مِنْ طَبِيعٍ بِهِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ!

فَمِنْذَ مَا شَهِدُوا تَجْدُ الْمَلَائِكَةَ ، وَتَحَقَّقُوا أَنَّ قُتُوبَهُمْ هَالِكَةٌ ، أَخَذَتْ فِرْقَةً مِنْهُمْ إِلَى الْأَرْضِ قَقَالَتْ ، وَطَابَتْ الْمَنَآيَا عَلَى قُتُوبِهِمْ وَعَاجَلَتْ ؛ وَبَاعَتْ قُتُوبُ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ وَتَابَرَتْ ، وَكَثُرَتْ وَمَا كَاسَرَتْ ؛ وَجَاءَ الْمَوْتُ لِلْعَدُوِّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَأَصْبَحَ مَا هُنَاكَ مِنْهُمْ وَقَدْ هَانَ ، وَلِلْوَقْتِ خُتِلُوا وَجُدُّوا ، وَلِبَطُونِ السَّبَاحِ وَحَوَاصِلِ الطُّيُورِ حُصِّلُوا ؛ وَصَارُوا مَعَ عَدَمِ ذِكْرِ اللَّهِ بِأَهْوَاهِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ ، يَقَاتِلُونَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ، فَكَمْ مِنْ شُجَاعٍ الصَّقِ طَلَّهَ إِلَى ظَهْرِ صَاحِبِهِ وَحَامِي ، وَنَاضَلَ وَرَأَى ، وَكَمْ فِيهِمْ مِنْ شَهْمٍ ، مَا سَلَّمَ قَوْسَهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِي كِتَابَتِهِ سَهْمٌ ، وَذِي سِنَّ طَارَحَ بِهِ فَا طَرَحَهُ حَتَّى تَسَلَّمَ ، وَذِي سَيْفٍ حَادِثَهُ بِالصِّقَالِ فَبَا جَلَى مُعَادَتَهُ حَتَّى تَكَلَّمَ ، وَأَبَانُوا عَنْ قُتُوبِهِمْ فِي الْحَرْبِ أَيْدِيَهُمْ ، وَقُلُوبُ كَافِرَةٍ وَخَوْفُ عَرَبِيَّةٍ ، وَأَسْتَنْتَ فِرْقَةً مِنَ الْعَدُوِّ مِنْ جِهَةِ الْمُسَرَّةِ مُعْرِجِينَ عَلَى السَّجَاقِ الشَّرِيفَةِ مِنْ خَلْفِهَا ، مُثْقَلِينَ بِصُفُوفِهِمْ عَلَى صَفِّهَا :

فَلَزَمَهُمُ الطَّرَادُ إِلَى قِسَالٍ * أَحَدُ سِلَاحِهِمْ فِيهِ الْفِرَارُ!

فَتَابَ مَوْلَانَا إِلَيْهِمْ ، وَوَتَبَ عَلَيْهِمْ ، فَضَحَّى كُلُّ مِنْهُمْ بِكُلِّ مُشْغَطٍ ، وَأَفْرَى الْأَنْجَسَادِ فَافْرَطَ ؛ وَتَلَقَّى مَوْلَانَا السُّلْطَانُ مِنْهُمْ مِنْ قَصْدِ التَّحْصِينِ بِالْجِبَالِ فَأَخَذَهُمُ الْأَخَذَةُ الرَّأْيِيَّةَ ، وَقَتْلَهُمْ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ؟

وَمَا الْفِرَارُ إِلَى الْأَجْبَالِ مِنْ أَسَدٍ * تَمَتَّى النِّعَامُ بِهِ فِي مَغِيلِ الْوَهْلِ؟

وَأَهْزَمَتْ جَمَاعَةُ سَيِّدَةٍ طَمِعَ فِيهَا مِنَ الْقَوَامِ مَنْ كَانَ لَا يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَأَخَذَتْهُمُ الْمَهْلَكَةُ فَمَا نَجَّى مِنْهُمْ إِلَّا آيِسٌ مِنْ حَيَاةٍ غَدَ فِي أَمْسِهِ .

مَضَوْا مُتَسَابِقِي الْأَعْضَاءِ فِيهِ * لَا رُقُوسِهِمْ بِأَرْجُلِهِمْ عِتَارُ

إذا قاتوا الرماح تآوتتسهم * بأرماح من السطش القفار!

وقصبت تيمنة عسكرنا جماعة من الخيل ذوي بأس شديد، فقاتلهم المسلمون حتى
تجبر الحديد من الحديد ؛ وكان مولانا الصاحب زين الدين - حرس الله جلالة -
لما دُعيت تزال أقل مسابق ، وأسرع زاشق ؛ وأقرب مطايع ، وأعظم معاون ؛
فذكر من شاهده أنه أحسن في معركته ، وأجمل في كرمه ، وأجاد في طعته ؛ وزار
زفير اللئث ، وسابق حتى لم يبق حيث ؛ ووقف دريئة للرماح من عن يمينه وشماله ،
ونخسب بما تحدر من دم علوه أنكاف سرجه وعنان لحامه ، وكانت عليه من الله
بأقية وأقية في هتفه وإقدامه ؛ وشاهدناه وقد خرج من وسط المعركة وهو ساكن
السلاح ، وقد أخذ نصيبه ونصيب فرسه من سالم الحراح ؛ وأراد الله أن لا ينجله من
إسالة دم يستلم الله الأجر بسأله ، بفعله - والمِنَّة لله - من بعض أطراف أنامله .

ولقد ذكر الأمير زين الدين أيمن الدوادار الظاهري ، قال : لقيتني وقد تكسر
رُجعي ، وعاد - لولا لطف الله - إلى الخسارة رُجعي ؛ فأعطاني المولى الصاحب
زين الدين رُجعي فلذا فيه نُصُول ، وبسته من قراع الدارين فلول ؛ ورأيت دُبوس
المولى الصاحب زين الدين وقد سَلَم ، وكان الخوف عليه في ذلك اليوم شديدا
ولكن الله سَلَم ؛ ولقد بلغ مولانا السلطان خبره فسأله فأجابته بنيران قال :
سيف مولانا السلطان هو الذي سَفَكَ ، وعزَّمه هو الذي فَتَكَ .

ومن يك محفوطا من الله فلتكن * سلامته من يُحاذِرُهكذا ،

ويخرج من بين الصغوف مسلما * ولا من يديه ولا ناله أذى !!

وأما الدُّوق فقامت الأيدي ما يتطوَّنه من الصَّوَاهِل والصَّوَّافِن ، وما يصُولون به
من سُيوف وقبي وكنائن ، وما يلقونه من خُود ودُرُوج وجواشِن ، وما يمتولونه

من جميع أصناف المَعَادِن؛ فَتَمَّ مَاهُتَاكَ، وَتَسَلَّمْ من أَسْتَشْهَد من المُسْلِمِينَ رِضْوَانُ
وَتَسَلَّمْ من قُتِلَ من الكُفَّارِ مَالِك .

وكان الذين أَسْتَشْهَدُوا في هذه الوَقْعَةِ من المُقَدَّمِينَ : شَرَفُ الدِّينِ قَبِيرَانُ السَّلَاطِي،
وَعِزُّ الدِّينِ أَخُو الأَمِيرِ بَهَالِ الدِّينِ مُحَمَّدِي . ومن المَهَالِكِ السَّلْطَانِيَّةِ : شَرَفُ الدِّينِ
فَلْحَقْ (١) الْجَاشَنْكِرِ الظَّاهِرِيُّ، وَأَيْكُ الشَّقِيقِيِّ الذي كَانَ وَزِيرَ الشَّقِيفِ . وكان
المَجْرُوحُونَ عِدَّةً لَطِيفَةً لَمْ يَلَمْ عَدَدُهَا لِقَتَهَا، بَلْ نَلِفَتْهَا؛ وَأَوْرَثَ اللهُ المُسْلِمِينَ مَنَازِلَهُمْ
فَتَرَلَوْهَا، وَوِطَاقَتِهِمْ وَنَرَكَوَاتِهِمْ فَتَمَوَّلُوهَا؛ وَكَانَ مَوْلَانَا السَّلْطَانُ وَكَانَ أَعْدَاؤُهُ كَمَا قِيلَ :

فَسَاهُمْ وَبُسَطُهُمْ حَرِيرٌ ، * وَصَبَحَهُمْ وَبُسَطُهُمْ تُرَابٌ !!

وَأَصْبَحَ الأَعْدَاءُ لَا تَرَى إِلَّا أَشْلَاقَهُمْ ، وَلَا تُبْصِرُ إِلَّا أَعْيَاقَهُمْ ؛ كَأَنَّمَا بَرَزَ
أَجْسَادُهُمْ جِرَائِدٌ يَتَخَلَّلُهَا مِنَ الدَّمَاءِ السَّيْلُ ، وَكَأَنَّمَا رُعُوسُهُمُ المَجْمُوعَةُ لَدَى الدَّهْلِيزِ
الْمَنْصُورِ أَكْرَ تَلْهِيبَ بِهَا صَوَالِحُهَا مِنَ الأَيْدِي والأَرْجُلِ مِنَ الخَيْلِ :

أَلَقْتُ إِلَيْنَا دِمَاءَ الْمُنْفِلِ طَاعَتَهَا * فَلَوْ دَعَوْنَا بِلَا حَرْبٍ أَجَابَ دَمٌ !

فَكَمْ شَاهَدَ مَوْلَانَا السَّلْطَانُ مِنْهُمْ مَهِيبَ المَاهِمَةِ، حَسَنَ الوَسَامَةِ، تُتَفَرَّسُ فِي جَهَامَةِ
وَجْهِهِ الفَخَامَةِ، قَدْ قَضَى الرُّمَحُ قَاهُ قَرَعَ السِّنُّ عَلَى الحَقِيقَةِ نَدَامَهُ :

وَوُجُوهُهَا أَخَانَهَا مِنْكَ وَجْهٌ * تَرَكْتُ حُسْنَهَا لَهُ وَالْجَمَالَ !

أَوْ كَمَا قِيلَ :

لَا رَحِمَ اللهُ أَرْوَسًا لَهُمْ * أَطَرَنَ عَنْ هَامِيْنٍ أَلْفَاقًا !

وَأَقْبَلَ بَعْضُ الأَحْيَاءِ مِنَ الأَسَارِيِّ عَلَى الأَمُوتِ يَتَمَارِقُونَ، وَالأَخْبَارُ تَجَاعَلَتِهِمْ
يَتَوَاصَفُونَ ؛ فَكَمْ مِنْ قَائِلٍ : هُنَا فُلَانٌ وَهُنَا فُلَانٌ ، وَهُنَا كَانُوا وَهُنَا كَانُوا ؛ وَهُنَا

(١) في ديوان المتنبي "لا يرم" .

كَانَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ يَهْزِمُ الْأَكُوفَ، وَهَذَا يُقَرَّرُ فِي ذِيهِ أَنَّهُ لَا تَحِفَّ بَيْنَ يَدَيْهِ
الشُّفُوفِ؛ وَكَثُرَتِ الْأَسَارَى مِنَ الْمَغْلَى فَاخْتَارَ السُّلْطَانُ مِنْ كِبَرَائِهِمُ الْبَعْضَ، وَعَمِلَ
فِيهِمْ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِيَ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُخَيَّنَ فِي الْأَرْضِ﴾ .
فَجَعَلَهُمُ لِلسُّيُوفِ طَعْمَهُ، وَأَخْضَرَتِ الْأَسَارَى مِنَ الرُّومِ قَرَقَبَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ
فِيهِمُ الْإِلَّ وَالْقُدْسَ :

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْفَوْ حَنُومُ، * وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يُحْفَظُ الْيَدَا!

وَكَانَ فِي جَمَلَةِ الْأَسَارَى الرُّومِيِّينَ مُهَلَّبُ الدِّينِ بَكْلَارَنكِ، يَعْنِي أَمِيرَ الْأَمْرَاءِ
وَلَدَ الْبُرَوَانَةِ، وَنُورُ الدِّينِ جَاجَا أَكْبَرُ الْأَمْرَاءِ، وَجَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَمْرَاءِ الرُّومِ
وَمُقَدِّمِي صَاكِرِهِ، فَكَانَ الْبُرَوَانَةُ أَحَقُّ بِقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

تَجَمُّوتُ بِإِحْدَى مُقَلَّتِكَ جَرِيحَةً * وَخَلَّتْ إِحْدَى مُهْجَتِكَ نَبِيلًا!

أَسْلَمَ لِنُطْقِيَةِ ابْنِكَ حَارِبًا * وَيَسْكُنُ فِي الدُّنْيَا إِلَيْكَ خَلِيلًا؟

لَأنَّهُ شَجَرُ الذِّلِّ، وَأَمْتَعَلَى - هَرَبًا - أَشْهَبَ الصُّبْحِ وَأَحْمَرَ الشَّفَقِ وَأَصْفَرَ الْأَصِيلِ
وَأَدْنَمَ اللَّيْلِ؛ وَتَمَّ يُخَيَّرُ مِنْ خَلْفِهِ بِمَا تَمَّ، وَهَمَّ قَلْبُهُ رَفِيقَهُ حِينَ هَمَّ :

فَتَحْنُ فِي جَدَلٍ، وَالرُّومُ فِي وَجَلٍ، * وَالْبَرْقُ فِي شُغْلٍ، وَالْبَحْرُ فِي تَجَلٍّ !!

وَدَخَلَ الْبُرَوَانَةُ مَدِينَةَ قَيْصَرِيَّةَ فِي تَارِيخِ يَوْمِ الْاِخْدِيدِ ثَانِي عَشَرَ الشَّهْرِ الْمَذْكُورِ،
فَافْتَحَهُمُ غِيَاثُ الدِّينِ سُلْطَانُهَا، وَالصَّاحِبُ نَقَرُ الدِّينِ بْنِ عَلَاءِ (٩) وَالْاِثْمَانِيكَ جَمْعُ الدِّينِ،
وَالْأَمِيرُ جَلَالُ الدِّينِ الْمُسْتَوْفِي، وَالْأَمِيرُ بَدْرُ الدِّينِ يَسْكَاتِيلُ النَّابِ، وَالْأَمِيرُ فُلَانُ
الدِّينِ الطُّغْرَايُ، وَهُوَ وَلَدُ عَزَّ الدِّينِ أَيْمَى الْبُرَوَانَةِ، وَهُوَ الَّذِي يَكْتُبُ طُرُقَ الْمُنَاشِيرِ -
أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَسَرُوا بَعْضَ الْمُنْثَلِ وَبَقِيَّتُهُمْ مُنْهَزِمُونَ، وَيُخَشَى مِنْهُمْ دُخُولُ قَيْصَرِيَّةَ
وَإِتْلَافُ مَا يَكُونُ بَهَا فِي طَرَأَتِهِمْ حَقًّا عَلَى الْإِسْلَامِ . فَانْخَضَ جَرَأَتَهُ، وَآخَذَ

زَوْجَتَهُ كُرْحَى خَاتُونُ بِنْتُ غِيَاثِ الدِّينِ صَاحِبِ أَرْزَنَ الرُّومِ، فَاسْتَصَحَبَتْ مَعَهَا أَرْبَعَةَ جَارِيَةٍ لَهَا، وَكَانَ لَهَا مَالًا كَانَ لِصَاحِبِ الرُّومِ مِنَ الْبَقَايَ وَالْجَلَامِ وَالْأَلَايَ، وَتَوَجَّهُوا كُلُّهُمْ إِلَى جَرِهِ تَوَقَّاتِ (٢) وَهُوَ مَكَانٌ حَصِينٌ مَسِيرَةُ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ مِنْ قَيْصَرِيَّةَ . وَلَمَّا خَرَجُوا مِنْ قَيْصَرِيَّةَ حَمَلَهُمْ عَلَى شُرْعَةِ الْغَرْبِ ، وَأَتَدْرَعُ هَذَا قَدْ اقْتَرَبَ ، وَهَوَّلَ عَلَى بَقِيَّةِ أَمْرَاءِ الرُّومِ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، وَأَخَذَ الْبُرَوَانَةَ أَمْرَهُ وَأَمَرَ مِنْ مَعَهُ حَتَّى لَا يُخْرِجَ عَنْهُمْ .

وَكَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ قَدْ جَرَّدَ الْأَمِيرَ تَمَسَّ الدِّينَ سُقْرًا الْأَشْقَرُ فِي عَدَدِ مُسْتَظْهِرًا بِهِ لِإِدْرَاكِ مَنْ فَاتَ مِنَ الْمُخْلِ ، فَرُؤُوا فِي طَرِيقِهِمْ بِغُرْفَةٍ مَعَهَا بُيُوتُهُمْ فَخَذَ مِنْهَا جَانِيًا ، وَدَخَلَ عَلَيْهِمُ اللَّيْلَ فَمَرَّ كُلُّ فِي سِرِّهِ ذَاهِلًا ذَاهِبًا . وَرَحَلَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ فِي بُكْرَةِ اللَّيْلِ حَادِي حَشْرِ ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ مَكَانِ الْمَعْرَكَةِ ، فَزَلَّ قَرِيبَ الْقَرْيَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِرِيَّانَ ، وَهَذِهِ الْقَرْيَةُ قَرِيبُ الْكَهْفِ وَالرُّقْمِ حَقِيقَةً ، لَا مَا يُقَالُ : إِنَّهُ قَرِيبُ حُسْبَانٍ مِنْ بِلَادِ الْبَلْقَاءِ ، وَقَرِيبًا مِنْهُ صَلْدٌ مِنَ الصَّبَا عَلَيْهِ كِتَابُهُ بِالرُّومِيَّةِ أَوْ فِرْعَا مِنْ أَلْطُ الْفَرْدِيمِ . وَأَمَّا الْقَرْيَةُ الْمَذْكُورَةُ الْمَسَاءُ بِرِيَّانَ فَإِنَّ بُيُوتَهَا بُنِيَتْ حَوْلَ سِنِّ جَبَلٍ قَائِمٍ كَالْمَرْمِ إِلَّا أَنَّهُ مَلُومٌ ، وَخَرَّتِ الْبُيُوتُ فِي سَفْحِهِ حَوْلَهُ بَيْتًا فَوْقَ بَيْتٍ فَبُنِيَتْ كَأَنَّهَا مَجْرَةُ النُّجُومِ ؛ وَمِنْ بَيْتٍ مِنْهَا إِلَّا وَبِهِ مَقَاعِدُ نَوَاتِ دِرَازِنَاتٍ مَتَّعُورَةٍ ، وَرَوَاشِنُ قَدْ بُنِيَتْ فِي أَكْلِ صُورِهِ ؛ يَخْتُمُهَا مِنْ أَجْلَاهَا أَحْسَنُ بُنْيَانٍ ، وَيَسْلُوْهَا مِنْ رَاسِهَا مَتَرٌ مُسَمَّى الرَّاسِ كَمَا يَسْلُو الصَّعْدَةُ السَّنَانُ ؛ وَتَطُوفُ بِهِذِهِ الْقَرْيَةُ جِبَالٌ كَأَنَّهَا أَسْوَادُ بَلِّ سِوَارٍ ، وَكَأَنَّهَا فِي وَسْطِهَا إِنَاءٌ فِيهِ جَذْوَةٌ نَارٍ ؛ وَيَتَفَرَّخُ مِنْهَا أَنْهَارٌ ، هِيَ فِي تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ كَأَنَّهَا بِهَيْوَتِهَا كَثِيبٌ قَدْ أَنْهَارَ ؛ ذَوَاتُ قَنَاطِرٍ لَا تَسْعُ غَيْرَ رَاكِبٍ ، وَمَضَائِقُ لَا يُقْنَى عَنْهَا لَنَاكِبٌ ؛ قَدَّرَ اللَّهُ أَنَّ الْمَسَاكِرَ خَلَعَتْ مِنْهَا وَلَكِنْ بَعْدَ مَقَاسَةِ الْجُهْدِ ، وَخَرَجَتْ وَقَدْ رَقَّ لَهَا قَلْبُ كُلِّ وَهْدٍ ؛ وَزَلْنَا قَرِيبًا مِنْهَا حَتَّى

تَحْلَسُ من تَحْلَسُ ، وَحَصَرَ من كَانَ في المَضَائِقِ قد تَرَبَّصُ ، وقال : كُلُّ الأَرْضِ
حَصَصَ .

وَرَحَلْنَا من هناك في يوم الأحد ثاني عشر شهر ذي القعدة وكانت السماء قد حَيَّتْ
الأَرْضَ بِيَجَانٍ أمطارها ، وَأَغْرَقَتْ المَوَامَّ في أبحارها ، وَفُتِّخَ في أوْكَارِها ،
وَأَصْبَحَتِ الأَرْضُ لَانْتِمَاسَكُ حَتَّى وَلَا لِمُرُورِ الأَرَاقِمِ ، والجبالُ لَانْتِمَاسَكُ أَنْ تَكُونَ
لِلْمَعَمِ عَوَاصِمُ ؛ تَضَعُ بها من الثَّوَابِ كُلِّ [ذَاتِ] حَمَلٍ ، وَتَلْقَى في صَقِيلِهَا أَرْجُلُ
الْعَمَلِ ، وَبِرْنَا عَلَى هذه الحَالَةِ نَهَارًا كُلَّهُ إِلَى قَرِيبِ الغُرُوبِ ، وَقَطَعْنَاهُ بِسُلْبَانَا أَيْدَى
الدُّرُوبِ من أَيْدَى الدُّرُوبِ ؛ وَزَلْنَا عِشَاءً في مُتَنَقِّعِ أَرْضٍ تَطُوفُ بها جِبَالٌ شَاهِقَةٌ ،
وَمِيَاءٌ دَائِقَةٌ ؛ تُعْرَفُ قَاعَةُ تلك الأَرْضِ بِوِطَاءِ قِشْلَا وسار (؟) من أعمال أصاروس
التيق . وَيَقْرُبُ من تلك الجهة مَدِينُ الفِضَّةِ .

وَبَيْنَا نَحْنُ قد شَرَعْنَا في أَهْبَةِ المَيْتِ ، وَلَمْ تَقْضِ الشَّمْلُ الشَّيْئَتِ ؛ وَإِذَا بِالصَّادِحِ
قد صَدَحَ ، وَالنَّذِيرُ قد سَنَحَ ؛ رَافِعًا عَقِبَتَهُ بِأَنْ قُوبًا من التَّسَارِ في بَقْوَةٍ هُنَاكَ
قد أَسْتَرَوْا ، وَفِي نَجْوَةٍ لِنَفْوَةٍ قد آتَنَظَرُوا ؛ فَرَكِبَ مولانا السلطان وَرَكِبَ النَّاسُ
فِي السَّلَاحِ ، وَعَزَمُوا عَلَى المَطَارِ فَمَاقَهُمْ تَتَابِعُ النِّيْثِ وَكَيْفَ يَطْلُبُ مَبْلُولُ الجَنَاحِ ؟
ثم لَطَفَ اللهُ وَعَادَ مولانا السلطانُ وَهُوَ يَقُولُ لِلنَّاسِ : ، لَا بَاسَ ؛ فِيمَنَّا نَوْمَةُ السَّلِيمِ ،
وَصَدْرَتِ أَفْكَارُنَا شَاغِرَةً في كُلِّ وَادٍ تَهْمُ ؛ وَأَصْبَحْنَا فَسَلَكْنَا جِبَالًا لَا يَمِيطُ بها
الْوُصْفُ ، وَتَتَبَسَّطُ عَدْرَاءُ الطَّرْفِ فيها حِينَ يَكْبُو فيها الطَّرْفُ ؛ تَقْطَعُ منها إِلَى جَنَائِلِ ،
يَضَعُفُ عَنِ المَوِيِّ إِلَهَا قَوِيُّ الأَجَائِلِ ؛ بَيْنَا قَوْلُ : قد أَحْسَنَ اللهُ لَهَا نَفَاذًا وَمِنَا
نَفَاذًا ، وَإِذَا بَعْدَ الأَوْدِيَةِ أَوْدِيَةٌ وَبَعْدَ الجِبَالِ جِبَالٌ تَشْكُرُ عِنْدَ ذَاكَ هُنَاكَ عِنْدَ
هَذَا ؛ وَمَرَرْنَا عَلَى قَرْيَةٍ أَوْرَكَ ، وَتَحْتَهَا قَنَاطِرٌ وَخَانٌ من حَجَرٍ مَسْحُوتٍ ، ثُمَّ خَانَ آخَرُ

للسَّيْلِ عَلَى رَأْسِ رَابِئَةٍ هُنَاكَ تَعْرِفُ بِأَشِيدِي ، قَرِيبًا مِنْ حِصْنِ سَمْنَدُو ، الَّتِي
عَرَّضَ بِهَا أَبُو الطَّيِّبِ فِي قَوْلِهِ :

فَإِنْ يَنْدِمَ فَقَدْ زُرْنَا سَمْنَدُو • وَإِنْ يُحْيِمَ فَوَعْدُهُ انْتَلِجْ !

وَكَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ قَدْ سَارَ إِلَيْهَا خَوَاصَّهُ بِكَلْبٍ إِلَى نَائِيهَا فَغَيَّبَهُ وَقَبْلَهُ ، وَأَذْعَنَ
لِتَسْلِيمِ حِصْنِهَا الْمُنِيحِ وَلِلتَّوَلُّوْلِ لِأَمْرِ السُّلْطَانِ هُنَا إِنْ اسْتَزَلَّه ؛ فَشَكَرَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ
لَهُ تِلْكَ الْإِجَابَةَ ، وَوَقَّاهُ مِنَ الشُّكْرِ حَسَابَهُ . وَكَذَلِكَ إِلَى قَلْعَةِ دُونْدَا وَإِلَى دَوَالِوَا ،
فَكَلَّهْمُ أَجَابُوا وَأَطَاعُوا وَلِكَلِمَةِ الْإِذْعَانِ قَالُوا ؛ وَزَلْنَا فِي وَطَاءٍ قَرِيبَ قَرْيَةٍ تَعْرِفُ
بِجَمْرَهَا ، وَكَانَ النَّاسُ قَدْ فَرَعَتْ عُلُوقَاتُ جَلَلِهِمْ أَوْ كَلَدَتْ ، وَانْتَلَيْلُ قَدْ بَاتَتْ لَيْلًا
بَلَا مَلِيْقٍ فَاسْتَفَادَتْ ، وَشَارَكَتْهَا خِيُولُ الْكُسُوبِ (؟) فِي مَلِيْقِهَا ، وَمَا سَاعَدَتْهَا
فِي طُرُقِهَا وَلَا فِي طَرِيقِهَا ؛ فَضَعُفَتْ عَنْ حَمْلِ نَفْسِهَا فَاسْتَظَلَّتْ بِرَاكِبِيهَا ، وَكَادَ
الْفَارِطُ - لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَفْرِطَ فِيهَا ؛ فَصَادَفْنَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ بَعْضَ
أَنْبِيَاءِ أَمَسْكَتْ أَرْمَاقَهَا ، وَأَحْسَنْتْ لِرِفَادَتِهَا وَإِرْفَاقَهَا .

وَأَصْبَحْنَا فِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ رَابِعِ عَشْرِ ذِي الْقَعْدَةِ رَاحِلِينَ فِي جِبَالٍ كَانَتْهَا تِلْكَ الْأَوَّلُ ،
وَعَايِلِينَ فِي أَوْدِيَةٍ يَتَمَتَّى سَالِكُهَا مِنْ شِئْنَةِ مَضَائِقِهَا أَنْتَ لَوْ عَادَ إِلَى تَرْتَقَى أَعْلَى
جَبَلٍ ؛ وَمَا زِلْنَا كَذَلِكَ حَتَّى أَشْرَفْنَا عَلَى خَانٍ هُنَاكَ يَعْرِفُ بِقِرْمَايِ يَدُلُّ عَلَى شَرَفٍ
هِمَّةٍ بَابِيَةٍ ، وَطَلَبَ ثَوَابَ اللَّهِ فِيهِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ مِنْ أَكْبَرِ الْأَبْنَاءِ سَعَةً وَأَرْضَاعًا ،
وَأَحْسَنَهَا شَكْلًا وَأَوْضَاعًا ؛ كُلُّهُ مَبْنِيٌّ بِالْجَمْرِ الْمَنْتَحَوَاتِ الْمَصْتُوَلِ الْأَحْمَرِ الَّذِي كَانَتْ
رِخَامٌ ، وَمِنْ ظَاهِرِ أَسْوَارِهِ وَأَرْكَانِهِ نَقُوشٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَرَسُمَ مِثْلَهَا بِالْأَفْخَامِ ؛ وَلَهُ
خَارِجٌ بَابُهُ مِثْلُ الرِّبَاضِ بِيَاثِينَ بِأَسْوَارِ حَصِينَةٍ ، مُبْلَطُ الْأَرْضِ ، فِيهِ حَوَائِثُ .
وَأَبْوَابُ انْخِلَافٍ حَمِيدٌ مِنْ أَحْسَنِ مَا يُمْكِنُ اسْتِعْمَالُهُ . وَدَاخِلُهُ أَوَاوِيرُنٌ صَافِيَةٌ ، وَأَمِكِنَةٌ

شَتِيَّة ، واصْطَبَلَتْ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ لَا يُحْسِنُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْهَا بِكَلِمَةٍ ،
وَمَا مِنْهَا إِلَّا مَا يَجِدُهُ الْإِنْسَانُ رَحْلَةً لَلشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ ؛ وَفِيهِ التَّحْسَامُ وَالْبِيَارِسْتَانُ
وَالْأَذْيُوبَةُ وَالْفَرُشُ وَالْأَوَانِي وَالضَّبَائِقُ لِكُلِّ طَارِقٍ عَلَى قَدَرِهِ ، حُجِلَ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ
مِنْ ضَبَائِقِهِ لِمَا مَرَّ عَلَيْهِ ، وَكَثُرَ النَّاسُ فَاصْطَلَّ أَحَدٌ إِلَيْهَا وَلَا إِلَيْهِ ؛ وَعَلَيْهِ أَوْقَافٌ
عَظِيمَةٌ ، وَضَبَائِقُ كَثِيرَةٌ حَوْلَهُ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ الْبِلَادِ ، وَلَهُ دَوَائِرُ وَكُتُبٌ وَبَاشَرُونَ
يَتَوَلَّوْنَ اسْتِخْرَاجَ أَمْوَالِهِ وَالْإِنْفَاقَ فِيهِ ، وَلَمْ يَتَمَرَّضِ النَّاسُ إِلَى إِبْطَالِ شَيْءٍ مِنْ
رُسُومِهِ ، وَأَبْقَوْهُ عَلَى عَوَائِدِ تَكَرُّمِهِ ، وَأَهْلُ الرُّومِ يَبْتَاعُونَ فِي تَجْمِيلِ بَنَاتِهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -
وَتَقْطِيعِهِ ؛ وَزَلْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ قَرِيبَ قَرْيَةٍ تَحْرُبُ مِنْ قِصْرِئَةٍ مِنْ حُقُوقِ وَادِي
صَلُومَةٍ شَرْقِي الْجَبَلِ الْمَعْرُوفِ بِسَيْبٍ ، وَفِيهِ قَبْرُ أَمْرَأَةٍ الْقَهْصِ الشَّامِرِ

أَجَارَتْ إِنْ الْخُطُوبَ تَسُوبُ ، * وَإِنِّي مُقِيمٌ مَا أَقَامَ صَيْبُ ،

أَجَارَتْ إِنَّا خَيْرِيَانِ هَاهُنَا * وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَيْبُ !!

وَهَذَا الْجَبَلُ يَمْلُوهُ جَبَلُ أَرْجَاسَ ، وَهُوَ الَّذِي يَضْرِبُ الرُّومَ الْأَمْثَالَ بَنَاتِهِ ،
وَتَنْتَضِعُ الْجِبَالُ فِي جَمِيعِ الدُّنْيَا لَتَعَالِيهِ ؛ لَا تُسْعَبُ دُيُولُ السَّحَابِ إِلَّا دُونَ
سَفْعِهِ ، وَلَا يُعْرِفُ مِنْ تُلُوجِهِ شِتَاءٌ وَصَيْفٌ وَمِنْ مَتَالِ الْأَشْجَرِ الْمُتَصَمِّدَةِ مِنْهُ عِشَائِرُهُمْ
مِنْ صُحْبِهِ .

وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْأَرْبَعَاءِ مَتَصِفٍ ذِي الْقَعْدَةِ ، وَهُوَ يَوْمُ شَرَفِ الزُّهْرَةِ رَكِبَتْ
الْعَسَاكِرُ الْمَنْصُورَةَ مُتَرَبِّبَةً ، وَمَلَأَتِ الْقَضَاءُ مُتَسَرِّبَةً ؛ وَرَكِبَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ
فِي زُمْرَتِهِ ، وَذَوَى أَمْرِهِ وَإِسْرَارَتِهِ ؛ بِخَيْلٍ جَوَادَةٍ فِي أَفْسَحِ مَيْدَانٍ ، وَيَصْبِيحُ بِهِ قَرَحًا
وَمَرَحًا كَأَنَّهُ نَشْوَانُ دَرَى أَنَّهُ سُلْطَانُ ؛

تَنْظُلُ مَلُوكُ الْأَرْضِ حَاشِعَةً لَهُ * تُفَارِقُهُ هَلِكِي وَتَقْدَاهُ سُجْدًا !

ونخرج أهل قيصريّة وأكابرها، وعلمائها وزعمائها ونجارها، ورعاياها ونسائها
ومغارها؛ فأتهم مولانا السلطان ممثّاهم، وشكر مساهم؛ وعلق قضائهم وعلمهم
رُكباناً، وحادثهم إنساناً فأساناً؛ وحصلت لجماعة من الفقهاء والناس حالاتٌ وجِد
مُطريّه، وصدحت ذِكْرِي مُنجيه . وكان يعلّز السلطان غياث الدين صاحب الروم
وغيّاهم وشمار سلطنة الروم قد بنى جميع ذلك في وطاة قريب الجوسق والبستان
المعروف بكُغُسرُو، وترجل الناس على اختلاف طبقاتهم في الركاب الشريف من
ملك وأمة ومأمور وأمير، وأرغمت الأصوات بالتهليل والتكبير :

رَبِّا الرُّومِ مِنْ رُجَى النُّوَائِلِ كُلِّهَا • لَدَيْهِ وَلَا تُرْجَى لَدَيْهِ الطَّوَائِلُ !

ونزل مولانا السلطان في تلك المضارب المعنونة لكرم الوقادة، وضربت توبة
سلجوق على باب يعليزه على العادة؛ وأذن مولانا السلطان للناس في التقرب إلى
شريف قُسطاطه، وتلمهم بنظره وأحياطه؛ وحضر أصحاب الملاهي، فما طَفَرُوا
بغير النواهي؛ وقيل لهم : أَرِجُوا وراءكم فاقبِسُوا، وأذهبوا إلى وادٍ غير هذا
الوادي فاقبِسُوا؛ فهذه الهاة لا تتفق هنا، وما هذا موضعُ الفناء بل هذا موضعُ
الفناء؛ وشرع مولانا السلطان في إغراق القلبي، ومين لكل جهة شخصاً وقال : أنت
هنا؛ وحكم وحكم، وعلم وعلم؛ وأحمد على الأمير سيف الدين جاليش في النباه،
وأعطى كلاً بيته كتابه؛ وأقام الحجة على من اتّرح بالاستعطاف، وتأمير من خاف؛
فما خرج كثيرهم عن الختالة، ولا زعيمهم عن المطاولة؛ فلما علم مولانا السلطان
أنهم لا يفلحون، ولغير التّار لا يصلحون؛ وأنهم إن أصبَحُوا على الطاعة لا يمسُونَ
وإن أَسْنَوْا لا يَصْبِحُونَ؛ عاد عن تلك الوعود، واختار أن مباداً إليه يعود، وأن
يبتّ نفسه إلى ما جئته الله إليه من المقام المحمود؛ فركب يوم الجمعة سابع عشر

ذی القعدة مستقبلاً من الله كل الخير ، ونصب جعفر بن سلجوق على رأسه فشهد
الناس منه صاحب القبة والسبع وصاحب القبة والطير ؛ ودخل قيصريّة في بكرة
هذا اليوم وكانت دار السلطنة قد فرشت لزووله ، وتمت بنى سلجوق وقد هيّ
لحلولة ؛ وهي دار تزهو ومنازل من يتعدّد أو متآزّه من يلهو ؛ أنيقة المبتغى ، تحف
بها بساتين عذبة الخى ؛ جذرائها بأحسن أصناف القاشاني مصفحة ، وباجل
فؤوسه مفرحة ؛ جلس مولانا السلطان في مرتبة الملك في أسعد وقت ، ونال
التخت بحلولة أسعد البخت :

وما كان هذا التخت من حين نصيه • لغير الملك الظاهر النذب يصلح .
ملكك على اسم الله ما تحب له • صوارمه البيض المواضي وتفتح .
أنته وفود الروم والكل قائل : • رأيناك تفوق عن كثير وتبضع .
فأوسمهم حلساً وبجاد لم تدى • وأمسوا على من وأمن وأصبحوا .
ولو أنهم لم يمتنعوا المنتكب • عن الحق والنهج القويم لأظفوا ،
ولكنهم أعطوا يداً فوقها يد • تصافح كفاً زندها النار قدح !!!

وأقبل الناس على مولانا السلطان يهنؤونه ، وعلى كفه الشريف يقبلونه ؛ وبعد
ذلك حضرت القضاة والفقهاء والمعلماء والصوفية ودور المراتب من أصحاب العاتم
على عادة بنى سلجوق في كل جمعة ، وقف أمير الحفل وهو كبير المقدار عندهم ، له
وسامة ونظامه ، وله أكبركم وأوسع عمامه ، وأخذ في ترتيب الحفل على قدر الأقدار ،
وأنتصب قائماً بين يدي مولانا السلطان منتظراً ما إليه به يسار ؛ وشرع القراء يقرءون
جميعاً وفردائى بأحسن تليين ، وأجل تحسين ، فانت أصواتهم بكل تحبيب ، وعدلوا
عن الترتيل إلى الترتيب . ولما قرءوا شرع أمير الحفل صارخاً ، وبكور فيه نافعاً ؛

فَانْتَدَ وَأُورِدَ بِالْقَارِيَّةِ مَا يُتَجَبُّ مَبْلُوءُهُ ، وَيَهْوَلُ مَقُولُهُ ؛ وَأَطَالَ وَمَا أَطَابَ ،
وَأَسْتَصَوَّبَ مِنْ يَعْرِفُ مَقَالَهُ قَوْلَهُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

وَلَمَّا أَقْضَى ذَلِكَ مَدَّ سِمَاطُ لَيْسَ يُنَاسِبُ هِمَّ الْمُلُوكِ ، فَاتَّكَلَ النَّاسُ مِنْهُ
لِلشَّرَفِ لَا لِلشَّرَفِ ، ثُمَّ عَادَ كُلُّ مِنْهُمْ إِلَى مَقَامِهِ فَوَقَّفَ ؛ وَقَامَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ إِلَى
مَكَانِ الْإِسْتِرَاحَةِ فَاقَامَ سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى حُجَّتِهِ قَرِيرَ الْعَيْنِ ؛ وَكَانَ بَدَارِ
الْمَلِكِ حَرَمُ السُّلْجُوقِيَّةِ قَدْ أَصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسْكَنَتَهُمْ وَمَسَاكِنَهُمْ ، قَدْ نَبَتْ بِهِمْ
مَوَاطِنُهُمْ وَمَوَاطِنُهُمْ ؛ عَلَى أَبْوَابِهِمْ أَشْمَالُ سُتُورٍ مِنْ حَرِيرٍ ، وَمَشَاجِيعُ خُدَّامٍ يَسْتَحِقُّ كُلُّ
مِنْهُمْ - لِكِبَرِ مَسْنَى - أَنْ يَدْعَى بِالْكَبِيرِ ؛ عَلَيْهِمْ ذِلَّةُ الْاِتِّكَارِ ، وَأَمَارَةُ الْاِئْتِقَارِ ؛
بِحَبَرِهِمْ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ وَأَتْسَهُمْ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ ؛ وَتَوَجَّهَ مِنْ تَوَجُّهِهِ إِلَى صَلَاةِ الْجُمُعَةِ
فِي قِبْصَرِيَّةٍ وَبِهَا سَبْعُ جُمُعٍ تُقَامُ ، وَبِهَا خُطْبَاءُ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ؛ فَصَلَّيْنَا فِي جَامِعِ
السُّلْطَانِ وَهُوَ جَامِعٌ عَلَى يَدَيْهِ عَلَى أَحْفَالِ مُلُوكِهَا بِيُوتِ عِبَادَتِهِمْ ؛ وَرَأَيْنَا فِيهِ مِنْ
دَلَائِلِ الْخَيْرِ مَا يَقْضَى بِحَسَنِ إِرَادَاتِهِمْ ؛ فَحَضَرَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَأَكَايَرُهَا ، وَجَلَسُوا حِلَقًا
لَا صُفُوفًا ، وَأَجْرُوا مِنَ الْبَحْثِ بِالْعَجْمَةِ صُنُوفًا ؛ وَاجْتَمَعَتْ جَمَاعَةٌ مِنْ حَفَظَةِ
الْكِتَابِ الْمَزِينِ فَتَخَارَبُوا الْقِرَاءَةَ آيَةً آيَةً ، وَهِيَ قِرَاءَةُ بَعِيدَةٍ عَنِ الدَّرَايَةِ ؛ بَلْ إِنَّمَا
تُبْرِزُهَا أَصْوَاتٌ مُرْتَعَةً ، وَالْحَنَانُ لَتَفْرِقَ الْكَلِمَاتِ مُقْسَمَةً ؛ يَنْظِقُونَ بِالْحُرُوفِ
كَيْفَ اتَّفَقَتْ ، وَلَا يَتَوَقَّفُونَ عَلَى عَوَارِجِ الْحُرُوفِ أَنَّمَا بِهَا نَطَقَتْ أَوْ لَا نَطَقَتْ .

فَلَمَّا آنَ وَقْتُ الْأَذَانِ قَامَ صَبِيٌّ عَلَيْهِ قَبَاءٌ مِنْ وَسْطِ جَمَاعَةٍ عَلَيْهِمْ أَقْيَةُ قَعُودٍ عَلَى
دِكَّةِ الْمُؤَذِّنِينَ ، فَابْتَدَأَ بِالتَّكْبِيرِ أَوَّلًا وَثَانِيًا بِمَقَرِّهِ مِنْ غَيْرِ إِعَانَةٍ وَلَا إِيَّانَةٍ . وَلَمَّا تَشَهَّدَ
سَاعَدُوهُ جَمِيعُهُمْ بِأَصْوَاتٍ مُجْتَمِعَةٍ مُطْلَعَةٍ ، وَتَنَاهَتْ مُتَوَنِّعَةً ؛ يُبَسِّحُونَ لَهُ النِّعَمَ بِأَحْسَنِ
تَلْمِيزٍ ، وَيَتَرَنَّمُونَ بِالْأَصْوَاتِ إِلَى آخِرِ التَّأْذِينَ ؛ وَفَرَعَ الْأَذَانُ وَكُلُّهُمْ قَعُودٌ مَا مِنْهُمْ

أحد غير الصبي وقف ، وما بنا أحد لأكلمة من الأذان صرف ، ولما فرغ الأذان
 طلع شيخ كبير السن يعرف بأمر غفل المتبر، فصعد إلى ذروة المتبر، وشرع في دماء
 لا تعرفه ، وأدعاء لا نألفه ، كأنه مخاصم ، أو يكمل شرع أحضره لمشادة خصمه
 محاكم بين يدي حاكم ، وطلع الخطيب بعد ذلك تخطب ودعا لمولانا السلطان بغير
 مشاركته ، ودعا الناس بما تلقته من الأقوال الملائكة ، وأتقصت الجمعة على هذه
 الصورة ، المنطوره ، وضربت السكة باسم مولانا السلطان ، وأحضرت الدراهم إليه
 في هذا اليوم ، فشاهدنا فرأى أوجهها باسمه الميمون ، وأقرب الأئمة بهذه
 النعمة وقوت العيون ، وشاهدت بقيارية مدارس وخواتم وربطاً تدل على اهتمام
 بآنها ، ورغبتهم في العلوم الشرعية والدنية ، مشيدة بأحسن الجهار المحرر المستقولة
 المنقوشة ، وأراضينا بأجل تلك مقروشه ، وأواوينها وصفها مؤزرة بالقاشاني
 الأجل صورة . وجميعها مقروشة باليسط الركبة والعالية . وفيها المياه الجارية .
 ولها الشبايك على البساتين الحسنة ، وسوق قصيرة طائف بها من حولها ، وليس
 داخل المدينة دكان ولا سوق .

والوزير في بلاد الروم جميعها يعرف بالصاحب «نور الدين خواجا علي» ولا يحسن
 الكتابة ولا الخط ، وخلصه من ممالكه خاصة ما تملوك ، ودخله في كل يوم -
 غير دخل أولاده وغير الإقطاعات التي له ولأولاده وخوآصه - سبعة آلاف درهم
 سلطانية . ولقد شاهدت في مدرسته من خيامه ونزكواته شيئاً لا يكون لأكثر
 الملوك ، وله بر ومعرفة ، وهو بالخير موصوف :

وَالْمُسَمَّونَ بِالْوَزِيرِ كَثِيرٌ * وَالْوَزِيرُ الَّذِي لَنَا لِلْمَأْمُولِ !

وَعَلَى هَذَا وَذَاكَ عَلَى . وَعَلَى هَذَا لَهُ التَّقْضِيلُ !

الذى زُلَّتْ عَنْهُ شَرْقًا وَغَرْبًا . * وَنَدَاهُ مُقَابِلِي لَا يَزُولُ !
وَمَعِيَ أَيْمَانًا سَلَكْتُكَ كَأَنِّي * كُلِّ وَجْهِ لَهُ بَوَاحِشٌ كَقَبِيلِ !

وَأَمَّا مُعِينُ الدِّينِ سُلَيْمَانُ الْبَرْوَانِيُّ وَزَوْجَتُهُ كُرْجِي سَاتُونُ ، فَظَهَرَا مِنْ التَّوَجُّدِ
الْبَاقِي لِلْيَمِينِ كُلِّ نَفِيسٍ ، وَبِحَمْدِ اللَّهِ اسْتَوَلَى مَوْلَانَا السُّلْطَانُ وَمَالِكُهُ مِنْ مَوْجُودِهِ
وَدَارِ زَوْجَتِهِ الْمَذْكُورَةِ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَصَرَّحَ بِقَبِيْسٍ .

وَلَمَّا أَقَامَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ بَقِيْعِيَّةَ هَذِهِ الْمَدَّةِ ، فَكَّرَ فِي أَمْرِ عَاكِرِهِ وَمَصَالِحِهِ
بِمَا لَا يَتَغَيَّرُ سِوَاهُ ، وَنَظَرَ فِي سَالِمٍ بِمَا أَرَاهُ اللَّهُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَقْوَاتَ قَلَّتْ ،
وَالشُّبُوقَ مِنَ الْمَصَارَعَةِ مَلَّتْ ، وَالسَّوَادَ مِنَ الْمَصَادِمَةِ كَلَّتْ ؛ وَأَنَّهُ مَا بَقِيَ فِي الرُّومِ
مِنَ الْكُفَّارِ مَنْ يُعْزَى ، وَلَا يَجْزَاهُ السُّوءُ يُجْزَى ؛ وَلَا بَقِيَ فِي الْبِلَادِ غَيْرُ رَعَايَا كَالسَّوَامِ
الْحَامِلَةِ ، وَلَا دِيَّةٍ - لِلْكُفْرِ مِنْهُمْ - عَلَى عَائِلٍ وَعَاقِلَةٍ ؛ وَأَنَّهُ إِنْ أَقَامَ فَلَا يَلِدُ لَا تَعْمَلُ ،
وَمَوَادُّ بَلَادِهِ لَا تَصِلُ ، وَأَعْشَابُ الرُّومِ بِالذُّوسِ قَدْ أَضْمَحَلَّتْ ، وَعُلُوفَاتُهَا قَدْ قَلَّتْ ؛
وَزُرُوعُهَا لَا تُرْتَجَى لِكِفَايَةِ ، وَلَا تَرْضَى خِيُولُ السَّيَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ بِمَا تَرْضَى بِهِ خِيُولُ
الرُّومِ مِنَ الرَّغْيِ وَالرَّعَايَةِ ؛ وَأَنَّ الْحَسَامَ الصَّقِيلَ الَّذِي قُتِلَ الْخِتَارُ بِهِ فِي يَدِ الْقَائِلِ ،
وَأَنَّهُمْ إِنْ كَانَ أَحْجَبُهُمْ غَائِمُهُمْ فَيَمُودُونَ إِلَى الرُّومِ فِي قَائِلٍ .

وَرَحَلَ فِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ عِشْرِينَ مِنْ ذِي الْقَعْلَةِ بَعْدَ أَنْ أَعْطَى أَهْرَاءَهُ وَخَوَاصَّهُ
كُلَّ مَا أَحْضَرُوا إِلَيْهِ مِنَ الْأَعْنَةِ وَالْأَزْمَةِ ، وَكُلَّ مَا يُطْلَقُ عَلَى تَوَلِيهِ أَتَمَّ النِّعْمَةِ ، فَتَرَلَّ
بِمَنْزِلَةٍ خَرَفَ بِمَتَرَلَا فِي هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ وَرَدَّ إِلَى السُّلْطَانِ رَسُولٌ مِنْ جِهَةِ هَيْبَتِ الدِّينِ
سُلْطَانِ الرُّومِ ، وَمِنْ جِهَةِ الْبَرْوَانِيِّ وَالْكَبَرَاءِ الَّذِينَ مَعَهُ ، يُسَمَّى ظَهِيرُ الدِّينِ التُّرْكْمَانِ ،
وَفِي الْحَقِيقَةِ هُوَ مِنْ عِنْدِ الْبَرْوَانِيِّ ، يَسْتَوْقِفُ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ عَنِ الْحَرْكِ وَمَا عَلِمُوا
إِلَى أَيْنَ ، بَلْ كَانَ الْأَمْرُ شَائِعًا بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ الْحَرْكَ إِلَى جِهَةِ سَيَاسٍ . فَتَدَدَ مَوْلَانَا
السُّلْطَانُ عَلَيْهِ حُسْنَ وَقَائِهِ بِهَيْدِهِ ، وَأَنَّهُ أَجَابَ دُعَاءَهُمْ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ مِنْ أَقْصَى

مُلْكُهُ مَعَ بَيْتِهِ، وَأَنَّهُمْ مَا وَفَّقُوا عِنْدَ الشَّرْطِ الْمُقَرَّرِ، وَلَا وَفَّقُوا بِمَضْمُونِ الرِّسَالِ
الْمُسَيَّرِ، وَأَنَّهُمْ لَمَّا جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ طَلَبُوا نَظْرَةَ الْإِلَهِ مُهَيَّزَةً، وَأَنَّهُمْ
لِلْكَفَرِ سُلَّيْهٌ، وَأَنَّهُمْ مِنْذُ اسْتِيلَاءِ النَّارِ لَهُمْ أَصْحَابُ الْمَشَايِخِ، وَطَمَّ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ
أَن يَلِدَ الرُّومَ مَا يَهَابُ عَسْكَرَ يَسْتَنْصِلُهُ لِنَفْسِهِ، وَلَا مَنْ يُقَابِلُ الْمُغْلَ فِي غَدِهِ خَوْفًا
مِمَّا شَاهَدَهُ كُلِّ مَنْهُمُ فِي أَمْسِهِ، وَأَنَّهُمْ أَهْلُ الْإِنْفَادِ، لَا أَهْلُ نَقَازٍ، وَأَهْلُ طَرَبٍ،
لَا أَهْلُ حَرْبٍ [وَعُظْبٍ]، وَأَهْلُ طَبِيعَةِ عَيْشٍ، لَا قُوَادِمَ جَيْشٍ، فَرَدَّ السُّلْطَانُ إِلَى سُلَيْمَانَ
الْبَرْوَانَةِ مَدِّ يَدِهِ، وَقَالَ: قُلْ لَهُ: إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ الرُّومَ وَطَرَقَاتِهَا، وَأَخَذْتُ أَنَّهُ
أَسِيرَةٌ وَأَبْنُ بَيْتِهِ وَوَلَدُهُ، وَبِكَيْفِيَّتِهَا مَابِرِئٌ مِنَ النَّصْرِ الْوَجِيزِ، (وَلْيَنْصَرِّ اللَّهُ مَنْ يَنْصَرُهُ
إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) وَمَا كُلُّ مَنْ قَفَى فَرِيضَةَ الْحُجِّ حَيْثُ عَلَيْهِ الْمُبَاوَرَةُ، وَلَا بَعْدَ
هَذِهِ الْمُنَاصَرَةِ مُنَاصَرَهُ، وَلَا بَعْدَ هَذِهِ الْمُبَاوَرَةِ مُحَاوَرَهُ، وَنَحْنُ قَدْ أَبْتَنَيْتُمَا إِنَّمَا اللَّهُ:
مَنْ حَقَّنَ دِمَاءَ أَهْلِ الرُّومِ وَصَدَّمَ نَهَبَ أَمْوَالِهِمُ الدَّارَ الْآخِرَةَ، وَتَرْتَدُّهَا عَنْ أَمْوَالِكُمْ
لِلنَّارِ تَسْتَحْيِيهَا، وَمَقَارِمَ كَثِيرَةٍ هِيَ لَمْ يَمِنْ مِنَ الْخَنَائِطِ مَقَامُهَا بِأَخْذِهَا حِينَ يَأْخُذُونَهَا،
وَمَا كَانَتْ جُلُوسًا فِي تَحْتِ سُلْطَانِكُمْ لَزِيَادَةِ بَقِيَّتِ آلِ سُلْجُوقٍ، إِلَّا لِنُفْلِكِكُمْ أَنَّهُ
لَا عَائِقُ لَنَا عَنْ أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ يَحُوقُ، وَأَنْ أَحَدًا لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْمَنَ لَنَا سَطْوَهُ،
وَلْيَتَحَقَّقْ كُلُّ أَنْ كُلِّ مَسَافَةٍ جُمُعَةً لَنَا خَطْوُهُ، وَوُجُوبًا - بِحَمْدِ اللَّهِ - أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ
التَّخَتِ جَلَالًا، وَأَرْفَعُ مَنَالًا، وَكَمْ فِي مَمَالِكِنَا كَرَامِي مُلْكٍ نَحْنُ آيَةُ ذَلِكَ الْكَرَمِيِّ،
وَكَمْ لَنَا قَتْعُ كُلِّ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - فِي الْإِنْفَادِ الْفَتْحِ الْقُدْسِيِّ.

مَنْ كَانَ فَوْقَ عَمَلِ الشَّمْسِ مَوْضِعُهُ * فَلَيْسَ يَرْقُبُهُ شَيْءٌ وَلَا يَضَعُ!

وَأَسْتَحَبَّ السُّلْطَانُ مَعَهُ تَحْتَ الرِّضَا وَالْعَفْوِ مِنْ أَكْبَارِ الرُّومِيِّينَ - الْأَمِيرِ
سَيِّفِ الدِّينِ جَالِيشِ الْهَائِبِ بِالرُّومِ، وَهُوَ رَجُلٌ شَيْخٌ نِيَّةً لَهُ اشْتَغَالٌ بِلِمْ، وَكَانَ لَهُ

في الروم صورة، وهو أمير تاري من أمير الظالمين . واستصحب ظهير الدين موح (٤) مشرف الممالك، ومرتبته دون الوزارة وفيه فضل، ونسخ كثيراً من العلوم بخطه، مثل الصبح في مجلد واحد، وغير ذلك . واستصحب الأمير نظام الدين أوحده ابن شرف الدين بن الخطير، وإخوته وجماعته وجماعة والده، وأولاد عمه ضياء الدين بن الخطير المستشهد رحمه الله .

واستصحب من الأمراء : الأمير مظفر الدين عاف (٥) والأمير سيف الدين بكبكيا الجاشنكير، والأمير نور الدين المنجيني، وأصحاب ملطية أولاد رشيد الدين أمير عارض، وهم : كمال الدين وإخوته، وأمير علي صاحب كركر .

واستصحب قاضي القضاة بملطية، وهو القاضي حسام الدين ابن قاضي العسكرا، ووالده الذي كان يرسل عن السلطان علاء الدين إلى الملوك، وهو رجل عالم فاضل . وأكثر هؤلاء حضروا بيوتهم ونسائهم وغلمانهم وحفنتهم .

والذين حضروا تحت الفضب . ولد البرواناه المذكور، وولد خواجا يونس، وهو ابن بنت البرواناه، ووالدة البرواناه . والأمير نور الدين جاجا، وهو أكبر أمراء الروم أصحاب التهمة والنعم، والأمير قطب الدين أحمد أخو الأتابك، والأمير سيف الدين سقز حاه الروناسي، والأمير سراج الدين إسماعيل بن جاجا، والأمير نصر الدين صاحب سيواس، والأمير كمال الدين عارض الجوش، والأمير حسام الدين ركاوك قريب البرواناه، والأمير سيف الدين الجاويش، والأمير سراج الدين أخو حسام الدين، والأمير شهاب الدين غازي بن علي شير التركاني .

ومن المل : مقدمي الألف والمآت - زيرك وسرطاق، وحنوكه، وسركده وتماده (٥) .

ثم رحل السلطان في اليوم الثاني وتزل بمنزلة قريب خان السلطان ملاه الدين كيقباز، ويرفد بكرواتى صراى . وهذا الخان بنى عظمة من نسيه خان قرطاي، وله أوقاف عظيمة . ومن جملة ما وجد قريبا منه أفراد كثيرة من الأغنام عقت فيها الماكر المنصورة، سالت عنها قهيل : إنها وقفت على هذا الخان يذبح نتائجها للواردين على هذا الخان، وهذه الأغنام له من جملة الوقوف، قدر الله أن ينفقها جملة لما كثرت على هذا الخان من الجيوش المنصورة الضيوف .

ورحلنا في اليوم الثالث وهو يوم الأربعاء ثاني عشرين من الشهر، وزلنا في وطأة عادة التار يتلون بها تسمى روران كودلوا، وكودلوا اسم جبال تلك الوطأة .

ورحلنا في يوم الخميس ثالث عشرين من ذي القعدة، فعارضا بها - في وطأة خلف حصن تتندو من طريق غير الطريق التي نكنا توجهنا منها - نهر يعرف بنهر قزل صو، قريب كودلوا الصغير . ومعنى قزل صو النهر الأحمر، وهذا النهر صعب المفاض، واسع الاعتراض، عالي المنهبط، زلق المنقط، مرجع المرقق، بيد المستقى، لا يجد السالك من أحوال حاقبه إلا صعيدا زلقا، فوقف مولانا السلطان بنفسه، وجرد سيفه بيده، وبانثر العمل بنفسه هو وجميع خواصه، حتى تبأ المكان جميعه، ووقف راجلا يبر الناس أولا فأولا : من كبير وصغير وغلام، وهو في أثناء ذلك يكر على من يزدحم، ويكرر التأديب لمن يطلب بأذنه رقيقه ويقطع، وما زال من رابعة هذا النهار إلى الساعة الثامنة حتى عبرت الناس سالمين . ولما خفت البرور، ولم يبق إلا المروء، ركب فرسه وعبر الماء والألينة له فاعبه، وعليه من الله وأقية باقية، قزل في واد هناك به مرعى ولا كالسدنان، ومرأى ولا كشعب بوان .

ثم رحل في يوم الجمعة فقتل عند صحرات قراجار حصار، وهي قرية كانت عامرة فيها معنى، قرية من هدرجال (٩) قبيلة بازابلو، وهذا البازار هو الذي كانت الخلائق تجتمع إليه من أقطار الأرض، ويأج فيه كل شيء يجلب من الأقاليم، ويقرب من كودلوا الكبير.

وسمنا في يوم السبت سواق طول النهار، حتى نزلنا في ولاة الأبلستين، وفي هذا النهار عبر مولانا السلطان - نصره الله - على مكان المعركة لمشاهدة أتم النار، وكيف تعاقبت عليهم من العيان كوايسرها، وكف بأسم من الفسور مناسرها، وكيف أصبحوا لا ينسبهم إلا اليوم، وتحققوا أن آلى أهلكتهم ذرق الأيسنة لا ذرق الروم، فرأى لمن بقي غيره، وعرضوا على ربهم صفاً وياؤوه كما خلقوا أول مرة، وأبصر الرياح لأشلائهم متخطفه، والمؤام في أجسادهم متصرفه، وشاهدتم وقد هلكهم كل شيء حتى الوحوش والرياح: فهذه من صديدهم متكرمة وهذه عليهم متقصفة.

قد سوتت عجم الجبال شعورهم * فكأن فيه ميسفة الغريبات!

ولما طابهم مولانا السلطان وعانهم الناس، أكتفوا شكره على هذه النعم التي امتت لكافة الكفر كافة وشالة وداره، وأثنوا على منته التي سنت إليهم خيار الصاكر المنصورة حتى أصبحت تلك الأرض بهم بارزة، وحضرت من أهل الأبلستين هتلك جماعة من أهل التقي والدين، واستخبرهم مولانا السلطان عن حلة قتل المغيل فقالوا: (فأسأل المآدين)؛ فاستفهم من كبيرهم عن حلة المغيل كم من قيل، قال: (قل الله أعلم بصحتهم ما يعلمهم إلا قليل) وقال بعضهم من عثم ومن عنده علم من الكتاب: أنا عدت ستة آلاف وسبعمائة وسبعين قرأ وضاع

(٩) مأخوذ من قولهم من الإبل ساقها سواقاً مربها .

الحِصَاب ؛ هذا : غير من آوئى إلى جَبَلِي يَمِصُّهُ من مَاءِ السُّيُوفِ فَمَا عَصَمَهُ ،
وغير من أَعْقَدَ أن قَرَسَهُ تُسَلِّمُهُ فَنَسَلَهُ ؛ فَتَرَكَهُمْ مولانا السُّلْطَانُ ومضى والقُلُوبُ
مَزْرَعَةٌ لِلْحُسُومِ ، والدُّودُ سَلَانُهَا مُؤَمِّنَةٌ وهم كُفَّارٌ قد أثَّرتْ كَالنَّوَاسِرِ في حُومِهِمْ ؛
فرم مولانا السُّلْطَانُ بِنَقْصَمِ الْأَهْهَالِ والحُرَّاسِ والدَّهْلِيزِ الْمُتَنَصُّورِ مَحْبَبَةِ الْأَمِيرِ
بَدْرُ الدِّينِ الْخَزَنْدَارِ ، والسُّخُولِ في أَلْفِهِ دَرِينْدَه ، وأقام مولانا السُّلْطَانُ في سَاقَةِ الْمَسْكَرِ
الْمُتَنَصُّورِ بَقِيَّةَ يَوْمِ السَّبْتِ ويومِ الْأَحَدِ :

فهو يَوْمُ الطَّرَادِ أَوَّلُ سَابِقٍ • وهو يَوْمُ الْقُفُولِ آخِرُ سَابِقٍ !

وَأَتَنَقَّرُ في هَذَيْنِ الْيَوْمَيْنِ صَيِّدًا مِنَ الصَّدَوِيِّينَ ، وما من دِيْمَاعِمٍ إلى السَّيْفِ يَمِخُ ؛
فَلَمَّا لم يَجِدْ أَحَدًا رَحَلَ في يَوْمِ الْأَثْنَيْنِ قَتَلَ قَرِيبًا من الْغُلَّانِ الَّذِي في الدَّرْبِنْدِ ، وَوَكَبَ
يَوْمَ الْاَثْنَيْنِ من طَرِيقِي غيرَ الَّذِي حَضَرَ مِنْهَا ، فَسَلَكَ طَرِيقًا من الْإِفْطَارِ قَبَسًا ، وَسَلَكَ
من قَلَّالِ الْجِبَالِ في هَضَابٍ كَأَنَّ كُلًّا مِنْهَا أَلْفٌ حَمَلَتْ من الْأَنْجُمِ قَبَسًا ؛ فَغَامَسَ الْعَالَمُ
في هَذَا الْيَوْمِ من الشَّتَةِ مَا لَا يَدْخُلُ في قِيَاسِ ، وَكَادُوا يَهْلِكُونَ لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ
تَدَارَكَ النَّاسَ ؛ فَسَاقَبُوا وَلَكِنْ عَلَى مِثْلِ حَدِّ السَّيْفِ ، وَتَسَلَّلُوا وَلَكِنْ سَلَّ حَوَافِرِ
الْخَيْلِ كَيْفَ ؟ ، وَهَبَطُوا من جِبَالٍ يَسْتَصْنِعُهَا كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى طَارِقُ الطُّغَيْفِ ؛
يَسْتَصْنَعُ الْعَجْرُ الْمُخَلَّقُ من شَاهِقٍ وَتُؤَمِّعُهُ في عَقَابِهَا ، وَيَسْتَوِيلُ النُّجْمُ النَّاقِبُ تَرَفُّعَ
شِعَابِهَا ؛ بِالْقُرْبِ مِنْهَا جَبَلٌ شَاهِقٌ يُعْرَفُ بِسَقَرٍ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ، لَا يَبْقَى عَلَى نَتْنِهِ
من الدُّوَابِّ وَلَا يَدْرُ لَهُ عَقَّةٌ لَوْاحَةٌ لِلشَّيْءِ ؛ أَطَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُحْطِ مِنْهَا ، وَفَازَ بِمَشْنَةِ
اللَّهِ وَبِسَادَةِ مولانا السُّلْطَانِ من زُنُجَحِ عَنْهَا ؛ وَعَلَيْنَا كَوَكُومُوا وَهُوَ النَّهْرُ الْأَزْرَقُ ،
وَبَاتَ مولانا السُّلْطَانُ هُنَاكَ ، وَكَانَ قَضِيمُ الْخَيَالِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَرَقَ الْبُلُوطُ ، إِلَّا مِنْ
أَمَسَتْ عَنَايَةُ اللَّهِ أَنْ تُبَسَّرَ في شَعِيرٍ بِخَمْسَةِ عَشَرَ دَرَاهِمًا كُلُّ مَدٍّ يَحُوطُ .

ورحل مولانا السلطان في يوم الأربعاء تاسع عشرين من ذي القعدة فزل قريب
كسول(?) المقسم ذكروا، وعدل إلى طريق مَرَعَش فزال مجد الله الداعي، وقالوا
للتشيعر: ما بيننا لك مُحَايِبٌ ولا بيننا فيك بماله مُحَايِرٌ، والقبول قد حصل لك
في مصر الربيع الأول في شعبان وفي الشام في ذي الحجة الربيع الآخر، فأرغمت
لا يرعوها أصحاب الموازين في تلك المساجد، وأشهرت في مروج يتأسف عليها
أبن المساجد(?)؛ وقسم مولانا السلطان تلك الأعشاب كما تقسمت في آفاق السماء
النجوم، وأوقف كل أحد في مقام حتى قال: ﴿وَمَا بَيْنَا إِلَّا لَهْمًا مَعْلُومٌ﴾، فكف
هناك من مروج أعشبت فأعجبت، وأنجابت السماء عنها فأعجبت، وأرقت
على زهر النجوم فاهترت وروبت:

يَصُدُّ الشَّمْسَ إِنِّي وَاجِهَتَا * فَيَخْجُبُهَا وَيَأْذِنُ لِلنَّسِيمِ!

يَقْلَعُهَا هُنَاكَ أَرْعُ الْحِيَاضَ، وَيَلْهُو بِهَا كُلُّ شَيْءٍ فَكَمْ قَصَفَ الْعَاصِيَ بِهَا
فِي تِلْكَ الرِّيَاضِ.

هَذَا كُلُّهُ: وَخَيْرٌ مِنْ أَرْزَنْجَانٍ، حَارَّةٍ بَرَجَوَانٍ؛ وَخَيْرٌ مِنْ أَرْضِي تَوْرِيذٍ، قِطْعَةٍ
مِنَ الْبَلِيذِ؛ وَكَوْمٌ مِنْ كِيَانٍ مَسْفُطٍ مَيْثُومٍ، خَيْرٌ مِنْ قَصْرِ فِي قَيْصَرِيَّةِ الرُّومِ؛ وَنَظَرَةٌ
إِلَى الْمِقْيَاسِ، خَيْرٌ مِنْ سِيَوَاسٍ؛ وَمَنَاطِرُ الْهَوَا، خَيْرٌ مِنْ كَيْفِيَاذِ آلِ سَلْجُوقٍ؛ وَرَبَّةٌ
مِنْ تَرْبِ الْقَرَوَاقِ، خَيْرٌ مِنْ مَرْوَجِ الْعَرَاغِ؛ وَشَبْرٌ مِنْ شَبْرَا، خَيْرٌ مِنْ سَطَا وَصَرَا(?)
وَجُلُوسٌ فِي بَابِ دَارِكَ خَيْرٌ * مِنْ جُلُوسٍ فِي [بَابِ] إِيوَانٍ كَسْرِي،

وَأَنْتَاحِي لِنُورِ وَجْهِكَ خَيْرٌ * لِي مِنْ أَنْتِي أَشَاهِدُ بَدْرًا!

يَاوَلِيَا يُسَوِّى الْأَيَادِي سِرًّا، وَوَزِيرًا فَلَيْسَ يَكْتَسِبُ وَزْرًا:

مَا رَأَيْنَا وَاقِعَ فِيمَنْ رَأَيْنَا * لَكَ مِثْلًا مِنَ الْبَرِيَّةِ طَرَا.

كَمْ خَبَرْنَا الرَّجُلَ فِي كُلِّ أَرْضٍ • فَلَمَّا أَنْتَ أَغْظَمُ الْخَلْقِ قَسَدُوا!
كَمْ قُلَانٍ قَالُوا وَقَالُوا فُلَانًا • فَلَمَّا النَّاسُ دُونَ عَلَيْكَ حَسَرُوا.
لَكَ مَدْحٌ قَدْ طَبِقَ الْأَرْضُ سُبْحًا • نَ لِلَّهِ بِهِ إِلَى النَّاسِ أَسْرَى!
مَا رَأَيْنَا مِثْرًا يَمْضِرُ وَلَا مِثْرًا يَنْفُكُ • وَالْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا!

الضرب الثاني

(من الرسائل الملوكية رسائل الصيد)

وهذه نسخة رسالة في صيد السلطان الشهيد الملك الناصر بن السلطان الشهيد
الملك المنصور «قلاوون» من إنشاء القاضي تاج الدين البارباري، وهي :
الحمد لله الذي نعم النعموس الشريعة بإدراك الظفر، وأتم على هذه الأمة بمعهد
الذي أنار كوكب نصيره وسفر، وشرع لما على لسان نبيها صلى الله عليه وسلم النعمة
في السفر، وأضعف هذه الدولة الشريعة بدوام سلطانها الذي حُفَّتْ أيامه بالبر
والثبوت والظفر .

نحمد على أن أقر الميون بفضلها بما أقر، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له شهادة أن لا إله إلا الله، وكُتِبَتْ أسبابها فلا يَحْسَبُ بها إلا أعز فرقي ونقر،
ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أعز من آمن وأذل من كفر، صلى الله عليه
وعلى آله وأصحابه الذين تجاوزوا الله عن ذنوبهم وغفر، وسلم تسلياً .

وبعد، فإن في ابتغاء النصر ملاذاً تُدْرِكُهَا كُلُّ ذَاتٍ شَرَفَتْ، وتَحْلِكُهَا السَّجَايا
التي تصارفت بالتمحار وأتلفت، وتَأَلَّفَ النعموس التي مالت إلى البر وإلى تلقائه

صُرِّقَتْ ؛ وَتَشْتَوُّهَا مِنْ حَالَتَيْنِ : إِمَّا فِي مَوْقِفٍ عِزٍّ عِنْدَ مَا تَلْعَقُ بُرُوقُ الصَّفَاحِ ، وَتَنْسِبُ مِنْ هَوْلِ الْحَرْبِ رُغُوسَ الرَّمَحِ ، وَتَسْرِحُ جَوَارِحُ النَّبَالِ لِيَعْمَلَ فِي الْجَوَارِحِ وَتَصِيدَ فِي الْأَرْوَاحِ ؛ وَإِمَّا فِي مَوْطِنٍ يَلْمُ عِنْدَ مَا تَهَيَّطُ النُّفُوسُ إِلَى امْتِنَاءِ صَهَوَاتِ الْجِيَادِ فِي الْأَمْنِ وَالِدَعَةِ ، وَتَنْشِرُ الصُّدُورُ إِلَى مَاعِطَةِ الصُّيُودِ وَالْمَسَرَّاتِ مُجْتَمِعَةٍ ، وَتُطْلَقُ الْبُرَاةُ قَصِيدٍ ، وَتَتَصَرَّفُ بِأَمْرِ الْمُلُوكِ الصَّيْدِ ؛ وَتُرْسَلُ الْحَوَايِ الْمُسَكَّةُ ، وَتُلْقَى عَلَى مَا سَنَعَ مِنَ الْوَحْشِ فَلَا تُرَى إِلَّا مُدْرِكُهُ ؛ وَتَهَاضُ حَيْثُذِ النِّمِّ السُّلْطَانِيَّةُ وَتُجَزَلُ مَوَاهِبُهَا ، وَتُلَوِّحُ الْعَصَابَةُ الشَّرِيفَةُ وَتَبْمُتُ مَوَاقِبُهَا .

وكان الله تعالى قد جمع لِقَوَافِ الشَّرِيفَةِ ، الْمُعْظَمَةِ ، السُّلْطَانِيَّةِ ، الْمَلِكِيَّةِ ، النَّاصِرِيَّةِ ، خَلَدَ اللَّهُ سُلْطَانَهَا - سَعَادَةَ الْحَالَتَيْنِ حَرْبًا وَسِلَاحًا ، وَأَتَاهُ فِيهِمَا النَّصْرُ الْأَرْقَ وَالْعِزُّ الْأَمْنِيُّ ؛ وَوَسَّمَ بِصَفَاتِهِ وَحَزَمَاتِهِ الْأَمْرَيْنِ وَشَمًا ، وَنَصَرَهُ نَعْمًا وَعَظَّمَهُ ثِمَّةً وَشَرَفَهُ انْشِمًا ؛ فَأَيَّامُ حُرُوبِهِ كُلُّهَا رِيفَةٌ وَأَنْصَارُ ، وَأَسْتِيْلَاءُ وَأَسْتِظْهَارُ ، وَقُوَّةٌ تَعْمِيهَا بِهَا الْمُؤْمِنُونَ وَتَقْنَى الْكُفَّارُ ؛ وَأَيَّامُ سَلَامِهِ كُلُّهَا عَدْلٌ وَهَبَةٌ ، وَصَدَقَاتٌ مُنْجِيَةٌ مُنْجِيَةٌ ، وَرَقْعٌ ظُلَامَاتٍ مُنْشَعِبَةٍ ؛ وَقَرَعُ نُّفُوسٍ مُتَوَبِّهِ ؛ وَحَسَمَ خُطُوبٍ مُسْتَدَّةٍ ، وَحَفِظَ الْحَوِزَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ مِنْ كُلِّ بَاسٍ وَوَقَاتَهَا مِنْ كُلِّ شِدَّةٍ ؛ وَفِي خِلَالِ كُلِّ عَامٍ تُصَرَّفُ عَزَائِمُهُ الشَّرِيفَةُ إِلَى ابْتِنَاءِ صَيْدِ الْوَحْشِ وَالطَّيْرِ : لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَمَرُّينِ النُّفُوسِ عَلَى اكْتِسَابِ التَّائِيْدِ ، وَحُصُولِ الْمَسَرَّةِ بِكُلِّ طَفْرِ جَدِيدٍ ؛ فَيَرْتَمُ - خَلَدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَرْتَمُ بِهِ مِنْ مَشَقِّ كُلِّ عَامٍ بِإِنْجَارِ الْعُظَلِيِّ الْمُتَصَوِّرِ فَيَنْصَبُ فِي بَرَالِخِيَةِ بَسْفِجِ الْحَرَمِ ، فِي سَاعَةِ مُبَارَكَةِ آخِلِيَّةٍ فِي إِقْبَالِ الْجُودِ وَالْكَرَمِ ، فَنَمُوذُ بِأَتَائِدِ أَطْنَاهُ ، وَتُرْفَعُ عَلَى عَمْدِ التَّصَرِّيَاةِ ، وَيُحَاطُ بِمِرَاسِيَةِ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ رِحَابُهُ ؛ وَتَضْرِبُ خِيَامُ الْأَمْرَاءِ حَوْلَهُ وَطَاقَا ، وَتَحْفُفُ بِهِ [مِثْلُ] النُّجُومِ بِالْبَدْرِ إِشْرَاقًا ؛ وَيَسْتَقِلُّ الرُّكَّابُ الشَّرِيفُ - شَرَفَهُ اللَّهُ - بَعْدَ ذَلِكَ بِقَصْدِ عُبُورِ النَّيْلِ الْمُبَارَكِ فَيُظْهَرُ

من القلعة المحروسة والسلامة تحببه من الخائف، والحراسة تصعبه فيا قُرب وتأي من المسافة، ولسان السميد قد خاطبه بالضيعة وشائه؛ ومما ليك الأمراء قد حُفوا به أطلابا، ومنى موكبه قد بعت أمامه من الإضامة نجابا؛ ولم يزل حتى ياتي النيل المبارك ويستوي على الكرسي في الفلك المشحون، تحوطا بالنصر الميمون والجيش المأمون، وقد استبشر بانغلايه البحر والنون، وأضحى لظفر الفلك من الفضار [بحضرته] المكرمه، مالمهوات أجياده العناق المسومة؛ فلهذا نشر أعلام بشرها، وقال: ﴿أَرْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ جُرَاحًا وَمُرْسَاً﴾، فسارت به في اليم، ونصر الله قد تم، وصعد من فلكه، على مايسر نفوس المؤمنين في كمال سلطانه وعزة ملكه؛ واستقر على جواد شرفت صهوته، وقرئت بالآثاة والسكون خطوته؛ عرني النجار، يخال في سيره كأنما أنتهى من القار:

ويخال بك الطرف * كأن الطرف تشوان.

ترى الطرف درى أو ليس يدرى أنك سلطان!

وسار في زرويع محضره، وفور نبات مقتره؛ وقد طلعت للظفر شوسه وبؤره، وأضئت للصيد بزائه وصقوره؛ من كل متوقد الخط من الشهاه، محول على الراحات من قوط الكرامه؛ يتوسم فيه النجاج، قبل خفي الجناح، ويخرج من جو السماء ولا حرج ولا جناح؛ وبازها الأشهب، يبي بالظفر ويذهب بصدر مقضض وناظر، منذهب؛ له ينسرقنى، طالع اغنى، كأنما هو شب السنان وقد حياه الكفا طلع:

وصارم في يدك منصليت * إن كان للسيف في الوعى روح،

متقيد الخط من شهاهيه * فالحو من ناظره مجروح!

قد راح النجج جناحه، وقرن الله باليمن قُدَّوه ورواحه، ونصره في حربه حيث
جمل منسره رُحمه وعجله صفاحه؛ في قوايده السعد قديم، وفي خوافيه النصر
ظاهِر المالم؛ كأنما ألم قوله صل الله عليه وسلم: «بورك لأثني في بُكورها»،
فيسرح والطير جائنة في وُكورها، ويخرج إغياش السحر وطيه سواد، فيأبه
الصالح في الجو والباعث في الواد؛ ويأمر - خلد الله سلطانه - أمراءه فيغيرون
على الطير حلقه وهي لأهية في انقطاع حبها، غافلة عما يراد بها، فيدعرونها بمفق
الطبول وضربها، ومولانا السلطان - خلد الله ملكه - لناقها مرقب، ولطيرها
بالخارج مقب، فما يذو الكركي مقرورا، حتى يشوب مقهورا؛ ساقطا من
سماته إلى أرضه، ومن سمته إلى قبضه، فنباح من خلق كل جنس وقهر بعضه
ببعضه؛ هذا: والجارج قد أنشأ فيه محالیه، وسد عليه سبله في جو السماء
ومناجیه؛ ولم يزل - خلد الله تعالى سلطانه - عامه يومه متوقفا في النجج بلدات
صوبه، وأوقات سُعوده؛ وحصول آربه ومقصوده، وجنود الملائكة حافون به
ويجنوده؛ حتى ينسخ النهار الليل بظلماته، وتلمع الطارق بأضوائه؛ فيعود عند
ذلك الركاب الشريف إلى الخيم المنصور والجوارح كالسبه، والأفئاد وإهيه؛
والجوارح مسروره، والطير مأسوره، والثغوس مُتمعه، والمواهب منومه، والأرجاء
مُضموعة، والله تعالى مع سلطانه بجلالته: «ومن كان مع الله كان الله معه»؛ فيرفع
أمامه قانونان توهمان، كأنهما كوكبان بينهما اقتران، أو قرقطان رفعتما بلدان، فيدنو
إلى تخيمه المنصور في سُرادي الز الحنيل، وعصاية النصر الأمل، وتجرجل الانصار
قبل فسطاطه المعظم على قدر ميل؛ ويسعى بالشموخ لتلقيه، ويسوي تحت الملك
لترقيته؛ فعند ذلك يطوف بالدهليز المنصور أمراء الحرس بالشموخ المرفوعة،
والمزاهر المسنوعة؛ فإذا طلع القجر سُتعللا، وجاء الصبح شيئا قليلا؛ عُرِضت

عليه التَّم فاعطاه ، والمُهَمَّات الإسلامية قَضَاهَا ، وقُلَّتْ له الحِبَادُ المُسَوِّمَة
فاتطاعها ؛ وِسرَحُ إلى الصَّيْد والجوارح التي صَادَتْ بِالْأَمْسِ قد أَسْتَأْذَنْتْ ،
وَبَسَادَتِهِ إلى ظَفَرِهَا قد أُرْشِدَتْ ؛ فإِذَا سَارَ رِكَابُهُ الشَّرِيفُ نَزَلَتْ عَلَى أَرْتِه عَسَاكِرُ
الإِسْلَام ، وقُوِّضَتْ تِلْكَ الْخِيَامُ كَانَهَا الْأَيَّامُ .

ولم يَرَحْ ذَاكَ ذَابَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ حَرَكَتِهِ حَتَّى يَأْخُذَ حَفْلَهُ مِنْ صَيْدِ الطَّيْرِ ،
فَعِنْدَ ذَلِكَ يَنْتَهِي حَيَاتُ السَّيْرِ ؛ إِلَى اكْتِنَاصِ الْوَحْشِ فَيَعُدُّ لِإِنْسَاكِهَا كُلِّ هَيْكَلٍ قَيْدَ
الْأَوْبَادِ ، قَدْ عَدَّ الْخَلْقَ بِنَاصِيَتِهِ فَاصْبَحَ حَسَنَ الْمَعَاقِدِ .

فَمَنْ أَشْتَبَ : كَرِيمَ الْفَسَارِ ، ذِي لَهَابٍ مِنَ النَّهَارِ ، وَإِدِيمَ كَانَتْ حَمِيضَةُ الْأَزْوَارِ ،
أَبْيَضَ مِثْلَ الْمُسْدَى ، لَهُ فِي الصَّبْحِ إِثَارَةُ التَّغَصُّرِ وَإِظَارَةُ عَلَى الْعِيدَا ؛ عِلَاقَةً قَدَرَا
وَقَلَّابَةً قِيمَةً ، وَلَهُ إِلَى آلِ أَعْوَجَ نِسْبَةٌ مُسْتَقِيمَةٍ ؛ إِذَا أَسْتَنْتَ فِي مَضَارِيسِ بَرْوَقِ
الْمَخَاطِفَةِ ، وَيُخَلِّفُ الرِّيحَ حَسْرَى وَهِيَ وَاقِفَةٌ ؛ يَمِجُّهُ الْفَارِسُ بَحْرًا ، وَلَهُ عِنْدَ تَجْرِئِ
الْعَوَالِي مَعَ السَّوَابِقِ تَجْرِئُ .

وَمِنْ أَحْمَرٍ : كَأَنَّما صَبَغَ بِدَمِ الْأَعْدَاءِ أَدِيمَهُ ، وَكَأَنَّما هُوَ شَفِيقُ الشَّقِيقِ وَقَسِيمُهُ ؛
كَزَمَتْ غُرْرُهُ وَمُجْمُولُهُ ، وَحَسُنَتْ أَعْرَافُهُ وَذُبُولُهُ ، مِكَرٌ مَعْرُوفٌ بِخُلُودِ مَخْفَرِ حَطْنِهِ مِنْ
عَلَى سُبُولِهِ ؛ حَتَّى لَوْ نَهَى نَحْوُ الرَّحِيقِ ، وَلَهُ كُلِّ يَوْمٍ ظَفَرٌ جَدِيدٌ مَعَ أَنَّهُ عَتِيقُ .

وَمِنْ أَدِيمٍ : مُتَوَكِّلٌ كَالْقَلِيلِ ، مُتَصَبِّ كَالْقَلِيلِ ؛ كَرِيمُ النَّاصِيَةِ ، جَوَابُ قَاصِيَةِ ؛
كَأَنَّ غُرَّتَهُ صُبُغَ تَقَسُّسِ فِي الدُّبْحِ الْحَسَالِكِ ، وَكَأَنَّ مِنَ اللَّيْلِ بَاقِي يَمِينِهِ كَوُكُوبُ
يُضِيءُ الْمَسَالِكِ ، وَكَأَنَّ مُجْمُولَهُ بَرْوَقٌ تَهَرَّقَتْ فِي جَوَانِبِ النَّسَقِ حُسْنُ مَنْظَرًا لِنَاكِ ؛
سَنَانِيكُهُ يُورِي قَلْبَهَا ، وَغُرَّتُهُ يُبِيرُ صُجْبَهَا ؛ وَجَوَارِحُهُ مُسَوَّدٌ جُنْعُهَا ، وَصَهْوَتُهُ
تَكُنْ فِيهَا الْعَزْلُ لَا يَزَالُ ظَاهِرًا مُنْجَحًا .

وَمَا سَوَىٰ ذَلِكَ مِنَ الْجِيَادِ الْمُتَحَبِّهِ ، وَالصَّافِيَاتِ الْمُتَعَبِّهِ :

إِذَا مَاصَرَفَتِ الْخَطَّ نَحْوَ شِيَلَيْهَا * وَالْوَانِيَا فَالْحُسْنُ حَنْكَ مَغِيْبُ^(١) !

وَأَمَّا هِيَ بِصَبْرِهَا عَلَى النَّفَا ، وَشِدَّةِ عَدُوِّهَا فِي النَّوْرِ وَالظُّلْمَا ؛ وَسَبْقِهَا إِلَى غَايَاتِ رَهَانِيَا ، وَتَبَاتِيَا تَحْتَ رَايَاتِ قُرْمَانِيَا .

وَتَلِيَا الْفُهُودَ الْحَسَنُ مَنَظَرُهَا ، الْجَبِيلُ ظَفَرُهَا ، الْكَاسِبُ نَابُهَا وَظَفَرُهَا ؛ تَفَرَّقَ الْبَلِيلُ فِي أَهْلِهَا الْمُجْتَمِعَةِ ، وَأَذْرَكَتِ الْعَوَاصِمُ فِي هَضْبِهَا الْمُرْتَفَعَةِ ؛ وَجُوهَهَا كُوجُوهِ الْبُيُوتِ الْخَاصِرَةِ ، وَتَبَاتِيَا عَلَى الطَّرِيْدَةِ وَتَبَاتِ الْفَيْفَةِ الْمُؤْمِنَةِ عَلَى الْفَيْفَةِ الْكَافِرَةِ ؛ مُقْلَصَةُ الْخَوَاصِرِ ، عَزَمَاتُهَا عَلَى الْوَحْشِ حَوَاصِرُ ؛ مَا أُطْلِقَتْ عَلَى صَيْدٍ إِلَّا قَنَصَتْهُ سَرِيْعًا ، وَلَا بَصُرَتْ بِمَاءَةٍ مِنْ حُمْرٍ إِلَّا اخْتَفَتْهَا جَمِيعًا .

فَمِ الْخَوَاصِرِ الْمَعْلَمَةِ ، وَالضَّوَارِي الَّتِي اخْتَفَتْ بِالنَّجْعِ مَوْتَمَةً ؛ مَا مِنْهَا إِلَّا طَاوِي الْخَاصِرَةِ ، وَتَبَاتُهُ طَائِلَةٌ خَيْرَ قَاصِرِهِ ؛ بِبُيُوتٍ كَالْأَيْسَةِ ، وَمَاصِدِينَ مَقْتُولِينَ تَسْبِقُ بِهِمَا قَوَاتِ الْأَعْيَةِ ؛ لَوْ رَأَى عَيْدِي بْنُ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَضَمَّهُ إِلَى مَالِدِيهِ ، وَأَكَلَ مِمَّا أَمْسَكَ عَلَيْهِ .

وَتَضَرَّبُ الْعَاصِرُ حَقَقَةً مَا يَلْتَقِي طَرَفَاهَا إِلَّا إِلَى الْبَلِيلِ فِي أَنْسَاعِهَا ، تَحْوِي مَازِرَ الْأَوَابِدِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا .

فَمِنْ نَعَامٍ : خُضِبَ ظَلِيلُهَا لِمَا أَكَلَ رَيْبَا ، وَاحْتَرَّتْ أَطْرَافُ رَيْبِهِ فَكَانَتْهَا سِهَامٌ أَصَابَتْ جَمِيعًا ؛ طَالَتْ أَعْنَاقُهَا النَّاحِلَةَ فَكَانَتْهَا خَطْلِيَّةٌ ، وَاشْتَدَّتْ قَوَائِمُهَا الْحَامِلَةَ فَكَانَتْهَا مَطِيَّةٌ ؛ شَارَكَتِ الطَّرِيقَ فِي وُجُودِ الْجَنَاحِ ، وَفَارَقَتْهَا فِي تَكَلُّفِ الْأَشْبَاحِ ؛ وَأَشْبَهَتْ

(١) الذي في ديوان المتنبي :

إِذَا لَمْ تَتَّعَدْ خَيْرَ حَسَنِ شِيَلَيْهَا * وَأَضَلَّتْهَا فَالْحُسْنُ حَنْكَ مَغِيْبُ .

الْوَحْشُ فِي مَسْكَنِ الْفَقَارِ، وَشِدَّةِ الْفَارِ؛ قَدْ اجْتَمَعَ فِي ظَاهِرِهَا الْوُثَانُ مِنَ الْوَحْشِ
وَالطَّيْرِ وَاتَّسَفَ فِي بَاطِنِهَا الْغَضَدَانُ مِنْ مَاءٍ وَتَارِ .

وَمِنْ طَبَائِءِ : مُسَوِّدَةِ الْأَحْدَاقِ، حَكَّتِ الْحَيَائِبَ فِي تَحْلِيلِ الْمُقَلِّ وَحُسْنِ سَوَائِفِ
الْأَعْنَاقِ ؛ أَيْبَضَّتْ بَطُونَهَا، وَأَحْمَرَّتْ مُتُونَهَا ؛ وَرَاقَتْ أَوْرَاقُهَا، وَحَلَكَتْ أَمَاقُهَا ؛
نَافِرَةٌ فِي صَهْرَائِهَا، طَيِّبٌ مَرَطُهَا فَالْمَسْكُ مِنْ دِيْمَائِهَا .

وَمِنْ بَقَرٍ وَحِشِيَّةٍ : عُفْرِ الْإِهَابِ، سَاكِئَةِ الْمَضْطَبِ ؛ لَهَا فِي حِقَافِ الرِّمْلِ
مَرَايِضُ ، حَدَرًا مِنْ قَانِيصٍ قَانِيصُ ؛ كَمْ فِي مِنْ لَوَى يَتَهَادَى ؛ كَأَنَّ إِرَّةَ
رَوْفِهِ قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ التَّوَادِ مِدَادًا .

وَمِنْ حُمُرٍ إِهَابِهَا أَقْرَمُ مَسْئُوبَةٌ إِلَى أَحَدِ (?) وَلَمْ تُرْكَبْ مُتُونُهَا، وَقَدْ حَكَّى الْجَزَعُ
الَّذِي لَمْ يُتَقَبَّ فِي دُبْنِ اللَّيْلِ حُبُونَهَا .

وَعِنْدَ مَا تَتَقَى حَلَقَةُ السَّائِرِ بِحَقِّهَا - خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - وَمَعَهُ الْجَوَارِحُ الصَّائِدَةُ،
وَالْحَوَامِي الصَّائِلَةُ ؛ وَالْأَنْهَمُ النَّافِذُ، وَالْمُهَوَّدُ الْآخِذُ ؛ فَمُوجُ الْوَحْشِ دُغْرَا ،
وَرَتَى مَسَالِكُهَا قَدْ سُدَّتْ عَلَيْهَا سَهْلًا وَوَعْرًا ؛ وَضُرِبَ ثَوْنٌ نَجَاتِهَا بِسُورٍ مِنَ الْجِبَادِ
وَالْقُرْسَانِ، وَحِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ خَلَاصِهَا بَيْنَالِ وَتُرْصَانِ ؛ فَيَنْتَظِرُ تَهْرُ التَّعَامُ عَنْ رِمَالِهَا،
وَالظُّبَاءُ عَنْ غِلَافِهَا ؛ وَالْبَقَرُ عَنْ جَادِرِهَا، وَالْحُمُرُ عَنْ بَوْلِهَا ؛ وَتَقْبِضُ - خَلَّدَ اللَّهُ
سُلْطَانَهُ - مِنْ جِنْسِ الْوَحْشِ كُلِّ نَوْعٍ، وَلَوْ يُمَسِّكُهَا بِجَارِحٍ لَا فَسَكُهَا كَمَا تُمَسِّكُ
عُدَاةُ الْإِسْلَامِ بِالرُّوْعِ، وَتُجَزَّلُ مِنْهَا الْمَكَايِبُ، وَتُمَلَأُ مِنْهَا الْحَقَائِبُ ؛ فَإِذَا اخْتَدَّ حَقْلُهُ
مِنْ الْقَبِيضِ وَلَئِنَّهُ أَكْثَسَابُهُ، رَسَمَ لِأَسْرَائِهِ بِالْقَبِيدِ عِنْدَ مُسْئُورِ رِكَابِهِ ؛ فَيَصِيدُونَ
وَيَقْتَصِمُونَ، زَادَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ - فَلَزِمَ فِي طَاحَتِهِ مَخْلُصُونَ ؛ فَيَكْثُرُ عِنْدَ ذَلِكَ كُلِّ

فيس دَبيح، ورائي كُلِّ بما أَقْتَصَصَه لِيُظْهَرَ التَّوَجُّعُ؛ فَإِذَا أَتَيْتَ كُلَّ أَوْقَاتِ الصَّيْدِ مِنَ الطَّيْرِ وَالْوَحْشِ تَحْتَ رِكَابِهِ الشَّرِيفِ إِلَى جِهَةِ الْقَلْعَةِ الْمَحْرُوسَةِ وَالْقِفَارِ قَدْ شَرُفَتْ بِمُرُورِ مَوَازِيهِهِ، وَالطَّيْرِ قَدْ أَفْضَحَتْ بِكُونِهَا أَصْبَحَتْ مِنْ مَكَايِسِهِ .

هَذَا كُلُّهُ وَإِنْ كَانَتْ النُّفْسُ تَرَاهُ لَهْوًا، وَتَبْلُغُ بِهِ كُلَّ مَا تَهْوَى، فَهِيَ طِيَّةٌ مِنْ تَحْمِيلِ الْجُنُودِ عَلَى الْحَرْبِ مَا تُنْشُدُ بِهِ التَّزَمُّتُ وَتَقْوَى؛ فَيُؤْمَرُ الرِّكَابُ الشَّرِيفُ عَائِدًا إِلَى سِرِّرِ مُلْكِهِ بِالْقَلْعَةِ الْمَحْرُوسَةِ، وَالسَّلَامَةُ قَدْ قَضَتْ مَا يَجِبُ عَلَيْهَا مِنْ حِرَاسَتِهِ، وَالْإِقْدَارُ قَدْ وَقَفَ مَا يَبْقَى مِنْ كَلَامِهِ؛ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا وَهُوَ صَاعِدًا إِلَى الْقَلْعَةِ الْمَحْرُوسَةِ وَالْأَيْنَةُ السُّعَادَةُ تُخَاطِبُهُ، وَسِرُّهُ قَدْ أَهْتَرَتْ فَرَحًا بِتَقْدِيمِ جَوَانِيهِ، وَالصَّيْدُ الْمُبَارَكُ قَدْ سَمِعَتْ مِبَادِيهِ وَجُمِلَتْ عَوَاقِبُهُ؛ فَيُلْقِي أُمُومَةَ السَّرِّ، وَيَأْخُذُ فِيمَا يَكُنُ مِنَ الْمَصَالِحِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَظَهَرَ، وَتُنْشِئُهُ الْأَيْنَةُ السَّلَامَةُ مَا أَمَلَتْ عَلَيْهَا الْعِزُّ وَالْثَّابِتُ وَالظَّفَرُ :

مَلِكُ الْبَسِيطَةِ أَبٌ مِنْ سَفَرِهِ • وَالنَّصْرُ وَالْثَّابِتُ فِي آثَرِهِ،
فَكَأَنَّهُ فِي عِزِّ مَوَازِيهِهِ • بِدَرْ تَأَلَّقَ فِي سَنَا خَفَرِهِ .
مَا فِي الْبَرِيَّةِ مِثْلُهُ مَلِكٌ • أَوْيَ الَّذِي أُوتِيَهُ مِنْ ظَفَرِهِ!
يَسِيرُ إِلَى أَعْدَائِهِ رَهْبٌ • مِمَّا يَكُنُّ النَّاسُ مِنْ خَبَرِهِ .
فَلَقَهُ رَبُّ النَّاسِ فَاطْرُنَا • يُؤْتِيهِ مَا يُرِي عَلَى وَطَرِهِ!!

الصف الثاني

(من الرسائل ما يردُّ منها مَوْرِدُ الْمَدْحِ وَالتَّقْرِيصِ)

إِذَا بَانَ بِحِلِّ الْمَدْحِ مَوْرِدُ الرِّسَالَةِ وَبُصِّدَ بِمَدْحِ ذَلِكَ الشَّخْصِ الْمُرَادِ، وَإِذَا بَانَ بِبُصْدَرِ بَاجِرِيَّةٍ يَحْكُمُهَا الْمُنْتَقِصُ وَيَخْطُصُّ مِنْهَا إِلَى مَدْحٍ مِنْ قَصْدٍ مَدْحِهِ وَتَقْرِيصِهِ

وما يجرى مجرى ذلك . وللكلب وأهل الصناعة في ذلك لغتين مختلفتاه المقاصد ، وطرق متباينة الموارد .

وهذه نسخة رسالة أنشأها أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ سماها "رسالة الشكر" قصد بها تهنيتي وزير المتوكل وشكر نعمة لديه ، مصدرها ما يذكر حقيقة الشكر وبيان مقاصده ، وهي :

جُئِلْتُ بِذَلِكَ ، أَيْدِكَ اللَّهُ وَأَكْرَمَكَ وَأَعَزَّكَ ، وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعِندَكَ . لَيْسَ يَكُونُ الشُّكْرُ - أَبْهَكَ اللَّهُ - تَأْتَا ، وَمِنْ حَدِّ النُّقْصَانِ خَارِجًا ، حَتَّى يَسْتَصِحِبَ أَرْبَعَ خِلَالَ ، وَيَسْتَمِيلَ عَلَى أَرْبَعِ خِصَالٍ :

أولها : العلم بموقع النعمة من المنعم عليه ، وقدر انتفاعه بما يصل إليه من ذلك : من سد خلّة ، أو مبلّغ لذة وعلوّ درجة ، مع المعرفة بقدر احتمال النعم للثقة ، والذي حاول من المماناة والكلفة في بذل جأه مضمون ، أو مفارقة عليّ قمين . وكيف لا يكون كذلك ؟ وقد خول من نعمه بعض ما كان حيساً على حوادث ملّة ، فزاد في نعم غيره بما انتقص من نعم نفسه وولده . فكلما تذكر الشاكر ما أحتمل من مشوّقة البذل ، سهل عليه احتمال ما نهض به من قبح الشكر .

والخصلة الثانية : الحرّية الباعثة على حبّ المكافاة واستحسان المجازاة . والشاكر من أكثر أبواب الأمانة ، وأبعد من أسباب الخيانة . ولن يبلغ أحد في ذلك غاية المجد إلا بجوّة الطمع ، وإلا الحرب يحال بينهما ، والفقر مقسوم عليهما . كذلك حكم الأشياء إنا تساوينا في القوة ، وتهاوت في بلوغ المنّة . وقد زعم ناس أن الشاكر والمنعم لا يستويان ، كما أن البادي بالظلم والمتصر لا يتبدلان ؛ لأنّ البادي أخذ ما ليس له ، والمتصر لم يجاوز حقه الذي هو له ؛ ولأنّ البادي لم يكن موجباً على

الظلم بِلِلَّةِ جنابها الْمُتَصَرِّعِ، والمُتَصَرِّعُ مَهْجٌ عَلَى الْمُكَافَاةِ بِلِلَّةِ جنابها الْبَادِي، والمُتَوَرِّعُ للطباعِ الْمُغْضَبِ، والمُسْتَحْفُفُ الْمَهْجُ اعْتَرَفَ مِنَ السَّائِرِ الْوَكِيدِ الْمُطْمَئِنِّ .
فلذلك قالوا : إِنْ الْبَادِي أَظْلَمَ، والمُتَصَرِّعُ أَعْدَر . وَزَعَمُوا أَنَّ الْمُنِّمَ هُوَ الَّذِي أَوْدَعَ صَدْرَ الشَّاكِرِ الْحُبَّةَ بِإِنْعَامِهِ عَلَيْهِ، وَهَبَّجَهُ بِذَلِكَ عَلَى مُكَافَأَتِهِ لِإِحْسَانِهِ إِلَيْهِ، فَقَدْ صَارَ الْمُنِّمُ شَرِيكَ الشَّاكِرِ فِي إِحْسَانِهِ، وَتَفَرَّدَ بِفَضْلِ إِنْْعَامِهِ دُونَ مُشَارَكَةِ ضِعْرِهِ، وَالْمُنِّمُ هُوَ الَّذِي دَفَعَ لِلشَّاكِرِ أَدَاةَ الشُّكْرِ، وَأَعَارَهُ آلَةَ الْوَفَاءِ، فَهُوَ مِنْ هُنَا أَحَقُّ بِالْتَّعْدِيمِ، وَأَوَّلَى بِالْتَّضْيِيلِ .

هَذَا، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ وَالْأَدَبَاءِ وَالْعُلَمَاءِ : مِنْ تَمَامِ تَكْرِمِ الْمُنِّمِ التَّغَاوُلُ عَنْ حُجَّتِهِ، وَالْإِفْرَارُ بِالْفَضِيلَةِ لِلشَّاكِرِ نِعْمَتِهِ، لِأَنَّ الْحَاجَةَ مُغَالِبَهُ، وَلَا تَمُوتُ مَوَدَّةُ الْإِلَامِ الْمُسَامَحَةِ . وَلِلذَلِكَ قَالَ الرَّبِيُّ لَيْسَ مِنَ الْعَرَبِ يَتَصَصُّمُونَ : هَلْ لَكُمْ فِي الْحَقِّ أَوْ خَيْرٍ مِنْهُ ؟ قَالُوا : قَدْ عَرَفْنَا الْحَقَّ، فَمَا الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ ؟ قَالَ : التَّغَاوُلُ فَإِنَّ الْحَقَّ مُرٌّ . الْأَتَرَى إِلَى بِنْتِ هَرِمٍ بِنِ سَيِّدٍ لَمَّا قَالَتْ لِابْنَةِ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ فِي بَعْضِ الْمَنَاحَاتِ، أَوْ فِي بَعْضِ الْمَزَاورَاتِ : إِنَّهُ لَيُجِئُنِي مَا أَرَى مِنْ حُسْنِ شَارِكِكُمْ، وَهَاءِ تَفَحُّتِكُمْ . قَالَتْ ابْنَةُ زُهَيْرٍ : أَمَّا وَاللهِ تَنَ قَلْبِي مَلَقْتُ، لِمَا فَذَكَ إِلَّا مِنْ فَضُولِ مَاوَعَتِكُمْ، وَمِنْ بَقَايَا مَا أَنْتُمْ . قَالَتْ بِنْتُ هَرِمٍ : لِأَبْلِ لَكُمْ الْفَعْلُ، وَعَلَيْنَا الشُّكْرُ، أَطَعْنَاكُمْ مَا بَقِيَ، وَأَعْطَيْنَاكُمْ مَا بَقِيَ . وَقِيلَ لَعَبْدِ اللهِ بْنِ جَنْفَرٍ حِينَ أَبْرَزَ لِنُصَبِّبِ الشَّامِرَ فِي الْحِمَةِ، وَكَثَّرْلَهُ فِي الْعَطِيَّةِ : أَتُبْدِلُ هَذَا الْعَبْدَ الْأَسْوَدَ كُلَّ هَذَا الْقِيلِ، وَتُعْبَوُهُ بِثَبْلِ هَذَا الْحَيَاءِ ؟ فَجَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ جَنْفَرٍ : أَمَّا وَاللهِ تَنَ كَانَ أَسْوَدَ الْخِلْدِ إِنَّهُ لَا يَبْقَى الشُّعْرُ، أَطَعْنَاهُ دَرَاهِمَ تَفْنَى، وَثِيَابًا تَبْلَى، وَرَوَاحِلَ تُبْهَى، وَأَعْطَانَا نِسَاءً يَبْقَى، وَحَدِيثًا يُفْنَى، وَمَكَارِمَ لَا تَبْلَى . فَهَذِهِ الْخِصَالُ تَكَامَلَتْ خِصَالُ الْعَبْدِ فِيهِمْ، فَظَهَرَ عُنْوَانُ كَرَمِ الْخَيْرِ عَلَيْهِمْ، فَصَارُوا فِي زَمَانِهِمْ مَسَارًا، وَلَنْ يَسْلَمَ

أعلاما . وليس يتم معنى كرم المُنْتِم ، ومعاني وفاء الشاكر ، حتى تتوافق أفعالها ، ويتفق أهواؤها على تعلق الحجة ، والإقرار بالمسجزة ، فزيداً بذلك المُنْتِم فضلاً ، والشاكر نبلاً .

هذا جملة القول في خصتين من الأربع التي قلنا ذكرها ، وشهرا أمرها .

والخصلة الثالثة : الديانة بالشكر ، والإخلاص للنعم في تصفية الود ، فان الدين قائم للمرؤة ، كما أن المرؤة خطام الحية . وهذه الخصال وإن تشعبت في بعض الوجوه ، وافتقت في بعض الأماكن ، فإنها ترجع إلى نصابين ، وإلى إزاء يحفظها ، منه تمت ، وعنه أنبئت ، وإليه رجعت . ولا يحتاج هذه الخصال على مخالفة الحموى ، ومجانبة الحموى ، وعلى اتهام دواعي الشهوة ، والامتناع من كلب الطبيعة . وتلقى الأولون بينها في جملة الأمم ، وطاروا بينها في جمهرة الحكم . ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : اعتبر حزمته بحمته ، وحزمته بتجاع يته .

وتدار جميع الأحوال المحمودة على الصبر ، ولن يتكلف مرارة الصبر من يجهل عاقبة الصبر . وقالوا : لما صار تحمل الشكر لا يحتمل إلا بالصبر ، صار الشكر من نتائج الصبر . وكما أنه لا بد للحلم - مع كرم الحلم - من الصبر ، فكذلك لا بد للشكر - مع كرم الشكر - من الصبر . فالصبر يجري مع جميع الأحوال المحمودة ، كما يجري الحموى مع جميع الأحوال المنومة . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خلق الله عز وجل النار وحفها بالشهوات ، وخلق الجنة وحفها بالمكاره » .

والخصلة الرابعة : وصف ذلك الإحسان باللسان الين ، وتخييره باليان النير ، وباللفظ العذب النقي ، واللفظ الشريف اليبى . فان الكلام إذا كان حسناً ، جعلته الحكماء أدباء ، ووجدت الزواة إلى تشيره سبياً ، حتى يصير حديثاً مأثوراً ، يهتدا

مَدُّ كُرْءٍ، ودَاخِلًا فِي أَسْوَاقِ الْمُلُوكِ، وَسُوقًا مِنْ أَسْوَاقِ الْمُتَادِينَ، وَوَصْلَةً فِي الْمَجَالِسِ،
وَزِيَادَةً فِي الْعَقْلِ، وَتَحْنُنًا لِسَانٍ، وَتَرْهِيْفًا لِقَلْبٍ، وَتَطْلِيْفًا لِلْفِكْرِ، وَعِمَارَةً لِلصُّدْرِ،
وَسَلَسًا إِلَى الْعُظْمَاءِ، وَسَبِيًّا إِلَى إِهْلَةِ الْكِبَرَاءِ . وَإِذَا لَمْ يَكُنِ الْقَطْرُ رَائِحًا، وَالْمَعْنَى
بَارِعًا، وَبِالنَّوَادِرِ مَوْثِقًا، وَبِالْمُلُحِّ مَجْذِبًا، لَمْ تَصُغْ لَهُ الْإِصْبَاعُ، وَلَمْ تَتَشَرَّحْ لَهُ الصُّدُورُ،
وَلَمْ تَحْفَظْهُ الثُّغُوسُ، وَلَمْ تَسْطِقْ بِهِ الْأَفْوَاهُ، وَلَمْ يَحْتَدِّ فِي الْكُتُبِ، وَلَمْ يَقْبَدْ بِالذُّرَى،
وَلَمْ يَحْتَدِّ بِهَ قَائِلٍ، وَلَمْ يَنْتَدِّ بِهِ سَائِعٌ . وَمَعْنَى لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ كَانَ كَلَامًا كَلَامَ الْفَنَاءِ،
وَمَعْنَى السُّهُوِ، وَكَلْمُجَرِّ الدِّى لَا يَنْهَمُ، وَالْمُسْتَقْلَقِ الدِّى لَا يَنْهَمُ .

وليس - أَبْجَاهُ أَهْ - تَعْنِي أَحْوَجَ إِلَى الْحِذْقِ، وَلَا أَقْرَبَ إِلَى الرَّفْقِ، مِنَ الشُّكْرِ
النَّافِعِ، وَالْمَدِيحِ النَّاجِعِ، الدِّى يَتَّبِعُ بَقْدَهُ الْوَتْمُ، وَيُلَوِّحُ كَمَا يُلَوِّحُ النِّعَمُ . كَمَا أَنَّهُ لَأَخْفَى،
أَحْوَجُ إِلَى وَسْعِ الطَّاقَةِ، وَإِلَى الْفَضْلِ فِي الْقُوَّةِ، وَإِلَى الْبَسْطَةِ فِي الْعِلْمِ، وَإِلَى تَعَامُ
الْعَزْمِ - مِنَ الصُّبْرِ . وَعَلَى أَنَّ الشُّكْرَ فِي مَلَقَاتٍ مُتَفَارِقَةٍ، وَمَنَازِلَ مُتَبَايِنَةٍ، وَإِنْ جَمَعَهَا
أَسْمٌ، فَلَيْسَ يَجْمَعُهَا حُكْمٌ، فَرُبَّمَا كَانَ كَلَامًا يَجِيئُ بِهِ الصُّدُورُ، وَتَمُجِّدُهُ الْأَفْوَاهُ،
وَيَحْمَدُهُ بِهَ الْأَلْسِنَةُ، وَيُسْتَعْمَلُ فِيهِ الرَّأْيُ الْمُقْتَضِبُ، وَالْحَسَائِرُ الْمُتَنَارُ، وَالْكَلَامُ
الْمُرْتَجِّلُ، فَيُرَى بِهِ عَلَى عَوَاضِهِ، وَتَعْنِي مَصَادِرُهُ عَلَى غَيْرِ مَوَارِدِهِ، لَا يَتَعَدَّرُ فِيهِ
الشَّاكِرُونَ لِانْتِفَاعِ الْمُتَمِيمِينَ، كَمَا تَعَدَّرُ الْمُتَعَمُّونَ لِانْتِفَاعِ الشَّاكِرِينَ . وَلَيْسَتْ غَايَةُ
الْقَائِلِ إِلَّا أَنْ يَسُدَّ لَيْفًا مَقُومًا، أَوْ يَسْتَرِيدَ بِهِ إِلَى نَيْمِهِ السَّالِفَةِ نَيْمًا آتِيَةً، أَوْ لَيْسَ
إِلَّا لِيَتَفَرَّغَ كَرِيمًا، أَوْ يَحْتَدِّعَ فَيَأْتِيَ لَا يَنْفَقِدُ سَاعَاتِ الْقَوْلِ، وَلَا يَتَعَرَّفُ أَقْدَارَ الْمُسْتَعِيمِينَ ؟
وَلَيْسَ غَايَتُهُ إِلَّا الْكُتْبُ وَالنُّعْرُضُ وَالْإِنْتِفَاعُ وَالْتَرْتُّعُ، وَعَلَى هَذَا يَتَوَدَّى شُكْرُ الْمُسْتَأْكِلِينَ،
وَإِعْمَادُ الْمُتَكَسِّبِينَ .

وهذا الباب وإن جمعت العوامُ شُكْرًا، فهو يَنْبِرُ الشُّكْرَ أَشْبَهَ، وبذلك أولى،
وَرُبَّمَا كَانَ شُكْرُهُ عَنْ تَأْتِيٍّ وَقَدْ كَرِهَ، وَعَنْ تَحْمِيلٍ وَتَحْيِيرٍ، وَعَنْ تَقْلِيدِ لَحَالَاتٍ،

وَتَحْصِيلُ الْأُمُورِ فِي الْمَقَامَاتِ الَّتِي تُحِيطُ بِمُحِيطِهِ ، وَبِحَضْرَةِ عَدُوٍّ لَا يَزَالُ مُرْعَصًا لِعَيْنِهِ ، فَرُبَّمَا اتَّخَذَ الزِّيَادَةَ فِي غَيْظِهِ ، وَرُبَّمَا اتَّخَذَ شِفَاءَ دَائِهِ وَاصْلَاحَ قَلْبِهِ ، وَنَقَضَ الْمُتَّبِعِينَ مِنْ مَعَاقِدِ حِفْظِهِ ، عَلَى قَدَرِ الرَّدِّ ، وَعَلَى قَدَرِ تَصَرُّفِ الْحَالَاتِ فِي الْمَصْلَحَةِ ، لِأَنَّ الشَّاكِرَ كَالْأَيِّدِ لِأَهْلِهِ ، وَكَرِيمٍ رَحِيمٍ ، وَالْمُشَارُّ إِلَيْهِ عِنْدَ مَشُورَتِهِ ، فَرُبَّمَا اخْتَارَ أَنْ يَكُونَ شُكْرُهُ شَعْرًا : لِأَنَّ ذَلِكَ أَشْهَرُ ، وَرُبَّمَا اخْتَارَ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا مَسْتَوْرًا : لِأَنَّ ذَلِكَ أَتْبَلُ ، وَرُبَّمَا أَظْهَرَ الْبُشْرَى وَأَتَمَّلَ الثَّرْوَةَ ، وَجَعَلَ مِنَ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ كَثْرَةَ التَّفَقُّعِ ، وَحُسْنَ الشَّارَةِ ، وَرَبَّرَ أَنْ ذَلِكَ أَصْدَقُ الْمُتَّبِعِينَ ، وَأَتْبَلُ الشُّكْرِينَ ، وَيَجْعَلُ قَائِدَهُ إِلَى هَذَا الْمَذْهَبِ ، وَسَابِقَهُ إِلَى هَذَا التَّدْبِيرِ قَوْلُ نَصِيبٍ : فَاعْجُزُوا فَأَتَتُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ • وَلَوْ سَكُنُوا أَتَيْتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ !

وَمَا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ وَلَيْسَ بِهِ - قَوْلُ الْقَتَرِيِّ :

يَا بَنَ الْعَلَاءِ وَيَا بَنَ الْفَرِيمِ مَرْدَاسٍ : * إِنِّي لِأَطْرِيكَ فِي أَهْلِي وَجُلَائِي •

حَتَّىٰ إِذَا قِيلَ : مَا أَعْطَاكَ مِنْ صَفْدٍ ؟ • طَاعَتُكَ مِنْ سُوءِ حَالٍ عِنْدَهَا رَأْيِي !

أَتُنِي عَلَيْكَ وَلِيَّ حَالٍ تُكْذِبُنِي • بِمَا أَتَوَّلُ فَاستَحْيِي مِنَ النَّاسِ !

وَيَنْ هَذِهِ الشُّكْرِينَ طَبَقَاتٌ مَعْرُوفَةٌ ، وَمَتَازِلٌ مَعْلُومَةٌ • وَمَوْضِعُ الشُّكْرِ قَلْبُ السَّامِعِ فِي الْقَبُولِ وَالْإِسْتِمَاعِ ، عَلَى قَدَرِ حُسْنِ النِّيَّةِ ، وَالَّذِي يَعْرِفُ بِهِ الشَّاكِرُ مِنْ صِدْقِ التَّهَنُّعِ ، وَمِنْ قِلَّةِ السَّرَفِ ، وَاعْتِدَالِ الْمَذَاهِبِ ، وَالِاقْتِصَادِ فِي الْقَوْلِ • وَهَذَا بَابٌ سِوَى الْبَابِ الْأَخِيرِ مِنْ حُسْنِ الْوَصْفِ ، وَجُودَةِ الرَّصْفِ • وَلِلذَلِكَ مَا أَحْسَنَ بَعْضُ الْوَاعِظِينَ فِي الْمَوْعِظَةِ ، وَأَبْلَغُ فِي الْأَعْيَارِ وَفِي تَرْغِيقِ الْقُلُوبِ ، وَلَمَّا لَمْ يَرِ أَحَدًا يَتَشَعَّرُ ، وَلَا عَيْنًا تَدْمَعُ ، قَالَ : يَا هَؤُلَاءِ ! إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِي شَرٌّ ، أَوْ يَكُونَ بِكُمْ شَرٌّ •

وَقِيلَ لِمَنْسَاءِ الْفَضْلِ الرَّقَاشِيِّ : وَعَبْدُ الصَّمَدِ بْنِ الْفَضْلِ الرَّقَاشِيِّ : مَا بَالُ دُمُوعِكُمْ عِنْدَ التَّضَلُّلِ أَغْزَرَ ، وَعِنْدَ عَبْدِ الصَّمَدِ أَنْزَرَ ، وَكَلَامُ عَبْدِ الصَّمَدِ أَغْزَرَ ،

وكلامُ الفضل أتر؟ قالوا : لأن قلب الفضل أرق، فصارت قلوبُ أرق، والقلوبُ نجباءً .

وقالوا : طوبى للمدح إذا كان للمدح مستحقاً ، وللدأى إذا كان للاستجابة أعلأ، وللمنم إذا حطى بالشكر ، ولشكر إذا حطى بالقبول .

إني لست أحتشم من مدحك ، لاني لست أترد في وصفك ، ولست أمدحك من جهة معروفك عندي ، ولا أصفك بتقديم إحسانك إليّ، حتى أقدم الشكر الذي هو أولُ التقديم ، وأفضل المصنف الذي هو أحق بالتفضيل . وفي الخبر المستفيض ، والحديث المأثور : « ما قل وكفى خير مما كثر وألغى » . وقيلُ باقي خير من كثير فإن .

تذكر الناس عند بعض الحكماء طبقات السابقين في الفضل ، وتزِيل حالاتهم في البر، ومن كانت الخصلة المصنوعة فيه أكثر ، والخصلة الثانية فيه أوفر، فقال ذلك الحكيم : ليس بجب أن يسبق رجل إلى الإسلام، وكل شيء، فقد سبق إلى تهديمه ناس وأهل آخرون ؛ وليس بجب أن يوق الرجل أثرابه في الزهد ، وأكفاهه في الفقه ، وأمثاله في الذب : وهذا يوجد في كل زمان ، ويصاب في كل البلدان . ولكن العجب العجيب ، والتأدّر الغريب ، الذي تهبأ في عمر بن الخطّاب رضي الله عنه وأتقى له . وذلك أنه عبرَ عشرَ حجج : يفتح الفتوح ، ويُدوِّج البلاد ، ويحصّر الأمصار ، ويدوّن الدواوين ، ويقرض القروض ، ويرتب الخاصّة ، ويدبّر العامة ، ويمحي التّمة، وترى إليه الأرض بافلاذ كيدها ، وأنواع زخرفها ، وأصناف كنوزها ، ومكوّن جوهرها ، ويقتل ملوكها ، ويلي ممالكها ، ويميل وينقد ، ويؤيّل ويمزل ، ويضع ويرفع ، ويلتفت خيله إفريقية ، ودخلت خراسان : كل ذلك بالتّشدير المصحيح والمضبط ، والإحسان والقوة ، والإشراف ، والبصر التأنيذ ، والعزم

الْمُسْتَكْن . ثم قال : لا يجمع مَعْلَمَةُ الْأُمَّة ، ولا يَحْوِشُهُمْ عَلَى حَقِّهِمْ مِنَ الْأَلْفَةِ
وَأَجْنَائِ الْكَلِمَةِ ، وإِقَامَتُهُمْ عَلَى الْحَقِّ ، مع ضَبْطِ الْأَطْرَافِ ، وَأَمْنِ الْبَيْضَةِ - إِلَّا لِيْنُ
فِي غَيْرِ ضَعِيفٍ ، وَشِدَّةٍ فِي غَيْرِ عُنْفٍ . ثم غَرِبَ ذَلِكَ مِنْهُ كُلُّهَا عَلَى وَبَرَةٍ وَاحِدَةٍ ،
وَطَرِيقَةٍ مُطَرَّدَةٍ ؛ لَا يَتَحَرَّفُ عَنْهَا ، وَلَا يُغَيِّرُهَا ، وَلَا يُسَامُهَا ، وَلَا يَزُولُ عَنْهَا :
مِنْ خُشُونَةِ الْمَأْكَلِ وَالْمَلِيسِ ، وَغِلْظِ الْمَرْكَبِ ، وَظَلْفِ النَّعْسِ عَنْ صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا ،
وَذَفِيقِهَا وَجَلِيلِهَا ، وَكُلِّ مَا يُنَاجِرُ النَّاسَ عَلَيْهِ ، لَمْ يَتَغَيَّرْ فِي لِقَاءِ وَلَا فِي حِجَابِ ،
وَلَا فِي مَعَامَلَةٍ وَلَا فِي مُجَالَسَةٍ ، وَلَا فِي جَمْعٍ وَلَا فِي مَنَعٍ ، وَلَا قِيُضٍ وَلَا بَسْطٍ :
وَالدُّنْيَا تَتَصَبَّبُ عَلَيْهِ صَبًّا ، وَتَتَدَقَّقُ عَلَيْهِ تَدَقُّقًا ؛ وَالْخَصْلَةُ مِنْ خِصَالِهِ ، وَالْخَلَّةُ مِنْ
خِلَالِهِ ؛ تَدْعُو إِلَى الرِّغْبَةِ ، وَتَفْتَحُ بَابَ الْأَلْفَةِ ، وَتَقْضِي الْمُبْرَمَ ، وَتُقِيدُ الْمُرُوءَةَ
وَتُنْفِيسُ الْمُنَّةَ ، وَتَحُلُّ الْعُقْدَةَ ، وَتُورِثُ الْإِعْتِرَافَ بِطَوْلِ السَّلَامَةِ ، وَالْإِكْتِمَالَ عَلَى دَوَامِ
الظَّفَرِ ، وَمَوَانِيَةِ الْإِيَّامِ ، وَمَتَابَعَةِ الزَّمَانِ . وَكَانَ قَبْلَهُ عَشْرٌ جَمِيعٌ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ
أَعْجُوبَةٌ ، وَمِنَ الْبَدَائِعِ الْفَرِيَّةِ . وَبِأَقْلٍ مِنْ هَذَا يَظْهَرُ الْعَجَبُ ، وَيُسْتَعْمَلُ الْكِبَرُ ،
وَيُظْهَرُ الْجَهْلُ ، وَيَقْلُ التَّوَاضُعُ .

وَيَحْنُ وَإِنْ كُنَّا لَا نَسْتَعِيرُ أَنْ نُلْحِقَ أَحَدًا بِطَبَائِعِ عَمَرٍ وَمَنْدَحِهِ ، وَفَضْلِ قُوَّتِهِ ،
وَتَمَامِ عَزَمِهِ ، فَإِنَّا لَا نَجِدُ بَدَأَ مِنْ مَعْرِفَةِ فَضْلِ كُلِّ مَنْ اسْتَقَامَتْ طَرِيقَتُهُ ، وَدَامَتْ
خَلِيقَتُهُ ، فَلَمْ يَتَغَيَّرْ عِنْدَ تَتَابُعِ النَّعَمِ ، وَتَطَاوُرِ الصَّنْعِ ، وَإِنْ كَانَتْ النَّعَمُ مُخْتَلِفَةً
الْأَجْنَاسَ ، وَمُتَفَاوِتَةً فِي الطَّبَقَاتِ . وَكَيْفَ يَلْحَقُ بِهِ أَحَدٌ ؟ مع قوله : " لَوْ أَنَّ
الصَّبْرَ وَالشُّكْرَ سَيَرَانَا مَا بَالَيْتُ أَيْهَمَا رَكِبْتُ " وَلَكِنَّا عَلَى حَالٍ لَا تَدْعُ تَعْظِيمَ كُلِّ مَنْ
بَانَ مِنْ نَظَائِرِهِ فِي الْمَرْتَبَةِ ، وَأَشْبَاهِهِ فِي الْمَتَرَلَةِ ، إِذْ كَانَ أَدْوَمُهُمْ طَرِيقَهُ ، وَأَشَدَّهُمْ
صَرِيرَهُ ، وَأَمْضَاهُمْ عَلَى الْجَلَادَةِ الْوُسْطَى ، وَأَقْدَرُهُمْ عَلَى الْحَقِّعَةِ الْعَظْمَى .

ولا بد من أن يسلك كل رئيس مسلكه، وكل زمان خطه؛ ولا يسجدني قول
الفاصل : لم يدع الأول للآخر شيئاً، بل تعمري لقد ترك له العريض الطويل،
والثمين الخيطير، والقمم النعج، والمنهج الرحب . ولو أن الناس مذبحت هذه الكلمة
على أفواه العوام، وأعجب بها الأغمار من الرجال - قلدوا هذا الحكم، واستسلموا
لهذا المذهب، وأهلوا الروية، وتسلوا من القائدة، لقد كان ارتفع من الدنيا نفع
كثير، وعلم عزيز .

وأى زمان بعد زمان النبي صلى الله عليه وآله أحق بالتفضيل، وأولى بالتقديم،
من زمان ظهرت فيه الدعوة الهاشمية، والدولة العباسية، ثم زمان المتوكل على الله،
والناصر لدين الله، والإمام الذي جل فكره، وكثر شغله بتصفية الدين وتهذيبه،
وتخليصه وتبقيحه : وإعزازه وتأييده، وأجتماع كلمته، ورجوع ألقته . وقد
سمعت من يقول - ويستشهد العيان القاهر، والخبر المتظاهر - : مارأيت في زماننا
من كفاة السلطان وولايه، وأعوانه وحمايه؛ من كان يؤمل تحللك، ويتقدم
في التأهب له، إلا وقد كان معه من البذخ والنفع، ومن الصلف والمعجب، ومن
الخيلاء، ومن إفراط التغير للأولياء، والتهاكم على الخططاء، ومن سوء اللقاء،
مالا يخفاه به على كاتب ولا على عامل، ولا على خطيب ولا على أديب؛ ولا على
خاصي ولا على عامي .

بجمعت - والحمد لله على النعمة فيك - بين التواضع والتعجب، وبين الإنصاف
وقلة التردد؛ فلا يستطيع عدو معلن، ولا كاشع مبر، ولا جاهل غي، ولا عالم
مبرز، يزعم أنه رأى في سمانك وأعطافك - عند نتائج النعم، وتظاهر المنز - تغيراً
في لبايه ولا في بشر عند المسألة، ولا في إنصاف عند المعاملة، واحتمال عند
المطالبة . الأمر واحد، والخلق دائم، والبشر ظاهري، والمجج ثاقبي، والأعمال

زاجيه، والنفوس راضيه، والميئون ناطقة بالحبه، والشذور مأهولة بالموده،
والداعي كثير، والشاكي قليل، وأنت حمد الله تزداد في كل يوم بالتواضع نبلا،
وبالإتصاف فضلا، وبحسن اللقاء محبة، وبغلة العجب هيبة .

وقال سهل بن هرون في دعائه لبعض من كانت يعتق بشأنه : اللهم زده من
الخيرات، وأبسط له في البركات، حتى يكون كل يوم من أيامه مؤفيا على أمسه،
مقصرا عن قبيلة قده . وقال في هذا المعنى أعشى همدان، وهو من المتضمرين :

رَأَيْتُكَ أَمْسَ خَيْرَ بَنِي مَعَدٍّ • وَأَتَى الْيَوْمَ خَيْرَ مَنْكَ أَمْسَ،

وبعد غد تزيد الخير ضعفا • كذلك يزيد سادة عبدي تيسا !

قد والله أتم الله عليك وأسع، فاشكر الله وأخلص، محبتك شريف، وأرومك
كرامة، والعرق منجب، والممدد دثر، والأمر جميل، والوجوه حسان، والمقول
ريزان، والمغاف ظاهر، والذكر طيب، والنعمة قديمة، والصنيعة جسيمة،
وما مثلكم إلا كما قال الشاعر :

إِنَّ الْمَهَالَةَ الْكَرَامَ تَحْمَلُوا • دَفَعَ الْمَكَارِهِ عَنْ ذَوَى الْمَكْرُوهِ،

زَانُوا قَدِيمَهُمْ بِحُسْنِ حَدِيثِهِمْ • وَكَرِيمَ أَخْلَاقٍ بِحُسْنِ وَجْهِهِ !

النعمة محفوظة بالشكر، والأخلاق مقيمة بالأدب، والكفاة عفوقة بالحدق،
والحدق مردود إلى التوكل، والصنع من وراء الجميع إن شاء الله .

هذا إلى ما ألبس الله من القبول، وعشاك من المحبة، وطوقك من الصبر .
فبي الآن أن تستهي ما أنت فيه شهوة في وزن هذه المرتبة . وفي مقدار هذه المترلة،
فإن الرغبة وإن قويت، والرغبة وإن أشتدت، فإني لا يثران من النشاط،

وَيُضِجَانِ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْمُبَاشَرَةِ وَالْكَدِّ ، مَا يُثْمِرُهُ الشَّهْوَةُ وَإِنْ ضَعُفَتْ ، وَالْحَرَكَةُ مِنْ ذَاتِ النَّفْسِ وَإِنْ قَلَّتْ ، لِأَنَّ النَّفْسَ لَا تَسْمَحُ بِمَكُونِهَا كُلُّهُ ، وَتُجُودُ بِغَيْرِ زَوْنٍ قَوْلَاهَا أَجْمَعُ ، إِلَّا بِالشَّهْوَةِ دُونَ كُلِّ حِلَّةٍ مُحَرَّكَةٍ ، وَكُلِّ سَبَبٍ مُهَيِّجٍ .

قال يحيى بن خالد بن جعفر بن يحيى حين تَخَلَّدَ الْوِزَارَةَ ، وَتَكَفَّفَ الشَّهْوَى بِأَعْيَادِهِ الْإِلَهِيَّةِ : أَيُّ بَيْءٍ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ السَّجَزَ : لِعَظِيمِ مَا تَهَلَّلْتَ ، وَجَسِيمِ مَا تَعَلَّمْتَ .
إِنِّي لَأَنْتُ أَمَرْتُ أَنْ تَنْقَسَحَ تَحْتَ ظِلِّهَا تَنْقَسَحَ الْجَمَلُ تَحْتَ الْجَمَلِ الْفَحِيلِ .
قال جعفر : لِيَكُنِّي أَرْجُو الْقُوَّةَ ، وَأَطْمَعُ أَنْ أَسْتَقِيلَ هَذَا الثَّقَلَ وَأَنَا مُبْتَهِلٌ غَيْرُ مَبْهُورٍ ، وَأُجِءُ قَبْلَ السَّوَابِقِ وَأَنَا ثَانِي . يقول : وَأَنَا ثَانِي عَنَّا ، لِأَنِّي لَمْ أَجْهَدْ قَرِيبِي رَكْعًا . قال يحيى : إِنْ لَكُلِّ رَجَاءٍ سَبَبٌ ، فَمَا سَبَبُ رَجَائِكَ ؟ قال : شَهْوَتِي لِمَا أَنَا فِيهِ ، وَالْمُنْتَهَى لِلْعَمَلِ لَا يَجِدُ مِنَ أَلَمِ الْكَدِّ مَا يَجِدُهُ السَّيْفُ الْأَسِيفُ .
قال يحيى : إِنْ تَهَضَّتْ بِظِلِّهَا فَبِهَذَا ، وَالْأَفْلا . وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَصْرِفَ شَهْوَتَكَ إِلَى حُبِّ ذَلِكَ ، وَعَوَاكِلَ إِلَى الْإِحْضَاطِ بِنِعْمَتِكَ : بِشُكْرِ الْمُصْلِحِينَ ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وَحَقٌّ لِمَنْ كَانَ مِنْ غَرَسِ الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ وَأَبْتَدَأَهُ ، وَمِنْ صَنَائِعِهِ وَأَخْتَارِهِ ؛ أَنْ يُخْرِجَ عَلَى أَدَبِهِ وَتَعْلِيمِهِ ، وَعَلَى تَنْقِيفِهِ وَتَقْوِيمِهِ ؛ وَأَنْ يُحَقِّقَ اللَّهُ فِيهِ الْأَمَلَ ، وَيُخْرِجَ فِيهِ الطَّمَعُ ، وَأَنْ يَمَكِّنَ لَهُ فِي السَّلَامَةِ ، وَيُجْزِلَ لَهُ مِنَ الْغَنِيمَةِ ؛ وَيُطَلِّبَ ذِكْرَهُ ، وَيُطْلِيَ رَغْبَهُ ؛ وَيُسِّرَ صِدْقَهُ ، وَيَكْتِبَ عُدْوَهُ .



وهذه نسخة رسالة تسمى الإغريقية ، أرسلها أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المَعَرِّي التَّوْبِيحِيُّ إِلَى أَبِي الْقَاسِمِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ الْمَقْرَبِيِّ ، وَهِيَ :

[بسم الله الرحمن الرحيم وبه الإمامة^(١) .

السلام عليك أيتها الحكمة المتعريية، والافلاطون العربية؛ أي هواء ذلك، وأنى
غيت سقالك؛ برقه كالإخريض، وودقه مثل الإغريض؛ حلت الروه، وجلت
عن الهبوه؛ أقول لك ما قال أخو عمير، لفتاة بن عمير:

زكا لك صباح وخلاك ذم * وصبحك الأيام والسعود!

لأنّا أنف على قريك من الغراب المجازي، على حسن الزمى؛ لما انقر، وركب
السفر، قديم جبال الروم في قو، أنزل البرس من الجوى؛ فالتفت إلى عطفه وقد شبط
فأبى، وترك التيب أو تى، وهبط إلى الأرض فشق في قيد، وعمل بيت دريد:

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه * فلما علاه قال للباطل: أبسد!

وأراد الإياب، في ذلك الحباب؛ فكره الشمت، فكبد حتى مات؛ ورب وإلى
أغرق في الإكرام، فوقع في الإبرام؛ إبرام السأم، لا إبرام السلم؛ فخرس الله سيدنا
حتى تدغم العلاء في المساء، فلك حراسة بغير آتله؛ وذلك أن هذين صقان، وعل
التضاد متباعدان، رنحو وشديد، وحاد ودو تصعيد؛ وهما في الجهر والهمس،
بمتلة قيد وأمس؛ وجعل الله رتبته التي كالفاصل والمبتدا، نظير العمل في أنها
لا تخفئ أبدا؛ فقد جعلني: إن حضرت عرف شاني، وإن غبت لم يجهل
مكاني؛ كما في التلاء، والمهزوف من الابتداء؛ إنا قلت: زيد أفيئ، والإيئ
الإيئ؛ بعد ما كنت كهاه الوقف إن أقيئت فواجب، وإن ذكرت فغير لازب.

(١) الزيادة من شرح الرسالة الإغريقية الموجودة بدار الكتب السلطانية تحت نمرة ١٢٧ أدب .

(٢) البرس القطن، والمراد الطح الشبه به .

إِنِّي وَإِنْ غَوَيْتُ [فِي زَمَانٍ] كَثِيرَ الدَّهْرِ ، كِهَاءِ السَّيِّدِ ، لَزِمَتِ الْمَذْكُورَ ، فَاتَتْ بِالْمُنْتَكِرِ ، مَعَ إِيْفٍ يَرَانِي فِي الْأَصْلِ ، كَالِيفِ الْوَصْلِ ، يَدُ كُرْنِي بِغَيْرِ التَّنَاءِ ، وَيَطْرَحُنِي عِنْدَ الْأَسْتِغْنَاءِ ؛ وَحَلَّ كَالْمُزْمَةِ تُبَدِّلُ الْعَيْنَ ، وَتُجْمَلُ بَيْنَ بَيْنَ ؛ وَتَكُونُ تَارَةً حَرْفَ لَيْنَ ، وَتَارَةً مِثْلَ الصَّامِتِ الرُّصِينِ ؛ فَهِيَ لَا تَنْتَبِثُ عَلَى طَرِيقِهِ ، وَلَا تُتْرَكُ لَهَا صُورَةٌ فِي الْحَقِيقَةِ ؛ وَنَوَائِبُ الْحَقِيقَةِ الْكَبِيرِ بِالصَّغِيرِ ، كَأَنهَا تَرْخِيمُ التَّصْنِيرِ ؛ رَدَّتِ الْمُسْتَحْلِسَ إِلَى حُلُوسٍ ، وَقَابُوسًا إِلَى قُبُوسٍ ؛ لَأَمُدَّكَ صَوْتِي بِتِلْكَ الْآلَاءِ ، مَدَّ الْكُوفِيِّ صَوْتَهُ فِي هَؤُلَاءِ ؛ وَاخْشَفَ عَنْ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا [الْوَزِيرِ] ^(١) الرَّئِيسِ الْحَبْرَ ، تَخْفِيفَ الْمَدِّ فِي مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ مِنَ التَّبَرُّ ؛ إِنْ كَانَتْ فَلَسْتُ مُتَمِسِّسَ جَوَابٍ ، وَإِنْ أَسْهَبْتُ فِي الشُّكْرِ فَلَسْتُ طَالِبَ تَوَابٍ ؛ حَسْبِيَ مَا لَدَى مَنْ أَيْلِيهِ ، وَمَا عَمَرَ مِنْ فَضْلِ السَّيِّدِ الْأَكْبَرِ أَبِيهِ ؛ أَدَامَ اللَّهُ لَهَا الْقَدْرَ مَا دَامَ الضَّرْبُ الْأَوَّلُ مِنَ الطُّوِيلِ صَحِيحًا ، وَالْمُنْسَرِحُ خَفِيفًا سَرِيعًا ؛ وَقَبَضَ اللَّهُ عَيْنَ عُدُوِّهَا عَنْ كُلِّ مَعْنٍ ، قَبَضَ الْعُرُوضَ مِنْ أَوَّلِ وَزْنٍ ؛ وَجَمَعَ لَهُ الْمَهَانَةَ إِلَى التَّقِيدِ ، كَمَا جُمِعَا فِي تَأْيِي الْمُنِيدِ ، وَقِيلَ قَلَمُ الْقَبِيطِ ، وَخِيلَ كَسْبَاعِي الْبَيْسِطِ ؛ وَعَصَبَ [أَفَّهُ] ^(٢) الشَّرْهَامَةَ شَاتِيهِمَا وَهُوَ مَجْزُوزٌ ، عَصَبَ الْوَافِرِ الثَّالِثِ وَهُوَ مَجْزُوزٌ ؛ بَلْ أَتَمَّرْتَهُ الْأَرْضَ إِشْمَارَ تَالِثِ الْكَامِلِ ، وَعَدَّاهُ أَمْلَ الْإِمْلِ ؛ وَسَلِمَ سَيِّدَانَا أَعَزَّ اللَّهُ نَصْرَهَا وَمِنْ أَحِبَّاهُ وَقَرَّبَاهُ سَلَامَةً مُتَوَسِّطِ الْمُجْمُوعَاتِ ، فَإِنَّهُ أَمِينٌ مِنْ الْمُرُوعَاتِ ؛ فَقَدْ أَقْنَنْتُ فِي نِعْمَتِيهِمَا الرَّائِمَةَ ، كَأَفْتِنَانِ الدَّائِرَةِ الرَّائِمَةِ ؛ وَفَلَكُ أَنَّهَا أُمُّ سِتَّةِ مَوْجُودِينَ ، وَثَلَاثَةِ مَقْقُودِينَ .

وَأَنَا أَعِدُّ نَفْسِي مُرَاسَلَةَ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا الْجَلِيلَةِ عِدَّةَ ثُرَيَّا الْقَيْلِ ، وَثُرَيَّا سَهِيلِ ؛ هَذِهِ الْقَمَرُ ، وَتِلْكَ عُمَرُ ؛ وَأَعْظَمُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ ؛ إِعْظَامًا فِي مِقَّةٍ وَبَعْضُ الْإِعْظَامِ

في مَقْتٍ ؛ قد نَصَبَ لِلدَّيَّانِ قِيَّةً صَارَ الشَّامُ فِيهَا كَشَامَةَ الْمَغِيبِ ، وَالْعِرَاقُ كَمِرَاقِ
الشَّعِيبِ ؛ أَحْسَبَ ظِلَالَهَا مِنَ الْبَرْدَيْنِ ، وَأَغْنَتْ الْعَالَمَ عَنِ الْهِنْدَيْنِ ؛ هِنْدُ الطَّبِيبِ ،
وَهِنْدُ النَّسِيبِ ؛ رَبَّةُ الْخَمَارِ ، وَأَرْبَابُ قِسَارِ ؛ أَخْدَانُ الصَّجَرِ ، وَخَدِينَةُ الْمَجَرِ .
مَاحِلَةُ طُلُوقِ مِنَ اللَّيْلِ ، وَبُرْدٌ مِنَ الْمُرْبِيعِ مَكْفُوفِ اللَّذِيلِ ؛ أَوْفَتْ الْأَشْيَاءُ ، قَالَتْ
لِلْكَيْبِ مَا شَاءَ ؛ تَسْمِيَهُ غَيْرَ مَقْهُومٍ ، لَا بِالرَّيْلِ وَلَا بِالْمَرْمُومِ ؛ كَانَ تَحِيَمَهَا قَرِيضُ ،
وَمُرَاسِلَهَا الْفَرِيضُ ؛ فَقَدْ مَادَ لَشَجْوِهَا الْمُودَ ، وَفَقِدَهَا لَا يَمُودُ ؛ تَدْبُ هَدِيبَلَاتُ ،
وَأُتِيحَ لَهُ بَعْضُ الْآفَاتِ - بِأَشْوَقَ إِلَى هَدِيبِلِهَا مِنْ عَيْدِهِ إِلَى مُنَاسِمَةِ أَنْبَائِهِ ، وَلَا أَوْجَدَ
عَلَى إِفْقِهَا مِنْهُ عَلَى زِيَارَةِ فَنَائِهِ ؛ وَلَيْسَتْ الْأَشْوَاقُ ، لِلذَّوَابِ الْأَطْوَاقُ ؛ وَلَا عِنْدَ
السَّاحِجَةِ ، عِبْرَةٌ مُمَرَّاجَةٍ ؛ إِنَّمَا رَأَتْ الشَّرْطَيْنِ ، قَبْلَ الْبُطْنِ ؛ وَالرَّشَاءُ ، بَعْدَ
الْمِشَاءِ ؛ فَخَنَّتْ صَوْتَ الْمَاءِ فِي الْخَمِيرِ ، وَأَتَتْ بَرَاءَ دَائِمَةِ التَّكْرَرِ ؛ فَقَالَ جَاهِلٌ
قَدَلْتُ حَمِيًّا ، وَبُكَلْتُ وَلَدًا كَرِيمًا : وَهَيْهَاتَ يَا بَاكِئَةً أَصْبَحْتَ ، فَصَدَحْتَ ؛
وَأَمْسَيْتَ ، فَتَنَاسَيْتَ ؛ لَا هَمَامَ لَا هَمَامَ ، مَا رَأَيْتُ أَنْجَبَ مِنْ هَاطِفِ الْحَمَامِ ؛ سَلِمَ
فَنَاحٌ ، وَصَمَتَ وَهُوَ مَكْسُورُ الْجَنَاحِ ؛ إِنَّمَا الشَّوْقُ لِمَنْ يَذْكُرُنِي كُلَّ حِينٍ ، وَلَا يُبْلِغُهُ
مُضَى السَّنِينَ .

وَسَيِّدُنَا الْوَزِيرُ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ الْفَائِلُ النَّظْمُ فِي الدِّكَاءِ مِثْلُ الزَّهَرِ ، وَفِي النَّقَاءِ مِثْلُ
الْجَوْهَرِ ؛ تَحَسَّبُ بِأَدْرَتِهِ التَّاجُ ، أَرْتَفَعَ عَنِ الْجَنَاحِ ؛ وَغَايَرَتِهِ الْجَهْلُ ، فِي الرَّجُلِ ؛ يَجْمَعُ
بَيْنَ النَّفِيطِ الْقَلِيلِ ، وَالْمَعْنَى الْجَلِيلِ ؛ جَمَعَ الْأَنْوَانَ فِي لُغَايِهِ بَيْنَ الْفَلَةِ ، وَقَدِيدِ الْيَلَةِ ؛
خَشَنُ ، فَحَسَنُ ؛ وَلَانُ ، فَسَا هَانُ ؛ لَيْنُ الشَّكْرِ ، يَدُلُّ عَلَى حَتَّى الْخُضْبَرِ ، وَحَرَشُ
الْبَنَارِ ، آيَةُ كَرَمِ التَّجَارِ ؛ فَصُنُوفُ الْأَشْعَارِ بَعْدَ كَالِفِ السَّلَامِ ، يُفَقِّظُهَا فِي الْكَلَامِ ،
وَلَا تَنْهَتْ لَهَا هَيْئَةً بَعْدَ اللَّامِ ؛ خَلَصَ مِنْ سَيِّئِ النَّقْدِ خُلُوصَ اللَّحَبِ ، مِنَ الْقَهَبِ ؛
وَالْبُخْبَيْنِ ، مِنْ يَدِ الْقَيْنِ ؛ كَأَنَّهُ لَأَلٌ ، فِي أَغْنَاكِ حَوَالٍ ؛ وَسِوَاهُ لَطٌ ، فِي عُقِّي نَطٌ ؛

مَا خَافَتْهُ قُوَّةُ الْخَاطِرِ الْأَمِينِ ، وَلَا عِيبَ بَسَادٍ وَلَا تَضْمِينَ ؛ وَأَيْنَ الثَّقَةِ ، مِنْ
الثَّقَةِ ؛ وَالْفَرَقْدِ ، مِنْ الْفَرَقْدِ ؟ ؛ فَالْسَّاعِي فِي آثَرِهِ فَارِسٌ عَصَاً بَصِيرٌ ، لَا فَارِسُ
عَصَاً قَصِيرٌ .

وَأَنَا ثَابِتٌ فِي هَذِهِ الطُّورَةِ ثَبَاتَ حَرَكَةِ الْبِنَاءِ ، مُقِيمٌ تِلْكَ الشَّهَادَةَ بِغَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ ؛
غَنَى عَنِ الْإِيمَانِ فَلَا عَدَمَ ، مُقِيمٌ كُلَّ مَا قُلْتُ فَلَا حِثَّ وَلَا تَدَمَ ؛ وَإِنَّمَا نُحِبُّ الْفَرْدَ ،
لِلْمُسْنَاءِ الْحَزَنَةِ ، وَنُحَادُ بِالْيَمِينِ ، فِي الْعِلَاقِ الثَّمِينِ ؛ مَا أَنْهَسَ خَاطِرًا أَمْتَرَى الْفَضَّةَ ،
مِنْ التَّضْمَةِ ، وَالْوَصَاءِ ، مِنْ مِثْلِ الْحَصَاءِ ؛ وَرُبَّمَا تَزَعَّتِ الْأَشْيَاءُ ، وَلَمْ يُنْسِيهِ الْمَرَّةُ
أَبَاهُ ، وَلَا غَرَوَ لِفُلْكَ : الْخُضْرَةُ أَمْ اللَّيْلِبُ ، وَالتَّمْرَةُ بِنْتُ الْغَرِيبِ .

وَكَذَلِكَ سَيِّدَانَا وَلَدٌ مِنْ بَحْرِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، حِكْمَةٌ لِلتَّحْفَاءِ الْمُتَدَبِّرِينَ ؛ كَمَلَهُ مِنْ قَافِيَةِ
تَبَيُّنِ السُّودِ ، وَتَبَيُّنِ الْحُسُودِ ؛ كَلِمَتِي ، مِنْ شُرْبِ الْعَاقَةِ الْكَبِيتِ ؛ نُسُورِهِ قَرِيبٌ ،
وَحِسَابُهُ تَرْتِيبٌ ؛ أَيْنَ مِثْبُوهَا النَّاقَةُ بِالْقَدَنِ ، وَالْمُصَحَّصِ بِرَدَّاءِ الرَّدَنِ ؛ وَجِبِ
الرَّحِيلِ ، عَنِ الرَّعِ الْمُحِيلِ ؛ نَسَأُ بِلَدِمٍ وَأَصِفُ ، غُودِرَ رَأْيِهِ كَلِمَاتِي صِفَ ؛ إِذَا سَمِعَ
الْخَافِضُ صِفَتَهُ لِلْسَّهْبِ الْفَسِيحِ ، وَالرَّهْبِ الطَّلِيحِ ، وَدَّ أَنْ حَشِيَّتَهُ بَيْنَ الْأَخْنَاءِ ،
وَحُلُوقِهِ عَصِمَ الْهِنَاءِ ؛ وَحَلَّمَ بِالْقُودِ ، فِي الرُّقُودِ ؛ وَصَاغَ بُرَى قَوَاتِ الْأَرْسَانِ ، مِنْ
بُرَى الْبَيْضِ الْحِسَانِ ؛ تَسَنَّفَا لَدَّرَ الثُّحُورِ ، وَصُيُونِ الْحُورِ ؛ وَشَقَقَا بِدَّرَ بَكِي ، وَبَيْنَ
مِثْلِ الرِّكِيِّ ؛ وَإِعْرَاضًا عَنْ بُدُورِ ، سَكَنَ فِي الْخُلُودِ ؛ إِلَى مَحْوِلِ ، كَأَهْلَةِ الْمُحْوِلِ ؛
فَهُنْ أَشْيَاءُ الْقِيَمَى ، وَنَمَامُ النَّبَى ؛ وَإِنْ أَخَذَ فِي نَمَتِ [الْخَلِيلِ] ^(١) فَيَاخِيَةَ مِنْ سَبَبِهِ
الْأَوَادِ بِالتَّقِيدِ ، وَشَبَّهَ الْخَافِرَ بِقَعْبِ الْوَلِيدِ ؛ نَمَّا غَطَّ بِهِ الْمَعِينُ الْمُنْسُوبَ ، وَالْبَازِي

(١) الزيادة من شرح الرسالة .

(٢) أى أعذب حواسها . وفى الأصل شَبَّ بِالْثَمِينِ .

الْبَسُوبُ؛ إِذْ رُزِقَ مِنَ الْخَيْرِ، مَا لَيْسَ لَكَثِيرٍ مِنْ سِبَاعِ الطَّيْرِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلَى الصَّغَرِ، سَمِيَ بِبَعْضِ النَّوْرِ؛ وَقَدْ مَضَى حَرَسٌ، وَخَفَتَ جَرَسٌ؛ وَلِلْقَالِيعِ، ابْنُصُّ طَالِيعٌ؛ وَالْأَزْرَقُ، يُحِبُّكَ عَنْهُ الْفَرَقُ .

فَالْآنَ سَلِمَتِ الْجَنَّةُ مِنَ الْمَعْصُ، وَتَمَلَّ بِمَعْضَاهَا بَرَكَاتُ بَعْضٍ؛ فَأَيُّنَ النَّطْلِيعِ، أَنْ رَبَّهُ لَا يَطْلِيعُ؛ وَالْمُهْقُوعُ، تَجَاءُ رَأْيُهُ مِنَ الْوُقُوعِ؛ فَلَنْ يُحَرَّبَ، قَائِدُ الْمُقَرَّبِ؛ وَلَنْ يُرْجَلَ، سَائِسُ الْأَرْجَلِ؛ وَالْعَابُ، وَإِنْ لَحِقَ الْكِتَابُ؛ فَإِنَّهُ نَاكِبٌ، عَنْ نَاقِلَاتِ الْمَرَكَبِ . وَقَالَتْ خَيْفَانَةُ أَحْمَرِيُّ الْقَيْسِ : الدِّبَاءُ، لِرَأْيِ الْمِبَاءِ؛ وَالْأُتْمِيَّةُ، لِلْقَدْرِ الْكَفِيَّةِ؛ تَقَاعِلُ جَاعِلٍ غَدَرَهَا كُفْرُونِ الْعُرُوسِ، وَجَبَّهَتِهَا كُحْدَفُ التُّرُوسِ؛ وَأَفَى الْبَكْنِدِيُّ، قَوَافٍ كَهَجْمَةِ السَّمْدِيِّ :

إِذَا أَصْطَلَكْتَ بِضَيْقٍ مَجْرَتَاهَا = تَلَاقَ الْعَسْجِدِيَّةُ وَاللِّطِيمُ !

فَالْقَسِيبُ، فِي تَضَايُفِ النَّسِيبِ، وَالشَّبَابُ فِي ذَلِكَ التَّقَشِيبِ؛ لَيْسَ رَوِيهِ بِمَقْلُوبٍ، وَلَكِنَّهُ مِنْ إِرْوَاءِ الْقُلُوبِ؛ قَدْ جَمَعَ اللَّيْلُ مَاءَ الصَّبَا، وَصَلِيلَ ظِلْمَاءِ الظُّبَا؛ فَالْمِصْرَاعُ كَوْدِيلَةُ النَّرِيَّةِ، حَكَّتِ الزَّيْنَةَ وَالرِّيَّةَ؛ وَأَرَتِ الْحَسَنَاءُ سَنَاهَا، وَالسُّجْمَةَ مَا عَنَاهَا؛ فَأَمَّا الرَّاحُ فَلَوْ دَكَّرَهَا لَشَفَّتْ مِنَ الْمَرَمِ، وَأُتْنَفَتْ مِنَ الْكَرَمِ إِلَى الْكَرَمِ؛ وَلَمْ تَرَوْضُ دِنَانُ الْعُقَارِ، بِلِبَاسِ الْقَارِ، وَتَسْجُ الْعَنَابِ، عَلَى الْمَنَابِ؛ وَلَكِنْ تُكْسَى مِنْ وَثِي شِيَابَا، وَيُجْعَلُ طِلَاؤُهَا زُرِّيَابَا؛ وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ ذَكَرَ خِيَمَةَ يَنْطِطُ الْمِسْكُ جَارَهَا مِنَ الشَّيَامِ، وَيُوَدُّ سَعْدُ الْأَخْيَةِ أَنَّهُ سَعْدُ الْخِيَامِ .

وَوَقَفْتُ عَلَى «مُخْتَصَرِ إِصْلَاحِ الْمَنْطِقِ» الَّذِي كَلَّدَ بِسِمَاءِ الْأَبْوَابِ، يُفْنِي عَنْ سَائِرِ الْكِتَابِ؛ فَجَبَّيْتُ كُلَّ الْعَجَبِ مِنْ تَقْيِيدِ الْأَجْمَالِ، بِطِلَاءِ الْأَحْجَالِ؛ وَقَلْبِ الْبَحْرِ،

إلى قَلْبِ الصَّخْرَةِ وإِجْرَاءِ الْقُرَاتِ، فِي مِثْلِ الْأَنْحَرَاتِ؛ شَرَفًا لَهُ تَصْنِيفًا شَفَى الرَّبِّ،
وَكَفَى مِنْ أَيْنِ قَرِيبٍ؛ وَدَلَّ عَلَى جَوَامِعِ اللَّغَةِ بِالْإِيْمَاءِ، كَمَا دَلَّ الْمُضْمَرُّ عَلَى مَا طَالَ
مِنْ الْأَسْمَاءِ .

أَقُولُ فِي الْإِخْبَارِ : أَمَرْتُ أَبَا عَبْدِ الْجَبَّارِ ، فَإِذَا أَصْبَرْتُهُ ، عُرِفَ مَتَى قُلْتُ :
أَمَرْتُهُ ، وَأَبْلَى مِنَ الْمَرَضِ وَالْمَرِيضِ ، بِمَا أَسْقَطَ مِنْ شُهُودِ الْقَرِيضِ ؛ كَأَنَّهُمْ
فِي تِلْكَ الْحَالِ ، شَبَّهُوا بِالْحَالِ ؛ عِنْدَ قَاضٍ ، عَرَفَ أَمَانَتَهُمْ بِالْإِنْقِاضِ ؛ عَلَى حَقِّ
عِلْمِهِ بِالْيَقَانِ ، فَاسْتَفْنَى فِيهِ عَنْ كُلِّ بَيَانٍ .

وَقَدْ تَأَمَّلْتُ شَوَاهِدَ "إِصْلَاحِ الْمُنَاطِقِ" فَوَجَدْتُهَا عَشْرَةَ أَنْوَاعٍ فِي عِدَّةِ اخْوَةِ
الصَّدِّيقِ ، لَمَّا تَنَظَّاهُ وَاعْلَى غَيْرِ حَقِيقٍ ، وَتَرِيدُ عَلَى الْعَشْرَةِ بِوَاحِدٍ ، كَمَا جِئَ يُوسُفُ
لَمْ يَكُنْ بِالشَّاهِدِ . وَالشَّعْرُ الْأَوَّلُ وَإِنْ كَانَ سَبَبَ الْآخَرِ ، وَصَحِيفَةُ الْمَأْتَرَةِ ؛ فَإِنَّهُ كَذُوبُ
الْقَالَهْ ، تَحْمُومُ الْإِطْلَالِ ؛ وَإِنْ قَفَا نَبِكَ [عَلَى حُسْنِهَا] ، وَقَدِمَ سِنَهَا ، لِنِقْمٍ بِمَا يُبْطِلُ
شَهَادَةَ الصَّدْلِ الرِّضَا ، فَكَيْفَ بِالْبَيْتِ الْأَثْنِ ؛ قَاتَلَهَا اللَّهُ عَجُوزًا لَوْ كَانَتْ بِشْرِيهِ ،
كَانَتْ مِنْ أَغْوَى الْبَرِيَّةِ . وَقَدْ تَمَادَى بِأَبِي يُوسُفَ رَحِمَهُ اللَّهُ الْأَجْتِنَادُ ، فِي إِقَامَةِ
الْأَشْهَادِ ، حَتَّى أَتَسَدَّ رَيْزَ الضُّبِّ ، وَإِنْ مَعْنَى مِنْ ذَلِكَ لِحْدُ مُغْضَبٍ ؛ أَعْلَى فَصَاحَتِهِ
يُسْتَعَانُ بِالْقَرُوضِ ، وَيُسْتَشْهَدُ بِأَحْنَاسِ الْأَرْضِ ؟ ؛ مَا رُؤِبَتْ عَنْهُ فِي تَغْيِيرِ ، فَمَا قَوْلُكَ
فِي ضَبِّ دَائِمِ الْأَطْفَانِ ؟ ؛ وَمَنْ تَنْظُرُ فِي كِتَابِ يَعْقُوبَ وَسَيِّدِهِ كَالْمُهْمَلِ ، إِلَّا بَابَ قِيلَ
وَقِيلَ ؛ فَإِنَّهُ مُؤَلَّفٌ عَلَى عَشْرِينَ حَرْفًا : سِتَّةَ مُدْلَقَةٍ ، وَثَلَاثَةَ مُطَبَقَةٍ ، وَأَرْبَعَةَ مِنْ
الْحُرُوفِ الشَّدِيدَةِ ، وَوَاحِدٌ مِنَ الْمَزِيدَةِ ؛ وَفِيهِ تَيْنِ : الثَّاءُ وَالذَّالُ ، وَاتَّخَرْتُمَا عَلَى
وَالْأَخْتَيْنِ التَّيْنِ وَالْحَاءِ ، وَالثَّانِ مُضَافَةٌ إِلَى حَبَرِ الرَّاءِ . فَرَجَمَ اللَّهُ أَبَا يُوسُفَ لَوْ عَاشَ
لَقَاطَ كَمَدًا ، أَوْ أَحْفَاطَ حَسَدًا ، سَبَقَ أَبْنُ السَّكَيْتِ ثُمَّ صَارَ السَّكَيْتُ ، وَتَمَقَّقَ ثُمَّ حَارَ
وَيَمَّا اللَّيْتُ ؛ كَانَ الْكَتَابُ يَبْرَأُ فِي تَرْيَابِ مَعْدِنٍ ، يَبْنِي الْحُثَّ وَيَبْنِي الْمُتَنَدِّنَ ؛ فَاسْتَخْرَجَهُ

سَيِّدَنَا وَاسْتَوْشَاهُ، وَصَقَلَهُ فِكْرُهُ وَوَشَّاهُ، فَغَطَّلَهُ النَّبَاتُ عَلَى التَّرْقِيشِ، وَالْأَكَلِ الْقَيْشِ؛
فَهُوَ مَحْبُوبٌ لَيْسَ يَهِنُ، عَلَى أَنَّهُ ذُو وَجْهَيْنِ؛ مَا نَمَّ قَطُّ وَلَا هَمَّ، وَلَا تَطَّقُ وَلَا أَرَمَ؛
فَقَدْ تَأَبَّى فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الصِّيمِ، مَتَابَ مِرَاةَ الْمُتَجَمِّمِ فِي عِلْمِ التَّنْجِيمِ، تَغْضُّهَا ضَيْلُ
مَلُومٍ، وَفِيهَا الْقَمَرَانِ وَالنُّجُومِ .

وأقول بعد في إعادة اللفظ : إِنَّ حُكْمَ التَّأْلِيفِ فِي ذِكْرِ الْكَلِمَةِ مَرَّتَيْنِ ، كَالْجَمْعِ
فِي النِّكَاحِ بَيْنِ الْأَخْتَيْنِ ؛ الْأَوَّلَى حُلُّ يَرَامُ ، وَالثَّانِيَةُ بَسْلُ حَرَامٌ ؛ كَيْفَ يَكُونُ
فِي الْهُودَجِ لَيْسَانٌ ، وَفِي السَّبَةِ نَجِيمَانِ ؛ يَا أُمَّ الْفَتَيَاتِ حَسْبُكَ مِنَ الْهُودِ ، وَيَا أَبَا
الْفَتَيَانِ شَرُّكَ مِنَ السُّعُودِ ؛ عَلَيْكَ أَنْتِ بَزِيْفٌ وَدَعْدٌ ، وَسَمَّ أَيُّهَا الرَّجُلُ يَسُوئِي سَعْدُ ؛
مَا قَلَّ أَهْمٌ ، وَالْأَسْمَاءُ كَثِيرٌ .

مَثَلٌ يَعْقُوبُ مَثَلُ خَوْذٍ كَثِيرَةٍ الْحُلِيِّ ضَاعَفَتْهُ عَلَى التَّرَاقِ ، وَعَطَلَتْ انْخِفَاضَ وَالسَّاقِ ؛
كَانَ يَوْمٌ قَدِيمٌ تِلْكَ النُّسَخَةِ يَوْمَ ضَرِبَ حَشَرَ الْوَحْشِ مَعَ الْإِنْسِ ، وَأَضَافَ
الْجُنْسَ إِلَى غَيْرِ الْجُنْسِ ؛ وَلَمْ يَحْكَمْ عَلَى الْقَبَاءِ ، بِالسَّاءِ ؛ وَلَا رَمَى الْآجَالَ ، بِالْأَوْجَالَ ؛
وَلَكِنْ الْأَضْدَادَ تَجْتَمِعُ ، فَتَسْتَمِيعُ ، وَتَتَصَرِّفُ بِلَذَاتِ ، مِنْ غَيْرِ آذَاءٍ ؛ وَإِنْ عَمِدَهُ
مُوسَى لَفَيْتِي قَابًا ، قَال : هَلُمَّ كِتَابًا ، يَكُونُ لَكَ شَرْفًا ، وَبُعُودًا لِيكَ فِي حَضْرَةِ سَيِّدِنَا
- أَطَالَ إِيَّاهُ بَقَاءَهُ - مُعْتَرِفًا ؛ فَتَلَوْتُ عَلَيْهِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ : ﴿ إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تُجْمَعَ فِيهَا
وَلَا تَعْرَى وَأَنْتَ لَا تَقْلَمُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾ . وَأَحْسِبُهُ رَأَى نُورَ السُّودِدِ فَقَالَ لِمُخْلِيفِهِ ،
مَا قَالَهُ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ : ﴿ إِنِّي أَنَا نَارًا لَنَرَى آيَاتِكُمْ مِنْهَا بَقِيَسٌ
أَوْ أَرَجِدُ عَلَى النَّارِ هَدًى ﴾ . فَلَيْتَ شِعْرِي : مَا يَطْلُبُ ؟ أَقْبَسُ ذَهَبٌ ؟ أَمْ قَبَسَ
لُحَبٌ ؟ بَلْ يَتَعَرَّفُ بِالْأَخْلَاقِ الْبَاهِرَةِ ، وَيَتَبَرَّكُ بِالْأَحْصَابِ الطَّاهِرَةِ .

(١) السَّبَةُ الزَّمَنُ مِنَ الذَّهْرِ ، وَلَمَّا يَرِيدُ بِهَا الْأُسْبُوحُ كَمَا جَاءَ فِي شَرْحِ رَسَائِلِ الْمَرْيِ الْمَوْجُودَةِ
بِدَارِ الْكِتَابِ السُّلْطَانِيَةِ .

بَاتَ حَوَاطِبُ لَيْلٍ يَتَيَسَّنُّ لَهَا • جَزَلَ الْجَدْنَا غَيْرَ حَوَارٍ وَلَا دَمِيرٍ !

وقد آتت من سفرته الأولى ومعه جدوة من تار قديمة : إن لمست فنار إبراهيم ، أو أولست فنار الكليم ، وأجتنى بهاراً حبت به المرازبة كسرى ، وحمل في فكك الأثرى ، وأذكرك نوحاً مع القوم ، وبقي غصناً إلى اليوم ، وما أتبع موسى إلا الروض العيم ، ولا أتبع إلا أضيق مقيم ، وورد عبده الزهري من حضرة المطهرة وكأنه زهرة ببيع ، أو وردة ربيع ، كثيرة الورق ، طيبة العرق ، وليس هو في نعمته كالريم ، في ظلال الصريم ، والجلب ، في السحاب المنجاب ، لأن الظلام يسفر ، والغمام يتسفر ، وليكنه مثل النون في الجبل ، والأعقر تحت جريه .

وقد كنت عرفت سيدنا في ما سلف أن الأدب كمهود في غب عهود ، أروت النجاة في ظلك بالوهد ؟ ، وأنى نزلت من ذلك النيث بيلد طم ، كأثر الوسم ، منعه القراع ، من الإصرع ، يابوس ، بني سدوس ، العدو حازب ، والكلأ عازب ، ياخصب بن عيد المدان ، ضأن في الحرث وإبل في السعدان ، فلما رأيت ذلك أتعبت الأطل ، فلم أجد إلا الحنظل ، فليس في الليد ، إلا الهيد ، جنته من تجرة أجتفت من فوق الأرض ما لها من قرار . لئن الإبل عن المزارع ، وعن الأراك طيب حر .

هذا مثلي في الأدب . فأما في النسب ، فلم تزل لي بحمد الله تعالى وبإعانة سيدها بلفنان : بلفنة صبر ، ولفنة وقر ، أنا منها بين الليلة للرعية ، واللقوج للرعية ، هذه عام ، وتلك مال وطعام ، والقليل ، سلم إلى الجليل ، كالمصل يرغ الضوء ، بإسراع الضوء ، والتكفير ، بإدامة التكفير ، وقاصد بيت الله يغسل الحوب ، بطول الشحوب .

وأنا في مكتبة حضرة سيدتنا الجليلة، والميل عن حضرة سيدتنا الأجل واليه
- أعزاه نصره - كتباً بين يدي، لما أتيت في القرب، إلى خالي النور، ومصرف
الأمر، نظر فلم ير أشرق من الشمس يداً، فسجد لها تعبدًا . وغير مكرم سيدنا
لو أعرض عن شقائق الثمان الربيعية، ومدائح اليربوعية، ملأ من أهل هذه البلد
المضارب إلى هذا الأم، فغير معتذر، من أنقص لأجلهم نبي المنذر، وهم إلى
حضرة السيرة رجالان : سائل، وقائل، فأما السائل فالح، وأما القائل فغير
مستمتع، وقد سرت نفسي عنها ستر الخبيص، بالقميص، وأنى الهز، بسجوف
الستر، فظهر لي فضله الذي مثله مثل المصباح إذا لم تصرف الحيوان في شؤون
وتخرج من بين اليربوع، وبرز الملك من أجل الربوع، وقد يولع المهجوس، بأن
يجرس، في البلد الجرد، فقام الأسد الورد . وإني حُبرت أن تلك الرسالة الأولى
عُرضت بالمريض الكريم : فأوجب ذلك رجل أُختها، مُعرضة لئلا ينجها،
وصكف لا تنفع، وفي ألم تقع، وهي بمقصد سيدنا فخره، ولو نُيئت الأولى
لأتمت الآخرة :

كملت الرسالة .

قلت : وهذه رسالة أنشأتها في تحرير المرض الكريم الفتحى، أبى الممالى فتح الله،
صاحب دواوين الانشاء الشريف بالديار المصرية والممالك الإسلامية، أدام الله
تعالى معاليه، في شهر سنة أربع عشرة وثمانمائة، وهى :

الحمد لله الذى جعل الفتح محط رحل القرايح الجائدة، ومُسقر نواها، ومُحيط
دائرة الأفكار الواردة، ومرکز شجاع كواها، ومادة عناصر الأفهام الجائلة، وعِداد
شبكة قواها ،

تَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ خَصَّ الْمَلَكَهَ الْمِصْرِيَّةَ مِنْ إِبْدَاعِ مِثْلِهَا الْمُصُونِ بِأَوْسَعِ صَدْرِ رَحِيمٍ، وَأَتَهَضَّ بِتَدْيِيرِ مَصَالِحِهَا مِنْ إِذَا سَرَتْ كِتَابٌ كُنْهِهِ إِلَى عَدُوٍّ أَتَشَدُّ مِنْ شِدَّةِ الْفَرْقِ : فَقَدْ نَبَّكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٌ، وَأَقَامَ لِنُصْرَتِهَا بِأَسْلِلِ الْأَفْطَامِ وَصِفَاحِ الْمَهَارِقِ مِنْ إِذَا طَرَفَهَا عَلَى الْبُعْدِ طَارِقٌ تَلَا لِسَانُ يَرَاغِيهِ : (نَصْرُ مَنْ اللَّهِ وَنَحْنُ قَرِيبٌ) . وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَسِيرُ بِهَا بِرُودِ الْهِدَايَةِ إِلَى آثَاقِ الْأَخْلَاقِ فَتَشِيدُ لِقَلَاغِ الْإِيمَانِ بِأَفْطَارِ الْقُلُوبِ أَرْكَانًا، وَتَرْقُمُ أَسْرَارَ شِعَارِهَا بِقِسِ الْقَبُولِ فِي مُخَفِّ الْإِحْصَالِ فَجَسَدُ دَاعِيَا بِإِذَاعَةِ خَبَرِهَا مِنَ الْإِسْرَارِ إِعْلَانًا، وَتَدِينُ بِطَاعَتِهَا مُلُوكُ الْمَالِكِ النَّائِبَةِ خُضُوعًا فَتَخَذُ كُتُبَ رِسَائِلِهَا عَلَى الْمَقَارِقِ بَعْدَ اللَّثَمِ يَحْيَا، وَأَشْهَدُ أَنْ عَمَدًا عَيْدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ نَبِيِّ سَنَ الْمَعْرُوفِ وَتَدْبِ إِلَيْهِ، وَأُكْرِمُ رَسُولَ جَعَلَ خَيْرَ بَطَائِي الْمَلِكِ الَّتِي تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحْتَمِلُهُ عَلَيْهِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَوَحْشِهِ الَّذِينَ سَلَكُوا فِي السَّيْرِ سَبِيلَهُ وَاتَّبَعُوا فِي السَّيْرِ سُنَّتَهُ وَأَقْبَقُوا فِيهِ سُنَّتَهُ، وَاتَّبَعُوا فِي الْمَعْرُوفِ آثَارَهُ فَتَلَا عَلَيْهِمُ تَالِي الْإِخْلَاصِ : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُمُوءٌ حَسَنَةٌ) . صَلَاةُ تَتَنَاوَلُ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ أَخْبَارُهَا، وَيَتَصَدَّى لِرِوَايَتِهَا مِنَ الْأُمَّةِ عَلَى تَمَادِي النَّهْرِ أَخْبَارُهَا، وَسَلَمُ تَسْلِيمِهَا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ، فَإِنْ رِيَاسَةَ أَهْلِ الدُّوَلِ تَتَفَاوَتْ بِاعْتِبَارِ قُرْبِ الرِّئَاسِ مِنْ مَلِكِهِ فِي مَخَاطَبَتِهِ وَمُنَاجَاةِهِ، وَأَعْتَادِ تَصَرُّفِهِ فِي أُمُورِ دَوْلَتِهِ وَتَفْهِيمِ مُهِمَّاتِهِ، وَالْإِسْتِنَادِ عَلَى رَأْيِهِ فِي جَبِيلِ خُطُوبِهِ وَعِظَمِ مُلْكِيَّتِهِ :

فَقَالَ تَمَادَتْ فِي الْعُلُوكِ كَأَمَّا * مُحَاوِلُ تَارًا عِنْدَ بَعْضِ الْكَوَاكِبِ !

وَلَا خَفَاءَ أَنْ صَاحِبَ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ مِنْ هَذِهِ الرِّتَبَةِ بِالْمَحَلِّ الْأَرْفَعِ، وَالْمُنْزِلَةِ الَّتِي لَا تَدْنَى وَلَا تَتَمَعَّ، وَالْمَقَامِ الَّذِي تَعَرَّدَ بَصْدَارَتِهِ فَكَانَ كَالْمَصْدِرِ لَا يُنْتَهَى وَلَا يُنْجَعُ ؛

إذ هو كليم الملك ونجيه ، ومقرّب حضرته وحظيه ؛ بل عميد الملكة وعمادها ،
وركنها الأعظم وسنادها ، حامي حومتها وسدادها ؛ وعقدتها المتسق ونظامها ، ورأس
ذروتها العليا وسنامها ؛ وجهته خبرها ، وحقيبة وزدها وصدرها ؛ ومبلغ أنبيائها
وسفيرها ، وزند رأيا المورى ومشيرها .

لحيلا بالمكرّمات وبالعلل - وحيلا بالفضل والسؤدد الخفيض :

هذا . وهو الواسطة بين الملك ورعيته ، والمتكفل لقصصهم بذرك قصده وبلوغ
بنيته ، والمساعد للظلم من عزائم توقيعاته بما يقضى بشهرته ؛ وحيث لا يصلح
لها إلا أن كان مع كريم النسيم باردا ليليام لأصطناع المعروف ، ومع سمو الرتبة سامي
الهمة لإغاثة الملهوف ؛ ومع عز الجنب لدى ملكه لين الجانب لدى المسأله ، ومع
قربه بحضرة سلطانه قريبا من الرعية حتى من المسكين والأرملة .

وغير خاف أن كل وصف من هذه الأوصاف مع مقابله كالضدين اللذين
لا يجتمعان بحال . والتقيضين اللذين قضى العقل بأنّ الجمع بينهما محال ؛ وأنى يجتمع
العالي والمسايط ، والمترفع والساقط ؟ أم كيف تتصل الأرض بالسما ، أو يقع
امتزاج عنصر النار بعنصر الماء ؟ ومن ثمّ عز هذا المطلب لهذه الوظيفة حتى إنه
لأعز من الجوهر الفرد ، وقيل وجوده حتى لم يوجد إلا في الواحد العبد فلا تراه
إن تراه إلا في حيز النادر ، ولا تظفر به إلا تظفرك ببيض الأنوق إن كان يظفر به
ظافر ؛ إلا أنه ربما سمع الدهر فاقا بالقد من هذا النوع في الزمن المتباعد ، أو أسمع
الدهر فأسعف بالواحد بعد ألف واحد .

ثم قد مضت برهة من الأيام وجيد ديوان الانشاء من نظر من هو متصف ببعض
هذه الأوصاف عايل . والدهر يعدّ من يقوم فيه بتفريح كربة الملهوفين ولكنه
يماطل :

يُرَقِّه مَا يُرَقِّه فِي التَّقَايِي * وَلَيْسَ لَدَيْهِ غَيْرُ الْمَطْلِ تَقْدُ!

إِلَى أَنْ طَلَعَ نَبْرُ الزَّمَانِ وَتَوَسَّعَ شُرُوقُهُ، وَظَهَرَتْ تَبَاشِيرُ صَبَاحِهِ وَأَقْبَلَ بَطْلُوعُ السُّعْدِ عِيُونُهُ؛ فَاقْبَلَتِ الدَّوْلَةُ الظَّاهِرِيَّةُ بِسَادَتِهَا، وَتَلَقَّتْهَا الْيَافِافُ النَّاصِرِيَّةُ جَارِيَةً مِنْهَا عَلَى وَفْقِ عَادَتِهَا؛ وَوَقَّرَ لِلدَّوْلَتَيْنِ مَنْ أُنْتَخِبَ الْأَصْفِيَاءُ قِسْمَتُهَا، وَخَصَّصَتْ لَهَا الرُّأْيَى الْعَاصِبَ حَتَّى ظَهَرَتْ فِي الْوُجُودِ زُبْدَتُهَا؛ فَكَانَتْ خُلَاصَةً أَمِيطَتَيْنِ، وَزُبْدَةً أَمِيطَتَيْنِ، الْمَقَرَّرَ الْأَشْرَفُ، الْمَالِي، الْمَوْلُويُّ، الْقَاضِي، الْكَبِيرِي، السَّيْفِي، الْمُشِيرِي، الْقَضِي، نِظَامُ الْمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَزِمَامُ سِيَاسَتِهَا، وَمُسَدَّدُ أُمُورِهَا، وَجَامِعُ رَأْيِهَا؛ أَبُو الْمَعَالِي تَحَقَّقَ اللَّهُ صَاحِبُ دَوَابِ الْإِنْشَاءِ الشَّرِيفِ بِالْمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ، زَادَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَرْقَانِهِ عَلَى تَعَالِي السُّوْلِ، وَأَجْرَاهُ مِنْ خَفِيِّ الْأَلْفِ عَلَى أَجْمَلِ الْعَوَائِدِ وَقَدْ قَبِلَ، فَأُلْقِيَ إِلَيْهِ مِنْ أَسْرَارِ الْمَمْلُوكَةِ مَقَالِيدُهَا، وَأَتَّفَقَتْ بِحُسْنِ سِفَارَتِهِ بِاتِّفَاقِ الرُّوَاةِ أَسَانِيدُهَا؛ فَتَقَدَّتْ بِتَقْيِينِهِ أُمُورُهَا، وَكَلَّتْ بِصَحِيحِ رَأْيِهِ كُسُورُهَا؛ بَهَرَتْ الْأُمُورَ بِحُسْنِ تَدْيِيرِهِ عَلَى السُّدَادِ، وَمَشَتْ الْأَحْوَالُ بِلُطْفِ سِفَارَتِهِ عَلَى أَيْمَنِ الْمُرَادِ؛ وَأَعْتَرَفَتْ لَهُ الْكَافَّةُ بِالسِّيَادَةِ فَاطَاعَتْ، وَعَرَفَتْ لَهُ الرَّعِيَّةُ تَقَدُّمَهُ فِي الرَّأْسَةِ فَرَعَتْ حُرْمَتَهُ وَرَاعَتْ .

وَإِنْ أُمُورَ الْمَلِكِ أَخْضَى مَدَارُهَا * عَلَيْهِ كَادَرَتْ عَلَى قُطْبِهَا الرُّسُ!

قَدْ اسْتَعْبَدَ أَنْطَلَقَ فَاصْبَحَ لَهُ كَالْحَدِيدِ، وَأَتَى مِنَ الْمَعْرُوفِ بِكُلِّ غَرِيبٍ فَانَسَى مِنْ أَيْرَعَنِهِ ذَلِكَ فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ؛ فَلَوْ رَأَى «خَالِدُ بْنُ بَرْمَكٍ» لَانْجَمَ عَنْ مَلَاقَاتِهِ عِظَامًا، أَوْ نَالُوا «يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ» لَمَاتَ مِنْ مُنَاوَاتِهِ عَدَمًا، أَوْ سَابَقَهُ «الْفَضْلُ وَجَعْفَرُ» أَبْنَاهُ لَسَبَقَهُمَا كَرَمًا :

مَتَأَقَّبُ لَوْ أَتَى تَكَلَّفَتْ تَسَخَّرَهَا، * لَا تَلَسْتُ فِي أَقْلَامِهَا وَمِدَادِهَا!

أو سمع به "الحسن بن سهل" لقطع إليه الحزن والسهل ، أو يصبره "الفضل"
أخوه ، لما رأى أنه للفضل أهل ؛ أو طينه "أبو علي بن مقله" لم أنه فاته خطأ
وخطأ ، أو نظر "أبن هلال" إلى أهله نواته لتحقق أنه سبقه إلى تحرير هندسة
المخروف وما أخطأ :

إِذَا اخَذَ الْقِرطَاسَ خَلَّتْ يَمِينُهُ * تُفَتِّحُ نَوْرًا أَوْ تُنْظِمُ جَوْهَرًا !

فإن تكلم أتي من بيانه بالسحر الحلال ، أو حاور أتي من البلاغة بما يقصر عن
رتبته "سبحان" في المقال ، أو ترسل أضي "عبد الحميد" في رسائله ، أو كتب رتعت
من روض خطه في زهر تماليله :

يُؤَلِّفُ الْقَوْلُ الْمُسْتَوْرَ مَطْلُفَهُ * وَيَنْظِمُ الدَّرَّ بِالْأَقْلَامِ فِي الْكُتُبِ !

فرايه السيف لا ما صنع الهند ، وعقله الصاير لا ما استودع النمد :

فَقِي رَأْيَهُ مُنْجِ الْأُمُورِ وَلَمْ يَزَلْ * كَيْفِيًّا بِإِرْشَادِ الْحَيَارَى مُوقِفًا !

أفلامه تزيى بالصوايرم وتهزأ بالأسل ، وتجري بصلة الأرزاق قريد على الأمانى
وتربو على الأمل :

بِتَ جَارَهُ فَالْمَيْشُ تَحْتَ ظِلَالِهِ * وَأَسْتَسْقِيهِ فَالْبَحْرُ مِنْ أَنْوَالِهِ !

فكأريته تفتي من الإملاق ، وبواكره بالإسعاد تبادر الندو والإشراق ، وعطاباه

تسير سمر السحاب فتمطر الثيث على الأفاق :

كَرِيمُ سَاعِي الْجَبَدِ يَرْكَبُ بَجْدَةً * مِنَ الشَّرَفِ الْأَعْلَى وَيَبْلُ الْفَوَاضِلِ !

قد خدمته الخلوطة وأسعدته الجود ، وقسمت المنازل السنية فكان له منها
سعد السعد :

لوعَدَدَ النَّاسِ مَا فِيهِ لِمَا بَرِحَتْ * تَتَنَبَّيُ الْخَنَاصِرَ حَتَّى يَنْفَدَ الْعَدَدُ!

فَلَوْ غَرَسَ الشُّوْكَ أَمْرَ الْعِتَبَةِ أَتَى أَرَادَهَا ، أَوْ حَاوَلَ الْعِتْقَاءَ فِي الْحَوْلِ لِمَادَهَا ،
أَوْ زَرَعَ فِي السَّبَاخِ لَكَانَ ذَلِكَ الْعَامَ وَالسَّنَةَ الْخَصْبَةَ ، وَلَفُضِعَتْ مُضَاعَفَةً
حَسَنَاتُهُ فَأَنْبَتَتْ كُلُّ حَبَّةٍ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ :

وَإِذَا السَّعَادَةُ لَا حَظَّكَ عِيُونُهَا ، * تَمَّ فَالْخَوَافُ كُلُّهُمْ أَمَانُ ،

وَأَصْطَدَّ بِهَا الْعِتْقَاءُ فَهِيَ حَبَائِلُ ، * وَأَقْدَمَ بِهَا الْخَوَزَاءُ فَهِيَ عِثَانُ!

فَدَلَّيْسَ شَرًّا لَا تَطْمَعُ الْأَيَّامُ فِي خَلْفِهِ ، وَتَقْمَصُ مِنَ الْفَضْلِ جِلْبَابًا لَا تَنْطَلِعُ
الْأَيَّامُ إِلَى تَرْبِهِ ، وَاتَّهَى إِلَيْهِ الْمَجْدُ فَوْقَ ، وَعَرَفَ الْكَرْمُ مَكَانَهُ فَأَنَحَازَ إِلَيْهِ وَعَطَفَ .

فَقَصُرَتْ عَنْهُ خُطَا مِنْ يُجَارِيهِ ، وَضَاقَ عَنْهُ بَاغٌ مِنْ يُيَارِيهِ :

نَالَتْ يَدَاهُ أَقْاصِي الْكَرْمِ الَّذِي * مَدَّ الْحُسُودَ إِلَيْهِ بَاعًا ضَيْقًا!

فَتَنَاقَبَهُ نَسِيقُ أَقْلَامِ الْكَاتِبِ ، وَتَسْتَفْرِقُ طَاقَةَ الْحَاسِبِ ؛ لَيْسَ لِرَفْعِهَا غَايَةٌ ،
وَلَا لِنَدَاوِلِهَا نِهَائِيَّةٌ ؛ فَلَا تُوفِّي جَامِعَةً بِشَرْطِهَا ، وَلَا تُقَوِّمُ جَرِيدَةً بِسِطِهَا :

وَقَدْ وَجَدْتَ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَاسِعَةً * فَإِنْ وَجَدْتَ لِسَانًا قَائِلًا فَقُلْ!

فَدَ هَتَفَ بِمَدْحِهِ خُطْبَاءُ الْأَقْلَامِ عَلَى مَنَابِرِ الطُّرُوسِ ، وَنَطَقَتْ بِفَضْلِهِ أَفْوَاهُ الْمَخَابِرِ
فُنَكِّسَتْ لِرَفْعَةِ قَدْرِهِ شَوَائِخُ الرُّمُوسِ ؛ وَطَلَّتْ فِي أَفْوَى الْمَهَارِقِ سُعُودُ إِبَالَتِهِ السَّعِيدَةِ
فَأَقْلَتْ لَوْجُودِهِ التُّحُوسِ ؛ وَرُقِيتْ حِمَايُنُهُ بِقَيْسِ اللَّيْلِ عَلَى صَفَحَاتِ النَّهَارِ فَارْتَسَمَتْ ،
وَجِلَّتْ أَخْبَارُ مَعْرُوفِهِ فَرَاخَتْ الْأَفَاقُ عَلَى انْتِشَاقِ أَرْجَحِ رِيحِهِ الْعَبْقَةِ وَاسْتَهَمَتْ :

لَقَدْ كَرَّمْتَ فِي الْمَكْرَمَاتِ صِفَاتَهُ * فَمَا دَخَلَتْ لَاءٌ عَلَيْهَا وَلَا إِلا!

أَتَقَفَتِ الْإِنْسَةُ عَلَى تَقْرِيبِهِ فُدِحَ بِكُلِّ لِسَانٍ، وَتَوَاقَفَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّهِ فَكَانَ لَهُ بِكُلِّ قَلْبٍ مَكَانٌ، وَاسْتَفْرَقَتْ تَمَادِيهِ الْأَزْمِنَةَ وَالْأَمَكِنَةَ فَاسْتَوْلَى شُكْرُهُ عَلَى الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ :

وَلَمْ يُثَلِّ مِنْ إِحْسَانِهِ لَقَطٌ مَحْجَرٌ * وَلَمْ يُثَلِّ مِنْ تَقْرِيبِهِ بَطْنٌ دَقَرٌ !
عَلَى أُنَى اسْتَقِيلَ عَثَرِي مِنَ التَّقْصِيرِ فِي أَطْرَائِهِ، وَالتَّعَرُّضِ مِنْ مَدْحِهِ لِمَا لَا أَنْهَضُ
بِأَعْيَانِهِ ؛ فَلَوْ أَنَّ «الْمَحَاطَظَ» نَصِيرِي، وَ«أَبْنَ الْمُقَفَّعَ» ظَهِيرِي، وَ«قُسْنَ بِنَ سَاعِدَةَ»
مُسْعِدُنِي، وَ«سَهْبَانَ وَائِلَ» يُجِدُنِي، وَ«عَمْرَو بْنَ الْأَهَمِّ» يُرْسِدُنِي ؛ لَكَانَ اعْتِرَافِي
بِالْعَجْزِ فِي مَدْحِهِ أَبْلَغَ مِمَّا أَتَيْتِهِ، وَإِقْرَارِي بِالتَّقْصِيرِ فِي شُكْرِهِ أَوْلَى مِمَّا أَصْنَعُهُ مِنْ
قَوْلِي طَوْلُهُ وَأَيَّادِيهِ :

وَلَوْ أَنَّ لِي فِي كُلِّ مَنِيَّةٍ شَعْرَةٌ * لِسَانًا يُطِيلُ الشُّكْرَ فِيهِ لَقَصَّرَا !



وهذه نسخة رسالة للشيخ الإمام العالم مُعِين الدِّين تاج العلماء، خَطِيبِ الخُطَبَاءِ،
زَيْنِ الْأَمَةِ، قُدْوَةِ الشَّرْعَةِ، الصِّدِّيقِ أَبِي الْفَضْلِ يَحْيَى بْنِ جَعْفَرِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ
الْحَصَنِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، سَمَّاها : «عِتَابُ الْكُتُبِ، وَعِقَابُ الْأَقْلَابِ، الْمُشْتَمَلَةُ عَلَى
أُسُوفِ الْغَرِيبِ وَالْإِغْرَابِ» وَهِيَ :

عَذِيرِي مِنْ وَزَرَاءِ النِّصْبَةِ وَكُتُبِهَا، وَكُفْرَاءِ النُّسُوتِ وَأَرْبَابِهَا، وَأَوْلَانِي مِنَ الْوَلِي
وَأَطْنَابِهَا، وَوُجَّاهِ الدَّوَاوِينِ وَأَنْتَابِهَا ؛ وَجِبَاءَةُ بَيُوتِ الْأَمْوَالِ، وَالسَّاعَةُ فِي زَمٍّ نَشَرَ
الْأَحْوَالِ ؛ وَسَاسَةُ الْمَالِكِ، وَمُخَفِّفِ أَسْرَارِ الْمَالِكِ ؛ الشَّاغِرِينَ بِأَنْوَفِ التَّيِّبِ
وَالْكِبَرِيَاءِ، وَالسَّاحِينَ دُيُوبِ الْحُجُبِ وَالْحُلِيَاءِ، الرَّاغِبِينَ فِي حُلِيِّ الْبَهَاءِ، وَالْفَائِلِينَ
عَنْ فُرُوضِ الْعِلَاءِ؛ الَّذِينَ تَبَوَّعُوا السُّؤْدَدَ مِنْ غَيْرِ سَدَادٍ، وَتَسَنَّمُوا الرُّتَبَ بِلَا إِعْدَادٍ ؛

فكانهم الحاسب ، وعدوا له المناصب ، شغلهم الأثر والفجور ، وحصل على
بسطته مجور ، همهم حج الأحرار ، وتبع الراح بالماء القراح ، وأنتطأ المرء ،
والمتاق الجرد ، أملهم تفيد الأفيه ، وتشيد الأيئه ، والزياة في الرقيق والكراع ،
والخول والأجباع ، وليس بغال ، كثرة خيل وبغال ، بما باعوه من الورع والديانة ،
وأضاعوه من العفة والحيانة :

قَدْ مَلَكُوا الدُّنْيَا عَلَى غَيْرَةٍ * وَنَاقَسُوا فِيهَا السَّلَاطِينَا !
تَوَزَّعُوا النُّوْلَةَ وَالْمُلْكَ وَالْحَضْرَةَ وَالْإِسْلَامَ وَالدِّينَا ،
شَادُوا بِأَعْمَالِهِمْ دُورَهُمْ * وَأَثَرُوا فِيهَا التَّوَلِينَا ،
عَفُوا وَمَا عَفُوا بِأَعْلَامِهِمْ * مَسَاكًا تَحْوِي مَسَاكِينَا ،
غَرَّبَهُم الدُّنْيَا بَانَ أَظْهَرَتْ * عَنْ غِلْظَةٍ تُضْمِرُهَا لِينَا ،
وَالدُّعْرُ كَمْ جَزَعَ فِي مَرَّةٍ * مُرًّا وَحِينًا سَافَهُ حِينَا .
يَا أَنْفُسَا ذَلَّتْ بِأَتَانِهِمْ * وَبِكَ أَنْتَانِ الْآثَانِينَا .
لَا تَرْضَى فِي رَسُولِهِمْ أُنْمَا * تَمَرِينَ فِي الْقَعْبِ الْأَمْرِينَا !
وَكُلَّانِ يُجَدِي الْقَصْدُ لَوْ أَنَّهُمْ * يَذْرُوبَتَ شَيْئًا أَوْ يَذْرُوبَانَا .
مَوَى هُمُو فَكَيْفَ تَقْرِيضُهُمْ * إِنْ كُنْتَ لَا تَأْتِينَ ، تَأْتِينَا ،
لَا يَحْتِي الْقَضْلُ بِأَطْرَافِهِ مِنْ * يَكُونُ فِيهِ الْمَجْعُوعُونَا ،
لَوْ رَمَتْ شَيْئًا دُونَ أَقْدَارِهِمْ * لَمَجْرُومٍ لَمْ يَجِدِ الدُّنْيَا !!!

قد أخذوا إلى الوضاعة ، عن تحصيل البضاعة . وكفاهم من البراعة ، برى البراعة ،
وعنوا بأسوداد الليقة ، عن سؤدد الخليفة ، وأحالوا على الرَّم ، عند قصور الجسم ،
ومن أعظم الآفات ، تفرهم بالعظم الرفات .

وَكَاثِمٍ لِّصَمِيمِ هَاشِمٍ * أَوْ مِنْ قَسَائِمِ الْعَبَاسِمْ ،
غَشِمُوا مَا يَغْشَاهُمْ * بِالطُّوَجِ إِلَّا كُلُّ قَاسِمٍ :

لَا يَسِينُ أَحَدُهُمْ عَلَى مُرْقَةٍ ، وَلَا يُنْعِشُ ذَا أَخُوهُ ، وَلَا يَرَى وَارِثَ أَبُوهُ ، وَلَوْ
أَخْتَرَى إِلَى بُوْتِهِ ؛ فَهُوَ غَيْرَ آسٍ بِجُودِهِ ، وَلَا مُوَاسٍ بِمُجُودِهِ ؛ يَرُوقُ كَيْسُهُ وَالْفَلَامُ ،
وَتَرُوقُ دُويُّهُ وَالْأَقْلَامُ ؛ فَإِذَا اسْتَنْطَقَ قَلْبُهُ الصَّبَايَ ، أَجْدَلَ عَدُوَّهُ السَّامِيَةَ ؛
فَزَادَ أَذْرَاجَهُ نَاقِصًا ، وَعَادَ عَلَى أَذْرَاجِهِ نَاكِسًا .

فَهُوَ الَّذِي أَمَلْتُ لَمْ حَلِّهِ * مَعَ الْخَلَا وَالنَّكَدِ الْبَاهِضِ :
لَوْ أَنِّي وَلَّيْتُ تَأْدِيَهُمْ * شَقِيتُ صَدْرَ الْبَيْتِ الْبَاهِضِ !
مَنْ نَظَرَ يُضْحِي بِلَا نَظَرٍ ، * وَتَعَارِضُ يُنْمَى بِلَا عَارِضِ ،
وَمُشْرِفٌ لِلدِّينِ مَا قَصَبَهُ * فِي الْوَطْبِ إِلَّا زُبْدَةُ الْمَآخِضِ ،
وَحَازِنٌ إِنْ لَفَّ مَرَضَاتَهُ * مِنْ حُلُومِهِ عَفَّ عَنِ الْحَامِضِ ،
وَمَنْ خَيَّبَ جَانَا ذِكْرَهُ * فِي الذِّكْرِ يَنْ الْيَكْرَ وَالْفَارِضِ ،
وَكَاثِمٍ لَوْ أَنْصَفُوا مُهْرَهُ * لَكَانَ أَوْلَى مِنْهُ بِالرَّائِضِ !!!

إِنْ وَقَّعَ ، رَأَيْتَ اللَّفْظَ الْمُرْتَجَّعَ ؛ وَإِنْ أَطَالَ وَأَسْتَهَبَ ، أَذَالَ عِرْضَهُ وَأَنْهَبَ ؛
وَكَانَ أَحَقَّ بِتَقْلِيدِ الْفُهُودِ ، عِنْدَ تَقْلِيدِ الْفُهُودِ ؛ وَأَوْلَى بِسَطْرِ الْمَنَاشِيرِ ، عَنْ سَطْرِ
الْمَنَاشِيرِ ؛ وَأَجْدَرُ بِقَبْضِ الرُّوحِ ، إِذَا أَنْبَسَ لِلشُّرُوحِ ، وَأَخَذَ فِي ذِكْرِ الْوَقَائِعِ وَالْقُتُوحِ ؛
كَفَّهُ بِالْحَلَمِ ، أَوْلَى مِنْهَا بِالْقَلَمِ ؛ وَأَخْلَقَ بِالْمُسْحَاةِ ، مِنْ السَّحَاةِ ؛ وَالْيَقِّ بِالْفُؤُوسِ ،
مِنْ الطُّرُوسِ ؛ يَرَى وَيَقْطُ ، وَلَا يَدْرِي مَا يَحِيطُ ؛ إِذْ لَيْسَ فِي السَّقَطِ ، غَيْرُ السَّقَطِ ؛
إِنْ فَاتَحَتْهُ ، أَوْ طَارَحَتْهُ ، ظَهَرَتْ بَقْصَةُ الْمَسَاحِجِ ؛ وَخَشِرَ الْمَفَاحِ ، إِنْ خَطَّ : فَنُوْنُهُ
كَلَامِهِ ، وَخَطَّ فَنُوْنُهُ فِي كَلَامِهِ .

إِنْ وَقَعُوا وَقَعُوا فِي ذَمِّ كُلِّ قَوْمٍ ، * أَوْ أَقْبَضُوا أَفْضَلَتْهُمْ أَنْهُمْ الْكَلَمُ ؟
 أَوْ قَلَدُوا قُلْدُوا نَزِيًّا يُجَلِّلُهُمْ ، * أَوْ أَقْطَعُوا قُطْعُوا شَتًّا يَجْهَلُهُمْ .
 أَرَأَيْتُمُ الْمَالَ وَالْأَعْمَالَ إِنْ رَقَعُوا ؟ * جَاؤُوا مِنَ الرِّقْمِ وَالْأَلْفَاظِ بِالرَّقَمِ ،
 فَافْتَهُ يَأْخُذُ مِنْهُمْ لِلدَّوَاءِ وَلَا تَقَاسِ بِالْحَقِّ وَالْقِرَاطِ وَالْقَلَمِ !!

فالجديد بهم تمل ، والسَّوَامُ بينهم همَل ، ولا عِلْمَ عندهم ولا عَمَلٍ ؛ لَهْفَى عَلَى
 الْفَضْلِ الْمَذَالِ . بِرَفْعَةِ الْأَنْذَالِ ؛ وَضِيَاعِ الْحُقُوقِ ، وَأَنْصِبَاعِ الْبَيْضَةِ عَنِ الْعُقُوقِ .

ثم ما على سيدنا الوزير ، مع أصطحاب اليم واليزر ؛ وَتَفَاقِ سُوْقِهِ ، وَأَنْفَاسِهِ
 فِي قُسُوفِهِ ، وَأَتَّصَالَ صَبُوحِهِ بِبُيُوقِهِ ؛ وَتَحَلَّيْهِ فِي الْبَهْوِ ، لِلْمَيْبِ وَاللَّهُوِ ؛ مِنْ ظَهْرِ غَيِّ
 يُرْتَكَبُ ، وَذِي يَسَارِيْنِكَبُ ؛ وَسَاجِ نَيْي . وَرَاجِ رَيْتَيْي ؛ وَرُسُومِ حَيْفِ تُجَدِّدِ ،
 وَسَوَاتِ تَعْدِدِ ؛ مَا يَضُرُّهُ مِنْ شَكْوَى الْجَارِحِ الْبُغَاثِ ، وَصَرْحِ لَا يُفَاثِ ؛ وَوَالِ
 يَنْصِفُ بِأَهْلِ مَصْرِهِ ، وَإِنْ شَرَكَهُ فِي إِصْرِهِ ؛ وَقَاضٍ لَا يُنْصِفُ الرِّجْمَةَ ، وَلَا يَنْتَجِ
 الْفَضَايَا الشَّرْعِيَّةَ ؛ وَفَقِيهِ يَنْصِفُ إِلَى تَحْصِيلِ عَرَضِ زَائِلِ ، وَتَعْجِيلِ عَرَضِ مَنْ
 سَائِلِ ؛ مَالَهُ وَلِحْفِظِ الْمَالِ ، وَمُعَاسَبَةِ الْعَمَالِ ؟ :

أَمْ مَا عَلَى الْعَامِلِ نَيْمِ الدَّجَاجِ ؟ * إِنْ نَقَصَ الْكَرْمُ وَزَادَ الْخِرَاجُ ؟
 عَلَيْهِ أَنْ يَحْصُلَ فِي كُفِّهِ * شَيْءٌ وَإِنْ أَخْلَى جَمِيعُ الْخِرَاجِ .
 وَهُوَ خِرَاجٌ عِنْدَ مَا يَنْتَهِي * يُبْطِئُ بِالْمِضْجِ مَا فِي الْخِرَاجِ !!

تُسَلِّمُهُمُ بِالنَّهْدِ الْمَشُورِ ، لَا بِمَشْدِ يَوْمِ النُّشُورِ ، وَقَصْدُهُمُ الْجَمْعُ وَالْأَكْتِسَابُ ،
 وَمَتَى الْجَمْعُ وَالْحِسَابُ ؛ إِنَّمَا هُوَ مَالٌ يُحْتَقَبُ ، لَا مَالٌ يُرْتَقَبُ ؛ وَفَسَادُ فِي الْأَرْضِ ،
 لَا إِعْدَادُ لِيَوْمِ الْعَرَضِ :

وَإِنِّي لَأَرَى السَّارِبَ تَحْتَوِي * عَلَيْهَا قُرُودٌ فَوْفَهُنَّ بُرُودٌ،
سِرَاعٌ إِلَى السَّوَاتِ فِيمَا يَشِينُهُمْ * وَلَكِنَّهُمْ عَمَّا يَزِينُ رُكُودٌ،
يَهَاطُ إِذَا مَا تَوَبَّ اللَّهُمَّ دَاعِيَا * وَعِنْدَ نَدَاءِ الْمَكْرَمَاتِ رُقُودٌ،
وَمَا غَرَّزَ إِلَّا جَلَّازَ حَوَلَم * وَلَا قِيَامٌ بَيْنَهُمْ وَقُودٌ،
لَقَدْ حَسِدُوا عَلِيًّا عَلَى مَا أَنَام * وَهَلْ لَأَحْيٍ نَقِصَ يَسُودُ حُسُودُ؟
وَالسَّيِّدَ الْمُحْسَدِ كَفَّ عَنِ الْعُلَى * تَذُودُ وَأُخْرَى بِالنَّوَالِ تَجُودُ،
لَحَا اللَّهُ دُنْيَانَا الَّتِي ضَلَّ مَسْعَاهُ * وَفِيهَا عَلَيْنَا بِالضَّلَالِ شُهودُ،
إِذَا صَغُرَتْ كَأَسَمِ الْحُسَيْنِ مَحَلَّةٌ * عَلَّتْ وَعَلَا فِيهَا يَزِيدُ يَزِيدُ.

إِنَّمَا الْقَصْدُ مِنْ صَدْرِهِ كَالْهُدَى ، وَحَسُنَتْ أَعْمَالُهُ ؛ وَجَرَّدَ الزَّمَانَ ، فَشَرَّدَ
الْأَزْمَانَ ؛ وَفَعَلَ بِذِيهِ الْكُرْبَانَ ، وَأَصْطَفَى لِرَبِّهِ الْفُرْيَانَ ؛ فَهَلْ الْفَتَى ، وَأَقَمَّ الْإِنَاءَ ،
وَوَضَعَ مَوَاضِعَ النُّقَبِ الْهِنَاءَ ؛ فَهُوَ يَهْتَشُّ لِلنَّوَالِ ، وَيَهْتَشُّ عِنْدَ السُّؤَالِ ؛ لَا يَسُوبُ
وَرَدَّهُ الْقَدَا ، وَلَا يُبْطِلُ مِنْهُ بِالْمَنْ وَالْأَذَى ؛ يَشْرِيشُهُ بِحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ ، وَيَنْشُرُ نَشْرَهُ
الطَّيِّبِ فِي الْأَفَاقِ ؛ وَيَحْيِيهِمْ بِدَوَانِهِ دَاءَ الْإِمْلَاقِ ، وَيُخْرِزُ بِقَصَبَتِهِ قَصَبَ السَّاقِ :

يُجَرِّدُهَا مِنْ مِثْلِ وَفَضَّةٍ نَابِلٍ * أَجْتَهَا مِنْ نَافِذَاتِ الْمَعَالِ ،
وَفِي خَطِّهِ الْمُنْسُوبِ تُزَيَّرُ شَبَابُهَا * بَلَهْدَمَ مَنَسُوبٍ إِلَى الْخَطِّ ذَائِلُ ،
وَإِنْ بَذَرْتَ عَنْ حَبِّهِ الْقَلْبَ نَسْتُ * مِنْ الرِّقْلِ قَبْلَ الْبَرَسِ سَتَائِلُ !!

دُؤُوبُهُ لِإِقَالَةِ الْعَاثِرِ ، وَعِمَارَةِ الدَّائِرِ ، وَإِشَاعَةِ الْمَآثِرِ ؛ هُمٌّ فِي مُعْضَلَةٍ مُرَاضِ ،
وَمَعْدَلَةٍ مُفَاضِ ؛ وَخَلَّلَ يَسْدَ ، وَجَلَّلَ بَصْدَ ؛ وَعَانَ بَطْهَرَهُ يُعَانَ ، وَعَانَتْ بِقَهْرِهِ يُعَانُ ؛
بَابُهُ مَفْتُوحٌ ، وَخِيَرُهُ تَمُوحٌ ؛ وَمَا أَقَلَّ الْإِلْهَامُ ، لِمَنْ أَكْثَرَ الْوَلَامُ ؛ وَأَغْفَلَ الْحَسَادُ ،

لن صَنَعَ المَآدِبَ؛ وَأَخْلَصَ الإِخَاءَ، لِمَن آسَْتَخْلَصَ السَّعَاءَ؛ فَبَدَّلَ الرُّغْوَةَ وَالصَّرِيحَ،
وَالسَّامَ الإِطْرِيحَ؛ لَا كَنَ يَشُعُّ بِالْقَتَارِ، لَقَرَطِ الإِقْتَارِ؛ وَيَضُنُّ بِالْوَضَرِ، عَلَى
الْمُحْتَضَرِ؛ وَيَتَخَلُّ بِالْعُرَاقِ، عَمَّن رُوحُهُ فِي التَّرَاقِ، وَيُثِيرُ النَّمِيرَ، لِمَن يَتَنَبَّئُ الْمِيرَ؛
وَيُطِغُنُ الدَّاءَ؛ لِمَن يَنْتَظِرُ الْفَدَاءَ؛ وَيُسِرُّ الْأَحْشَاءَ، لِمَن تَرَفَّبَ الْعَشَاءَ :

مسلط سيرة نعمة * وجائر قسمته ضيزى،

ليس بذي لب يملئ التأي * ولا لباب يملأ الشيزى!

يَقْدُ عَلَى الإِخْوَانِ، عِنْدَ ظُهُورِ الْخَوَانِ؛ قَرَاهُ يُعَدِّقُ، إِلَى مَن يُسَدِّقُ؛ وَيَتَّقِمُ،
مِن يَلْتَمِمْ؛ وَيُدِّلُ الْأَكِيلَ، وَيُجِلُّ بِهِ التَّنْكِيلَ؛ وَيُغْفِضُ الشَّرِيبَ، وَإِنْ كَانَ الْخِلْدَنُ
الْقَرِيبَ؛ فَالْحَايَنَ مَن يَرِدُ، فَيَزْدِرِدُ؛ وَالْحَبَائِنُ مَن يَنْهَسِطُ، فَيَسْتَرِطُ؛ يَسْتَأْ مَن
الْأَبْرَاسِ، صَوْتِ الْأَضْرَاسِ؛ وَحَسْرَةِ الْبَلَاعِمِ، بِدَحْرَةِ الْمَطَامِ؛ وَهَرَمَرَةِ
الشَّدُوقِ، وَجَرَحَةِ الْخُلُوقِ؛ وَقَدْ صَدَّتْ حَوَاجِرُ بُلُوَاهُ، أَقْوَاهَا تَصَلَّتْ لِحُلُوَاهُ؛
وَحَكَّتْ لِحَامِيهِ، بِحِكَّةِ لِحَامِيهِ؛ وَعُدَّتْ بِكَيَوَانِهِ، لَمَّى وَعُدَّتْ بِالْوَانِهِ؛ وَغِيغُهُ أَعْرَزُ^(١)
مِن الْغَرِيفِ، وَأَغْرَبُ مِنَ النَّهْرِ الْغَرِيفِ؛ مَعْرِفُ بَابِهِ، دُونَ صَرِيفِ نَابِهِ؛
وَيُحْكِمُ حَبْكَ بَابِهِ، عَن كِتَابِهِ؛ وَيُعِدُّ سَدِيفَ جَفَانِهِ، مَن سَدِيفَ أَجْفَانِهِ؛ يُمَانِعُ
بَلَدِيْدِهِ، عَن سَفُودِ قَدِيدِهِ؛ وَيُصَافِحُ بِصَفْحَةٍ وَرِيدِهِ، عَن صَحْفَةِ تَرِيدِهِ؛ يَحْمِلُهُ مَن
تُجُومُ الْحَمَلُ، وَتَحْمِلُهُ فَوْقَ السَّمَاءِ الْأَعَزَلُ؛ وَحُومُهُ بَيْنَ الْحَوَاتِ وَالْأَسِيدِ، وَجَدِيهِ
عِنْدَ جَدِّي الْفَرَقْدِ؛ دُونَ مَجْجَةِ أَرْتِفَاعِ الْعِبَاجَةِ، وَتَحْتِ دَجَاجَتِهِ ذَنْبُ الدَّجَاجَةِ :

يُدْرَجُ فِي الْقِسْدِ دُرَاجُهُ * لِيَلْقَطَ الْحَبَّ وَطَبُوحُهُ

فَقَى السَّمَوَاتِ سُمَائَاتُهُ * وَعِنْدَ دِيكَ الْعَرْشِ فَرُوحُهُ

(١) مَن عَزَّزَهُ بِمِرْزَةِ اقْتَرَعَهُ اقْتَرَعًا عَظِيمًا وَالْغَرِيفُ الْغَدَلُ .

يَتَرَسُّ مَائِدَتَهُ الدُّوَّ وَالْعَقْرَبَ، وَمِمَّا أَدْنَى وَأَقْرَبَ؛ يُسَجِّهُ التَّشْمِيرُ وَالْأَحْجَانُ،
وَيَلْذُلُهُ التَّوْفِيرُ وَالْإِخْرَانُ؛ وَقَصْرُ مُفَاجَأَةِ أَحْوَالٍ، تُصَرِّحُ عَنْ أَهْوَالٍ؛ وَكَأَنَّكَ
بِالْأَيَّامِ بَعْدَ الْإِتْسَامِ، شَاهِرَةٌ لِلْهَسَامِ؛ قَدْ كَثُرَتْ عَنْ أَنْبِيَاءِ الْعُصَلِ، فِي بُكْرَاهَا
وَالْأَصْلِ، وَأَجَلَتْ عَنْ سَلِيبِ مَنَحُوبٍ، لَتَنَكَّرُ مَصْحُوبٌ؛ وَأَتَرَى تَرْدُدَ فِي الْبُؤْسِ،
وَيُحْلَدُ فِي الْجُبُوسِ؛ قَدْ حَصَلَ عَلَى سَلَةِ الْحَاوِي، مِنْ سَلَةِ الْحَلَاوِي؛ وَمِنْ طَعْمِ
الْعَسَلِ، عَلَى طَعْنِ الْأَسَلِ؛ وَمِنْ الْعَذَبِ الْبَارِدِ، عَلَى حَرِّ الْمُبَارِدِ :

تَقْبِضُ مِنْ خَطْوِهِ الْكُؤُولُ • فَهُوَ عَلَى قَبِيدِهِ يَبُولُ،

خَلًّا مِنَ الْخَيْرِ فَهُوَ طَبْلٌ • وَهَكَذَا تَضْرِبُ الطُّبُولُ،

يَسْكَوْا لِي اللَّهِ مُسْتَنْبِتًا • وَمَا لَهُ عِنْدَهُ قَبُولُ،

ذَلِكَ بِمَا كَانَ مُسْتَطِيلًا • تُرْدِي دَوَاهِيَهُ وَالْمَيُولُ !

فَهْمُ بَيْنَ حَصَى تَمَصَّرَ، وَقَفَا يَقْصَرُ؛ وَكَهَابٍ مَتَّقُوهُ، وَأَنْوَاعٍ عَقُوبُهُ؛ أَوْ يُقَالُ
فَلَانٌ أَبَارَتُهُ شُعُوبٌ، وَوَارَتُهُ الْجُبُوبُ، وَأَكْتَفَى بِسُلْفَةِ الْمَمَاتِ، مِنْ الْمَقْدَمَاتِ؛
وَمَا طَلَنْتُكَ بِالشَّلْوِ الطَّرِيجِ، فِي ضَنْكِ الضَّرِيجِ؛ تَحْتَهُ الْبَرْزَخُ الْمَوْصُودُ، وَفَوْقَهُ الْجَبَلُ
الْمَنْصُودُ، أَنْظَرَ كَيْفَ هُجْرَ بَابِهِ الْمَقْصُودُ، وَجَانِبَتْ جَنَابَهُ الْوُقُودُ؛ وَأَخْلَقْتَ رَبَاعَهُ،
وَتَفَرَّقَتْ أَتْبَاعُهُ؛ ثُمَّ تَسْوِيهِ الْحُوبُ، أَبْشَعَ مِنْ تَسْوِيهِ الشُّحُوبِ (٤)؛ وَوَيْلٌ لِلْقَوْمِ
الْبُورِ، مِنْ بَقَرَةِ الْقُبُورِ :

وَيَا خَسَارَ الْأَنْفُسِ الْغَاوِيَةِ • مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الْحُفْرِ الْمَاهِيَةِ،

وَكُلُّ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ • فَأَمَّهُ فِي بَيْتِهِ هَاوِيَةِ،

وَلَيْسَ يَذَرِي وَجْهَهُ مَاهِيَةً • نَارُ عَلَى سُكَّانِهَا حَامِيَةِ !

أعاذنا الله من خِلَالٍ يَقْضَى جَهَنُّهَا بِالنَّارِ، وَأَنْفَالٍ تُقْضَى بِهَلِهَا إِلَى النَّارِ، بِكَرَمِهِ
وإِحْسَانِهِ، وَطَوْلِهِ وَأَمْنَانِهِ .

الصنف الثالث

(من الرسائل المقانرات ، وهي على أنواع)

منها : المخاطرة بين الملوم .

وهذه نسخة رسالة في المخاطرة بين الملوم ، أنشأتها في شهر سنة ثمان وتسعين
وسبعمائة . لقاضي القضاة شيخ الإسلام ، علامة الزمان ، جلال الدين ، عبد الرحمن
أبو شيخ الإسلام ، بَقِيَّةُ الْمُجْتَهِدِينَ ، أَبِي حَفِصٍ عَمَرُ الْبُلْفِينِي الْكَلْبِيُّ ، الشَّافِعِيُّ ،
أَمَّتِ اللَّهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ بِبَقَائِهِ ، ذَكَرْتُ فِيهَا نَيْفًا وَسَبْعِينَ عَامًا ، أَبْتَدَأْتُ بِعِلْمِ اللُّغَةِ ،
وَحَتَمْتُهَا بِفَنِّ التَّارِيخِ ، ذَاكِرًا نَحْرَ كُلِّ عِلْمٍ عَلَى الَّذِي قَبْلَهُ ، مُحْتَجًّا عَلَيْهِ بِفَضَائِلٍ مُوجُودَةٍ
فِيهِ دُونَ الْآخَرِ ، وَجَعَلْتُ مَصَبَّ الْقَوْلِ فِيهَا إِلَى أَشْتَمَالِهِ عَلَى جَمِيعِهَا . وَإِحَاطَتِهِ بِكُلِّهَا ،
مَعَ الْإِشَارَةِ إِلَى فَضْلِ وَالِدِهِ ، شَيْخِ الْإِسْلَامِ ، وَمُسَاهَمَتِهِ لَهُ فِي التَّفْضِيلِ ، عَلَى مَا سَتَقِفُ
عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَهِيَ :

الحمد لله الذي جَعَلَ لِلْعِلْمِ جَلَالًا تَوَدُّ جَلَالُ الْفَضَائِلِ أَنْ تَكُونَ لَهُ أَتْبَاعًا ، وَأَطْلَقَ
أَلْسِنَةَ الْأَقْلَامِ مِنْ جَمِيلِ شَتَائِهِ بِمَا أَنْطَقَ بِهِ أَلْسِنَةُ الْعَالَمِ لِيَكُونَ الْحُكْمُ بِمَا ثَبَتَ مِنْ
مَأْثُورِ فَضْلِهِ إِجْمَاعًا . وَأَجْرِي مِنْ قَامُوسِ فِكْرِهِ جَدَاوِلُ أَنْهَارِ الْعُلُومِ الرَّيْكَةِ نَعْنَشُ
قُلُوبًا وَزَهْ أَيْصَارًا وَشَتَفَ أَصْمَاعًا .

أحمدُ عَلَى أَنْ أَفَاضَ نَتَائِجَ الْأَفْكَارِ عَلَى الْأَذْهَانِ السَّالِمَةِ لِذِي النَّظَرِ الصَّحِيحِ ،
وَبَتَّ جِيَادُ الْأَلْسَةِ فِي مِيدَانِ الْحِدَالِ لِحَازِ قَصَبِ السَّبْقِ مِنْهَا كُلِّ لِسَانٍ ذَلِيقَ فَصِيحٍ .

وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الَّذِي قَهَرَتْ بَيِّنَاتُ دَلِيلِهِ الْمُحَدِّثَ
الْمَعَانِدَ، وَبَهَرَتْ قَوَاطِعُ بَرَاهِينِهِ الْأَلَدَ الْخَصِيمَ وَالْجَدِلَ الْمُكَابِدَ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّ عَمْدًا عَبْدَهُ
وَرَسُولَهُ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ وَاضِحِ الْمُجْجِجِ الْحَلِيَّةِ مَا مَقَطَ بِجُجَّتِهِ دَعْوَى الْمُعَارِضِ، وَأَتَى
مِنْ فَضْلِ الْخِطَابِ بِمَا أَحْفَمَ بِهِ الْخَصُومَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَشْأَهُمْ فِي الْبَلَاغَةِ شِكِيمَةً أَنْ
يَأْتِيَ بِهِ بِمُنَاقِضٍ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ فَازُوا مِنْ جَلِيلِ الْمُنَاقِبِ بِكُلِّ
وَصِفٍ جَمِينٍ، وَأَشْتَهَرَتْ فِي الْوُجُودِ مَقَانِرُهُمْ فَلَمْ يُحْتَجْ فِي إِثْبَاتِهَا إِلَى إِقَامَةِ دَلِيلٍ،
صَلَاةً بِتَمَسُّكِ دَعْوَى الشَّرَفِ بِمَتْنِ حَبْلِهَا، وَتَتَّفِقُ أَدْلَةُ الْعَقْلِ وَالنُّقْلُ عَلَى الْقَطْعِ
بِعُدْوَانِهَا وَتَوْفِيْقِ قَضَلِهَا .

وبعد - فَمَا كَانَتْ الْمَوْمُ شَرَكَةً فِي أَصْلِ التَّفْضِيلِ ، مُتَّفَقَةً الْفَضْلُ فِي الْجَمْلَةِ
وَإِنْ تَمَاوَزَتْ فِي التَّفْصِيلِ ، مُسَلِّدًا أَصْلُ الشَّرَفِ فِيهَا مِنْ غَيْرِ مُتَازِعٍ ، مُتَّحِدًا عَلَى أَنَّهُ
لَا شَيْءَ مِنَ الْعِلْمِ مِنْ حَيْثُ هُوَ عِلْمٌ بِضَرٍّ وَلَا شَيْءَ مِنَ الْجَهْلِ مِنْ حَيْثُ هُوَ جَهْلٌ
بِنَافِعٍ ، مَعَ اخْتِلَافِهَا فِي التَّفَاضُلِ بِاخْتِلَافِ مَوْضُوعَاتِهَا ، وَتَفَاوُتِهَا فِي الشَّرَفِ بِحَسَبِ
الْحَاجَةِ إِلَيْهَا أَوْ تَأَقُّفِ حُجَّتِهَا أَوْ تَقَاسَةِ غَايَاتِهَا ، عَطَسَ كُلُّ مِنْهَا بِأَنْفِ شَايِعٍ غَيْرِ مُسَلِّمٍ
لِلْآخِرِ وَلَا مُسَالِدٍ . وَمَدَّ يَدَ الْعِلْيَاءِ يَدَ الْمَطَاوِلَةِ فَتَنَاولَ الثَّرِيًّا قَاعِدًا غَيْرَ قَائِمٍ ، وَأَدْعَى
كُلُّ مِنْهَا أَنْ يَحْمِلَهُ الطَّامِ ، وَفَضَّلَهُ النَّامِي ، وَجَوَّادَهُ الطَّالِمُ ، وَسَمَّاكَهُ الزَّائِعُ ، زَاعِمًا
أَنْ حُسَامَهُ الْقَاطِعُ ، وَغَضَبَهُ الْقَاضِبُ ، وَقَدَحَهُ الْمُعَلِّ ، وَسَهَمَهُ الصَّائِبُ ، وَجَمَعَ السَّارِي
وِيَسَاهِيَهُ النَّسَائِبُ . وَأَنْ تَشْرُ الثَّاءُ عَلَى تَجَامُرِهِ مَوْقُوفٌ ، وَخَطِيبُ الْحَمَامِدِ بِمَنَازِرِهِ
مَعْرُوفٌ ، وَقَلَّكَ الْفَضْلُ عَلَى قُطْبِهِ دَائِرٌ ، وَكُلُّ شَرَفٍ عَلَيْهِ حُبْسٌ وَكُلُّ نَحْرٍ عَلَيْهِ قَاصِرٌ ،
فَسَاسٌ يَطْفِئُهُ وَمَلٌّ ، وَبَسْطٌ فِي الْكَلَامِ لِسَانُهُ فَقَالَ وَقَالَ .

هَذَا : وَإِنَّمَا اجْتَمَعَتْ يَوْمًا اجْتِمَاعَ مَعْنَى لَا صُورَةَ ، وَطَامَتْ لَهَا سُوقٌ بِالْبَيْحِ
مَعْرُوفَةٌ وَعَلَى الْحَدِّ مَقْصُورَةٌ ، وَتَفَاوَضَتْ بِلِسَانِ الْحَالِ وَتَحَاطَبَتْ ، وَتَحَاوَرَتْ

في دَعْوَى الشَّرَفِ وَنَجَاوَيْتٍ ؛ وَلَمَّتْ بِالمُتَأَوِّفَةِ قَتَاوَرَتْ ، وَقَسَاوَتْ فِي مَيْدَانِ
الْإِنْتِخَارِ قَتَاوَرَتْ ؛ وَأَخَذَ كُلُّ مِنْهَا فِي نَصْرَةِ مَذْهَبِهِ ، وَتَحَقَّقَ مَطْلَبُهُ ؛ بِأَنْوَاعِ الْمُجْجِ
وَالْأَسْتِدْلَالِ ، وَإِقَامَةِ الْبَرَاهِينِ وَالْأَمَارَاتِ ، وَمَا يَتَوَجَّهُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَسْئَلَةِ
وَالْإِعْرَاضَاتِ . فَكَانَ أَوَّلَ بَادِيٍّ بَدَأَ مِنْهَا بِالْكَلَامِ ، وَقَعَ بِأَبِ الْإِدْجَالِ وَالْخِصَامِ :-

عَلَّمَ اللُّغَةَ قَالَ :

فَدَعَيْتُمْ مَعَشَرَ الْعُلَمَاءِ أَنْ أَعْمَكُمْ نَفْعًا ، وَأَوْسَعَكُمْ مَجَالًا وَأَكْثَرَكُمْ جَمْعًا ؛ عَلَى قُطْبِ
فَلَكَ تَدَوُّرِ الدَّوَارِ ، وَبِوَسْطِي تَدْرُكِ الْمَقَاصِدِ وَيَسْتَعْلَمُ مَا فِي الضَّاهِرِ ؛ وَبِدَلَالِي تُعَلِّمُ
الْمَعَانِي الْمَفْرَدَاتِ ، وَيَتَخَيَّرُ مَا يَدُلُّ عَلَى النُّوَاتِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْأَدْوَاتِ ؛ وَتَقِينُ دِلَالَاتُ
الْعَامِّ وَالْخَاصِّ ، وَيَتَعَرَّفُ مَا يُرْشِدُ إِلَى الْأَنْوَاعِ وَالْأَجْنَاسِ وَمَا يَنْخَصُّ بِالشَّخْصِ ؛
عَلَى أَنْ كُلُّكُمْ كُلُّ عَلَى ، وَحُجَّتُ فِي تَرْجُمَةِ مَقْصُودِهِ إِلَى ؛ فَلَقَطِي "الْمُحْكَمَ" وَأَوَالِي
"الصَّحَاحَ" ، وَكَلَامِي "الْجَامِعَ" وَسَيِّفُ لِسَانِي "الْمُجَرَّدَ" نَاهِيكَ مِنْ سِلَاحٍ ، وَفَضْلِي
"الْمُجْمَلُ" لَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ . إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَعْلِيْمِي لِأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَآثَرِي
مَعْرِفَةً عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَكَانَ خِصْمِي صَاحِبَ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ .

فَلَمَّا أَقْضَى قِيلَهُ ، وَبَانَتْ لَلْكَتِبَيْنِ سَبِيلُهُ ؛ ثَابَ إِلَيْهِ عِلْمُ التَّصْرِيفِ مُتَدِيرًا ،
وَلِنَفْسِهِ وَسِلَاحُ الْعُلُومِ مُتَخَيَّرًا ؛ فَقَالَ : رُوَيْدِكَ أَيُّهَا الْمَسَاجِلُ ، وَعَلَى رِسَالِكَ يَاذَا
الْمُنَاضِلُ ؛ فَقَدْ دَلَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ نَاصِرٌ ، وَحُطَّ قَدْرُ مَنْ رَفَعَ عَلَى أَبْنَاءِ جَنْسِهِ وَلَوْ عَقِدَتْ
عَلَيْهِ الْخَنَاصِرُ ؛ وَمَا يُجَادِي الْبَازِي بِغَيْرِ جَنَاحٍ ، أَوْ يُفْنِي السَّاعِيَ إِلَى الْحَرْبِ بِغَيْرِ
سِلَاحٍ ؛ وَأَنْ يَطْلُنَ رُحْمُ بَغِيرِ سِنَانٍ ، أَوْ يَقَطَعَ سَيْفٌ لَمْ يُؤَيِّدْ بِقَائِمٍ وَلَمْ يَقْبِضْ عَلَيْهِ
بَشَانٍ ؛ إِنَّكَ وَإِنْ حَوَيْتَ فَضْلًا ، وَأَعْرِقْتَ أَصْلًا ؛ وَكُنْتَ لِلْكَلَامِ نِظَامًا ، وَإِلَى

(١) الذي في كتب اللغة «جشحي» ويعدّ .

يَبَيِّنُ الْمَقَاصِدَ إِمَامًا ؛ فَانْتَ غَيْرُ مُسْتَقِلٍّ بِنَفْسِكَ ، وَلَا قَائِمٌ بِرَأْسِكَ ؛ بَلْ أَنَا الْمُتَكَفِّلُ
بِتَأْسِيسِ مَبَانِيكَ ، وَالْمَلْتَمُ بِتَحْرِيرِ أَلْفَاظِكَ وَتَقْرِيرِ مَعَانِيكَ ؛ فِي تُعْرَفُ أَصُولُ أُبْنِيَّةِ
الْكَلِمَةِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهَا ، وَكَيْفِيَّةِ التَّصَرُّفِ فِي أَسْمَائِهَا وَأَفْعَالِهَا ؛ وَمَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ
مِنْ أَحْوَالِ الْحُرُوفِ الْبَسِيطَةِ وَتَرْتِيبِهَا ، وَأَخْتِلَافِ غَوَارِجِهَا وَبَيَانِ تَرَكِيبِهَا ؛ وَالْأَصْلُ
مِنْهَا وَالْمَزِيدُ ، وَالْمُهْمُوسُ وَالرَّخْوُ وَالشَّدِيدُ ؛ وَتَقْدِيرُهُ ، وَالصَّحِيحُ وَالْمُعْتَلُّ
وَعَمْرِيهِ ؛ وَكَيْفِيَّةِ التَّنْيَةِ وَاجْتِمَاعِهَا ، وَالْفَصْلُ وَالْوَصْلُ وَالْإِبْتِدَاءُ وَالْقَطْعُ ؛ وَأَنْوَاعُ الْأُبْنِيَّةِ
وَتَعْمُرُهَا عِنْدَ الْوَلَوَاقِي ، وَكَيْفِيَّةِ تَصْرِيفِ الْفِعْلِ عِنْدَ تَجَرُّدِهِ عَنِ الْعَوَاقِلِ ؛ وَأَنْبَلَةُ
الْإِكْفَافِ الْمَفْرَدَةِ فِي الزَّيْنَةِ وَالْمُهَيِّئَةِ وَمَا يَخْتَصُّ مِنْ ذَلِكَ بِالْأَسْمَاءِ وَالْأَفْعَالِ ، وَتَمْيِيزِ الْجَامِدِ
مِنْهَا وَالْمُسْتَقَيِّ وَأَصْنَافِ الْأَشْتِقَاقِ : وَكَيْفَ هُوَ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ .

عَلَى أَنَّكَ لَوْ خُفِّيتَ وَجُجِدَ التَّعْرِيفُ ، وَبَيَانُ الْمَقَاصِدِ بِالْأَصْطِلَاحِ أَوْ التَّوْقِيفِ ؛
لَكَانَ عِلْمٌ أَلْحَقُ يَقُومُ مَقَامَكَ فِي الدَّلَالَةِ الْحَالِيَّةِ لَدَى الْمُتَقَيِّ ، وَيَتَرَجَّحُ عَلَيْكَ بَعْدَ
الْمَسَافَةِ مَعَ طُولِ الْبَقَاءِ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ زِيَادَةِ تَرْتِيبِ الْأَحْوَالِ ، وَضَبْطِ الْأُمُورِ ؛
وَحِفْظِ الْعُلُومِ فِي الْأَدْوَارِ ، وَاسْتِمْرَارِهَا عَلَى الْأَكْوَارِ ؛ وَاتِّقَالِ الْأَخْبَارِ مِنْ زَمَانٍ إِلَى
زَمَانٍ ، وَتَحْمِيلِهَا سِرًّا مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ؛ بَلْ رُبَّمَا أَكُنْتُ عِنْدَكَ بِالْإِشَارَةِ وَالْوَسْمِ ،
وَقَامَتِ الْكَاتِبَةُ مِنْهَا مَقَامَ التَّصْرِيحِ .

فَمِنْهَا غَضِبَ عِلْمُ النَّحْوِ وَأَكْفَهَرَ ، وَزَجَرَ وَشَمَخَرَ ؛ وَقَالَ : يَا إِلَهَ ! «أَسْتَنْتِ
الْفَصَالَ حَتَّى الْقَرْمَا» ، وَ«أَسْتَنْسَرْتُ الْبَيَاتُ» فَكَانَ أَشَدَّ ثَلَمَةً وَأَعْظَمَ صَدْعًا ؛ لَقَدْ
أَدْعَيْتَ مَا لَيْسَ لَكَ فَفَاتَكَ الْحُبُورُ ، وَمَنْ تَسَعَّجَ بِمَا لَمْ يَتَلَّ فَهُوَ كَلَيْسَ تَوَقُّفٌ زُودٌ ؛
وَهَلْ أَنْتِ إِلَّا بَضْعَةٌ مَيِّ ؟ ، تُسَدُّ إِلَيَّ وَتَقِلُّ عَنِّي ؛ لَمْ يَزَلْ عِلْمُكَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِي ،

وَجُمِّلَتْ دَاخِلَةً فِي حِسَابِي، حَتَّى مِيزَكَ "الْمَازِي" فَأَفْرَدَكَ بِالتَّصْنِيفِ، وَتَلَاهُ
 "أَبْنُ جَنِّي" قِيعَهُ فِي التَّالِيفِ؛ وَأَقْتَصَرَ "ابْنُ مَالِكٍ" مِنْكَ فِي تَعْرِيفِهِ عَلَى الضَّرُورِيِّ
 الْوَاجِبِ، وَأَحْسَنَ بِكَ "ابْنُ الْحَاجِبِ" فِي شَافِيَةِ فَرْقِهِ عَنْكَ الْحَاجِبِ؛ وَأَنْتَ
 مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ مَطْوِيُّ ضَمَنِ كُتُبِي، نِسْبَتُكَ مُتَّصِلَةٌ بِنَسْبَتِي وَحَسْبُكَ لِأَحَقِّ بِحَسْبِي .
 أَنَا مُلْعِكُ الْكَلَامِ، وَبِسَبِّكَ الْخِتَامُ؛ لَا يَسْتَفْنِي عَنِّْي مُتَكَلِّمٌ، وَلَا يَلِيْقُ جَهْلِي بِعِلْمِ
 وَلَا مُتَعَلِّمٌ، بِي تَبَيَّنَ أَحْوَالُ: الْأَلْفَاظِ الْمُرَكَّبَةِ فِي دِلَالَتِهَا عَلَى الْمَقَاصِدِ، وَرَتَفَعُ اللَّسَنِ
 عَنْ سَامِعِهَا فَيَرْجِعُ مِنْ فَهْمِهَا بِالصَّلَةِ وَالْعَائِدِ؛ فَلَوْ أَنَّي الْمَتَكَلِّمُ فِي لَفْظِهِ بِأَجَلٍ مَعُوٍّ
 وَلَحْنٍ لَذَهَبَتْ حَلَاوَتُهُ، وَزَالَتْ طَلَاوَتُهُ، وَعِيبَ عَلَى قَائِلِهِ وَتَفْنِيَتْ دِلَالَتُهُ. وَقَدْ كَانَتْ
 الْخُلُقَاءُ تَحْتُ عَلَى النَّحْوِ وَتَرْتِدُ إِلَيْهِ، وَتَعْمَدُ الْخَنَ وَتُعَاقِبُ عَلَيْهِ :

وَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ الْعُلُومِ أَجَلَهَا ۝ فَاجْلُهَا عِنْدِي مُقِيمُ الْأَلْسِنِ !

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَرَزَتْ عُلُومُ الْمَعَانِي وَالْبَيَانَ وَالْبَدِيعِ جُمْلَةً . وَحَلَّتْ عَلَيْهِ
 بِصَدْقِ الْعَزْمِ فِي اللَّقَاءِ حَمَلَةٌ ۚ وَقَالَتْ : جَمَّعَةٌ رَحًا مِنْ غَيْرِ طِخْنٍ . وَتَضْوِيَةٌ .
 رَعْدٌ مِنْ غَيْرِ مَزْنٍ ۚ لَقَدْ أَتَيْتُ بِغَيْرِ مُعْرَبٍ ، وَأَعْرَبْتُ عَنْ لَحْيٍ لَيْسَ بِمُطْرَبٍ ۚ
 الْحَقُّ أَتْلَجُ . وَالْبَاطِلُ بَجَلَجُ ۚ إِنَّ الْفَوْزَ لِقِدْحِنَا . وَالْوَرَى لِقِدْحِنَا ۚ نَحْنُ أُنْبُ
 الْعَرِيَّةِ وَخُلَاصَتِهَا . وَالْمَعْتَرِفُ لَنَا بِالْفَضْلِ عَامَتُهَا وَخَاصَتُهَا ۚ وَهَلْ أَنْتَ إِلَّاشِي ۚ
 جَرَى عَلَيْكَ الْأَصْطِلَاحُ ، وَسَاعَدَكَ الْأَسْتِمَالُ فَأَمِنْتَ الْأَطْرَاحَ ۚ فَلَوْ أَصْطَلَحَ بِي
 نَصَبُ الْفَاعِلِ وَرَفَعَ الْمَفْعُولُ لَمْ يَخْلُ بِالتَّفَاهُمِ فِي الْمَقَاصِدِ . وَهَذَا كَلَامٌ مُعَامَةً لِذَلِكَ أَقْبَمُ
 . . . وَاعْظُمُ شَاهِدُ .

فَقَالَ عِلْمُ الشَّعْرِ : أَرَأَيْتُمْ قَدْ تَبَيَّنَ فَضْلِي الَّذِي بِهِ فَصَّيْتُمْ . وَصَرَّمْتُمْ حَبْلِي الَّذِي
 مِنْ أَجْلِهِ وَصَلَّيْتُمْ ۚ أَنَا نَجْمَةُ الْأَدَبِ، وَدِيْوَانُ الْعَرَبِ ۚ عَلَى تَرَدُّونَ، وَعَنِّي تَصَدُّرُونَ ۚ

وإلى تَتَبِّهون، وبى تَشْتَهرون، مع ما اشتملت عليه من المدح الذى كم رفع وضعا، وجلب نفعاً، ووصل قطعاً، وجبر صدعاً، والهجو الذى كم حطّ قدراً، واتخذ ذكراً، وجعل بين الرفيع والوضيع فى حِطِيطَةِ القدر نسباً وصهراً؛ لى غير ذلك من أنواع الشعرية التى شاع ذكرها، وأضواعى المطرية التى فاح نشرها، بل لا يكاد علم من العلوم الأدبية يستغنى عن شواهدى، ولا يخرج فى أصوله عن قوانيني وقواعدي؛ حتى علم النثر الذى هو شقيق فى النسب، وعدل فى لسان العرب؛ لم يزل أهله يتعلمون على فى بيت يحلونه، ويفقون من يدع يحاسنى عند حد لا يتعدونه .

قال علم القافية : إنك وإن تألّى برقى مباسمك، وطابت أيام مواسمك؛ فانت موقوف على مقاصدى، ومُتَقَرِّف من روى مواردي؛ أنا علة الشاعر، وعمدة النثر؛ لا يستغنى عنى شعرك ولا خطابه، ولا يستنكف عن الوقوف على ابوابي ذو ترسل ولا يكابه؛ طاملاً عثر الفحول فى ميداني، وتسمعت عليهم طرقي فضلوا السبيل وأختلعت عليهم المباني؛ فلم يعرفوا بين التكاويس والتراكيب فى التعارف، ولم يميزوا بين التدارك والتواتر والتألف .

قال علم العروض : لقد أشتت القول فى الدعوى من غير توجيه فدخل عليك النخيل، وأوقعت الوصل دون تأسيس فى هوة النقص : فهل إلى خروج من سبيل؟ أنا معيار القريض وميزانه، وعلى ثبني قواعده وأركانه؛ لم يزل الشعر فى علو رتبته بفضل معتقاً ولحق متحققاً، ومن مجورى مُعْتَرِفاً، وبامباني متعلقاً؛ فانياته يميزانى محرره، وأجزاؤه يسطاس تغاعلى مُقَدَّره؛ وبفواصل متصلة، وبأوتادي مرتبطة غير متفصلة .

قال علم الموسيقى : لقد أشرقت فى الاختار فضلت الطريق وبنيت عنها، وورطت نفسك فيها لا فائدة فيه فلزمت دائرة لا تنفك عنها؛ وأيتت من طویل

الكلام بما لا طائل تحته فقل قولاً، وحقت من بسيط القول بما لو اقتصرته منه على المتقارب لكان بك أولى؛ فانت بين ذى طبع وزان لا يحتاج إلى معيارك في نظم قريضه، وأخبرت طباعه عن الوزن فلم ينفع من علمك بضربه ولا عروضه؛ فإذا لا فائدة فيك ولا حاجة إليك، ولا عبء بك ولا ممول عليك؛ وكفى بك هضمًا، وقصة وذمًا؛ واستدلًا على دحض محبتك، وضعف أدلتك؛ قول ابن حجاج:

مُسْتَعْلِنُ فاعِلُنْ فَعُولُ * مَسَائِلُ كُلِّهَا فُعُولُ،

قد كان شعر الورى صحيحًا * من قبل أن يخلق الخليل!

على أنه إن ثبت لك فائده، وعاد منك على الشعر أو الشعراء عايد؛ فأنما نفعك مقدمة لأخاني، وأوزانك وسيلة إلى أوزاني؛ نعم أنا غداء الأرواح، وقاعدة عمود الأفراح؛ والمتكفل ببسط النفوس وقبضها، والقائم من تعديدها وتقويتها بنقلها وفرضها؛ أحرّك النفس عن مبدئها فيحدث لها السرور وتظهر عنها الشجاعة والكرم، وأبعثها إلى مبدئها فيحدث لها الفكر في العواقب وتزايد المهوم والنهم؛ قارة أستمحل في الأفراح وزوال الكروب، ونارة في علاج المرضى وأثرى في مبادئ الحروب؛ وآية في حمل الأحرار واجتماع المائيم، ومرة يستعملني قوم في بيوت العبادات فابتهم على طلب الطاعات وأجتناب المحارم؛ وآتى من غريب الألحان، بما يتبع به الجائع ويرى به الظمان، ويأس به المستوحش وينشط به الكسلان؛ وتدنو لسماعه السباع، ويمنّوه بعد الشدة الشجاع.

مع ما يتفرّع عنى من علم الآلات الروحانية التي تمش الأرواح، وتنبئ الأفراح، وتنبئ الأضرار، وتورثي البيخيل السحاح، وتعمل في الأبواب ما لا تفعل في اللباب يعض الصفاح.

فقال عِلْمُ الطَّبِّ : لَقَدْ أَضَعْتَ الزَّمَانَ فِي اللُّهُو ، وَمِلْتَ مَعَ الْأَرِيحِيَّةِ فَاسَ بِكَ
 الْعُجْبُ وَزَادَ بِكَ الزَّمُو ؛ وَدَاخَلَكَ الطُّشُّ فَقَنِعْتَ بِالْإِطْرَابِ ؛ وَعَنَيْتَ بِمَعْرِفَةِ الْحَنِّ
 فَضَانِكَ الْإِعْرَابِ ؛ بُدِّكَرَ الْعُشَاقِ أَحْوَالَ النَّوَى فَيُسَالِمُهَا الْهَوَى إِلَى الْهَوَانِ ، وَتَقَعْلُ
 فِي نَوَاحِي الْإِبْهَاجِ تَتَقَلُّ الْمَسَائِمُ تُعْمِي فِي حِجَازٍ وَتُصْبِحُ فِي أَصْبَهَانَ ؛ وَأَنْتَ وَإِنْ
 أَدْعَيْتَ أَنَّكَ الْعِلْمُ الرُّوحَانِي ، وَالْمُسْتَوَلِيُّ بِتَحْرِيكِ الطَّبَائِعِ الْأَرْبَعِ عَلَى النَّوعِ الْإِنْسَانِي
 وَغَيْرِ الْإِنْسَانِي ؛ فَانْتَ غَيْرُ مُسْتَتْنِي عَنِي ، وَلَا فَتُكَ فِي الْحَقِيقَةِ مُتَّكٍ عَنِّي ؛ بَلْ
 قَوَاعِدُكَ مُرْتَبَةٌ عَلَى قَوَاعِدِي ، وَفَوَائِدُكَ مُسْتَعَادَةٌ مِنْ قَوَائِدِي ، وَأَهْلُ صِنَاعَتِكَ
 يَتَعَلَّقُونَ فِي مَعْرِفَةِ الْمَلَامِ وَالْمَنَافِي عَلَى سَاقِطِ لُبَابِ مَوَائِدِي ؛ وَأَنْتَ تَبْسُطُ بِكَ الرُّوحَ
 مَعَ وُجُودِ السَّقَمِ ، أَوْ يَسْتَرْجِعُ إِلَيْكَ الْقَلْبُ مَعَ شِدَّةِ مَقَاسَاةِ الْأَلَمِ ؟ ؛ بَلْ أَنَا قِيَامُ
 الْأَبْدَانِ ، وَغَايَةُ مِلَالِكَ الْإِنْسَانِ ؛ بِي تُحْفَظُ صِحَّةُ الْأَجْسَامِ ، وَتُمْكِنُ النَّفْسُ مِنْ
 اسْتِكْمَالِ قُوَّتَيْهَا النَّظَرِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ بِوَسَاطَةِ زَوَالِ الْأَسْقَامِ وَانْتِفَاءِ الْأَلَامِ ؛ مَعَ مَا يَتَّبِعُ
 بِالْظُّفْرِ فِي التَّشْرِيحِ الَّذِي هُوَ أَحَدُ أَنْوَاعِي مِنْ سِرِّ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفْلَا
 تُبْصِرُونَ ﴾ . وَمَا يَظْهَرُ مِنْ حَالِ الصَّحَّةِ وَالْمَرَضِ وَسِرِّ الْمَوْتِ مِنْ أَنَّهُ تَعَالَى بَدَأَ الْخَلْقَ
 أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ يَحْشُرُونَ .

مَعَ مَا يَلْتَحِقُ بِي مِنْ عِلْمِ خَوَاصِّ الْعَقَاقِيرِ الْغَرِيبَةِ ، وَالْأَحْجَارِ الَّتِي تُؤَثَّرُ بِتَجَزِّيْهَا
 الصَّنَاعِي التَّأْيِيرِ السَّجِيهِ ، وَتَأْتِي مِنْ نَوَادِرِ الْأَصَالِ بِالْأَعْمَالِ الْغَرِيبَةِ ؛ عَلَى أَنَّي لَسْتُ
 بِمُخْتَصِّصٍ فِي الْحَقِيقَةِ بِبَدَنِ الْإِنْسَانِ ، وَلَا قَاصِرٌ عَلَى تَوْجِعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ ، وَإِنَّمَا
 أُفْرِدْتُ بَنُوْعَ الْبَشَرِ أَهْتَامًا بِشَانِهِ ، وَتَنْبِيْهَا عَلَى جَلَالَةِ قَدْرِهِ وَهُلْوَ مَكَانِهِ .

ثُمَّ الْحَقُّ بِالْإِنْسَانِ فِي الْإِعْتِنَاءِ بِهِ الْخِيُولُ فَاسْتَقَى لَهَا مَتْنِي عِلْمِ الْيَطْرَةِ ، وَلَقَّاهَا
 فِي الْإِعْتِنَاءِ جَوَارِحُ الطُّيُورِ لِأَهْتِمَامِ الْمُلُوكِ بِشَانِهَا فَاسْتَنْبَطَ لَهَا مِنْ أَجْزَائِ عِلْمِ الْبَيْزَرَةِ ؛
 وَأَهْمَلُ مَا يَسُوِيْ ذَلِكَ مِنْ جِنْسِ الْحَيَوَانِ ، فَلَمْ يُعْنَنَّ بِأَمْرِهِ وَلَمْ يُهَيِّمْ لَهُ بَشَانَ .

فقال علم القَافَةِ : لقد أَرَقَّيْتُ مَرَّتَيْنِ صَعْبًا ، وَوَلَّيْتُ مَوِيلًا صُلْبًا ؛ وَأَتَيْتُ
 مِنْ مُشْكَلاتِ الْقَضَايَا بِمَا صَافَقَتْ مَطَالِيهِ ، وَعَرَّضْتُ نَفْسَكَ لِمَغَالِبَةِ الْمَوْتِ وَالْمَوْتِ
 لَا تَمُتْ بِغَالِيهِ ؛ وَأَقْتَصَرْتُ فِي تَشْرِيحِكَ الْأَعْضَاءَ عَلَى ذِكْرِ مَنَافِعِهَا وَصِفَاتِهَا ،
 وَأَضْرَبْتُ عَمَّا تَدُلُّ عَلَيْهِ بَصُورُهَا وَكَيْفِيَّاتِهَا ؛ أَيْنَ أَنْتَ مِنَ الْحَاقِ الْأَبْنِ بِالْأَبِ بِالصِّفَاتِ
 الْمُتَمَاثِلَةِ ، وَالْحُكْمِ بُبُوتِ النَّسَبِ بِدَلَالِ الْأَعْضَاءِ كَمَا يُحْكَمُ بِالْبَيِّنَةِ الْعَادِلَةِ ؟ ؛ فَهَذِهِ هِيَ
 الْفَضِيلَةُ الَّتِي لَا تُسَاوَى ، وَالْمَقْبَعَةُ الَّتِي لَا تُتَادَلُّ وَلَا تُسَاوَى ؛ وَكَفَافَكَ لِنَلَاكِ شَاهِدًا ،
 وَعَلَى ثُبُوتِهِ فِي الشَّرْعَةِ الْمُطَهَّرَةِ مُسَاعِدًا ؛ وَأَنَّهُ لَا يَتَوَرَّكُ ذَلِكَ مُعَارَضَةً وَلَا قُضْ ،
 اسْتِشْأَرُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِ مُدْرِجِ الْمُدْلِحِيِّ : « إِنَّ هَذِهِ الْأَقْدَامَ بَعْضُهَا
 مِنْ بَعْضٍ » .

فقال علم قِصِّ الْأَثَرِ : نَهْمُ إِنْ شَأْنُكَ لَعَرِيبٌ ، وَإِنْ أَجْتَهَادَكَ لُمُصِيبٌ ؛ غَيْرَ أَنِّي
 أَنَا أَغْرَبُ مِنْكَ شَأْنًا ، وَأَدَقُّ فِي الْإِدْرَاكِ مَعْنً ؛ إِذْ أَنْتَ إِنَّمَا تُلْحِقُ الْحَقَّ بِالْمَشَاهِدَةِ
 بِمَثَلِهِ ، وَتَقْيِسُ قَرَمًا عَلَى أَصْلٍ ثُمَّ تُلْحِقُ الْقَرَعَ بِأَصْلِهِ ؛ وَأَنَا فَأُدْرِكُ الْمُؤَثَّرَ مِنَ الْأَثَرِ ،
 وَأَسْتَدِلُّ عَلَى الْغَائِبِ بِمَا يَظْهَرُ مِنَ الْأَوَانِخِ فِي الرُّمْلِ وَالْمَدْرِ ؛ وَرُبَّمَا مَبِزْتُ أَتْرَ الْبَعِيرِ
 الشَّارِدِ مِنَ الْمَرَاتِعِ ، وَفَرَّقْتُ بِالنَّظَرِ فِيهِ بَيْنَ الصَّحِيحِ وَالظَّالِمِ ؛ فَادْرَكْتُ مِنَ الْأَمْرِ
 الْخَلْفِيَّ مَا تَذْكُرُهُ أَنْتَ مِنَ الظَّاهِرِ ، وَقَضَيْتُ عَلَى الْغَائِبِ بِمَا تَقْضِي بِهِ عَلَى الْخَاضِرِ .

فقال علم غُضُونِ الْكَفِّ وَالْحَبْهَةِ : مَا الَّذِي أَتَيْتَ بِهِ مِنَ الْغَرِيبِ ، أَوْ أَظْهَرْتَهُ
 بِعِلْمِكَ مِنَ الْعَجِيبِ ؟ ؛ فَلَوْ أَتَيْتُ بِأَرْضٍ صُلْبَةٍ لَوْقَّتْ أَمَّاكُ ، أَوْ حَتَّى الرَّيْحِ مَعَالِمُ
 الْأَثَرِ لَبَطَلْتَ أَعْمَالُكَ ؛ أَوْ وَجَّحَ مِنْ قُفَى أَثَرِهِ الْمَاءَ فَهَاتِ حَدْسُكَ الصَّابِتَ ، أَوْ جَلَّ
 الْمَاشِي مُقَدِّمَ تَلِّهِ مُؤَخَّرَهُ لَقُلْتَ : إِنَّ اللَّهَ أَبَ قَادِمٌ وَالْقَادِمُ ذَاهِبٌ ؛ لَكِنْ أَنَا كَاشِفُ
 الْأَسْرَارِ الْخَلْفِيَّةِ ، وَالْمُسْتَدِلُّ عَلَى لَوَائِمِ الْإِنْسَانِ بِمَا رُكِبَ فِيهِ مِنَ الدَّلَالِ الْخَلْفِيَّةِ ؛

أستخرج من أسرار الجبهة وغُضُون الكَفِّ أموراً قد أُرشدت الحِكْمَةُ الإلهية إليها ، وجعلت تلك العلامة في الانسان دِلالةً عليها .

فقال علم الكَتِفِ : إنه ليس في الاستدلال على الشيء بلازمه أمرٌ مُستغرب ، ولا ما يقال فيه : هنا من ذاك أعجب ؛ وإنما الشَّانُ أن يقع الاستدلالُ على الشيء بما هو أجنبيُّ منه ، وخارجٌ عنه ، كما أستدل أنا بالخطوط الموجودة في كَتِفِ الذَّيْجَةِ على الحوادث الغريبة ، والأسرار العجيبة ؛ مما أجرى الله به العادة في ذلك ، وجعله علامة دالة على ما هنالك .

فقال علم خِطِّ الرِّمْلِ : لقد علمت أنك لست بتحقيقٍ لما أنت له متوسِّم ، ولا واثقٍ بالإصابة فيما أنت تُترجم ؛ وغائيتك الوقوفُ مع التجارب ، والرجوعُ فيما تُحاوِلُهُ إلى القارب ؛ مع ما أنت عليه من الرُّفْضِ والإهمال ، وما رُمِيتَ به من القطيعة وقِلَّةِ الاستمال ؛ أما أنا فنَاقِشُ هذا المِثْلان ، ومالكٌ زِماعُ هذا الشَّان ؛ فكَم من ضمير أبرزته ، وأمرٍ خفيٍّ أظهرته ، ومكانٍ عيَّنه فوافق ، وأمدٍ قدرته فطابق ؛ على أنه ليس لك أصلٌ ترجعُ إليه ، ولا دليلٌ تعتمدُ عليه ؛ فإنا أثبتُ منك قواعد ، وأوضح عند الاعتبار في الدلالة على المقاصد ؛ فإن مدوت طورك ، أو جُرزت في الاحتجاج خصمك ؛ فذاك ، أنه كان نبيٌّ يخطُّ فن وافق خطه فذاك .

فقال علم تعبير الرؤيا : إنك وإن أظهرت السَّرائر ، وأبرزت الضائِرَ ؛ فإن أمرَكَ موقوفٌ في حَنِيكَ على الدَّلالة الحالية ، ومقصودٌ في تَحْمِينِكَ على الأمور الاحتمالية ؛ أين أنت مِنِّي حين أُعبرَ عما شاهدته النفس في النوم من عالم الغيب ؟ وكيف أُكشِفُ عنه المُجَبُّ بالتأويل فيقعُ كَقَلْبِ الصُّبْحِ من غير شك ولا ريب ؛ فأخبر بمحادثات تقع في العالم قبل وجودها ، وآتي من حقائق النَّدَاة والبشارة بما يُنبئ على التحذير من نحوها والترقب لموافاة سعودها .

فقال علم أَحْكَامِ النُّجُومِ : حَقِيقٌ مَا أَوْتِ ، وَصَحِيحٌ مَا عَنْهُ عَمَّيْتُ وَعَلَيْهِ
عَوَّلْتُ ؛ إِلَّا أَنْكَ قَاصِرٌ عَلَى وَقَائِعِ مَخْصُوصَةٍ تُرْسِدُ إِلَيْهَا ، وَأُمُورٍ مَحْدُودَةٍ تُتَّبَعُ عَلَيْهَا ؛
عَلَى أَنَّهُ رُبَّمَا نَشَأَتِ الرُّؤْيَا عَنْ فِكْرَةٍ وَقَعَتْ فِي الْيَقَظَةِ فَاتَّصَلَتْ بِالْمَنَامِ ، أَوْ حَدَّثَتْ
عَنْ سُوءِ مَزَاجٍ أَوْ رَدَاءَةِ مَطْعَمٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَكَانَتْ أَضْغَاتِ أَحْلَامٍ ؛ أَمَا أَنَا فَأَنَا أَدُلُّ
بِمَا أَجْرَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْعَادَةِ ، عَلَى الْحَوَادِثِ الْعَامَةِ مَصَاحِبًا لِمُقْتَضِيَاتِ الْإِرَادَةِ ؛
لِيُظْهَرَ مَا فِي الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ مِنْ قَضَايَا التَّنْذِيرِ ، وَيَتَبَيَّنَ مَا أَشْمَعَتْ عَلَيْهِ الْأَفْلَاكُ
الْعُلُومِيَّةُ مِنْ تَقْدِيرِ التَّرْتِيبِ وَتَرْتِيبِ التَّقْدِيرِ ؛ مَعَ مَا يَتَرَبُّعُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ
الطَّبِيعِيَّةِ ، وَالْأَحْوَالِ الْغَرِيبَةِ ؛ الَّتِي تَبْهَرُ الْعُقُولَ ، وَيَتَنَبَّهُ عَلَيْهَا مِنْ غَيْرِ طَرِيقِ
الْوُصُولِ :

مِنْ عِلْمِ السِّحْرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَعِلْمِ الطَّلَسِمَاتِ الْغَرِيبَةِ وَعِلْمِ الْأَوْفَاقِ ،
وَكَذَلِكَ عِلْمُ الْبِرَئِجِيَّاتِ وَعِلْمُ السِّيمِيَا الْآخِذِ بِالْأَحْدَاقِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْهَيْئَةِ : مَا لَكَ وَلَا بِأَطِيلَ تَسْمَقُهَا ، وَأَكَاذِيبُ تَرْزَخُهَا وَتُزْبِرُهَا ؛
وَأَمَّا نِيلُ يَتَمَدُّهَا الْمُتَمَدُّ فَتَحْزِيبُ ، وَأَقَاوِيلُ نَارَةٍ تُحْطِئُ وَنَارَةٌ تُصِيبُ ؛ وَلَقَدْ وَرَدَتْ
الشَّرِيعَةُ الْمُطَهَّرَةُ بِالنَّبِيِّ عَنْ أَعْتِبَارِكَ ، وَجَاءَتِ السَّنَةُ الْغَرَاءُ بِخَوِّ أَخْبَارِكَ وَإِعْفَاءِ
آثَارِكَ ؛ وَنَاهَيْكَ بِفَسَادِ هَذَا الْإِعْتِقَادِ وَرَدَّ هَذَا الْمَذْهَبِ ، مَا تَبَتْ فِي الصَّحِيحِ مِنْ
أَنَّهُ مِنْ قَالَ : مُطَرَّنَا بَنُوهُ كَذَا فَهُوَ كَافِرٌ بِاللَّهِ مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ ؛ عَلَى أَنَّكَ فِي الْحَقِيقَةِ
نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعٍ ، مَعْدُودٌ مِنْ جُنْدِيٍّ وَخُصُوبٌ مِنْ أَتْبَاعِيٍّ ؛ نَعَمْ أَنَا الْقَائِمُ مِنْ دَلِيلِ
الْإِعْتِبَارِ فِي الْقُدْرَةِ بِتَسَامِ الْقُرْصِ ، وَالْقَائِدُ زِيَامِ الْعَقْلِ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ ، عَنِّي يَتَفَرَّقُ عِلْمُ الزِّيَجَاتِ وَالتَّقَاوِيمِ الَّذِي بِهِ يُعْرَفُ مَوْضِعُ كُلِّ وَاحِدٍ
مِنَ الْكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ وَمَتَى إِقَامَتُهَا ، وَزَمَنُ تَشْرِيقِهَا وَتَغْرِبِهَا وَمُقْدَارُ رُجُوعِهَا

وَأَسْتَقَامَتَهَا ، وَحَالُ ظُهُورِهَا وَآخِثَاتِهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَمَا يَتَّصِلُ بِنَظَرِكَ مِنَ الْإِتِّصَالِ
وَالْإِفْصَالِ وَالْحُسُوفِ وَالْكُسُوفِ وَأَخْصَاصِ ذَلِكَ بِمَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ .

فَقَالَ عِلْمُ كَيْفِيَّةِ الْأَرْصَادِ : مَا عِلْمُ الرِّيحَاتِ وَالْتِقَاوِمِ الَّذِي تَقْدِّمُهُ فِي الذِّكْرِ عَلَى ،
وَتُؤَخِّرُهُ مِنَ الْفَضْلِ بِمَا لَدَيْهِ ، إِذْ بِي تُتَعَرَّفُ كَيْفِيَّةُ تَحْصِيلِ مَقَادِيرِ الْحَرَكَاتِ الْفَلَكِيَّةِ ،
وَالْتِدَافِ إِلَيْهَا بِالْأَلَاتِ الرَّصِيدَةِ ، الَّتِي عَلَيْهَا يَتَرْتَبِ عِلْمُ الرِّيحَاتِ ، وَيُعْرَفُ فِي التَّقْوِيمِ
الْإِتِّصَالَاتُ وَالْإِفْصَالَاتُ وَالْإِمْتَرَا جَاتُ .

مَعَ مَا يَلْتَحِقُ بِي مِنْ عِلْمِ الْكُرَّةِ الَّذِي مِنْهُ تُعْرَفُ كَيْفِيَّةُ اخْتِذَاذِ الْأَلَاتِ الشُّعَاعِيَّةِ ،
وَيَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى اسْتِخْرَاجِ الْمَطَالِبِ الْفَلَكِيَّةِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْمَوَاقِيتِ : كَيْفَ وَأَنَا سَيِّدُ عُلُومِ الْهَيْئَةِ وَرَعِيمُهَا ، وَشَرِيفُهَا فِي الشَّرِيعَةِ
وَكَرِيمُهَا ، بِي تُعْرَفُ أَوْقَاتُ الْعِبَادَاتِ ، وَتُسْتَخْرَجُ حُجَّةُ الْقِسْلَةِ بِلِ سَائِرِ الْهَيْئَاتِ ،
وَتُعْلَمُ أَحْوَالُ الْبُلْدَانِ وَمَحَلَّتُهَا مِنَ الْمَعْمُورِ فِي الطُّولِ وَالْعَرْضِ ، وَمَقَادِيرُ أَسْوَاقِهَا
وَأَنْحِرَافُ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ ، مَعَ مَا يَتَخَرِّطُ فِي هَذَا السَّنَكِ مِنْ مَعْرِفَةِ السُّمُوتِ
وَأَرْتِفَاعِ الْكَوَاكِبِ ، وَمَطَانِعِهَا مِنْ أَجْزَاءِ الْبُرُوجِ وَالطَّلَافِ مِنْهَا وَالْغَارِبِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ
مِنْ الشُّعَاعَاتِ الْخَفُورَةِ ، وَالظُّلَالِ الْقَائِمَةِ وَالْمُبْسُوطَةِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَلْتَحِقُ بِي ،
وَيُنْسَبُ إِلَيَّ وَيَتَعَلَّقُ بِسَيِّئِي :

مِنْ عِلْمِ الْأَلَاتِ الظِّلِّيَّةِ الَّتِي تُعْرَفُ بِهَا سَاعَاتُ النَّهَارِ ، وَيُظْهِرُ مِنْهَا الْمَاضِي
وَالْبَاقِي بِأَقْرَبِ مُتَمَسِّسٍ وَأَلْطَفِ آعْيَازٍ ، مِنْ مَحْوِ الرُّخَامَاتِ الْقَائِمَاتِ ، وَالْمُبْسُوطَاتِ
مِنْهَا وَالْمَائِلَاتِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْهَنْدَسَةِ : إِذَا قَبَّلْتُمْ لَمْ تَشْهُورُوا ، وَمِنْ أَسْبَابِ الشُّرُوفِ غَيْرُ مَنْشُورٍ ، إِلَّا أَنْ
الْإِنِّكَ بِي مُقَدَّرَةٌ ، وَأَشْكَالُكَ بِأَوْضَاحٍ مُخَوَّرَةٍ ، فَإِنَّا إِنَّمَا كُنَّا فِي تَقْدِيرِهِ ، وَتَجَمُّعِهِ

الذي به تهتدي ؛ بل جميع علوم الهيئة في الحقيقة موقوفة على ، وراجعة في قواعدها إلى ؛ لولاي لم يعرف السطح والكُرّه ، ولم يميز بين الخطوط والقيس والنواتر المقدّره ، مع ما ينشأ عنى ، ويستمل من محاي ومقتبس منى ، من أحوال المقادير ولو أحققها ، ومعرفة ظواهرها الواضحة ودقائقها ؛ وأوضاع بعضها عند بعض ونسبها ، وخواص أشكالها والطرق إلى عمل ما سيده أن يعمل لها ، واستخراج ما يحتاج إلى استخراجه بالبراهين القبيّة القاطعه ، وإظهارها إلى الحس بالأشكال البينة والحدود الجامعة .

المائة .

فقال عالم الأبنية : نعم ، إلا أنى أنا أجل مقاصدك ، وأعذب مواردك ؛
 ^{مُؤَيَّدٌ بِمُؤَيَّدَةٍ} وعمرؤس فنونك ؛ منى يستفاد بناء الحصون والأسوار ، ويشترّف شق
 ^{الْأَقْيَسَةِ} أنوار البنايات ؛ وعمارة المدن وعقد القواصر ، وسدّ البُنى وبناء القناطر ؛
 وتصغير المساكن ، وتزجج المنازل ، ونصب الأتجار وترتيب الرياض ذوات الخائل .
 فقال نعم برّ دنانى : صدقت وليكنّى أنا أساس مبانيك وقاعدة سنادك ،
 وحامل أثقالك ونعمود اعتمادك ؛ فى تعرف كيفية تحمل الثقل العظيم بالقوة اليسيرة ،
 حتى تحمل مائة أثب يُلْ بِقُوَّةِ نَحْرِيَّةٍ وذلك من الأمرار النفيسة والأعمال
 الخطيرة .

فقال علم مرّاكر الأثقال : إلا أنك محتاج إلى فى أعمالك ، ومُتَوَقِّفٌ على
 فى جميع أحوالك ؛ من حيث استخراج مرّاكر الأجسام المحمولة ، وبين مُمَادِلَةِ
 الجسم العظيم بما هو دونه لتوسّط المسافة بالآلات المعمولة .

فقال علم المساحة : أراك قد غفلت عن معرفة المقادير والمسافات التى هى مُقَدِّمَةٌ
 عليك فى وضع المباني ، ومُتَفَرِّدَةٌ عنك بكثير من المعانى ، من آله الخراج والزراعات ،

وتقدير الرساتيق والياعلت ، وكيفية ذرع المثلثات ، والمربعات ، والمُدورات ،
والمستطيلات ؛ وغير ذلك من دقائق الأعمال ، وإدراك كليات المقادير على التفصيل
والإجمال .

فقال علم الفلاحة : فإذا قد اعترفت أنك من جملة لواحقي ، مندرج في حقوق
وداخل تحت مرافقي ؛ فانا في الحقيقة المقصود منك في الوضع بالقياس ، والمُتجدد
لك دون غيري من غير التباس ؛ مع ما انا عليه من معرفة كيفية تدبير النبات من بدو
صكوته إلى تمام تدبيره ، وتسمية الحبوب والثمار بإصلاح الأرض وما تحملها
من المعفونات كالسماد وغيره وما أبدية من اللطائف في إيجاد بعض الفواكه في غير
فصله ، وتركيب بعض الأشجار على بعض واستخراج بعضها من غير أصله .

فقال علم إنباط المياه : إلا أنني انا بداية عملي ، وغاية منتهى أملي ؛ لا يتم لك
أمر بدوني ، ولا تثبت لك خضرأ ما لم تُسقى من يناري وعيوني ؛ فانا الكفيل
باحياء الأرض الميتة وإفلاحها ، والقائم بتطيف مزارعها وإصلاحها .

فقال علم المناظر : ما الذي يُجدي أنت وطرفي عنك مُرتد ، ونظري إليك غير
مُمتد ؛ وأنى تستطيع مياهلك الترقى من الأغوار إلى النجود ، وتنقل عيونك وأنهارك
بين المبوط والسمود ؛ إذا لم أكن لك ملاحظا ، وعلى الاعتناء بأمرك مُحافظا ؛
مع ما أشتمل عليه غير ذلك من تحقيق المبصرات في القرب والبعد على اختلاف معانيها ،
وما يتلطف فيه البصر كالأشجار القائمة على سُطوط المياه حيث ترى وأسافلها أعاليها .

فقال علم المرايا المحرقة : إنك وإن دقت النظر ، وحقت كل ما وقع عليه
حاسة البصر ؛ فانا مقصودك الأعظم ، ومهمك المقدم ؛ طالما أحرقت القلاع

(١) ذكر في لسان العرب أن المركة جمع مراء كمرأه وأن العوام يقولون في جمعها : مرايا .

بُسَاعَى، وَصَحَنَتِ الْجَبُوشَ بِدَفَاعَى؛ وَفَتُّ بِمَا لَمْ يَقُمْ بِهِ الْجَبِشُ الرَّمَرَمَ وَالسَّكْرَ
الْجَزَارَ، وَأَغْنَيْتُ مَعَ أَفْرَادَى عَنْ كَثْرَةِ الْأَعْوَانِ وَمُعَايَذَةِ الْأَنْصَارِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْأَلَاتِ الْحَرَبِيَّةِ : وَإِنْ حَتَّكَ لَكَيْلٌ ، وَإِنْ جَدَّكَ لَقَيْلٌ ، وَإِنْ
الْمُسْتَنْصِرَ بِكَ لَقَدْ لَيْلٌ ، وَمَاذَا عَسَى تَصِلُ فِي الْإِحْرَاقِ إِلَيْهِ ، أَوْ تُسَلِّطَ فِي الْحُرُوبِ عَلَيْهِ ؟ ؛
أَنَا بَاغُ الْحَرْبِ الْمَلِيدِ ، وَالْمُحَصَّنِ مِنْ كُلِّ بَأْسٍ شَدِيدٍ ، وَالْقَاتِلِ بِلِسَانِ الصَّنْدُقِ عَلَى
الْأَعْدَاءِ : (قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيهِ الْبَاطِلُ وَمَا يُعْبِدُ) . فَأَنَا قَسُّ الْمَقْصُودِ وَمَعِينُ
الْمُرَادِ ، وَنَعْمُودُ الْحَقِّ وَقَاعِدَةُ الْجِهَادِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْكِيمِيَا : مَا أَنْتَ وَالْقِتَالُ ، وَمُوَاقَعَةُ الْحُرُوبِ وَقَوَارِعُ التَّرَالِ ، وَهَلْ
أَنْتَ إِلَّا آلَهُ مِنَ الْأَلَاتِ ، لَا تُنْصَلِّ بِنَفْسِكَ فِي حَالَةٍ مِنَ الْحَالَاتِ ، وَأَنْتَ يُنْفَى
السَّلَاحُ عَنْ أَلْبَانٍ مَعَ خَوَرِ الطَّبَاحِ ، أَوْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَطْلُ الصَّنِيدُ وَالْمُجَرَّبُ الشُّجَاعُ ؛
فَالْعِبْرَةُ بِالْمُقَاتِلِ ، لَا بِاللُّوَايِلِ ؛ وَالْعُمْدَةُ عَلَى الرِّجَالِ ، لَا بِبُيُورِيقِ السُّيُوفِ عِنْدَ التَّرَالِ ؛
وَبِكُلِّ حَالٍ فَالْعُمْدَةُ فِي الْحُرُوبِ وَجَمْعُ الْعَاكِرِ عَلَى التَّقْدِيرِ دُونَ مَا عَدَاهَا ،
وَالْإِسْتِنَادُ إِلَى النَّهَبِ وَالْفِضَّةِ بِخِلَافِ مَا سَوَاهُمَا ؛ وَإِلَى هَذَا الْحَدِيثِ يُسَاقُ وَعِلَى
فِيهِ يَتِمُّدُ ، وَعَنِّي يُؤْخَذُ وَإِلَى فِي مِثْلِهِ يُسْتَنْدُ ، أَحَاوِلُ مُحْسِنُ التَّدِيرِ ، مَا طَبَحْتَهُ
الطَّبِيعَةُ عَلَى مَرِّ الشُّهُورِ ، فَآتَى بِمِثْلِهِ فِي الزَّمَنِ الْقَرِيبِ ، وَأُجَاسِسُ بَيْنَ الْمَمَادِنِ فِي مُنَازَعَتِهَا
فَيُظْهِرُ عَنْهَا كُلَّ مَعْنَى غَرِيبٍ ؛ وَأُبْرِزُ مِنْ خِصَائِصِ الْإِكْبِيرِ مَا يُقَلِّبُ الْمَرْجَحَ قَرَأً
مِنْ غَيْرِ لَبَسٍ ، وَيُجِلُّ الزُّهْرَةَ تَتَمَّسًا وَتَاهِكُ بِأَحَالَةِ الزُّهْرَةِ إِلَى الشَّمْسِ ؛ فَصَاحِبِي
أَبَدًا عَزِيزُ الْمَالِ ، شَرِيفُ النَّفْسِ عَنِ الطَّلَبِ عَفِيفُ اللِّسَانِ عَنْ السُّؤَالِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْحِسَابِ الْمُقْتَوَحِ : إِنَّكَ وَإِنْ دَفَعْتَ عَنَّا ، وَجَلَبْتَ غَنَى ؛ فَامْوَالُكَ
الْجَمْدُ ، وَحَوَاصِلُكَ الضَّخْمَةُ ؛ عَتَاجَةٌ إِلَى حَصَائِي ، غَيْرُ غَنِيَّةٍ عَنْ كُنَائِي ؛ أَنَا جَائِيهٌ

الأموال وضابط أصولها ، والتكفل بحفظ جملتها وتفصيلها ؛ مع احتياج كثير من العلوم إلى في الضرب والقسمة والإسقاط .

قد أخذت من علم الارتعاطي الذي هو أصل علوم الحساب يجرانيه ، وتعلقت منه بأسهل طرقه وأقرب مذاهبه ؛ وتأهيك بشرف قدرى ، ورفعة ذكرى ؛ قول أبي محمد الحريرى فى بعض مقاماته ، منها على شرف قلبى وسنى حاله : « ولولا قلم الحساب لأودت نمرة الأكتساب ، ولأحصل الثغابن إلى يوم الحساب » .

فقال علم حساب التخت والميل : مه ! فإنت إلا علم العامة فى الأسواق ، تدور بين الكافة على العموم وتتداول بينهم على الإطلاق ؛ تكاد أن تكون يسيراً حتى لا أطفال ، وضروباً للنساء واليسيد فى جميع الأحوال ؛ يتسع عليك مجال الضرب فتقصره هتك المقصره ، وتشتعب عليك مدارك القسمة فتأى بها على التقريب غير محوره ؛ أين أنت من سعة باعى ، وأمتداد ذراعى ، وتحرير أوضاعى ؟ لا يعتمد أهل الحق فى مساحة الأفلاك والكواكب غير حقائق أمورى ، ولا يؤولون فيها - على سعة قضائها - إلا على محاسن وكسورى .

فقال علم حساب الخطائين : مالى وليعلم لا يوصل إلى المقصود إلا بعد عمل طويل ؟ ، ويحتاج صاحبه مع زيادة المتأ إلى استصحاب ثمت وبيل ، وقد قيل : كل علم لا يدخل مع صاحبه الحماج ففداه قاصر ونفعه قليل ؛ على أن غيرك يسار كن فيما أنت فيه ، ويوصل إلى مقصودك بطريق لا يدخله الفلظ ولا يتقر به ؛ وإنما الشأن فى استكشاف غامض أو إظهار غريب ، ولا أعجب من أن نصيب إخراج المجهول من الأعداد بخطائين يقال : أتى بخطائين وهو مصيب .

فقال علم الجبر والمقابلة : حَسْبُكَ فإِنَّمَا أَنْتَ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَجْهُولاتِ كَقُطْعةٍ مِنْ قَطْرٍ ، أَوْ نُقْبةٍ مِنْ بَحْرٍ ؛ تَقْتَصِرُ مِنْهَا بِطَرِيقِكَ الْقَاصِرَةِ وَأَعْمَالُكَ النَّائِكَةِ ، عَلَى مَا امْتَكَنَ صَيْرُورَتُهُ مِنَ الْعَدَدِ فِي أَرْبَعَةِ أَعْدَادٍ مُتَنَاسِبَةٍ ؛ نَعَمْ أَنَا أَبُو عَدْرَتِهَا ، وَأَبْنُ بَجْدَتِهَا ، وَأَخُو تَجْدَتِهَا ؛ اسْتَخْرِجْ جَمِيعَ الْمَجْهُولاتِ ، مِنْ مَسَائِلِ الْمَعَامَلَاتِ ، وَالْوَصَايَا وَالتَّرِكَاتِ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَجْرِي هَذَا الْجَرَى ، وَيَتَوَخَّوْهُ هَذَا النَّحْوُ وَيَسْرَى هَذَا الْمَسْرَى ؛ مِمَّا يَدْخُلُ تَحْتَ الْأُمُوالِ وَالْجُدُورِ ، وَالْأَعْدَادِ الْمُطْلَقَةِ مِنَ الصَّاحِ وَالْكُؤُورِ .

فقال علم حِسَابِ الدِّرْهِمِ وَالدِّيْنَارِ : مَا لَكَ وَلِإِدْعَاءِ التَّعْمِيمِ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَجْهُولاتِ وَكَشْفِ الْغَوَامِضِ ؟ وَإِنَّمَا أَنْتَ قَاصِرٌ عَلَى اسْتِعْلَامِ الْمَجْهُولاتِ الْعَدَدِيَّةِ الْمَعْلُومَةِ الْغَوَامِضِ ؛ دُونَ مَا تَرِيدُ عَدَّتُهُ عَلَى الْمَعَادِلَاتِ الْجَبْرِيَّةِ ، فَقَدْ فَانَكَ حَيْثُئِذٍ الدَّعَاوَى الْخَفِيَّةِ ؛ لِكَيْ أَنَا كَأَشْفَ هَذِهِ الْحَقَائِقِ ، وَمِيزَ سُبُلَهَا بِالْأَطْفِ الطَّرَائِقِ ؛ فَيُؤَلِّمُهَا يَتَوَصَّلُ ، وَعَلَى قَوَاعِدِي لِاسْتِخْرَاجِ مَقَاصِدِهَا يُجَمَّلُ وَيُفْصَّلُ .

فقال علم حِسَابِ الدَّوْرِ وَالْوَصَايَا : إِنَّ اسْتِخْرَاجَ الْمَجْهُولاتِ وَإِنْ عَظُمَ نَفْعُهَا ، وَحَسُنَ وَضْعُهَا ؛ فَإِنَّمَا أَكْثَرُ مِنْهَا فَائِدَةٌ ، وَأَجَلُ مِنْهَا عَائِدَةٌ ؛ أَيْنَ مِقْدَارِ مَا يَتَعَلَّقُ بِالدَّوْرِ مِنَ الْوَصَايَا ، حَتَّى يَتَضَحَّ لِمَنْ يَتَأَمَّلُ ، وَأَقْطَعِ الدَّوْرَ فَتَعُودَ الْمَسْأَلَةُ مِنْ أَظْهَرِ الْقَضَايَا ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَدَارَ أَوْ تَسْلَسَلَ .

فقال علم الْفِقْهِ : وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا بُنْدَةٌ مِنَ الْوَصَايَا الَّتِي هِيَ بَارِقَةٌ مِنْ بَوَارِقِ ، تَتَعَلَّقُ بِالْأُنْبَانِي وَتَدَخُلُ تَحْتَ سُرَادِقِ ؛ فِي تَحْمِيْرِ مَعَالِمِ الْأَحْكَامِ ، وَتَبْيِينِ الْوَاجِبِ وَالْمُنْتَوَبِ وَالْمُبَاحِ وَالْمَكْرُوهِ وَالْحَرَامِ ؛ وَيُتَعَرَّفُ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْعِبَادَاتِ . وَسَاءَ أَنْوَاعُ التَّكْلِيفِ الشَّرْعِيِّ الْعَمَلِيَّةِ مِمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ الضَّرُورَاتِ

وتَجَرَّبَى به العادات ؛ فَأَنَا إِمَامُ الْعُلُومِ الَّذِي بِهِ يُقْتَدَى ، وَعَمِيدُهَا الَّذِي عَلَيْهِ يُعْتَمَدُ
وَمَجْمَعُهَا الَّذِي بِهِ يُهْتَدَى ؛ فَلَوْلَا إِرْشَادِي لَفَضَّلَ سَعَى الْمُكَلَّفِينَ ، وَلَآمَسُوا فِي دِيْنَاهُ
مُدْلِيْمَةً فَأَصْبَحُوا عَنْ رَكَائِبِ الْخَيْرِ مُخْلَقِينَ .

وَأَهَيْكَ أَنْ مِنْ مُجْمَلَةِ أَفْرَادِي ، وَأَسَادِ أَعْدَادِي : -

علم الفرائض الذي حصَّ الشارع على تعلُّبه وتعلِّمه ، وأخبر بأنه نصف العلم
منبهاً على تعظيم شأنه وتفخيمه ؛ وبألغ في إثبات قواعده وإحكام أسسه ، فقال :
« إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكِلْ قِسْمَةَ مَوَارِيثِكُمْ إِلَى مَلِكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ بَلْ تَوَلَّاهَا
قَسَمَهَا بِنَفْسِهِ » .

فقال علم أصول الفقه : إِنَّ مَقَالَكَ لَمَالٌ ، وَإِنَّ جَيْدَكَ لَحَالٌ ؛ غَيْرَ أَنِّي أَنَا
الْمُتَكَفِّلُ بِتَقْرِيرِ أَصُولِكَ ، وَتَوْجِيهِ الْمَسَائِلِ الْوَاقِعَةِ فِي خِلَالِ أَبْوَابِكَ وَفُصُولِكَ ؛
بِئُتْرَفِ مَطَالِبِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ وَطُرُقِ اسْتِنْدَابِهَا ، وَمَوَادِّ مُجْجِمِهَا
وَأَسْتِخْرَاجِهَا بِدَقِيقِ النَّظَرِ وَتَحْقِيقِ مَنَاطِهَا ؛ فَأَصُولِي فُرُوعُ مَقَرَّرَةٍ ، وَبَحَاسِينُ
أَسْتِدْلَالِي مُجْمَعُكَ مُنْفَعَةٌ مُحَرَّرَةٌ ؛ قَدْ مَهَّدْتُ طُرُقَكَ حَتَّى زَالَ عَنْهَا الْإِلْبَاسُ ، وَبَيَّنْتُ
عَلَى أَعْظَمِ الْأَصُولِ فُرُوعَكَ فَأَسْتَدْتَهَا لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ وَالْقِيَاسِ .

فقال علم الجدَل : قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الدَّلِيلَ لَا يَقُومُ بِرَأْسِهِ ، وَلَا يَسْتَقِلُّ بِنَفْسِهِ ؛
بَلْ لَا بُدَّ فِي تَقْرِيرِهِ مِنَ النَّظَرِ فِي مَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ الْأَسْتِدْلَالِ ، وَالطَّرِيقِ الْمَوْصِلِ إِلَى
الْمَطْلُوبِ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ ؛ وَأَنَا الْمُتَكَفِّلُ بِذَلِكَ ، وَالْمَوْصِلُ بِكَشْفِ حَقَائِقِ
الْبَحْثِ إِلَى هَذِهِ الْمَدَارِكِ ؛ بِي تُعْرَفُ كَيْفِيَّةُ تَقْرِيرِ الْجَمْعِ الشَّرْعِيِّ ، وَقَوَادِحُ
الْأَدْلَةِ وَتَرْتِيبُ الثَّبَتِ الْإِلَهِيِّ ؛ فَوَضُوعُكَ عَلَى تَحْوِيلٍ ، وَنَظَرُكَ إِلَى نَظَرِي بِكُلِّ
حَالٍ مَوْكُولٌ .

فقال علم المطلق : خَفَضَ عَلَيْكَ ! فَوَلَّ أَنْتَ إِلَّا نَوْعٌ مِنْ قِيَاسَاتِي الْمُنَظِّفَةِ
أُفِرِدْتَ بِالتَّصْنِيفِ ، وَخَصِمَصْتَ بِالْمُبَاحَثِ الدِّينِيَةِ لَخَالَطْتَ أَصُولَ الْفَقْهِ فِي التَّالِيفِ ؟
فَأَنْتَ إِذَا فَرَدُّ مِنْ أَفْرَادِي ، وَوَاحِدٌ مِنْ أَعْدَائِي ، مَعَ مَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ سِوَاكَ مِنْ
الْقِيَاسَاتِ الْبُرْهَانِيَّةِ الْقَاطِعَةِ فِي الْمُنَاطَرَاتِ ، وَالْقِيَاسَاتِ الْخَطَّابِيَّةِ وَالْبَلَاغَاتِ النَّسَافَةِ
فِي خَاطِبَاتِ الْجُمْهُورِ عَلَى سَبِيلِ الْمُخَاصَمَاتِ وَالْمُسَاوَاتِ ؛ وَكَذَلِكَ حَالُ الْقِيَاسَاتِ
الشَّرْعِيَّةِ ؛ وَكَيْفَ يُسْتَعْمَلُ التَّنْشِيهُ الْمُنْفِي لِلتَّخِيلِ الْمُوْجِبِ لِلْأَفْعَالَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ ؛
كَالْإِغْرَاءِ وَالتَّحْذِيرِ ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ وَالتَّعْظِيمِ وَالتَّخْفِيرِ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَعْرِفَةِ
الْأَلْفَافِ وَالْمَعَانِي الْمَقْرَدَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ عَامَةٌ كُلُّيَّةٌ ، وَتَرْكِيبُ الْمَعَانِي الْمَقْرَدَةِ بِالنَّسَبَةِ
إِلَى الْإِيجَابِيَّةِ وَالسَّلْبِيَّةِ ؛ تَعْمِمْ مُرَاعَاتِي التَّفَكُّرَ عَنِ الْخَطَا فَلَ يَزَلْ ، وَتَهْدِيهِ سَوَاءَ السَّبِيلِ
فَلَ يَجِدْ عَنِ الصَّرَاطِ السَّوِيِّ وَلَا يَضِلْ ، وَأَسْرِي فِي جَمِيعِ الْمَقُولَاتِ فَاتَصَرَّفْ فِيهَا
يَدِي مِنْهَا وَيَسِّرْ .

فقال علم دَارِيَةِ الْحَدِيثِ : قَدْ عَلِمْتَ بِمَا ثَبَّتَ بِهِ الْأَدِلَّةُ بِالْإِتِّوَاجِ وَالتَّصْرِيحِ ،
أَنَّهُ لَا جَمَالَ لِلْعَقْلِ فِي تَحْسِينٍ وَلَا تَقْصِيحٍ ؛ وَجَيْتَذِ فَلَا بُدَّ مِنْ نَصِّ شَرْعِيٍّ تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ،
وَتَسْتَنْدُ فِي مُقَدِّمَاتِكَ إِلَيْهِ ، وَلَا أَقْوَى حُجَّةً ، وَأَوْثَقَ حُجَّةً ؛ مِنْ كَلَامِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِذَا تَكَلَّمَ ؛ فَإِذَا أَسْتَنْدْتَ إِلَى نُصُوصِهِ ،
وَأَعْتَمَدْتَ عَلَيْهِ فِي عُمُومِهِ وَخُصُوصِهِ ؛ قَدْ حَسُنَ مِنْكَ الْمُقَدِّمُ وَالتَّالِي ، وَكَانَتْ
مُقَدِّمَاتُكَ فِي الْبَحْثِ أَمْضَى مِنَ الْمُرْهَقَاتِ وَتَتَأَيَّدُكَ أَنْفَعُ مِنَ الْعَوَالِي ؛ وَقَدْ تَحَقَّقَتْ
أَنْتَى إِمَامُ هَذَا الْمَقَامِ ، وَمَالِكُ قِيَادِ هَذَا الزَّمَانِ .

فقال علم رِوَايَةِ الْحَدِيثِ : لَقَدْ ذَكَرْتَ مِنَ الصَّحِيحِ الْمُتَّفِقِ عَلَيْهِ بِمَا لَا طَنْ
فِيهِ لِمُرِيبٍ ، وَتَعَلَّقْتَ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ بِأَوْثَقِ سَبَبٍ فَاتَّيْتُ بِكُلِّ لَفْظٍ حَسَنٍ وَمَعْنَى

غريب؛ إلا أن الدراية، موقوفة على الرواية؛ وكيف يقع نظر الناظر في حديث قبل وصوله إليه، أو يتأتى العلم بمعناه قبل الوقوف عليه؟؛ وهل يثبت فرع على غير أصل في مقتضى القياس، أو يرقى من غير سلم أو يبنى على غير أساس؟؛ فعل المحدث تقديم العلم بالرواية بشرطها، ومعرفة أقواله صلى الله عليه وسلم بالسماع المتصل وتحريرها وضبطها .

فقال علم التفسير: قد تبين لدى العلماء بالشريعة أن حكم الكتاب والسنة واحد، وإن اختلفت في الأسماء فلم تختلف في المقاصد؛ إلا أنها وإن اختلفا في الدلالة والإرشاد، فقد اختلفت في الثقل بالتواتر وجاء أكثر السنة بالأحاد .

فقال علم القرآن: إلا أنه لا ينبغي للقصر أن يقدم على التفسير ما لم يكن بقراءة السبع والشاذ عالماً، ولغاتها عارفاً والنظر في معانيها ملازماً؛ مع ما يلحق بذلك من علم قوانين القراءة المتعلق من المصاحف بخطها، والأشكال والعلامات المتكفلة بتحريرها وضبطها .

فقال علم النواميس: (وهو العلم بتملكات النبوة) : إنك لفرع من فروع الكتاب المبين، وما نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين؛ وإلا: النظر في أحوال النبوة وحقيقتها، ومسيب الحاجة إليها في بيان الشريعة وطريقاتها؛ والفرق بين النبوة الحق، والدعوى الباطلة غير الحق، ومعرفة المعجزات المختصة بالأنبياء والرسل عليهم السلام، والكرامات الصادرة عن الصديقين الأبرار والأولياء الكرام؛ فانا المقدم على سائر العلوم الشرعية، وإمام الأصلية منها والفرعية .

فقال علم الإلهي: لقد تحققت أن اللازم المحتم، والواجب تقديمه على كل مقدم؛ العلم بمعرفة الله تعالى والطريق المؤصل إليها، وإثبات صفاته المقدسة

وما يجب لها وتسهيل عليها؛ وأنه الواجب الوجود لذاته، وبعث الرسل لإقامة الحجّة على خلقه بحجج آياته؛ وأنا الزعيم بإقامة الأدلّة على ذلك من المقول والمنقول، والمتكفل بتصحيح مقدماته البرهانية بتحرير المقدم والثاني والموضوع والمحمول .

قال علم أصول الدين : فحينئذ قد فُزْتُ من جميعكم بالشرقين، وجمع لي منكم الفضل بطريقه فصرتُ بكم معلم الطرفين؛ وميزتُ بين صحيح الاعتقاد وقاسمه فكان لي منهما أحسن الاختيارين، وبيّنتُ طريق الحق لسالكها فكنْتُ سبباً للفوز والنجاة في الدارين؛ فانا المقصود للإنسان بالذات في كمال ذاته، وكلُّ علم يستمدُّ مني في مبادئه ويقتصر إلى في مقدماته .

فقال علم التصوف : لو كشف الغطاء ما أزددتُ قهيناً، إذ كان كلُّ أمرئٍ بما عمل مجازي وبما كسب رهيناً؛ إنه يجب على كلِّ من كان بمعتقد الحق جازماً، أن يكونَ عن دار القرور متجافياً ولأعمال البر ملازماً؛ فأنما الدنيا مزرعة للآخرة، إن حصلتِ النجاة فذلك التجارة الرابحة وإن كانتِ الأخرى فذلك إذا كره خاسره؛ فمن لزم طريقتي في الإعراض عن الدنيا والزهد فيها سلم، ومن أغتر بزخرفها القاني فقد خاب في القيامة وندم .

فلما كثرت الدماوى والمعارضات، وتتابعت الحجج والمناقضات؛ نهض علم السياسة قائماً، وقصد حسم مادة الجدال وطالباً؛ وقال: أنا جديليها المصكك وعديليها المرجب، وسأنسها الكافي وسأكفها المهذب؛ لقد ذكر كلُّ منكم من فضله ما يشوق السامع، وأظهر من جليل قدره ما تنقطع دونه المطامع، وأتى من واضح كلامه بما لا يحتاج إلى إثباته إلى دليل على ولا برهان قاطع؛ غير أنه لا يليق بالنصف أن يخطي قدره المحدود ولا يمتدّى جزؤه المقسوم، ولكلِّ أحدٍ حدٌّ يقف عنده

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ، فَلَوْ سَلَكَ كُلُّ مَنكُم سَبِيلَ الْمَعْدَلَةِ ، وَأَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ فَوَقَفَ عِنْدَ مَا حُدَّ لَهُ ؛ لَكُنَّا بِهِ الْبَاقِي ، وَلِقَامِ الْعِلْمِ أَرْبَعٌ .

فَقَالَ عِلْمٌ تَدِيرُ الْمَنْزِلَ : لَقَدْ تَحَرَّيْتُ الصَّوَابَ ، وَنَطَقْتُ بِالْحِكْمَةِ وَفَضَّلْتُ الْخَطَابَ ؛ لَكِنَّهُ لَا يُدَّ لَكُمْ مِنْ حَبِيرِ عِلْمٍ ، وَإِمَامٍ حَاكِمٍ ؛ يَكُونُ لِسَمْعِكُمْ جَامِعًا ، وَلِنَوَاقِعِ الشُّكِّ فِي عَمَلِ الْفَاعِلِ بَيْنَكُمْ رَافِعًا ؛ مُحِيطٌ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ بِمَقْصُودِهِ وَمُرَادِهِ ، عَارِفٌ بِمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مَبَادِيهِ مِنْ حُدَّةٍ وَمَوْضُوعِهِ وَفَائِدَتِهِ وَأَسْتِمْدَادِهِ ؛ لِيُخْبِرَ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ مُنْتَهَاهُ ، وَيَقِفَ بِهِ مِنَ الشَّرَفِ عِنْدَ حُدِّ لَا يَتَعَدَاهُ ؛ فَلَا يَدْعِي مُدْجَ بَعِيرٍ مُسْتَحَقٍّ ، وَلَا يَطَالِبُ طَالِبٌ مَا لَيْسَ لَهُ بِحَقٍّ ؛ إِلَّا أَنْ الْحَاطِطُ بِكُلِّكُمْ عِلْمًا ، وَالْقَائِمُ بِجَمِيعِكُمْ قَهْمًا ؛ أَعَزُّ مِنَ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ وَالْكِبَرِيَةِ الْأَحْمَرِ ، وَأَقْسَلُ وَجُودًا مِنْ بَيْضِ الْأَثَوَقِ بَلْ بَيْضُ الْأَثَوَقِ فِي الْوُجْدَانِ أَكْثَرُ .

فَقَالَ عِلْمُ الْفِرَاسَةِ : عَلِ الْخَيْرِ سَقَطَتْ ، وَبَازَيْنَ يَحْدِنَهَا حَطَطَتْ ؛ أَنَا بِذَلِكَ زَعِيمٌ ، وَبِمُطَبَّاتِهِ عَالِمٌ ؛ فَلِلْعِلْمِ عَرَفٌ يَنْمُ عَلَى صَاحِبِهِ ، وَتَلَوُّعٌ عَلَيْهِ بِوَارِقِهِ وَإِنْ أَكْنَتْهُ بَيْنَ جَوَانِبِهِ ؛ فَحَامِلُ الْمِسْكِ لَا تَنْحَنِي رِيحُهُ عَلَى غَيْرِ ذِي زُكَّامٍ ، وَالتَّهَارُ لَا يَنْحَنِي صَوْنُهُ عَلَى ذِي بَصِيرٍ وَإِنْ تَسَرَّتْ شَمْسُهُ بِأَذْيَالِ الْقَامِ ؛ وَلَقَدْ تَصَفَّحْتُ وَجُوهَ الْعُلَمَاءِ الْكَلَّةِ ، الَّذِينَ طَوَّاهُمُ عَلَى أَجْمَلِ الْعُلُومِ مُنْطَوِيَةً وَعَلَى تَفَاصِيلِهَا مُشْتَمَلَةً ؛ وَسَبَرْتُ وَقَسَمْتُ ، وَتَفَرَّسْتُ وَتَوَسَّعْتُ ؛ فَلَمْ أَجِدْ مَنْ يَلِيقُ لِهَذَا الْمَقَامِ ، وَيَصْلُحُ لِقَطْعِ الْجِدَالِ وَالْخِصَامِ ؛ وَيَعْرِفُ بُلْعَةَ كُلِّ عِلْمٍ فَيُجِيبُ بِلِسَانِهِ ، وَيَحْكُمُ فَلَا يَنْقُصُ حُكْمَهُ غَيْرُهُ لِأَنْخِطَاطِهِ عَنْ بُلُوغِ مَكَانِهِ ؛ إِلَّا الْبَحْرُ الرَّائِحُ ، وَ^(١) الَّذِي لَا يَعْلَمُ لِقَضَلِهِ أَوَّلٌ وَلَا يَدْرِكُ لَمْدَاهُ آخِرٌ ؛ حَبْرُ الْأُمَمِ ، وَعَلَامَةُ الْأَيَّامِ ؛ وَبَاصِرُ السَّنَةِ وَحَامِيهَا ، وَقَائِمُ الدُّعَا وَقَائِمِيهَا ؛ تَجَلَّى

(١) بياض بالأصل ولهذه : الفاسل أو نحوه .

(٢) أصله وقامها بالهز جمع من قامه كقوله .

شيخ الإسلام ، وعلاصةُ غرر الأيام ، جلال الدين ، بقية المجتهدين ؛ أبو الفضل عبد الرحمن البلقيني الشافعي ، الناظر في الحكم العزیز بالديار المصرية ، وسائر الممالك الإسلامية وما أُضيف إلى ذلك من الوظائف الدينية ؛ لزالَتْ فواضِلُ الفصائل معروفة : فهو العالم الذي إذا قال لا يُعارض ، والحاكم الذي إذا حكم لا يُناقض ، والإمام الذي لا يتخللُ اجتهاده خلل ، والمُناظر الذي ما حاول قطع خضم إلا كان لسانه أمضى من السيف إذا يقال : « سبق السيف العذل » :

إذا قال بَدَّ القائلين ولم يدعْ « ملتمس في القول جدا ولا هزلا !

إن تكلم في الفقه فكانما بلسان « الشافعي » تكلم ، و « الربيع » عنه يروى « المزي » منه يتعلم ؛ أوحاص في أصول الفقه . قال « الغزالي » : هذا هو الإمام النافق ، وقطع السيف « الأبدى » بأنه المُقدم في هذا الفن على الإطلاق ؛ أو جرى في التفسير . قال « الواحدي » : هذا هو العالم الأوحَد ، وأعطاه « ابن عطية » صفة يده بأن مثله في التفسير لا يوجد ؛ وأعترف له « صاحبُ الكشاف » بالكشف عن الغوامض ، وقال الإمام « نحر الدين » : « هذه مقاتييع الغيب وأسرار التنزيل » فارفع الخلاف وأدفع المعارض ؛ أو أخذ في القراءات والرسم أزرى بابي « عمرو الداني » ، وعدا شأو « الشاطبي » في « الرائية » وتقدمه في « حرز الأمان » ؛ أو تحدث في الحديث شهده « الشفانان » بعلو الرتبة في الرواية ، وأعترف له « ابن معين » بالتبريز والتقدم في الدراية ؛ وهتف « الخطيب البغدادي » يذكره على المنابر ، وقال « ابن الصلاح » : لخل هذه الفوائد تتعين الرحلة وفي تحصيلها تتقد المحارب ؛ أو أبدى في أصول الدين نظرا تعلق منه « أبو الحسن الأشعري » ؛ وفي زمان ، وسد باب الكلام على المعتزلة حتى يقول « عمرو بن عبيد » و « واصل بن

عطاء : « لَبَّيْنَا لَمْ نَفْعَ أَبَا فِي الْكَلَامِ ؛ أَوْ دَقَّقَ النَّظْرَ فِي الْمُنَظَرِ بِهَرَّ « الْأَبْهَرَى »
 فِي مَنَظَرَتِهِ ، وَكُتِبَ « الْكَاتِبِيُّ » عَلَى نَفْسِهِ وَثِيقَةً بِالْعَجَزِ عَنْ مُقَاوَمَتِهِ ؛ أَوْ أَلَمَ بِالْحَدِّ
 رَمَى « الْأَرْمَى » نَفْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَجَعَلَ « الْعَمِيدِيُّ » عُمْدَتَهُ فِي آدَابِ الْبَحْثِ
 عَلَيْهِ ؛ أَوْ بَسَطَ فِي اللُّغَةِ لِسَانَهُ أَعْتَرَفَ لَهُ أَبْنُ « سَيِّدُهُ » بِالسِّيَادَةِ ، وَأَقْرَبَ بِالْعَجَزِ لَدَيْهِ
 « الْجَوْهَرِيُّ » وَجَلَسَ « أَبْنُ قَارِسٍ » بَيْنَ يَدَيْهِ بِمَجْلِسِ الْاِسْتِفَادَةِ ؛ أَوْ نَحَا إِلَى النُّحُو
 وَالتَّصْرِيفِ أَرَبَى فِيهِ عَلَى « سَيِّدِيَّةٍ » ، وَصَرَفَ « الْكَاتِبِيُّ » لَهُ عَزَمَهُ فَسَارَ مِنْ
 الْبُعْدِ إِلَيْهِ ؛ أَوْ وَضَعَ أُنْمُودَجًا فِي عُلُومِ الْبَلَاغَةِ وَقَفَ عِنْدَهُ « الْجُرْجَانِيُّ » ، وَلَمْ يَتَعَدَّ
 حَدَّهُ « أَبْنُ أَبِي الْإِصْبَعِ » وَلَمْ يُجَاوِزْ وَضْعَهُ « الرَّمَّانِيُّ » ؛ أَوْ رَوَى أَشْعَارَ الْعَرَبِ أَرَزَى
 بِ« الْأَصْمَعِيِّ » فِي حِفْظِهِ ، وَفَاقَ « أَبَا عُبَيْدَةَ » فِي كَثَرَةِ رِوَايَتِهِ وَغَزِيرِ لَفْظِهِ ؛ أَوْ تَعَرَّضَ
 لِلْمُرُوضِ وَالْقَوَافِ اسْتَحْفَفَهُمَا عَلَى « الْخَلِيلِ » ، وَقَالَ « الْأَخْفَشُ » عَنْهُ : أَخَذْتُ
 الْمُسْتَدَارَكَ وَأَعْتَرَفَ « الْجَوْهَرِيُّ » بِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي هَذَا الْقَنْ مِثِيلٌ ؛ أَوْ أَصْلَ
 فِي الطَّبِّ أَصْلًا قَالَ « أَبْنُ سَيِّتَا » : هَذَا هُوَ الْقَانُونُ الْمُعْتَبَرُ فِي الْأَصُولِ ، وَأَقْسَمَ
 « الرَّازِي » بِمُحِبِّ الْمَوْتِ إِنْ « يَقْرَاطُ » لَوْ سَمِعَهُ لَمَّا صَنَّفَ « الْفُصُولُ » ؛ أَوْ جَنَعَ
 إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ فَكَأَنَّمَا طُبِعَ عَلَيْهِ ، أَوْ جَدَّبَ لَهُ ذَلِكَ الْعِلْمُ بِزِمَامٍ
 فَأَتَقَادَ إِلَيْهِ ؛ أَوْ سَلَكَ فِي عُلُومِ الْهَنْدَسَةِ طَرِيقًا لَقَالَ « أُوْفَيْدِسُ » : هَذَا هُوَ الْخَطُّ
 الْمُسْتَقِيمُ ، وَأَعْرَضَ « أَبْنُ الْهَيْتَمِ » عَنْ حَلِّ الشُّكُوكِ وَوَدَّى وَهُوَ كَظِيمٌ ، وَحَدَّ
 « الْمُؤْتَمِنُ بْنُ هُوْدٍ » عَدَمَ إِكْمَالِ كِتَابِهِ « الْاِسْتِكْمَالُ » وَقَالَ : عَرَمْتُ قَدْرَ نَفْسِي : وَفَوْقَ
 كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ؛ أَوْ عَرَّجَ عَلَى عُلُومِ الْهَيْئَةِ لِأَعْتَرَفَ « أَبُو الرِّيحَانِ النَّيْرَوْنِيُّ » أَنَّهُ الْأَعْجُوبَةُ
 النَّابِرَةُ ، وَقَالَ أَبْنُ أَفَنَحَ : هَذَا الْعَالِمُ قُطْبُ هَذِهِ الدَّائِرَةِ ، أَوْ صَرَفَ إِلَى عِلْمِ الْحِسَابِ نَظَرَهُ
 لَقَالَ « السَّوْمَلِيُّ بْنُ يَحْيَى » : لَقَدْ أَحْيَا هَذَا الْقَنْ الدَّرَاسَ . وَنَادَى « أَبْنُ مَجْلٍ الْمَوْصِلِيُّ » ،
 قَدْ أَتَجَلَّتْ عَنْ هَذَا الْعِلْمِ غَيَابُهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهِ عَمَّةٌ لِعَامِيهِ وَلَا عُمَّةٌ عَلَى مُهَارِسِ .

وَقَدْ وَجَدَتْ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ • فَلَيْتَ وَجَدْتَ لِسَانًا قَابِلًا فَقُلْ !

وَكَيْفَ لَا تُنْفِي إِلَيْهِ الْعُلُومَ مُقَالِيدَهَا ، وَتَصِلُ بِهِ الْفَضَائِلَ أَسَانِيدَهَا ، وَهُوَ ابْنُ شَيْخِ
الْإِسْلَامِ وَإِمَامِهِ ، وَوَاحِدِ النُّهْرِ وَعَلَامِهِ ، وَجَامِعِ الْعُلُومِ الْمُتَفَرَّدِ ، وَمَنْ حَقَّقَ وُجُودَهُ
فِي أَوَّلِ الْأَعْيَارِ أَنَّ الزَّمَانَ لَا يَحِلُّ مِنْ مُجْتَهِدٍ ؛ وَمَنْ لَمْ يَزَلْ مَوْضِعَ الْأَوْضَاعِ الْمُعْتَبَرَةِ
عَلَيْهِ تَحْوِلًا ، وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْسِ الْمَسَائِلِ الثَّامِنَةِ مُضَاهِيًا لِعَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى رَأْسِ
الْمَسَائِلِ الْأُولَى ؛ فَانْتَهَايُهَا عَلَيْهِ وَعَلَى وَلَدِهِ تُعْقَدُ ، وَلَا غَرَوَ إِنْ قَامَ مُتَشَدِّدُهُمَا فَانْتَدَى :

إِنَّ الْمَسَائِلَ الْأُولَى عَلَى رَأْسِهَا أَتَى • لَهَا عَمْرُ الثَّانِي لَذَا الدِّينِ صَانِيَةً ،
وَوَلَّى رِجَالًا بَعْدَ ذَلِكَ كَكَيْتِلِهِ • فَهَا عُمَرُ وَاقٍ عَلَى رَأْسِ تَامِنَةٍ
يُظَاهِرُهُ تَجَلُّ سَعِيدٌ غَدَتْ بِهِ • مَعَاظِلُ عِلْمٍ فِي دُرَا الْحَقِّ آتِنِهِ .
إِذَا شَيْخُ إِسْلَامٍ أَضَاءَ سِرَاجَهُ • رَأَيْتَ جَلَالًا مِنْ سَنَاءِ الْفَضْلِ قَارَنَهُ !
فَلَا يَتَدَمُّ الْإِسْلَامُ بَجَمْعِ عَلَامَتِهِ • وَلَيْتَ يَبْرَحَا لِلدِّينِ دَابَا بَيَانَتِهِ !

فَقَالَ عِلْمُ الْأَخْلَاقِ : أَصَبَتْ سَوَاءَ الثَّغْرِ وَجُنْتُ بِالرَّأْيِ الْأَكْمَلِ ، وَعَرَفَتَ مِنْ
أَبْنِ تَوَكُّلِ الْكَتِفِ فَطَبَّقْتَ الْمِفْصَلَ بِالْمِفْصَلِ ؛ إِلَّا أَنَّ مِنْ تَحَايِينَ الْأَخْلَاقِ ، وَمَعَالِمِ
الْإِرْفَاقِ ؛ أَنْ تَعُودُوا بِفَضْلِكُمْ ، وَتَرْجِعُوا بِمَعْرِفَتِكُمْ وَرَبِّكُمْ ؛ إِلَى مَنْ جَرَى بِكُمْ فِي التَّقَاتُرِ
بِجَرَى الْإِنصَافِ ، وَبَسَطَ لِسَانَ كَلِمِهِ بِمَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ كُلُّ مَنْتَكَمٍ مِنْ جَمِيلِ الْأَوْصَافِ ؛
ثُمَّ كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ وَصَلَ بِالْإِتِّفَاقِ وَالْإِلْتِمَامِ حَبْلَكُمْ ، وَجَمَعَ بِالْمَحَلِّ الْكَرِيمِ بَعْدَ التَّيَاعُدِ
شَمْلَكُمْ ؛ وَذَكَرَكُمْ بِحُسْنِ الْمُصَافَاةِ أَصْلَ الْوِدَادِ الْقَدِيمِ ، وَتَلَا بِلِسَانِ الْأُتَمَّةِ فِيكُمْ :
(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) . بَانَ بِتَصَبُّبِ كُلِّ مَنْتَكَمٍ لَهُ شَفِيعًا
إِلَى هَذَا السَّيِّدِ الْجَلِيلِ . وَيَكُونُ لَهُ وَسِيلَةٌ إِلَى هَذَا الْإِمَامِ الْحَقِيقِ ؛ أَنْ يَصِفُورَ إِلَيْهِ
وَجْهَ الْبَيَانَةِ ، وَيَنْظُرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الْإِحْقَالِ وَالرَّعَايَةِ ؛ لِيَعْرِىَ فِي النَّاسِ جَانِبَهُ ، وَيَطْلُعَ

في أُنْحِ السَّعْدُ بعد الأَقُولِ غَارِبُهُ ؛ وَيَبْلُغُ من مُنْتَهَى أَمَلِهِ مَالَهُ جَهْدُ ، وَيَسْعَدُ
بِالنَّظَرِ السَّعِيدِ جَدُّهُ فَقَدْ قِيلَ : « مَنْ وَقَعَ عَلَيْهِ نَظَرُ السَّعِيدِ سَعِدَ » .

على أنه - أمتع الله الإسلام ببقائه وبقاء والده ، وجمع بينهما في دار الكرامة
كما جمع لها بين طاريف المحمد وتآلده ؛ - قد فتح له من الترقى أول باب ، ولا شك
أن نظرة منه إليه بعد ذلك تُرقيهِ إلى السحاب .

فَأَزَرُّ الْقَجْرَ يَبْدُو قَبْلَ أَيْضِهِ * وَأَوَّلُ الْغَيْثِ قَطْرُهُمْ يَنْسَكِبُ !

قال علم التاريخ : أَهْطَلُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ، وَقَرُّوا عَيْنًا عَلَى الْقَصْدِ
الجليل وَصَلْتُمْ ، وعلى غاية الأمل - والله الحمد - حَصَلْتُمْ ، فَقَدْ بَلَّوْثُ الْأَوَائِلِ وَالْأَوَانِرِ ،
وَحَبَّرَتْ حَالِ الْمُتَقَدِّمِ وَالْمُعَاوِرِ ؛ فَلَمْ أَرِ فِيمَنْ مَعَى وَغَيْرَ ، وَشَاعَ ذِكْرُهُ وَاشْتَهَرَ ، مِنْ
ذَوِي الْمَرَاتِبِ الْعَلِيَّةِ ، وَالْمَنَاصِبِ السَّيِّئَةِ ؛ مَنْ يُسَاوِي هَذَا السَّيِّدَ الْجَلِيلَ فَضْلًا ،
أَوْ يُدَانِيهِ فِي الْمَعْرُوفِ قَوْلًا وَفِعْلًا ؛ قَدْ لَيْسَ شَرَفًا لَا تَطْمَعُ الْأَيَّامُ فِي خَلْعِهِ ، وَلَا يَنْطَلِعُ
الزَّمَانُ إِلَى تَزَعُّعِهِ ، وَأَتَتْهُ إِلَى الْمَجْدِ فَوْقَ قَبْ ، وَعَرَفَ الْكَرَّمَ مَكَانَهُ فَأَتَمَّحَارَ إِلَيْهِ وَعَطَفَ ؛
وَحَلَّتْ الرَّأْسَةُ بِفَنَائِهِ فَاسْتَفَنَتْ بِهِ عَنِ السَّوْءِ ، وَأَنَاحَتْ السِّيَادَةُ بِأَفْنَائِهِ فَالْقَتَتْ
عَصَاهَا وَاسْتَفَزَّ بِهَا النَّوْءُ ؛ فَقَصُرَتْ عَنْهُ خُطَا مِنْ يُجَارِيهِ ، وَضَاقَ عَنْهُ بَاعٌ مِنْ
يُنَاوِيهِ . وَاجْتَمَعَتِ الْأَكْسُنُ عَلَى تَقْرِيبِهِ فُدِحَ بِكُلِّ لِسَانٍ ، وَتَوَافَقَتِ الْقُلُوبُ عَلَى
حُبِّهِ فَكَانَ لَهُ بِكُلِّ قَلْبٍ مَكَانٌ :

وَلَمْ يَحْتَلْ مِنْ أَحْسَانِهِ لَفْظٌ مُخْبِرٌ ، * وَلَمْ يَحْتَلْ مِنْ تَقْرِيبِهِ بَطْنٌ دَقِيرٌ !

فهو الحَرِيُّ بَانَ يُكْتَبُ بِأَقْلَامِ النَّهَبِ جَمِيلُ مَنَاقِبِهِ ، وَإِنْ يُرْقَمُ عَلَى صَفَحَاتِ
الْأَيَّامِ حَمِيدُ مَطَالِيهِ ؛ فَلَا يَذْهَبُ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ ذِكْرُهَا ، وَلَا يَزُولُ عَلَى تَوَانِي
الدُّهُورِ تَقَرُّهَا .

ولما تمّ للعلوم هذا الاجتماع الذي قَارَنَ السُّعْدُ جَلَالَهُ ، وَتَفَجَّرَتْ يَنَابِيعُ الْفَضْلِ
 خِلَالَهُ ؛ أَقْبَلُوا بِوُجُوهِهِمْ عَلَى الشَّعْرِ مُعَاتِيَيْنِ ، وَبِمَا يُلْزِمُهُ مِنْ تَقْرِيطِ هَذَا الْحَبْرِ
 وَمَدَحِهِ مُطَالِبِينَ ؛ وَقَالُوا : قَدْ آتَى النَّثْرُ مِنْ مَدَحِهِ بِقَدْرِ طَاقَتِهِ ، وَإِنْ لَمْ يُوفِ بِجَلِيلِ
 قَدْرِهِ وَرَفِيعِ مَكَاتِهِ ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تُخْتِمَ هَذِهِ الرِّسَالَةُ بِأَبْيَاتٍ بِالْمَقَامِ لَاتِقَةٍ ، وَلِمَا نَحْنُ
 فِيهِ مِنَ الْقَضِيَّةِ الْوَاقِعَةِ مُطَابِقَةٍ ؛ قَائِمَةٌ مِنْ مَدَحِهِ بِالْوَاجِبِ ، سَالِكَةٌ مِنْ ذَلِكَ أَحْسَنَ
 الْمَسَالِكِ وَأَجْمَلَ الْمَذَاهِبِ ؛ لِكُلِّ هَذِهِ الرِّسَالَةِ نَظْمًا وَتَرَا ، وَتَقَنَّنَ فِي صِنَاعَةِ الْأَدَبِ
 خُطَابَةً وَشِعْرًا ؛ فَقَالَ : سَمِعْنَا وَطَاعَهُ ، وَأَسْتِكَانَهُ وَضَرَاهُ ؛ ثُمَّ لَمْ يَلَيْتْ أَنْ قَامَ غِيَلًا ،
 وَأَنْشَدَ مَرْثِيًّا :

بُشْرَاكُمْ مَعَاشِرَ الْعُلُومِ أَنْ * بُجِعْتُمْ بِصَدْرِ حَبِيرٍ كَامِلٍ !
 فُنُوءُهُ لَمْ يَجْتَمِعْ لِمَا لِي * وَفَضْلُهُ لَمْ يَكْتَمِلْ لِقَاضِلٍ !
 يَشْفِي الصُّدُورَ إِنْ غَدَا مُنَاطِرًا ، * وَبَحْثُهُ قَزِينَةُ الْهَاصِلِ !
 كَمْ عَمَرَتْ دُرُوسُهُ مِنْ دَارِسٍ ، * وَزَيَّنَتْ بِحُلِيِّهَا مِنْ عَاطِلٍ !
 وَأَوْصَحَتْ أَفْوَالَهُ مِنْ مُشْكِلٍ * لَمَّا آتَى بِأَوْضَحِ الدَّلَائِلِ !
 وَكَمْ غَدَتْ آرَافُهُ حِمِيدَةً ، * وَنَبَّهَتْ بِحُدُودِهَا مِنْ خَامِلٍ .
 وَحُكْمُهُ فَحْكُمُ أَقَالِ عَثَرَةٍ * وَجُودُهُ فَفَوْقَ قَصْدِ الْإِمْلِ !
 هَذَا : وَقَدْ فَاقَ الْوَرَى رَأْسَهُ * مُحْفُوفَةً بِالطَّلِفِ الشَّامِلِ !
 مَنْ ذَا يَرُومُ أَنْ يَنَالَ شَأْنَهُ ؟ * أَنَّى لَهُ بِأَمْثَلِ الْأَمْثَلِ ؟
 مَوْقُ عِلَا فَوْقَ السَّمَاءِ رُبَّةً * قَدْ زُيِّنَتْ بِأَفْضَلِ الْقَوَاضِلِ !
 لَهَا لَهُ فِي فَضْلِهِ مِنْ مُشْبِهِ ، * وَمَا لِبَحْرِ جُودِهِ مِنْ سَائِلِ !
 حَاشَى لِرَاجٍ فَضْلَهُ أَنْ يَتَّقَى * صِفَرِ الْبَدَنِ أَوْ مَمَى الْآجِلِ !

قلت : ولم أر من تعرض للمفاخرة بين المعلوم سوى القاضي الرشيد أبي الحسين ابن الزبير في مقالته المقدم ذكرها على أنها لم تكن جارية على هذا النمط ، ولا مرتبة على هذا الترتيب ، مع الاختصار فيها على علوم قليلة ، أشار إلى المفاضلة بينها على ما تقدم ذكره . ولكن الله تعالى قد هدنى بفضلته إلى وجوه الترجيح التي يرجح بها كل علم على خصمه ، ويقلع به على غيره ، والمُنصف يعرف لذلك حقه . والذي أعانني على ذلك جلالة قدر من صفت له وعُلو رتبة ، واتساع فضله ، وكثرة علومه ، وتعداد فنونه ، إذ صفات الممدوح تهدي السادح وترشده .



ومنها المفاخرة بين السيف والقلم ، وقد أكثر الناس منها : فمن عالٍ وقاطب ، وصاعد وساقط .

وهذه رسالة في المفاخرة بين السيف والقلم ، أنشأها لقرّ الزينى أبي يزيد الدوادار الظاهري ، في شهور سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، وتسميتها : "حلية الفضل وزينة الكرم ، في المفاخرة بين السيف والقلم" وهي :

الحمد لله الذي أعزّ السيف وشرف القلم ، وأقرّدهما برتب العلياء قرّن لهما بين التمجيد والكرم ، وساوى بينهما في القسمة فهذا الحكم وهذا الحكم .

أحمد على أن جمع بحير أمير بعد التفرق شملهما ، ووصل بأعزّ ملك بعد التقاطع حبلهما ، وأرغب إليه بشكر يكاثّر النجوم في عديدها ، ويكون للنعمة على ممر الزمان أباً يزيد بها ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ياتم الإخلاص بملئها ، ولا ينجو من سيفها إلا من أجاب داعيتها وأقربها ، وأن جدّاً عبده ورسوله

(١) لم تذكر هذه المقالة فيما مضى طبعها سقطت من قلم النساخ .

الذي حُصَّ بِأَشْرَفِ الْمَنَاقِبِ وَأَفْضَلِ الْمَآثِرِ، وَأَسْتَثَرِ السُّؤْدِدِ وَالْقَارِنِ فَخَازَ أَنْفَرِ
المعالي وَنَالَ أَعْلَى الْمَنَاقِبِ؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَتَحِيَّهِ الَّذِينَ قَامَتْ بِنُصْرَتِهِمْ
دَوْلَةُ الْإِسْلَامِ فَصَمَّتْ بِهِمْ عَلَى سَائِرِ الدُّوَلِ، وَكَرَعَتْ فِي دِمَاءِ الْكُفْرِ سُبُوفَهُمْ فَعَادَتْ
بِحُلُوقِ النُّصْرِ لَا تُجْمَرُ لَا تُجْجَلُ؛ صَلَاةٌ يَنْقُضِي دُونَ أَنْقَضَائِهَا تَعَاقِبُ الْأَيَّامِ، وَتَكِلُ أَلْسِنَةَ
الْأَقْلَامِ عَنْ وَصْفِهَا وَلَوْ أَنَّ مَافِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ .

وبعد، فإنه ما تقارب آثان في الرتبة إلا تحاسدا، ولا اجتمعا في مقام رفعة إلا
أزدحما على المجد وتواردًا؛ ورأى كل منهما أن يكون هو الفائز بالقدح المعلن، وأن يكون
مقرقه هو المتوجح وحيده هو المحلى؛ وأدعى كل منهما أن جواده هو السابق في حلبة
السباق، والفائز يقصب السبق بالانحياز؛ وأن تجه هو الطالع الذي لا يأول،
وسؤده هو الحاسم الذي لا يُزَلْ؛ وأن المسك دون غيره، والبحر لا يبيح نقطة
في غديره؛ والثر لا يصلح له صدقا، ونفيس الجوهر لا يُعَادِلُهُ شرفا؛ وأن منابر
المعالي موقوفة على قدمه، ومجامر المفاخر فاحمة بنشر كرمه .

ولما كان السيف والقلم قد تدانيا في المجد وتقاربا، وأخذَا بطرق الشرف
وتجاذبا؛ إذ كانا قطينين تدور عليهما دوائر الكمال، وسعدنين يجتمعان في دائرة
الاعتدال؛ ونجيين يهديان إلى المعالي، ومضباحين يُستضاء بهما في حناديس الالبالي؛
وقاعدتين يُبنى الدول على أركانهما، وتجترين يُجنى العز من أغصانها؛ حرَّ كل منهما
نوب الخيلاء غفرا فشي وتجتتر، وأسبل رداء العجب نيبا فما تحجل ولا تغتر؛ وأوسع
له المجال في الدعوى لجال، وطاوعته يد المقاتل قتال وطال؛ وتطرقَّت إليهما عقارب
الشعنا ودبت، وتوقدت بينهما نار المنافسة وشبت؛ وأظهر كل منهما ما كان
يُخفيه فكَّتب وأملى، وباح بما يكفه صدره والمؤمن لا يكون حبل؛ وبدأ القلم
فكلم. ومضى في الكلام يصدق عزيم فما توقف ولا تلتئم، فقال :

باسم الله تعالى استفتح ، وبجمده أتمن واستنحج ؛ إذ من شأني الكتابه ، ومن
فني الخطابه ؛ وكل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله تعالى فهو أجذم ، وكل كلام
لا يفتح بحمده فأساسه غير محكم وريادؤه غير معلم ، والعاقل من أتى الأمر من فسه ،
وأخذ الحديث بنصه ، والخلق أحق أن يتبع ، والباطل أجدر أن يترك فلا يصحى إليه
ولا يستمع ، إني لأول مخلوق بالنص الثابت والمجة القاطعه ، والمستحق لفضل
السبق من غير منازعه ، أقسم الله تعالى بي في كتابه ، وشرقي بالذكر في كلامه لرسوله
وخطبه ، فقال جل من قائل : ﴿ تَبَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ
تَحْنُونَ ﴾ . وقال جلت قدرته : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ
مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . فكان لي من الفضل وأفر القسمة ، وخصصت بكمال المعرفة بجمعت
شوايد العلوم وكنت قيم الحكمة .

فقال السيف : بسم الله والله أكبر : ﴿ نصر من الله وفتح قريب ﴾ . لكل باغ
مصرع ، ولضائل المدوان مهلك لا يقبض منه ولا ينجع ؛ وفتح باب الشرى غلق به ،
وقادح زبد الحرب يحرق بلهيه ؛ أقول بموجب استدلالك ، وأوجب الاعتراض
عليك في مقالك :

نعم أقسم الله تعالى بالقلم ولست بذلك ، وكان أول مخلوق ولست المنعني بما
هناك ؛ إن ذلك لمنعني بكل فهمك عن إدراكه ، ويضل فهمك أن تيسرى أفلاكه ،
وأنت وإن ذكرت في النزول ، وتمسكت من الأمتيان بك في قوله : ﴿ عَلَّمَ الْقَلَمِ ﴾
بشبهة التفضيل ؛ فقد حرم الله تعالى تعلم خطك على رسوله ، وحرمك من مس
أنامله الشريفة ما يؤمى على قوته ويسر بمحصوله ؛ لكني قد نلت من هذه الرتبة
أسنى المقاصد ، فشهدت معه من الوقائع ما لم تشهد ؛ وحلاني من كفه شرقا لا يزول

حَلِيَّةُ أَبَدًا، وَقَدْ بَصَّرَهُ فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ : وَسَلَّ حُنَيْنًا وَسَلَّ بَدْرًا وَسَلَّ أَحَدًا !!! ؛
ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ جَنَسِي الَّذِي أَنَا نَوْعُهُ الْأَكْبَرُ ، وَنَبَّهُ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ
الْمَنَافِعِ الَّتِي هِيَ مِنْ نَفْعِكَ أَمُّ وَأَشْهَرُ ؛ وَمَا اجْتَمَعَ فِيهِ مِنْ عَظِيمِي الشَّدَةِ وَالْبَاسِ ،
فَقَالَ تَعَالَى عَزَّ وَجَلَّ : « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » . عَلَى أَنَّكَ
لَوْ أَعْتَبَرْتَ جَنَسِي الْقَصَبِ وَالْحَدِيدِ ، وَعَرَفْتَ الْكَيْلَ مِنْهُمَا وَالْجَلِيدَ ، لَتَحَقَّقْتَ
تَسْلُطَ الْحَدِيدِ عَلَيْكَ قَطْلًا وَبَرًّا ، وَتَحَكُّمَهُ فَيْكَ أَمْرًا وَنَهْيًا .

فَقَالَ الْقَلَمُ : قَرَّرْتَ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَعَدْلًا ، وَعَوَّلْتَ عَلَى الطَّبِيعَةِ وَجَهْلُهَا ، فَانْتَخَرْتَ
بِحَيْفِكَ وَعُدْوَانِكَ ، وَأَعْتَمَدْتَ فِي الْفَضْلِ عَلَى تَعْدِيكَ وَطُغْيَانِكَ ؛ فَلَتَ إِلَى الظُّلْمِ
الَّذِي هُوَ إِلَيْكَ أَقْرَبُ ، وَغَلَبَ عَلَيْكَ طَبْعُكَ فِي الْجَوْرِ : وَ « الطُّغْيَانُ غَلَبَ » ؛ فَلَا تَنْتَهَ
إِلَّا وَأَنْتَ أَسَاسُهَا ، وَلَا غَارَةَ إِلَّا وَأَنْتَ رَأْسُهَا ، وَلَا شَرًّا إِلَّا وَأَنْتَ فَاتِحُ بَابِهِ ، وَلَا حَرْبَ
إِلَّا وَأَنْتَ وَاصِلُ أَسْبَابِهِ ؛ تُؤَكِّدُ مَوَاقِعَ الْخِفَاءِ ، وَتُتَكَدَّرُ أَوْقَاتُ الصَّفَاءِ ؛ وَتُؤَثِّرُ
الْقِسَاوَةَ ، وَتُؤَثِّرُ الْعَدَاوَةَ ؛ أَمَّا أَنَا فَالْحَقُّ مَتَّبِعِي ، وَالصَّدَقُ مَرْتَبِعِي ، وَالْعَدْلُ شِمَتِي ،
وَحِلَّةُ الْفَضْلِ زِينَتِي ؛ إِنْ حَكَمْتُ أَفْسَلْتُ ، وَإِنْ اسْتَحْفِظْتُ حَفِظْتُ وَمَا قَرِطْتُ ؛
لَا أَفْتِنِي سِرًّا يَرِيدُ صَاحِبُهُ كَتْمَهُ ، وَلَا أَكْتُمُ عِلْمًا يَحْتَنِي مُتَعَلِّمُهُ عِلْمَهُ ؛ مَعَ عُمُومِ
الْحَاجَةِ إِلَيَّ ، وَالْإِقْتِنَارِ لِي عَلَى الْإِكْتِسَابِ مِمَّا لَدَيَّ ، أُدِيرُ فِي الْقِرَاطِ كَلَّاسَاتِ
تَحْمَرِي فَأُزِيرِي بِالْمَزَامِيرِ وَأَهْزَأُ بِالْمَزَاهِيرِ ، وَأَنْفُثُ فِيهِ مَحَرَّيَاتِي فَأَلْقُبُ بِالْأَلْبَابِ
وَأَسْتَجْلِبُ الْخَوَاطِرَ ، وَأَنْفِذُ جِيوشَ سُطُورِي عَلَى بُعْدِ فَأَهْرِمِ الْعَاسِكَرِ :

فَلَكُمْ يَهْلُ الْجَيْشُ وَهُوَ عَرَمَرَمٌ * وَالْبَيْضُ مَا سُلَّتْ مِنَ الْأَعْمَادِ !

فَقَالَ السَّيْفُ : أَطَلَّتِ الْقِيَّةُ ، وَجِثَّتْ بِالنَّحْيَةِ ؛ وَسَكَتَ أَلْفًا ، وَنَطَقَتْ خَلْفًا .

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ : فِي حَدِّهِ الْحَدُّ يَنْ الْحَدَّ وَاللَّيْبُ

إِنْ يَجَادِي لِحِيلَةَ اللّٰعَاتِقِ ، وَمُصَاحِبَتِي أَمِنَةٌ مِنَ الْبَوَاقِ ؛ مَا تَهْلِدُنِي عَاتِقٌ إِلَّا بَاتَ
عَرِيزًا ، وَلَا تَوَسِدُنِي سَاعِدٌ إِلَّا كُنْتُ لَهُ حِرْزًا حَرِيزًا ؛ أَمْرِي الْمَطَاعُ وَقَوْلِي الْمُسْتَمْعُ ،
وَرَأْيِي الْمَصُوبُ وَحُكْمِي الْمُنْتَمِعُ ؛ لَمْ أَزَلْ لِلنَّصْرِ مِفْتَاحًا ، وَلِلظَّلَامِ مِصْبَاحًا ؛ وَالْعَزِيزُ قَائِدًا ،
وَالْعُدَاةُ ذَائِدًا ؛ فَأَنَّى لَكَ بِمُسَاجِلَتِي ، وَمُقَاوَمَتِي فِي الْفَخْرِ وَمُنَاقَمَتِي ؟ ؛ مَعَ عُرْيِ جِسْمِي جَمْعِي
وَتَحَافَةُ بَدَنِي ، وَإِسْرَاجُ تَلَاحُكٍ وَقِصْرِ زَمَنِكَ ، وَبَحْثُ اثْمَانِكَ عَلَى بَعْدِ وَطْنِكَ ،
وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ جَرَى دَمْعِكَ ، وَضَيْقِ دَرْعِكَ ، وَتَهْرُقِ جَمْعِكَ ؛ وَقِصْرِ بَاعِكَ ،
وَقَوْلَةِ أَتْبَاعِكَ .

فَقَالَ الْقَلَمُ : مَهْلًا أَيُّهَا الْمَسَاجِلُ ، وَعَلَى رِسْلِكَ أَيُّهَا الْمَغَالِبُ وَالْمُتَاضِلُ ؛ لَقَدْ
أَخْفَشْتَ مَقَالًا ، وَنَمَقْتَ مَحَالًا ؛ فَفَادَرْتُكَ سُبُلُ الْإِصَابَةِ ، وَخَرَجْتَ عَنْ جَادَةِ الْإِتَابَةِ ،
وَمُؤْتٌ سَمْعًا فَاسَأَلْتُ جَابَهُ ، إِنْ لِي بِأَرْكَ الطَّلَعَةِ وَسِمِئُهَا ، شَرِيفُ النَّفْسِ كَرِيمُهَا ؛
أَخَذَ بِالْفَضَائِلِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا ، مُسْتَوِيفٌ لِلْمَادِحِ بِسَائِرِ صِفَاتِهَا ؛ فَطَائِرِي مَتَمِّمُونَ ،
وَعُيُوبِي مَأْمُونُونَ ، وَعَطَائِي غَيْرُ مَتَمُّونَ ؛ أَصِلْ وَتَقَطَّعْ ، وَأَعْطِ وَتَمْنَعْ ، وَتَفَرَّقْ وَأَجْمَعْ ؛
وَإِنْ أَزِيدَ أَمْرُكَ بِي مِنَ الْكِبَرِ الْمَنْهَبِيِّ عَنْهُ ، وَغَضَبُكَ عَنِّي مِنَ الْعَجَبِ الْمُسْتَعَادِّ مِنْهُ ؛
وَمِنْ حَقَرٍ شَيْئًا قَتَلَهُ ، وَمِنْ أَسْتِهَانٍ بِفَاضِلٍ فَضَّلَهُ ؛ وَإِنِّي وَإِنْ صَغُرَ رَحْمِي فَإِنِّي لَكَبِيرُ
الْفِعَالِ ، وَإِنْ خُفَّ بَدَنِي فَإِنِّي لَشَدِيدُ الْبَاسِ عِنْدَ التَّرَالِ ؛ وَإِنْ عَرِيَ جِسْمِي فَكَمْ
كَسَوْتُ عَارِيًا ، وَإِنْ جَرَى دَمْعِي فَكَمْ أَرَوَيْتُ ظُلُمِيًا ؛ وَإِنْ ضَاقَ دَرْعِي فَإِنِّي بِسَعَةِ
الْقَبَالِ شَهُورُ ، وَإِنْ قَصُرَ بَإِغْيِ فَكَمْ أَطْلَقْتُ أَسِيرًا وَأَنَا فِي سِجْنِ الدَّوَاءِ مَأْسُورُ ؛ إِذَا
أَمْتَلَيْتُ طَرِيقِي ، وَتَذَرَعْتُ نَفْسِي ، وَتَقَلَّدْتُ نَحْسِي ، وَجَاسَتْ عَلَى الْأَعْدَاءِ نَفْسِي :-

رَأَيْتُ جَلِيلًا شَأْنَهُ وَهُوَ مُرْهَفٌ « ضَنَى وَسَمِينًا خَطْبُهُ وَهُوَ نَاحِلٌ !

أَتَسَيَّتُ إِذْ أَنْتَ فِي الْمَعْدِنِ تُرَابٌ تَدَّاسُ بِالْأَقْدَامِ » ، وَتَفْسِكُ الرِّيحُ وَتَزْدِي بِكَ
'الْأَيَّامُ' ؛ فَمِنْ صَرَتْ إِلَى الْفَتَنِ تَقَعْدُ لَكَ السَّادِينَ بِالْمَرَاصِدِ ، وَتَكْمُتُكَ الْمَقَامِعُ وَتَقْطُو

شيخ الإسلام، وخلاصة غرر الأيام، جلال الدين، بية المجتهدين، أبو الفضل عبد الرحمن البلقيني الشافعي، الناظر في الحكم العزيز بالديار المصرية، وسائر المسالك الإسلامية وما أضيف إلى ذلك من الوظائف الدينية، لازالت فواضل الفضائل معروفة: فهو العالم الذي إذا قال لا يمرض، والمحكم الذي إذا حكم لا يناقض، والإمام الذي لا يتخلل اجتاده خلل، والمناظر الذي ما حاول قطع خضم إلا كان لسانه أمضى من السيف إذا قال: «سبق السيف العدل»:

إذا قال بد القائلين ولم يدع . لمتيسر في القول جدًا ولا هزلًا!

إن تكلم في الفقه فكأنما بلسان «الشافعي» تكلم، و«الربيع» عنه يروى «المزني» منه يتكلم، أو خاص في أصول الفقه. قال «الغزالي»: هذا هو الإمام بانفاق، وقطع السيف «الأميدي» بأنه المقدم في هذا الفن على الإطلاق؛ أو جرى في التفسير. قال «الواحدي»: هذا هو العالم الأوحى، وأعطاه «أبو عطية» صفة يده بأن مثله في التفسير لا يوجد؛ وأعترف له «صاحب الكشاف» بالكشف عن الغوامض، وقال الإمام «نحر الدين»: «هذه مفاتيح الغيب وأسرار التنزيل» فارضع الخلاف وأدفع المراض، أو أخذ في القراءات والرسم أزدى بأبي عمرو الداني، ومدا شأو «الشاطبي» في «الرأية» وتقدمه في «حرز الأماني»؛ أو تحدث في الحديث عهد له «الشفائان» بملو الرتبة في الرواية، وأعترف له «أبو معين» بالتبريز والتقدم في الدراية، وهتف «الخطيب البغدادي» بذكره على المنابر، وقال «أبو الصلاح»: لئن هذه القوائد تميم الرحلة وفي تحصيلها تنفذ الحقاير، أو أبدى في أصول الدين نظرًا تعلق منه «أبو الحسن الأشعري» بأوفى زمام، وسد باب الكلام على المعتزلة حتى يقول «عمرو بن عبيد» و«واصل بن

عليه : « لَيْتَنَّا لَمْ نَفْتَحْ بَابًا فِي الْكَلَامِ ، أَوْ دَقَّقَ النَّظَرَ فِي الْمَنْطِقِ بِهَرَمِ الْأَخْمَرِيِّ »
 فِي مَنَاطِرِهِ ، وَكُتِبَ « الْكَاتِبِيُّ » عَلَى نَفْسِهِ وَثَبُتَ بِالْعَجَزِ عَنْ مُقَاوَمَتِهِ ، أَوْ أَلَمَ بِالْقَتْلِ
 وَهِيَ « الْأَرَمِيُّ » نَفْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَجَمَلَ « الْعَمِيدِيُّ » عُثْمَانَهُ فِي آدَابِ الْبَحْثِ
 عَلَيْهِ ، أَوْ بَسَطَ فِي أَلْفَةِ لِسَانِهِ اعْتَرَفَ لَهُ أَبُو « سَيْدَةَ » بِالسِّيَادَةِ ، وَأَقْرَبَ بِالْعَجَزِ لَدَيْهِ
 « الْجَوْهَرِيُّ » وَجَلَسَ « أَبُو فَارِسٍ » بَيْنَ يَدَيْهِ جَلِيسَ الْاِسْتِغَاذَةِ ، أَوْ نَحَا إِلَى النَّحْوِ
 وَالتَّصْرِيفِ أَرْبَى فِيهِ عَلَى « سَيَّوِيَّةٍ » ، وَصَرَفَ « الْكِسَائِيُّ » لَهُ عَزَمَهُ فَسَارَ مِنْ
 الْبُعْدِ إِلَيْهِ ، أَوْ وَضَعَ أُمُودَ جَا فِي عُلُومِ الْبَلَاغَةِ وَقَفَ عِنْدَهُ « الْجُرْجَانِيُّ » ، وَلَمْ يَتَدَنَّ
 حَتَمَهُ « أَبُو أَبِي الْإِصْبَحِ » وَلَمْ يَحْلُوزْ وَضَعَهُ « الرُّمَائِيُّ » ، أَوْ رَوَى أَشْعَارَ الْعَرَبِ أَرَدَى
 بِهَا الْأَخْمَرِيُّ ، فِي حِفْظِهِ ، وَفَاقَ « أَبَا عَيْدَةَ » فِي كَثْرَةِ رِوَايَتِهِ وَغَزِيرَةِ لَفْظِهِ ، أَوْ تَمَرَّضَ
 لِلْمَرُوضِ وَالْقَوَا فِي اسْتَحْفَظَهُمَا عَلَى « الْخَلِيلِ » ، وَقَالَ « الْأَخْفَشُ » عَنْهُ : أَخَذْتُ
 الْمُتَدَارِكَ وَاعْتَرَفَ « الْجَوْهَرِيُّ » بِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي هَذَا الْقَرْنِ مِثِيلٌ ، أَوْ أَصَلَ
 فِي الطَّلَبِ أَصْلًا قَالَ « أَبُو سَيْتَا » : هَذَا هُوَ الْقَانُونُ الْمُعْتَبَرُ فِي الْأَصُولِ ، وَأَقْسَمَ
 « الرَّازِيُّ » بِجُحِيِّ الْمَوْتَى إِنْ « قِرَاطٌ » لَوْ سَمِعَهُ لِمَا صَنَّفَ « الْفُصُولُ » ، أَوْ جَنَحَ
 إِلَى غَيْرِهِ مِنَ السَّلَامِ الطَّبِيعِيَّةِ فَكَأَنَّمَا طَلَعَ عَلَيْهِ ، أَوْ جَنَّبَ لَهُ ذَلِكَ الْعِلْمَ بِزَمَانٍ
 فَاتَّهَدَ إِلَيْهِ ، أَوْ سَلَكَ فِي عُلُومِ الْمَهَنْدِسَةِ طَرِيقًا لَقَالَ « أَوْفَلِيدِس » : هَذَا هُوَ الْخَطُّ
 الْمُسْتَقِيمُ ، وَأَعْرَضَ « أَبُو الْمُهَيَّمِ » عَنْ حَلِّ الشُّكُوكِ وَوَلَّى وَهُوَ كَاطِمٌ ، وَحَدَّ
 « الْمُؤْمِنُ بْنُ هُوْدٍ » عَدَمَ إِكْمَالِ كِتَابِهِ « الْاِسْتِكْمَالُ » وَقَالَ : عَرَفْتُ قَدْرَ نَفْسِي وَتَوَقَّعْتُ
 كُلَّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ ، أَوْ عَرَّجَ عَلَى عُلُومِ الْحَقِيقَةِ لِاعْتَرَفَ « أَبُو الرِّيْمَانِ الْيَرْبُوتِيُّ » أَنَّهُ الْأَعْجُوبَةُ
 النَّادِرَةُ ، وَقَالَ أَبُو الْفَتْحِ : هَذَا الْعَالِمُ قُطْبُ هَذِهِ النَّائِرَةِ ، أَوْ صَرَفَ إِلَى عِلْمِ الْحِسَابِ نَظَرَهُ
 لِقَالَ « السَّمُولُ بْنُ يَحْيَى » : لَقَدْ أَحْيَا هَذَا الْقَرْنُ الدَّارِسَ ، وَنَادَى « أَبُو جَعْفَرٍ الْمَوْصِلِيُّ » ،
 فَدَاجَلَتْ عَنْ هَذَا الْعِلْمِ غَايِبُهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهِ عَمَّةٌ لَعَالِمِهِ وَلَا عَمَّةٌ عَلَى عُجَارِيسٍ .

وقَدْ وَجَدْتَ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ • ظَلْتَ وَجَدْتَ لِسَانًا قَابِلًا قَبْلَ !

وَكَيْفَ لَا تُخَلِّقُ إِلَيْهِ الْعُلُومَ مُقَالِيدَهَا، وَتَصِلُ بِهِ الْفَضَائِلَ أَسَانِيدَهَا؛ وَهُوَ ابْنُ شَيْخِ
الإِسْلَامِ وَإِمَامِهِ، وَوَاحِدُ النُّهْرِ وَعَلَامِهِ، وَجَامِعُ الْعُلُومِ الْمُتَفَرَّدِ، وَمَنْ حَقَّقَ وَجُودَهُ
فِي أَوَّلِهِ الْأَعْيَارَ أَنَّ الزَّمَانَ لَا يَمُتُّوْهُ مِنْ مُجْتَبَدٍ، وَمَنْ لَمْ يَزَلْ مَوْضُوعُ الْأَوْضَاعِ الْمُعْتَبَرَةِ
عَلَيْهِ تَحْوِلًا، وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْسِ الْمَسَائِدِ الثَّامِنَةِ مُضَاهِيًا لِعُمَرَاءِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى رَأْسِ
الْمَسَائِدِ الْأُولَى، فَالْخَتَامُ عَلَيْهِ وَعَلَى وَلَدِهِ تُعْقَدُ، وَلَا غَرَوَ إِنْ قَامَ مُنْشِدُهُمَا فَاتَّسَدَ :

إِنَّ إِلَهَاتَهُ الْأُولَى عَلَى رَأْسِهَا أَتَى • لَهَا عُمْرُ الثَّانِي لَهَا الدِّينِ صَاتِيهِ،
وَوَالَى رِجَالٌ بَعْدَ ذَلِكَ حَكِيمِيهِ • فَهَا تُعْمَرُ وَاقٍ عَلَى رَأْسِ تَامِنِيهِ
يُظَاهِرُهُ تَجَمُّلُ سَيِّدٍ قَدَّتْ بِهِ • مَمَاقِلُ عِلْمٍ فِي دُرَا الْحَقِّ آيِنِيهِ .
إِذَا شَيْخُ إِسْلَامٍ أَضَاءَ سِرَاجَهُ • رَأَيْتَ جَلَالًا مِنْ سَنَا الْفَضْلِ قَارَتِهِ !
فَلَا يَتَمَّعُ الْإِسْلَامُ بِجَمْعِ عَلَمَاهَا • وَلَنْ يَبْرَحَا لِلدِّينِ دَابَّابَا مِيَامِنِهِ !

فَقَالَ عِلْمُ الْأَخْلَاقِ : أَصَبَتْ سَوَاءَ الثَّنَوَةِ وَجِئْتَ بِالرَّأْيِ الْأَكْمَلِ، وَعَرَفْتَ مِنْ
أَيِّنِ تَوَكَّلَ الْكَتِيفُ فَطَبَّقْتَ الْمِفْصَلَ بِالْمِفْصَلِ، إِلَّا أَنَّ مِنْ حَاسِنِ الْأَخْلَاقِ، وَمَعَالِمِ
الْإِرْفَاقِ، أَنْ تُشَوِّدُوا بِفَضْلِكُمْ، وَتَرْجِعُوا بِمَعْرِفَتِكُمْ وَرُكْنَكُمْ، إِلَى مَنْ جَرَى بِكُمْ فِي الصَّاحَةِ
بِجَرَى الْإِنْصَافِ، وَبَسَطَ لِسَانَهُ بِمَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ كُلُّ مَنْتَكَمٍ مِنْ جَبِيلِ الْأَوْصَافِ؛
ثُمَّ كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ وَصَلَ بِالْإِتِّفَاقِ وَالْإِتِّفَاقِ حَبْلَكُمْ، وَجَمَعَ بِالْحَقْلِ الْكَرِيمِ بَعْدَ التَّبَاعَدِ
شَمْلَكُمْ؛ وَذَكَرَكُمْ بِحُسْنِ الْمُصَافَاةِ أَصْلَ الْوِدَادِ الْقَصِيدِ، وَتَلَا لِسَانَ الْأَلْفَةِ فِيمَكَ :
(فَإِنَّا الَّذِي يَبْنِيكَ وَيَبْنِي عِدَاؤَكَ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) • بَانَ بِتَقْصِبِ كُلِّ مَنْتَكَمٍ لَهُ شَفِيعًا
إِلَى هَذَا السَّيِّدِ الْجَلِيلِ • وَيَكُونُ لَهُ وَسِيلَةٌ إِلَى هَذَا الْإِمَامِ الْحَقِيقِ، أَنْ يَصْرِفَ إِلَيْهِ
وَجْهَ الْبَيِّنَاتِ، وَيَنْظُرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الْإِهْجَالِ وَالرَّعَايَةِ، لِيُعْزِزَ فِي النَّاسِ جَانِبَهُ، وَيُطْلِعَ

في أُنْفِ السَّعْدِ بَدَ الْأَقُولِ غَارِبُهُ ؛ وَيَتْلُجُّ مِنْ مُنْتَهَى أَمَلِهِ مَالُهُ جَهْدُ ، وَيَسْمَعُ
بِالنَّظَرِ السَّعِيدِ جَدُّهُ فَقَدْ قِيلَ : « مَنْ وَقَعَ عَلَيْهِ نَظَرُ السَّعِيدِ سَعِدَ » .

على أنه - أمتع الله الإسلام ببقائه وبقاء والده ، وجمع بينهما في دَارِ الْكَرَامَةِ
كما جمع لهما بين طَارِفِ الْحَيْدِ وَتَالِدِهِ ؛ - قد فَتَحَ لَهُ مِنَ التَّرَقُّيِ أَوَّلَ بَابٍ ، وَلَا شَكَّ
أَنْ نَظَرَهُ مِنْهُ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ تُرْقِيهِ إِلَى السَّحَابِ .

فَأَزْرَقُ النَّجْرِيَّةُ قَبْلَ أُبَيْضِهِ * وَأَوَّلُ الْفَيْتِ قَطْرُهُمْ يَنْسَكِبُ !

قال علم التاريخ : أَهْطَلُوا مَضْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ، وَقَرُّوا عَيْنًا إِلَى الْقَصْدِ
الْجَلِيلِ وَصَلْتُمْ ، وَعَلَى غَايَةِ الْأَمَلِ - وَهَذَا الْحَمْدُ - حَصَلْتُمْ ؛ فَقَدْ بَلَّوْتُ الْأَوَائِلَ وَالْأَوَانِجَ ،
وَحَبَّرْتُ حَالَ الْمُتَقَدِّمِ وَالْمُعَاصِرِ ؛ فَلَمْ أَزِ فَيَمَنْ مَعْنَى وَغَيْرِ ، وَشَاعَ ذِكْرُهُ وَأَشْهَرُ ، مِنْ
ذَوِي الْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ ، وَالْمَنَاصِبِ السَّيِّئَةِ ؛ مَنْ يُسَاوِي هَذَا السَّيِّدَ الْجَلِيلَ فَضْلًا ،
أَوْ يُدَانِيهِ فِي الْمَعْرُوفِ قَوْلًا وَفِعْلًا ؛ قَدْ لَيْسَ شَرَفًا لَا تَطْمَعُ الْأَيَّامُ فِي خَلْمِهِ ، وَلَا يَنْتَلِعُ
الزَّمَانُ لِمَا نَزَعَهُ ، وَاتَّهَى إِلَيْهِ الْمَجْدُ فَوَقَفَ ، وَعَرَفَ الْكَرَّمَ مَكَانَهُ فَأُنْحَازَ إِلَيْهِ وَعَطَفَ ؛
وَحَلَّتْ الرِّأْسَةُ بِفَنَائِهِ فَاسْتَفَنَتْ بِهِ عَنِ السُّوْءِ ، وَأَنَاحَتْ السِّيَادَةُ بِأَفْنَائِهِ فَالْقَتَتْ
عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّتْ بِهَا النَّوْءُ ؛ فَصَعُرَتْ عَنْهُ خُطَا مِنْ يُجَارِيهِ ، وَضَاقَ عَنْهُ بَاعٌ مِنْ
يُنَاوِيهِ ، وَاجْتَمَعَتْ الْإِكْسُنُ عَلَى تَقْرِيبِهِ فُلِحَ بِكُلِّ لِسَانٍ ، وَتَوَاقَعَتِ الْقُلُوبُ عَلَى
حُبِّهِ فَكَانَ لَهُ بِكُلِّ قَلْبٍ مَكَانٌ :

وَلَمْ يَحْتَلْ مِنْ إِحْسَانِهِ لَفْظٌ مُخْبِرٌ ، * وَلَمْ يَحْتَلْ مِنْ تَقْرِيبِهِ بَلَنٌ دَقِيرٌ !

فهو الْحَرِيُّ بِأَنْ يُكْتَبَ بِأَقْلَامِ النَّحَبِ جَمِيلُ مَنَاقِبِهِ ، وَأَنْ يُرَقَّمَ عَلَى صَفَحَاتِ
الْأَيَّامِ حَبِيدُ مَطَالِيهِ ؛ فَلَا يَنْهَبُ عَلَى مَمَرِ الزَّمَانِ ذِكْرُهَا ، وَلَا يَزُولُ عَلَى تَوَالِي
الْأَنْهَارِ تَقَرُّهَا .

ولما تمّ للعلوم هذا الاجتماع الذى قَارَنَ السُّعْدُ جَلَالَهُ، وَتَفَجَّرَتْ بِتَابِعِ الْفَضْلِ
 خِلَالَهُ، أَقْبَلُوا بِرُجُوعِهِمْ عَلَى الشُّرْمَاتِيِّينَ، وَبِمَا يُلْزِمُهُ مِنْ تَقْرِضِ هَذَا الْمُبَرِّ
 وَمَنْدَحِهِ مُطَالِيَيْنَ، وَقَالُوا : قَدْ آتَى النَّثْرُ مِنْ مَدَحِهِ بِقُدْرِ طَاعَتِهِ، وَإِنْ لَمْ يُوفِ بِجَلِيلِ
 قُدْرِهِ وَرَفِيعِ مَكَاتِهِ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تُخْتِمَ هَذِهِ الرِّسَالَةُ بِأَبْيَاتٍ بِالْمَقَامِ لِاحِقِهِ، وَلِمَا نَحْنُ
 فِيهِ مِنَ الْقَضِيَّةِ الْوَائِعَةِ مُطَالِقَهُ، قَائِمَةً مِنْ مَدَحِهِ بِالْوَاجِبِ، سَالِكَةً مِنْ ذَلِكَ أَحْسَنَ
 الْمَسَالِكِ وَأَجْمَلَ الْمَذَاهِبِ؛ لَتُكْمَلَ هَذِهِ الرِّسَالَةُ نَظْمًا وَنَثْرًا، وَتُحْتَمَّ فِي صِنَاعَةِ الْأَدَبِ
 خُطَابَةٌ وَشِعْرًا؛ قَال : سَمِعًا وَطَاعَةً، وَأَسْتِكَانَةً وَضِرَاعَةً؛ ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَامَ عَجَلًا،
 وَأَنْشَدَ مَرْثِيًّا :

بُشْرَاكُمْ مَعَاشِرَ الْمُلُومِ أَنْ * جُعِيتُمْ بِصَدْرِ حَبِيرٍ كَامِلٍ !
 فَنُوءُهُ لَمْ يَحْتَجِمْ لِمَالِي * وَفَضْلُهُ لَمْ يَكْتَمِلْ لِفَاضِلٍ !
 يَشْفِي الصُّدُورَ إِذَا غَدَا مُنَاطِرًا، * وَبَحْنُهُ قَزِينَةُ الْخَافِلِ !
 تَمْ عَمُوتُ دُرُوسُهُ مِنْ دَارِيَسٍ، * وَزَيْنَتْ بِحُلِيِّهَا مِنْ حَاطِلِ !
 وَأَوَّحَتْ أَهْوَالُهُ مِنْ مُشْكِلِي * لَمَّا آتَى بِإَوْضَحِ الدَّلَائِلِ !
 وَكَمْ غَدَتْ أَرَاؤُهُ حَيِّدَةً، * وَنَبَهَتْ بِحَدِّهَا مِنْ خَامِلِ .
 وَمُحْكُهُ فَحَكَمَ أَقَالَ عَذْرَةً * وَجُودُهُ فَفَوَّقَ قَصْدِ الْآمِلِ !
 هَذَا : وَقَدْ فَاقَ الْوَرَى رَأْسَهُ * مُحْفُوفَةً بِالْغَلِيفِ التَّمَائِلِ !
 مَنْ ذَا يَرُومُ أَنْ يَتَالَ شَأْنُهُ؟ * أَتَى لَهُ بِأَمْثِلِ الْأَمَائِلِ ؟
 مَوْتِي عَلَا فَوْقَ الشَّمَاكِ رُبَّةً * قَدْ زَيْنَتْ بِأَفْضَلِ الْفَوَاضِلِ !
 فَالَهُ فِي فَضْلِهِ مِنْ مُشْيِهِ، * وَمَا لِبَحْرِ جُودِهِ مِنْ سَاحِلِ !
 حَاقَتْ لِرَاجٍ فَضْلُهُ أَنْ يَنْتَهَى * صِفَرِ الْبَدَنِ أَوْ تُمْنَى الْآجِلِ !

قلتُ : ولم أر من تعرض للمُفَاخَرَةِ بين العلوم سوى القاضي الرّيسيد أبي الحسين
 ابن الزبير في مقالته المقدم ذكرها على أنّها لم تكن جارية على هذا النمط ، ولا مرتبة
 على هذا الترتيب ، مع الاختصار فيها على علوم قليلة ، أشار إلى المُفَاخَرَةِ بينها على
 ما تقدم ذكره . ولكن الله تعالى قد هدنى بفضلِهِ إلى وجوه الترجيح التي يترجح بها
 كل علم على خصمه ، ويُفْلِحُ به على غيره ؛ والمنصف يعرف لذلك حقه . والذي
 أعاني على ذلك جلالة قدر من صُنِفَتْ له وعلوّ رتبته ، واتساع فضله ، وكثرة
 علومه ، وتعداد قُوتونه ، إذ صفات الممدوح تهدي المادح وتُرشدُهُ .



ومنها المُفَاخَرَةُ بين السيف والقلم ، وقد أكثر الناس منها : فن عالٍ وعاطٍ ،
 وصاعد وساقط .

وهذه رسالة في المُفَاخَرَةِ بين السيف والقلم ، أنشأتها لقرّ الزّينى أبي يزيد الدوادار
 الظاهري ، في شهر سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، وسميتها : "حلية الفضل وزينة
 الكرم" ، في المُفَاخَرَةِ بين السيف والقلم " وهي :

الحمد لله الذي أعزّ السيف وشرف القلم ، وأفردهما برؤب العلياء قرّن لهما بين
 المحيد والكرم ، وساوى بينهما في القسمة فهذا الحكم وهذا الحكم .

أحمده على أن جمع بخير أمير بعد التفريق فتلقهما ، ووصل بأعزّ ملك بعد التقاطع
 حبّلهما ؛ وأزغب إليه بشكر يكابر النجوم في عديدها ، ويكون للنعمة على تمر الزمان
 أبنا يزيدا ؛ وأشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ياتم الإخلاص
 بمذبهما ، ولا يتجو من سيفها إلا من أجاب داعيتها وأقرّها ؛ وأن عمّا عبده ورسوله

(١) لم تذكر هذه المقالة فيما مضى طبعها سقطت من قلم النساخ .

الذى خُصَّ بِاشْرَافِ الْمَنَاقِبِ وَأَفْضَلِ الْمَآثِرِ، وَأَسْأَثَرِ السُّؤْدِ فِي الْمَغَارِبِ فَخَازَ أَنْفَرِ
المعالي وَتَالَ أَعْلَى الْمَقَارِحِ، حَسْبُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ قَامَتْ بِنُصْرَتِهِمْ
دَوْلَةُ الْإِسْلَامِ فَسَمَتْ بِهِمْ عَلَى سَائِرِ الدُّوَلِ، وَكَرَعَتْ فِي دِمَاءِ الْكُفْرِ سَيُوفُهُمْ فَعَادَتْ
بِخَلْقِ النَّصْرِ لَا بُحْرَةَ الْبَحْلِ، صَلَاةٌ يَنْقُضِي دُونَ أَنْهَضَاتِهَا مَنَاقِبُ الْإِيَّامِ، وَبِكُلِّ أَلْسِنَةٍ
الْإِحْلَامُ عَنْ وَصْفِهَا وَلَوْ أَنَّ مَافِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ .

وبعدُ، فإنه ما تقارب اثنين في الرتبة إلا تحاسدا، ولا اجتمعما في مقام رفعة إلا
أزدحما على المحيد وتواردًا، ورام كلُّ منهما أن يكون هو الفائز بالقدح المعلن، وأن يكون
مقرِّفه هو المنتوج وجيده هو المحلِّي، وأدعى كلُّ منهما أن جواده هو السابق في حلبة
السباق، والفائز بقصب السبق بالافتقار، وأن نجمه هو الطالع الذي لا يآكل،
ومؤدده هو الحاسم الذي لا يزل، وأن المسك دون غيره، والبحر لا يبغي قطرة
في ضديره، والذئب لا يصلح له صدق، ونفيس الجوهر لا يعادله شرقًا، وأن منابر
لمعالي موقوفة على قدميه، وعجايز المقار فاعية بنشر كرمه .

ولما كانت السيف والقلم قد تدانيا في التمجيد وتقاربا، وأخذَا بطرق الشرف
وتجاذبا، إذ كانا قطبين تدور عليهما دوائر الكمال، وسعدين يجتمعان في دائرة
الاعتدال، وتجهين يديان إلى المعالي، ومصباحين يستضاء بهما في حدادين اللبالي،
وقاعدتين تبنى الدول على أركانها، وتجريين يُمخِئ العِزَّ من أغصانها، جر كلُّ منهما
نوب الخيلاء غرًا فشيءً وتبهر، وأسبل رداء العجب نيبًا فاستحبل ولا تتعد، وأنسج
له المجال في الدعوى بفال، وطاوعته يد القال فقال وطال، وتطرقَت إليهما عقاربُ
الشحناء ودبت، وتوقفت بينهما نارُ النافسة وشبت، وأظهر كلُّ منهما ما كان
يُخفيه فكُتِبَ وأمل، وباح بما يكفه صدره والمؤمن لا يكون حبلًا، وبدأ القلم
فنكلم، ومضى في الكلام يصدق عزيم فاستوقف ولا تلتئم، فقال :

باسم الله تعالى استفتح ، وبجده آمين واستفتح ، إذ من شأني الكتاب ، ومن فني الخطابة ، وكل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله تعالى فهو أجزم ، وكل كلام لا يفتح بحمده فأسأسه غير محكم وردأؤه غير معلم ، والعاقِل من أتى الأمر من قصه ، وأخذ الحديث بنصه ، والحق أحق أن يتبع ، والباطل أجدر أن يترك فلا يصنى إليه ولا يستمع ، إني لأقول مخلوق بالنص الثابت والمجبة القاطعة ، والمستحق لفصل السبق من غير منازعه ، أقسم الله تعالى بي في كتابه ، وشرفني بالذكر في كلامه لرسوله وخطابه ، قال جل من قائل : ﴿ تَبَّ وَالْقَلَمُ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَحْنُونَ ﴾ . وقال جلت قدرته : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . فكان لي من الفضل وأفر القسمة ، وخصصت بكال المعرفة بجمعت شوارد العلوم وكنت قيم الحكمة .

فقال السيف : بسم الله والله أكبر : ﴿ نصر من الله وفتح قريب ﴾ . لكل باغ مصرع ، وللصائل بالمعدون مهلك لا يتجو منه ولا يتجى ، وفتح باب الشرف يعلق به ، وقادح زند الحروب يحرق بهيه ، أقول بموجب أسندلاك ، وأوجب الاعتراض عليك في مقالك :

نعم أقسم الله تعالى بالقلم ولست بذلك ، وكان أول مخلوق ولست المنى بما هنالك ، إن ذلك لمني بكل فمك عن إدراكه ، ويضل تجك أن يسرى في أفلاكه ، وأنت وإن ذكرت في التريل ، وتمسكت من الأمتنان بك في قوله : ﴿ علم بالقلم ﴾ بشبهة التفضيل ، فقد حرم الله تعالى تعلم خطك على رسوله ، وحرمك من مس أامله الشريفة ما يؤسى على قويه ويسر بحصوله ، لكي قد نلت من هذه الرتبة أسنى المقاصد ، فشبهت معه من الوقائع ما لم تشهد ، وحلاني من كفه شرقا لا يزول

حَلَّتْهُ أَيْدَاءُ ، وَلَقَدْ بَنَصِرُهُ فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ : وَسَلَّ حُنَيْنًا وَسَلَّ بَدْرًا وَسَلَّ أَحَدًا !!! ،
 ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ جِنْسِي الَّذِي أَنَا نَوْعُهُ الْأَكْبَرُ ، وَنَبَّهَ عَلَيَّ مَا فِيهِ مِنَ
 الْمَنَافِعِ الَّتِي هِيَ مِنْ نَفْعِكَ أَهَمُّ وَأَشْهَرُ ؛ وَمَا اجْتَمَعَ فِيهِ مِنْ عَظِيمِي الشُّكْلِ وَالْبَاسِ ،
 فَقَالَ تَهْدَمْتُ عِظْمَتُهُ : (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) . عَلَيَّ أَنْكَ
 لَوْ أَعْتَبَرْتَ جِنْسِي الْقَصَبِ وَالْحَدِيدِ ، وَعَرَفْتَ الْكَيْلَ مِنْهُمَا وَالْجَلِيدَ ؛ لَتَحَقَّقْتَ
 تَسْلُطَ الْحَدِيدِ عَلَيْكَ قَطًّا وَبَرًّا ، وَتَحَكَّمَ فِيكَ أَمْرًا وَنِيًّا .

قَالَ الْقَلَمُ : فَرَرْتُ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَعَدَلْتُ ، وَعَوَّلْتُ عَلَى الطَّبِيعَةِ وَجَهَلْتُهَا ، فَانْتَحَرْتُ
 بِحَقِّكَ وَعُدْوَانِكَ ، وَأَعْتَمَدْتُ فِي الْفَضْلِ عَلَى تَعْدِيكَ وَطُغْيَانِكَ ؛ فَغَلَّتْ لِي إِلَى الظُّلَمِ
 الَّذِي هُوَ إِلَيْكَ أَقْرَبُ ، وَغَلَبَ عَلَيْكَ طَبْعُكَ فِي الْجَوْرِ : وَ « الْعُلُوبُ أَغْلَبُ » ، فَلَا فِتْنَةَ
 إِلَّا وَأَنْتَ أَسْلَبُهَا ، وَلَا غَارَةَ إِلَّا وَأَنْتَ رَأْسُهَا ؛ وَلَا شَرًّا إِلَّا وَأَنْتَ فَاتِحُ بَابِهِ ، وَلَا حَرْبَ
 إِلَّا وَأَنْتَ وَاصِلُ أَسْبَابِهِ ؛ تُؤَكِّدُ مَوَاقِعَ الْخَفَاءِ ، وَتُكَدِّرُ أَوْقَاتَ الصَّفَاءِ ؛ وَتُؤَثِّرُ
 الْقِسَاوَةَ ، وَتُؤَثِّرُ الْمَدَاوَةَ ؛ أَمَا أَنَا فَالْحَقُّ مُلْحِي ، وَالْمُسَدَّقُ مَرَكِّي ، وَالْعَدْلُ شَيْخِي ،
 وَحِلْيَةُ الْفَضْلِ زِينَتِي ؛ إِنْ حَكَمْتُ أَقْصَطْتُ ، وَإِنْ اسْتَحْضَيْتُ حَفِظْتُ ، وَمَا فَرَطْتُ ؛
 لَا أَفْنِي سِرًّا يَرِيدُ صَاحِبُهُ كَتَمَهُ ، وَلَا أَكْتُمُ عِلْمًا يَتَنَبَّهُ مُتَعَلِّمُهُ عَلَيْهِ ؛ مَعَ عُمُومِ
 الْحَاجَةِ إِلَيَّ ، وَالْإِنْتِقَارِ إِلَى عِلْمِي وَالْإِكْتِسَابِ مِمَّا لَدَيَّ ، أُدِيرُ فِي الْقُرْطَاسِ كَلَامَاتِ
 تَمْرِي فَأُزَيِّرُ بِالْمَزَامِيرِ وَأَمْرًا بِالْمَزَامِيرِ ، وَأَضَعُ فِيهِ مَحَرِّبَاتِي فَأَلْقُبُ بِالْأَلْبَابِ
 وَأَسْتَجِلُّ بِالْحَوَاطِرِ ، وَأَغْذِي جِيوشَ سُطُورِي عَلَى بُعْدِ فَأَهْرِمِ الْعَاكِرِ :

فَلَمْ يَغْلُ الْجَيْشُ وَهُوَ عَرْمَرَمٌ * وَالْيَمْنُ مَا سَلَّتْ مِنَ الْإِعْثَادِ !

قَالَ السِّيفُ : أَطَلَّتْ النِّيَّةُ ، وَجِثَّتْ بِالنِّيَّةِ ؛ وَكَتَّتْ أَلْفًا ، وَظَفَّتْ خَلْفًا .

السِّيفُ أَمْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ : فِي حَلْمِهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْحَدِّ وَاللَّيْبِ

إِنَّ نِيَّامِي لِحِلَّةِ اللِّوَاتِي، وَمُصَاحِبِي آمِنَةٌ مِنَ الْبَوَاتِي، مَا تَهْلِكُنِي عَائِقُ إِلَّا بَاتَ
عَزِيزًا، وَلَا تَوَسِدُنِي سَاعِدُ إِلَّا كُنْتُ لَهُ حِرْزًا حَرِيْزًا، أَمْرِي الْمَطَاعُ وَقَوْلِي الْمُسْتَمَعُ،
وَرَأْيِي الْمَصُوبُ وَحُكْمِي الْمُنْتَجِعُ، لَمْ أَزَلْ لِلنَّصْرِ مِفْتَاحًا، وَلِلظَّلَامِ مِصْبَاحًا، وَلِلْعِزِّ قَائِدًا،
وَلِلْعُدَاةِ ذَائِدًا، فَأَنَّى لَكَ بِمَسَاجِلِي، وَمُقَاوِفِي فِي الْفَخْرِ وَمُنَاقِفِي؟، مَعَ عُرْيِ جِسْمِي
وَمُخَافَةِ بَدَنِي، وَإِسْرَاحِ تَلَايِكَ وَقَصْرِ زَمَنِكَ، وَبُخْسِ أَمْنَانِكَ عَلَى بَعْدِ وَطَنِكَ،
وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ جَرَى دَمْعِكَ، وَضَيْقِ ذَرْعِكَ، وَتَهْرُقِ جَمْعِكَ، وَقَصْرِ بَاعِكَ،
وَقَلَّةِ أَتْبَاعِكَ .

فَقَالَ الْقَلَمُ : مَهْلًا أَيُّهَا الْمَسَاجِلُ، وَعَلَى رِسْلِكِ أَيُّهَا الْمُغَالِبُ وَالْمُنَاضِلُ، لَقَدْ
أَحْسَنْتَ مَقَالًا، وَنَمَقْتَ مَحَالًا، فَفَادَرْتُكَ سُبُلُ الْإِصَابَةِ، وَنَحِجَّتْ عَنْ جَادَةِ الْإِتَابَةِ،
وَسُوَّتْ تَمَعًا فَاسَأْتُ جَابَهُ، إِنِّي لِمُبَارِكِ الطَّلَعَةِ وَسِيمُهَا، شَرِيفِ النَّفِيسِ كَرِيمُهَا،
أَخَذْتُ بِالْفَضَائِلِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا، مُسْتَوَفٍّ لِلْمَادِحِ بِسَائِرِ صِفَاتِهَا، فَطَائِرِي يَمِينُونَ،
وَعُورِي مَأْمُونُونَ، وَعَطَانِي غَيْرُ مَمْنُونٍ، أَصِلْ وَتَقَطِّعْ، وَأَعْطِ وَتَمْنَعْ، وَتَهْرُقْ وَأَجْمَعْ،
وَإِنْ أَزِيدَ أَعْلَمُ بِكَ مِنَ الْكِبَرِ الْمُنْتَهَى عَنْهُ، وَغَضَبُكَ عَنِّي مِنَ الْعُجْبِ الْمُسْتَعَاذِ مِنْهُ،
وَمَنْ حَقَّرَ شَيْئًا قَتَلَهُ، وَمَنْ أَسْتَهَانَ بِفَاضِلٍ قَضَلَهُ، وَإِنِّي وَإِنْ صَغُرَ جَرْمِي فَإِنِّي لَكَبِيرُ
الْفِعَالِ، وَإِنْ نَحِيفَ بَدَنِي فَإِنِّي لَشَدِيدُ الْبَاسِ عِنْدَ التَّزَالِ، وَإِنْ عَرِيَ جِسْمِي فَكَمْ
كَسَوْتُ عَارِيًا، وَإِنْ جَرَى دَمْعِي فَكَمْ أَرَوَيْتُ ظُلُمِيًا، وَإِنْ ضَاقَ دَعْرِي فَإِنِّي بِسَمَةِ
الْجَمَالِ مَشْهُورٌ، وَإِنْ قَصُرَ بَاعِي فَكَمْ أَطْلَقْتُ أَسِيرًا وَأَنَا فِي بَيْحَنِ الدَّوَاءِ مَأْسُورٌ، إِذَا
أَمْتَطَيْتُ طَرَسِي، وَتَدَرَعْتُ نَقِيسِي، وَتَقَلَّدْتُ نَحْمِي، وَجَانَسْتُ عَلَى الْأَعْدَاءِ نَقِيسِي:--

رَأَيْتُ جَلِيلًا شَانَهُ وَهُوَ مُرْهَفٌ * ضَنَى وَسِيمًا خَطْبُهُ وَهُوَ نَاحِلٌ!

أَنْبَسْتُ إِذْ أَنْتَ فِي الْمَعِينِ تُرَابٌ تَدَأْسُ بِالْأَقْدَامِ؟، وَتَفْسُكُ الرِّيحُ وَتُزْدِي بِكَ
'الْأَيَّامُ'، ثُمَّ صَرْتُ إِلَى الْقَبْرِ تَعْمُدُ لَكَ السَّائِدِينَ بِالْمَرَاوِدِ، وَتَعْمُكُ الْمَقَامِعُ وَتَسْطُو

بك المبارد ؛ ثم لولا صفالك لأذهبك الجرب وأكلك الصدى ، مع قلة صبرك على المطر والندى .

قال السيف : إنا لله ! لقد آتت أمتك الثمالي ، واستمرت البغاث فعدّ الضفوف نفسه من طير الواجب ؛ وجاء الغراب إلى البازي يهده ، ورجع ابن أوى على الأسد يترده ؛ فلو عرفت قدر نفسك ، ولزمت في السكينة طريق أبناء جنسك ؛ ووقفت عند ما حدث لك ، وذكرت عجزك وكسلك ؛ لكان أجدر بك ، وأحمد لعافيتك ، وأبقى بأدبك .

إن الملوك ليعذني لمهماتي ، وسنتجدي في ملياتي ؛ وتتعالى في نسي ، وتتعالى في حسي ؛ وتتناقض في فني وتتناقض ، وتعلمي عرصة لايمانها تتعاقد بالخلف على وتتناهد ؛ وتذكرني في خزائنها آذخار الأمل ، وتعدني أنفس ذخايرها على الإطلاق ؛ فتكفني الجواهر ، وتعلمني المقود فأظهر في أحسن المظاهر ؛ أبرز للشجان خدى الأسيل فأنسبهم الخلود ذوات السوائف ، وأزعو بقدي فأسلمهم هيف القدود مع لين المعاطف ؛ وأوهم الظمان من قرب أن بأنها ري ماء يسيل ، وأخيل للقدود من بعد أني جدوة تار فيطلني على المدى الطويل ؛ ويخالي متوقع الغيث برق لا يما ، ويطلني الحار في الشرق تجا طالما ، فالشمس من شعاعي في تجمل ، والأبل من ضوئي في وجل ، وما أسرعت في طلب تار إلا قيل : « نأت ما دمج » و « سبق السيئ العذل » .

فقال القلم : برق لمن لاعرفك ، وروج على غير الجوهرى صدق ؛ فما أنت من برى ولا عطري ، ولست بمساو حقد الفاطح بلامه طغرى ؛ إن برقك خلط ، وإن ريمك لأزيب ؛ وإن مأمك بلجامد ، وإن تارك لخامد ؛ ومن أدعى ماليس له فقد باء بالعبور ، ومن تسع بما لم يسط فهو كلايس توب زور .

وَمَنْ قَالَ : إِنَّ النِّعَمَ أَكْبَرُهَا الشُّبُهَى * بِفَسْرِ دَلِيلٍ كَذَبَتْهُ ذُكَاةُ !

أَنَا جَذِلْتُهَا الْمُحَكِّكَ ، وَعُدَّتْهَا الْمُرْجَبَ ، وَكَرَّمْتُهَا الْمُبْجَلُ وَعَالَمُهَا الْمُهْتَبُ ؛ يَنْظِفُ
حَالِي فِي الْأَصَالِ السَّيْفَةِ بِأَخْتِلَافِ الْأَعْرَاضِ ، وَأَنْتَبِهُ مَعَ الْمَقَاصِدِ الشَّرِيفَةِ بِمَحَسَبِ
الْأَغْرَاضِ ؛ وَأَتَرْتِيَا بِكُلِّ زَيٍّْ جَمِيلٍ ، فَأَنْزَلْتُ فِي كُلِّ حَيٍّ وَأَسِيرُ فِي كُلِّ قَبِيلٍ ؛ فَتَارَةً
أَرَى إِمَامًا عَلِيًّا ، وَتَارَةً لَمُرَّ الْكَلَامِ نَارًا وَأُخْرَى لِمُقُودِ الشَّرِّ نَاطِلًا ؛ وَطَوْرًا تُظْفِنِي
جَوَادًا سَابِقًا ، وَمَرَّةً تَجِدُنِي رُحْمًا طَاعِنًا وَسَهْمًا رَاشِقًا ؛ وَأَوْتَةً تَحَالِي تَجَمُّ مُشْرِقًا ،
وَجِنَا تَحْسِنِي أَفْوَئَاتًا مُطْرِقًا ؛ قَدْ نَقَعْتُ الشَّبَابَةَ فِي الطَّرَبِ ، وَبَرَزْتُ عَلَيْهَا فِي كُلِّ
مَعْنَى وَإِنْ جَمَعَ بَيْنَنَا جِنْسُ الْقَصَبِ ؛ فَكَانَتْ لِلْأَغَانِي ، وَكُنْتُ لِلْعَانِي ؛ وَجَاءَتْ
بِقَرِيبِ النِّعَمِ ، وَجِئْتُ بِبَيْدِ الْحِكْمِ ؛ وَلَبِثْتُ بِالْأَسْمَاعِ طَرِيًّا ، وَلَوَلِّتُ بِالْأَلْبَابِ
فَأَتَيْتُ لِمُخْرِهَا مِمَّا صَرَّاهَا عَجَبًا .

فَقَالَ السَّيْفُ : ذَكَّرْتَنِي الطَّنَّ وَكُنْتُ نَاسِيًّا ، وَطَلَبْتُ التَّكْثُرَ فَازْدَدْتُ قِلَّةً وَعُدْتُ
خَاسِيًّا ؛ فَكُنْتُ كَطَالِبِ الصَّيْدِ فِي مِرْدَسَةِ الْأَسَدِ إِنْ لَقِيَهُ أَهْلَكَهُ ، وَخَالَفْتُ النَّصَّ
فَالْقِيَتْ بِيَدِكَ إِلَى التَّهْلُكَةِ ؛ فَأَقْنَعُ مِنَ النِّعْمَةِ بِالْإِيَابِ ، وَعُدُّ الْمَرْيَمَةَ مَعَ السَّلَامَةِ
مِنْ أَرْجَحِ الْأَكْسَابِ ؛ فَلَسْتُ مِمَّنْ يَشُقُّ جُنَّارِي ، وَلَا يُحَايِلُ فِي الْمُنْجَاهِ صَرِي
وَلَا يَصْطَلِي بِنَارِي ؛ فَكَمْ مِنْ بَطَلٍ أَطْلَتْ حِرَاكَهُ ، وَكَمْ مِنْ مُجَاهِدٍ عَمِلَتْ هَلَاقَهُ ؛
وَكَمْ صِنْدِيدٍ أَرْقَتْ دَمَهُ ، وَكَمْ نَائِبٍ الْجُلُوسِ زَلَزَلَتْ قَدَمَهُ .

وَأَرَادَ الْقَلَمُ أَنْ يَأْخُذَ فِي الْكَلَامِ ، وَيَرْجِعَ إِلَى الْجِدَالِ وَالْخِصَامِ ؛ فَغَلَبَ عَلَيْهِ رِقَّةُ
طَبِيعِهِ وَحُسْنُ مَوَارِدِهِ ، وَسَلَاةُ قِيَادِهِ وَجَمِيلُ مَقَاصِدِهِ ؛ فَسَالَ إِلَى التُّهْلُوعِ وَجَنَحَ
إِلَى السَّلَمِ ، وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَهْلِ وَتَمَسَّكَ بِالْحِلْمِ ؛ وَأَقْبَلَ عَلَى السَّيْفِ بَغْلَبَ صَافٍ ،
وَلِسَانٍ رَطْبٍ غَيْرِ جَافٍ ؛ قَالَ : قَدْ طَالَتْ بَيْنَنَا الْمُجَادَلَةُ ، وَكَثُرَتْ الْمُرَاجَعَةُ وَالْمُقَاوَلَةُ ؛

مع ما بيننا من قرابة الشرف ، وأخذ كل منا من الفضل بطرف ؛ فتحن في الكرم شقيقان ، وفي المجد رفيقان ؛ لا يستقل أحدهما بنفسه ، ولا يأبس بشير صاحبه وإن كان من غير جنسه ؛ وقد حلبت النهر أشطره ، وعلمت أصفاء وكدره ؛ وقلبتة ظهرا وبطنا ، وجبت فيا فيه سهلا وحزنا ؛ وإن معادة الرقيق ، ومباينة الشقيق ؛ توجب سماتة العدو وتغم الصدق ؛ فهل لك أن تعقد للصلح عقدا لا يتعدى حده ، ولا يحل على طول الزمان عقده ؟ ؛ لتكون أبدا متليفين ، وعلى السراء والضراء متصاحبين ؛ حتى لا يضرب بديتي جذيمة مع أصطحابنا مثل ، ولا يقشبه بنا الفرقدان إلا بأما بالخلل .

ولست بممتني أبا لا تلمه . على شعث ، أي الرجل المهذب ؟

فقال السيف : لقد رأيت صوابا ، ورفقت عن وجه المحبة نقابا ؛ وسريت أحسن مسرى وسرت أجمل سير ، وصحبك التوفيق فأشرت بالصلح ؛ والصلح خير .

وقد ينفع الله الشيعتين بعد ما . يظن أن كل الظن أن لا تلاقيا !

ثم قال : لا بد من حكم يكون الصلح على يديه ، وحاكم يرجع في ذلك إليه ؛ لتحظى بزيادة الشرف ، ونظفر من كمال الرقعة بغرف من فوقها غرف ؛ ولئلا بفائرين بطيئتنا ، وظافرين ببغيتنا ؛ إلا لدى السيد الأكل ، والمالك الأفضل ، الماحد السرى ، والبطل الكمي ؛ والبحر الحضم ، والقيث الأعم ، مؤلى المعالي ومؤلى النعم . ومتمطى جواد العز ورافع أعلام الكرم ؛ جامع أشنات الفضائل ومالك زمامها ، وضابط أمر الدولة الظاهرية وحافظ نظامها ؛ المقر الكريم ، العالى ، المولوى ، الزينى ، أبى يزيد الدوادار الظاهرى : ضاعف الله تعالى حسناته المنكز . وزاده رقة في الدارين ليجمع له الأرفقاء بين منازل الدنيا والآخرة ؛ فهو قطب

الحلقة الذى عليه تمور، وفارسها الأروع وأسدّها المصبور، وطلّها السّيدع وليّتها
الشهير، وأبو عزّزتها حقاً من غير نكر وأبن يحدّتها السّاقطة منه على الخير، ومعلّوها
الأمّنع وحرّزها الحصين، وعقدّها الأنفس وجوهرها الثمين، وتلاذذها السليم
بأحوالها، والجدير بمعرفة أقوالها وأفعالها، وترجمانها المتكلم بلسانها، وعالمها المتفنّن
فى أفنانها، وطبيبها العارف بطبها، ومُنْجِدُهَا الكاشف لكرّها .

هذا : وإنّه لسالك أمرنا ، ورافع قدرنا ، والصّائل منا بالحدّين ، والجائع منا
بين الضّدّين ، فلوّقيه «فارس عيس» لولّى طاباً ، أو طرّق حى «كليب» لبات من
حمّاه أيساً ، أو قارعه «ريّعة بن مكدّم» لعلّا بالسيف مفرّقه ، أو نازله «بسطام»
ليدّد جمعه وقرّقه ، كما أنه لو قرّن خطّه بنفيس الجوهر لملاه قيمه ، أو قاسمه
«أبن مقلّة» فى الكتابة لما رضى أن يكون قيسمه ، أو فائره «أبن هلال» لرأى
أنه سبقه إلى كلّ كريمه .

وبالجملة فعزّه الظاهر وفضله الأكل ، وسمّاكه الرّيح وسمّلكه غيره الأعزل ،
فلا يسمع الزمان أن يأتى له بنظير، ولا أراد مدّج بلوغ شأوه إلا قيل : أتدّ فلقّد
حاولت الانتباه بحتاج كميّ :

فحيلاً بالمكرّمات وبالسلّى . وحيلاً بالفضل والسؤدد المحض !

فالحمد لله الذى جمّعنا بأكرم محلّ وأفضل ، وأحسن مقام وأجل ، فهلمّ إليه يعقّد
بيننا عقد الصلح ، وتبّايعه على ملازمة الخدمة والنصح .

ثم لم يلبث أن كتّب بينهما كتاباً بالصلح والمصافاة ، وتماهدا على الودّ والموافاة ،
وأعلن بعقد الصلح مُتدايِهما ، وحدّا يذكر التماضيد والتناصر حاديِهما ، وراح يُنشد :
حَمِّ الصلح ما أشتته الأعدى ، « وأذاغته السُّن الحساد !

وَزَالَتْ عَنْهُمَا الْأَحْقَادُ وَالْإِخْنُ ، وَبَاتَا فِي أَعَزِّ مَكَانٍ وَأَشْرَفِ وَطْنٍ ، وَنَلَّتْ
قِرَانَهُمَا فَاسْعُدَ ، ثُمَّ قَامَ مُشْدَهُمَا فَانْتَدَ :

لَا يُنْكَرُ الصُّلْحُ بَيْنَ السَّيْفِ وَالْقَلَمِ * فَمَا قَدِ الصُّلْحُ عَلَى الْقَدَرِ وَالْهِمَمِ !
أَبُو يَزِيدَ نَظَامُ الْمُلْكِ مَا لِكُنَا * وَوَأَصِلَ الْعِلْمُ فِي عَلَيْهِ بِالْعِلْمِ .
فَهُوَ الْمُرَادُ بِمَا أَيْدِيهِ مِنْ مَدَحٍ * وَغَايَةُ الْقَصْدِ مِنْ تَرْتِيبِ ذَا الْكَلَمِ !
وَإِنْ جَرَى مَدْحُ سَيْفٍ أَوْ عَلَا قَلَمٌ ، * فَذَلِكَ وَصْفٌ لِمَا قَلِمَا زَمَنَ كَرَمِ !

قُلْتُ : وَسَبَبُ إِنْشَائِي لِهَذِهِ الرِّسَالَةِ أَنَّ الْأَمِيرَ أَبَا يَزِيدَ الْمَوْضُوعَةَ لَهُ ، تَفَعَّلَهُ اللَّهُ
تَسَالَى بِالرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ ، كَانَ مِنْ جَوْدَةِ انْخِلَاطٍ وَتَحَرُّرِ قُرَائِدِهِ فِي الطَّبَقَةِ الْعُلْيَا ،
وَعَظُمَتْ مَكَاتِنُهُ عِنْدَ سُلْطَانِهِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ «بَرْقُوقٍ» وَعَلَتْ رُتْبَتُهُ حَتَّى وُلَّاهُ وَظِيفَةً
الدَّوَاوِدَارِيَّةَ بِإِمْرَةِ تَقْدِيمَةِ أَلْفٍ ، وَلَمْ يَزَلْ مُقَدِّمًا عَنْدهُ حَتَّى مَاتَ وَهُوَ مُتَوَلِّيًا ، وَأَوَّلَايَ
عِنْدَ عَمَلِهَا لَمْ مِنَ الصَّلَاةِ وَالرَّائِئِ التَّوَالِي مَا يَقْصُرُ عَنْهُ الْوَصْفُ ، وَيَكِلُ عَنْهُ اللِّسَانُ .

الصَّنْفُ الْخَامِسُ

(مِنَ الرِّسَالَةِ - الْأَسْئَلَةُ وَالْأَجُوبَةُ ، وَهِيَ عَلَى ضَرِيْنِ)

الضَرْبُ الْأَوَّلُ

(الْأَسْئَلَةُ الْأَمْتِحَانِيَّةُ)

قَدْ جَرَتْ عَادَةُ مَسَائِلِ الْأَدَبِ وَفَضْلَاءِ الْكُتُبِ أَنَّهُمْ يَكْتُبُونَ إِلَى الْأَفَاضِلِ
بِالْمَسَائِلِ يَسْأَلُونَ عَنْهَا : إِمَّا عَلَى سَبِيلِ الْأَسْتِفْهَامِ وَأَسْتِخَارَةِ مَا عِنْدَ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ
فِي ذَلِكَ ، وَإِمَّا عَلَى سَبِيلِ الْأَمْتِحَانِ وَالتَّعْيِيزِ . ثُمَّ تَارَةً يُجَابُ عَنْ تِلْكَ الْأَسْئَلَةِ بِأَجُوبَةٍ
فُكْتُبَتْ ، وَتَارَةً لَا يُجَابُ عَنْهَا ، بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ الْحَالُ .

وهذه رسالة كتبها الشيخ جمال الدين بن نباتة للمصري إلى الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي صاحب ديوان الإنشاء بالملكة الشامية ، وقد بلغه أن بعض أهل الديوان نال منه ، وأن الشيخ شهاب الدين المذكور ناضل عنه ودافع ، فكتب إليه يشكره على ذلك ويسأل الكلب الديوان عن أسئلة بعضها يرجع إلى صنعة الإنشاء ، وأكثرها يرجع إلى فن التاريخ . وقد بينت بعضها ونهت عليه في مواضعه في خلال هذا الكلب ، وهي :

لا يُخْرِجُ الْكُرَّةَ مَنِّي غَيْرُ نَائِيَةٍ * وَلَا أَلِينُ لِمَنْ لَا يَتَغْنَى لِيْنِي !

الاستفتاح بـ «لَا» تيمُّنٌ بركة الشهاده ، وهي ههنا مقرّاضٌ يقطع من العيب الملة ويضم الماده ، لحسم الله عن سيدنا الإمام العلامة القدوة ، شهاب الدين ، مكلِّ الآداب ، ومليك الشعراء والكلاب ، شرَّكل عَيْن حاسِد ولو أنها عَيْن الشمس ، وحماء عن مَدَّة أَلْسِنَةِ ذَوِي الْأَغْيَاب والأرتياب من الممجد والمتمس ، وهما له أسباب الخير حتى يكون يومه فيه مُقَضَّرًا عن الغد زَائِدًا على الأَمْس ، واستخدم له الإقْدَار حتى تكون قَرَائِصُ تَهْمِيلِ أَمَلِهِ الْعَشْرَ عندهم كَقَرَائِصِ الْخَمْس ، وجعل ما يَرُدُّ عنه الْعَيْن من العيب بعد شأنه عن المتناولين وقاية عن اللس ، حتى يكون المعنى بقول القائل :
وَلَا عَيْبَ فِيهِ غَيْرَ أَنْ عَلَامُهُ * إِذَا حَدَدُوهُ كَانَ قَدْ جَاوَزَ الْحَدَّ ،
وَلَا عَيْبَ أَيْضًا فِي مَا يَرِي بِرَيْتِهِ * سِوَى أَنَّهُ تَرَوَى بِالْإِسْنَةِ الْأَعْدَا !
وحسبُ بؤْمِنٍ عَلَيْهِ الْقَائِلُ :

مَا كَانَ أَحْوَجَ ذَا الْكَلَالِ إِلَيَّ * عَيْبُ بُوْقِهِ مِنْ الْعَيْنِ !

(١) هذا الشعر من صنعة ابن نباتة غيره لما يريد وانما هو . لا يُخْرِجُ الْقَمَرُ مَنِّي غَيْرُ نَائِيَةٍ . الْقَمَرُ :

الظهر والمأبأة مصدر كالتحية معناه الإيا . والبيت من كلمة لدى الإصح المدون .

وَيُغْلَبُ مِنَ الْآخِرِ قَوْلُهُ :

نَحْصُ الْأَنَامِ إِلَى كَيْلِكَ فَاسْتَعِذْ * مِنْ شَرِّ أَعْيُنِهِمْ بِعَيْنٍ وَاحِدٍ !
 الْعَبْدُ يَحْتَلِمُ بِسَلَامٍ مَارَوْضَةً قَطَعَهَا الْجَوْبُ بَدْرَ مَحَائِهِ ، وَأَفْرَغَ عَلَيْهَا الْأَنْثَى سَقَطَ
 كَوَاحِيهِ ، وَأَمْتَدَّ نَوَاهِ الذَّرَاجِ لَتَدْبِيعِ شَمَائِهَا ، وَتَأْرِجِ أَرْجَائِهَا ، وَتَغْيِشَ مَعَاصِمِ أَنْهَارِهَا
 الْمُنْشَقَّةِ بِأَفْنَانِهَا ، وَصَقَالَ نَسَمَاتِهَا السَّحَرِيَّةِ ، وَمُغَازَلَةَ عُيُونِهَا السَّحَرِيَّةِ ، وَهَوَايَ
 النَّالِيَةِ بِفَنَاحَاتِهَا الشَّجَرِيَّةِ ، تَصْرِفُ دَنَائِرَ أَزْهَارِهَا الصُّرُوفِ ، وَيُسَلِّ جَنُودَهَا عَلَى
 الْمُحْصُومِ السُّيُوفِ ، وَتَجْنِبُ حَمَائِمَهَا الْقُلُوبَ بِالْأَطْوَاقِ ، وَيَنْشَقُّ دَوْحُهَا إِلَى النُّوَاطِرِ
 بِالْأُورَاقِ ، قَدْ تَرَفَّقَ فِي وَجَنَاتِهَا مَاءُ الشَّبَابِ ، وَغَنَى مُطَرَّبُ حَمَائِمِهَا وَعَتَرَهُ فِي حَكِّ
 مِنَ الْأَبَابِ ، وَبَجَرَهَا رَوْتَقُ السَّيْفِ وَفِي قَلْبِ رَوْضَتِهِ الذُّبَابُ ^(٢) .

فَا كُلُّ أَرْضٍ مِثْلَ أَرْضٍ هِيَ الْجَمْعُ ، * وَمَا كُلُّ نَبْتٍ مِثْلَ نَبْتٍ هُوَ الْبَاقُ !
 يَوْمًا بَأْتِجُ مِنْهُ أَشْوَاقًا ، وَأَطِيبَ مِنْهُ أَتَشَاقًا وَأَنْسَاقًا ، وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ،
 وَلِكُلِّ غَيْثٍ نَبَاتٌ ، وَمَا لَذَلِكَ الْغَيْثُ إِلَّا هَذَا النَّبَاتُ .

وَنُعَوِّدُ فَقُولُ : لَا أَدْرِي أَتَعْجَبُ :

عَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا * تَحَابَّبَ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا تَحَابُّ !
 . مِنْ قَوْمٍ هُمْ مَاهُمْ : شَرِبْتُ مُنَاسِبَ ، وَطِيبْتُ مَكَايِبَ ، قَدْ أَمَكَّتْهُمْ الْمَعَالِ ،
 وَطَاوَعَتْهُمْ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي ، وَخَدَمَتْهُمْ جَوَارِي السُّعُودِ ، وَتَطَلَّمَتْ لِكُلِّ مِنْهُمْ مَرَاقِي
 الصُّعُودِ ، كَابِرُ بِسُكُونِ الْخَاشِ مِنْحَدَرِ (٥) وَكَثُرَتْ قَدْ أَسْتَجَدَّتْ كُلًّا مِنْهُمْ وَلَكِنْ
 بِالْكَلامِ ، وَأَسْتَسْقَيْتُ وَلَكِنْ قَطْرَةً مِنْ عَمَامِ الْأَقْلَامِ :

وَأَيْسَرُ مَا يُعْطَى الصَّدِيقُ صَدِيقَهُ * مِنَ الْمَعِينِ الْمَوْجُودِ أَنْ يَتَكَلَّمَ !

(١) الضَّرْفَةُ بِرُصُوفِهِ . (٢) دِيَابِ السَّيْفِ حَذَّ أَوَطَرِهِ الْمُخَطَّوْفِ .

”وَيُسْعِدُ التُّعْلُقَ إِنْ لَمْ يُسْعِدِ الْحَالُ“ فَضَنَّ وَطَنَّ مَاظَنَّ، وَأَسْتَمَطَفَ بِسِيمِ الْكَلَامِ
غَضْنُ بَرَاهِهِ فَا عَطَفَ وَلَا حَنْ، وَبَيَّلَ بِمَا رَزَقَهُ لَقَدْ فَإِنَّ الْقَضِيْلَةَ مِنَ الرِّزْقِ،
وَحَرَمْنِي لَدَّةَ الْفَاطَةِ فَإِنَّمَا إِلَى إِذَا أُذْخِلْتُ فِي رَقٍّ دَخَلَ حُرُ الْبَلَاغَةِ تَحْتَ ذَلِكَ الرِّقِّ،
وَهَلْ هُوَ الْبَحْرُ فَكَيْفَ تَحْجُ بِمَدَّةٍ مِنْ مَدَّةٍ، وَالْقَيْثُ وَلَا أَقُولُ : إِنْ الَّذِي حَبَسَهُ
إِلَّا مَا قَسَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْحَقِّ عِنْدَ عَيْدِهِ :

وَإِذَا الزَّمَانُ جَفَاكَ وَهُوَ أَبُو الْوَرَى * طُكِرًا فَلَا تَمْتَبِ عَلَى أَوْلَادِهِ!

فَاعِلُ اللَّهِ كَلِمَةُ سَيِّدِنَا الْمَلَامَةِ فِي الدَّارَيْنِ، وَشَكَرْتَنِي جُودَ كَرِيمِهِ وَكَتَبَهُ الدَّارَيْنِ.
[فَهُوَ] صَاحِبُ دِيَوَانِهِمْ، وَحُجَّةُ زَمَانِهِمْ؛ فَلَقَدْ وَصَفَنِي بِمَا يَزِيدُ عَلَى الْجَوَابِ، وَشَافَنِي
مِنَ الشُّكْرِ بِمَا لَا يَتَوَارَى مِنَ الرِّزْقِ بِجَنَابِ، وَأَمْنِي الْعِزَّ وَالزَّمَانَ حَرْبَ، وَنَصَرَنِي
وَالْأَيَّامُ سُيُوفٌ تَشْتَرِقُ مِنَ الضَّرْبِ فِي كُلِّ ضَرْبٍ؛ وَأَعْطَانِي كَرَمَهُ وَالْمَحْضِلَ عَمَلِ،
وَفِي قَلْبِ الزَّمَانِ دَحَلُ، وَتَحْتَى شُهْدَةً إِحْسَانِهِ وَالْأَوْثَاتُ كَابِرُ النُّعْلِ؛ حَتَّى عَذَرَنِي
فِي حُبِّهِ مَنْ كَانَ مِنَ اللَّائِمِينَ، وَأَهْنَدَنِي مِنْ لَفْظِهِ وَفَضْلِهِ بِقَمَرَيْنِ لَا يَمِيلُ أَحَدُهُمَا
وَلَا يَمِينُ، وَصَلَّتْ مِنْ جَانِبِهِ وَمَالِهِ بِيَدَيْنِ إِلَّا أَنْ كَلِمَتَهُمَا فِي الْإِعْرَاضِ يَمِينُ :
وَيَلُومُنِي فِي حُبِّ عُلُوِّ نِسْوَةٍ * جَعَلَ الْإِلَهَ خُلُودَهُنَّ نِمَالًا!

وَحَرَسَ اللَّهُ سَيِّدَنَا شِهَابَ زَمَانِهِمْ، كَمَا حَرَسَ بِهِ سَمَاءَ دِيَوَانِهِمْ؛ فَلَقَدْ أَسْمَعَنِي
مِنَ الشُّكْرِ مَا أُرِي عَلَى الْأَرْبِ، وَجَعَلَنِي كَحَاجِبٍ حِينَ دَخَلَ عَلَى كَسْرَتِي وَهُوَ وَاحِدٌ
مِنَ الْعَرَبِ تَرَجَّ وَهُوَ سَيِّدُ الْعَرَبِ، وَهَدَيْتَنِي أَنْوَارَهُ وَأَنَا أَخِيطُ مِنْ لَيْلِ الْقَرِيحَةِ
فِي عَشْوَاهُ، وَجَادَتْ عَلَى أَنْوَارِهِ وَنَاهِيكَ بَتْلُكَ الْأَنْوَارِ مِنَ الْأَنْوَاءِ، وَرَفَعْتَنِي الْفَاطَةَ
وَلَكِنِّي عَلَى السَّمَاءِ بِرَغَمِ حُسُودِي الْمَوَاءِ؛ وَهَذِهِ قَصَائِدُهُ فِي تَنْدَارِهَا الْبَيْتَةُ الْأَفْلَامُ،
وَتَكْتَبُ بِأَقْلَاسِ اللَّيَالِي عَلَى مَصْطَحَاتِ الْأَيَّامِ؛ مِنْ كُلِّ بَيْتٍ هُوَ بَيْتٌ مَالٍ لَا يَنْقُصُهُ
الْإِنْفَاقُ، وَلَوْلَا التُّقَى لَقُلْتُ : إِنَّهُ الْبَيْتُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِحُجَّتِهِ الرِّفَاقُ مِنَ الْآفَاقِ؛

فَقِيْ أَنْفَرُخُ لَطَلَبِ مَدَحِهِ ، وَقَدْ شَغَلَنِي بَمَنِّهِ ؟ ، وَقِيْ أَجَارِيهِ بِامْتِدَاحِ وَإِنَّمَا مَدَحِي
لَهُ مِنْ فَوَائِدِ مَدَحِهِ :

وَمَا هُوَ إِلَّا مِنْ تَدَاهِ وَإِنَّمَا * مَعَالِيهِ تُغْلِيْنِي الَّذِي أَنَا كَلْبِيَّةُ !

أَمْ أَتَعْجَبُ مِنْ شَيْءٍ عِثَانِ التَّنَاءِ إِلَيْهِ ، وَجَلَوْتُ عَرَائِسَ الْمَدَاحِ عَلَيْهِ ؛ وَعَادَيْتُ
فِي تَضْيِيدِ أَوْصَافِهِ الْكَرَى ، وَأَضْيَيْتُ بِالْقَلَمِ لَهُ فِي نَهَارِ الْعُرْسِ وَلَيْلِ التَّقْيِيسِ مِنَ السَّيْرِ
وَالسُّرَى ؛ وَمَدَحْتُهُ بِمَلَرٍ فِيَّ وَأَجْتَهَدْتُ فِي وَصْفِهِ وَكَانَ سَوَاءً عَلَيَّ أَنْ أَجْهَدْتُ ،
فِي وَصْفِهِ أَوْ أَجْتَهَدْتُ ؛ بِمَا زَانِي مُجَازَاةَ السَّيَّارِ ، وَأَوْقَعَنِي مِنْ عَنَتِ عَنِي فِي النَّارِ ،
وَجَعَلَ عَاسِيِي إِلَى أَذِلِّ بِهَا ذُنُوبًا فَكَيْفَ يَكُونُ الِاعْتِنَارُ ؟ :

وَكَانَ كَذَنْبِ السُّوءِ إِذْ قَالَ مَرَّةً : * لَعَمْرُوسَةِ وَالذَّنْبُ عَرَّكَانُ مُرْمِلُ :

أَأَنْتِ الَّتِي مِنْ غَيْرِ سُوءٍ شَقَمْتَنِي ؟ * قَالَتْ : مَتَى ذَا ؟ قَالَ : ذَا مَا مِ أَوَّلِ

قَالَتْ : وَلَيْتُ الْآنَ بَلْ رُمْتُ غَدَرَةً * فَدُونَكَ كُلِّي لَا هَذَا لَكَ مَا كُلُّ !

وَحَلَّ هَذَا الْمَرْجَمَ ، وَتَحْقِيقَ هَذَا الظَّنِّ الْمَرْجَمَ ؛ أَنَّهُ بَلَّغَنِي أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الَّذِينَ
اسْتَفْتَيْتُهُمْ اسْتِدْبَاحًا لِقَوَائِمِهِمْ ، وَالتَّيْقَاطًا لِقَرَائِمِهِمْ ؛ لَا تَكْلِيْفًا لَهُمْ فِيمَا لَا يَحُومُ بِهِ إِلَّا
الْأَقْوَمُ مِنَ الْأَقْوَامِ ، وَلَا يُسْتَنْجَدُ بِهِ فِي هَذَا الْوَقْتِ إِلَّا بَارِبَابِ صَفْحَاتِ السُّيُوفِ
لَا أَرْبَابِ قَعَبَاتِ الْأَقْلَامِ ؛ أَرَادُوا النَّصَّ مِنِّي ، وَقِيْ الْإِحْسَانَ عَنِّي ؛ وَهَيْهَاتَ !

* أَنَا أَبُو النِّجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي *

هَئَانًا وَيَقْبَاحِي ، وَهَئِذِهِ يَدِي لَا أَتَى أَقْبَيْتُ بِهَا إِلَى السَّلَامِ وَلَكِنْ لِأَعْرِضَ

صِنَاعَتِي : * هُوَ الْيَمْنَى وَمَقَانِيهِ مَقَانِيهِ *

وَإِنِّهِمْ أَجْتَمَعُوا بِالْمِيدَانِ عَلَى حَدِيثِي ، وَذَكَرُوا قَدِيمِي وَحَدِيثِي ؛ وَتَسَاقَفُوا فِي الْقَبِيَّةِ
أَفْرَاسَ رِعَانٍ ، وَاعْتَجَبَ كُلُّهُمْ أَنَّهُمْ أَنْ يَقُولَ : هَؤُلَاءِ الشُّقْرَاءُ فِي يَدِي وَهَذَا الْمِيدَانُ ؛

وَلَاؤُوا وَمَلَّوْا، وَهَمُّوا بِالسَّبِّ وَقَالُوا، وَأَسْتَطَابُوا لَمْ أَحِبِّمْ فَسَقَوْهُ بِالْبَيْتَةِ حِدَادَ
وَأَكَلُوا؛ حَتَّى تَعَلَّى ذَلِكَ لِي مِنْ جَدِّ عَلَى الْبَلْوَابِ، وَفَضَّلَهُ إِمَّا جَرَاءَ لِلدَّجِّ وَإِمَّا
لِلشَّوَابِ :

قُلْتُ لَهَا عِنِّي جَعَارٍ وَجَرْدِي * بَلِّغِي أُمْرِي لَمْ يَشْهَدِ الْيَوْمَ نَاصِرُهُ!

وَمَا كَانَ الْمَلِيحُ أَنْ يُغْرِي بِي مِنْ سَبْقِ مَدْحِهِ لِي ، وَمَنْ أَنْتَصِرَ بِرِزْمَةِ نَفْسِهِ فَا
أَنْتَصِرَ لَدَى «هَذَا لَمَرَى جَهْدٍ مِنْ لَأَلَةِ جَهْدٍ» وَمَا تَحْلُو هَذِهِ الْأَقْصَالُ : إِمَّا أَنْ تَكُونَ
جُجَازَةً عَلَى مَدْحِهِمْ ، فَإِنَّ الْكِرَامَ وَفَضْلَهُمْ ، وَالْمُنْتَصِفُونَ وَمَدْحُهُمْ ؟ ، أَوْ عَلَانًا أَلَى
عَرَضَتْ بِهِمْ فِيمَنْ عَرَضَتْ ، فَإِنَّ ذِكَا الْأَلْيَاءِ وَأَيْنَ عَقْلُهُمْ ؟ ؛ وَهَلْ تَقْظُنُ السَّيَاءَ
أَنْ يَدَا تَصِلَ إِلَيْهَا ، وَالنُّجُومُ أَنْ خَلَقًا تَحْكُمَ عَلَيْهَا ؟ ؛ وَالنَّهْبُ عَمْرُوسٌ لَا يَصْدَا
جَرْمُهُ ، وَالْجَوْهَرُ مَعْرُوفٌ لَا يَجْهَلُ حُكْمُهُ ؛ وَمَنْ الَّذِي تُعَدِّدُهُ نَفْسُهُ أَنْ يَتَّعِدَ الشَّمْسَ
فَضْلُهَا الطَّائِلُ ، أَوْ يَحْسَنَ لَهُ عَقْلُهُ أَنْ يَقُولَ : تَحْبَانُ وَإِنِّي بَكَافِلٍ ؟ ؛
أَذِرْكُنِي ذَلِكَ الْيَوْمَ وَلَوْ أَمْرَقَ ، وَأُنْجِدْنِي بِكُلِّ لَفْظَةٍ هِيَ أَمْنِي مِنْ السَّهْمِ وَأَرْشَقَ ،
وَأَضَوْهُ مِنَ النَّجْمِ وَأَشْرَقَ ؛ وَمَا أَعْرِفُ كَيْفَ صَبَرِي عَلَى هَذَا الْحَرْبِ فِي صُورَةِ
السَّلْمِ ؟ ، وَمَا أَظُنُّهُ أَرَادَ إِلَّا أَنْ يُعَلِّمَ قَلْبِي الَّذِي فِي يَدِهِ الْحُكْمَ ، كَمَا عَلَّمَهُ لِقَلَمٍ ، وَحَيْثُ
قَضَى الْحَدِيثُ مَا قَضَى ، وَمَضَى الْوَقْتُ وَمَا كَانَ إِلَّا سَيِّفًا فِي عَرْضِ الْعَبْدِ مَضَى :

فَكَّرْتُ تَتَبُّعِيهِ فَمَلَأَتْهُ * عَلَى دَمِهِ وَمَصْرَعِهِ السَّابَا

فَإِنَّا أَنْشَدُ اللَّهَ تَعَالَى هَؤُلَاءِ السَّادَةِ النَّائِيْنِ ، أَوْ الْقَوْمِ الْعَاتِيْنِ ، هَلْ يَعْرِفُونَ أَنَّ
الَّذِي عَرَّضَتْ بِهِ مِنْهُمْ قَوْمٌ قَدْ أَسْتَوْلَوْا عَلَيْهِمُ الْعِيَّ بِجَرِيضِهِ ، وَتَلَّ فِيهِمُ الْجِهَادَ
بَقَضِهِ وَقَضِيضِهِ ؛ وَأَصْبَحَ بِأَيْمِهِمْ لَمْ كَسْتَانِ بِلَا شِمَارٍ ، وَدِيَوَانُهُمْ عَلَى رَأْيِ أَبِي الْعَلَاءِ
كَدِيَوَانِ أَبِي مِهْيَارٍ ؛ لَا يُحْسِنُ أَحَدُهُمْ فِي الْكَاتِبَةِ غَيْرَ الْعَالِمَةِ الْمُدْرَجَةِ ، وَالْمَدْبَةِ الْمُعْجِجَةِ ،

وَالْبَاءَةُ الضَّيْقَةُ وَالْأَتَوَابُ الْمُغْرَجَةُ ؛ وَيَتَأَوَّلُ السَّلَامُ بِالْمَيِّمِ وَكِتَابُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى
بِالشَّمَالِ، وَمَتَى هَذَا عَلَى هَذَا وَلَكِنْ عَلَى الضَّلَالِ، لَوْ سُئِلَ أَحَدُهُمْ عَنْ «الْبَدِيعِ»
فِي الْكِتَابَةِ لَمْ يَعْرِفْ مِنَ السُّؤَالِ غَيْرَ التَّرِيدِ، وَعَنْ «عَبْدِ الْحَمِيدِ» زَادَ فِي الْفِكْرِ وَقَصَّ :
وَعَبْدُ الْحَمِيدِ عَبْدُ الْحَمِيدِ ؛ وَ«الْمَصَاحِبِ» لَقَالَ : إِنَّهُ تَبَرَّقَعَ بِمَجْلِسِي، وَ«الْحَوَازِمِي»
لَقَالَ : سَرَّجُ فَرَسِي، «وَالْفَاضِلُ» لَقَالَ : هَا هُوَ ذَا ذَيْلُ مَلِيْسِي . فَمِنْ كَانَ الْأَمْرُ
كَذَلِكَ فَيَمِيزُ اللَّامَ وَالْفَيْنَ :

عَلَّقُوا الْقَمَمَ الْبُرْأَ * عِةً عَلَى ذِرْوَتِي حَضَنُ^(١)
ثُمَّ لَامُوا الْبُرْأَةَ أَنْ * قَطَعْتُ نَحْوَهَا الرِّسْنَ،
لَوْ أَرَادُوا صِيَابَتِي * حَبَّبُوا وَجْهَكَ الْحَسَنَ !

وَالْوَجْهَ الْحَسَنَ هُنَا وَجْهَ الْمُتَصِيبِ وَجِبَابُهُ عَنْ شَيْءٍ تِلْكَ الْآثَارُ، وَتَحْمِشُ تِلْكَ
الْأَفْصَاطُ .

وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَمَا مِثْلِي مَعَ مَنْ ذَكَرْنِي إِلَّا قَوْلُ الْقَائِلِ :

سَافِرٌ يَطْرُقُكَ حَيْثُ شَفِئْتَ فَلَنْ تَرَى إِلَّا بِخَيْلًا !

فَقِيلَ لَهُ : بَخَلَّتِ النَّاسَ، قَالُوا : كَذَّبُونِي بِوَاحِدٍ . وَهَآئِكَ فَتُكَذِّبُونِي بِوَاحِدٍ مِنْ
عَرَضَتْ، وَصَحِيحٌ مِنْ أَمْرَضَتْ ؛ وَلِيَعْرِزْ إِلَى مَضْجِعِهِ، وَلِيَكُنْ عَلَى يَمِينٍ مِنْ مَضْرَعِهِ ؛
وَلَا يَتْرَكَ شَيْئًا مِنْ أَدْوَاتِهِ، وَلَا يَأْتِي إِلَّا وَمَعَهُ نَادِيَتُهُ مِنْ حَمَائِمِ هَمَزَاتِهِ .

وَأَنَا أَقْرَحُ عَلَيْهِ مِنْ مَسَائِلِ الْكِتَابَةِ بَعْضَ مَا أَقْرَحَهُ الْفَضْلَاءُ، وَنَبَّهَ عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ ؛
وَالْأَفْأَ أَنَا أَبُو عُدْرَتِهِ، وَمَالِكُ إِسْرَتِهِ ؛ وَلَا يُلَوِّمُ إِلَّا الْقَائِلُ :

مَنْ مَحَلٌّ بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ * فَضَحَتْهُ شَوَاهِدُ الْإِمْتِحَانِ !

(١) حَضَنُ جِيلٌ بِأَعْلَى نَحْدِهِ .

فانه الذى نبئى عليه وإن لم أكن ساعيا، وذكري العطن وما كنت تأميا؛ حتى
رميته من هذه المسائل، في مجال، لا يثدى فيها بغير الدن الواقد، وأفتعت
به في محار لا يعصم منها جبل الفكر الجامد؛ على أنها فيا أخفت كائيد من البحار،
واللغة من النهار؛ ولولا الاختصار، لأيت منها بالجمع الجم فلنحمد الله والاختصار،
فأقول :

من كتب في الوريق وأسنبطه ؟ ومن ختم الكتاب بالطين وربطه ؟ ومن قير
طين الكتاب بالنشا وضبطه ؟ ؛ ومن قال : أما بعد في كتابه ؟ ومن جعلها في الخطب
وأقطعها في أبتدائه في المكتبة وجوابه ؟ ؛ ومن كره الاستنباد في مكاتبات الملوك
بالأشمار ؟ ؛ وكيف تركها على ما فيها من الآثار ؟ ؛ ومن الذى أراد أن يكتب ثرا
بهاء شعرا ؟ ؛ ومن وضع هذه الطرة في التقاليد وأخترها ؟ ؛ وما مجته إذ قدمها على
أسم الله ورفعها ؟ ؛ ومن الذى باعد بين السطور ووسعها ؟ ؛ وكيف ترك بالتعاطم
في كتيبه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسمه من التواضع ما وسعها ؟ ؛ ومن
استغنى بكتابة آية من كتاب الله عن الجواب ؟ ؛ ومن آكتفى بيت من الشعر عما
يحتاج من تطويله الكتاب ؟ ؛ ومن الذى عاق المترجمات وربها ؟ ؛ وأخفى ملطفات
الجوايس وغيبها ؟ ؛ ومن الذى سن البرد وبسها في المهمات ؟ ؛ ومن حاك شيئا
من ملك سليمان فاستخدم الطيور في بعض المهمات ؟ ؛ وما أوجز مكتبة كتب بها
عن خليفة في معنى ؟ ؛ وما أبلغ جواب وأوجز أجاب به عن خليفة من لا سنى
ولا كنى ؟ ؛ ولم أرخ هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ؟ وكيف لم يؤرخ بمولده أو غير
ذلك من الأيام ؟ ؛ ومن الذى أمره الخليفة بكتابة معنى فأرّج عليه الكلام ولفقه
في المقام ؟ ؛ ومن الذى وصف برسالة طويلة شيئا لم يصغه بذن ولا نظام ؟ ؛ وكيف
جاز للكتاب أن يكتب آية من الكتاب في لفظة يحسبها من لا يحفظ أنها من عنده

لأن حفظه ؟ ، مثل قوله مع الرسول : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ . وقول الآخر في كتابه : ﴿ هَذَا يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ . وكثير من هذا ؟ وهل يؤخذ عليه في مثل ذلك كما أخذ على الجحّاج في أسماء المستغيثين به من أهل السجن : ﴿ اخْسَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا ﴾ ؟ . وما الفرق بينهما ؟

وعَلَامَ يُطَوَّلُ الْكَاتِبُ بِأَهْلِ السَّلَهِ ؟ ، ولا يُثَبِّتُ إِلَّا قَلِيلًا وَأَوَّ الْحَسْبَةَ ؟ ، ولا يُعْمَلُ وَلَا يُسَمِّلُ عَلَى مَا أَلِفَ ، وَكَيْفَ يُسَمِّلُ فِي بَعْضِ السَّجَلَاتِ عَلَى الْأَسْمَاءِ الْمَقْصُورَةِ بِالْيَاءِ وَالْأَصْلُ فِيهَا الْأَلِفُ ؟ ، وَأَسْأَلُهُ كَيْفَ يَصِفُ الْفَرَاتِيْسَ وَالْأَهْلَامَ وَيَسْتَدْعِيهَا ؟ ، وَالسَّكِينِ وَالنَّوَاةَ وَيَسْتَهْدِيهَا ، وَكَيْفَ يَكْتُبُ مَلِكٌ طَلَبَ مِنْهُ عَدُوٌّ قَطِيعَةً عَنْ جَيْشِهِ يُعْطِيهَا ؟ ، وَكَيْفَ يَكْتُبُ عَنْ خَلِيفَةٍ اسْتَسْقَى وَلَمْ يُطْعَمْ ؟ ، وَخَلِيفَةٍ صَارَعَ فَمِيعَ كَالْمُتَعَمِّمِ وَكَيْفَ يُعَذِّرُ ؟ ، وَمَا الَّذِي يَكْتُبُ فِي نَارٍ وَقَعَتْ فِي حَرَمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ ، وَمَا الَّذِي يَكْتُبُ عَنِ الْمَهْزُومِ إِلَى مَنْ هَزَمَهُ فِي مَعْنَى رُكُونِهِ إِلَى الْإِحْجَامِ ؟ ، وَكَيْفَ يُبَيِّنُ خَلِيفَةُ خُلُوعِ فَرَجٍ ، وَغُرْبَ عَنِ السَّجْنِ وَطَلْعَ ؟ ، وَأَسْرَهُ الْمُدْرُومِ تَخْلُصَ وَاسْتِقَامَ بَعْدَ مَا نَهَضَهُ النَّهْرُ بِمَرَضٍ ، أَوْ تَمَرَّضَ فَأَنْتَهَضَ ؟ ، وَكَيْفَ يُبَيِّنُ مِنْ زَوْجٍ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ أُمَّهُ ، وَيُعْزِي وَالِدًا قَتَلَ وَلَدَهُ وَوَلَدًا قَتَلَ وَالِدَهُ وَيُصَوِّبُ حُكْمَهُ ؟ ، وَيَكْتُبُ عَنِ حَاصِرٍ حَصَنًا وَتَرَكَ بَعْدَ تَسْهِيلِ الْمَسَالِكِ ، وَكَيْفَ يَكْتُبُ فِي نَيْلٍ لَمْ يُوفَ لَا أَحْوَجَ اللَّهُ لَذَلِكَ ؟ ، وَيُعْزِي كَافِرًا مِنْ بَعْضِ الْأَعْزَاءِ الْأَزْرَامِ ، وَيُبَيِّنُ عَهْدَ يَهُودِيٍّ بِوِزَارَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؟ ، وَيَكْتُبُ تَقْلِيدًا لِلْإِمَامِ أَوْ أَرْبَعَةً مِنَ الْحُكَّامِ ، وَيَسْتَعِيدُ بِأَمْوَالٍ أَوْ مَسَاكِينٍ ؟ (من عَدُوٍّ كَافِرٍ عَلَى كَافِرٍ؟ وَيُثَرِّعُ عَدُوًّا بِأَخِيذِ بِلَادِهِ مِنْهُ ، وَيَتَذَكَّرُ عَنْ مَلِكٍ أَخَذَتْ شَوَانِيهِ وَحُجِرَتْ عَنْهُ ؟ ، وَيُبَيِّنُ خَصِيًّا بِزَوَاجِهِ ، وَيَتَذَكَّرُ عَنْ فَرٍّ وَتَرَكَ وَلَدَهُ تَحْمُكُ الظُّلْمِ فِي أَوْدَاجِهِ ؟

وَيَكْتُبُ لَكَ بَنَى مَبَانِي فَأَحْتَرَفْتُ أَوْ وَقَعْتُ ، أَوْ أَجْرَى خِيُولَ وَهَانَ فُسِقَتْ خَيْلُهُ
وَأَقْطَعْتُ ؟ ؛ أَوْ نَرَجَ لَصِيدَ فَلَمْ يَحْذَ مَا يُصَادُ ، أَوْ لَبَزَتْ بِنْدَقَ أَحْتَفَلُ فِيهَا وَلَمْ يَصْرِغْ
شَيْئًا مِنَ الْوَاجِبِ الْمُنَادِ ؟ ؛ أَوْ رَكِبَ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ تَمَلُّكِكَ فَقَطَّرَ بِهِ الْجَوَادُ ،
أَوْ وُضِعَتْ لَهُ أَتَى فَضَّلَهَا بِكَلَامٍ عَلَى مَا يَرْجُوهُ مِنْ ذُكُورِ الْأَوْلَادِ .

وَمِنْ هَهُنَا أَكُفُّ الْقَلَمِ عَنْ شَوِطِهِ ، وَأَرْفَعُ عَنْهُ مَا وَضَعَهُ اللِّسَانُ مِنْ سَوِطِهِ ؛
خَوْفًا مِنَ اللَّيْلِ وَالصُّبْحِ ، وَكَثْفًا بِالْقِرْفَةِ عَنْ مَعْرِفَةِ النِّهْرِ

فَإِذَا تَنَسَّطَ هَذَا الْكَاتِبُ مِنْ هَذَا الْعِقَالِ ، وَتَصَرَّفَ فِي فُنُونِ هَذَا الْمُقَالِ ، وَتَرَجَّ
مِنْ هَذِهِ الْأَمْثِلَةِ خُرُوجَ السَّيْفِ مِنَ الصِّقَالِ ؛ أَتَدَتِ كُفُّ التُّرَاثِ فِي هَذَا النَّبِيَانِ
بِمَسْحِ جَبْهَتِهِ ، وَجَاءَ بِجَوَابِ هَذَا التَّكْتِ كَمَا يُقَالُ : بِرَمْتِهِ ؛ (؟) وَأَمَّا طِلَافُهَا ،
وَتَشَمُّرُ عَنْ أَزْهَارِهَا أَكْثَمَهَا - أَقْطَعْتُ الْأَطْلَاعَ دُونَ غَايَتِهِ ، وَبُسِطَتْ أَيْدِي رَسَائِلِ
الْبُلْبُلِ لِبَاقِيَةِ رَسَائِلِهِ ، بَلْ أَتَتْهُ وَحَمَلَتْ قَلْبَهُ عَلَى أَفْلَامِ فُرْسَانِ الْكَلَامِ سَوْدَاءَ وَارِيَةٍ ؛
وَبَانَ هُنَاكَ ظُلْمُ الْعَائِبِ وَحِفْظُهُ ، فَكَانَ كَمَنْ سُلِّ لِنَعْرِهِ سَبْقُهُ ؛ وَعُدِرَ عَلَى تَوَالِي
التَّائِيْبِ مُؤَيَّبُهُ ، وَكَانَ يَوْمِئِذٍ لَهُ الْوَيْلُ لِأَمِنْ يُكْذِبُهُ ، وَأَمَّا هَذَا الْفَاضِلُ بِمَا تَحْدِثُهُ
هَذِهِ الْوَاقِعَةُ مِنَ الْفَخْرِ وَتَجَلُّبِهِ :

فَعَاجُوا فَاثْقَسُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ • وَلَوْ سَكَنُوا أَثْنَتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ !

وَالْمَسْئُولُ مِنْ إِحْسَانِ سَيِّدِنَا أَنْ يَسُدَّ الْخَلَلَ كَيْفَ مَا وَجَدَهُ ، وَيُصْلِحَ الْخَطَأَ وَأَنْخَطَلَ
كَأَمْوَدِهِ مِنْهُ وَكَأَمْوَدِهِ ؛ فَإِنَّهُ أَمِيرُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَنَحْنُ الرُّطَايَا ، وَشَيْخُ الْقَصَاحَةِ
وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ كُنَّا وَجَدْنَا فِي زَوَارِيهَا مِنْهَا خَيَابًا ؛ وَمَا هَذِهِ الرَّمَالَةُ إِلَّا يَدٌ
أَمْسَدَتْ تَسْأَلُ مِنَ الْحِلْمِ مَا يَسْتَمُهَا ، وَهَذِهِ السُّطُورُ إِلَّا حَبَائِلُ تَنْصِيدُ مِنْ عَوَائِدِهِ
مَا يَنْقَعُهَا وَيَرْفَعُهَا :

فَأَرْجُحُ عَلَيْهَا سِرَّ مَعْرُوفِكَ الَّذِي • سَتَرْتَ بِهِ قِدَمًا عَلَى عَوَارِي !

والله تعالى العالم أنها وردت عن قلب مذهول عن حسن الإيمان، مُعَلِّد عليه نوايب البحر بأنامل الخفقان؛ مرمى يساهم الأعدى في قيسى الضلوع، غائص في بحر المم وكما رمت أن يُلقَى إلى درّ الكلام التي درّ الدموع :

أبكي فتجري مُهَجَّتِي في صبري * وَكَانَ مَا أَبْكَيْتُهُ أَبْكَانِي !

لا يدع لي الفكر في قلبي ...^(١) ... الإخوان وقتاً استلبط فيه معنى، ولا يُفصح لي التَّجَسُّب من أبناء الزمان لتقصيم أن أضحَّ قَدْماً ولا وزناً؛ أجنح ليلم الأيام فكأنِّي لمربها جَنَحَتْ، وأقْدَح فكرتي في استعطاف الزمان فكأنِّي فيه قد قدَحْتُ، فلو قضى الله لي بالمنية من المنية لأرَحْتُ الزمان وأسَرَحْتُ :

فالأرض تملأني مُتَصَرِّف * من فوقها وكأني من تحتها!

ولا أفرق فيما بيننا غير أننا * بمس الأذى تدرى ومن مات لا يدرى!

ولا بد لي أن أطلق هذه الصنعة طلاقاً قطعياً، لا طلاقاً رجعياً؛ وأجَاهِرُهَا جِهَاراً حَرِيّاً لا جِهَاراً عَيْناً؛ وأضع صعدة حملها من أدب عن بدني، وأتولى قوس داله مع سهم بانها فما أصبت غير كيدى؛ «كأنما القوس منها موضع الوتر»، «وقلتُ أخفي يا صبور بسلام» فإذا لقيت من آفاتنا، ومُنِيت به من الخوف في عرفاتنا، ومُطِرِت لأم عوارض قطرها ولكن من عوارض مُرِجَفَاتنا :

وإني رأيت الحب في القلب والأذى * إذا اجتمعما لم يلبث الحب يذهب!

ومع هذا الحديث لم أشك أن أحداً سَيَتَقَدُّ على تشبيهي، وطرفه قديمة في استيفاح المكاتبة، واستنباح المخاطبة؛ ويقول: تلك أمة قد حلت، ودونة فاضلية أدبرت مثل ما أقبلت؛ فكيف تبعها وترك طريفة فضلاء عصره، وأبناء عصره؛ فالجواب

(١) يياض بالأصل ولله : «صفاة الاعوان» أو غيره .

ما قاله القاضي السعيد بن سناء الملك رحمه الله تعالى ، فإ كان أسعدَ خاطره ! ،
وأكثرَ ذهبَ لفظه وجواهره !! :

إني رأيتُ الشمسَ ثم رأيتها * ماذا على إذا عثقتُ الأحساء !

وذكرت أن الاس مدره ونسيت أن الاس أصلها .

اتمت إلى هذا الموضع ، والديك قد نعى بيبه الظلام ، وبلغ عن الصبح السلام ،
والأزهار قد سلبته عينه فقام من كراه يصبح ، وميدان النضون قد أضمحبت بمغنى
الطيار وشغب الريح ، ونسر السماء قد قر من الفسادة وبازيها ، والنجوم قد حلت
إلى ملحقها من القرب على نعوش دياجيا ، والمجرة من الجوزاء عاطلة الخصر ،
وحاقان الصبح قد حمل على تجاشي الظلام راية النصر .

لابح سيدنا مقصوم الروية والأرتجال ، مسجلا بشجاعة البراعة والحرب مجال ،
محمود المواقف والمساعى "والنفس قع والطروس مجال" ، والسلام .

الصف السادس

(من الرسائل ما تكتب به الحوادث والمآثرات)

ويختلف الحال فيما باختلاف الوقائع : فإذا وقعت للأديب مآثرية وأراد
الكتابة بها إلى بعض إخوانه ، حكى له تلك المآثرية في كتابه مع تنميق الكلام
في ذلك ، إما ابتداءً وإما جواباً ، عند مصادفة ورود كتابه إذ ذاك إليه .

وهذه نسخة رسالة أنشأها الإمام قاضي قضاة المسلمين محي الدين ، أبو الفضل
يحيى ، بن قاضي القضاة الإمام محي الدين أبي المعالي محمد ، بن علي ، بن محمد ،

(١) وردت هذه الجملة في الأصل هكذا ولا معنى لها .

ابن الحسين، بن علي، بن عبد العزيز، بن علي، بن الحسين، بن محمد، بن عبد الرحمن،
 ابن القاسم، بن الوليد، بن القاسم، بن عبد الرحمن، بن أبان، بن عثمان، بن عفان
 رضي الله عنه، لما ورد إلى القاهرة المحروسة في التاسع من جمادى الأولى من سنة
 تسع وعشرين وسقاة، وتعرف "برسالة الشمس" وهي :

وردت رُقعة سَيِّدَتَا أَسْمَدَهِ اللهُ بِتَوْفِيقِهِ، وَأَوْفَعَ فِي آكْسَابِ الْخِيَرَاتِ سُبُلَ
 طَرِيقِهِ، فَوَقَّعْتُ عَلَيْهَا وَقُوفَ السَّائِرِ بُوْرُودَهَا، الْمُسْتَعِدَّ بُوْرُودَهَا، الْمُبْتَهِّلَ إِلَى اللهِ
 فِي إِفَاءِ مَهْجَتِهِ الَّتِي يَشْتَرُفُ الْوُجُودَ بُوْرُودَهَا :

وَلَيْسَ بِتَرْوِيحِ السَّانِ وَصَوْغِهِ • وَلَكِنَّهُ قَدْ مَازَجَ الْحَمِّ وَالذَّمَّ !

وَقَفَضَتْهَا عَنْ فِئْلِ التَّوْبِ فَفَتَحَهُ الصَّبَا، وَبُرُودِ الرِّايِضِ تَسَامَتْ فِي آكْسَابِ
 وَشِبَا الْأَهْضَابِ وَالرَّيَا، يَكْبُو جَوَادُ الْبَلِغِ فِي مِضَارِ وَصِفِهَا، وَفِيهِ غَضْبُ لِسَانِهِ
 عَنْ جَارَاتِنَا فِي رَضِيفِهَا، يُجِيلُ حُمَا النَّهَارِ بِيَاضِ طَرَسِهَا، وَيُودُّ اللَّيْلُ لَوْ قَفَضَتْ عَلَيْهِ
 صِبْغَةَ نَفْسِهَا، وَنَحْسُدُ الْكَوَاكِبُ رَائِقَ مَعَانِهَا، وَتَمْتَحِي لَوْ أُصِيرَتْ فَضْلَ إِشْرَافِهَا
 وَتَلَايِهَا، فِي كُلِّ فِغْرَةٍ رَوْضَةٌ وَكُلُّ مَعْنَى كَأَسْ مُدَامَ، وَكُلُّ أَلِفٍ سَائِقٌ وَكُلُّ سِينٍ
 طَرَّةٌ فَلَامٌ، وَكُلُّ وَاوٍ عَطْفَةٌ مُسَدِّغٌ وَكُلُّ تُونٍ تَقْوِيْسٌ حَاجِبٌ، وَكُلُّ لَامٍ مَشْقَّةٌ
 عِزَارٍ وَكُلُّ صَادٍ خَطَّةٌ شَارِبٌ، يُصْهَبُ مِنْ سَامِعِهَا أَفْعَى مَا يُرَادُ بِالْفَتْحِ فِي الشُّقْدِ،
 وَتَسْتَوِي بِقَطْعِهَا عَلَى لُبِّهِ آسِتِلَاءُ الْحَوَادِ عَلَى الْأَمْدِ .

فَلَمَّا أَجِطْتُ مِنْهَا الْمَتَانِ الْمُتَبَيِّنَ فِي اللَّفْظِ الْمَوْجِزِ، وَأَجَلْتُ طَرَفَ مِنْهَا مَا بَيْنَ
 تَرْغَمَةِ الْمُطْمَعِينَ وَعُقْلَةِ الْمُسْتَوْفِزِ، وَأَسَلْتُ قِيَادِي إِلَى خَيْرِهَا الْمُحَلَّلِ وَإِنْ جَنَى قَتْلَ
 السَّائِقِ الْمُتَحَرِّزِ - عَلِمْتُ أَنَّ سَيِّدَتَا أَجْرَى فِي حَلَةِ السَّابِقِ غَارَ قَصَبِ سَيْفِهَا،

وَوَلَّتْ لَهُ الْبَلَاغَةُ فَنَوَّلَ فِي شِعَابِهَا وَمَطَرُهَا ، وَحُكَّتْ يَدُهُ أَعِنَّةَ الْفَضَائِلِ فَسَلَّتِ
لِلْقَوْسِ إِلَى بَارِيهَا ، وَدَرَجَاتِ الْعُلَى إِلَى مُسْتَحَقِّهَا ، فَنَ وَائِلَ ؟ وَمَنْ تَحْبَانِ ؟ ، وَمَنْ
عَبْدُ الْحَمِيدِ ؟ وَأَبْنُ صُوحَانَ ، وَأَيُّ خَبِيرٍ يَقَابِلُ الْبَيَانَ ؟ وَمَنْ يُقَالِمُ مَا هُوَ كَائِنْ بِمَا
كَانَ ؟ . فَسَالَتْ خَاطِرِي الْجَامِدَ أَنْ يُجَارِضَ بِوَابِلِهِ طَلَهَا ، وَأَنْ يُجَابِلَ بِجُمَانِهِ ظَلَهَا ،
وَأَنْ يُجَارِيَهَا فِي حَلَّةِ الْمَسَاجِلَةِ وَإِنْ دُعِيَ بِالسَّكَيْتِ ، وَلَقَدْ اسْتَمَعْتُ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا
وَكَيْفَ يُنْطِقُ مِنْ مَيِّتٍ ، وَأَيُّ يُطْمَعُ فِي مُجَارَاةِ الْبَحْرِ وَلَاتَ حِينَ لَمَلَّ أَوَّلَيْتَ ،
فَوَجَدْتُهُ أَصْلَدَ مِنَ الصَّخْرَةِ سَاءًا ، وَأَلْقَيْتُ بِأَقْلَامِي لَدَيْهِ قَسًا ، فَمَا كُلُّ مَنْ طَرِقَ قَرِيءٌ ،
وَلَا مَنْ إِذَا خَلَقَ قَرِيءٌ ، وَهَذَا الْمَعْهُودُ مِنْ خَاطِرِي إِذَا كُنْتُ جَانِمًا فَكَيْفَ وَقَدْ نَضَبَ
مَاؤُهُ وَكَدَرَتِ الْحَوَادِثُ بَحْرَ عَلَيْهِ وَالنَّيِّرَ ، فَمِنْ دُونِ أَنْ تُسْتَخْرَجَ مِنْهُ الْفُرُورُ أَنْ يَلِيَنَّ
لِضَرْسِ الْمَاضِغِ الْحَجَرِ ؛ فَبَذَلَ جُهِدَهُ لِمَا شَغَبَتِ الْمُمُومُ سُلْبُهُ ، وَتَمَنَّعَ بِالْخَلْقِ مِنْ
لَا جَلِيدَ لَهُ .

هَذَا مَعَ رَاقِيَةِ وَقَعَتْ لَهُ فَاصِصٌ مُنْتَشِتًا ، وَتَمَّ عِنَانَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَيْهَا مُنْتَظًا ؛
وَذَلِكَ أَنَّهُ فِي بَارِحَتِهِ أَسْتَوَى عَلَيْهِ الْقَلَقُ بِسُلْطَانِهِ ، وَأَسْتَلَبَتْ يَدُ الْأَرْقِ كَرَاهٍ مِنْ بَيْنِ
أَجْفَانِهِ ؛ كَأَنَّهُ سَاوَرَتْهُ ضَلِيلَةٌ تُسَمَّى نَاقِصَ ، أَوْ مَدَّتْ إِلَيْهِ خَطَاطِيفُ مُجْنٍ لَهَا أَيْدِي
الْمُخْطُوبِ تَوَازَعُ :

إِذَا اللَّيْلُ الْهَسَى قَوْهَ * تَقَلَّبَ فِيهِ قَتَى مُوجِعُ

فَتَارَةً فِكْرُهُ مُتَوَجِّهَةٌ مُخَوِّقَةٌ حَطْلَهُ ، وَأَوْنَهُ لَا يَقَعُ إِلَّا عَلَى مَا يَحْدِفُهُ طَارِفُ لَحِظِهِ ؛
وَإِنْ يَدُ الْخَوْلِ قَدْ أَسْتَوَتْ عَلَيْهِ ، وَأَزِمَةُ الْمَطَالِبِ صُرِفَتْ عَنْهُ وَحَقُّهَا أَنْ تُصَرَّفَ
إِلَيْهِ ، وَالسَّعَادَةُ شَارِدَةٌ عَنْهُ وَمَا أَجْدَرُهَا أَنْ تُطْلِفَ بِنَابِهِ وَتُسْتَفْرِقَ بَيْنَ يَدَيْهِ :
لَنْ كَانَ أَذَلُّ حَائِلٍ قَسَمْدَرْتُ * عَلَيْهِ وَكَانَتْ رَادَةً فَتَخَطَّتْ ،

لَمَّا تَرَكْتَهُ رَغْبَةً عَنِ حَبَالِهِ * وَلَكِنَّمَا كَانَتْ لِأَخْرَجْتَ!!

ولقد جاهد في سلم الدهر وهو يُمارِبُهُ، «وَكَيْفَ نُوْقِي ظَهْرَ مَا أَنْتَ رَاكِبُهُ؟» فما شَامَ بَارِقَةَ آمَلٍ إِلَّا أَخْفَقَتْ وَرَجَعَ بِحَقِّي حُثَيْنَ، وَقَرَّتْ أَصْبُنُ أَتَادِيهِ كَمَا سَخِنَتْ مِنْهُ الْعَيْنُ، فَلَقَدْ أَصْبَحَ أَفْرَغَ مِنْ حُجَامٍ سَابَاطٍ وَإِنْ كَانَ «أَشْفَلَ مِنْ ذَاتِ النَّحْيَيْنِ».

وكما تأمل جملته المائر التآكس، ونظير رزقه الناضب الناقص؛ وقابله الدهر بالوجه المابس الكالج، ومضى نفسه عُنَى يَوْمٍ صَالِحٍ، رَجَعَ طَلِبًا فَنَى لِي بِالسَّائِحِ بَعْدَ الْبَارِحِ؟؛ وَنَاجَى نَفْسَهُ بِإِعْمَالِ الرَّاكِبِ، وَالْأَضْطِرَابِ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، وَأَنْ يَرَى بِالْجُودِ طَلْعَةَ نَائِرٍ وَبِالْعَرِيسِ غُرَّةَ آئِبٍ؛ وَيَصِلَ التَّهْمِيرَ بِالسُّرَى، وَيَبْتَ مِنْ قَيْدِ الْأَوْطَانِ مُوْتَقَاتِ الْعُرَى؛ وَإِنْ كَسَلَتْ فَضِيلَةُ مِنْ فَضَائِلِهِ، أَوْ رَثَتْ وَسِيلَةُ مِنْ وَسَائِلِهِ، اِكْتَسَبَ بِأَخْرَى مِنْ أَخْوَاتِهَا، وَتَفَتَ فِي عُنْدِهَا وَمَتَّ بِهَا وَقَالَ: أَنَا أَبْنُ يُجْدِنِي، فَلَا أَمَّ وَعَلَامَ وَحَقِّي مَتَى، أَجَاوِدُ مِنْ أَنَا فَيَهْمُ أَضِيعُ مِنْ قَرِّ الشَّنَاءِ؟ وَحَالِي أَظْهَرُ مِنْ أَنْ يُنَامَ عَلَيْهِ دَلِيلُ، وَ«إِذَا ذَلَّ مَوْلَى الْمَرْءِ فَهُوَ دَلِيلُ»:

وَمَا أَنَا كَالْعَصِيرِ الْمُقِيمِ بِأَهْلِهِ * عَلَى الْقَيْدِ فِي مَجْبُوحَةِ الدَّارِ يَرْتَعُ!

ثم استهول تَعَمُّمُ الْإِغْوَارِ وَالْإِنْجَادِ، وَأَسْتَفْتَحَ لِقَادِحِ زَنَادِ الْحِظِّ الْإِكْدَاءَ وَالْإِضْلَادَ، وَأَقُولُ: أَخْطَأَ مُسْتَعْمِلُ أَوَاكِدَ؛ فَاتُوبُ مَتَابَ مِنْ حَلَبِ الدَّهْرِ أَشْطَرَهُ، وَأَخَذَ إِذَا أَرْتَقَعَ عَنِ الدُّنْيَةِ مِنْ حَظِّهِ أَيْسَرَهُ، وَبَنَى كَمَا بَنَى سَلَفُهُ وَقَرَّرَ مَا قَرَّرَهُ؛ فَأَقُولُ: أَرْفُضُ الدُّنْيَةَ وَلَا تُلَوِّعُ عَلَيْهَا، فَتَكُونُ «أَحَقَّ مِنَ الْمَهْوَرَةِ إِحْدَى خَدْمَتَيْهَا»، «فَالْمَرْءُ تَجُوعٌ وَلَا تَأْكُلُ بِدُنْيَاهَا»:

وَلَسْنَا بِأَوَّلَ مَنْ فَاتَهُ * عَلَى رِفْقِهِ بَعْضُ مَا يَطْلُبُ.

وَقَدْ يَدْرِكُ الْأَمْرَ غَيْرَ الْأَرِيبِ * وَقَدْ بَصُرَ الْحِسُولَ الْقَلْبُ!

وَنَارَةٌ يَخْطُرُ أَنْ لَوْ شَكَوْتُ حَالِي إِلَى أصدقائي مِنْ قَوِي الْجَاهِ ، وَسَائِهِمْ بِالْحَالِي
بِهِمْ فِي الْأَيَّامِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وَأَحْضُهُمْ عَلَى آتِنَازِ فُرْصَةِ الْإِحْسَانِ قَبْلَ الْقَوْتِ ،
وَأَضْرَبُ لَهُمْ : "أَعَيْنَ أَخَاكَ وَلَوْ بِالْصَوْتِ" فَلَيْسَ عَلَى مِثْلِي مِنْ يُخَيِّفُهُ النَّهْرُ فِي ذَلِكَ
مِنْ جُنَاحٍ ، "وَهَلْ يَنْهَضُ الْبَايَزُ بِغَيْرِ جُنَاحٍ" ، ثُمَّ أَرَى أَنَّهُمْ لَوْ فَضَّلَ عَنْهُمْ شَيْءٌ لَجَادُوا ،
بَلْ لَوْ زُوِيَتْ الْأَرْضُ لَهُمْ لَأَزْدَادُوا ، وَلَوْ مُلْكُوا ظَلَّ اللَّهُ لِأَصْبَحَتْ لِسَيْمِ ضَاحِيَا ،
وَمَا حَالِي بِخَافٍ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بُرْغَانِيَا مُتَدَايَا ، وَقَبْلِي بَقِيَ عَلَى الْأَمْرِ فَنَاءَهُ وَأَدْرَكَ الْيَسَدُ
السَّيِّدَ مُعَاوِيَا ، وَإِنِّي كَمْ أَعْلَى تَطْلِيلِ الْفَيْطِمِ بِالْخَضَابِ :

سَيِّتُ الْمَيْتِ حِينَ رَأَيْتُ تَهْرِي * يُكَلِّفُنِي التَّذَلُّلَ لِلرِّجَالِ !

وَأُخْرَى يُسَلِّي نَفْسَهُ عَنْ مُصَابِيهَا وَمَصَائِبِهَا ، وَيُنَبِّئُكَرُّ الْأَيَّامِ بِتَقَاتِهَا ، وَيَقْصُ
عَلَيْهَا تَقَلُّبَ اللَّيَالِي بِالْأَيَّامِ الْمَاضِيَةِ فِي قَوَالِيهَا ، وَأَنَّا مَا قَدَّمْتُ لِأَحَدٍ سَعَادَةً إِلَّا عَقَّبْتُهَا
بِتَغْيِيرٍ ، وَمَا سَقْتُ صَفْوَةَ الْأَمَانِي بَشَرًا إِلَّا شَابَتْ كَأْسُهُ بِتَكْدِيرٍ ، وَأَنْ سَبِيلَ كُلِّ أَحَدٍ
مِنْهَا سَبِيلٌ ذِي الْأَعْوَادِ ، وَقُصَارَايَ وَلَوْ أَخَذْتُ الْأَرْضَ مَسْكًا وَأَهْلَهَا حَوْلًا سَبِيلُ
رَبِّ الْقَصْرِ مِنْ سَنَدَادٍ ، وَلَوْ عَمَّرْتُ عُمرُ نُوحٍ كُنْتُ كَأَنِّي وَأَدَمُ وَفَتْ الْوَفَاةَ عَلَى
مِيَادٍ ، فَإِنْ شِلْتُ فَارْقَعَ عَصَا التَّسْيَارِ أَوْضَعَ ، فَهُوَ إِلَّا : "حَارِبٌ يَجِدُ أَوْدَعَ" .

فَبَيْنَا أَنَا أُنْعَمُ فِي هَذِهِ الْخَوَاطِرِ مُتَفَكِّرًا ، وَأَفْرَعُ مِنَ النَّدَمِ عَلَى تَقْصِي عُمرِي فِي غَيْرِ
مَا رِي مُتَحَسِّرًا ، وَأَتَسَلَّى بِمَصَارِعِ الْأَوَّلِينَ أُخْرَى مُعْتَبَرًا ، وَلَوْ أَتَجَزَّيْتُ الْأَيَّامَ مُوَاعِدَةً
عُرْفُوبٍ ، لَأَفْقَسْتُ بِي إِلَى أَحَلِّ مِنْ مِيرَاثِ السَّيِّدَةِ الرَّقُوبِ ، وَلَقَدْ تَقَاعَسَ أَمَلِي حَتَّى
قَنَيْتُ بِحَالِي "وَشَرُّ مَا لَحَاكَ إِلَى حُجَّةِ عُرْفُوبٍ" بِهَمِّ يُحَاطِي بِحَيَايَ بَانَ تَهْتَبُ وَأَصْبَرُ ،
فَالْيَلُ طَوِيلٌ وَأَنْتَ مُقِيمٌ ، فَتَبْلُغُ بِكَ الْأَسْبَابُ ، وَيَتَبَيَّنُ بِكَ إِلَى الْفَقْدِ الْيَكْثَابُ ..
فَلَا تَعْمَلْ بِحَقَرٍ الْمَذَكِّيَاتِ غَلَابِ .

فاسْتَرْوَحْتُ لِمَا قَتَحَ بَابُ كَانَ مُرْتَجَا ، وَأَزْدَتُ بِأَسْجَلَاءِ عَمَّا السَّهْلَاءِ مِنْ بَعْضِ
 هَمِّي قَرَجَا ، وَأَنْتَشَقْتُ مِنْ نَيْسِ السَّحَرِمَا وَجَدْتُ بِهِ مِنْ ضَيْقِي فَكَّرِي عَجْرَجَا ؛
 فَتَحْتُهُ عَنْ شُبَاكِ كَتَخَطِيطِ الْأَوْفَاقِ ، أَوْ كُرْغَمَةِ شَطْرِ نَجْمٍ وَضَعْتُ بَيْنَ الرِّفَاقِ ؛
 أَلَيْسَ مِنْ صِبْغَةِ اللَّيْلِ شِعَارَا ، وَأَتَّخِذُ لَأَسْجَلَاءِ وَجْهَ النِّزَالَةِ نَهَارَا ؛ جَلَدِي عَلَى الْقِيَامِ
 وَالْكَدِّ ، صَبُورٍ عَلَى الْحَالَتَيْنِ فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ ؛ يُحَوِّلُ جُحَنَانَ الْمَرْءِ عَمَّا وَارَاهُ ، وَيُبَيِّعُ
 إِنْسَانَ الْغُرُوفِ رَدْعَى حِمَاهُ ؛ يُدِيلُ مِنْ غُلْمَةِ اللَّيْلِ ضَوْءَ النَّهَارِ ، وَيَبِيحُ بِمَا اسْتَوْدَعْتَهُ
 مِنَ الْأَسْرَارِ ؛ يُشْرِفُ إِلَى غَيْضِيَّةٍ قَدْ أَلْتَفَتْ أَشْجَارُهَا ، وَتَهَدَّلَتْ يَمَارُهَا ، وَرَقَعَتْ
 أَغْصَانُهَا لِمَا غَنَّتْ أَطْيَارُهَا ، وَأَطْرَدَتْ بِصَافِي الزُّلَالِ أَنْهَارُهَا ، وَتَمَتْ بِعَرَفِ الْعَتِيرِ
 الشَّجَرِي أَنْهَارُهَا ؛ وَقَدْ قَامَتْ عَرَائِشُ النَّارِ نَجْمٍ عَلَى أَرْجُلِهَا ، تَحْتَالُ فِي حَلْمِهَا وَحُلْمِهَا ؛
 قَدْ أَلْسَتْ مِنْ أَوْرَاقِهَا خَلْعًا خَضِرًا ، وَحَلَّتْ مِنْ يَمَارِهَا نِيرًا ؛ وَنَظَمَ قَدَاحُهَا
 فِي جِيَادِهَا لَوْلَوْ رَطْبًا ، وَرَدَّهَا نَيْسُ السَّحَرِ فَا لَتْ عَجْبَا ؛ وَقَدْ مَدَّتْ فِي أَرْضِهَا
 مِنَ الْبَنْسَجِ مَفَارِشَ سُنْدُسٍ فُرُوزَتْ بِالْجَدَاوِلِ ، كَيْسَاطٍ أَخْضَرَتْ أَيْدِي الْقِيُونِ
 عَلَيْهِ صَقِيلَاتُ الْمَعَاوِلِ ؛ وَقَدْ حَدَقَتْ عُيُونُ الرِّبَاءِ مِنَ الرِّجْسِ قَائِمَةً عَلَى سَاقِ ،
 وَلَيْعَبَتْ بِهَا يَدُ النَّيْسِ قَتَائِلَتْ كَيْفَاتِي الْحَيَّيْنِ عِنْدَ الْفِرَاقِ ، فَاجْتَلَيْتُ عَمَّا وَسِيمًا تَقْلُجُ
 أَمْرُهُ ، وَمَنْظَرًا جَسِيمًا تَرَوُّهُ بِهَجْنِهِ ؛ قَدْ مَدَّ السَّيَاطِلُ بِسَاطًا أَرْوَقًا ، بُرْهَرِ الْكَوَاكِبِ
 مُشْرِقًا ؛ وَطَرَزَهُ بِالشَّقَقِ طِرَازًا مُنْعَمًا ، وَأَبْدَى تَحْتَهُ لِلْأَصْبَاحِ مَقَرِّقًا أَشْيَا :

وَرَدْتُ قَيْصُ اللَّيْلِ حَتَّى كَانَهُ • سَلِيبٌ بِأَنْفَاسِ الصَّبَا مَسْوَعٌ ،
 وَرَقَعَ مِنْهُ الذَّلِيلُ صُبْحُ كَانَهُ • وَقَدْ لَاحَ تَخَفُّسُ أَشْفَرِ اللَّوْنِ أَجْلَعُ ،
 وَلَاحَتْ قِيَمَاتُ النُّجُومِ كَانَهَا • عَلَى كَيْدِ الْخَضِرَاءِ تَوَرُّدُ مَسْحُ ؛

وَجَنَحَ الْبَدْرُ لِلْغُرُوبِ فَدَاعَتْ الْكَوَاكِبُ تَبَعَهُ كَوَاكِبًا فَكَوَاكِبًا ، فَكَانَهُ مَلَكٌ اتَّخَذَ
 الْحَبْرَةَ عَلَيْهِ مَضْرِبًا ؛ وَتَوَجَّجَ بِالْأُثْرَا إِكْلِيلًا ، وَغَنَّتْ الْكَوَاكِبُ بَيْنَ يَدَيْهِ تَوَقِيرًا لَهُ

وتجسلا ، وأصطقت حوله خدما وجنودا ، ونشرت من أشتها ألوية وبؤدا ،
وأخذت مقاماتها في مرا كرها بجوش عجلت للقاء متاجرها ، وساقها أخذ فرصة
النصر ومناجزها :

ولاح سبيل من بعيد كأنه • شهاب يهيه عن الرج قاس!

وأبصر نسم السحر عيلا ، وجر على أطلال الأزهار ذبلا يلبا ، وردى أحاديث
الرباض بلسان نثره ، مديبا لأسرار تحرامه وزهره ، وغردت خطبه الطير على متار
الأغصان ، واستبطت من قلوب المحبين دقات الأنفان ، وحث داعي الفلاح ،
طائفة الثقي والصلاح ؛ على أن تؤدى فرضها وفلها ، وترقى بمضوعها بين يدي
مولاه درجات السعادة التي كانت أحق بها وأهلها ، وهف بشير النجى عن أحبا
لبنه لما تمزق قميص الليل وأقوى : "عند الصبح يمد القوم الشرى" .

فينا أنا أفكر في أن جملة ما عاينته سيصبح زائلا ، وعن تلك الصبغة الحسية
حائلا ، وأتدبر : (ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا)
إذ أهدت إلى الأيام إحدى طرفيها وغرابتها ، وكبرى أوايدها وعجائنها ، فطرق سمى
من الشباك نباه ، وتلقا وجبة تبعها وثبه ، فاستعدت من كيد الشيطان المريد ،
وقلت : أسعد أم سديد ؛ وإذا يلمس قد فارق يثاره إلى وجرى ، وأختارني على
الصحرأ جارا فارتفعت بلوارى ؛ فوج مستأنسا ، ومرح بين يدي أنسا ، وأراني
أحد كيفيه في الأمتسال ليلا والآخر بالتمتع شامسا ؛ فدل له الخرص على جوره حبال
مكره وشباك ، ويد الغيش تحول دون فتصه وإساكه ؛ وبقايا الظلام تقضى
بتمته ، وتصد عن جملة من الوفاق في موضعه ؛ وأنا ملأزمه ملازمة المصير لرب
العين ، حتى يتبين الصبح لدى عيني .

فلمَا خَشِيتُ عَلَى صَلَاتِي الْقُوَّةَ مَلَكْتُ إِلَى تَلْدِيهِ فَرَضَهَا ، وَتَوَجَّعْتُ بَيْنَ يَدَيْ
مُوجِبِهَا وَصَرَفْتُهَا ، فَلَمَّا انْقَضَتْ مِنْ مُصَلَّيٍّ ، وَأَنْصَرَفْتُ عَنْ مُجَابَةِ مَوْلَايَ ،
بَرَقَتْ لِي بَارِقَةٌ ، حُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهَا صَاحِقَةٌ ، قُلْتُ : أَذَرُ قُرْآنَ الْقُرْآنِ ؟ ، وَإِلَّا فَلَا تَ
حِينَ ذُبَالَهُ ، قِيلَ : إِنَّ الْغَلَامَ نَظَرَ إِلَيْهِ شَرُّوًا ، وَهَزَلَهُ الْمُهَنْدِسُ لَهُ مِنَ الظُّلُمِ
بِخَرٍّ ، وَأَبْدَى لَهُ وَجْهًا مُكْفَهَرًا ، وَدَامَ أَنْ يُطِيبَهُ مِنَ الْمِنْيَةِ مَرْجًا وَهَرًا ، كَأَنَّهُ قَدْ لَاقَا
أَسَدًا هَزْرًا ، وَاتَّرَعَ لَهُ كَلْسُ الْحَمَامِ بِالْوَاقِي ، وَدَمَاءُ بَنَاتِ الْإِثْمَانِي ، فَطَفَّتْ عَلَيْهِ
بِالْأَلَمَةِ مُنْكَرًا لِحَمَلِهِ ، وَهَتَفَتْ بِهِ زَاجِرًا عَنْ قُبْحِ ضَلِّهِ ، ثُمَّ عَدَرَتْهُ : « وَمَنْ لَكَ بِأَخِيكَ
كُلَّهُ » ، وَقُلْتُ لَهُ : مَاذَا تَرَكَ تَصْنَعُ لَوْلَا قِيْتُ أَسَدًا أَغْلِبَا ؟ ، قَدْ خَلْتُ أَنَّكَ تَزِيدُ . وَإِنْ
كُنْتُ وَلَيْدًا - أَشْيَا ، أَمِنْ هَذَا بَادَرْتُ إِلَى السَّيْفِ مُخْطَرًا ؟ ، « إِنَّكَ لَأَجَبٌ مِنْ
الْمُتَرُوفِ خَيْرًا » قَدْ أَظْهَرْتَ مِنَ الْفَشْلِ مَا جَاوَزَ قَدْرَ الْحَدِّ ، وَوَضَعْتَ الْمِرَاحَ
فِي عَمَلِ الْحَدِّ وَقَابَلْتَ الْأَسْهَلَ بِالْأَشَدِّ ، فَسُحِقَا لَكَ وَبُعْدَا ، قَدْ قَدَحَ مَرْجِيكَ
بَعْدَهَا زَنَادًا صَلَدًا . وَتَسْتَلِجُ الْمَاءَ جَلْدًا جَلْدًا .

فَصَوَّبَ طَرَفَهُ فِي رَنْدِ نَدْيَا ، وَأَظْهَرَ وَفَاءَ أَزْرَى السَّمَوَاتِ بَيْنَ طَلْدِيَا : أُنْجِ
مَرَّيَا وَلَا إِخْلَاكَ تَاجِييَا ، أَلَى زَيْتُ مِنْ الْخُطُوبِ بِأُصْحَمِيَا ، وَلَا يَنْتَبُكْ بِالْحُرُوبِ
كُجْرِييَا ، وَالْفَاحِشُ بِالْقِيَمَةِ أَخْبَرِييَا ، فَلَقْدَ أَوْطَأَنِي مَا لَا أَسْتَقِيلُ مِنْهُ الْعَثَرُ ، وَمَالَا قِيْتُ
فِي حَرْبِ كَهَيْذِهِ الْمَرَّةِ ، « وَالْعَوَانُ لَا تَعْلَمُ الْخِمَرُ » ، قَدْ صَرَّحَ لِي بِالشَّرِّ وَلَمْ يُجِيعْ ، وَكَثُرَ
عَنْ آثَانِيهِ غَيْرُ مَتْنَسَمٍ ، وَحَسِبْتُكَ مِنْ شَرِّ سَمَاعِهِ « وَاسْتُ الْبَايْنُ أَعْلَمُ » ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْهِ لِأَجْرًا
مِنْ خَاصِي الْأَسَدِ ، وَلَقِّنَ سَبْرَهُ لَعَلَّنَ مَا بَيْنَ الذَّنْبِ وَالْعَدْوِ ، وَلَقَدْ رَضِيتُ تَقْبِيَّ مِنْ
الْقَنِينَةِ أَنْ تَوُوبَ بِحَمَائِيهَا ، لَمَّا تَقَبَّيْتُ بِخَيْصَرِي تَخَضُّبَهَا بِدَمَائِيهَا ، فَقُلْتُ : « أَجْفَلُ عَنْ
جَنَائِكَ الْخَيْرُ وَأَجْلِي » « أَضَرُّ مَرًا وَأَنْتَ الْأَعْلَى » ؟ ، ثُمَّ تَضَاحَكْتُ إِلَيْهِ لَمَّا شَاهَدْتُ
اسْتِجَابَارَهُ ، وَأَوَيْتُ لَهُ إِذْ رَأَيْتُ اسْتِجَارَهُ لِنُطْبِ وَأَسْتِجَارَهُ ، وَقُلْتُ : مِنْ صَافِ الْأَسَدِ

قرآه أظفاره، ومن حرك النهر أراه أقياداره؛ وصلت إلى الأول الثامن، المستند
المستأنس؛ ومددت يدي إليه فقاد لها طائما، وخضع لإجابة دعوتي ساميا.

فلما حازة في القبضة الإسار، وبطل الإفلاد من ذلك اللفظ والإثار؛ وقد
كان أعز من الأباقي المعقود، وأبعد من بيض الأنوق؛ استجليت صورته متاملا،
إذ لم يبق له سوى قبضتي مؤبلا؛ فرايت هامة نخمه، وحنة محقه؛ وشذا أهرتا
رحبا، ذا مرة على اختلاف الحوادث صعبا؛ وأنيابا مكددة عضلا كالنصال، وطرقا
مخالسا غير غير بالمر والخلال؛ كأنه شهاب يتوقد، أو شملة نار لم تبرد، وساميتين
تتوجسان مادار في الأوهام، وتذكران ما ينال به المرء نفسه ولو في الأحلام؛ قد
ينطقت بفق صغرت هاتته بالنسبة إليه، إن استدبرته قلت: هو مشرف عليها
أو استقبلته قلت: هي مشرفة عليه؛ يشتمل على تحير حبيب، وصدر رجب؛
فيه زعجا يبيض كهللين قرنا في نسق، أو تجي ذؤابة ظهرا في غسق، بئر غس
الناظر إليها، ومقد خنصر الاختيار في حنين الشيات عليها؛ أقبل ذلك بمنكب
عديد، وساعد شديد، وبرثن شثن وعطبل حديد:

فوات أشاف ركبتي في أكفها * نوافذ في صم الصخور نواشيب،

مقفية التريف عوج كأنها * تعقربا صنایح الحسان الكواهب!!

قد جاور جوجوا نهدا، وقابل كاعلا ممتدا؛ يكاد خصره يتعد أضيلا،
وهمة تنسر ناراء، برجلين تسبق في الحضريته، وهمة بأظفارها أذنيه؛ وذنب
كالرداء المسبل بحره أخبالا ومرحبا، وفيه عجا وفرحا؛ إن أنساب قلت: أنساب
أفوان، أو صال قلت: أسد خفان؛ أو وثب سبق الوهم في انعطاطه، أو طلب
أدرك البرق من نشاطه، أو طلب فات الطرف في انحراطه؛ أتم سنا من أرتب،

وَأَزْهَى مِنْ قَلْبٍ ، قَدْ كَسَاهُ الظُّلَامُ خِلْتَهُ ، وَقَبْلَ الصَّبَاحِ طَلَعَتْ ، حَازِمٌ مِنَ الْقَدَسِ
صِقْلَهُ وَهَجَّتْ ، وَمِنَ الْقَيْكِ لَيْتَهُ وَصَمَّتْ ، أَلَيْسَ رِدَاءَ الشَّبَابِ ، وَزُهُ مِنْ تَرْوِيرِ
الْحَضَابِ ، إِنْ أَخْطَسَ فَمَا تَابَعَ شَرًّا ، أَوْ خَاتَلَ أَزْرَى بِالشَّغْرِ مَكْرًا ، أَحَدَ نَفْسًا
مِنْ عَمْرٍو بْنِ مَعْدَى ، لَا يُصَلِّدُ قَالِحَ زِنَادِ بَلْشُهُ وَلَا يُكْدِي ، أَزْرَى مِنْ أَبِي عِبَادِ ،
وَأَصُولَ مِنْ حَقَّةِ بْنِ شَدَادِ ، أَتَكَ مِنْ الْحَرِثِ بْنِ ظَالِمِ ، وَأَنْتَهَرَفَصْنَا لِلدِّمِ مِنْ حَائِمِ ،
لَا يَلِينُ وَلَا يَسْكُو إِلَى ذِي تَصْمِيمِ ، "كَأَنَّهُ كَوَكَبٌ فِي إِثْرِ عَفْرِيتِ" ، يَكَادُ عِنْدَ
الْمُخَالَغَةِ فِي أَنْبِيَائِهِ ، يَهْوَتْ الْخَاطِرَ أَوْ يَخْرُجُ مِنْ إِهَابِهِ ، إِنْ قَارَنَ طَيْرًا أَبَاهُ مِنْسَرًّا
كَتَمِيرِ الْأَسَدِ ، أَظَبَ فِيهِ شَعًا كَأَنَّهُ حَقْدُ تَمَائِينَ فِي الْعَدَدِ ، فَيُنْشِدُهُ : أَلَا عِمَّ صَبَاحًا
أُتِيَا الطَّلَّ الْبَالِي ، فَلَا يُحْسُ لَهُ بَيْنَ وَلَا أَثَرُ يَحْيَسِ الْبَالِي ، فَكَانَ قَلْبُهَا رَوْبًا
وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهِ النَّابِ وَالْحَشَفِ الْبَالِي ، أَعْتَادَ قَتَصَ السَّالِحِ وَالْبَارِحِ ، فَمَا فَاتَ
وَرَدَ الْمَيَّةِ مِنْهُ غَايَ وَلَا رَائِحَ ، طَوِيلَ الْقَرَا مُدْجِ الْأَعْظَمِ ، لَهُ مُحَاظَةُ سِرْحَانٍ وَهَجْمَةُ
صَيْغَمِ ، أَحْسَنَ مِنْ قَبِهِ (؟) ، وَأَعْظَمَ مِنْ حَيَّةِ ، أَطْلَشَ مِنْ قَرَّاشِهِ ، وَأَسْبَقَ إِلَى النَّيَّاتِ
مِنْ عَكَّاشِهِ ، أَخْطَفَ مِنْ عُقَابِ ، وَأَفْجَحَ مِنْ سَاكِنِ غَابِ ، أَسْرَقَ مِنْ جُرَيْدِ وَأَنُومِ
مِنْ قَهْدِ ، وَأَلَيْنَ مِنْ عَيْنِ وَأَخْشَنَ مِنْ قِدِّ ، بَأْسَهُ قَضَاءُ عَلَى الطَّيْرِ مُذَلِّ ، وَبَلْشُهُ
مَلَكٌ بِأَجَالِهِ مُرْسَلٌ .

فَلَمَّا تَأَمَّلْتُ خُلُقَهُ ، وَسَبَرْتُ بِجَرِيَةِ الْفِرَاسَةِ خُلُقَهُ ، عَجَّلْتُ لَهُ جَرِيرًا مُتَحَدِّدَ
الْإِرَّةِ لَوَاقِعِهِ ، وَأَحْكَمْتُ شَدَّهُ فِي عَمَلِ خِنَاقِهِ ، وَقُلْتُ لَهُ : إِنْ جُرْبُكَ تَحَابَّةَ هَذَا
النَّهَارِ ، "وَمَنْ سَلَكَ الْجَنْدَامِينَ مِنَ الْعِتَارِ" ، فَعَلْ ذِي خَبْرَةٍ بِمَكْرِهِ ، وَعَلَى هَيَّةٍ مِنْ غَدِيرِهِ ،
فَإِنَّ التَّيْمَ ذُو صَوْلَةٍ بِسَدِّ الْخُضُوعِ ، وَفَضَحَ الطَّعْنُ شَيْعَةَ الْمُطْبُوعِ ، وَكَذِيفَ الثَّقَّةَ بِهِ
وَإِنْ أَسْتَقَرَّ وَلَمْ يَنْتَسِ ؟ وَأَيُّ الْعُلَمَاءِ يَنْتَهِي إِلَيْهِ وَهُوَ الْأَزْرَقُ الْمُتَلَسِّسُ ؟ .

ثم أنصرفت إلى البلد لبعض شائي ، والاجتماع بإخلائني وأخذاني ؛ واستقرت أديم النهار فيما توجهت له ، وقطعت عمر يوم ما كان أطوله ! .

فلما قضيت نهيتي ، من نهيتي ، وحانت مع وجوب الشمس رجعتي ، أقيتني عهد إلى الوثاق فقرضه ، ووقاه بالكل الوافي ما أقرضه ؛ وصال على شيخه تستسعد بدعاتها ، ونزع إن دهمنا هم قبل نداء أولى البطش إلى نلتها ؛ ذات خلقي عظيم ، ومنطقي رخم ، وقلب رخم ، ووجه ذي نضرة ونعم ؛ إن قامت أحيث الليل بالمر ، أو قرأت رأيتنا حولها زمرا بعد زمرا ؛ إن حادثتها نطقت بالسحر محلا ، أو تاركها رأت الصمت على كثير من النطق مفضلا ؛ تسرفك في حالة الصخب ، وتريك وجه الرضا في صورة النصب ؛ فد إليها يد المدون ، وأطاع بأذاها أمر الشيطان ؛ ولم يرقب فيها إلا ولا ذمة ، وحلها فحلنا من أذاها غمها ؛ ومزق قتيب أفواها ، وحكم تحاليه الحديدة في إهابها ، فظم مصاب من حوت داري بمصاها .

فلما وصلت رأيتها بأكية ذات قلب مريض ، وجناح مريض ؛ فسلتني بأن المصاب ثقها الأبرار ، وترقت بها إلى أن رقات تلك الأدمع الغزار ، وأوردت : « إن جرح الحياء جبار » ؛ وقلت : إياها لك وأها ، لقد أرتكبت خطئة ما ألقها بعذرك وأولاه !! ، « فقد أنصف الفارة من راماها » ثم آليت آية بره ، لأوطئه من الوثاق بجره ، ولأقصر هذه المرة تلك المرة ؛ وأتيته بسلسلة تقبوا أنيابه عن عجمها ، ولا تثبت شياطين مكره برجمها ؛ قد أبدع قبتها الصنعة بإحكامها ، وأنى بالعجب في نظامها ؛ يقه هو من تحكم فيا قطع الجلسد ، بقلمه من اللطافة يحل ويعد ؛ فاستودعت عقه منها أمينا لا يخفر وثيق نيمته ، ولا تطرق الأوهام إلى نهيمته ؛ مستحكم القوة في الشد ، فتنبط تنبط الأسير على القيد ؛ ونظر إلى بطرف حديد ،

وتَقَالِي بعد بَأْسٍ شَدِيدٍ، وَيَهْبِصُ بِذَنبِهِ قَلْتُ : «مَكْرًا وَآتَتْ فِي الْحَيْدِ» . فَلَمَّا
أَيَسَ مِنَ الْخُلَاصِ ، تَلَوْتُ : (وَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ) .

فلَمَّا تَمَّ مَا ذَكَرْتُهُ ، وَأَبْدَأْتُهُ وَأَعْدَتُهُ ، وَرَدَّتْ رُقْعَةُ سَيِّدِنَا عَلَى عَقَائِلِ هَذِهِ الرُّقْعَةِ
الَّتِي وَقَعْتُ ، وَصَدَّتْ عَنِ الْجَوَابِ وَمَنَعَتْ ، وَأَقْتَضَى بِي الْحَالُ كَتَبَ هَذِهِ الْخُطُوبَةَ
وَلَمَّا تَسَبَّطُ بِأَذْيَالِ الْخُذِّ ، فَاحْرِصْتُهَا تَحْرِجَ الْخُزْوَ وَبِئْسَ دَلَّتْ عَلَى حَوْزِ قَصَبَاتِ
الْحَقِّدِ ، لِيُعلمَ أَنَّ فِي الزَّوَايَا خَبَايَا ، وَإِذَا تَمَّ أَنَّ الْأَصُولَ عَلَيْهَا تَهْتُ الشَّجَرُ فَلَمَّا ابْنُ جَلَا
وَمَلَّاحُ الشَّيْبَانِ .

هَذَا : وَإِنْ أَتَى قِرَاعُ الْخُطُوبِ فِي حَدِّي قُلُوبًا ، «فَالْفَعْلُ يَتَّبِعِي شَوْلَهُ مَقُولًا» ؛
وَلَقَدْ تَجَمَّعَتِ الْخُطُوبُ عَلَى مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ وَأَوْبَ ، وَطَرَقَتِ الرِّزَايَا جَنَابِي مِنْ كُلِّ
صَوْبٍ ؛ وَجَرِيتُ مَعَ الْخُطُوبِ كَقَرَّيِي الرِّهَانِ ، وَمَا هَمَمْتُ بِمَقْصِدٍ إِلَّا سَقَطَ بِي
الْعَشَاءُ عَلَى سِرْحَانٍ ، وَبِكُلِّ حَبْلٍ يَحْتَنِقُ الشَّقِي ، وَلَمَعْمَرُكَ مَا يَدْرِي أَمْرُهُ كَيْفَ يَتَّقِي ؛
وَالْجَلْدُ يَرَى عَوَاقِبَ الْأُمُورِ فَيَحْمَدُ عِنْدَ النَّجَاحِ حَقِّي السَّيْرِ ، (وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ
لَا تَسْتَكْفِرْتُ مِنْ الْخَيْرِ) .

تَجْمُزُ الْمُصِيبَاتُ الْفَسَقَ وَهُوَ عَاجِزٌ . وَيَلْبَسُ صَرَفُ النُّهْرِ بِالْحَازِمِ الْجَلْدِ !

فَسَطَرْتُ هَذِهِ الْأَحْرَفَ إِلَى سَيِّدَتَا لِيُوَافِقَ خَيْرِي عِنْدَ أَحِبَّاهِ خَيْرُهُ ، وَمِنْ يَشْرِي
سَيِّئِي وَهَذَا أَثَرُهُ «وَأَعْلَمُ أَنَّمَا سَيُضْرَبُ بِهَا فِي بَابِهَا الْمَثَلُ ، وَقَدْ «أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ
مُسْتَعِيلٌ» .



وهذه رسالة في الشكر على نزول الفيث ، من إنشاء أبي عبد الله محمد بن أبي
الحصّال النافق الأتليسي ، نقلها من خط الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن محمد
أبن سيد الناس اليمعري المصري ، وهي :

الحمد لله الذي لا يكتشف سوءه سواه ، ولا يلعو المضطر إلا إياه ، تزلّ قمرنا بشفاه ،
وتؤدّ من خطئه برضاه ، وتستغفره من ذنوبنا : (ومن يغير الذنوب إلا الله) .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهاً علّاه فاقدر ، وأورد حياته
وأصدر ، وبسط الرزق وقدر ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بشر وأنذر ،
ورغب وحذر ، وغلب البشرى على الإقط ، ودلّ على الصراط ، وأشار إلى الساعة
بالأشراط ، ولم يأل أمته في اللبّ والاحتياط ، صلى الله عليه وعلى الوُزراء الخلفاء ،
والبدرة الأخيّا ، والأشداء الرّحما ، والاصحاب الرّغما ، صلاة تملأ ما بين الأرض
والسما ، وتوافيهم في كلّ الأوقات والآنا ، وتضع التناه موضع التنا .

ولما لعبت حرب الجندب عن جبال ، وأشفق ربّ الصيرجة والبيال ، وتبادى
الطيران للتفرق والزّوال ، وتناوحت في الميوب ويحها الجنوب والشمال ، وتراوحت
على القلوب راحتا اليمين والشمال ، وأحضرت أقمس الأغنياء الشح ، وودوا أن
لا تنشأ مزنّة ولا تيسح ، وتوهم حازن البر ، أن صاعه يعدل صاع الفز ، وخفت
الأزواد ، وماجت الأرض وألقت الرّواد ، وأترعت المازب القصى ، فألقت السعى ،
وصدرت بحسراتها ، وقد أسلمت حرارتها ، وأصبحت كلّ قنة قدماه ، وهضبة درماه ،
(صفاء وها وقبا وها) (٢) ، والصّبح في كلّ أنفي قطر أو قطع ، والأرض كلّها سيف
ونطع ، والشعر يشمر ذيله للخلق ، ويضمّر خيله للسباق ، ويلاه الحذّ وراح المنزل ،

(١) كما في الأصل ، ولم تصل إلى حله مع البحث والتفتيح .

وَقُلْنَا : هَذِهِ الشَّعَّةُ هَذَا الْأَذَلُّ ؛ وَلَرَّيْجَيْنَ فِي الْمَدِينَةِ عَجَاجَةً ظَنُّوْهَا لَا تَلْبَدُ ،
وَيَقِيْ نَحْوِ النَّيُوبِ تَطْلُفٌ وَتَلْبَدٌ ؛ فَمَا يَسْقُطُ السَّائِلُ مِنْهُمْ إِلَّا عَلَى نَافِ يَسْرُقُ ،
وَيَسْهَابٍ يَسْرُقُ ؛ حَتَّى إِذَا عَقَدُوا الْأَيْمَانَ ، وَأَخَذُوا بِرُغْمِهِمُ الْأَمَانَ ، وَقَالُوا : لَا يَطْلَمَعُ
فِي النَّيْتِ ؛ وَزُحْلٌ فِي اللَّيْتِ ؛ فَإِذَا قَارَى الْأَسَدُ ، لَكَدْ مَا أَفْسَدَ :

تَحَرُّمًا وَاحِدِيَّةً مُلَقَّقَةً • لَيْسَتْ بِنَيْعٍ إِذَا عَمَلْتَ وَلَا عَرَبٍ !

أَنْشَأَ اللَّهُ السَّانَ ، وَقَالَ لَهُ : كُنْ فَكَانَ ؛ فَيَنِيَا النُّجُومُ دَرَارِيهَا الْأَعْلَامَ ، وَأَغْفَلَمَا
الَّتِي لَا تُحْمَدُ عَنْدهُمْ وَلَا تُلَامُ ؛ قَدْ أَخْطَطَ مَرْمَطُهَا بِالْحَمَلِ ، وَلَمْ تَدْرِ السَّيِّدَةَ بِالْحَمَلِ ؛
وَلَا عِلْمَ الْحَدْيُ بِالرَّثَالِ ، وَلَا أَحْسَنَ الثَّوَرِ بِالرَّامِي ذِي الشَّمَالِ ؛ إِذْ غَشِيَتْهَا غُلُلُ النَّهَامِ ،
وَجَبَّتْهَا أَسْتَارُ كَاجِنِيَّةِ الْحَمَامِ ؛ وَأَخَذَتْ عَلَيْهَا فِي الطَّرِيقِ ، مَصَادِرُ الْغُرُوبِ وَالشُّرُوقِ ؛
فَمَا مِنْهَا إِلَّا مَقْعٌ بِنَصِيفٍ ، أَوْ مَزْمَلٌ فِي نِجَادٍ خَصِيفٍ ؛ لَمْ تَتْرَكْ لَهُ مِنْ تَطْرِيفٍ ،
وَلَا هَجَبَةً يَطْلُعُ مِنْهَا أَوْ يُسْرِفُ ؛ فَبَاتَتْ بَيْنَ دَوْرٍ مُتَدَارِكَةِ السَّقُوطِ ، وَدَوْرٍ مُتَنَازِعَةِ
السُّمُوطِ ، وَدِيمَ مُنْهَلَةِ الْخِيُوطِ ؛ وَجَبُوشَ مَنصُورَةِ الْأَعْلَامِ ، تَابِتَةِ الْأَقْدَامِ ؛ وَكَتَابَتْ
صَادِقَةَ الْمُجُومِ ، صَائِبَةَ الرُّجُومِ ، تَطْلُبُ الْحَمْلَ مَا بَيْنَ التُّخُومِ وَالنُّجُومِ ؛ وَمَا زَالَتْ
تَرْمِيهِ بِأَهْجَارِهِ ، وَتَحْتَرِشُهُ فِي أَهْجَارِهِ ؛ وَتَقْزُوهُ فِي عَقْرَدَارِهِ ، حَتَّى عَفَّتْ عَلَى آكَارِهِ ،
وَأَخَذَتْ لَهْزِينَ وَالسَّهْلَ بِتَارِهِ •

فِي أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ بِالْكَوَاكِبِ ، أَنْظِرْ إِلَى الدَّيْمِ السَّوَاكِبِ ؛ وَأَسْبِجْ فِي بَلَجٍ سُبُوحًا ،
وَارْتَحِ فِي مَرْمَرٍ دُيُوحًا ؛ وَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ الَّذِي قَدَّفَ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَأَعَادَ
الْحَقْلَى إِلَى الْبَاطِلِ ؛ فَبُرُودُ الظُّلُوهَا مُخَضَّرَةٌ ، وَتُغُورُ الْأَزْهَارُ مُفَقَّرَةٌ ؛ وَسَمَرَاتُ الثُّغُوسِ
مُنْتَشِرَةٌ ، وَالذُّنْيَا ضَائِحَةٌ مُسْتَشِيرَةٌ ؛ وَأَرْوَاحُ الْأَنْوَاجِ حَامِلَةٌ ، وَأَخْطَافُ الْأَغْصَانِ
مَائِلَةٌ ؛ وَأَوْدَاقُ الْأَوْدَاقِ مُفَصَّلٌ ، وَأَجْنِحَةُ الظُّلَالِ تَرَّاشٌ وَتَوْصِلُ ، وَخُطْبَاءُ الْعُلَاحِ

تَرَوِي وَتُحْمَرُ، وَتُسَبِّحُ الْمَغَارِبَ تُهْلِلُ وَتُكَبِّرُ؛ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ لَا يَخْتَضِعُ لِحُجُومِهِ،
وَيُشْهَدُ لَلْكُفْرِ، وَتَلُوحُ الْحِكْمَةُ مَا بَيْنَ مَنْطِقِهِ وَسُكُوتِهِ .

فَمَا الْخَطَاطِيفُ فَقَدْ سَبَقَ هَا يَهَا، وَطَلَعَ شَادِيهَا، وَتَرَاجَعَ شُكْرُهَا نَدِيهَا،
فَعُشُّ رِيَمٍ، وَلَبَنَةٌ إِلَى أُخْرَى تَزِمُ، وَشَعَثٌ يَلْمُ، وَبَدَأَةٌ تَوَفِّي وَتَمُّ، وَكَأَنَّهَا حَنْتَ
نَحْوَ الْمَشَاهِدِ، وَسَابَقَتِ الْقَاتِلِي إِلَى الْمَعَاهِدِ؛ فَظَلَّتِ الْقَاتِلِي بَدْعَهَا نَزَامًا، وَسَقَطَتْ
عَلَى أَطْلَافِهَا أَوْزَاعًا، وَأَجْدَلَتْ إِقْطَاعًا، وَأَجَابَتْ مِنَ الْخُصْبِ أَمْرًا مَطَاعًا؛ وَحَازَتْ
مِنَ الْحَدَائِقِ وَالْبَسَائِنِ إِقْطَاعًا؛ وَسُفِرَتْ فِي رَوْضَتِهِ الْمَكَاهِدُ، وَبُضِعَ هَكَذَا الرَّايِلُ
الْبَكَاةُ، وَتَرُومُهُ فَلَا تَلَحُّظُهُ ذُكَاةٌ؛ تَحْتَهُ مِنَ الْأَمْنَانِ النَّاعِمَةُ قِلَاصُ، وَأَحْصَتَهُ مِنَ
الْخَضِرَاءِ الثُّبَيْيَّةِ دِلَاصُ، فَالْوَيْلُ لِأَهْلِ الْأَقْوَالِ الْمُنْكَرَاتِ، وَالنَّيْلُ لِأَهْلِ النَّهَاءِ
وَالْخَيْرَاتِ، وَالْمَرْغَى وَالسَّعْدَانِ، وَأَرْضُ بَكْوَاكِبِ النُّورِ تَزْدَانُ، وَبِقَاعُ يَدَيْنِ الْيَتِّ
كَأَنَّ تَدَانِ؛ أَذْكَرَهَا فَذَكَرَتْ، وَسَكِرَتْ مِنْ أَخْلَافِهِ فَشَكَرَتْ، وَعَرَفَهَا مَا أَنْكَرَتْ،
كَأَنَّهَا أَعْدَاؤُهَا مِنْ أُمِّ خَارِجَةِ نَسَبٍ أَوْ مَلَحٍ، قَالَتْ لَهَا : خُطْبُ قَالَ : نَكْحُ،
فَقَطَعَتِ الْأَزْهَارُ بِسَيْلِهِ، وَنَبَتَتْ فِي مَسِيلِهِ، وَنَبَتَتْ كَالْقَهْطَةِ فِي شَعْلِ نَيْبِلِهِ .

لَيْنَ زَيْجِسَ تَزُو الرُّوَانِي بِأَحْدَاقِهِ، وَتَسْتَعِيرُ الشَّمْسُ بَهْجَةً إِشْرَافَهُ، وَبُودُ الْمِسْكِ
نُفْحَةً أَنْتِشَافَهُ، يَمْسُدُ السُّنْدُسُ خُضْرَةَ سَافِهِ، وَتَمْنَاهُ الْحَمَامُ بَدَلًا مِنْ أَطْوَاهِهِ؛ كَلْهَ
تَدَى تَهْقُرُقُ، أَوْ غُصْنِي بَايَ لَا يَزَالُ يُوْرِقُ .

وَمِنْ عَرَارٍ تَنْتَفِي مَطَالِمُهُ عَلَى عَرَارٍ، وَكَلَّفَتْ بِهِ السَّوَارِي وَالنَّوَادِي كَلْفَ عَمْرِو
بِرَارٍ؛ لِحَاءِ كَسَاوِلِ الْغَيْدِ تَرِفُ، وَكُوَيْمِيضِ الثَّنُورِ يَبْقَى وَيَسِفُ .

وَمِنْ أَخْوَائِ جَرَى عَلَى الثَّنَايَا التُّرَى، وَسَيْكٌ مِنْ نَاصِجِ الثَّرَى؛ يَجْبِلُهُ النَّسِيمُ قَبْقَبِي،
وَيَصْبِغُ الْجُوبَا ^(١) وَيَفِيْقُ، وَيَسْتَقْبِلُهُ نَاطِلُ الشَّمْسِ فَوْشِرُقُ .

ومن يتشج كالطواق الورق، أو كالنواقيت الزرق، تشرف بأبداع الخلق، وتألف من النسق والخلق؛ تخطئه من بين أوراقه نواظر دجج بالأجفان وقيت، ويذموج الكمل سقيت، نسيجه ألين من الحرير، ونفسه أعطر من السير، يفانربه كأون البرد، مفانرة نيسان بالورد.

وكل رتبة قد أخذت زخرفها وأزيت، وبيت من آيات الله ما بيت، كما تتوج في إيوانه كسرى، واستقبلته وفوده ترى، وأهلبت عن حسن نأليه النواظر حسرى، وكل تلة مذاب فصولها نسل ومضارب فصولها لا تلى، وأراقم تنساب، ولحين يذاب ويذاب، على حافات مجوم من التور مشتك، وجيوب عن لبات الغواني مشتك، فلو اتصحت الظهور والبطن، وضلقت السهول والحزون، لقات :
(فحل انحرأصون الذين هم في غمرة ساهون)

فشكرا ربنا شكرا، وشعقا للذين بدلوا نعمة الله كفرا، اللهم إني أنسى، ودأري القسم، ونأشر الرحمة والنعم، ومثزل الديم، وبأعت الرثم، ونحني الأثم، فإنا نؤمن بقدرك : خبره وشره، ونطوى غيشك على غره، ولا تتعرض لشيره حتى تأذن بنشره، ونعتقد ربوبيتك كل الأعطاد، ونبرا إليك من أهل المروق والإحاد، ونستريدك من مصالح العباد ومتافع البلاد، رزقنا لذيك، ونواصينا بيدك، وتوكلنا عليك، وتوجهنا إليك، ولا نشرك بك في عبيك أحدا، ولا يبعد عبد من ذكك متعلما، تباركت وتعاليت، وأمت الحق وأحيت الميت، لا هادي لمن أضلكت ولا مضل لمن هديت، فأفينا فممن كفيت، وتولنا فممن توليت، إنك تمنى ولا يبغي عليك، وقرأ : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فصنع الأرض خصرة في الآية .



وهذه نسخة رسالة ، كتب بها الصاحب نضر الدين عبد الرحمن بن مكاسب ،
تقدمه الله برحمته ، إلى الشيخ بدر الدين البشنكي عند ما زاد النيل الزيادة المفرطة ،
سنة أربع وخمسين وسبعمائة ، وهي :

ربنا أجمعنا في هذا الطوفان من الآمين ، وسلاماً على نوح في العالمين .
ما تأخير مولانا بحر العلم وشيخه عن رؤية هذا الما ؟ ، وما قصاده عن زرقه
هذا النيل الذي جمل الناس فيه بالتوبة كالملائكة لما غدا هو أيضاً كالسما ؟ ،
وكيف لم ير هذا الطوفان الذي أبتحال للزيادة لما أشبه زيادته بالظما ؛ فهي كزيادة
الأصابع الدالة في الكف على قصه ، وأولى أن نشد بيت المثل بنصه :
طفح السور على حتى إنه * من عظيم ماقد سرى أبكاي !

فإنه قارب أن يمتزج بنهر الخيرة بل وصل وأمتزج ، وأرانا من عجائبه ما حقق أنه
المنعني [بقول القائل] : "حدثت عن البحر ولا حرج" ، وتجاوز في عشر الثلاثين
الحذ ، وأرانا بالمعانية في كل ساحل منه ما سيمناه عن الجزر والمذ ، وأساء في دفعه
فلم يدفع بالي هي أحسن ، وأقصد الماشي عن التسبب والحركة حتى شكنا إلى الله
في الحالين جور الزين ، ومسقى الناس من ماء حياته المهددة كما شربوا من الموت
أصمب كلس ، وسئل ابن أبي الرياد عن قياس الزيادة فقال : زاد بلا قياس ؛
أمتلأ الياب ، وهال الباب ، وضاع المد وأخطط الحساب ؛ كأل فطغف ، وزار
فأخفف ؛ غسل الجسور ، وأعاد الإملاق بعزمه إلى البحور ، وبرع فكان أولى
بقول الخليل من ابن منصور :

بكارم تذر السباب أبحراً * وعزائم تذر البحار سباباً !

جمع في صُودِه إلى الجبال بين الحادى والملاح، ودخل الناس إلى أسواقٍ مضر
وخصوصاً سوقُ الرقيق على كلِّ جارية ذات ألواح؛ وقد التار ينساب في كلِّ يومٍ
كالأنهم، وأصبحت هضابُ الموج في سماء البحر وكأنها هي قطعُ النيم؛ واستحالت
الأفلاك فكلُّ برّج مائي، وتغيّرت الألوان فكلُّ ما في الأرض سماءً، وحكى ماؤه
حكاكة الصنل لما منه شيطانُ الرّيح فتخبط، وزاد فاستحال نفعه فتحقق
ما ينسب إلى الصنل من الاستحالة إذا أقرب؛ فقد حكت أمواجه ودوائر
الأعكان والسّرر، وقد أكل حتى مبيتاً من زيادته لا كما قال الممرى: حياً من بني مطر^(١)؛
وتحلى إلى أن أقرب الليمون الأخضر، وأحرّت جنّه على الناس فذاقهم الموت
الأخضر؛ وقد صعب سُلوكه وكيف لا؟ وهو البحر المديد، وأصبح كلُّ جدول منه
جعقراً وزيد:

قَلْتُ أَرَى إِلَّا إِقَاضَةَ شَاخِصٍ • إِلَيْهِ بَعِينَ أَوْ شَيْراً بِأَصْبَحٍ!

فلكم قال المرم السارين يأسارية الجبل، وأنشد وقد شمر ساقه لقوض: أنا الفريق
فما خوف من البَل؟ وكنتم قال أبو الهول: لا هول إلا هولُ هذا البحر، وقال
المسافرون: ما رأينا مثل هذا النيل من هنا إلى ما وراء النهر، وقال المؤرخون: لم تنقل
كهنه الزمادة من عهد التهروان وإلى هذا البحر.

وكيف يسوغ لمولانا في هذه الأيام غير ارتشاف قم الخور؟ ولم لا يُبهر متعبه
ويطّيب على هذه الخللج بالسِّل والخور؟ وكيف تكف؟ وكيف لا يتحمّد
مولانا نحو النيل وبرّه رحلة الشتاء والصيف؟ وهو في المبادرة إلى علو المعالي
وعلو المعاني، وآتهاز القُرص في بلاغ الآمال وبلوغ الأماني:

(١) يشير إلى بيت الممرى في قوله:

ولم يفت من الأحياء لهم • فأسقى المواطرحاً من بني سكر

أنظر سقط الزند (ج ١ ص ٣٠).

عَجَبٌ مِنْ عَجَائِبِ السَّيْرِ وَالْبَحْرِ وَنَوْعُ قُرْدٍ وَشَكْلُ غَرِيبٍ!

نَمَسَ :

مَنْ قَاسَكُمْ بِسِوَاكُمْ * قَاسَ الْيَحَارَ إِلَى التَّمَادِ!

أَطْلَى الْأَتَامَ فِي السُّلُومِ قَدْرًا ، وَإِمَامَ النُّعَاةِ مِنْ عَهْدِ سَيَّوِيهِ وَعَلَّمَ جَرًّا ، وَشَيْخَ
الْعُرُوضِينَ عَلَى الْحَقِيقَةِ بَرًّا وَبَحْرًا :

وَشَيْخَ سَيَّوُونَ وَالنَّيْلِ وَالْفُرَاتِ وَدِجَلَةَ ،

وَشَيْخَ جَيْحُونَ أَيْضًا ، * وَشَيْخَ نَهْرِ الْأُبْلَةِ!

إِى وَلَقَّه :

أَقُولُ مَا لَوْ بَلَّغْتَ مَا عَصَى : * الطُّبْلُ لَا يُضْرَبُ تَحْتَ الْكُفَا!

لَا نَجْبًا لِيَطِيرَ بَعْدَ عُرُوسٍ ، أَنْتَ أَعُوْمُ فِي بُحُورِ الشَّعْرِ مِنْ آيْنٍ قَانُوسٍ ، وَأَصْلَحُ
إِذَا حَدَّثْتَ مِنْ صَالِحِ بْنِ عَبْدِ الْقُشُوسِ ، وَأَنْشَيْتُ إِذَا هَزَلْتُ مِنْ آيْنٍ حَجَّاجٍ إِلَى
الْقُشُوسِ :

وَلَوْ أَنَّ بَحْرَ النَّيْلِ جَارَاكَ مَا زَحَا * وَحَقَّكَ مَا اسْتَعْلَى لَهُ النَّاسُ زَانِدًا!

تَمُودُ إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ مِنْ وَصْفِ النَّيْلِ ، وَذِكْرِ حَالِهِ الَّذِي أَصْبَحَ كَمَا قَالَ آيْنُ
عَبْدِ الظَّاهِرِ : كَوْنِهِ جَبِيلٍ ؛ فَلَوْ رَأَى مَوْلَانَا وَقَدْ هَجَمَ عَلَى مِصْرَ بَغَاسٍ خِلَالِ الدِّيَارِ ،
وَدَخَلَ إِلَى الْمَشْيُوقِ فَدَرَكَهُ كَالْعَاشِقِ الْمُهْجُورِ لَمْ يَرَمْنِهِ غَيْرَ الْإِتَارِ ؛ لَبَكَى بِمَعْنَى عُرْوِهِ ،
وَأَوَّى مِنَ الرَّصْدِ وَقَدْ تَهَجَّرَتْ مِنْ صِلَانِهِ عِيُونَ النَّتْرِ إِلَى دَبُوهِ ؛ أَوْرَدْنَا لَرَوْضِ الْحَزِينَةِ
وَقَدْ خَلَعَ حِلَاةَ ، وَتَخَلَّصَتْ حَرَائِشُ أَشْجَارِهِ عَلَى الْحَالِئِينَ بِالْمِيَاهِ . وَالنَّخِيلُ وَقَدْ قُطِّلَتْ
مُلَاكُمَهَا سِحِينَ قَتَلَتْهُ بِالْأَسْفِ ، وَجَفَّ أَحْمَرُ قَمِيحِهَا وَأَضْفَرَهُ فَارَانَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ .
وَالْحَلِيزَةُ وَقَدْ قُلَّتْ لَهَا : تَبَا لِحَارِكَ النَّيْلِ إِذْ أَفْسَدَكَ صُورَةٌ وَمَعْنَى ، وَسَكَنَ مَعَانِيكَ فَسَقَى

دِيَارَكَ بغيرِ امْتِنَانٍ . وقَرَاهَا القَرِيْبَةُ وقد قَلَّتْ مَا حِينَ أَوْتِ إِلَى أَعَالِي الْأَرْضِ هَرَبًا
 مِنَ الْمِيَاءِ ، وَأَعْتَصَمَتْ بِالْجَلْبَلِ الْقَرِيْبِ : لَا حَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ . وَكُلُّ سَفِيْنَةٍ
 وَقَدْ عَلَتْ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ، وَأَرْتَقَتْ لِأَرْتِقَاءِ الْبَحْرِ إِلَى أَنْ أَخْطَلَتْ بِالْمِيَاءِ ؛ وَقَدْ
 قَالَتْ لَهَا أَثَرُهَا عِنْدَ الْفِرَاقِ : إِلَّا تَرْجِي ، وَقُلْنَا لَهَا عَمَّنْ عَلَى سَبِيلِ التَّفَاوُلِ : يَا سَمَاءُ
 أَقْلِي ؛ وَالتَّيْلُ تَبْدُو عَلَيْهِ الْقُلُوعُ خَافِيَةً لِبُعْدِهَا فَكَأَنَّمَا الْخِيَامُ بَذَى طُلُوعُ^(١) ، وَجَارَ عَلَى
 النَّاسِ بَطْنِيَانِهِ فَكَأَنَّمَا هُوَ أَخُو فِرْعَوْنَ مِصْرَ أَوْ ابْنُ طُوفَانَ نُوحٍ .

فَلَقَدْ طَارَ النَّسْرُ يَبْتَغِي الْخَنَازِجَ ، وَذَنَابُهُ الْمَقْبَرَةُ مِنَ السَّكَارَى بِالشَّخَايِثِ إِلَى أَنْ
 كَادَ يَدْفَعُهُ مِنْ قَامِ بِالرَّاحِ . وَتَرْجِيْسُ الْبَسَاتِينِ وَقَدْ أَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ
 كَقَلَمٍ ، وَقَارِقُ أَحْبَابِهِ مِنَ الرَّاغِبِينَ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ غَيْرُ الْقَلْبَانِ صَدِيقٌ وَغَيْرُ الْمَاءِ حَمِيمٌ .
 وَالْوَرْدُ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : مَا لَكَ مِنْ أَسَ ، وَغُصْنُ الْبَايِ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : طُوبَى لِمَنْ عَاثَكَ
 وَلَا بَأْسَ . وَالْإِسْمَاكُ وَقَدْ أَلْجَهُمُ الْعَرَقُ ، وَالْقُقَايِسُ وَقَدْ شَكَا شَكْوَى ابْنِ فَلَافِسٍ
 وَأَيُّهُ مِنَ الْفَرَقِ . وَالْقَصَبُ بِالْجَلِيْزَةِ وَقَدْ شَرِبَ مَاءَ التَّرْتَفُوهِ بِئْسَ الشَّرَابُ ، وَالْقَصَبُ
 بِبُؤْلَاقٍ لَمْ يُنْجِهِهُ مِنْ مُشَاهَدَةِ الْفَرَقِ إِلَّا كَوْنُهُ غَائِبٌ ، وَالْفَارِيسِيُّ بِالْبَسَاتِينِ وَقَدْ تَرَجَّلَ
 وَوَقَعَ فَارَانًا كَيْفَ تَكْثِيرِ الْأَقْصَابِ ؛ وَقِيلَ لِلْأَسِ : عَالِجُ جِيرَانِكَ بِالْفَيْطَلَانِ فَالْأَسُ
 بِالنَّاسِ ، وَابْدُرْ إِلَى جَبَرٍ مَا كَبُرَ فَالْحَاجَةُ تَدْعُو الْمَكْشُورَ فِي الْحَالِ إِلَى الْأَسِ .

هَذَا وَأَنَا مُقِمٌّ بِالرُّوْضَةِ لِأَذَى زَهَتْ عَلَى سَائِرِ الرِّيَاضِ ، وَسَلِمَ جَوْهَرُ حَصْبَاتِهَا مِنْ
 أَكْثَرِ هَذِهِ الْأَعْرَاضِ ؛ وَإِنْ أَحَلَّتْ بِالْإِسْتِفْهَاءِ فَهُوَ عَيْنُ الصَّعَةِ كَمَا يُنْسَبُ السَّقَمُ
 إِلَى السُّبُونِ الْمِرَاضِ ، أَوْ كَمَا قَالَ الْمَلُوكُ قَدِيمًا مِنْ قَصِيْدَةٍ فِي بَعْضِ الْأَعْرَاضِ :
 وَقَائِلٌ : فِي لِحَاطِ النَّيْدِ بِأَقْيَسَةٍ = مِنَ السَّقَامِ وَمَا عَمَّتْ خُصُومُهُمَّ ،

وفي النسيم قلت : الأمر مُتَقَبِّه • عليك فأزيم فانت الحاذقُ الفهمُ .
قلت الصَّحيح وليكني بوجيبه • أقول : تلك دَوَاةُ بَرُوحِ السَّمِ !
قد أحاط بها النيلُ إحاطةَ المَرَاثِفِ بالآ ، فاشترقت ضياءَ عين زُرْقته فكَلَّمَتِها
البدر في كَيْدِ السَّما :

بَصَحْنِي حَدَّ لَمْ يَبْغِضْ مَأْوُهُ • ولم تَحْضُهُ أَصِينُ النَّاسِ !
مُتَعَطِّشٌ مع هذا الطوفان لَرَيَاك ، مُتَشَوِّفٌ وإن كنتُ مُعَاوِلُ النُّجُومِ الأَرْضِيَّةِ
وَالسَّمَاوِيَّةِ يَا بَدْرُ رُؤْيَاك ؛ لِكَيْتِي يُسَلِّنِي أَنِي مَا تَنَظَّرْتُ إِلَى النَّيْلِ إِلَّا رَأَيْتُكَ مِنْ سَائِرِ
الْجِهَاتِ ، وَلَا تَحْتُ بَيُوتَ الْبَحْرِ بِلِ الْبُحُورِ إِلَّا رَأَيْتُكَ عِمَارَةَ الْآيَاتِ :
وَلَا تَهَمُّتُ بِشُرْبِ الْمَاءِ مِنْ عَطِشٍ • إِلَّا رَأَيْتُ خَيْالًا مِنْكَ فِي الْمَاءِ !

ولكنَّ اللَّيْلَانَ لَطِيفٌ مَعْنَى • لَهُ طَلَبَ الْمَشَاهِدَةِ الْكَلِيمُ !

فهَلُمَّ إِلَى الْجَمْعِ بِرُؤْيَا هَذَا النَّيْلِ الَّذِي لَمْ تَرَمْتَهُ الْعُيُونُ ، وَالتَّنْظِيرِ إِلَى سَائِرِ الْخُلُوقَاتِ
لِعُمُومِهِ وَكُلِّ فِي فَكِّ يَسْبَحُونَ ؛ فَلَيْسَ يَطْلُبُ التَّلْمِيزُ رُؤْيَا هَذَا الْبَحْرِ بِغَيْرِ رُؤْيَا
خَيْرِهِ ، وَلَا يَلْذُّهُ التَّحَلُّ بِمُشَاهَدَةِ هَذَا الْفُلِّ مَا لَمْ يُشْرِقْ وَجْهُهُ وَذَهَبَتْ يَدَايُهُ وَمَرَّتْ بِهِ
فِي هَذَا الْإِحْمَالِ ؟ ، وَلَيْتَ شِعْرِي يَا أَدِيبُ قَسَّافُكَ بَأَى الْأَعْمَالِ ؟ ، أَبَا لُكَّاهِ ؟
فَتَكُنْ فِي هَذَا النَّيْلِ الَّذِي هُوَ كَالطَّلُوعِ بِغَيْرِ مَثَالٍ ، أَوْ بِالنُّورِ وَالنَّعْمِ ؟ فَمِنْ هَذَا الْبَحْرِ
الَّذِي مِنْهُ تَوَخَّذَ الدُّرُورُ فِيهِ تَضَرَّبُ الْأَمْثَالُ ؛ وَلَقَدْ وَلَدَ فِيهِ الْفِكْرُ لِلْمَمْلُوكِ ، كَيْفَ
تَصَادَمَ الْأَكْفَاءُ وَقَهَرَ الْمَمْلُوكُ لِلْمَلُوكِ ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ فِي مَمْلَكَةِ الْإِسْلَامِ ، وَلَا وَجَّحَ
فِي عَامٍ مِنَ الْأَعْوَامِ ؛ بِمِثْلِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ الزَّائِدَةِ ، وَالْحَرِيِّ عَلَى تَعْرِقِ الْعَادَةِ الَّتِي لَا جَعَلَ

الله بها صلة ولا منها فأكبه ، وغاية ما وصل إليه في الماضي من عشرين : فضيق
بَسَمَةِ السَّائِكِ ، وأوجب المهالك ، وتطرق تطرق أهل الجرائم والفساد فقطع
الطريق على السَّائِكِ ، وأخرج مَرَاتٍ إلى الاستضعاء لا أخرج الله لذلك .

ودليل ما شغل به من الفساد ، وما حائل به البلاد وأهل البلاد ، ما قاله أدباء كل
عصر ، عند ما أبيع لساير في مدَّ عَرَضِهِ القصر .

فمن ذلك ما قاله مولانا القاضي الفاضل ، وما هو رحمه الله إلا بحر طلع دُرّه ،
ففيه دُرّه ، من رسالة :

وَرُودُ مِثَالِهِ يَتَضَمَّنُ نَبَأَ سُطُورِهِ الْعَظِيمَةِ أَمْرَ طُوفَانِ النَّيْلِ الَّتِي كَانَتْ جَنَادِلُهُ ،
وَأَنَّهُ جَادَ لِمَوْلَاهُ بِنَفْسِهِ الَّتِي لَيْسَ فِي يَدِهِ غَيْرُهَا فَلْيَتَّقِ اللَّهَ سَائِلَهُ

ومنها . ولم يزل يجرى لُستُّرُله ، ويضمُّه شيئاً فشيئاً إلى أن أدركَ آخرَ آوَلِهِ ،
حتى إذا تكامل شُؤْ أُمُوجُهُ حَالاً على حَالٍ ، وتَوَرَّ أَوَّاهِي الأَرْضِ مِنْ بِنَةِ المِيقَاسِ
فَادْنَاهَا النَّظَرُ الْعَالِ ، فلم يترك بُقْعَةً كَانَتْ مِنْ قَبْلُ فَارِقَةً إِلَّا وَكَلَّهَا عِنْدَ نَظَرِهِ مَاقٍ ،
وَلَبَّتْ هَوَاهُ الْمُعْتَلِّ كَانَ عَدْلًا لِحَمَلِ كُلِّ غَدِيرٍ مَا أَطَاقَ ، وَطَالَ جَرَى الصَّغَا وَلَكِنْ
كَدَّرَ سَفَاةَ هَذَا الْمَسْئِي ، وَلَمَّا جَوَّ مِنْ اللَّهِ أَنْ يَتَلَوَّ مَا أَفْسَدَ هَذَا الْمَاءُ مَا يُصْلِحُهُ
نُجُوجُ الْمَرْغَى .

وما قاله القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ، سبق الله تلك الالتقاط النَّيْلَةَ
صَوَّبَ السَّاطِرَ :

وَيُنْبِئِي إِلَيْهِ أَمْرَ النَّيْلِ الَّذِي سَرَفَ أَوَائِلُهُ الْأَفْسَسَ بِأَفْسَسِ بَشَرِي ، وَيَقْصُ عَلَيْهِ
نَبَأَهُ الْعَظِيمَ الَّذِي مَا يَرِينَا مِنْ آيَةِ إِلَهِهِ أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرَى ، وَيَصِفُ لَهُ مَا سَاقَهُ
إِلَى الْأَرْضِ مِنْ كُلِّ طَلِيمَةٍ إِذَا تَنَقَّسَ الْقَيْلُ تَهَرَّقَ صُبْحُهَا وَتَهَرَّى ، فَهُوَ وَإِنْ كَانَ

خص الله البلاد المصرية بوفرة ووقاته . وأغنى به قنطرة عن القطر فلم يمتح إلى مد
كافه وقاته ، وزعمه عن مئة النعام الذي هو إن جلد فلا بد من شمة رصده وتغصه
بكتاه ، فقد وطئ ولادها بسكره الصلح ، وزاحم ساحتها بأفواج الأمواج ، فعيل
فيها بذراعه ، ودار عليها بخنقه وتخلها بزراعه ، وحملها على سوارى الصواري تحت
قلوعه وما هي إلا عمدة قلاعه ، وزار زراعي الثور المبثوث ، وجاس خلال الحنايا
كان له فيها خبايا موروته ، وصرق كالشهم من قناطره المنكوسة ، وعلا زبد حركته
ولولاه ظهرت في باطنه من الأسرار والنجوم أشعثها المكوسة ، وحمل على بركة
الفيل حمل الأسود على الأبطال ، وجعل الهنونة من تياره المنحدر في السلاسل
والأغلال ، والمزجر من انه أن يزبل آذاه ، ويبيد عليا منه ماعهذاه ، فان له الإياب
الأكبر ، وفيه التجائب واليمر ، فيها وجود الوفاء ، عند عدم الصفاء ، ولوغ الحرم ،
إذا أحتم وأضطرم ، وأمن كل فريق ، إذا قطع الطريق ، وفرح سلطان الأوطان ،
إذا كسر وهو كما يقال : سلطان ، إلى غير ذلك من خصائصه ، وبرائه مع الزيادة
من قائله ، طالك فتح أبواب الرحمة بتخليقه ، وقاز كل أحد عند رؤيته مائه
المصغر بتخليقه .

وما قاله المولى زين الدين عمر الصفدي تفهده الله بصفوه ، وجمع له بين حلاوه
المكثور وصفوه :

وأما النيل فقد أخذ الدار والسكان ، وقال ابن الخامل كما قال ابن النيه : الأمان
الأمان ، وبكى الناس عند ما رأوه مقيلا عليهم بالطوفان ، وأنساب أراهم غدران
في الإقليم فابتلت غدران أرافيه ، ومحا سبله المتدفق ماله المجبولة فاستعمل
الاعلام في إثبات ماله ، وأحاط بالقرى كالحاصر فصر . بينها وبين الماء بسور ،
وأخذ الطريق على السالكين فلا مركب إلا المراكب ولا عاصم إلا البحور .

وما قاله السيد ابن كاتب المرح : نُصْرَةُ الأقباط ، وأحد عميد الشعر المشهورة بالقطاط ، لما أطلب مدائح النبوة التي جعلها سورا بينه وبين النار ، وما أعجب وثقه : جعل الله قبره بالرحمة كالروض غيب القطار !!! :

يا نبيل ياملك الأنهار قد شيرت • منك البرايا شربا طيبا وغدا ،
وقد دخلت الثرى تبغى مناصها • فسها بعد قرط النفع منك أذى .
قَالَ : يُذَكِّرُ عَنِّي أَنِّي مَلِكٌ • وَتَعْتَدِي نَاسِيًا : إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا !

وما قاله شيخنا الشيخ جمال الدين بن نباتة الذي أطاحه من الآداب جوائج نظمها ونثرها ، ومُفَرَّتْ له بحور الشعر فقالت له الآداب : آختر من دُرِّها ؛ مُسْجَانٌ من يسره لم تمنع الكلام وعونه ، وجعله من الذين يسمعون القول فيقيمون أحسنه ؛ لما أشق دُقيق فكره الخليل ، وما أكثر ما يصحك زهره فطايبه على زهر مقطعات النيل ، فما كان إلا انحصوصا في الأدب بحور الهيات ، وكلامه في العلوبة والبلاغة يزرى بأقترات وآبن القرات ، وإن قيل أى أصدق كلمة قلما شاعر بعد ليد ، يقال قول ابن نباتة .

فلا تحب للقطب حين يحلو • فهذا القطر من ذاك النبات ! :

وأما النيل فقد استوى على الأرض فبنت فيها قنمه ، وأمتد نصل تياره كالسيف الصقيل قتل الإقليم وهذا الأحرار إنما هو دمته :

مُحَرَّبَتَا من دماء ما قتلت • والدم في النصل شاعد عجب !

فلم يترك وعدا بل وعيدا إلا وثقه ، ولا وعدا بل جبلا إلا أخفاه ؛ أهمل كالأميد المصوب لنا أحسا واضطرم ، وجاء من بين الجناحيل فعمد وعدا حتى بلغ أقصى الحرم ، وعامل البلاد بالخيلاء وكيف لا ؟ وهو سلطان جائر أيد بالنصر ، قابلا :

إِنْ كُنْتُ لَيْتُ بِالْأَحْتِرَاقِ فِي أَرْضِكُمْ فَأَنَا أَقِصُ بِأَنْ أَرَى مِنْ بَرُوقِ تِيَارِي
بشركا كقصر .

هذا وطالما قابلنا قبلها بوجه جميل ، وسمعتنا عنه كل خير خير ثابت ويزيد كما قال
جميل ، وكل يدعي من آثار جود يصبح الثرى فيخضر بخلاف المشهور عن صفة
الليل ، وطالما خصصناه بدهاء فكانت الراحة به كقياسه ذات بسطة ، وتنازل
الخصب بقدميه المبارك ذات غبطة ، ومتناه بولاه وبناء هذا يدور من الإخلاص
بفلك وهذا يتلب من البحار بنقطه ؛ كم ورد إلى البلاد ضياء ومعه القرى ، وكم أتى
مرسلا بمحجز آيات الخصب إلى أهل القرى ؛ فهو جواد قد خلق الرسن ، ساهم
في مصالح الخلق وقد ملأ الأمن أجفانهم بالوسن ، جامع لأهل مصر من سقياه
ومرماه ووجهه بين الماء والخضرة والوجه الحسن ؛ كم بات سمر مقياسه يشمل
بظله الثنائين والحاضرين ، وكم وقع على الوفاء رايه صفراء فاقع لوئها تسر الناظرين ؛
وبلغ وبلغ بحر التبار سلامه ، وبات الناس بوقائه من حذار القلاء تحتم السر
والسلامه ، وخلق صخر العمود وكيف لا يخلق بشير العباد والبلاد ، ودعا مصر لأخذ
زخرفها فسواء قيل : ذات العمود أو ذات العباد ؛ وبسط يده يركب الماء قبيل :
سلام لك من أصحاب اليمين ، وخضب بنانه وأقسم بمحصول الخضر قبيل لمضروب
البان يمين ؛ وأشار إلى وصول المذ المتابع ، وقص يده الخلق على الماء فوقت
وما حابت فخرج الأصابع ؛ وتادى رائد الوفاء ولكن كم حياة في الأرض لمن ينادي ،
وتمت أصابع الزيادة وتمت حتى قال الناس : ماذى أصابع ذى أيدي .

هذا وقد قرئت زراعي الدور المثوية بالتماريق ، وقال المقياس : قطعت منها
الدرج فقال الرجاء وتكهرت الدغاني ، فهو سم المتافع ، حذب للتابع ، يُشار في الحقيقة
والجواز إليه بالأصابع .

فَأَعْلَفَهُ اللَّهُ إِلَى ذَاكَ النَّعْجِ الْمَجْهُودِ ، وَأَرَادَنَا مِنْهُ الْأَمَلَنَ مِنَ الطُّوفَانِ إِلَى أَنْ تَرِدَ
الْحَوَافِزُ لِلنُّورِودِ ، وَكَفَى أَهْلَ مَصْرَ حَقِّهِ الْمُسِيْبَةِ الَّتِي إِذَا أَصَابَتْهُمْ قَالُوا :
إِنَّا فِيهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، وَلَا أَبْتَلَامَ يَنْتَلِ مَا أَبْتَلَى بِهِ قَوْمًا جَمَلُوا أَصَابَهُمْ
فِي أَفْلَاقِهِمْ وَأَسْتَقْشَوْا نِيَابَهُمْ فَأَمَّا يَسْتَقْشِي نِيَابَهُ مِنْهُمْ الْفُقَرَاءُ فِي الْمَطَرِ وَيَحْمِلُ
أَصَابَهُ فِي أَفْئَادِهِ مِنْهُمْ الْمُؤَدِّثُونَ ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ وَلِيُّ السَّعَةِ ، وَأَوَّلَى بِرَحْمَةِ خَلْقِكَ مِنْ
قَبْلِ هَذِهِ الرَّحْمَةِ .

وَمَا قَالَهُ صَاحِبُنَا الشَّيْخُ شَهَابُ الدِّينِ بْنِ لُؤْلُؤٍ حَجَلَةَ الَّذِي كَانَ أَغْرَبَ مِنْ زَرْفَاءِ
الْجَلَامَةِ ، وَاعْتَجَبَ إِذَا رَكِبَ بَنَتْهُ وَفَزَذَّوْرَهُ مِنْ أَبِي دُلَامَةِ ، الْإِدْيَبُ الَّذِي كَانَ حُجَّةَ
الْعَرَبِ ، وَالْقَائِلُ الَّذِي كَانَ يَنْسُجُهُ إِلَى الطُّيُورِ حُرَّكَ الْمَنَاطِقِ وَإِلَى الشَّعْرِ صَنَاجِعَ
الْأَدْبِ ، وَالنَّاطِلُ الَّذِي كَانَ إِذَا أَتَشَدَّ مَقَاطِعِهِ فِي التَّشْيِيبِ فَاقَى عَلَى الْمَوَاصِلِ ذَوَاتِ
الطُّيُورِ ، وَالصَّدِيقُ الَّذِي كَانَتْ مِنْهُ عَوَائِدُ الْوَفَاءِ مَأْلُوفُهُ ، وَشَيْخُ الصُّوْفِيَّةِ الَّذِي
لَا تَعْجَبُ إِذَا كَانَتْ لَهُ لِقَاءَاتُ الْمُؤَصِّفَةِ ، أَسْكَنَهُ اللَّهُ فَيْسَجَ الْحَنَانِ ، وَخَصَّ ذَلِكَ
الْوَجْهَ الْجَلِيلَ بِالْمَارِضِ الْحَنَانِ ، مِنْ مَقَلَّتِهِ الرَّعْفَانِيَّةِ مِنْ أَبِي الرَّيَاسِ :

فَأَضْفَعْتَهُ لَدَى السَّلَامِ ، وَقُلْتُ : مَا وَرَأَاكَ بِأَعْصَامٍ ، قَدْ بَلَّغْنَا أَنْ النَّيْلَ تَرَايَدَ
دَفْعُهُ ، وَلَدَيْهِ إِلَى الْقَضَرِ قَمْعُهُ ، قَالَ : خُذِ الْعَفْوَ ، وَلَا تُكَدِّرْ بِذِكْرِ النَّيْلِ الصُّفُوفَ ،
قَدْ أَمْتَرَجَ بِالْمُعْصِرَاتِ قَبَاجُهُ ، وَاجْتَمَعَ طَلِيبُ النِّيطَانِ عِلَاجُهُ :

وَشَرَّقَ حَتَّى لَيْسَ لَشَرْقٍ مَشْرِقٌ ، وَغَرَبَ حَتَّى لَيْسَ لِلْغَرْبِ مَغْرِبُ !

قُلْتُ : فَمَا نَصْلُ النَّتِيرِ ، بِحَزْرَةِ الطَّيْرِ ، قَالَ : لَمْ يَبْقَ بِهَا هَافِئٌ يُشِيرُ الصَّبَاحَ ،
وَلَا سَاعٍ يَسْمِي بِرَيْلٍ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِحَتَّاحٍ ، إِلَّا اتَّخَذَ حَقَّقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلَمًا فِي السَّمَاءِ ،
لَوْ لَوَّى لَمْ يَجِبَلْ يَمِصُّهُ مِنَ الْمَاءِ ، فَالْقَائِلُ بِهَا الْحَمَامُ الْحَمَامُ فِي الْمَرْوَجِ ، وَتَرَكَ أَرْضَهَا

کَیْمَاءُ مَالِهَا مِنْ فُرُوجٍ، وَتَلَا عَلَى الْحَمَامِ : (اَجْمَعُوا تَكُونُوا بِدُرُكِكُمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ
فِي بُرُوجٍ) . وَكَمْ فِي سَمَاءِ مَائِهَا مِنْ تَسْرِ رَاقِعٍ، وَوَمِیةٌ تُصَفِّرُ عَلَى دِیَارِهَا الْبَلَّاحِ :
وَمَنْهَلٌ فِي الْفُرَابِ مِیْتُ * سَقِیْتُ مِنْهُ الْقَوْمَ وَأَسْقِیْتُ !

قُلْتُ : فِیْصِرُ؟ قَالَ : زَحَفَ عَلَيْهَا بِسَکْرِهِ الْجُرَّارُ، وَغَطَّ مَائِهِ الطَّيْلُورُ .

قُلْتُ : فَالْحِیَنَ؟ قَالَ : طَلَعَتِ الْمَاءُ حَتَّى عَلَا عَلَى قَنَاطِرِهَا وَتَجَسَّرَ، وَوَقَعَ بِهَا
الْقَصَبُ مِنْ قَامَتِهِ حِينَ عَلَا عَلَيْهِ الْمَاءُ وَتَكَسَّرَ؛ فَاصْبَحَ بِمَدِّ اخْضِرَارِ رِزْمِهِ شَاخِبَ
الْإِهَابِ، تَأَسَّلَ الْخَضَابُ، غَارِقًا فِي قَمَرٍ یَجْرِی بِشَلَهٍ مَوْجٌ مِنْ قُوَّةِ مَوْجٍ مِنْ قُوَّةِ
تَحَابٍ؛ وَقَطَعَ طَرِيقَ زَاوِیَتِهَا عَلَى مَنْ بَهَا مِنَ الْمُتَقَطِّعِينَ وَالْفُقَرَاءِ، وَتَرَكَ الطَّالِحَ
كَالصَّالِحِ یَمِیْشُ عَلَى الْمَاءِ؛ فَتَنَادَوْا مُضْجِعِیْنَ، أَلَا یَسْتَلْطِئُ الْیَوْمَ عَلَیْكُمْ مَسْکِیْنُ،
وَإِذْ رُكِبَهُمُ الْفَرْقُ فَأَیُّسُوا مِنَ الْخِلَاصِ، وَغَشِیَهُمُ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِیَهُمْ وَلَآتَ حِیْنَ
مَنَاصٍ؛ وَتَرَعَلِیْهِمُ السَّقْفُ مِنْ قُوَّتِهِمْ فَهَلَّتْ قَوَائِمُ، وَأَسْتَغَاثُوا مِنْ كَفَرَةِ الْمَاءِ
بِالَّذِیْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِیْلٌ مَا هُمْ .

قُلْتُ : فَالْرُوضَةُ؟ قَالَ : أَحَاطَ بِهَا إِحَاطَةُ الْيَكَامِ بِزَعْمِهِ، وَالْكَلْبُ بِجُبَابِ نَعْرِهِ:

فَكَأَنَّهَا فِیْهِ دَسَاطُ اخْضَرٍ * وَكَأَنَّهُ فِیْهَا طِرَارُ مُنْعَبٍ !

فَلَمْ یَكُنْ لَهَا بِدَفْعِ أَصَابِهِ يَدَانِ، وَكَمْ أُنْشِدَ مَرَّجَهَا حِیْنَ مَرَجَ الْبَحْرِیْنِ یَحْقِیْقَانِ :

أَعْنَى كُفًّا عَنْ فُؤَادِی فَإِنَّهُ * مِنْ الْبَغْيِ سَعَى اثْنَيْنِ فِي قَتْلِ وَاحِدٍ !

قُلْتُ : فَدَارُ النُّحَاسِ؟ قَالَ : اَتَحَسَّ حَالَهَا، وَأَقْسَدَ مَا عَلَيْهَا وَمَا لَهَا؛ فَدَخَلَ مِنْ
حَمَامِهَا الطُّهُورُ، وَقَطَعَ الطَّرِيقَ بِالْجَمَاعِ الطُّهُرِ؛ فَأُلْحِقَ جَزَارَ يَابِهِ بِالْحَقِیْقَةِ، وَوَرَقَ
مِنْهُ عَلَى دَرَجَتَيْنِ فِي دَقِيقَةٍ؛ ثُمَّ أَغْتَرَفَ مَا جَاوَرَهُ مِنَ الْغُرْفِ غَرَفًا، وَأَطْلَقَ مِنْ مَائِهِ
الْأَحْمَرِ النَّارَ بِمَوْدَةِ الْخُلُقِ .

قلتُ : فالتلجح الحاركي ؟ قال : نخرج منكر موجبه بعد الكسر على تحية ،
ومرّق من قيسى قنطرة مروق السهم من الرية .

قلتُ : فالمنشاء ؟ قال : أصبحت البحر مقوره ، بعد أن كانت لليون قوره ، وقبل
لمنشأ : ألى يحيى هذه الله بعد موتها قال : يحيى الذى أنشأها أول مره ، قد مالى
على ما فيها من شؤن الغلال كل الميسل ، وتركها تتلوزمها الذى شقاه بصراها
بابها : (يا مائنا منع منا الكيل) .

قلتُ : بلزرة أروى ؟ قال : قد أفسد جل خيارها ، وألى على منانها ظم يدغ
شعنا من رعيها وخيارها ، أخلق دياجة روضها الأتف ، وترك قفلها فى الجروف
على شفا جوف :

ببنى رأيت الماء يوما وقد جرى • على رأسه من شاعني ففكسرا !

طالبا تضرع بأصابعه إلى ربه ، ولطم برؤوسه الحيطان مما جرى من الماء
على قلبه ، ويمثل بقول الأول :

وإن سألك من قلبى وما قالى • قتل : قالى ، وقلى : قالى ، وقلى : قالى !!!

لم يفده تحضنه من ورقه بالدرق والستار ، ولا حق عليه حين تضرع بأصابعه
فصيح أن الماء سلطان جائر .

قلتُ : لحكر ابن الأمير ؟ قال : لم يبق منه غير الثلث والثلث كثير ، قد أنتمل
من دويره نملها ، وجعل عاليها سافلها ، فكّم دار أعدم صاحبها قراره ، وقادى
فى عرساتها المتداعية : إلك أحنى فاقمى بإجاره ، فأصبحت بعد تعها قليلة
الجداء ، مستولية عليها يد الردى ، فقيمة بدار الدنيا لأنها دار متى أصحكت فى يومها
أبتكت غدا .

قلت : فبإي ؟ قال : إيتاني ، قد آتت بها من الزبي الساق بالساق ، فأتني من التوتية على الصنير والكبير ، ومن المراكب وممرها على النقيير والقطيع .

هذا بعد أن ترك جامع الخطيرى على خطر ، وحيطاته يائمة الغمر ، قد دنا قيطانها ، وحان يلائها ، فكأنى به وقد منع رفته ، وتلا على محرابه سورة السجدة .

قلت : بغزيرة النيل ؟ قال : أقطع أشجارها بشروشها ، وترك سواقيها خلوية على هروشها .

قلت : فالتاج والسبعة وجوه ؟ قال : هم على حريها ، وهم الوجوه من قروها إلى قديها ، قبل ترى الموتى في الثغوم ، وعنت الوجوه لقي القيوم ، قلت : فالحيلة ؟ قال : ترك الحيلة :

دعها تملوكة تجرى على قدير • لا تفسدنا برأي منك راضى (؟)

طال الكئاب ، وتخرجنا عن فصل الخطاب :

ولربما ساق المحدث بعض ما • ليس الندى إليه بالمتاح !

وكأنى بقائل يقول : أليس من الكبر أن يستخيم هذا في رسائه ملوك الكلام ، ومن الحق أن يحل عرائس أفكاره بما للناس من حل التار والنظام ، فاقول : مسلم أن كل ما أوردته دود وجواهر ، وعقود كرهير الربيع ميون ويوهاها التواضر نواظر ، وليكنها هاهنا أمثل ، وجمع شملها على هذى العروس أجل :

• وفي حق الحناء يستحسن البعد !

وعلى الجملة فيرجع الملوك إلى التواضع وهو الأتقى بالأدب ، فيقول : لا عيب على التقية إذا تجملت بحلي النيب ، ولا عار على الجوهرى إذا نظم سلكا كانت دوده على الطرق مريمه ، وتزجج إلى ما ولله الفكر من عجب البحر ، وما ظهر من دفع

الملوك لأمتها عن جريها إلى غايتها بصور القمر، فاقول : إنما قالت الأبداء ذلك لما جرى من جور النيل على الأرض، ولما عم الناس من الإرجاف بطول أذاه ومهزجه فكأنما هم في يوم العرض، وكل ذلك وما وصل إلى هذا الارتفاع، وربما كان أقص من هذه الزيادة بقريب الذراع .

وعلى هذا القياس إنما دفع ضرره، وبجل في البلاد أثره، وحسن في المياه خبره وفي الأرض خبره، السرى الذي أهتاه بالمعروف معروف، وسيف الدين الذي سهر في مصالح الرعايا لما تنام مله أجفانها السيوف، أتاك المصاكر، والملك الذي هو بالإسلام وله منصور وناصر، حصن سائر الكؤى بالحسور، وركز على أفواه البحر والخليج الأمراء كما يركز المجاهدون على الثغور، وقابل البحر من سطواته بما ليس له به قبيل، ورد دمه بكل دفع من الرأي والتدبير يعني عن البيض والأسل، وحارب بعيش عزم إلى أن ولّى هارباً مع القراع والقناطر، وبجاهده ينجذ ركهم على جوايه لما تحقق أن البحر سلطان جائر، وحصره بالتضييق عليه كما تحصر البرك والتراع . وغل يده عن التصرف فسقاء الموت كما سقى الناس أنواع التراع، فما هو إلا قبح نصرة بيران سطواته وأحرق، وفل خاضعاً وكفى به تضرعاً بالأصابع وتوسلاً باللق، وأطاع لما لم تحه مجاهرته من تياره بالسيوف ولا تحصنه من داراته بالدوق .

على أنه تطاول لفضاهي بأصابعه جود أيديه فقصر، وتعمّر قوكب خيل خلبه ليحاكي بأشبهه بوقع من جصور عجيبة وتقطر، وسمت نفسه كبيراً لأن يبلغ قدره قليل : يا بحر هذا خليفة الله في أرضه والله أكبر، تم :

رأى البحر الخضم قناه طام * يفيض على الورى منه بحار،

فصار البحر ملطاً وأضحى * على الحائين ليس له قرار!

فلو زنت في أيام غيره من الملوك المتترفين ، وفيمن يؤثّر ملاذ نفسه على مصالح المسلمين ؛ كنت لثيا الملك بلغت مقصدك ، وفعلت في أبناء مصر كجهتك ؛ وكنت من الملوك الذين إذا دخلوا قرية استولوا فيها الأهله ، وأفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلّه ؛ لكن هبّ قبولك إذبارا ، ولاحت ريحك إعصارا ؛ فليس لك به قبيل ، «والسبل أدرى بالجبل» ؛ فمالك سبيل إلى بلاده ، ولا طاقة بآباب الخير على عناده ؛ فانه خادم الحرمين ، والمدعو له حتى في مواقف الحرب بين العالمين ؛ حامي السواحل والثغور ، والمخدوم بأيادي السحائب وأصابع البُحور ، وإن كنت يا أبا خالد أبا جعفر فليست بمنصور ، والرأي أن تحفّ مستغفرا ، وتقول معتبرا ؛ : لم أفرط بالزيادة في أيامه ، ولم أفض على طرف الميدان إلا لأفوز بتقيل آثار جواد خيله ومواطئ أقدامه ؛ وتقع نواحيه وتمتثل أوامره ، وتدعو له كالرعيا بطول البقاء في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة .

ونحن نسأل الله كما بلغ بك المنافع ، أن يرينا كوكب نورك عن قريب راجع ؛ وكأغنى بزيادتك عن الاستسقاء ، لا يخرجنا في قصصك إلى الاستيفاء ، إنه سميع مجيب الدعاء ؛ بمنّه وكرمه .

الفصل الثالث

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(في قَدَمَاتِ الْبُنْدُق)

تَجَمَّعَ قِفْمَةٌ بِكَمَرِ الْقَافِ وَسُكُونِ الدِّمَالِ الْمُهْمَلَةِ ، وَهِيَ رَسَائِلُ تَشْتَمِلُ عَلَى حَالِ الرَّحْمِيِّ بِالْبُنْدُقِ ، وَأَحْوَالِ الرَّمَاةِ ، وَأَسْمَاءِ طَيْرِ الْوَاجِبِ ، وَأَصْطِلَاحِ الرَّمَاةِ وَشُرُوطِهِمْ .

وَهَذِهِ نَسْخَةُ قِدْمَةٍ ، كَتَبَهَا شَيْخُنَا الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ الصَّائِغِ الْحَقِيقِيِّ الْأَدِيبِ رَحِمَهُ اللَّهُ ، لِصَلَاحِ الدِّينِ بْنِ الْمُقَرَّرِ الْحَقِيقِيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ ، وَنَصَّهَا :

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَدَّدَ لَصَلَاحِ الدِّينِ سِهَامَ الْوَاجِبِ ، وَشَدَّدَ بِتَقَاجِ الْمَطْلُوبِ مَرَامَ الطَّالِبِ ، وَجَسَلَ حُصُولَ الرِّزْقِ الشَّارِدِ بِالسَّقَى فِي الْمَنَاقِبِ ، وَسَهَّلَ الْمُتَتَبِعَ عَلَى الْقَاصِدِينَ فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ رَجَعَ وَهُوَ صَائِبٌ .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا وَلَدٌ وَلَا صَاحِبٌ ، شَهَادَةً تَرْجُو طَيْرَ الْإِشْرَافِ بِهِنَا الْأَشْرَافَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي قَرَّبَهُ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى وَهَيْدَهُ أَطْلَى الْمَرَاتِبِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ رَقَّوْا فِي الْعِلْيَاءِ لَمَرَّاقٍ لَمْ يَسْمُ إِلَيْهَا طَيْرٌ مُرَاقِبٌ ، صَلَاةٌ يُسَبِّحُ بِهَا الْمُصَلِّ إِلَى بِقَاعِ شَرْفٍ يُشْرِقُ سَنَاهُ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ، وَيَرْجِعُ طَائِرًا بِالشُّرُودِ وَلَا رُجُوعَ الطَّائِرِ الشَّارِدِ إِلَى الْمَشَارِبِ .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ الصَّيْدَ مِنْ أَحْلَى الْأَشْيَاءِ وَأَحْلَاهَا ، وَأَجْلَاهَا وَأَجْلَاهَا ، وَأَجْلَاهَا وَأَجْلَاهَا ، وَأَشْهَرَهَا وَأَشْهَرَهَا ، وَأَغْنَاهَا قِيَمَةً ، وَأَغْنَاهَا دِيَمَةً ، بِوُرُودِ الطَّيْرِ فِيهِ إِلَى الْمَنَاقِلِ تَنْشِيرِ الْمَسْدُورِ ، وَبُوقُوعِهِ فِي شُرُورِ الشَّرْكِ يَتِمُّ الشُّرُورُ ، يُحْصَلُ عِنْدَ مُطَابِقِهِ نَقَاطًا ، وَزَيْدُهُ أَنْيَاسًا ، وَيُشْرَحُ خَاطِرُهُ ، وَيُتْرَحُ نَاطِرُهُ ، وَيَبْلَأُ عَيْنُهُ قُرَّةً .

وَقَلْبَهُ مَسْرُوحٌ بِسُجَّجِ الْحَبَانِ، وَبُيَّتَ الْجَنَانُ، وَهُجِيَ الشَّهْوَةُ، وَتَوَسَّى انْطِلَاقَهُ،
وَيَسُوقُ الظُّفْرَ، وَيَسُوقُ النَّظَرَ، وَيَرُوقُ مِنْهُ الْوَرْدَ وَالصَّدْرَ، وَفَوْقَ فِيهِ انْطِلَاقُ
الْخَبَرِ. قَالَ بَعْضُ الْحُكَّامِ: قَلْبًا يَفْتَشُ نَظِيرُ زَهْرَةٍ، أَوْ يَزِنُ مَرِيحُ طَرِيدَةٍ، يَمْنَى
بِذَلِكَ مَنْ أَقْبَمَ الْحَرَكَةَ فِي الْمَسِيدِ وَنَظَرَ إِلَى الْبَسَاتِينِ، فَاسْتَمَعَ طَرْنَهُ بِغَضَرَتِهَا،
وَأَتَبَقَ مَنَظَرَهَا.

وَمَنْ ذَا الَّذِي يُنْكِرُ لَنَّةِ الْأَسْطِيبَادِ، وَالطَّرَبَ بِالْقَصَصِ عَلَى الْإِطْرَادِ؟ وَفَهْ ذَا الْقَائِلُ:

لَوْلَا طِرَادُ الْمَسِيدِ لَمْ تَكُنْ لَنَّةٌ * قَطَارِدِي لِي بِالْوَصَالِ قَلِيلًا.

هَذَا الشَّرَابُ أَخُو الْحَيَاةِ وَمَا لَهُ * مِنْ لَنَّةٍ حَتَّى يُصِيبَ عَلِيلًا!

يَا حُسْنَهُ مِنْ فِعْلٍ أَعْطَتْ بِالْقِسْمِ مَوَارِدُهُ وَمَصَادِرُهُ، وَقَافَتْ أَوَائِلُهُ فِي اللَّذَائِدِ،

أَوَاخِرُهُ، وَفَهْ الْقَائِلُ:

إِنَّمَا الْمَسِيدُ هِمَّةٌ وَفَسَاطَةٌ * يَغِيبُ الْجِسْمَ مَحْمَةً وَصَلَاحًا،

وَرَجَاءُ يُنَالُ فِيهِ سُورٌ * حِينَ يَلْقَى إصَابَةً وَنَجَاحًا!

وَمَا أَطْلَبَ الْاِقْتِنَاصَ بَعْدَ الشُّرُودِ، وَكَيْفَ رُبُّ مَوْقِعِ الْوَصْلِ بَعْدَ الصَّدُودِ:

وَزَادَنِي رَغْبَةً فِي الْحُبِّ أَنْ مَنَعَتْ. * أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مَنَعَا!

تَقْضِي رِيَاضَاتُ النُّفُوسِ السَّامِيَةِ بِمُعَاطَاةِ كَلَامِهِ، وَمُصَافَاةِ نَاسِهِ، لِمَا فِهِمَ مِنْ

الْقُوَّةِ، وَكَيْلِ الْمُرُوءِ، وَصِدْقِ اللِّسَانِ، وَبَيَّاتِ الْجَنَانِ، وَطَيْبِ الْأَخْلَاقِ، وَحِفْظِ

الْمِيثَاقِ؛ لَا يَمْرُفُونَ غَيْرَ الصَّدْقِ وَإِنْ كَانُوا يَمِيلُونَ إِلَى الْمَلَقِ، وَلَا يَتَفَوَّنُ بِصَاحِبِهِمْ

بَدِيلًا يَطْفِئُونَ عَلَيْهِ عَطْفَ النَّسَقِ؛ لَا سِيمَا تَعَامَلَى صَبْدَ طُيُورِ الْوَاجِبِ، الَّذِي سَنَهُ

الْأَكْبَرُ وَجَعَلُوا أَمْرَهُ مِنَ الْوَاجِبِ؛ وَتَشَرَّفَتْ بِهِ هِمَّتُهُمُ الْعَالِيَةُ: تَارَةً إِلَى السَّمَاءِ، -

وَأُوتِيَتْهُ لِي مَشَارِعُ الْمَاءِ.

لَا يَمُرُّ سُرُورُهُمْ إِلَّا بِرُؤْيَايَةٍ تَمَّ كَيْدُ الْهَمَلِ ، وَصَفَايَ الْفَلَامِ ؛ يَغُرُّ مِنْ ظِلِّهِ فِرَارُ ،
وَرِيكِ بِيَاضِ تَوْنِهِ وَسَوَادِ مَنَاقِرِهِ شَهَاً وَوَقَاراً ؛ وَلَا يُمَاوِي هُمُومَ لَهْمٍ مِثْلَ كَيْ ،
لَا أَجْنَحَتَهُ الْخَوَافِي فِي الْخَلَاقِينَ نَشْرُوطِي ، وَلَا تَهْتِجُ نَفُوسُهُمُ النَّفْسَةُ إِلَّا بِأَوْرِهِ ،
يَزْدَرِي دَلَالَهَا بِالْكَاسِبِ الْمَعْتَرِ ، وَلَا يَطْرِبُ أَسْمَاعَهُمْ غَيْرُ لَقَاتِ الْفَلَقَةِ ، حِينَ يَمْتَدُّ
كَأَنَّمَا مُدَامَةٌ فِي الرَّجَاجَةِ مُفَرَّقَةٌ ؛ وَلَا يُؤْنِسُهُمْ إِلَّا الْإِيْسَةُ الْإِيْسَةُ ، وَالنَّدْوَةُ النَّفْسَةُ ؛
وَلَا يَلْهَبُ حَرَمَهُمْ غَيْرُ الْمَجْرَجِ الصَّادِحِ ، الْمُسْتَوْفِ بِحُسْنِهِ كُلِّ غَايٍ وَرَائِحِ ؛ تَكَادُ
قُلُوبُهُمْ تَطِيرُ بِالْفَرَحِ عِنْدَ رُؤْيَا النَّشْرِ الطَّارِ ، وَتُجَبَّرُ خَوَاطِرُهُمْ بِكَيْدِ ذَلِكَ الْكَاسِرِ ؛
إِذَا عَابَسُوا عَقِبَانًا أَغْصَبَهُمُ الْفَرَحُ ، وَتَرَجَّ عَنْهُمْ التَّرَجُّ ؛ وَإِنْ كَرَّ كَرْكِي فَرَعَهُمُ الْبُوسُ ،
وَرَأَوْا عَلَى رَأْسِهِ ذَلِكَ النَّجَاحَ الَّذِي لَمْ يَحُلْ مِثْلُهُ عَلَى الرُّؤُوسِ ؛ وَإِنْ عَرَّضَ غَيْرُ نَوْقٍ
غَيْرِقُوا فِي مِحَارِ أَفْكَارِهِمْ ، وَجَدُوا إِلَى أَنْ يَجْعَ يَهْدِلُوا أَوْتَارِهِمْ ؛ وَإِنْ لَاحَ صُوعٌ
كَالْذَهَبِ الْمَصْبُوعِ ، أَلْفَقُوهُ فِي الْحَبَالِ وَهُوَ بَدِيْعٌ مَصْبُوعٌ ؛ وَإِنْ مَرَّ مِرْزَمٌ كَالْمَقُودَةِ
الْحَسَنَاءِ ، ضَرَبُوا لَهُ الْآلَةَ الْحَسْبَاءَ ؛ وَإِنْ مَرَّ السَّيْطَرُ أَجْنَحَتَهُ كَالسَّحَابِ ، جَاءَتْهُ
الْمَرَامِي مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ؛ وَإِنْ عَزَّ عَمِدُوا إِلَيْهِ ، حَتَّى يُسْقَطَ فِي يَدَيْهِ ؛ قَدْ تَعَالَوْا
فِي رَتْبِهَا ، وَتَعَالَوْا فِي وَصْفِ وَشْيِهَا .

وَجَعَلُوا كُلَّ آلَةٍ صَنِيعَهُ ، وَرَبَّةَ حَالٍ مَنِيْعَهُ ، وَبَعِيدَةَ الرِّقَى بَدِيْعَهُ : -

مِنْ كُلِّ قَرِيْبٍ هِيَ فِي الْعَيْنِ كَالْحَسَابِ ، أَوْ التَّوْنِ الَّتِي أَجَادَهَا الْكَاتِبُ ؛ تُدَوِّرُ
الطَّائِرَ حُصْدَ الرِّقَى وَيَلْبِيْهِ ، وَتَهْنِئُ أَيْتَانًا أَوَّلَى بِهِ مِنْ تَصْيِيْبِهِ . وَتُبْدِيْ جِلْبَتَ طَيْفَتِهِ
عَلَى صَوْبِ انْصِوَابِ ، يَسْتَتِرُ الطَّيْرُ وَلَوْ اسْتَتَرَ بِذَيْلِ السَّحَابِ ؛ كَأَنَّهُ التَّعْمُّ النَّاقِبُ ،
وَالشَّهَابُ الْمَنَابِ ؛ يَرَى الطَّيْرُ كَالسَّحَابِ الْوَائِكِ ، فَيَنْقُضُ عَلَيْهِ اقْتِضَاضَ الْبَرَقِ
الْخَاطِيفِ ؛ وَيَرْجِعُ النَّشْرُ مِنْ حَتْفِهِ رَاقِعًا ، وَيَخْلُو بَعْدَ أَنْ كَانَ طَائِرًا وَاقِعًا ؛ وَيَصِيرُ
بَعْدَ أَنْ كَانَ كَاسِرًا مَكْسُورًا ، وَفِي سَوَارِ الْقَسِيِّ مَأْسُورًا ؛ فِهَذَا لِكَيْ يُقْلَى النَّاقِبُ

وهو مقلوب ، والطير الواجب وهو مندوب ؛ فحينئذ تشرح النفوس ، وتطرب ولا طربها بالكؤوس .

ولما كان بهذه المنزلة العظيمة ، والمرتبة الجسيمة ؛ تماطته الملوك وأبناء الملوك ، ونظموا عقده بحسن السلوك ؛ وأزاحمت به النفوس الطاهرة ، وأعاضت به عن الكؤوس الدائرة ؛ ورأت به تكجيل الأقدوات ، وسامت به فصل الواجب وإن قيل : إن ذلك من المفقات ؛ فهو تمبب تشأ الراحة عنه ، ولعب لم يكن شئ أشبه بالجد منه .

فلذلك قصد الجبابر الكريم ، العالى ، الصلاحي ، صلاح الدنيا والدين ، ونجاح الطالبين ، سيلل الوزراء ، ويحل الكبراء ، وصدر الرؤساء ، وعين العظام ؛ ابن المفتر التحيوى بن فضل الله ، أدام الله تعالى جلده ، وكبت عداه ؛ وأعلى مقامه ، وشكر مسامحه ؛ وأطال حياته ، وأطاب ذاته . أن يسلك تلك المسالك ، ويرض نفسه الكريمة بذلك ، ويحصيل حل تحصيل اللذات بالتحول ، عملاً بقول الشاعر :

• تتقل فلقأت الهوى في التقل ! •

وعند إلى تحصيل الآتيه ، سائر كالبدن في حالاته ؛ فصار مع سراًيا كالنجوم ، يتفككون في الحديث بانسور والتنظوم ؛ ويحيطون جيد القول بهزله ، كلب خبط لم طل الجود بويله ؛ وانحدروا في النيل بجمهم الصحيح ، وقصدوا المرامي العالية ولم يفتنوا من الأيام بالرجح ؛ وعلموا يسرون في تلك المراكب ، التي كانوا قطع السحاب .

هذا وهم يتشوقون إلى المصايد ، ويشرفون إلى الشوارد ؛ فيطئون أخبثاً إلى البر متخرجين ، وطيب ذلك النسيم متارجين :

نَسَمٌ قَدْ مَرَىٰ فِيهِمْ بَشِيرٌ • فَأَذْكُرُهُمْ بِسَرَاهِ السَّرِيَّا!

كَرَامَتُهُ اسْتَقْرَتْ حِينَ وَأَقَى • لَهُ نَفْسٌ يُبِيدُ الْمَيِّتَ حَيًّا!

وَيَحْتَسِنُونَ مِنَ النَّفْسِ الزَّاهِي قَدَا ، وَيَحْتَلُونَ مِنَ الْوَرْدِ الزَّاهِرِ خَدَا ؛ وَيَتَأَمَّلُونَ
صَحَاةَ الْأَرْضِ مِنْ بُكَاهِ السَّمَاءِ ، وَتَحَاةَ الْقُصْبِ عِنْدَ تَحْرِيرِ الْمَاءِ ؛ لَا تَلْتَوِقُ أَجْفَانُهُمْ
طَلَمَ الْكَرَى ، وَلَا يَحِيلُونَ عَنِ السَّيْرِ وَلَا يَمْلُونَ السَّرَى ؛ مَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ إِذَا رَأَى الطَّيْرَ
جَانِسًا ، عَادَ مِنْ وَقْعِهِ لَهُ حَاشَا ؛ يَبْنِوْنَ بِسَيْرٍ مَتَّقِينَ ، حَتَّى إِذَا لَاحَ لَمْ طَيْرٌ
تَدَاوَى إِلَيْهِ غَيْرُ مُقْصَرِينَ وَالتَّقْوَا حَقِّقِينَ ؛ وَلَمْ يَزَالُوا كَلَّكَ يَتَهَمُونَ الْبَيْشَ ، بِالذِّمَّةِ
وَالطَّيْشِ ، حَتَّى إِذَا أَقْبَلَ الْيَوْمُ الْمُبَارَكُ التَّامِنُ وَالْعَشْرُونَ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ
تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي عَزَمَ فِيهِ الْجَنَابُ الصَّلَاحِي عَلَى الْأَصْطِيَادِ ،
بِالْبَلَدِ الْخِلْدَادِ ؛ فَجَانَسَتْ بِهِ الطُّيُورُ ، وَسَدَّتْ بِأَجْنِحَتِهَا الثُّنُورَ ؛ وَسَهَّلَ عِنْدَهَا
فِيهِ تَزُولَ الرِّيسِ ، بِغَادَتِ لَهُ بِالْفَيْسِ ؛ وَخَرِجَتْ مِنْ قَفْرِهَا ، وَتَمَحَّجَتْ عِنْدَ
مَدِّ الْقَوْسِ بِحَزْنِهَا ؛ وَرَغِبَ كُلُّ مَنْهَا أَنْ يَكُونَ لَهُ بِذَلِكَ أَوْفَرُ الْقِسَمِ ، وَرَجَى أَنْ
يَكُونَ هُوَ الْمَكْتُوبَ لَهُ فِي الْقِسَمِ •

وَمَدَّ يَدَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ ، فَاصَابَ مِرْزَمًا ؛ فَقَالَ مِنْ صَيْدٍ فَاقَ بِهِ عَلَى الْأَكَابِرِ الصَّيْدِ !
وَقَالَ مِنْ يَوْمٍ صَارَ يُخَيَّرُ الطَّيْرَ يَوْمَ الْيَمْدِ ! أَقَامَ فِيهِ بِوَجِبِ مَاشَرَعِهِ الرُّمَّةَ مِنَ الشَّرْعِ ،
وَذَكَّرْنَا بِهَذَا الصَّرْعِ يَوْمَ ذَلِكَ الصَّرْعِ ؛ فَلَا زَالَ سَهْمُهُ مَسْدَدِ الْأَعْرَاضِ ، وَجَوْهَرُهُ
نَجْمًا مِنَ الْأَعْرَاضِ ؛ يَجْرَى بِمِرَادِهِ الْمُقْدُورُ ، وَيُطِيعُهُ فِي سَائِرِ الْأُمُورِ •

وَقَدْ نَظِمْتُ مُحْتَسًا مُشْتَمَلًا عَلَى ذِكْرِ طُيُورِ الْوَاكِجِ ، وَطَرِزْتُهُ بِأَسْمِهِ ، لِأَنَّ هَذِهِ
الْقِسْمَةَ قَدْ قَدِّمْتُ لَهُ وَجُطِلَتْ بِرَبِّهِ ، غَيْرَ أَنِّي أَعْتَذَرُ عَنْهَا ، لَمَدَمَ مَادَّةٍ عِنْدِي
اسْتَمَدْتُ مِنْهَا :

جَلَّ بُكُؤُومًا حُطِّلَتْ بِالرَّاحِ ، • وَلَا تُطْلِعْ فِيهَا كَلَامَ لَايٍ ،
وَأَشْرَبَ حَيْثَا وَأَسْفَى بِاصْحَاحِ ، • وَأَذْهَكُرْ زَمَانًا مَرَّ بِالْأَفْرَاحِ ،
• هَبَّتْ بِهِ فَيَا مَعْنَى رِيَّاحِ ! •

أَيَّامَ كُنْتُ أَحْبَبُ الْأَكْبَرَاءِ ، • وَأَقْبَضِي مَعَ الزَّمَانِ سَائِرَاءِ ،
وَلَا أَرَا لِي بِالنِّسَارِ غَايِرَاءِ ، • إِذَا رَأَيْتُ فِي الْمِيَاهِ طَائِرَاءِ ،
• نَحْوُهُ مِنْ سَائِرِ النَّوَاحِ ! •

فَنَارَةٌ كُنْتُ أَصِيدُ النَّسْرَاءِ ، • وَبَسَدَ الْعُقَابُ يَمْحَى الْجَمْرَاءِ ،
وَالْكُفَى وَالْكُرَى صِنْتُ جَهْرَاءِ ، • وَصِنْتُ غَيْرَ نَوْقًا وَصَتًا قَهْرَاءِ ،
• وَكُنْتُ بِالْإِدْرَافِ فِي أَنْثَرِاحِ ! •

وَنَارَةٌ تَمَّا كَبَدْتُ السَّمَّ • تَبَيَّنَ أَهْلُهَا كَالنَّجْمِ ،
وَلَفُظَ أَسْوَدُ مِسْكٍ أَلْهَمَ ، • وَجَرَّجَ عَنْ الرِّمَاءِ تَحْمِي ،
• وَالشُّعُوبُ مَعَ سَيِّطَرِ^(١) سَبَاحِ ! •

وَكَمْ وَكَمْ قَدْ صِنْتُ يَوْمًا مَرَزَمًا • أَثَرُهُ بِالْقَوْسِ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ ،
جَنَاحُهُ يَمْحَى طَرَارًا مُعْلَمًا • عَلَى بَيَاضِ شَيْءٍ شَبَّهِ السَّمَاءِ ،
• كَأَنَّهُ لَيْلٌ عَلَى صَبَاحِ ! •

حَيْثُ الْعَبَا تُسْفَعُ بِالْقَبُولِ ، • وَتَمْلَأُنَا بِمُتَمَعٍ بِالشُّمُولِ ،
فِي جَمْلِيسٍ لَيْسَ بِهِ فُتُوسُولِ ، • وَجَانَنَا التَّوْفِيقُ فِي الْوُصُولِ :
• فَسَادُكُمْ بِفَقْرٍ بِالصَّلَاحِ ! •

(١) ورد في (ص ٦٧ ج ٢) من هذا الكتاب : بالشَّيْءِ المحببة مضمومة .

السَّيِّدُ الْفَاتِي فِي أَصَالِهِ ، * وَالْمُزْدَرِي بِالْبَدْرِ فِي كَمَالِهِ ،
وَالْمُشْتَرِي حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ ، * لَا أَحَدٌ يَحْكُمُهُ فِي نَوَالِهِ :
* إِلَّا أَخُوهُ مُعَلِّدُ السَّجَالِ ! *

مَنْ سَادَ فِي الدُّنْيَا عَلَى الْكُلِّ ، * وَصَانَ سِرَّ الْمُلْكِ فِي حِجَابِ ،
عَلَى الْعَالِي عَلَى السُّحَابِ ، * الْبَائِلُ الْمَالَ بِلا حِسَابِ !
زَادَهُ اللَّهُ نِعْمًا ، وَأَجْرَى لَهُ فِي النَّدَى يَدًا وَتَبَّتْ لَهُ فِي الْعُلَى قَدَمًا بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .



وهذه نسخة رسالة في صَيِّدِ الْبُنْدُقِ ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين أبي الثناء
محمود بن سلمان الحلبي رحمه الله ، وهي :

الرِّيَاضَةُ - أَطَالَ اللَّهُ بَهَاءَ الْجَنَابِ الْفُلَانِيَّ ، وَجَمَلَ حُجَّةَ كَقَلْبِ عُدُوِّهِ وَأَجَابَا ، وَسَعَدَهُ
كَوْصِفِ صَيْدِهِ لَلَسَّازِ جَالِيَا ، وَلَقَضَا حَاجِبَا - تَبَعْتُ النَّفْسَ عَلَى مُجَانِبَةِ الدَّعَةِ وَالشُّكُونِ ،
وَتَصَوَّرْتُهَا عَنْ مُشَابَهَةِ الْحَمَائِمِ فِي الرُّكُونِ إِلَى الْوُكُونِ ، وَتَحَفَّضْتُهَا عَلَى اخْتِذِ حَقْلِهَا مِنْ كُلِّ
فَنٍّ حَسَنٍ ، وَتَحَفَّضْتُهَا عَلَى إِضَافَةِ الْأَدْوَاتِ الْكَامِلَةِ إِلَى فَصَاحَةِ اللِّسَنِ ، وَاخْتِذْتُهَا طَوْرًا
فِي الْحَدِّ وَطَوْرًا فِي اللَّيْلِ ، وَتَقَرَّرْتُهَا مِنْ مَلَأَتِ السَّمَاءَ فِي الْمَشَاقِّ الَّتِي يَسْتَرْجِعُ إِلَيْهَا
النَّيِّبُ . فَتَارَةً تَقِيلُ الْأَكَابِرَ وَالْمُظَلَّمَاتِ فِي طَلَبِ الصَّيْدِ عَلَى مُوَاسَلَةِ الشَّرِّ ، وَمُقَاطَعَةِ
الْكُرَى ، وَمُهَاجِرَةِ الْأَوْطَارِ ، وَمُهَاجِرَةِ الْأَخْطَارِ ، وَمُكَابَلَةِ الْمَوَاجِرِ ، وَمُبَادَرَةِ الْأَوْبِدِ
الَّتِي لَا تَعْدُكَ حَتَّى تَبْلُغَ الْغُلُوبُ الْحَتَّابِ ، وَفَلَكٍ مِنْ عَمَّاسِينَ أَوْ سَافِهِمِ الَّتِي يُلْمُ الْمَعْرُوضُ
عَنْهَا ، وَإِنَّا كَانِ الْمَقْصُودُ مِنْ سَيْلِهِمْ جَدَّ الْحَرْبِ فَهَذِهِ صُورَةُ سَبَبِ يُخْرِجُ إِلَيْهَا هَا .
وَتَارَةً يَدْعُوهُمْ إِلَى الْبُرُوزِ إِلَى الْمَنَارِ - وَرَسْمِهِمْ فِي سُلُوكِهِ طَرِيقًا مَعَ مَنْ هُوَ نَهْمُ

على ملازمة الصنق ومجانبة الملقى، فيمتسئون إليها العجبى، إذا سمى؛ ويقتسمون في بلوغها حرق النهار، إذا أنهار؛ ويقتسمون بوقت السفر، في بلوغ الظفر، ويستصغرون ركوب الخطر، في إدراك الوطر؛ ويؤثرون السهر على النوم، واللبلة على اليوم؛ والبنق على السهام، والوحدة على الائتام.

ولما عدنا من الصيد الذى اتصل به حديثه، وشرح له قديم أمره وحديثه؛ قلنا إلى أن نسمع صيد السواح، برى السوادح؛ وأن نفعل في الطير الجوارح، بأهل القيس ما نفعل الجوارح؛ تفضيلاً للملازمة الأرتحال، على الإقامة في الرحال؛ وأخذنا بقولهم:

لا يصلح النفس إذ كانت مدبرة * إلا التقل من حال إلى حال!

فبرزنا ونمسن الأصيل تجود بنفسها، وتسير من الأفيق الغربى إلى موضع رميمها؛ وتنازل عيون النور بمقلة أرمدة، وتظهر إلى صفعات الورد نظر المريض إلى وجوه السود؛ فكانها كتيب أسمى من الفراق على فرق، أو عليل يقضى بين صحبه بهايا مئة الرمي؛ وقد أخضلت عيون النور لوداعها، وهم الروض بطلع حله المؤنة بذهب شاعها:

والطل في أعين النوار تحسبه * دمعاً تحير لم يرقاً ولم يكف:

كلؤلؤ غل عطف النصن متشعاً * ينفده وتبدئ منه في شنف.

يضم من سندس الأوراق في صرر * خضر ويختل من الأزهار في صدف!

والشمس في طقل الإنشاء تنظر من * طرف غدا وهو من خوف العراق خنى:

كاشقي سار عن أحبابه وهفاً * به الهوى قرأ أهم على شرف.

للى أن نضى المغرب عن الأفق حل قلايها، وعوضه عنها من النجوم بجمدها وولايدها؛ قلنا بعد أداء الفرض لبث الأهل، ومنعنا جفوتنا أن ترد النوم

لَا تَحِلُّهُ ، وَتَهْفُئَا وَبُرْدُ اللَّيْلِ مُوَشَّعٌ ، وَفَقْدُهُ مُرْصِعٌ ، وَإِكْلِيلُهُ مُجُومَرٌ ، وَأَدِيمُهُ
مُعْتَبَرٌ ، وَبَدْرُهُ فِي خِندَرِ سِرَارِهِ مُسْتَكِينٌ ، وَبَقَرُهُ فِي حَتَا مَطَالِيعِهِ مُسْتَجِنٌ ، كَانَ
أَمْتَرَجَ لَوْنِهِ بِشَفَقِ الْكَوَاكِبِ خَلِيطًا بِسِكِّ وَصَنْدَلٍ ، وَكَانَ ثَرِيًّا لَا مَتَدَادَهُ مُعَقَّةٌ
بِأَسْرَاسٍ تَكْنِي لِلْنَّ صُمَّ جَنْدَلٍ :

وَلَا حَتَّ مُجُومُ اللَّيْلِ زُهْرًا كَلَّتْهَا • عُقُودٌ عَلَى خَوْدٍ مِنَ الرِّيحِ تُنْظَمُ ،
عُقَّةٌ فِي الْجَسَدِ تُحَسَّبُ أَنَّهَا • [طُبُورٌ] عَلَى نَهْرِ الْهَمْزَةِ حَوْمٌ
إِذَا لَاحَ يَأْزِي الصَّبِيحَ وَلَّتْ بِؤْمُهَا • إِلَى التَّرَبِّ خَوْفَانُهُ نَسْرٌ وَمِرْزَمٌ !

إِلَى حَدَائِقِ مَلَقْطِهِ ، وَجَدَائِلِ حَقَّتِهِ ، إِذَا نَحَشَ النَّسِيمُ حُصُونَهَا أَصْغَتْ أَهْنِاقُ
الْأَحْبَابِ ، وَإِذَا فَرَّكَ مَرَّ الْمِيَاءِ مَتُونَهَا أَنْسَابَتْ فِي الْجَدَائِلِ أَنْشِبَابَ الْحَبَابِ ،
وَرَقَصَتْ فِي الْمَسَاحِلِ رَقَصَ الْحَبَابِ ، وَإِنْ لَمْ تَمُورْ تَوْرِيحًا حَيْثُ بِأَقْصَافِ الْمَشْوُوقِ ،
وَأِنْ أَقْطَفْ تَوَاصِصَ وَرْقِهَا غَتَّهَ بِالْحِلَالِ الْمَشْوُوقِ ، فَتَسِيمُهَا وَأَنْ ، وَتَسِيمُهَا لَعْرِفَ الْحَنَانِ
ضُنُونٌ ، وَوَرْدُهَا مِنْ سَهَرِ زَيْجِيمِهَا قَبِيرَانٌ :

وَلَطَّلَهَا فِي خُدُودِ الْوَرْدِ مُنْبَعِثٌ • طَوْرًا وَفِي طَرَرِ الرِّيحَانِ حَيْرَانٌ !

وَمَا زِيَارُهَا غَيْرُ دُ ، وَمَا زِيَارُهَا مَطْرِدٌ ، وَغُصْنُهَا تَارَةً يَطْلُفُهُ النَّسِيمُ إِلَيْهِ فَيَنْعَطِفُ ، وَتَارَةً
يُطَلُّ تَحْتَ وَرْقَانِهِ فَيُحَسَّبُ أَنَّهَا هَمْزَةٌ عَلَى أَلْفٍ ، مَعَ مَا فِي تِلْكَ الرِّيَاضِ مِنْ تَوَاقِي
الْحَاسَنِ وَتَبَاقِي التَّرْتِيبِ ، إِذْ كَلَّمَا أَهْلَ النَّسِيمِ مَعَ الْأَرْجِ وَكَلَّمَا خَرَّ الْمَاءُ تَمْتَعُ الْقَضِيبِ :

فَكَلَّمَا تِلْكَ النُّصُونُ إِذَا تَنَّتْ • أَعْطَا فَهَا رِيحُ الْمَسْبَا أَحْبَابٌ :

فَلَهَا إِذَا أَتَقَرَّتْ مِنْ أَمْتِعَاطِهَا • صُلُحٌ وَمِنْ صَبِيحِ الْحَمَامِ عِتَابٌ .

وَكَلَّتْهَا حَوْلَ الْعُيُونِ مَوَاسِيَا • شَرِبَتْ وَهَاتِيكَ الْمِيَاءَ شَرَابٌ !

فَقَدَّرُهَا كَلَّاسٌ وَمَلَبُّ نِعَاطِهَا • رَاحَ وَأَضَوَّاهُ التَّجُومُ حَبَابٌ !

يحيط بآلتي نطائها صاف، وظلال دوحها صاف، وحصاصا لصفاها ماتها في قيس
الأمر راكد وفي رأي العين طاف، وإذا دغدغها النسيم حبت ماعا بتأيل الظلال
فيه يتبرج ويحيل، وإذا أكردت عليه أنفاس العبا ظنت أفياء تلك الفصون تارة
تتفوح وتارة تسيل :

فكانه حُب مأم بالفضون هوى قتلها في قلبه، وكان النسيم كلف بها غارس
دونها إليه ليلها عن قر به :

والنور مثل عرائس • لفت عيون الملاء،

تحرر فغسل الأزرع • سوق خلاخلهن ماء،

والنهر كالمرآة تشظرو وجهها فيه السناء !!!

• وكان صواف الطيور المتسقة بتلك الأرض خيام، أو ظباء باطل للرفقنين قيام،
أو أباريق فضية رؤوسها لها أقدام، ومتأقيرها المصرة أوائل ما أنسكب من الدمام،
وكان رقابها رماح استبها من ذهب، أو شموع أسود رؤوسها ما انطلق وأحره
ما ألقب، وكأكالطير الجليل عده، وكطراز العمر الأول جده :

من كل أبلج كالنسيم لطافة • عَفّ الضمير مهذب الأخلاق،

مثل البذور ملاحه، وكفهرها • عندنا، ومثل الشمس في الإشراق!

ومعهم في كالفصون في لطائها ولينها، والأهلية في تحاقها وتكوينها، والأزاهير
في تراقها وتلوينها، بطونها مدبجه، ومتونها مدرجه، كأنها كواكب الشولة في أنعطافها،
أو أرواق الظباء في أنصافها، لأوتارها عند القوايد أوتار، وليتأديها الحواصل
أو كوار، إذا انتضيت لصيد ذهب من الحياة نصيبه، وإن انتصت لرحي بداهها
إنها أحق به ممن يصيبه، ولعل ذلك الصوت زجر لئديها أن يبطى في سعيه،

أَوْ يَنْقَلِي النَّرَضَ لِيْ غَيْرِهِ ، أَوْ وَحْشَةً مُّفَارِقَةً أَفْزَدَ كَيْدِهَا ، أَوْ أَسْفُ عَلَى
خُرُوجِ بَيْتِهَا مِنْ يَدِهَا ، عَلَى أَنَّهَا طَلَّقَتْ نَبْتَ بَيْتِهَا بِالْعَرَاءِ ، وَشَقَّتْ لِنَحْصِهَا
التَّحْذِيرَ بِالْإِعْرَاءِ :

مِثْلُ الْقَارِبِ إِذَا بَا مُعْقَدَةً * لَمِنْ تَأَمَّلَهَا أَوْ حَقَّقَ النَّظْرَا !
إِنْ مَلَّهَا قَرْمِمْهُمْ وَعَايَنَهُ * مُسَافِرُ الطَّيْرِ فِيهَا أَوْ نَوَى سَفَرَا ،
فَهُوَ الْمَسِيءُ أَخْيَارًا إِذْ نَوَى مَقَرَّا * وَقَدْ رَأَى طَالِمًا فِي الْمَقَرِّ الْقَمَرَا !

وَمِنْ الْبَتَادِقِ كُرَاتٌ مُّتَفَقَّةُ السَّرْدِ ، مُتَحَلَّةُ الْمَكْسِ وَالطُّرْدِ ، كَأَمَّا خُرِطَتْ مِنْ
الْمَنْدِيلِ الرُّطْبُ أَوْ عُجِنَتْ مِنَ السَّبْرِ الْوَرْدُ ؛ تَمِيرُ كَالشَّهْبِ فِي الظَّلَامِ ، وَتَسْبِقُ إِلَى
مُقَاتِلِ الطَّيْرِ مُسَدَّاتِ السَّمَاءِ :

مِثْلُ النُّجُومِ إِذَا مَاسَرَتْ فِي أَفْقٍ * عَنِ الْأَهْلَةِ لَكِنْ نُوبُهَا رَأَى .
مَافَاتِهَا مِنْ نُجُومِ اللَّيْلِ إِنْ رُمِقَتْ * إِلَّا ثَبَاتٌ يُرَى فِيهَا وَأَضْوَاءُ ،
تَمْرَى وَلَا يَشْعُرُ الْقَلِيلُ الْبَهِيمُ بِهَا * كَأَنَّهَا فِي جُفُونِ اللَّيْلِ إِغْفَاءُ ،
وَتَسْمَعُ الطَّيْرُ إِذْ تَهْتَفُو قَوَائِمَهُ * حَوَاقِفًا فِي الدِّيَابِ وَهِيَ مَمَاءُ !!!

يَعْبُودُهَا بِجِرَؤُهَا كَأَنَّهَا دُرُجٌ دُرٌّ ، أَوْ دُرُجٌ غُرٌّ ، أَوْ كَيَاةٌ عَمْرٌ ، أَوْ كَيَاةٌ نَبَلٌ ،
أَوْ عَمَلَةٌ وَبَلٌ ؛ حَالِكَةُ الْأَدِيمِ ، كَأَمَّا رُبِّقَتْ بِالشَّقِيِّ حُلَّةٌ لَيْلِهَا الْبَيْمُ :
كَأَنَّهَا فِي وَضْعِهَا مَشْرِقٌ * تَهْتَفُ مِنْهُ فِي الدُّجَى الْأَنْجُمُ ،
أَوْ دِيمَةٌ قَدْ أَطْلَعَتْ قَوْمَهَا * مَلُوتًا وَأَنْشَقَّتْ نَسْمُهَا !

فَاتَّخَذَ كُلُّ لَهْ مَرْكُورًا ، وَتَقَفَى مِنَ الْإِصَابَةِ وَعَلَا مُنْجَرَا ، وَصَحَنَ لَهُ السَّعْدُ أَنْ
يُصْبِحَ لِمُرَادِهِ مُخْرَا :

كَأَنَّهُمْ فِي يَمِينِ أَصْلَمٍ * فِي نَظَرِ النِّصْفِ وَالْجَانِبِ:

قَدْ وَلِدُوا فِي طَالِحٍ وَاحِدٍ * وَأَشْرَقُوا مِنْ مَطْلَعِ وَاحِدٍ!

فَسَرَتْ عَلَيْنَا مِنَ الطَّيْرِ مَصَابِيهَ، أَظَلَّتْنَا مِنْ أَجْنَحَتِهَا عَصَابِيهَ؛ مِنْ كُلِّ طَائِرٍ أَفْلَحَ
يَتَأَدُّ مَرَّتَمًا، فَوَجَدَ وَلَكِنْ مَصْرَعًا، وَأَسْفَ يَجْنِي مَاءَ جَمًّا فَوَجَدَ وَلَكِنْ السَّمَّ مُتَمًّا،
وَسَلَّقَ فِي الْقَضَاءِ بَيْعِي مَلْعَبًا فَاتَ هُوَ وَأَشْيَاعُهُ مُجْبَدًا لِحَارِبِ الْقَيْسِيِّ وَرُكْمًا؛ فَتَبَرَّكَا
بِذَلِكَ الْوَجْهِ الْجَمِيلِ، وَتَعَارَكَا أَوَائِلَ ذَلِكَ الْقَبِيلِ .

فَاسْتَقْبَلَ أَوْلَانَا نَعَامَ بَذَرِهِ، وَعَظَمَ فِي تَوَعُّهِ وَقَدَرِهِ؛ كَأَنَّهُ بَرَقَ كَرَعٌ فِي حَسَقِ،
أَوْ صُبْحٌ حَلَفَ عَلَى قِيَّةِ الدُّجَى عَطَفَ النَّسَقِ؛ تَحَسَّبَ فِي أَسْدَادِ الْمَنَى غُرَّةً مُنْجَحَ،
وَتَحَالَّ نَحْتِ أَذْيَالِ الدُّجَى طُرَّةً صُبْحَ؛ عَلَيْهِ مِنَ الْبَيَاضِ حُلَّةٌ وَقَارَ، وَلَهُ كَدْحُنِي عَنِيرِ
فَوْقَ مِيقَايِرٍ مِنْ قَارَ، لَهُ حُنُقٌ ظَلِيمِ، وَأَلْفَاظَةٌ رِيمِ، وَسُرَى غَيْمٍ يُصْرِفُهُ نَسِيمِ :

كَتَوْنِ الْمَيْشِيبِ، وَعَصِيرِ الشَّبَابِ، * وَوَقْتِ الْوَصَالِ، وَيَوْمِ الظُّفْرِ!

كَأَنَّ الدُّجَى غَارَ مِنْ لَوْنِهِ * فَأَمْسَكَ مِيقَارُهُ ثُمَّ قَرَأَ!

فَارْسَلَ إِلَيْهِ عَنِ الْهَلَالِ نَجْمًا، فَسَقَطَ مِنْهُ مَا كَبُرَ بِمَا صَغُرَ حُجْمًا؛ فَاسْتَبَشَرَ بِمِجَاحِهِ،
وَكَبُرَ عِنْدَ مِصَابِيحِهِ، وَحَصَّلَهُ مِنْ وَسْطِ الْمَاءِ بِمِجَاحِهِ .

وَعَلَاهُ كُنُفُ الْقَبَاسِ، مُشْتَعِلُ شَهَبِ الرَّأْسِ، كَأَنَّهُ فِي عَرَانِينَ شَيْبَةٍ لَا وَلِيَّهَ كَبِيرُ
أَتَاسٍ؛ إِنْ أَسْفَ فِي طَيْرَانِهِ فَهَلَامَ، وَإِنْ خَفَقَ بِمِجَاحِهِ فَقَطَّلَ لَهُ بَيْدَ النِّسَمِ زَمَامَ؛
ذَوْعِيَّةً كَالْخِرَابِ، وَمِيقَايِرَ كَالْخِرَابِ، وَلَوْنٌ يَفْرُ فِي الدُّجَى كَالْتَجَمِ وَيَتَدَعُ فِي الضُّحَى
كَالْمَرَابِ؛ ظَاهِرُ الْمَرَمِ، كَأَنَّمَا يُجْبَدُ مِنْ عَادٍ وَيُحَدَّثُ عَنْ إِدَمِ :

إِنْ طَلَمَ فِي زُرْقِ الْغَدِيرِ حَبِيبَتِهِ * مُبِيعَ غَيْمٍ فِي أَدِيمِ سَمَاءِ،

أَوْ طَلَمَ فِي أَثْقَى السَّمَاءِ ظَلَمَتَتِهِ * فِي الْحَوْثِ شَيْخًا طَائِمًا فِي مَاءِ،

مُتَنَاضِ الْأَوْصَالِ فِيهِ خِفَّةُ السَّجْهَالِ تَحْتَ رَزَاةِ الْبَلَسَاءِ!

قَتَى الثَّانِي إِلَيْهِ حَيَّانَ بِنْدِيهِ، وَتَوَخَّاهُ فِيَا بَيْنَ رَأْسِهِ وَوَعْدِهِ، نَحَرَ كَارِدٍ أَقْصَى
عَلَيْهِ يَجْمُ مِنْ أَفْقِهِ؛ فَتَقَاهُ الْكَبِيرَ بِالْكَبِيرِ، وَأَخْطَفَهُ قَبْلَ مَصَالِحَةِ الْمَاءِ مِنْ
وَجْهِهِ الْغَدِيرِ.

وَقَارَنَتْهُ أَوْزَةُ حَلَاءِ دُكَّاهٍ، وَحُلَّتْهَا حَسَنَاءُ؛ لَهَا فِي الْقَضَاءِ جَمَالٌ، وَعَلَى طَيْرَانِهَا خِفَّةٌ
تَدَوَّى التَّبْرِجُ وَخَفَرَتِ رِبَاتُ الْجَمَالِ؛ كَأَمَّا عَبَتْ فِي ذَهَبٍ، أَوْ خَاضَتْ فِي لَبٍّ؛
تَحْتَالُ فِي مِشْتَبَاهِ كَالْكَاسِبِ، وَتَسْأَلُ فِي خَطِّهَا كَاللَّاعِبِ؛ وَتَعِيفُ بِمِيدَاهَا كَالْعُقْبَى
الْفَرِيرِ، وَتَتَدَاغُ فِي سِرِّهَا مَتَى الْقَطَاةِ إِلَى الْغَدِيرِ:

إِذَا أَقْبَلَتْ تَمْشِي نَحْطَرَةً كَكَايِبِ * رَدَّاجٍ، وَإِنْ صَاحَتْ فَصُولُهُ حَازِمٍ،
وَإِنْ أَقْلَعَتْ قَالَتْ لَهَا الرَّيْحُ: لَيْتَ لِي * خَفَا ذِي الْحَوَايِ أَوْ قُوَى ذِي الْفَوَاكِمِ.
فَأَنْفِمْ بِهَا فِي الْبُغْدِ زَادُ مَسَايِرِ، * وَأَحْسِنْ بِهَا فِي الْقُرْبِ ثَمَنَةَ قَادِمِ!
فَلَوْى الثَّالِثُ جَيْدَهُ إِلَيْهَا، وَعَلَفَ بِوَجْهِهِ إِبْقَالَهَا عَلَيْهَا؛ فَلَجَّتْ فِي تَرْفَعِهَا مَعْنَهُ، ثُمَّ نَزَلَتْ
عَلَى حُكِّهِ مُدْنَعَةً؛ فَأَعْجَلَهَا عَنْ أَسْتِكْمَالِ الْمُبْطُوطِ، وَأَسْتَوَلَى عَلَيْهَا بَعْدَ أَسْتِمْرَارِ التَّقْنُوطِ.
وَحَادَتْهَا لِلْفَنَاءِ نَحْمِي لَوْنٌ وَشَبَاهَا، وَتَصَفَّ حُسْنَ مَشَاهَا؛ وَتَرَبَّى عَلَيْهَا بِمُزْنِهَا،
وَتَنَافَسَهَا فِي الْخَاسَنِ كَقَرْنِهَا؛ كَأَنَّهَا مُنَامَةٌ قُطِبَتْ بِمَنَاهَا، أَوْ عِمَامَةٌ شُقَّتْ مِنْ بَضَى
مُجُومِ مَسَاهِلِهَا:

بُفْرَةٌ بَيْضَاءَ مَيْسُومَةٍ * تُشْرِقُ فِي الْإِلِيلِ كِبِيرُ انْتَامِ!

وَإِنْ تَبَلَّتْ فِي الضَّمْحِ خِلَتَهَا * فِي الْحَلَّةِ الدُّكَّاهُ بَقَى النِّهَامِ!

فَتَهَضَّ الرَّاحُ لِاسْتِقْبَالِهَا، وَرَمَاهَا عَنْ تَلَكَّ سَعْدِهِ يَجْمُ وَبَالِهَا؛ بَقَلَّتْ فِي الْقُلُوبِ
مُبْتَدَهُ، وَتَطَارَدَتْ أَمَامَ بِنْدِيهِ وَلَوْلَا طِرَادُ الْعَبْدِ لَمْ تَكُ لَقَدَهُ؛ وَأَهْضَى عَلَيْهَا مِنْ يَدِهِ

شهابُ حَفِيها، وأدركها الأَجَلُ نَخْفَةً طَيرَانِها من حَفِيها، فَوَقَعَتْ من الأَثَرِ في كَفِّه،
وَقَرَّ ما في بَياضِ حَفِيها عن صَفِّه .

وَأَتَتْ في إِثْرِها أَيْسَةً آيَسَه، كَأَنَّها المَنْرَاءُ العائِنَه، أَوِ الأَنْماءُ الكائِنَه، طَلِها
خَفَرُ الأَبْكارِ، وَخَفَّةُ ذَوَاتِ الأَوْكارِ، وَحَلَاوَةُ المَعانِي الَّتِي تُجْمَلُ عَلى الأَفْكارِ؛ وَلِها
أَنْسُ الرِّيبِ، وَإِدْلالُ الحَيبِ، وَتَلَقُّتُ الوائِرَ المُدْرِبَ من خَوْفِ الرِّيبِ؛ ذَاتُ عُنُقِ
كَالْإِرْبَقِ، أَوِ النُّصْنِ الوَرِيقِ، قَدْ جَمَعَ صُفْرَةَ البَهارِ إلى حُمْرَةِ الشَّقِيقِ؛ وَصَدْرَ بَيْتِ
المَلْبُوسِ، شَبَّهَ إلى النُّفُوسِ، كَأَنَّما رَمِمَ فِيهِ النَهارُ بِالْليلِ أَوْ قَشَّ فِيهِ المَاجُ بِالأَبْثُوسِ؛
وَجَنَاحُ يُحْيِيها مِنَ المَطَبِ، يَمْكِي لَوْنُها المُنْتَدِلَ الرُّطَبَ لولا أَنَّهُ حَلَبَ :

مُدْبِجَةُ المَسْدِرِ تَهَوُّفُهُ • أَضَافَ إلى اللَّيْلِ ضَوْءَ النَّهارِ!

لِما عُنُقُ خَالَه من رَأاه • شَقَاتِي قَدْ سُبِجَتْ بِالنَّهارِ!

فَوَثَبَ الخَلَامُ مِنْها إلى النِّعْمَةِ، وَنَظَّمَ في سِلْكِ رَمِيهِ تَكَ المَرَّةَ البَقِيَّةَ، وَحَصَلَ
بِصَحِيلِها بَيْنَ الرِّمَاءِ عَلى الرِّثِيَةِ الجَسِيمَةِ .

وَأَتَى عَلى صَوْنِها حُبْرَجٌ تَسْبِقُ هِمَّتَهُ جَنَاحَه، وَيَتَلَبَّ خَفَقُ قَوادِمِهِ صِيابَه؛ مُدْبِجٌ
لِلطَّاءِ، كَأَنَّما خَلَعَ حُلَّةَ مَنَكِيئِهِ عَلى القَطَا؛ يَنْظُرُ مِنْ لَبِّ، وَيَتَطَوَّلُ رِجْلَيْنِ مِنْ دَعْبِ:

يَزُورُ الرِّياضَ، وَيَتَخَوَّلُ المِياضَ • وَيُنْشِئُ في القَوْنِ كُدْرَ القَطَا،

وَيَضُوي الرُّزْدُوعَ وَيَلْهُو بها، • وَلَا يَرُدُّ المِاءَ إِلَّا خَطًّا!

فَيَقْدِرُهُ المِسادُ قَبْلَ أَرْضائِهِ، وَأَمَّا قَوَسُهُ بِانْتِدادِ بَاحِهِ، فَتُغْرَعُ الأَلَمَ كِشْطًا
أَبْنِ قَيْسٍ، ^(١) وَأَقْضَى عَلى رَأْيِهِ لِحْمَهُ يَحْلِقُ وَحَلَهُ بِكَيْسٍ .

(١) بِشَرِّهِ إلى قول الشاعر في بسلام :

تُغْرَعُ عَلى الأَلَمِ لَمْ يَوْسَدَ • كَلَّنَ بِهِ سَيْفٌ مَقِيلٌ:

الأَلَمُ: بَرَزَ العِلادُ بِحُجْرِ والأَلَمَةُ: أَمْسَرَ .

وتصعد على السابح مرأته، وتباً عن بلوغ الأرب مقامه، فصعد هو وزبُّه
إلى جبل، وبَّت في موقفه من لم يكن له بمراقبتها قيل .

فمن له تسردو قوائم شلدا، ومناسر حنّاد . كأنه من سُور لُقْمان بن عَاد، تحسبه
في السماء تالّت أخويه، وتخالّه في القضاة قُبته المنسوبة إليه ؛ قد خلق كالفقراء
رأسه، وجعل مما قصر من اللؤلؤ الدكني لباسه، واشتمل من الرّياش السليّ
إزارا، وألّف العزلة فلا يجيد له إلا في قنّ الجبال الشواهي مزارا؛ قد شاب نواصي
الليل وهو لم يسب، ومضت الشهور وهو من الحوادث في مقلّ أشب :

ملكك طيور الأرض شرقاً ومغرباً • وفي الأتقي الأعلى له أنجوان !

له حالّ قساك، وحيلة ناسك، • وإسراع مقدام، وفقرة وإن !

فدنا من مطاره، وتوتئى بئنته عطفه فوق في منقاره ؛ فكأنما هدّ منه سحرا،
أو هدّم به بناءً مُشمِخرا؛ ونظر إلى رفيقه، مبشّرا له بما أمتاز به عن قريبه .

وإذا به قد أظفّه عهابٌ كاسر، كأنما أضلّت صيدا أفلت من المناسر ؛ إن
حطت فسحابٌ أنكشف، وإن أقامت فكان قلوب الطير رطباً وبأساً لدى
وكرها العناب والحشف، بيعة ما بين المنارب :

إذا أفلت بلت علواً كأنما • نحاول نأرا عند بعض الكواكب !

يرى الطير والوحش في كفها • ومنقاريها نأ عظام مزا له .

فلو أمكن الشمس من خوفها • إذا طلّت ما أقسمت غزاله !

فوب إليها الثامن وثبة لبت قد وثق من حركاته بجهاجها، وربما باول بُندقة لها
أخطأ فادمة جناحها ؛ فأهوت كعود صريع ، أو طود صديق ؛ قد ذهب بأسها ،

وَقَدَّعَ بِدَمِهَا لِأَسْهَاهَا ، وَكَذَلِكَ الْقَدَرُ يُجَادِعُ الْجَوْنَ عَنْ عُقَابِهِ ، وَيَسْتَزِيلُ الْأَنْعَمَ مِنْ
عُقَابِهِ ؛ غَمَلَهَا بِجَنَاحِهَا الْمَيْهِيضِ ، وَرَفَعَهَا بِسَدِّ التَّرْفَعِ فِي أَوْجِ جَوْهَا مِنَ الْحَضِيضِ ،
وَنَزَلَ إِلَى الرَّقَّةِ ، جَيْدًا بِرَيْحِ الصَّفْقَةِ .

فوجد التامع قد مر به كركي طويل الشفار ، سريع الثمار ، شبي الفراق ،
كثير الاقتراب يستو عيمرو يصيف بالعراق ؛ لقوا دمه في الجوح خفيف ، ولأدبمه
لوت سماء طرا عليها غيم خفيف ؛ تيمن إلى صوته الجوارح ، وتجنب من قوته
الرياح البوارح ؛ له أثر حمرة في رأسه كويبيض جمر تحت رماد ، أوقية جرج تحت
ضمد ، أوقص عقيق سفت عنه بقايا نمد ؛ ذو مقدار كستان ، وعتي كتمان ؛
كأعما ينوس ، على عودين من آبنوس :

إذا بدا في أفق مقلما • والجو كالماء تتأرجه :

حبيته في بلجة مربكا • ربحلاه في الأفق مجاديه !

فصبر له حتى جازه مجليا ، وعطف عليه مصليا ؛ غمر مضرجا بدمه ، وسقط مثبرقا
على عذمه ؛ وطالك ألت لدى الكواسر من أظفار المتون ، وأصابه القدر بحبة من
حلم مسنون ؛ فكثرت التكير من أجله ، وحمله على وجه الماء برجله .

وحاذاه غرنوق حكا في زيه وقدره ، وأماز عنه بسواد رأسه وصدره ؛ له
ريستان ممدودتان من رأسه إلى خلفه ، معقودتان من أذنيه مكان شفه :

له من الكركي أوصافه • سوي سواد الصدر والرأس .

إن شال رجلا وأنبى قائما • ألقينه هيئة رجاس !

فاضنى العاشر له منصتا ، ورماء متفتتا ؛ غفر كأنه صريع الألحان ، أو تريف بنت
الحان ، فاهوى إلى رجله بيده ، وأغص على أعضاض الكاسر على صيده .

وتبته في المطار ضوح، كأنه من النصار مصنوع، فحسبه عاشقاً قد مدَّ صفحته،
أو بارقاً قد بثَّ قنّته :

طويلاً رِجلاه مُسَوِّقَةٌ • كأنما مِنقاره خنجرٌ

يشلُّ عَجُوزَ رأسها أَثْمِط • جأت وفي رقبها يعجرُ!

فاستقبله الحادي عشر ووثب، ورماه حينَ حَذَاه من كَنَب، فسقط كفاريسَ تَهَطَّر
عن جواده، أو وأمقِ أَصِبتْ حبةً قُواده في فمِله بساقه، ومَدَل به إلى رِقاعه .

وأقرن به مِرْزَمٌ له في السِباء مِمِّي معروف، ذو مِنقارٍ كَصُدُجٍ مَطُوف، كانَ
رِيشه فُلُقٌ أَتَّصَلَ به شَفَقٌ، أو ماءُ صَافٍ عَلى باطرافه عَلى :

له جِسمٌ من التَلَج • على رِجلين من نار :

إذا أَقْلَعَ لَئْلَافَتَ بَرْقٍ في البُجُورِ سَاري!

فاتقاه الثاني عشر مِسيماً، ورماه مُصمِّماً، فأصابه في زَوْرِهِ، وحصله من قُوْرِهِ،
وحصل له من السُرور ما خرج به عن طَوْرِهِ .

والتحق به سَيطَر، كأنه مَدْبَهٌ مِيطَر، يَحْطُ كالسَّيْلِ، ويَكُرُّ على الكَوَاسِرِ كالخَيْلِ،
ويجمع من لَوْنِهِ بين خِلَتَيْنِ يُقِيلُ منهما بالثَّارِ ويُدْبِرُ بِاللَّيْلِ، يَتَلَوَّى في مِنقاره الأَيمُ،
تَلَوَّى التَّيْنِ في التَّيْمِ :

تَراه في الجُؤْمُنتِ وفي فِه • من الأَفاعِي شِجاعٌ أَرَمَ ذَكْرُ:

كأنه قَوْسٌ رَامَ عُنُقَهُ يُلْها • ويربِّه رِجُلُها والحِيةُ الوَثْرُ!

(١) هزيم الفناد المصبة وكسرهما مع فتح الواو. ورد في الجزء الثاني (ص ٦٤) من هذا الكتاب :

”مُحِيٌّ“ وأظن ما كتبناه عليه في الحاشية الثانية هناك .

فصوب الثالث عشر إليه بنقه، قطع حبه وعقه، فوقع كالصرح المرد،
أو الطراف الممد.

وأثبته عاز أصبح في اللون ضده، وفي الشكل نده، كأنه ليل ضم الصبح إلى
صدره، أو أطلوع على هالة بديره :

ترآه في الجو عند الصبح حين بنا * مسود أجنية ميص حيزوم :

صكأه حبش عام في نهر * وضم في صدره طفلا من الروم !

فنهض تمام القوم إلى التمه، وأسفرت عن نوح الجماعة تلك الليلة المذممة،
وقدنا ذلك الطير الواجب واجبا، وكل العدد به قبل أن تطلع الشمس عينا أو تبرز
حاجبا، فيالها ليلة حضرتا بها الصادح في القضاء المتبع، ولقيت فيها الطير ما طارت به
من قبل على كل شمل مجتميع، وأصبحت أشلاؤها على وجه الأرض كقرايد خلتها
النظام، أو شرب كأن رقابهم من الذين لم يخاف من عظام، وأصبحنا مثنين على
مقامنا، مثنين بالظفر إلى مستقرنا ومقامنا، داعين للولى جهندا، مدعين له قبلنا
أوردنا، حاملين ما صرعا إلى بين يديه، حاملين على التشرف بخدمته والالتجاء إليه :

فأنت الذي لم يلق من لا يؤدّه * ويُدعى له في السر أو يدعى له :

فان كان رمي، أنت توضح طريقه، * وإن كان جيش : أنت تهي قبيله !

والله تعالى يعزل الآمال منوطه به وقد قل، ويعسله كهفا للأولياء وقد جمل،
بمنه وكرمه :

الفصل الرابع

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(في الصَّنُفَات ، وفيه طَوَرَات)

الطُرف الأول

(في الصَّنُفَات المُلُوكِيَّة وما في معناها)

فقد جرت العادة أنه إذا تزوج سلطان أو ولده أو بنته أو أحد من الأمراء الأكابر وأعيان الدولة أن تُكتب له خطبة صدّاق تكون في الطول والقصر بحسب صاحب المقد، فتطال للولك وتقصّر لمن دونهم بحسب الحال .

وهذه نسخة صدّاق، كُتِبَ به لملك السعيد بركة ، ابن السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري، على بنت الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى الأثنى قبل سلطته، بالقلمة المحروسة، من إنشاء القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر، وهى :

الحمد لله موفق الآمال لأسعد حركة، ومصدق القائل لمن جعل عنده أعظم بركة، وعقّق الإقبال لمن أصبح نسيبه سلطاناً وصهره ملكاً، الذى جعل للأولياء من لدنه سلطاناً نصيراً ، وميّز أقنارهم بأصطفاء تملّحه حتى حازوا نبياً وملكاً كبيراً ، وأفرد فخارهم بتقريبه حتى أفاد شمس الملم ضياءه وزاد قهرها نوراً، وشرف به واصلتهم حتى أصبح فضل الله عليهم بما عظموا وإنعامه كثيراً ، مهّى أسباب التوفيق العاجلة والآجلة ، وجامل ربوع كل إملاك من الأملاك بالشموس والبُذور والأهله أهله ، جامع أطراف القنار لنوى الإيثار حتى حصلت لهم النعمة الشاملة وحلت عندهم البركة الكاملة .

تَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ أَحْسَنَ عِنْدَ الْأَوْلِيَاءِ بِالنِّعْمَةِ الْاِسْتِدْعَاءَ ، وَأَجَلَ لِأَمْلِيهِمُ الْاِسْتِغْلَاحَ ،
وَكُلَّ الْأَخْيَارِ مِنَ الْاِجْتِنَاسِ مِنَ الْعِزِّ وَالْاَوْثَاقِ ، وَأَتَى أَمْلَكُمْ بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِ
أَحْسَابِهِمُ مِنَ الْاِبْتِدَاءِ بِالْاِتِّخَايِلِ وَالْاِبْتِدَاعِ ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ
لَهُ شَهَادَةٌ حَسَنَةٌ الْأَوْضَاعِ ، مَلِيَّةٌ بِتَشْرِيفِ الْأَلْسِنَةِ وَتَكْرِيمِ الْأَسْمَاعِ ؛ وَصَلَّى عَلَى
سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي أَهْلَى اللَّهُ بِهِ الْأَقْدَارَ ، وَشَرَّفَ بِهِ الْمَوَالِي وَالْأَصْحَارَ ، وَجَسَلَ كَرَمَهُ
دَارًا لَمْ فِي كُلِّ دَارٍ ، وَفَرَّهْ عَلَى مَنْ اسْتَظَلَّمَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مُشْرِقَ الْأَنْوَارِ ،
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَطَلَبِهِمْ صَلَاةَ زَاهِيَةِ الْأَزْهَارِ ، يَا نَصَةَ النَّجَارِ .

وَبَعْدُ ، فَلَوْ كَانَ اِتِّصَالُ كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِ الْمُتَّصِلِ بِهِ فِي تَغْيِيلِهِ ، لَمَا اسْتَظْلَحَ
الْبَدْرُ شَيْطَانًا مِنَ الْمَنَازِلِ لَزُؤْلِهِ ، وَلَا الْفَيْثُ شَيْطَانًا مِنَ الرِّيَاضِ لِمُطْوَلِهِ ، وَلَا الذُّكْرُ
الْحَكِيمُ لِسَانًا مِنَ الْأَلْسِنَةِ لَتَرْتِيلِهِ ، وَلَا الْجَوْهَرُ الثَّمِينُ شَيْطَانًا مِنَ التَّجَانِّحِ لِحُلُولِهِ ؛ لَكِنْ
لِيَتَشَرَّفَ بَيْتٌ بِمِثْلِ بِهِ الْقَمَرُ ، وَيَبْتَ زُورُهُ الْمَطَرُ ، وَلِسَانٌ يَتَعَوَّذُ بِالْآيَاتِ وَالشُّورِ ،
وَيَتَنَارَّ بِجَعْلٍ بِاللَّائِنِ وَالنَّدَرِ ؛ وَلِلَّذِكْرِ تَجَلَّتْ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابُهُ
وَأَصْحَابُهُ ، وَتَشَرَّفَتْ أَنْسَابُهُمْ بِأَنْسَابِهِ ، وَتَوَرَّجَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ ، وَتَمَتَّ لَمْ
مَنْزِيَةِ الْفَخَّارِ حَتَّى رَضُوا عَنْ اللَّهِ وَرَضَى عَنْهُمْ .

وَالْمُرْتَبَ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ الْفَاضِلَةِ نَوْرُ يَسْتَمِدُّهُ الْوُجُودُ ، وَتَقَرُّرُ أَمْرِهِ بِقَارَنِ سَعْدِ
الْأَخْيَةِ مِنْهُ سَعْدُ السُّمُودِ ؛ وَإِظْهَارُ خُطْبَةٍ يَقُولُ لِلثَّرَا لَا تَنْتَظِمُ عُقُودُهَا : كَيْفَ ،
وَإِبْرَازُ مُصَلَّةٍ بِجَعْلٍ بِرَمِيحِ جَوْهَرِهَا مِثْلُ السَّيْفِ الَّذِي يَنْقُطُ عَلَى إِبْدَاعِ هَذَا
الْجَوْهَرِ بِهِ كُلُّ سَيْفٍ ؛ وَنَسْجُ صِهْرَةِ بَيْتٍ بِهَا - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - كُلُّ أَمْرِ سَيِّدٍ ،
وَيَتَّقِي بِهَا كُلُّ تَوْفِيقٍ تَخْلُقُ الْأَيَّامَ وَهُوَ جَدِيدٌ ، وَيُخْتَارُ لَهَا أَبْرُكُ طَالِحٍ : وَكَيْفَ لَا تَكُونُ
لِلْبَرَكَةِ فِي ذَلِكَ الطَّالِعِ وَهُوَ السَّامِدُ ؟ .

فذلك بأن المآرم الشريفة السلطانية أولدت أن تحصن المجلس السامي بالإحسان
 المتعكر ، وتغريه بالمواهب التي يُعرف بها الحُد المتعزّز ، ويتقوّم الحُد المتعزّز ،
 وأن ترفع من قدره بالصّارة مثل ما رفعه صلى الله عليه وسلم من قدر صاحبه :
 أبي بكرٍ وعمر . فخطب إليه أسعد البرية ، وأمنع من تحميمها السيوف المشرّفة ،
 وأعرض من تُسبل عليها سُور الصّون النقية ، وتضرب دونها خُدور الجلال الرّضية ،
 وتحمّل بنوعها المُقود : وكيف لا ؟ وهي العرة الألفية ؛ فقال واللهما وهو الأمير
 المذكور : هكذا ترفع الأقدار وتُزّان ، وكذا يكون قرآن السعد وسعد القرآن !! ؛
 وما أسعد رؤسا أصبحت هذه المآرم الشريفة السلطانية له تحيلة ! ، وأشرّف
 سيقا غلت منطفة بروج سماتها له تحيلة ! ، وما أعظمها مُعجزة آتت الأولياء من
 لئنها سُلفانا ! ، وزادتهم مع إيمانهم إيمانا ! ، وما أنعمها صّارة بقول التوفيق
 لإبراهيم : ليت ! ، وأشرّفها عُبودية كرمت سلماتها بأن جعلته من أهل البيت .

وإذ قد حصلت الاستخارة في رفع قدر المملوك ، وخَصَصْتَه بهذه المزية التي
 تهاصرت عنها آمال أكابر المملوك ؛ فالأمرُ لملك البسيطة في رفع درجات عبده كيف
 يشاء ، والتّصديق بما يتقوّه به هذا الإنشاء ؛ وهو :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب مبارك تحاسنت وِماح الخط وأقلام الخط على تحريره ، وتناقت
 مطالع التّوار ومشارق الأنوار على تظلم سُطوره ؛ فاضاء نُوره بالجلالة وأشرق ، ومطل
 نومه بالإحسان فأغفق ، وتناشت فيه أجناس تجنيس لفظ التفضيل فقال الاعتراف :
 هذا ما تصدّق ، وقال العرف : هذا ما أصدق مولانا السلطان : أصدقها ما ملأ خزان
 الأحاب نقارا ، وتعبه الأنساب ثمارا ، ومثكاة الجلالة أنوارا ، وأضاف إلى

ذلك ما لولا أدب الشرع لكان أقاليم ومدائن وأصهاراً، فبذل لها من العين المصيرية ما هو باسم والدها قد تعرف، وبثمنه قد تعرف، • من يدى هيباه وصداقه قد تعرف .



وهذه نسخة صدق المقام الشريف العالى السني أنوك، ولد السلطان الشهيد الملك الناصر «محمد بن قلاوون» على بنت المقر المرحوم السيفي «بكتمر السلق» . وكان العاقبة تاضي القضاء جلال الدين القزويني، والقابل السلطان الملك الناصر واليد الزوج، وهي :

الحمد لله مسير الشمس والقمر، ومسير حياة كل شيء باتصال الروض بالمطر، ومسير المتقين من دراري الداراي بأسمد كوكب ينتظر، وأحمد عاقبة تهر لها اعطاف عظمه الملوك على كبر، وتنجاب عن الأنجاب كما تفتح الأكام عن الثمر، الذي مد من الشجرة المباركة الملوكة فروعا كثفت بعضها على بعض، ورفقت على من استظل بها فراقب السماء على الأرض .

نحبه على يمينه التي أطابت لنا جنى الفروس، وأطالت منا منى الفوس، وأطالت بملوكنا حتى نمت لسواهم الأيدي وخضعت لأمرهم الرؤوس، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تتخذها عصمة نافية، ونعمة لحسن العاقبة جامع، ورحمة تبارك على أئمتنا وعلى أبنائهم البدوي الطالعة، والأقارب الساطعة، والبروق اللامعة، والضيوف الحاميه، والسيول الدافعه، والسيوف القاطعه، والأشود التي هي عن حرم حضرتها مانيه، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أزان من تمسك له بحسب، وترق من أعتى إليه بالقرين أو أعتز منه بصهر أو نسب،

صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين أرضاهم ورضى عنهم، وكرمهم بعلمه الشريف لما ذؤبهم وتزوج منهم، وسلم تسلياً كثيراً .

أما بعد، فإن من عادة النمام أن يتفقد الأرض بطلره، والبحر أن يسقي الزروع بما قاض من تهره، والمصاييح أن تمد بأنوارها ما يتوقد، والسياء أن لا يخلوا أنفها من اتصال فرقة بفرقة، ولو توقفت القرى على مقاربة كبير، أو مقاربة صغير، لما صلحت الأغناد لمضاجع السيوف ولا دنت الكواكب من الشمس والقمر الكثير، ولا صاقت يمين شمالا، ولا جاورت جنوب شمالا، ولا حوت الكائنات سبها، ولا جمع السلك للجواهر نظلما، ولا طمح طرف إلى غاية، ولا قدر لسان إنسان على ثلاثة سورة ولا آية، وإنما الصلقات الشريفة الملوكة لما في البر حواء، وفي الخمر مجايا يقتدى فيها الولد بالوالد .

ولم يزل من المقام الشريف، الأعظم، العالي، المولوي، السلطاني، الملك، الناصري، أعز الله سلطانه على من لاذ به تسبيل ذيول الفخار، وتودع في حالات الفاريم ودائع الأنوار، وتوكل أهلهم لأن يكون منها أحد الأيوبي لندريته الأظهار، وتخطب من مجيهم كل مصونة يغور بها بدر الدجى وتغار منها قمم النهار .

وكان من تمام النعمة الشريفة السلطانية، الناصرية، على من تعرض لسحابها الماطر، ووقف للاعتراف من بحرها الزانح ما رفضت به ذكره إلى آخر الأبد، وأتمت له السعادة إذ كان يعد في جلود من ينسب إليه من ولد، وأكملت له بالقرى مزينة مزينة، وأستخرجت من بحره جوهرة لا يقطع في التطويق بها كل جيد، وقالت: نحن أحق بتكامل ما نبينا، ونحويل الخولة من أولينا، وأطهبل من قر بنا عيننا وقربناه إلينا، وتفضيل غرس نعمة نحن غرسناه وأجبتنا قمرانه بيننا .

فانقضى حُسن الاختيار الشريف الملكي الناصري، لولده المقام العالي السنيّ؛
 أحسن الله لها الاختيار، وأجرى بإرادتهما اقتدار الأقدار بأن تُزفَّ أتم الشموس إلى
 سُتُورِهِ الرُفيعه، وتُصَنَّنَ أَكْلُ مَعَاوِلِ المَقَاتِلِ بِمُجْبِهِ المَنِيحَةِ، وتُحَاطَ أَشْرَفُ الدَّرَجِ
 فِي مُسْتَوْدِعِهِ، وتُحَاطَ أَشْرَفُ الدَّرَارِي بِمُطْلِعِهِ، وتُسَاقَ إِلَيْهِ الكَرِيمَةُ حَبَابًا، العَظِيمَةُ
 بَابِيهِ - عَظَّمَ اللهُ سُلْطَانَهُ - أَبَا، الَّذِي كَمَ لَهُ فِي خِصْمَةِ الدَّوْلَةِ القَاهِرَةِ مِنْ مَنَاقِبِ
 كَالنَّجُومِ، وَمَذَاهِبِ تَشَبَّهَ بِهَا البَرْقُ فَتَشَبَّهَتْ بِأَذْيَالِ القِيُومِ، وَصَرَائِبِ تَقَدَّمَ فِيهَا عَلَى
 كُلِّ تَطْيِيلٍ قَالُ: وَمَا مِنَّا إِلَّا مَنْ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ؛ مَنْ قُدْرُهُ لَا يُسَامَى وَلَا يُسَام، وَرَأْيُهُ
 لَا يُرَامَى وَلَا يُرَام، وَسَيِّفُهُ فِي غَيْرِ طَاعَتِنَا الشَّرِيفَةِ لَا يُسَيَّمُ وَلَا يُسَام، وَهُوَ «سَيِّفُ
 الدَّوْلَةِ» لَا يَكُنْ يُسَمَّى بِهِ مَنْ اسْتَمَارَ هَذَا اللَّقَبُ فِي سَالِفِ الْأَيَّامِ؛ كَمَ لَهُ فِي مَرَاضِي
 سُلْطَانِيهِ مِنْ رَغِيَةِ بَذْلِ نَبَاهِ مَا أَلَدِيهِ، وَتَمَعَّ فِيهَا بِوَلَدِهِ وَهُوَ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ، وَجَادَ
 بِرُوحِهِ أَوْ بِمَا هُوَ أَحَرُّ عَلَيْهِ؛ كَمَ تَبَيَّنَتْ بِعَزَائِمِهِ السُّيُوفُ مِنْ سِنَانِهَا، كَمَ وَجَّهَتْ مِنْ
 مَكَارِمِهِ الْأَيَّامُ مَا يُعَدُّ مِنْ حَسَنَاتِهَا؛ كَمَ أَتَبَّهَتْ صَوَارِمُهُ نَارًا بِجُفُوتِ أَنْهَارٍ بِجُفُوتِ
 مِنْ جَنَابَاتِهَا؛ كَمَ لَسَاءُ الْمُلُوكِ بِشُجْهِهِ مِنْ حَرَسِ، وَبُقُضِيهِ مِنْ قَبَسِ، وَكَمَ قَامَ وَقَعْدَ
 فِي مَصْلَحَةٍ وَكَانَ أَذْنَاهُمْ مِنْ مَلِكِهِ مَقَامًا لَهَا قَامَ وَأَعْلَامُهُ مَجْلِسًا لَهَا جَلَسَ؛ فَسَمِعَ
 الْمَقَامُ الْعَالِي السُّنِّيَّ وَأَطَاعَ، وَأَتَمَّ إِلَى مَا بَرَزَتْ بِهِ مَرَاسِمُ وَالِدِهِ - أَنْفَعَهَا اللهُ -
 وَأَتَمَّلَ أَمْرَهُ الْمُطَاعَ، وَعَمِلَ بِرَأْيِهِ الشَّرِيفِ وَهُوَ نَاصِرُ السَّنَةِ تَقَدَّمَ فِيهَا مَا اسْتَطَاعَ،
 وَسَارَعَ إِلَى مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنَ الْأَلْفَةِ وَالْاجْتِمَاعِ، وَأَتَمَّ السَّنَةَ النَّبَوِيَّةَ فِي تَكْثِيرِ الْأُمَّةِ
 بِدَرْيَةِ أَيْمَةِ مُلُوكِيَّةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا لِهَ الْأُمَّةِ أَتْبَاعَ؛ لِعَالِمِهِ الْيَقِينِ أَنَّهُ لَوْ خَطَبَ لَهُ
 وَآلِدُهُ فِي أَصْطَارِ الْأَرْضِ إِلَى جَمِيعِ الْمُلُوكِ، لَمْ يَجِدْ مِنْهُمْ إِلَّا كُلَّ مَلِكٍ عَظِيمٍ وَهُوَ لَهُ
 عَبْدٌ مَلُوكٌ؛ فَاجْتَمَعَتْ سُنَّةٌ شَرِيفَةٌ مُلُوكِيَّةٌ مَا بَرَحَتْ الْخُلَفَاءُ وَالْمُلُوكُ تُحْفَظُ بِهَا قُلُوبُ
 أَوْلِيَائِهَا عَلَى أَسْدَادِ الْمَدَنِيِّ، وَيَكْفَى مِنْ هَذَا مَيِّمُونَ فَعِلِ «الْمَأْمُونِ» لَهَا تَزْوِجُ

«جُودَانَ» من أيها «أَبْنِ سَيْلٍ» وَخَطَبَ «الْمَحْضِدُ» إِلَى «أَبْنِ طُولُونٍ» أَبْنَتَهُ
«قَطْرُ النَّدى» .

روى والدها أعزّه الله تعالى قدرا حالة مهابةً فَلَمْ يَقُلْ : لَكَ التَّصَرُّفُ
وَلَكَ التَّصَرُّفُ ، وَإِذَا أَتَيْتُ حُسْنَ النَّظَرِ الشَّرِيفِ تَشْرِيفَ عَيْدٍ فاجْتَدَا
التَّشْرِيفَ ، وَاجْتَدَا السَّبَبَ الَّذِي أَتَصَلَّتْ لَهُ بِالْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْأَسْبَابُ ، وَأَخْتَلَّتْ
دِيمَ الْقَمِّ وَأَخْتَلَّتْ لِلْاجْتِنَاعِ عَلَى سُنَّةٍ وَكَلْبٍ ، فَتَحَاسَدَتْ عَلَى إِبْتَاهِ صُفْرُ الْأَصَابِلِ
وَحُمُ الْقَمِّ ، وَتَنَاقَسَتْ عَلَى رَقْمِ سُطُورِهِ صَحَائِفُ السَّحَابِ وَصَفِيعُ الْمَاءِ وَصَلِيلُ
السَّيْفِ وَصِيرُ الْقَلَمِ ، وَتَمَتَّتْ الْكَوَاكِبُ لَوْ أَجْمَعَتْ مَوَاكِبَ فِي يَوْمِهِ الْمَشْهُودِ ،
وَالْمُنَاقِبِ لَوْ أَنَّهَا حَوَّلَتْ بِمَقَابِلِ حَاقِصَةِ الْبُيُودِ ، وَوَدَّتْ تَهَاتُ الْأَخْطَارِ لَوْ كَانَتْ هِيَ
الَّتِي سَمَتْ بِالْأَخْطَاقِ ، وَالْحَاقِمُ لَوْ أَيْبَحَ لَمَا أَنْ تُفَرَّدَ وَمَنْعَ مَا فِي أَعْنَاقِهَا مِنَ الْأَطْوَاقِ ،
بَلِ السُّيُوفُ لَمَّا رَأَتْ مَقَامَ الْجَلَالَةِ أَغْضَتْ وَغَضَّتِ الْأَحْدَاقِ ، وَالرَّيَاحُ لَمَّا بَدَأَ لَهَا
سَيْرُ الْمَلِكِ مَائِلًا وَقَفَّتْ عَلَى سَلَقِ .

فبرزت المراميم الشريفة - زادها الله شرفاً - بغير ر هذا الكلب الكريم ، وتضييد
ما يصلح من الذر لنا العبد النظيم ، وتقد المرسوم العالي المولوى السلطان ما أمر
به وصلى ، وتادب إجلالا لمقام أبيه الشريف فاطرق ، وتواضع لله فلم يقل : هذا
ما تصدق ، بل قال : هذا ما أصدق المقام العالي السيفى أتوك أبْنُ مولانا السلطان
الأعظم ، مالك رقب الأئمة ، الملك الناصر ، السيد الأجل ، العالم ، البادل ، الغازي ،
المجيد ، المؤيد ، المربط ، المتغير ، المتغير ، المتصور ، الشاهنشا ، ناصر الدنيا
والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محي السدل في العالمين ، منصف المظلومين
من الظالمين ، ملك البسيطة ، ناصر السنة ، ركني الشريعة ، ظل الله في أرضه ،

القيام بسبته وقضيه ؛ وأريت الملك ، ملك العرب والعجم والترك ، خدوند عالم
بادشاه بنى آدم ، بهلوان جهان ، شهریار ایران ، إسكندر الزمان ، تملك أصحاب المنابر
والأسيرة والنخوت والنيجان ؛ فالحق الأقطار ، وأحب المسالك والأقاليم والأمنصار ،
مُعيد البناة والطغاة والكفار ؛ صاحب البحرين ، حامي الحرمين ، خاتم القبلتين ؛
كفيل السبأ والعباد ، مقيم شعائر الحج والجهاد ؛ إمام المؤمنين ، قسيم أمير المؤمنين ،
أبي المعالي محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور ، السيد ، الأجل ، العالم ، العادل ،
المجاهد ، المؤيد ، سيف الدين ، والد الملوك والسلاطين ، أبي الفتح «قلاوون» ، خلد
الله سلطانه ، وقصر جُوده وجُوده وأعوانه - : المحابب الكريم ، الرفيع ، المنيع ،
المصون ، المكنون ، الهمة المكرمة ، المفضحة ، المظلمة ، بنت الحجاب الكريم ،
العالى ، الأميرى ، الأجل ، الكيرى ، العالى ، العادل ، المهدى ، المشيدى ،
الزمضى ، المقتدى ، النياتى ، النوى ، النخري ، الأوحدي ، الظهري ، الكامل ،
السيفى ، ركن الإسلام والمسلمين ، سيد الأمراء فى العالمين ، نصير الفزاة والمجاهدين ،
زعيم الجيوش ، مقدم السالك ، عون الأمة ، غياث الملّة ، ممد النول ، مشيد
الممالك ، ظهير الملوك والسلاطين ، عقيب أمير المؤمنين ، بكتمر الساقى الناصرى ،
ضاعف الله نعمته .

أصدقها ما كتبت به أنسابها إجلالا ، وكتبت به أحسابها جمالا ، وطلعت فى سماء
الملك جللا ، وليست بخارا ، وقبست أنوارا ، وأوتى إلى حصن حصين ، ووصلت
إلى مقام أمين ، واسم (؟) بأموال وبتين ؛ مالولا أدب الشرف ، وتجنب السرف ؛
والعمل بالشرع فى تعيين معلوم ، وتبين مقدار مفهوم ؛ لخروج عن كل وصف
محدود ، وقدر محدود ؛ ولما قام به موجود ، ولكان مما قل له الملك
ولا يستكثر لأجله الوجود .

قَدِّمَ لَهَا مِنَ الْقَعَبِ الْمَيِّمِ الْمَصْرُوعِ الْمَسْكُوكِ مَا هُوَ بِتَقْدِمْ مَالِكَ وَاللَّهُ مَعْرُوفٌ ،
وَمِنْ حُقُوقِهِ مَقْبُوضٌ وَفِي حَيَاتِهِ مَصْرُوفٌ ، مَا يُجَدُّ مَا لَا ، وَيُجَنَّى مَا لَا ، وَيَأْتِي كُلُّ
دِينَارٍ مِنْهُ وَوَجْهُهُ بِذِكْرِ اللَّهِ وَأَمِّهِ يَتَلَلَا .

أَصْدَقَهَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَوْنِهِ وَتَوْفِيقِهِ كَذَا وَكَذَا ، عَجَّلْ لَهَا كَذَا وَكَذَا ، قَبَضْهُ
وَكَيْلٌ وَاللَّهِ مِنْ وَكَيْلِهِ ، قَبَضًا تَامًا كَامِلًا ، وَتَأْتِرُ بِكَ ذَلِكَ كَذَا وَكَذَا دِينَارًا حَالًا ،
عَلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ إِمْسَالِكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيعِ بِإِحْسَانٍ : (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ
تَقُوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) .

وَوَلَّى تَرْوِيحَهَا مِنْهُ عَلَى الصَّدَاقِ الْمُعَيَّنِ بِإِذْنِ وَاللَّهِ - أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى - الْمَقْدَمِ
ذِكْرُهُ : - الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، قَاضِي الْقَضَاةِ ، حَاكِمُ الْحُكَمِ ، خَطِيبُ خُطَبَاءِ
الْمُسْلِمِينَ ، جَلَاءُ الدِّينِ ، خَالِصَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَبُو الْمَالِي ، مُحَمَّدُ بْنُ قَاضِي الْقَضَاةِ
سَعِيدِ الدِّينِ أَبِي الْقَاسِمِ ، عِيدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَالِمِ الْعَلَّامَةِ إِمَامِ الدِّينِ ،
أَبِي حَفِصٍ عُمَرَ بْنِ أَحْمَدَ الْقَزْوِينِي الشَّافِعِي ، الْحَاكِمِ بِالْأَبْدَارِ الْمَصْرِيَّةِ الْمَحْرُوسَةِ وَأَعْمَالِهَا
وَبِلَادِهَا ، وَجَنَّتِهَا وَضَوَاجِحُهَا ، وَمَا تَرِ الْخَالِكِ الْمُضَافَةِ إِلَيْهَا ، بِالْوِلَايَةِ الشَّرْعِيَّةِ ، أَدَامَ
اللَّهُ أَيْمَانَهُ ، وَأَعَزَّ أَقْصِيَّتَهُ وَأَحْكَامَهُ . فَقَبِلْ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ - لَوْلَاهُ
الْمُسَمَّى أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ ذَلِكَ مِنْهُ قَبُولًا شَرْعِيًّا ، يَخَاطَبُ عَلَيْهِ شِفَاها بِمُحْضُورٍ
مَنْ تَمَّ التَّقَدُّ بِمُحْضُورِهِ ، فِي دَارِ الْمُلْكِ بِالْقَصْرِ الْأَبْلَقِ ، بِقَلْعَةِ الْجَبَلِ ، حَرَمِ اللَّهِ
تَعَالَى ، بُكْرَةَ يَوْمِ السَّبْتِ حَادِي عَشْرِينَ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ آثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ .



وهذه نسخة صداق المقر الشريف إبراهيم بن السلطان الشهيد الملك الناصر محمد
ابن قلاوون ، من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله ، وهي :

الحمد لله مني الملوک بالمظاهرة ، ومكث زينة الأسماء بمجدهم الزاهر ، ومكبر
أقدار الأولياء بما تمت النعمة به من شرف المصاهرة .

نعمه على نعمة التي شرفت قدرا ، وصرفت أمرا ، وأطلفت من هالة البدر المنير
شمسا لا تنفذ غير الأتق خدرا ، ولا تنحى اليبالي والأيام إلا أن تخلصها من الأسيمة
ياقوتيا ومن الكواكب ذرا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وسنة لا شريك له شهادة
تجمع من حمة الدين نسباً وصبراً ، وترفع في أبناء الأبناء لها حساباً وذكراً ، ونشهد
أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي عصم به ، وخص صفوة الخلق في المصاهرة
باختلاط نسبه ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تستوي بها الأسباب ،
وتستوي الأنساب ، وتبين أوارها بملك أبناء الملوک كلية باقية في الأعقاب ،
وسلم تسلياً كثيراً .

وبعد ، فلما جمع الله بملوك البيت الشريف المنصوري - كثر الله عددهم -
شعنت الإسلام ، وعسا يوارق جهادهم ما أشتد من ظلام ، حتى انتهت النوبة
إلى من أصبحت به الدولة القليلة وكل أوقاتها أنوار صلب ، وتوار أفاق ، وسماه
سماس ، وأتمى نعيم لا تعد إلا مفايد تيجان الملوک على كل جبين وضاح ، المقام
الشريف العالي الملوک ، السلطان ، الملك ، الناصر ، زاد الله شرفه ، وأعل
على شرفات بروج السماء غرفه ، فأحب - لما أجراه الله به وبمن سلف من ملوك
بيته الشريف من تأييد هذه الأمة ، وتأييد ما شملها بقوتهم المكنيات الفئوج
من سواخ النعمه - أن يعمل بقول نبيه البشر بمواقة آتية ومناجاة حكمه
في الترويح ، وأن تقع مواقع أنظاره على كل أرض حرة فضيت كل زوج يسبح .
وكان من نبيه - أدام الله سعدهم - من طلع في كل أمر أمره السالك أدام الله
تمكينه ، ولولا هذا لما رضى سوى أقران الفرسان له قرينه ، وكان من نجبتهم إذا

صَلَّتِ الأولادَ ، وَأَحْبَبْتَهُمْ إِذَا كَانَ كَمَا يُقَالُ : الْوَلَدُ ثَمَرَةُ الْقُوَادِ ، وَمَنْ هُوَ لِحَبْلِهِمْ
بِحَالٍ ، وَلِعَوْنِهِمْ دَلَالٌ ، وَلِنَاجِهِمْ أَسَدُ الْأَشْبَالِ - مَنْ يَتَرَفَّ كُلُّ مَنْ عَرَفَهُ بِفَضْلِهِ ،
وَيُؤْتَلُ فِي أَبْنَائِهِ مَا لِأَبْنَاءِ نَبِيِّهِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَرَكَاتٍ نَسِيلِهِ .

بَرَدُ الْمَرْسُومِ الشَّرِيفِ الْعَالِي ، الْمَوْلَايَ ، السُّلْطَانِي ، الْمَلِكِي ، النَّاصِرِي ، أَخَذَهُ
اللَّهُ فِي الْأَخْطَارِ - بَأْسٌ يُخَيِّرُ لِقَرِيبِهِ الْكَرِيمِ ، وَنَسَبِهِ الصَّامِ ، وَصَبَابَةِ الْمَشْرِقِ ،
وَتَمَسَّحِهِ الْفَلَقِ ، وَصَادَفَ الْإِحْسَانَ مُوضِعَهُ ، وَاتَّخَبَ لَهُ مِنْ مَشْرِيقِ الْبَدْرِ الْأَمَامِ
مَظْلَمَهُ ، وَمَنْ هُوَ مِنْ هَذِهِ الْمَوْلَةِ الْقَاهِرَةِ عَلَى الْحَقِيقَةِ بِالْيَمِينِ ، وَمَنْ هُوَ الْبَحْرُ الزَّائِرُ
وَمِنْ مَكُونِهِ يُسَخَّرُجُ أَنْفَرُ الثَّمِينِ ، فَيَأْتِرُ الْخَاطِبَ إِلَيْهِ إِلَى اخْتِطَامِ هَذَا الشَّرَفِ
الَّذِي لَا يُطْلَوُّ ، وَمَا جَلَّ هَذِهِ النِّعْمَةُ الَّتِي لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ وَصَدَقَاتُ سُلْطَانِهِ - خَلَّدَ اللَّهُ
مُلْكَهُ - مَا كَانَتْ مِمَّا تُحْلَوُّ ، وَقَالَ : إِنْ رَضِيتَ تِلْكَ السُّتُورَ بِهَيْذِهِ الْقَطُوبَةِ ،
أَوْ أَهَلَّتْ تِلْكَ السَّمَاءُ الْعَلِيَاءُ هَيْذِهِ السُّجُوبَةِ ، فَهِيَ لِمَا أُهْلَتْ لَهُ فِي خِدْمَةِ ذَاكَ الْمَقَامِ
الْأَمِينِ ، وَهِيَ كَمَا شَاءَ مَا لِكُلِّهَا الْمُتَصَدِّقُ مِنْ فَوَاتِ الْعِفَّةِ وَإِلَّا فَهِيَ مِمَّا مَلَكَتِ
الْيَمِينِ ، فَاتَّيَتِ الصَّدَقَةُ الشَّرِيفَةُ عَوَارِفَهَا بِمَا هُوَ أَشْرَفُ مَقَامًا ، وَأَعْظَمُ لَهَا فِي رِثَةِ
الصَّخَارِ فَهِيَ تَسْمُو بِهَذَا وَلَا تُسَامَى ، وَشَرَفَتْ بِمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ حِنْدُ الْمُقَرِّ الشَّرِيفِ
مِنْ الْقَصَامِ الْكَرِيمِ ، وَلَمْ تَكُنْ إِلَّا مِنْ ذَوَاتِ الْقُوَدِ وَلَا كَيْدَ وَلَا كِرَامَةَ لِمَا يُقْبَلُ بِهِ .
الْقَلِيلُ الْيَمِينِ ، وَلَا لِمَا يُجَلُّ فِي جَيْدِ الْجُوزَاءِ مِنْ عَقْدِ دُرِّهَا النِّظِيمِ ، وَلَوْلَا إِبْجَالُ
الْمَقَامِ عَنِ الطُّوِيلِ لِمَا أَخْضَرَ الْقَاتِلُ قَالَ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذَا مَا أَصْدَقُ

الطرف الثاني

(في صُنَاقَاتِ الرُّؤْسَاءِ وَالْأَمِينِ وَأَوْلَادِهِمْ)

وهي على نحو من الصُنَاقَاتِ الْمُلْكِيَّةِ فِي التَّزْيِينِ ، إِلَّا أَنَّهَا أَخَصَرُ ، وَمِنَ الْاَهْتَابِ بِحَسَبِ أحوال أصحابها من أَرْبَابِ السُّيُوفِ وَالْاَقْلَامِ .

وهذه نسخة صَدَاقِ جمال الدين عبد الله [بن سيف الدين أبي سعيد أمير حاجب] ^(١)

على بنت بيدمر الممرى ، من إنشاء المَقَرِّ الشَّهَابِيِّ بن فضل الله ، وهي :

الْحَمْدُ لَهُ مُبْلَغُ كُلِّ أَمَلٍ مَا يَرْجُوهُ ، وَرَأْيِي ذِمَّ مَنْ لَمْ يَفْسُوا عَهْدَهُ وَلَمْ يُخْلِفُوهُ ،
وَمُكَلِّ انْقِلَابٍ لِكُلِّ ذِي ^(١) يَصْدُ مِنْ يَخْفُوهُ ، وَيُجِيبُ كُلَّ مُنِيبٍ يَدْعُوهُ قَائِمًا
وَقَائِمًا : (وَلَبَّ قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ) .

نَحْمَدُهُ حَمْدًا نَكَّرَ فَضْلُهُ وَتَنَلَّوْهُ ، وَتَحُلُّ مُعْضَلُهُ وَيُجَلِّوْهُ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً يَنْظَافِرُ عَلَيْهَا الْأَمْرُ الْمُسْلِمُ وَبَنُوهُ ، وَيَتَيْسَّرُ بِهَا وَجُوهُ
الْأَوْدَاءِ ، وَتَسْوَدُّ وَجُوهُ الْأَعْدَاءِ ، يَوْمَ تَيْسَّرُ وَجُوهُ تَسْوَدُّ وَجُوهُ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا
عَلَمًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الَّذِي سَجَدَ بِهِ ذُؤُودُهُ ، وَصَعِدَ قَلْبُ صِهْرِهِ وَحَمُوهُ ، وَشَرَّفَ نَسَبًا
مَا أَتَقَى فِيهِ عَلَى سِقَاحٍ هُوَ وَلَا أَوْلَاؤُهُ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاحًا لَا يَزَالُ
بِهَا الرُّؤُوسُ الْأَرِجُ يَفُوهُ ، وَالسَّحَرُ يُلْقِيهَا وَلَوْ سَكَتَ وَخَنِمَ بِالْبَرَقِ فُوهُ ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا .

وبعد ، فإن أَرَهَى زَهْرُ طَابَ مُجْتَنُوهُ ، وَطَالَ بَاعًا فِي الْقَفَارِ مُجْتَنُوهُ ؛ زَهْرُ كَلِمَةٍ
بَجَرَتْ عَنْهَا لَأَمَةٌ كَيْمِي ، وَأَبْرَزَتْهَا سُنَّةُ الْإِسْلَامِ مِنْ حِجَابِ ذِي أَنْفِ حَيْمِي ؛ وَطَلَعَتْ
مِنْ أَفْقِي بَدْرِي طَالِمًا سَمِعَ مُجْتَنُوهُ ، وَحَمِي سَيْفِ أَمِنْ فِي كَلِمَةٍ بِكَلَامِهِ مُجْتَنُوهُ .

(١) يبايض بالأمرول والتصحیح من الصفحة التالية .

وكان الخنابُ الجمالُ عبدُ الله بنُ المرحوم سيف الدين أبي سعيد أمير حاجب ،
أدام الله تعالى مُلأه ، ورحم أباه ، هو ولدُ ذلك الوالد ، وظلَّ ذلك الثالث ؛ ونشأ
هذه الدولة الشريفة الكاملة التي أخذ منها حظُّه بالتمام والكمال ، وأصبحت به
كالقادة الحسنة ذات الحُسن والجمال ، ولم يمت أبوه في أيام سلطانها - خلد الله
ملكه - حتى قرئت به عينه ، وسأواه في الإمرة لولا تخاوت العدة وقدم المدة بينه
وبينه ، وجاء منه ولدٌ نجيب ، وابنٌ شاعٍ وذاعٌ سراً به ومجدٌ وهذا عجيب !!! .

ولما انتقل والده رحمه الله تعالى إلى رحمة ربه ، وشرب بالكأس الذي لا بد لكل
شئ من شربه - تطلبَ منهلُ ذلك الأب ولم يزل يبعد حتى وجد ، وظفرَ باليد إن
لم يكن ولده حقيقة فإنه عنده مثلُ الولد ، وهو المقر يدبر ، وهو الولد الذي لم يفقد
معه من والده ذره ، والأبُّ الذي هو أرفق من كلِّ ثمرة ، والتَّبرُّ البشري الذي
سعد قرانا ، وصمدٌ وداسٌ بغيره ، وقسمٌ قهرٌ « شعرتين » ناره للضيوف قرى
وليته لله قرانا .

هذا إلى أنه طالعٌ طيب لركاة أمواله وقمرها ، وزين في أعماله بمدرسة قمرها ،
وقيد شوارده حسنة وتفقه ؛ مع أنه شيد المسالك وسدَّ أمورها ، وسدَّ ثغورها ؛
وحملَ بيض سبيوفه السواد الأعظم ، ورمى بصوابٍ يساهمه الثواب ولم تستغلم ؛
ولم تزل ثوب الأيام مجرب منه مسوريا ، ومجرد حراً كرمًا جاء في أول السنة صقرا
بتوريا ، فكان بره بمن سلف إجابته ولده ، وإجالة الرأي فيما يكون سببا
لصيانته عزَّمتِه وذات يده ، فأنتم له بقيلته المنعم ، ورييته التي غلت الشمس منها
سافرة مقنعة ؛ وقال : حل الغيرة والغيرة ، وابنُ أخٍ كريم وجدَّع الحلال ألف الفية ؛
وما أبنى عقدا يكون منوَّله ، ومُنشئه إحسانا منه ومُسنيه ، موثق به نُظمت عقود
للآتي ، ورُقت بلمه أعلام الأيام وذوائب الليالي ، وسُلمت الفضايا به إلى مُنفذ

من صريح الأعشى

أحكامها، وميسل الفضل لحكامها، البحر الزاخر، والنجم الذي تم ترك الأول منه
للآخر، والعام إلا أنه قصت صراحته على المتصوم، والإمام الذي أجمعت عليه
السنة ولم تنكر الشيعة أنه الإمام المتصوم، والعالم الذي ما برحت بروقه تُشام، وحقوقه
على أهل بيته وضرب الشام، والذي ولي الظلم منذ ولي، وأعترف ذوو الفضل والفعل
في القضاء أن أنقامهم قبيح الدين وأفضاهم :

قاضى القضاة أبو الحسن • ببقائه يحل الحزن ،

و [هو] الذي في حكمه • يجرى على أقوى [سن] !^(١)

طسود إذا وازنته • بالكود في حكم وزن !

والبحر طى ردائه • قلد العقود بلا ثمن !^(٢)

فاضاء التحليل به وبالحاضرين، وقام شعار الدين حتى قال القائل : هذه سيوف
المجاهدين وهذا مسيف المناظرين ؛ وقيل : هذا وقت جود قد حضر، وموضع
سرور ينبغي أن يجعل منه ما يحظر ؛ فابتدأ السعد بحياه الوسم، وأفتح فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم هذا



وهذه نسخة صدق ناصر الدين محمد بن الخطيبى، من إنشاء الملق الشهابى بن
فضل الله، وهى :

الحمد لله الذى زاد الأصول الطيبة قربا، وزان الأساب العاهرة بصلة نتاج
حبا، ومان كرائم البيوت القديمة الصغار بن ياضل عن حسبه ذبا، ويتأطر العلياء
فلم بين إلا بين منازل النجوم بيوتا ولم يسيل سوى السمر سمر ألقا نجبا .

(١) ياض بالأصول، والتصحيح من القام .

(٢) بمعنى جمع .

نحمدُ محمدَ من دعاء قبيل بثِّ النِّعمِ قَلْبِي ، واستمداء لأخذِ العهدِ عليه أمانه
تفريقِ النِّعمِ فما تأتي ، ونشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تَسْلُطُ
ألسنةً وتشكرُ قلوباً ، وتُسَنِّدُ أنواءَ السُّرُورِ فضيَّ البشائرِ بروقاً رُحِطَرِ الرِّحَةِ بحباً ،
ونشهدُ أن محمداً عبده ورسوله الذي قام في تكثيرِ الأُمةِ حتى زاد عددها على مواقعِ
القَطْرِ وأرْبَى ، وقال مما أَمَرَ به : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)
صلِّ اللهُ عليه وعلى آله وصحبه وعلى أقربائه صلاةً تَعْمُ الآلَ وصحباً ، ماسراتِ الشُّبهِ
تقطعُ الأفاقَ شرقاً وغرباً ، وسلمُ تسليماً .

وبعدُ ، فإنَّ أولى ما أَشْبَكَ وَشَبَّجَهُ ، وأَشْبَهَ في منابتِ الأيِّكِ بَيْبَجَهُ ، وأَنْبَهَ
في أرائِكِ انْتِمَائِهِ أَرْبَعَهُ ، وَأَنْشَبَ لإتيانه الأُفقَ وظَهَرَ عليه من دَحَبِ السَّيِّئِ تَحْوِيَهُ
ومن لَمَجِ الصَّبَاحِ تَدْبِيحَهُ - ما أَتَيْتُ فيه الشريعةَ المَطْهُرَةَ حيثُ لا تَخْلُفُ الأُمةُ ،
والسُّنةَ النبويَّةَ على من سَبَّها أَفْضَلَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ فيها تَأْتِلُفُ به البُعْداءُ وتَكْثُرُ
لباهاتِهِ الأَتمُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَذِهِ الأُمةُ ، وَتَكُونُ به الأُجَانِبُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَيَحْمِلُ
بينهم مَوَدَّةٌ وَرَحْمَةٌ ، وَتُعَدُّ به أَيَادِي جَمَّةٍ لَا تُحْصَرُ وَيُحْمَلُ بِهِ فِي الْعَاقِبَةِ شَرَفُ الذِّكْرِ
وَيَتِمَّعُ بِهِ شَرَفُ النِّعَمَةِ ، وَهُوَ التَّكْوَانُ الَّذِي تُشْتَدُّ بِهِ الْأَوَاصِرُ ، وَتَقْتَدُّ بِهِ الْمَوَارِدُ
تَتَبِيلُ أَكْثَرَ الصُّوَرِ مِنْ أَزَى الْعَنَاصِرِ ، وَتَحْتَدُّ بِهِ هِمَمُ الْأَبْطَالِ لِمَا يَسْتَخْرِجُهُ بِمَقْدَرِ
أَسْبَابِهِ مِنْ أَمِّ قُوَّةٍ وَنَاصِرٍ . وَأَكْمَلُهُ مَا تَمَثَّلَتْ فِي أَشْرَفِ الْبُيُوتِ الْبَرِيقَةِ وَجُوهُ
نُفَارِهِ ، وَتَهَابَلَتْ فِي مَطَالِعِ السُّعُودِ - حَيْثُ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ وَالشَّرَفُ الْخَطِيرُ - مَشَارِقُ
شُجُومِهِ وَمَطَالِجُ الْفَارِهِ .

وكان الأيوبيُّ في أهلِ الصَّخَّارِ مِنْ جُرُثُومَةٍ بَسَقَا ، وَأَرْوَمَةٍ تَحَرَّقَتْ قُرُوعُهَا
ثم تَلَاقَى مِنْهَا غُصْنَانِ وَأَحْتَقَا ، مِنْ بَيْتٍ مَا يُجِبُّهُ إِلَّا مَوَاضِي الصَّفَاحِ ، وَلَا شُبْهَهُ

إلا طلائع الأيسّة في رؤوس الرّماح، ولا حُجُب إلا ما يَبْصُرُ على جَنَابِهِ من النّفوس
 أو يَبْصُرُ من السّماح، ولا حُجُبَة إلا المَنَاقِبُ لولا أن الرّأيا جاذِبَت ما يَبْرُشُ
 في السّماء أنشاء الوشاح، وكان هو الرّائِب إلى عَمّه، الخاطِب إليه ما لم يكن يُجِبُّ
 إلا لقسَمه، الطّامع ينظره إلى عَقِيلَة الفَخار في غُرْفِها، الطّامع بِمُطَبَّةِ الشّمس شمِس
 النّهار إلا أنها في بَيْتِ شَرَفِها، المُتَوَقِّع من كَرَمِ عَمّه الإجابة التي لحظها بِأَمْلِهِ، وتَوَلَّية
 يَدِ كَرِيمة لا يَتبدّل الزّمانُ إلا إذا حِلَّتْ شَمْسُها في بَيْتِ حَمَلِهِ، توقُّعا لَنَسْلِ لا يزال به
 شَرَفُ هذا اليتيم الكَرِيم مَوْجودا، ونَسَب إذا عَدَّ وَلَدُهُ منه الآباءَ عَدَّ جَدَّيْنِ سَعِيدَيْنِ
 هَذَا مَسْعُودا وهذا مَحْمُودا، فَكُنْ قصَدَه بِإِكرامِ بَوَاهُ أَكْثَفَ الشّرف، وأَوَّلَه
 فُرُشَ الكَرَامَةِ مَتَمّا بِنِعمِ القَرَف، أَسَدُعا لِلكرَمِ المَالُوف، وَأَتّابعا لَلسُّنةِ الشَّرِيفَةِ
 إِذْ كانَ الأَقْرَبونَ أَوَّلَى بالمَعْرُوف .

فَتَبَارِيا جُودًا سارَحَ كُلُّ منهما في أَداءِ حَقِّه إلى الواجب، وَتَبَارِيا إِلَهَ لِيَلْعَظَا
 شَأْوَ ابْنَيْهِمَا وَكُلُّ منهما يَسلِمُ أَنَّهُ العَيْنُ والعَيْنُ لا تَرْتَفِعُ على الحَاجِبِ، وَأَتَمَّ الحَاجِبُ
 الشَّرْفُ عَمُودٌ - أَدَامَ اللهُ نِعْمَتَهُ بِمُحْسِنِ إجابته، وَيُؤَيِّنُ رَغْبَتَهُ في أَهْلِ عُسْبَتِهِ، وَأَهْلَ
 جُنُودِهِ إلى أن سَارُوا إلى المَهِجاءِ تَحْتَ عِصَابَتِهِ - بِأن فَوَضَ هذا الأَمْرَ إلى أَخِيهِ
 الكَبِيرِ وَالِدِ الخاطِبِ، وَسَكَتَ وَقَالَ : هو في التَّصَرُّفِ وَعَنَى الخاطِبُ ؛ وَلَهُ الأَمْرُ
 وَلَوْلا الشَّرْفُ بِنِسْبَةِ الأَخُوَّةِ إِلَيْهِ لَمَّا قُلْنَا : إِلا أَنّا مَلِكُ يَدِهِ ، وَإِذا كانَ المَمْنُونُ
 الأبُ فَأَيُّ قَرِيقٍ بَيْنَ وَلَدِي وَوَلَدِهِ ؟ ، وَلَقَدْ أَخْتَصَّ في نِسْبَةِ هذه الزَّوْجَةِ في يَوْمِهِ هَذَا
 فَإِنَّ أولادَهُ لا تُعْرَفُ إِلَّا بِهِ في عَدِّهِ ، فَكُلُّ هذا السَّعْدِ ، وَأَشْرَقَ بِهِ السَّعْدُ الطَّالِبُ
 أَضْواءُ مِمَّا قَدَّمَ وَأَتَمَّنَ السَّعْدُ ؛ وَكانَ من تَمَامِ التَّكْرِيمِ ، أَن قالَ قَائِلُهُ :

وهذه نسخة صداق القاضي تقي الدين، وهي :

الحمد لله الذي رَفَعَ إلى المَنَازِلِ الْعَلِيَّةِ مَنْ كَانَ حَيًّا ، وَجَمَعَ شَمْلَ مَنْ لَمْ يَرِحْ لَسَنِي
السَّنَى نَازِمًا وَبِهَا حَيًّا ، وَخَلَعَ أَتَوَابَ التَّوَابِ عَلَيَّ مِنْ سَرَحِ طَرَفِ طَرَفِهِ فِي رَوْضِ
التَّاهُلِ وَجِوْهِهِ وَضِيًّا .

بِحَمْدِهِ عَلَيَّ نِعْمَةً إِلَى مَنْ هَرَجَ جُدْعُ تَحْلِيلِهَا تَسَاقَطَ عَلَيْهِ رُطْبًا جَنِيًّا ، وَتَشْكُرُهُ عَلَيَّ
فَضْلُهُ الَّذِي كَمَّ أَجْرِي لِقَاصِدِهِ مِنْ بَحْرِهِ الْمَعْرُوفِ سِرِّيًّا ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَمْنَعُ قَائِلَهَا فِي غُرَفِ الْجَنَّةِ مَكَانًا عَلِيًّا ، وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا عَمْدًا
عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ الْكَلَّابَ وَجِوْهَهُ نَبِيًّا ، الْأَمْرَ آتَاهُ بِالْكَوْكَاجِ لِيُكَاتِرَ بِهِمُ الْإِثْمَ
يَوْمَ يُقَرَّبُهُ اللَّهُ نَبِيًّا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانَ يُحِبُّ مِنْهُمْ فِي حَالَتِي
الْحَرَمِ وَالْكَرَامَاتِ وَلِيًّا ، مَا أُلْطِعَ التَّوْفِيقُ فِي آفَاقِ الْأَتِّصَالِ مِنَ الْأَنْسَابِ الْكَرِيمَةِ
كَوْكَابًا دُرِّيًّا ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد ، فإنَّ أَوَّلَى السَّنَنِ بِالْإِكْتِبَاعِ سُنَّةُ النِّكَاحِ ، الَّتِي أَخْفَى نُورُ مِصْبَاحِهَا شَمْسَ
الصَّبَاحِ ، وَخَفَقَتْ عَلَيَّ مَطْلِعُهَا أَعْلَامُ النُّجَاةِ وَالنَّجَاحِ ، وَحَمِدَ الْمَسِيرَ إِلَى رُبُوعِهَا الْآهِلَةِ
بِأَهْلِ الْمِصْمَةِ فِي الثُّدُورِ وَالرُّوُاحِ ، بِالْمَا سُنَّةُ سُنَّةٍ وَجْهَهَا جَمِيلَةٌ ، وَأَصَابِعُ نَيْلِ نَيْلِهَا
بِلِ أَيْدِيهِ جَزِيلَةٌ ، بِهَا تُجْنَى أَشْجَارُ النَّسَبِ وَيَطِيبُ جَنَّتَاهَا ، وَتَبْلُغُ الْفُؤُوسُ مِنَ الصِّيَانَةِ
أَقْصَى مَنَاهَا ، وَيَطْفِرُ أَوْلُو الرِّغْبَةِ فِيمَا أَحَلَّ اللَّهُ بِمَطْلُوبِهِمْ ، وَتُؤَلَّفُ بَيْنَ مَنْ لَوْ أَفْغَقَتْ
مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَهِيَ الْوَسِيلَةُ الَّتِي تُكَثِّرُ سَوَادَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ،
وَالَّذِي رِيسَةُ إِلَى [حَقَّ] التَّوَجُّعِ الَّذِي أَظْهَرَ اللَّهُ فِي سَمَاءِ التَّكْرِيمِ تَجَمُّعَهُ ، وَإِلَيْهَا الْإِشَارَةُ
فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ
بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) .

ولما كان كذلك رَغِبَ في آتِئَاتِهَا ، وَاعْتَدَى بِالضُّوءِ اللَّامِعِ مِنَ الْفَارِهَا ؛ مَنْ
يَتَشَرَّفُ الْمَكَانَ يَذْكُرُ وَصْفَهُ ، وَيَتَعَطَّرُ مَا أَتَشَرَّفُ فِي طَبِيعِهِ مِنْ طِيبٍ عَرَفَهُ ؛ مَا جُدَّ
عَمَرُ الْبِلَادِ السَّاحِلَةِ بِدَوَامِ دِيْعِهِ ، وَجَوَادُ مَا جَاوَرَهُ الْبَحْرُ لَا لِيَقْتَنَسَ مِنْ كَرَمِهِ ؛
وَرِئِيسُ أَمْتَعَى ذِرْوَةُ الْعُلَيَّاءِ بُحْسِنِ السُّلُوكِ ، وَأَزْيَجِي لَوْ لَمْ يَكُنْ صَدْرًا لِمَا أَوْدَعَ سِرُّ
الْمُلُوكِ ؛ إِنْ تَكَلَّمَ أَبْزَلَكَ الْجَوْهَرُ الْمَصُونُ ، وَإِنْ كَتَبَ صَحَّكَتْ لُبَّكَاءُ قَلْبِهِ ثُنُورُ
الثُّنُورِ وَالْحُصُونِ ؛ فَهُوَ نَسَبُهُ الْمَشْهُورُ بَيْنَ الْأَكْبَرِ الْأَعْيَانِ ، وَبَيْتُهُ الْمَعْمُورُ بِالْبَيْنِ
الْمَرْفُوجِ خَبَرُهَا إِلَى قِيَانِ ؛ تَخْطُبُ مِنْ عِلَا قَدْرُهَا ، وَاشْتَهَرَ بِالْحُسْنِ الْجَمِيلِ ذِكْرُهَا ؛
وَجَلَّتْ عَنْ أَنْ تَرَى الْعُيُونُ لَهَا فِي الصُّوْنِ شَيْبًا ، وَعَمَّتِ الْبِقَاعُ حُبَّ بَرَكَةِ أَيْبِهَا ؛
أَتَكْرُمُ بِهِ عَلِيًّا طَاعِلًا ، وَإِمَامًا لَمْ يَزَلْ يُبْدِي فَضْلًا وَيُسْدِي نَائِلًا ؛ كَمْ لَهُ مِنْ آثَارِ
مَشْهُورِهِ ، وَمَنَاقِبِ مَأْثُورِهِ ، وَصَلَفَاتِ مَبْرُورِهِ ، وَمَوَاطِنِ يَذْكُرُ اللَّهُ مَعْمُورِهِ .

فَقُوبِلَ بِالْبِشْرِ قَوْلُ رَسُولِهِ ، وَرُدَّ رَائِدُهُ مُخْبِرًا بِبُلُوغِ سُؤْلِهِ ؛ وَقِيلَ لَهُ بِلِسَانِ الْحَالِ :
هَذَا مَا كَانَتْ تَنْتَظِرُ الْأَمَالَ ؛ يَا لَهُ عَقْدًا غَلَّتْ جَوَاهِرُ عُقُودِهِ ، وَأَنَارَتْ فِي آفَاقِ
الْأَتَقَاقِ أَنْجُمُ سُعُودِهِ ؛ وَتَمَايَلَتْ قُدُودُ أَغْصَانِ الْأَفْرَاحِ ، وَزَعَتْ بِمَجَالِسِ السُّرُودِ
بِالْأَنْشِرَاحِ ؛ وَهَبَّتْ قُبُولُ الْإِقْبَالَ ، وَقَامَ الْقَلَمُ خَطِيبًا عَلَى مِنْبَرِ الطُّرُسِ فَقَالَ :

هذا ما أصدق... ..



وهذه نسخة صديقي من إنشاء الشيخ صلاح الدين الصفدي، للقاضي بدر الدين
خطيب بيت الآثار، على بنت شمس الدين الخطيب من بيت الآثار، تُسَمَّى
سُؤْلَ ، في مُسْتَهْلِ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَتَحْسِينِ وَسِعْمَانَةِ ، فِي مَجْلِسِ مَوْلَانَا
فَاضِلِ الْقَضَاءِ تَقِيَّ الدِّينِ السُّبْكِيِّ الشَّافِعِيِّ ، أَدَامَ اللَّهُ أَيْامَهُ ، وَهِيَ :

الحمد لله الذي زين سماء المظلي ببديها، وأثبت في رياض السعادة بانبج زهرها،
ولم يترك قوى الميم أن يتنلوا في الكرام غوالي مهرها .

نحمد على نعمه التي حلت ما ضفا من لباسها، وسوغت ما صفا من رضاء
كاسها، وخصنا بما عمت به من أنواع أجناسها، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له، أعلمنا في الإيمان نصبا بالأداء، وبقى آتمها على الفتح كما فتح
المضائق في النداء، ووقع خبرها : إنا على رأي الرواة للشهرة وإنا على رأى الشعاة
بالأبتداء، ونشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله الذي شرع النكاح لهذه الأمة،
ومنح السقاح فلم يكن أمرنا علينا عنه، وتبع الصواب فما غلغ بالصباح إذا ابتلع
عقيب الليلة المذمومة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين تلقوا أوامره بالطاعة،
وأجتنبوا نواهيه حتى بلغوا جهد الانقطاع، وفهموا مراده بمكافئة الأثم فكان
البصاع عندهم خير بضاعة، صلاة رضوانها يضيء إضاءة الكواكب في أبراجها،
وغفرانها يكثر العار في أعداد موبجها، ما اتصل سبب بالنكاح، وانفصل نسب
بالسقاح، وسلم تسلياً كثيراً إلى يوم الدين .

وبعد، فإن النكاح من محاسن هذا الدين القيم، وفضائل هذا الشرع الذي
لا زال شرفه بدرأ بين مشرقات النجوم وهو عجم، به يحفظ النسب الشهود، ويرعى
عهد القرينة الولود الودود .

وكان فلاس من أشبه أباء، وأمين ما أودعه من نقائس العلوم وحياه، تصدّر
في المجالس، ودرس في المدارس، وأورد ما عنده من النقايس، كيف لا ؟ وهو
يسيطر شيخ الإسلام وإمام المسلمين، وقاضى قضاء الشافعية وأوحد المجتهدين،
وقد أراد الآن إحصان قريحه، وأن تزل الزهرة مع بدره في برجه .

فذلك رَضِب إلى المجلس السالِح (المسى) وَخَطَبَ الجُمُعَةَ المصُونَةَ المُجَبَّةَ ،
الْبَيْتَةَ ، الْحَقِيَّةَ ، الْعَفِيفَةَ ، الْخَاتُونَ ، حُصْنَ الإسلام ، شَرَفَ الْخَوَاتِينِ ، بِجَمَالِ قَوَائِدِ
السُّنَنِ ، قُرَّةِ عَيْنِ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ ، السَّيِّدَةِ "سُؤلى" بِنْتُ فُلَانٍ ، صَانِ اللهُ
جَمَلَهَا - فَأَكْرَمَ مَوَارِدَ قَصِيدِهِ ، وَحَيَاةَ أَنْفَسِ قُدْرَةِ فِي عَقِيدِهِ .

فذلك قام خَطِيبُ هذا الحَقِيلِ الْكَرِيمِ ، وَالتَّعَبُ الَّذِى لَمْ يَزَلْ يَجْمَعُ بِالطَّالِبِ الْمُبْتَغِمِ ،
وقال :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



قُلْتُ : وهذه نسخةُ صِدَاقِ زَيْنِ الدِّينِ صَدَقَةِ السَّيْفِي أَزْدَمَر ، عَلَى بِنْتِ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ «الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ» . أَنْشَأْتُهُ لَهُ فِي خِلَافَةِ أَخِيهَا الْمُسْتَعِينِ بِاللَّهِ الْعَبَّاسِيِّ ، وَهِيَ :
الْحَمْدُ لِلَّهِ مُسْتَخْرِجِ النُّوْحَةِ الْمَاشِيَةِ مِنْ أَطْيَبِ النَّاصِرِ ، وَمُفَرِّجِ الْبُئَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ
مَنْ أَكْرَمَ صِنُوهُ أَنْقَضَتْ عَلَى فَضْلِهِ الْخَلَاصِرَ ، وَخُصِّصَ يَتِّ الْخِلَافَةِ مِنْهَا بِأَعَزِّ
جَانِبٍ قُلْتُ لِعِزِّهِ عَظَمَةُ الْمُلُوكِ مَا بَيْنَ مُتَقَدِّمٍ وَمُعَاوِرِ .

نَعْمُهُ عَلَى أَنْ صَانَ عَقَائِلَ الْخُلَفَاءِ بِمَاقِلِ الْحَسَبِ ، وَحَصَرَ كَفَائَتَهَا فِي الْعِلْمِ وَالْدِّينِ
حَيْثُ لَمْ يُكَافَأْ بِحَقِّيَّةٍ وَلَا نَسَبٍ ؛ وَنَشَهُدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الَّذِى
سَنَّ التَّكْلَاحَ وَشَرَعَهُ ، وَارْتَمَى بِالْحِلْسِ أَنْفَ النَّبَرَةِ لَدَى الْإِبَاءِ وَقَعَهُ ؛ شَهَادَةُ يُسْتَشَقُّ
مِنْ رَأْيِ عَيْرِهَا كُلِّ شَيْءٍ أَرِيجُ ، وَتُجَنَّبُ نِمَارِيَّتُهَا بِشَرِيفِ النَّجَاحِ مِنْ كُلِّ نَوْحِ
يَبِيجُ ؛ وَنَشَهُدُ أَنْ سَيِّدَنَا عَمَّا عِندَهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ نَبِيٍّ وَفَرُّهُ فِي الْفَضْلِ سَهْمُهُ حَتَّى لَمْ
يُسَلِّمْ ، وَأَكْرَمَ رَسُولِهِ رَحَّصَ فِي تَزْوِيجِ بَنَاتِهِ مِنْ مَحَابِهِ وَالْأَقَابِ كُفُّ رَسُولِ اللَّهِ
مِنَ الْعَالَمِ ؟ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَتَحِيَّهِ الَّذِينَ شَرَّفَهُمْ بِقُرْبِهِ ، وَقَرَنَ الْقُصْرَ

بالنسب فيهم نفص مصاهرة أخصمهم به ؛ صلاة فصل سبب قاتلها بسببه ،
ويجمل الفخار بها كلمة باقية في عقبه ؛ وسلم تسلياً كثيراً .

وبعد ، فإن أولى ما أحال فيه المطيل ، وشهد في وصفه اللعن الكليل ، ورفقت
محاسن ذكره على صفحة النهار بدائيب ذهب الأصيل - ما تواصلت به الأسباب ،
وتوصل بواسطه في دراري الذراري إلى شرف الأخصب ؛ وتوقرت عليه الدواهي
فاشتتت به الأواصر ، وحسنت في طريق قصيده المساعي فتأكلت به المودة
في البواطن والظواهر . وهو التكاثر الذي ندب الله تعالى إلى معاطاته ، وحض
على التحمل بحمله حتى ألحقه بالعبادة في بعض حالاته ؛ طلباً للتحصين الكافل بسؤلك
نتيج الاستقامه ، ورغبة في تكثير النسل الواقع [به] مكثرة الأمم يوم القيامة .

هكذا وكرايم بيت الخلافة ، وربائب محمد المجد والإتافه ؛ في حيز لو طلب مناو
مكافئها لطلب معوزا ، أو رام مقاوم مضاهاتها في طلو الرتبة لرام معجزا ، لما
أخترت به من السيادة لا يرقى إلى منزلتها ، والمعالي التي لا تسمو النفوس
وانحلت إلى رتبها ؛ إذ كان النظيم لشرف أرومتها ممتنعا ، والقبض بما تحت من
طيب جرموتها مرتفعاً ؛ فبرق مآلها في الطلول لا يسام ، وجوهر فخارها في المآثر
لا يسام ولا يسام ، فمر بذاك في الوجود مكافئها ، وأمتنع خوف الهجوم بالاختطاب
مؤايفها ، إلا أن الواقف الشريفة المقدسة المتوكلية - زاد الله تعالى في شرفها ،
وأدام رعايتها بحلة الملوك وحمايتها وكفها - مع ما أفردت به من العز الشايع الذي
لا يساوى ، والشرف الباذخ الذي لا يتاوى ؛ قد رغب تفضلها في أهل الفضل فال
اليهم ، وأختص بإقباله أهل الدين فأقبل بكلية عليهم ؛ عيلاً لهم من شريف مقامه
أهل محل الأسطفاة ، ومقدماً لهم في المصاهرة على أبناء الملوك واللقباء ؛ فوافق

في الفضل شئ طَبَقَهُ . وَدَوَّلَ سَاوَةَ النَّهْمِ مِنْهَا خَيْرَ حَاطِلٍ قُلْتُ بِقَوْلٍ : إِنَّ اللَّهَ
تَصَدَّقَ عَلَيْكَ بِصَدَقَةٍ ؛ فَمَعْدَ ذَلِكَ أَتَبَنَرُ الْقَلَمَ مِثْرَ الطَّرْسِ نَقَطَبُ ، وَخَطَبُ بِالْحَامِدِ
لِسَانَهُ اللَّسِنُ فَكَتَبَ :

هذا ما أَصْدَقَ الْعَبْدَ الْفَقِيرَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، الْجَنَابِ الْعَالِي ، الْأَمِيرِ ، الْكَبِيرِ ،
الشَّيْخِ ، الْإِمَامِ ، الْعَالِمِ ، الْعَامِلِ ، الْعَابِدِ ، الْخَلِيشِيِّ ، الْبَالِي ، الْبَلِيغِ ،
الْمُتَوَكِّلِ ، الْعَصْدَقِ ، الرَّئِيسِ ، الْأَصْلِيِّ ، الْعَرِيقِ ، الرَّزْزِيقِ ، أَبُو الْمَعَالِي صَدَقَهُ -
الْهِمَّةَ الشَّرِيفَةَ الْعَالِيَةَ ، الْكُبْرَى ، الْمُعْظَمَةَ ، الْحَجَبَةَ ، الْمُصُونَةَ ، سَلِيلَةَ الْخِلَافَةِ ، فَرَعَ
الشَّجَرَةَ الزُّرِّيَّةَ ، جَلِيلَةَ الْمَصُونَاتِ ، جَمِيلَةَ الْمُحَبَّاتِ ، سَارَةَ ، الْبِكْرَ الْبَالِغَ ، ابْنَةَ سَيِّدِنَا
وَمَوْلَانَا الْمَقَامِ الْأَشْرَفِ ، الْمُقَدَّسِ ، الْعَالِي ، الْمَوْلَوِيِّ ، السَّيِّدِيِّ ، الْإِمَامِيِّ ، النَّبَوِيِّ ،
الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ "أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ" أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَبْنِ الْمَقَامِ الْأَشْرَفِ الْعَالِي ، الْمَوْلَوِيِّ ،
الْإِمَامِيِّ ، الْمُتَضَيِّدِ بِاللَّهِ "أَبِي الْفَتْحِ أَبِي بَكْرٍ" بَنِ الْإِمَامِ الْمُسْتَكْنَفِيِّ بِاللَّهِ "أَبِي الرَّبِيعِ
سُلَيْمَانَ" بَنِ الْإِمَامِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِهِ "أَبِي الْيَاسِ أَحْمَدُ" لَا زَالَ شَرَفُهُ بِإِذَاخِ ، وَعِزَّتُهُ
الشَّرِيفُ شَاخًا ، وَذِكْرُ مَنَاقِبِهِ الْعَالِيَةِ لِكُلِّ مَنَاقِبَةٍ نَاجِحًا - صَدَقَاقًا جَمَلُهُ كَذَا وَكَذَا ،
زَوَّجَهَا مِنْهُ بِذَلِكَ فَلَانٌ ، وَقِيلَ فَلَانٌ ، وَتَمَّ عَلَى بَرَكَاتِهِ اللَّهُ تَعَالَى وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ ، كَامِلَةً
شُرُوطُهُ وَلَوْ أَزَامُهُ ، مُبَارَكَةً عَوْدُهُ وَنَعَامُهُ ، مَيْمُونَةً فَوَائِدُهُ وَخَوَائِمُهُ ، مُفْتَحَةً بِطَلَبِ
السَّيِّئِ أَزَاهِرُهُ مُفْتَرَّةً عَنْ [نَوْرِهِ] إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى كَامِلَةً .

الفصل الخامس

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(فيا يكتب عن العلماء وأهل الأدب مما جرت العادة بمراعاة الترتيب المسجوع فيه،
ومحاولة الفصاحة والبلاغة، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(فيا يكتب عن العلماء وأهل الأدب، ثم هو على صنفين)

الصنف الأول

(الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعروض الكتب ونحوها)

أما الإجازة بالفتيا، فقد جرت العادة أنه إذا تأهل بشئ أهل العلم للفتيا والتدريس -
أن يأذن له شيخه في أن يفتي ويدرس، ويكتب له بذلك - وجرت العادة أن يكون
ما يكتب في الغالب في قطع عريض، إما في قرعة الشامي أو نحوها من البلدي،
وتكون الكتابة بقلم الرقاع أسطرًا متوالية، بين كل سطرين نحو أربع عريض.

وهذه نسخة إجازة بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه
وأرضاه، كتبت لي حين أجازني شيخنا العلامة سراج الدين أبو حفص عمر بن
أبي الحسن الشويرب ابن الملقن، سقى الله تعالى عهده، عند قدومه نهر الإسكندرية،
وأنا نقيم به في شهر سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، وكتب لي بذلك القاضي تاج
الدين بن غنوم موقع الحكم العزيز بالإسكندرية في درج وديق شامي في قطع الشامي
الكامل، ويسمى يومئذ إحدى وعشرون سنة، فضلًا من الله ونعمة.

وَنُسَحِّثُهَا بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ الشَّرِيفَةِ :

الحمد لله الذى رَفَعَ لِلْعُلَمَاءِ مَقْدَارًا ، وَأَجَزَلَ نَسَمَهُ عَلَيْهِمْ إِذْ أَهْلُ لَمْ مَنَّا ، وَوَقَّى
بِسِوَاهِ الطَّرِيقِ مَنْ أَقْنَدْنِي بِهِمْ إِرَادًا وَإِسْدَارًا ، أَشْبَعَتْ هِمَمُهُمُ السَّيِّئَةَ فِي حَلَّةِ
السَّبَاقِ فَهِيَ لَا تُجَارَى ، وَتَعَلَّوْا بِالْمَقَانِرِ جَهْرًا وَقَدْ تَجَزَّ غَيْرُهُمْ أَنْ يَحْمِلُ بِهَا لِسْرَارًا ،
أَبْزَدَهُمْ فِي هَالَاتِ الْمَقَانِرِ أَسْرَارًا ، وَأَزَالَ بَضِيَاءَ طُلُومِهِمْ رَبِّبَ الشُّكِّ حَتَّى عَادَ لَيْلُ
الْجَهَالَةِ نَهَارًا ، جَعَلَهُمْ لَدَيْهِ أَنْصَارًا ، وَصَرَّعَهُمْ نُجْمَةَ أَصْفِيَانِهِ إِذْ أَوْدَعَهُمْ مِنَ الْمَعَارِفِ
أَسْرَارًا ، وَأَخْتَصَّمَهُمْ بِكُفُونِهِمْ وَرَدَّتْ أَنْبِيَاءَهُ : وَنَاهَيْكَ بِهَا لِنَحَارًا .

أَحْمَدُ مُحَمَّدٌ مِنْ هُدًى إِلَى الْحَقِّ لِمَجْلِهِ شِعَارًا ، وَأَسْتَضَاءُ بُنُورِ الْهُدَى فَلَجًّا إِلَى
مَوْلَاهُ فِي سَالَى سِرِّهِ وَبِجَهْرِهِ أَفْئَارًا ، وَتَجَزَّ عَنْ شُكْرِكَ مَا أَسَدْنِي إِلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ لَمَّا تَوَلَّى
عَلَيْهِ وَبَثَّهَا مِثْرَارًا ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ تَصَدَّقًا وَافْرَارًا ،
وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ وَالْأَصْنَامُ قَدْ جُدَّتْ يَجْهَارًا ، وَالْكَفَّارُ قَدْ أَعْرَضُوا
عَنِ الْحَقِّ اسْتِكْثَارًا ، قَامَ بِأَمْرِ اللَّهِ أَنْصَارًا ، وَقَهَرَ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ أَفْئَارًا ،
وَأَتَمَدَ بَضِيَاءُ نُورِهِ الْبَاطِلِ وَأَعْدَرَهُ إِعْدَارًا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً
تَزِيدُنَا فِي دِينِنَا أَسْتِغْنَارًا ، وَتُحِطُّ عَنَّا مِنْ تَحْمِيلِ الذُّنُوبِ أَوْزَارًا ، وَتُبَيِّتُنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ
تَعَالَى فِي دَارِ الْخُلُودِ قَرَارًا .

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ وَصَّحَ لِقَدْوَى الْإِبْصَارِ وَالْبَصَائِرِ ، وَأَتَضَّحَّ عِنْدَ ذَوَى الْأَسْرَارِ وَالسَّرَائِرِ ،
وَأَسْتَقَرَّ عِنْدَ ذَوَى الصُّلُوبِ السَّالِمَةِ ، وَالْمَقُولِ الرَّابِحَةِ الْمُسْتَحِقَةِ ، أَنْ مَثَرَةً عَلِمَ
الشَّرِيعَةُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَعْلَى الْمَنَازِلِ ، وَفَضْلُهُ أَفْضَلُ الْمَكَارِمِ وَأَتَمُّ الْقَضَائِلِ ، وَخُصُوصًا
مَعْرِفَةُ تَفَاصِيلِ أَحْكَامِ أَفْعَالِ الْمُكْتَفِينَ بِالشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، الَّتِي مَنْ عَلِمَهَا وَعَمِلَ بِهَا
وَعَلَّمَهَا فَقَدْ سَمَدَ السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ ، إِذْ هِيَ الشَّرِيعَةُ الْخَامَةُ لِمَصَالِحِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،

الْبَاقِيَةُ لِمَا خَلَقَهَا مِنَ الشَّرَائِعِ النَّافِعَةِ ، الْبَاقِيَةُ لِي أَنْ يَأْتِيَ وَيَعْبُدُ اللَّهَ وَكُلَّ شَرِيعةٍ سِوَاهَا دَائِرَةٌ ؛ قَدْ أَعْظَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ مَنْ حَفِظَهَا عَلَيَّ عِلْمَهُ الْمُنَّةَ ، إِذْ جَعَلَهُ وَقَايةً لِمَنْ مِنْ مَهَالِكِ الْجَهْلِ وَجُنَّةً ، وَوَعَدَهُ أَنْ يَقْرَأَ فِي أَعْلَى مَنَازِلِ الْجَنَّةِ ، لِمَا تَنَبَّهْتُ بِهِ نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ . فَتَنَّبَهُ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ أَقْوَى سَبَابِ الْعِبَادَةِ ، إِذْ خَصَّهُ بِهِ وَحَصَّهُ عَلَى أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ الزَّيَادَةَ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَسْتَلِمُ تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ . فَتَنَّبَى بِذِكْرِهِمْ بِعَدِهِ ، لَمْ يَكُنْهُمْ أَفْضَلُ الْخَلَائِقِ عِنْدَهُ . وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ ، وَتَهَدَّسَ عَلَيْهِ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ . فَأَوْضَحَ بِذَلِكَ أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ خَلْقِهِ الْعُلَمَاءُ ، إِذْ وَصَفَهُمْ وَخَصَّهُمْ بِأَنْهُمْ الْخَائِفُونَ مِنْهُ الْأَتْقِيَاءُ . وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ" . وَقَالَ أَيْضًا : "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ" . وَقَالَ أَيْضًا : "أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَمَا وَالَاهُ ، وَعَالِمٌ وَمُتَعَلِّمٌ" .

وَلَمَّا كَانَ فَلَانٌ - أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى قَسِيدَتَهُ وَتَوَفَّقَهُ ، وَبَسَّرَ إِلَى الْخَيْرَاتِ طَرِيقَهُ - مِنْ شَبِّ وَتَشَأً فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَالْفَضِيلَةِ ، وَتَحَلَّقَى بِالْأَخْلَاقِ الْمُرُوضَةِ الْحَبِيلَةِ الْحَبِيلَةِ ، وَصَحَّبَ السَّادَةَ مِنَ الْمَشَائِخِ وَالْفُقَهَاءِ ، وَالْعَادَةَ مِنَ الْأَكَاوِرِ وَالْفَضْلَاءِ ؛ وَاشْتَغَلَ عَلَيْهِم بِالْعِلْمِ الشَّرِيفِ اشْتَغَالًا يُرِضِي ، وَإِلَى تَيْلِ السَّعَادَةِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - يُفَيْضُ -

أَسْتَخَارَ اللَّهَ تَعَالَى سَيِّدَنَا وَشَيْخَنَا وَبَرَكَّتْنَا الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْمَلَّامَةُ ، الْحَبْرُ الْقَهَّامَةُ ؛ فَرِيدُ دَهْرِهِ ، وَنَسِيجُ وَحْدِهِ ، جَمَالُ الْعُلَمَاءِ ، أَوْحَدُ الْفَضْلَاءِ ، عَمْدَةُ الْفُقَهَاءِ وَالصُّلَحَاءِ ؛ سِرَاجُ الدِّينِ ، مُفَقِّهُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ؛ أَبُو خَفِصٍ عَمْرُ أَبِي سَيِّدْنَا الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، الشَّيْخُ الْإِمَامُ السَّالِمُ ، الْعَامِلُ ، الْأَزِيدُ ، الْكَامِلُ ، الْقُدْوَةُ ، الْمَرْحُومُ تَوْرُ الدِّينِ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيٍّ ، أَبِي سَيِّدْنَا الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ،

الشيخ الصالح، الواحد، العابد، الخليل، التامك، القدوة، المرحوم شهاب الدين،
بركة الصالحين، أبي العباس أحمد، ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى، الشيخ
الصالح، القدوة، العارف، المرحوم، شمس الدين، أبي عبد الله محمد الأنصاري،
الشافعي، أدام الله تعالى النفع به ويركبه، وأشركا والمسلمين في صالح أديته،
بمحمد وآله وصحبه وبترته .

وأذن وأجاز لفلان المسمى فيه، أدام الله تعالى معاليه، أن يدرس مذهب
الإمام المجتهد المطلق العالم الرباني، أبي عبد الله محمد بن إدريس الملقب، الشافعي،
رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مثقله ومثواه، أن يقرأ ما شاء من الكتب
المستغنى فيه، وأن يُعيد ذلك لطلابه، حيث حل وأقام، كيف ما شاء متى شاء .
وأن شاء، وأن يُعفى من قصد استغاثته خطأ ولغطا، على مقتضى مذهب الشرف
المشار إليه، لعل به بدايته وأمانته، ومعرفة ودرأته، وأهليته لنك وكفايته .

فلتلق أيد الله تعالى هذه الحلة الشريفة، ولترق بفضل الله تعالى ذروة هذه
المرتبة المنيقة، ولعلم قدر ما أنعم الله تعالى عليه، وأسدى من الإحسان الوافر إليه،
ولمراقبه مراقبة من علم أطلعه على خاتبة الأئمة وما تحفي الصدور، ولعلمه معاملته
من يحقق أنه يعلم ما يحبه العبد وما يبذره في الورود والصدور، ولا يستكف
أن يقول فيما لا يعلم: لا أعلم: فذاك قول سيد قائله . وقد جاء: "جنة العالم لا أدري"
فإن أخطأ ما أصيحت مقائلته، فانه تعالى يزقنا وإياه التوفيق والتحقق، ويسلك بنا
وبه أقرب طريق، ويهدينا إلى سواء السبيل، فهو حسنا ونعم الوكيل .

وكتب في تاريخ كنا .

وكتب شيخنا الشيخ سراج الدين المشار إليه تحت ذلك بعد حمد الله تعالى
ما صورته :

ما نُسِبَ إلى في هذه الإجازة المباركة من الإذن لفلان - أدام الله تعالى النفع به ، وأجرى كل خير بسببه ، بتدريس مذهب الإمام المظلي ، محمد بن إدريس الشافعي ، قدس الله روحه ، ونور ضريحه ؛ والإفتاء به لفظاً وخطاً صحيح . فإنه من فائق أقران عصره بذكائه ، وبرع عليهم بالاستحضار وتحرير المقول ووقائه .

وقد احتقنا وفقه الله تعالى ورأى من جملة محفظاته بـ "مختصر الجوامع" لشيخنا العلامة كمال الدين النشائي تلميذه الله تعالى بفقرانه ، فاستحضر بمحضرتي مواضع منه بحمد ، وأزال يديع فصاحته جملة من مملته ؛ وأظهر من مشكلاته ما يميز عنه اللبيب ، ومن أغاريه ما يقف عنده البارع الأريب .

فلتبي الله حينئذ فيما يئديه ، ولتعر الصواب في لفظه وخطه وأوراقه فيه ؛ فإنه موقع عن الله تعالى فليحذر الزلل ، ومعاودة الخطأ والخلل ؛ ويستحضر ما أشكلت عليه من الجلالة ، فإن الله تعالى تولاها بنفسه حيث قال : (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِي فِي الْكَلَالَةِ) .

وأجزت له مع ذلك أن يروي عني مالي من التأليف ، ومنها "جامع الجوامع" أمان الله على إكله ، وكنا شرح "صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري" . ومنها "البدر المنير" في تخریج الأحاديث والآثار الواقعية في الشرح الكبير للإمام أبي القاسم الرافعي . وبه تكل معرفة الفقيه وبصير محققاً فيها .

وأجزت له مع ذلك ماجازي وعني روايته بشرطه عند أهله ، زاده الله ولأوى من فضله . ومنها الكتب الستة : "البخاري" و"مسلم" و"أبو داود" و"الترمذي" و"النسائي" و"أبن ماجه" . والمسانيد : "مسند أحمد" و"مسند الشافعي" وغير ذلك .

وكان ذلك في تاريخ كذا . وكتب عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي ،
غفر الله لهم : حامدا ومصليا وسلمًا ، وأشهد عليه جماعة من أهل العلم بآخره .

قلت : وتكون ألقاب المجاز على قدر رتبته ، مثل أن يكتب له : « الفقير إلى الله
تعالى ، الشيخ ، الإمام ، العالم ، العاقل ، الأوحّد ، الفاضل ، المفيد ، البارِع ، علّم
المفيعين ، رحله القاصدين ، فلان الدين ، أبو فلان فلان بن فلان » (بحسب رُتب
آبائه) . وإنما أهملت ذكر الألقاب في هذه الإجازة ، من حيث إنه لا يليق بأحد
أن يذكر ألقاب نفسه في مُصنّف له ، لأنه يصير كأنه اتقى على نفسه .

وأما الإجازة بِرِياسَةِ الكُتُب ، فقد جرت العادة أن بعض الطلبة إذا حفظ كتابًا
في الفقه ، أو أصول الفقه ، أو النحو ، أو غير ذلك من الفنون ، يرضه على مشايخ
المصنّر ، فيقطع الشيخ المروض عليه ذلك الكتاب ، ويفتح منه أبوابًا ومواضع ،
يستقرئها من أي مكان أتقى ، فإن مضى فيها من غير توقّف ولا تعلّم ، استدّل
يحفظه تلك المواضع على حفظه بتمعن الكتاب ، وكتب له بذلك كل من عرض
عليه ، في ورقي مربع صغير ، يأتي كل منهم بقدر ما عنده من الملكة في الإنشاء ،
وما يناسب ذلك المقام من براعة الاستهلال ونحوها : فمن حال ، ومن هابط . وربما
خفف بعضهم فكتب : « وكذلك عرض على فلان » ، أو : « عرض على وكتبه
فلان » . إما رياسة وثانيًا عن شغل فكره وكذا نفسه فيما يكتبه ، وإما عجزًا عن
مضاهاة من يكتب معه .

وقد أحترت أن أصح في هذا المحل ما وافق الصنعة ، وجرى على أسلوب البلاغة .

فإن ذلك ما كتب به الشيخ الإمام العلامة ، لسان العرب ، ومجّة الأدب ، بدر
الدين محمد بن أبي بكر الخزوعي المالكي ، للجليل النبيل الذي تنهى الألقاب ولا نهاية

لثانيه، شهاب الدين أبي العباس أحمد ابن سيدنا الفقير إلى الله تعالى، ذي الأوصاف التي تَكِلُّ شَبَابَ الْأَلْسُنِ عَنْ حَدِّهَا، شمس الدين أبي عبد الله محمد العمري الشافعي، حين عرض عليه "عمدة الأحكام" لحافظ عبد النبي، و"شُدُورُ الذَّهَبِ" للشيخ جمال الدين بن هشام، في رمضان سنة سبع عشرة وثمانمائة، وهو:

أما بعد حمد الله على كرمه الذي هو محمدنا في النجاة يوم العرض ونأهيك بها عمدة، وسندنا الذي لا يزال لسان الذوق يروى حبيب حلاوته عن صفوان بن عسال من طريق شهنه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أحيا بروح سنته الشريفة كل من جاء ومن ذهب، وأعربت كلماته النفيسة عن عقود الجوهر و"شُدُورُ الذَّهَبِ" وعلى آله وصحبه الذين أحسنوا الرواية والدراية، وبنوا الأمر على أساس التقوى وأعربوا عن طرُق الهداية، ما أنهل من أفق الكرم المحدث كل عارض صلب، وتحتل الأسماع والأفواه من أخباره بنفاس الشُدُورِ البديعة وحلاوة الكلم الطيب. فقد عرض على الجنتاب العالي البارئ، الأوحدي، الأثني، اللوذعي، الشهابي، شهاب الدين، نَجْمَةُ النُّجَبَاءِ، أَوْحُدُ الْأَيَّامِ، تَجَلُّ السَّادَةِ الْعَفَاءِ، سُلَالَةُ الْأَيَّامِ الْعِلْمَاءِ، أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ ابْنُ سَيِّدِنَا الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ الْعَالِي، الْمَوْلُودِ، الْعَالِمِ، الْفَاضِلِ، الْبَلِيغِ، الْمُبِيدِ، الْفَرِيدِ، الْمُفَوِّهِ، الشَّمْسِيُّ، الْعُمَرِيُّ، أَطَابَ اللَّهُ حَيْثُهُ، وجمع له بالإحراب عن طُلُوحِ الْهِمَّةِ قَدِيمِ الْفَضْلِ وَحْدَيْتِهِ - طَائِفَةٌ مُتَفَرِّقَةٌ مِنْ "عُمَدَةِ الْأَحْكَامِ" لحافظ عبد النبي المقدسي، و"شُدُورُ الذَّهَبِ" للامامة جمال الدين بن هشام رحمة الله عليهما - عَرْضًا قَصُرَتْ دُونَهُ الْقَرَائِعُ عَلَى طُولِ جَهْدِهَا، وكانت الألفاظ الموردة فيه لآمة حرب الفقه الباغية عليه فأحسن عند العرض في مزودها، وزين ألقاه الله تلك الأماكن بطيب لحنه وإعراب قفطه، وأذن أمنيته فيها بأن جواهر الكمايين قد حصلت يجمعوها في خزنة حفظه.

فَجَبَدًا هُوَ مِنْ حَافِظٍ رَوَى حَدِيثَ فَضْلِهِ عَلِيًّا ، وَتَلَا عَلَى الْأَسْمَاعِ مَا أَقْبَضَ
تَقْدِيمَهُ عَلَى الْأَقْرَانِ فِيهِ دَرُهُ مُقَدَّمًا وَنَالِيًا ، وَسَارَ فِي حُكْمِ الْعَرْضِ عَلَى أَغْدَلِ طَرِيقٍ
وَنَاهِيكَ بِالسَّيْرِ الْعُمَرِيَّةِ ، وَصَانَ مَنْطِقَهُ عَنْ خَلَلِ الْمَعَانِي وَكَيْفَ لَا ؟ وَقَدْ تَمَسَّكَ
بِطَرِيقَةِ وَالِدِهِ وَعى "المقدمة الشمسية" ؛ وَسَابَقَ أَقْرَانُهُ فَكَانَتْ لَهُ زُبْدَةُ الْفَضْلِ
فِي حِلَّةِ السَّابِقِ . وَطَائِقَ بَيْنَ رَفَعِ شَأْنِهِ وَخَفَضِ شَأْنِيهِ وَلَا يُنْكَرُ لِمَنْ هُوَ مِنْ هَذَا
الْبَيْتِ حُسْنُ الطَّبَاقِ ؛ وَأَشْتَقَلَّ فَلَمْ يَقَعْ اتِّسَاعُ فِي حُسْنِ دُخُولِهِ مِنْ بَابِ
الِاسْتِنَالِ . وَتَصَبَّ فِكْرُهُ لِحَصِيلِ الْعِلْمِ نَعِيْنٌ تَمِيْزُهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ . وَوَقَدَتْ زُرِّيْجُهُ
فَلَطْفُ حَاسِدِهِ بِالْإِكْتِهَابِ . وَرُوِيَتْ أَحَادِيثُهُ بِالْعَمَّةِ فِي الْعُلُوِّ إِلَى سَمَاءِ الْعِزِّ وَلَا يَدْعُ
إِذَا رُوِيَتْ أَحَادِيثُ الشَّهَابِ ؛ وَافْتَخَرَ مِنَ وَالِدِهِ بِالْفَاضِلِ الَّذِي رَزَقَتْهُ فِي دِيَارِ
الْإِنْشَاءِ خَبْرُهُ ، وَهَزَّ الْمَعَاطِفَ بِتَوْقِيْعِهِ الَّذِي لَا يَزَالُ يُحَرِّدُهُ وَيَجِدُّهُ ؛ وَوَشَّى الْمَهَارِقَ
فَكَأَنَّهَا هِيَ رِيَاضٌ قَدْ غَرَّدَ فِيهَا بِسَجْعِهِ ، وَتَحَامَا بِإِنْشَائِهِ الَّذِي هُوَ عُذْمَةُ الْمُنَازِعِينَ
فَلَا عَجَبَ فِي رَفْعِهِ ؛ وَتَنَظَّمَ بَيَانُهُ نَقَائِصَ الدُّرَرِ فَقَدَّتْهَا بِالْعَيْنِ "صِحَاحُ الْجَوْهَرِيِّ" ،
وَفَتَحَ بِمِثْلِ بِلَاحِهِ مَعَاوِلَ الْمَعَانِي الْمُتَمَتِّعَةِ وَحَسَّلَكَ بِالْفَتْحِ الْعُمَرِيَّ :

بَيَانُهُ السَّحَرُ قَدْ أَخْفَى مَعَايِدَهُ * لَكِنْ أَرَانَا لَيْسَ الْفَضْلُ إِنْشَاءً
إِذَا أَرَادَ آدَارَ الرَّاحِ مَنْطِقُهُ * نَفْثًا وَطُورِيًّا بَانَسْرُ إِنْ شَاءَ !

وَاللهُ تَعَالَى يُنْجِ نَفْسَهُ بِمَا يُصْبِحُ بِهِ الْحَاسِدُ وَهُوَ مُكْمَدٌ ، وَيُفَرِّغُهُ عَنْهُ هَذَا الْوَلَدُ
التَّجِيبِ حَتَّى لَا يَبْرَحَ يَقُولُ : أَشْكُرُ اللهَ وَأَحْمَدُ ؛ بِحَمْدِهِ وَآلِهِ .



وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الدَّائِمِ . لَوْلَدَى نَجْمِ الدِّينِ
أَبِي الْقَتَنِجِ مُحَمَّدٍ ، حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِ "الْمِنْهَاجُ" فِي الْفِقْهِ لِلتَّوَوُّنِ . فِي سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةِ
وَحُمَاةَ ، وَهُوَ :

المحمد لله الذى أَوْصَحَ بَحْمِ الدِّينِ مِنْهَاجَ الْفَقْهِ وَأَثَارَهُ ، وَأَفْصَحَ لِسَانَهُ بِكَلَامٍ مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ وَأَثَارَهُ ، فَسَطَعَتْ أُنُورُ شَهَابِهِ لِمَنْ أَسْتَنْبَطَهُ وَأَثَارَهُ ، مَنْ يُرِيدُ اللَّهَ بِهِ خَيْرًا
يُقَفِّهِهِ فِي الدِّينِ وَيَرْفَعُ مَنَازِلَهُ ؛ وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْمَخْصُوصِ بِمَعْنَى
الرَّسَالَةِ ، وَالْمَنْصُوصِ فَضْلُهُ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الدَّلَالَةِ ؛ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ نَجْمِ يَوْمِ الْمُدَى ،
وَشُهْبِ النَّاسِ وَالْأَقْبَادِ .

وبعد ، فقد عَرَضَ عَلَى الْفَقِيهِ الْفَاضِلِ تَجَلُّلِ الْأَفَاضِلِ ، وَسَيَّلِلِ الْأَمَائِلِ ، ذُو الْهِمَةِ
الْعَلِيَّةِ ، وَالْفِطْنَةِ الذَّرِيَّةِ ، وَالْفِطْرَةِ الزَّرَكِيَّةِ ؛ نَجْمِ الدِّينِ ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ فُلَانٍ :
نَفَعَ اللَّهُ بِهِ كَمَا قَفَعَ بِوَالِدِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ طَارِفِ الْعِلْمِ وَتَالِيهِ - مَوَاضِعَ مُتَعَدِّةٍ مِنْ
"الْمِنْهَاجِ" فِي فِقْهِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ الْمُطَّلَبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنَّا بِهِ ، تَأْلِيفَ الْحَبْرِ الْعَلَامَةِ
وَلِيِّ اللَّهِ أَبِي زَكَرِيَّا بْنِ شَرَفٍ بْنِ مَرْيَمَ التَّوَوِيِّ ، سَقَى اللَّهُ تَعَالَى قَرَاهُ ، وَجَعَلَ الْجَنَّةَ
مَأْوَاهُ ؛ دَلَّ حِفْظُهُ لَهَا عَلَى حِفْظِ الْكِتَابِ ، كَمَا قَفَعَ اللَّهُ لَهُ مَنَاجِيخَ الْخَيْرِ دَقَّ وَجَلُّهُ ،
وَكَانَ الْعَرَضُ فِي يَوْمِ كَذَا .



وَكُتِبَ عَلَّامَةُ الْعَصْرِ الشَّيْخُ عَزَّ الدِّينُ بْنُ جَمَاعَةَ مَا صُورَتْهُ :

كَذَلِكَ عَرَضَ عَلَى الْمَذْكُورِ بِاطْنِهَا عَرَضًا حَسَنًا ، مُحَرَّرًا مُهَذَّبًا مُجَادًّا مُتَقَنًا ؛ عَرَضَ
مِنْ أَتَمِّينَ حِفْظُهُ ، وَزَيْنَ بُحْسَنِ الْأَدَاءِ لَقَطُهُ ، وَأَجَزَلَ لَهُ مِنْ عَيْنِ السَّنَايَةِ حَقْلُهُ ؛ مَرَّ
فِيهِ مُرُورُ الْهِمَلِجِ الْوَسَّاعِ ، فِي فَيْسِحِ ذِي السَّبَاعِ . وَقَدْ دَلَّنِي ذَلِكَ مِنْهُ - نَفَعَهُ اللَّهُ
تَعَالَى وَقَفَّعَ بِهِ ، وَوَصَلَ أَسْبَابَ الْخَيْرِ بِسَبِيهِ ؛ عَلَى عُقُولِهِمْ ، وَوُقُورِ أَرْجِيئِهِمْ ، وَتَوْقُدِ
فِكْرِهِمْ ، وَأَتَقَادِ فِطْلَتِهِ ؛ وَأَصْلُهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ عَرَبِيٌّ :

حَبِيبَةُ نَفْسِكَ مِنْهُمْ خَيْرٌ مُحَمَّدِيَّةٍ * إِنَّ الْخَلَاقَ مَعَاقِلُ شَرِّهَا الْبِدْعُ !

وقد أدت له أن يروى عني الكتاب المذكور، وجميع ما يجوز لي وعني روايته من مصنفاتي وغيرها من منظوم ومثثور، ومثقول ومثقول ومثثور؛ بشرطه المعتبر، عند أهل الأثر. وكتب فلان في تاريخ كذا .



ومن ذلك ما كتبه لمن أسماه «محمد» ولقبه «شمس الدين» من أبناء بعض الإخوان: وقد عرض على «الأربعين حديثاً» للشيخ محي الدين النوي رحمه الله، و«الورقات» في الأصول لإمام الحرمين، و«اللمحة البدرية» في النحو للشيخ أمير الدين أبي حيان دقة واحدة، وهو لدون عشر سنين، وهو:

الحمد لله الذي أطلع من دراري الأفاضل في أئق النجاة شمسا، وأظهر من أفاضل الداراي ما ينض به المخالف طرقاتاً ويرفع به المخالف رأساً، وألحق بالأصل الكريم قرعة في النجاة فطاب جني وأعرق أسلاً وزكاً غرساً؛ وأبرز من ذوي الفطر السليمة من فاق بذكائه الأقران فأدرك العريفة في لمح، وسمما بفهمه الثاقب على الأمثال فأسمى وفهم «الورقات» لديه كالصفحة، ونحرق بكرم بدايته المأذنة بجاز الأربعين لدون العشر وأتى على ذلك بما يشهد له بالصحة؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي عمّت بركة أسمه الشريف سميّه ففاض منها بأوفر نصيب، ونحس بإمام التسمية به أولو الفضل والنهي؛ فما سمي به إلا كريم ولا سمي به إلا نجيب؛ وعلى آله وصحبه الذين أئمت بهم روضة العلم وأزهرت، وأورقت شجرة المعارف وأثمرت .

وبعد، فقد عرض على فلان مواضع من كتاب كذا وكتاب كذا، فزفها مروراً القبا، وجري في ميدانها جرى الجواد فما حاد عن سنن الطريق ولا بكأ .

وأما الإجازة بالمرويات على الاستدعاءات : -

فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفيني رحمه الله على استدعاء كتب له به القاضي شهاب الدين أحمد الحنبلي خليف بيت الآلحة : وكتب الدست بالشام ، يطلب منه فيه الإجازة لنفسه ، وهو :

الحمد لله الذي إذا دُعِيَ أجاب ، وإذا أُنِمَّ على الإديب بَنُوْنُ آتَى في نَظْمِهِ وَتَرَنَهُ بالعباب ، وإذا وَهَبَ البليغَ فِطْرَةَ مَسْلُومَةٍ لم يكن على حِجَابٍ حِجَاب .

نَحْمَدُهُ على نِعَمِهِ الّتي منها الْبَلَاغَةُ ، وإِتْقَانُ مَا لِمَصْنَعَةِ الْإِنْشَاءِ مِنْ حُسْنِ الصِّيَاغَةِ ، وَصِدِّ أَوَائِدِ الْمَعَانِي الّتي مِنْ أَعْمَلِ فِكْرِهِ فِي أَقْتِنَاصِهَا أَوْ رَوْنِ [أَمِنْ] رَوَاغَةٍ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً فِطْرَ الْفَصِيرِ على إِخْلَاصِهَا ، وَجِبِلِّ الْفِكْرِ على أَقْتِنَاءِ أَدْلِيَّتِهَا الْفَاطِمَةِ وَأَقْتِنَاصِهَا ، وَجُصِلَتْ وَقَايَةُ لِقَائِهَا يَوْمَ يَضِيقُ عَلَى الْخَلَاقِ فَيَسِيحُ عِرَاصِهَا ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ سَيِّدَنَا هَذَا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْصَحُ مَنْ تَنَقَّلَ بِهَذَا اللِّسَانِ ، وَجَاءَ مِنْ هَذِهِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالنُّكْتِ الْحَسَنَةِ ، وَحَثَّ عَلَى الْخَيْرِ وَحَصَّنَ عَلَى الْإِحْسَانِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَوَحَّيْهِ الَّذِينَ رَوَوْا أَقْوَالَهُ ، وَطَلَعُوا لِمَنْ لَمْ يَرَهُ سُنَنَهُ وَأَقْوَالَهُ ، وَعَلِمُوا أَنَّ هَذِهِ الشَّرْعَةَ الْمُطَهَّرَةَ أَذْهَبَهَا اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فَلَمْ تَكُنْ تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ ؛ صَلَاةَ هَامِيَةِ الثُّغْرَانِ ، نَامِيَةِ الرُّضْوَانِ ؛ مَا أَجَابَ مُجِيبٌ لِمَنْ أَسْتَدْعَى ، وَعَمِلَتْ إِنْ فِي الْمُبْتَدِإِ نَصْبًا وَلَمْ تَغْيَرْ عَلَى الْخَبَرِ رَفْعًا ، وَصَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

• بعد ، فإن [علم] الرواية من محاسن الإسلام ، وَخَدَّ مَبَانِيصِ الْفُضْلَاءِ الَّذِينَ تَحْقِيقُ لَهُمْ ذَوَائِبُ الطُّرُوسِ وَتَتَعَبُ رِاحُ الْأَقْلَامِ . وَلَمْ تَزَلْ رَغْبَةً السَّلَفِ شَوْقُهُ عَلَيْهِ ، وَشِيرِ أَنْامِلِ الْإِرْشَادِمْ لَا لَامَ بِالْحَثِّ إِلَيْهِ . قِيلَ لِمَا مَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا شَتَّى قَالَ : سَنَدٌ نَالٌ ، وَ مَثْ خَالٌ . وَمَا يَرِجُ الْأَثْمَةُ الْكَلَامُ رُجُلُونَ إِنْ أَقَاصَى

الأقاليم في طلبه، وتحملون المشاق والمتاعب فيه ويعملون بسببه؛ فقد ارتحل الإمام الشافعي رضي الله عنه وغيره إلى عبد الرزاق باليم، وكان فيمن أخذ عنه من هو أحق بالفضل عليه قن؛ ولكنه فن يحتاج إلى ذوق يعاضد من لا يعانده، وأمر لا يصبر عنه من آلفه وما يعلم الشوق إلا من يكابده؛ فاعند من طلب الرواية أجل من أبناء جنسه، ولا عند المفيد المفيد أحلى من قوله: حدثنا فلان أو أنشدنا فلان لنفسه، ولكن:

مَا كُلُّ مَنْ طَلَبَ الْمَعَالِيَ نَافِذًا * فَمِهَا وَلَا كُلُّ الرِّجَالِ حُجُولًا!

ولما كان الشيخ الإمام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ ممن نظم قَوَدَتِ الدُّرَى في أفلاكه لو أُنْشِئَتْ، وَكُتِبَ فَرَقَمَ الطُّرُوسَ وَوَشَّاهَا، وَغَشَّاهَا مِنْ زَهْرَاتِ الرِّيَاضِ مَاغَشَّاهَا؛ وَحَلَّ الْمُتَرَجِّمَ فَسَحَرَّ عَقْلَ كُلِّ لَيْبٍ وَخَلَبَ لُبَّهُ، وَوَقَعَ عَلَى الْقَصْدِ فِيهِ فَكَانَ شَيْءٌ مِنَ الْقَيْبِ خَصَّ اللَّهُ بِهِ قَلْبَهُ، وَأَتَى فِيهِ بَيِّنَاتٌ مَا تَسَاوَى أَبُو الصَّبْرِ وَلَا ابْنُ عَدْنَاهَا بِحَبِّهِ؛ وَخَطَبَ فَصَدَعَ الْقُلُوبَ، وَأَجْرَى ذُنُوبَ الْمَدَائِيعِ مِنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ، وَحَدَّرَ فَكَانَتْ أَصْحَابُهُ كَالْحَيَّانِ إِخْتَقَ وَسَامِعُهُ يَبْكِي بِأَجْفَانٍ يَغُفُّونَ؛ كَأَنَّمَا هُوَ فِي حُلَّةِ الْخَطَّابَةِ بِدَرْفِ عِمَامَةٍ، أَوْ مِنْهُرِ غُصْنٍ وَهَوْفَةٍ حَامَةٍ، أَوْ بَحْرِ وَفَضَائِلُهُ مِثْلُ أَمْوَاجِهِ وَدُرُهُ يَحْكِي كَلَامَهُ؛ لَوْ رَأَى "ابْنُ نَبَاتَةَ" مَا أَوْرَقَتْ بِالْفَصَاحَةِ أَعْوَادُهُ، أَوْ "ابْنُ الْمُتَيْرِ" مَا رَمَتْ بِالْبَلَاغَةِ أَبْرَادُهُ، أَوْ "ابْنُ نَجْمَةَ" مَا حَظَّيْتُ بِالْجُلُودِ أَجْدَادُهُ؛ فَأَرَادَ أَنْ يُشْرِفَ قَسْدِي، وَيُعَرِّفَ نَكْرِي؛ فَطَلَبَ الْإِجَازَةَ مِنِّي وَأَنَا أَحَقُّ بِالْأَخْذِ عَنْهُ، وَاسْتَدْعَى ذَلِكَ مِنِّي: وَرُبَّ حَامِلٍ قَدِ إِلَى مِنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ .

فَمَقَدْ أَسْتَحَرْتُ اللَّهَ تَعَالَى وَأَجَزْتُ لَهُ مَا يَجُوزُ لِي تَسْمِيْعُهُ ، وَذَكَرْتُ هَذَا شَيْئًا
مِنْ مَرْوِيَّاتِي وَأَشْيَاخِي رَحِمَهُمُ اللَّهُ وَذَكَرْتُ مُصَنَّفَاتِي :

إِجَازَةُ قَاصِرٍ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ * يَسِيرُ مِنَ الزَّوَابِيَةِ فِي مَقَازِهِ :
لَمَنْ مَلَكَ الْفَضَائِلَ وَأَقْتَنَاهَا * وَجَازَ مَدَى الْعُلَى سَبَقًا وَحَازَهُ !



وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ الشَّيْخُ الْعَلَّامَةُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّبَّاحُ عَلَى * اسْتِدْعَاءِ
بَعْضٍ مِنْ سَأَلِهِ الْإِجَازَةَ .

أَقُولُ بَعْدَ تَحْمِيدِ اللَّهِ الَّذِي لَا يُحِبُّ مَنْ اسْتَجَدَّ كَرَمَهُ ، وَلَا يُحِبُّ مَنْ اسْتَدْعَى
نِعَمَهُ ، وَالصَّلَاةَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَخِدْمِهِ وَمَا أَسْوَدَ مِنْهُ : (١)

أَثَرْتُ الْجَوَابَ بِي إِذْ أَرَدْتُ جَوَابِي * وَعَظَّمْتُ خَطِيئِي إِذْ قَصِدْتُ خَطَايَايَ :
وَمَنْ أَنَا فِي الدُّنْيَا أُجِيبُ وَمَنْ أَنَا ! * أُجِيزُ ؟ مَضَى الْأَشْيَاخُ تَحْتَ تُرَابٍ !
عَجِيبٌ لَطْلَابٌ لَنَيْنَا تَحَقُّقُوا * وَكَمْ قَدْ أَنَا فَعَرْنَا بِعُجَابٍ !
نَحْنُ إِلَى الْمَوْلِيَةِ أَمْرُنَايَ * عَرَبْنَاهُ بِالْمَذِيبِ عَذَابٍ

يَا أَخَانَا : إِنَّ يَضَاعَتَنَا فِي الْعِلْمِ مَرْجَاهُ ، وَصِنَاعَتَنَا فِي الْوَقْتِ مَرْجَاهُ ، وَتَسْمِيْعُ أَخْبَارِهِ
عَلِيلٌ ، وَأَدَبُ إِخْبَارِهِ قَلِيلٌ ، وَتَصَانِيْفِي رُجُوءٌ أَكْثَرُهَا مُسَوَّدَةٌ ، وَأَمَالِي فِي تَبْيِيضِهَا
لِقَصْرِ الْمَهْمِ مَمْتَدَةٌ ، سُلْتُ قَدِيمًا مِنْ بَعْضِ الْفَضْلَاءِ أَنْ أُعِدَّهَا ، فَكَتَبْتُ فِيهَا رِسَالَةً
لَا أُعْرِفُ لَصَقِلِ الْأَكْثَانُ حَتَّىهَا ، وَمَنْ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِتَصَانِيْفِ أَنْثَرُ ، وَمَقَاطِيعُ إِنْ لَمْ
تَكُنْ كَالزَّهَرِ فَهِيَ كَالزَّهَرِ ، ثُمَّ عَدَدْتُ نِيْفًا وَثَلَاثِينَ مُصَنَّفًا ، مِنْهَا "تَجْمَعُ الْفَرَائِدُ"
فِي سِتِّ عَشْرَةِ مَجْلَدَةٍ . ثُمَّ أَنْشَدْتُ فِي آخِرِ ذَلِكَ :

(١) كَذَا فِي الْأَسْلَافِ ، وَلَمْ يَنْهَدِ إِلَيْهِ مَعَ دَقَّةِ الْبَحْثِ .

(٢) فِي كَشْفِ الظُّلُومِ : سِتَّةٌ عَشْرَ مَجْلَدًا .

وَلَقَدْ شَرَفَتْ قَدْرِي * بِنَفْسٍ مِنْ هَذَا :
 بِنِكَاحِ شَنْفِ النَّشْعِ يَدْرُ حَكَائِيَا .
 فَارْوَيْتَنِي وَأَرْوَيْتَنِي * وَأَغْنِ عَنْ شَدِّ الْمَلَايَا ،
 وَأَتَّقِ الْفَضْلَ وَحَصِّلْ ، : وَأَحْظِ نِي بِمَزَايَا ،
 وَتَحَرَّ الْمَسْنَقَ وَأَعْلَمْ * أَنَّهُ خَيْرُ الْوَصَايَا !!!
 أَجَزْتُ لَكَ أَنْ تَرَوِيَ هَذِهِ وَغَيْرَهَا عَنِّي ، وَلَكَ الْفَضْلُ فِي قَبُولِ ذَلِكَ مِنِّي .

الصنف الثاني

(التقریضات التي تكتب على المصنفات المصنعة والفصائد المنظومة)

قد جرت العادة أنه إذا صنّف في فنٍّ من الفنون أو نظم شاعراً قصيدة فأجاد فيها أو نحو ذلك ، أن يكتب له أهل تلك الصناعة على كتابه أو قصيدته بالتقریض والمثنح ، ويأتي كلٌّ منهم بما في وسعه من البلاغة في ذلك .

فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي على مصنف وضعه الشيخ تاج الدين علي بن الدرهم الموصّل الشافعي في الاستدلال على أن البسملة من أول الفاتحة ، وهي :

وَقَعْتُ عَلَى هَذَا التَّصْنِيفِ الَّذِي وَضَعَهُ هَذَا السَّلَامَةُ ، وَنَشَرَهُ فِي الْمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ أَعْلَامَهُ ، وَأَصْبَحَ وَنَسَبَتْهُ إِلَيْهِ أَشْهُرُ عُلَمَاءِ وَأَبْهَرُ عُلَمَاءِهِ ، فَأُقِيمُ مَا سَامَ الرُّوضِ حُدَايِهِ ، وَلَا شَامَ أَبُو شَامَةَ بَوَارِقِهِ ، كُلُّ الْأُمَمَةِ تَعْتَرِفُ بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَدْلَةِ ، وَكُلُّ التَّصَانِيفِ تَقُولُ أَمَامَهُ : بِسْمِ اللَّهِ ، كَمْ فِيهِ مِنْ دَلِيلٍ لَا يُبَارِضُ بِمَا يَقْبُضُهُ ، وَكَمْ فِيهِ مِنْ مُجْمَعَةٍ يَكُلُّ عَنْهَا الْخَلْمُ لِأَنَّ عَقْلَهُ عَلَى عَمَلِكِ التَّقْدِيرِ يُرْضُهُ ، قَدْ أَيْدَ مَا أَدْعَاهُ بِالْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ ، وَقَدْ مَذْهَبُ كُلِّ إِمَامٍ سَبَقَ وَمَا عَثَرَ ؛ لَقَدْ سُرَّ الشَّافِعِيُّ بِنَصِّ

قوله الذي هدّبه ، وجعل أعلام مذهبه مُدَّهَبَه ؛ وأُنْثِيَ فيه بُنْكَتٌ تُطْرِبُ من
أسرار الحَرْف . وقَوَائِدُ عُرِفَ بها ما بين ابن الدَّرِّيم وبين البُونى من البَوْنِ
في تَفَاوُتِ الصَّرْفِ :

أُكْرِمَ به مُصَنَّفًا * فَأَقَّ تَصَانِيفَ الْوَرَى !
لَيْلُ الْمِدَادِ فِيهِ بِالْثَمَعَى الْمُنِيرِ أَقْرَأ !
كَمْ فِيهِ بُدٌّ مُجْمَعٌ * قَدْ حَاصَكَ مُحَرَّرًا ،
وَكَمْ دَائِلُ مَئِيَّةٍ * إِذَا أَلْقَى خَصْمًا فَسَرَى .
فَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَعْدِهِ * مُحَالَفٌ قَطُّ يَرَى !!



ومن ذلك ما كتب به المقرّ الشَّهابيُّ بن فضال الله على قصيدة مِيعِيَّة ، للشيخ
غُرس الدين خليل الصَّفْدِيّ المعروف بالصَّلَاح الصَّفْدِيّ . مدَح بها الأمير سيف
الدين أبلأى الدَّوَادَار النَّاصِرِيّ ، في شهر سنة ثَمَنٍ وعشرين وسبعمائة ، وهى :

وَقَفْتُ عَلَى هَذِهِ الْقَصِيدَةِ الَّتِي أَشْرَفَتْ مَعَانِيهَا فَكَانَتْ تُرَى ، وَتَمَكَّنَتْ قَوَائِمُهَا
فَسَمَسَكَ بِهَا الْأَدَبُ لَمَّا كَانَتْ الْمِيَاهُ فِيهَا كَالْعُرَى ؛ فَوَجَدْتُهَا مُشْتَمِلَةً مِنَ الْبَلَاغَةِ
بَوْنِيهَا عَلَى الْبَحْرِ الْمَحِيطِ . لَطِيفَةً لَا تُقَاسُ بِأَمثالها مِنَ الْكَلَامِ الْمُرَكَّبِ لِأَنَّهَا مِنَ الْبَسِيطِ ؛
فَنَظَرْتُ إِلَيْهَا مُكْتَبَةً مِنْ بَيَانِهَا بَحْرَ الْحَقِّقِ ، مُتَّحِبَةً مِنْ مُنْشِئِهَا لِقُرْسٍ يُسْرِعُ
إِلَى تَمَارُفِ الْوَرَقِ ؛ ثُمَّ قَبِضْتُ إِلَى أَنَّ الْمَدْحَ بِهَا أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى تَحْتِ دِيَمِهِ فَرَوَّضَتْ
الطُّرُوسَ ، وَبَرَّحَتْ مَنَاقِبَهُ بِمَا كَانَ مَصُونًا فِي أُخْيَةِ النُّفُوسِ ؛ وَقَدْ اسْتَوْجِبَ هَذَا
الْمَدْحُ عَطْفَ اللَّهِ تَعَالَى قَلْبَهُ عَلَيْهِ مِنْ مَنَاحِهِ حَقًّا جَزِيلًا ، وَجِبًا يَقُولُ بِهِ مَنْ قَصَدَ
الْمِساوَةَ بِهِ : لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَا تَخَنُّتُ فَلَنَأْتِ خَلِيلًا :

مَدَّبَ الْمُلْكُ لَهُ ۖ عَلَى الْمُلَى مَقَاصِدُ ،
تَهْوَى إِلَى جَنَابِهِ الْقُصَادُ وَالْقَصَائِدُ !



قلت : وكتبتُ على قصيدة نظمها شرفُ الدين عيسى بن حجاج الشاعر المعروف
بالمالية ، مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم وضمها أنواعَ البديع ، ضاعى بها بديعةَ
الصفي الحلي ، في شهر سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ، ما صورته :

أما بعد حمد الله الذي أحلَّ بحرَ البيان ، وأقدر أهلَ البلاغة من بديع التخيُّل على
ما يشهد بصحته البيان ، وذللَّ برائض أفكارهم صعابَ الألفاظ فامتطوا من متون
احسانها الحياض ، وأوضح لهم طرقَ الفصاحة فندتْ لديهم - بحمد الله تعالى - سهلة
القياد ، وأخفى ميتَ الأدب بروج الأنفاس العيسوية وعمر بأنسها ربوعه الخاليه ،
وحملَ نفس الفضل في رُفعة المساجلة أن تصل إليها فوازيته الدعوى ولا غرو أن
حماها العاليه ؛ والعبادة على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أفصح من نطق بالضاد ،
وأوثق جوامع الكلم فلن تحضر معاني كلامه الأعداد - فإني وقفت على البديعة
البديسة التي نظمها الفاضل الأرفع ، واللؤذعي المصقم ؛ أديب الزمان ، وشاعر
الأوان ؛ شرف الدين أبو الروج عيسى المالية - أعلى الله تعالى منار أدبه ورفعه على
مناويه ، وبلغ به من قصب السبق ما يمنع أن يراه على البعد مضاهيه - فالفيتها
الدرة الثمينة غير أنها لا تسام ، والخريدة المخدرة إلا أنها لا يليق بها الاحتشام :

رُومُ أَحْتِشَامًا سَرَّ لَا لَاءَ وَجْهَهَا ! ۖ وَمَنْ ذَا لِدَاتِ الْحُسْنِ يُحْنِي وَيَسْتَرْهُ !

قد اتحدت من الاحتشام معقلاً وحضناً لا يفتنى ، وأتبدت من حادها مكاناً
قصياً فلا تخاف دركاً ولا تحننى :

وَلَمْ أَتَدِرْ - وَالْأَتَقَاطُ مِنْهَا شَرِيفَةٌ - * إِلَى الْبَدْرِ تَسْمُوْهُمْ إِلَى الشَّمْسِ تَرْتَقِيْ ؟ !
أَرَادَ الْمَدْعَى بُلُوْغَ شَأْوِهَا الْجُرَى فِي مِضَارِهَا قَبِيْلَ : كَلَّا ، وَرَأَى الْمَلْعُدَ فِي آيَاتِهَا
الْفَضَّ مِنْهَا عِتَادًا فَأَبَى اللهُ إِلَّا :

مَا إِنْ لَهَا فِي الْفَضْلِ مِثْلُ كَاتِنٍ ! * وَبَيَّنَّا أَحْلَى الْبَيَانِ وَأَمْسَلُ !
فَأَمْسَوْا فِي مُعَارَضَتِهَا غَيْرَ طَائِعِينَ ، وَتَلَّتْ عَلَيْهِمُ آيَاتُ بِلَاقَتِهَا : (فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ
لَهَا خَالِصِينَ) :

كَمْ جَدَلَتْ يَوْمَ الْوَعْدَى مِنْ جَنَدِلٍ * صَاحَتْ بِهِ فَا أَلْطَاقُ تَصَبُّرًا !
وَكَيْفَ لَا تُخَضِّعُ لَهَا الْأَعْنَاقَ ، وَتَذُلُّ لَهَا رِقَابُ الشَّعْرَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ؟ وَهِيَ
الْيَتِيْمَةُ الَّتِي أُغْنِيَتْ الْأَنْهَامُ عَنْ مِثْلِهَا ، وَالْفَرِيْدَةُ الَّتِي أَعْتَرَفَ كُلُّ طَوِيلِ النَّجَادِ
بِالْقُصُورِ عَنْ وَصْلِهَا :

زَادَتْ عُلًى ، مِنْ ذَا طَيْقٍ وَصَالَهَا ؟ * وَعَمَلَهَا مِنْهُ الثَّرَى أَقْرَبُ !
وَأُنَى بِذَلِكَ وَقَدْ أَخَذَتْ مِنَ الْحَاسِنِ بِزِمَامِهَا ، وَأَحَاطَتْ مِنَ الطَّلَاوَةِ بِكَامِهَا ؛
وَأَحْنَقَتْ رِيَاضَ الْأَدَبِ بِحَسَنَاتِهَا ، وَأَقْتَطَعَتْ مِنْ أَفْئَانِ الْفُتُونِ ثِمَارَ مَعَانٍ تَلْدُ
لِنَظَرِهَا وَتَحْمُلُوْا لِنَائِقِهَا ؟ :

وَلَا تُسِرُّ غَيْرَهَا تَتَمَّا وَلَا تَنْظُرَا * فِي طَلْمَةِ الشَّمْسِ مَا يُفْنِيكَ عَنْ زُحَلٍ !
وَتَصَرَّفَتْ فِي جَمِيعِ الْعُلُومِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى الْبَدِيعِ مَقْصُورَةً ، وَشَرُفَتْ بِشَرَفِ
مُتَعَلِّقِهَا فَاصْبَحَتْ بِالشَّرَفِ مَشْهُورَةً :

أَهَانَتْ الدُّرَّ حَتَّى مَالَهُ تَمَنُّ ، * وَأَرْخَصَتْ قِيَمَةَ الْأَمْثَلِ وَأَنْطَلَبَا !
لَا جَرَمَ أَمْنَحَتْ أَمَّ الْقَصَائِدِ وَكَبَّةَ الْقُصَادِ ، وَحَطَّتِ الرِّجَالِ وَمَنْهَلِ الْوُزَادِ ؛ فَارْتَبَتْ
فِي الشُّبْرَةِ عَلَى " الْمَثَلِ السَّائِرِ " ، وَأَعْتَرَفَ بِفَضْلِهَا جَزَالَةَ الْبَادِي وَسُهُولَةَ الْحَاضِرِ :

فَلَا فَايَاضِلَ فِي عَلَيَّهَا سَمَرٌ * إِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْعِلَاءِ أَسْمَارُ !
فَأَعْجَبَ بِهَا مِنْ بَادِرَةِ جَمْعَتْ بَيْنَ مُتَضَادِّينِ مُعْجِرٍ وَسَمَرٍ ، وَقَرَّتْ بَيْنَ مُتَبَاعِدَيْنِ زُهَيْرِ
وَزَهَرٍ ، وَجَادَتْ بِمُسْتَرْهِنِ رَوْضٍ وَنَهَرٍ ؛ وَتَفَنَّتْ فِي أَسَالِبِ الْكَلَامِ وَجَالَتْ ،
وَطَاوَعَتْهَا يَدُ الْمَقَالِ قَالَتْ وَطَالَتْ ؛ وَدَعَتْ قُرْمَانَ الرَّيْبَةِ إِلَى الْمُبَارَاةِ فَكَسُوا ،
وَتَحَقَّقَ الْمُفْلِقُونَ الْعَجَزَ عَنْ مُوَاعَاتِهَا وَلَوْ حَرَّصُوا :

فَأَعْرَبَ عَنْ كُلِّ الْمَعَانِي قِصْبُهَا * بِمَا عَجَزَتْ عَنْهُ زَرَارُ وَيَهْرُبُ !
إِنْ ذُكِرَتْ أَلْفَاظُهَا فَا الدُّرُ الْمَشْتُورُ ؟ أَوْ جُلِيَتْ مَعَانِيهَا أُنْجَلَتْ الرُّؤُوسُ الْمَطْشُورُ ؛
أَوْ أَعْرَبَتْ تَحْرِيرُ زَيْنِهَا فَاقِ التَّهَبُّ تَحْرِيرُ ، أَوْ قُوِيَتْ قَوَائِمُهَا بِغَيْرِهَا زَكَّتْ تَوَفِيرُهَا وَسَمَتْ
تَوَفِيرُهَا ؛ أَوْ تَفَزَّلَتْ أَسَكَّتِ الرُّوقُ فِي الْأَغْصَانِ ، أَوْ أَمْتَدَحَتْ قَفَّتْ إِثْرُ « كَتَبِ »
وَسَلَكَتْ سَبِيلَ « حَسَنَ » ؛ فَأَطْنَبُهَا - لَفْصَاتِهَا - لَا يَسُدُّ أَطْنَابُهَا ، وَإِنْجَاظُهَا
- لِبَلَاغَتِهَا - يَمُدُّ عَلَى الْمَعَانِي مِنْ حُسْنِ السَّبْكِ أَطْنَابُهَا :

أَيْبُ لِي مَغْزَاهَا أَمَا الْفَهْمُ لَهَا * إِلَى الْفَضْلِ تُعْزَى أَوْ إِلَى الْمَجْدِ تُنْسَبُ ؟
هَذَا وَرَاعَةُ مَطْلَعِهَا تَحْتِ عَلَى سَمَاعٍ بِاقِيهَا شَغْفًا ، وَبَدِيعُ مَخْلَصِهَا يَسْتَرْقِي الْأَسْمَاعَ
لَطَافَةً وَيَسْتَرْقِي الْقُلُوبَ كَلْفًا ، وَحُسْنُ اخْتِمَامِهَا تَكَادُ التُّفُوسُ حُلَاوَةَ مَقْطَعِهِ تَدُوبُ
عَلَيْهَا أَسْبَفَا :

لَهَا مِنْ بَرَاعِينَ الْبَيَانِ شَوَاهِدُ : * إِذِ الْفَضْلُ وَرَدُّ وَالْمَعَالَى مَوَارِدُ !
وَالْجَمَلَةُ فَأَثَرُهَا الْجَمِيلَةُ لَا تُحْصَى ، وَجَمَائِلُهَا الْمَانُورَةُ لَا تُنَدُّ وَلَا تُسْتَقْصَى ؛ فَكَأَيُّهَا
« قُسُ بْنُ سَاعِدَةَ » يَأْتُمُّ بِفَصَاحَتِهَا ، وَ« أَيْبُ الْمُقَفِّعِ » يَهْتَدِي بِهَدْيِهَا وَيَرَوِي عَنْ
بِلَاغَتِهَا ، وَ« أَحْمَرُ الْقَيْسِ » يَحْتَسِبُ مِنْ صَنْعَةِ شِعْرِهَا ، وَ« الْأَعْشَى » يَسْتَحْيِي
بَعْلَمَةَ بَدْرُهَا ؛ فَلَوْ رَأَاهَا « جَرِيرٌ » لَرَأَى أَنَّ تَقْلَمَهُ بِجَرِيرَةٍ أَقْرَبُهَا ، أَوْ سَمِعَهَا « الْفَرَزْدَقُ »

لعرف فضلها وتحقق شرعها ، أو بصورها « حبيب بن أوس » لأحب أن يكون من رواياتها ، أو أطلع عليها « المتقي » لتعير بين جميل ذاتها وحسن أدواتها :
 فلبصائر هادي من فضائلها * يهدي أولى الفضل إن ضلوا وإن ضلوا !
 ولا طيل فبلغ القول فيها أن آيتها المحكمة ناعمة لما قبلها ، وبرهانها القاطع قاض
 بأن لا تسمح قريحة أن تنسج على منوالها ولا يطلع شاعر أن يسلك سبلها :
 وآيتها الكبرى التي دلّ فضلها * على أن من لم يشهد الفضل جاحد !

الطرف الثاني

(فيما يكتب عن القضاة ، وهو على أربعة أصناف)

الصنف الأول

(التقاليد الحكيمة ، وهي على مرتبتين)

المرتبة الأولى

(أن تفتح بخطبة مفتحة بـ « الحمد لله »)

ثم يقال : « أما بعد » ثم يقال : « ولما علمنا من حال فلان الفلاني كذا وكذا ،
 تسخرنا الله تعالى وفوضنا إليه كذا وكذا ، فليأثر ذلك » وبوص بما يناسب .
 ثم يقال : « هذا عهدنا إليك ، ومجئنا عند الله عليك ، فأعلم هذا وأعمل به ، وكتب
 ذلك عن الإذن الفلاني » .

وهذه نسخة تقليد :

أحمد لله الولي الحميد ، الفاعل لما يريد ، نحمده على ما أولانا من إحسانه فهو
 المولى ونحن العبيد ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة توصلنا إلى

جَنَّةٍ نَعِيمُهَا مُقِيمٌ ، وَتَقِينَا مِنْ نَارِ عَذَابِهَا شَدِيدُ الْعَذَابِ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ عَمَّادُ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ
النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْمُسْتَحْلِينَ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْقَلْبِ السَّلِيمِ ؛
وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ مَرْتَبَةَ الْحُكْمِ لَا تُعْطَى إِلَّا لِأَهْلِهَا ، وَالْإِقْضَايَةُ لَا يَتَصَبُّ لَهَا إِلَّا مَنْ
هُوَ كُفٌّ لَهَا ؛ وَمَنْ هُوَ مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الْأَمَانَةِ وَالصَّبَاطِ ، وَالْعِفَّةِ وَالذِّيَابَةِ ؛ فَمِنْ
هَذِهِ صِفَتِهِ اسْتَحَقَّ أَنْ يُوجَّهَ وَيُسْتَعْتَمَدَ ، وَيَتَرَقَّى وَيَتَقَدَّمَ .

وَلَمَّا عَلِمْنَا مِنْ خَلِيلِ فَلَانِ الْفَلَاحِ الْأَوْصَافِ الْحَمِيدَةِ ، وَالْأَفْعَالِ السَّيِّدَةِ ؛ فَإِنَّهُ
قَدْ حَوِيَ الْمَعْرِفَةَ وَالْعُلُومَ ، وَالْأَصْطِلَاحَ وَالرُّسُومَ ، وَجُمِعَتْ فِيهِ خَصَالٌ سَمَّيْنَا عَلَى
اسْتِثْنَائِهِ ، وَقَوَّيْنَا عَلَى نِيَابَتِهِ ؛ - اسْتَخَرْنَا اللَّهَ تَعَالَى وَقَوَّضْنَا إِلَيْهِ كَذَا وَكَذَا .

فَلْيُأْمَرْ ذَلِكَ مُتَمَسِّكًا بِحَبْلِ اللَّهِ الْمُتَيْنِ ، (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ) وَلْيُجْتَهِدْ فِي إِقَامَةِ الدِّينِ وَقَضَائِ الْحُكُومَاتِ ، وَفِي النَّظَرِ فِي ذَوِي الْمَدَالِاتِ
وَالْتَّلَاسِ بِالشَّهَادَاتِ وَإِقَامَةِ الْبَيِّنَاتِ ؛ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْمَدَالَةِ زَوْهَاً ، وَإِلَى الْحَقِّ
مُتَوَجِّهاً ؛ فَلْيَرْأِهِ وَيُقَدِّمَهُ عَلَى أَقْرَانِهِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ خِلَافَ ذَلِكَ فَلْيَقْصِهِ وَيُطَالِعْهُ
بِحَالِهِ . وَلْيَنْظُرْ فِي أَمْرِ الْجَوَامِعِ وَالْمَسَاجِدِ وَيَفْعَلْ فِي ذَلِكَ الْأَفْعَالِ الْمَرْضِيَّةَ ، وَفِي أَمْوَالِ
الْإِيْتَامِ يَصْرِفُ مِنْهَا الْوَازِمَ الشَّرْعِيَّ ؛ فَمَنْ بَلَغَ مِنْهُمْ رَشِيدًا أَسْلَمَ إِلَيْهِ مَا عَسَا يَفْضُلُ
لَهُ مِنْهَا ، وَيُقَرَّرَ الثَّرَوَاتُ ، وَيَزَوَّجَ الْخَالِيَاتُ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَالْمَسْدُ وَالْأَوْلِيَاءُ ، مِنْ
الْأَزْوَاجِ الْأَكْفَاءِ ، وَيَنْدَبُ لِنَاكِ مِنْ يَسْلُمُ دِيَانَتَهُ ، وَيَتَّقِي أَمَانَتَهُ ، وَيَقْبَلُ لِنَاكِ
الصُّكُوكِ مِنْ لَابِرَتَابِ بَصَحَتِهِ ، وَلَا يَنْشُكُ فِي دِيَانَتِهِ وَنَبَرَتِهِ ؛ وَيَنْظُرْ فِي أَمْرِ الْمُتَصَرِّفِينَ ،
وَمَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْمُسْتَخْلَعِينَ ؛ فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْحَمِيدَةِ فَلْيُجَرِّهِ عَلَى عَادَتِهِ ،
وَلْيُفَيْهِ عَلَى خِدْمَتِهِ ؛ وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ فَلْيَتَبَدَّلْ لَهُ وَلْيَقْصِهِ .

هنا مهدى إليك ، ومجئى غنا عند الله عليك ؛ فاعلم هذا وأعمل به .
 وكُتب ذلك عن الإذن الكريم للفلاّنى وهو فى علّ ولا يسه وحكيه وقضائه ،
 وهو تأييد القضاء والحكم ما بينهما ، فى التاريخ الفلاّنى . (ثم يكتب الحاكم علامته
 والتاريخ) وحسبنا الله ونعم الوكيل .



وهذه نسخة تقليد :

الحمد لله الحكيم العدل المأدى عباده صراطاً مستقيماً ، الحاكم الذى لا يظلم بشئ
 ذرية وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ؛ المشيى من قدم له
 الطاعة من قبل أن يأتى يوم لا ينفع فيه ولا خلال ، الرقيب على ما يصدر من أفعالهم
 فلا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له وما لهم
 من دونه من وإل .

أحمد على نعمه التى تثنى السحاب الثقال ، وأستعبد من نعمه التى يرسلها
 فيصيب بها من يشاء من عباده وهو شديد الحال ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
 لا شريك له شهادة تجيد الخلف بها فى الإقرار النجاة يوم المآل ، وأشهد أن هذا عبده
 ورسوله الذى نعمه بأكرم الشّم وأشرف الخصال ، وعرفه بما يجب من عبادته فقال :
 ﴿ وَهُوَ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالَةً يَلْتَدُونَ وَالْأَعْمَالُ ﴾ .
 صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين أتبعوه فى الأحوال والأفعال ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فإن من حسنت سيرته وحملت سيرته ؛ وعرف بوج وشهر بكتاب ،
 وديانة وخير وأصاف ؛ وأضفى نزه النفس عن الأمور الدنيئة ، فقيهاً دنيّاً بالأحكام
 الشرعية ، عارفاً بالأوضاع المرضية - استحق أن يوجه ويستخدم ، ويرقى ويتقدم .

وَلَمَّا عَلِمْنَا مِنْ حَالِ فَلَانِ الْفَلَانِ مِنَ الْأوصَافِ الْحَمِيدَةِ، وَالْأَصْلَالِ السَّيِّئَةِ -
أَسْتَغْفِرُنَا اللَّهُ تَعَالَى وَفَوْضُنَا إِلَيْهِ كَذَا وَكَذَا .

فَلْيَكُنْ مَقْسَمًا مَعْتَمِدًا بِحَبْلِ اللَّهِ الْقَوِيِّ الْمَيِّنِ، (لَهُ مَنْ يَتَّقُ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ
لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) وَلْيَأْشِرْ مَا قَلْبُهُ أَطَاعَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَبُرَّاجِ حُقُوقِ
اللَّهُ تَعَالَى فِي السَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ : فَإِنَّهُ مُبِينٌ مَنْ أَسْتَعَانَ بِهِ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَهَدَى مِنْ
أَسْرَقَتْهُ وَفَوَّضَ أُمُورَهُ إِلَيْهِ .

وَلْيُجْتَنَدِ فِي فَصْلِ الْأَحْكَامِ بَيْنَ الْمُتَنَازِعِينَ، وَالْمُسَاوَةِ فِي الْعَدْلِ بَيْنَ الْمُتَعَارِكِينَ ؛
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَإِذَا حُكِمَ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) .

وَأَنْ يَثْبُتَ فِي الْخُصُومَاتِ، وَتُفَرَّقَ بَيْنَ الْحَقَائِقِ وَالشُّبُهَاتِ ؛ وَيُنْصَفَ كُلُّ ظَالِمٍ
مِنْ ظُلْمِهِ بِالشَّرِيعَةِ الْحَمِيدَةِ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِلسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ ؛ وَيَنْظُرَ فِي أَمْرِ
الشُّهُودِ : فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ تَزَاهَا ، وَإِلَى الْحَقِّ مُتَوَجِّهًا ؛ فَلْيُرَاهُ ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ غَيْرُ
ذَلِكَ طَالَعًا بِحَالِهِ . وَيَنْظُرَ فِي أَمْرِ الْجَوَامِعِ وَالْمَسَاجِدِ مُعْتَمِدًا فِي ذَلِكَ قَوْلَ اللَّهِ الْعَزِيزِ
الْقَاهِرِ : (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) .

وَيَنْظُرَ فِي أَمْرِ الْإِيْتَامِ ، وَيَتَنَاطَلَ عَلَى مَا لَمْ مِنْ الْأَمْوَالِ ، وَيَفْعَلَ فِي ذَلِكَ عَلَى
جَارِي عَادَةِ امْتِثَالِهِ مِنَ الْحُكْمِ ؛ مِنْ تَقْفِيَةٍ وَكُسُوفٍ وَلَوَازِمَ شَرْعِيَّةٍ ، فَمَنْ بَلَغَ مِنْهُمْ
رَشِيدًا أَسْلَمَ إِلَيْهِ مَا فَضَّلَ مِنْ مَالِهِ بِالْيَقِينَةِ الْمَرْضِيَّةِ ؛ وَيُفَرِّقُ الْفَرُوضَ عَلَى مَقْتَضَى قَوْلِ
اللَّهُ تَعَالَى : (عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ) . وَيُزَوِّجُ النِّسَاءَ الْخَالِيَةَ مِنَ الْعِدِّ
وَالْأَزْلِيَّةِ ، ثُمَّ رِغْبَ فِيمَنْ مِنَ الْأَكْفَاءِ ؛ وَيَسْلُبُ لِنَفْسِهِ مِنْ يَلْمُ أَمَانَتَهُ وَخِيَرَتَهُ ،
وَيَنْظُرَ فِي أَمْرِ الْمُتَصَرِّفِينَ : فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمَأْثُورَةِ أَجْرُهُ عَلَى عَادَتِهِ ،

وأبجاء على حُجَّتِهِ وَمِنْذَرَتِهِ ، ومن كان منهم خلاف ذلك يُبَدِّلُهُ وَيُغَيِّرُهُ ، وَيَسْتَبْدِلُ بِهِ غَيْرَهُ لِيَقْبُلَ مَكَانَهُ وَفِي تَصَرُّفِهِ .

هَذَا عَهْدِي إِلَيْكَ ، وَنُجِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ عَلَيْكَ ، فَتَعْمَلْ ذَلِكَ وَتَعْمَلْ بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . (وَيُؤَيِّدُ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ بَحْطُ الْحَاكِمِ) وَيَكْتُبُ : «وَحَقَّقْنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الرَّكِلُ» وَيُتَوَجَّهُ بِعَلَامَتِهِ الْكَرِيمَةِ .



وهذه نسخة تقليد :

الْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي الْفَضْلِ وَالسَّخَاءِ ، وَالْأَطْفِيفِ فِي الشَّدَّةِ وَالرَّخَاءِ ، الَّذِي مِنْ تَوَاضَعٍ إِلَيْهِ رَفَعَهُ ، وَمِنْ أَعْلَاهُ نَفَعَهُ ، وَمَنْ أَخْلَصَ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ أَمَالَ عَنْهُ كَيْدَ الشَّيْطَانِ وَدَفَعَهُ ، الَّذِي أَحَاطَ بِكُلِّهِ بِالْمَوَارِدِ وَالْمَصَادِرِ ، وَأَسْتَوَتْ عِنْدَهُ أَحْوَالُ الْأَرْكَانِ وَالْأَوَائِرِ ، وَأُطْلِعَ عَلَى ضَمَائِرِ النُّفُوسِ وَلَا يَنْبَغِي لغيرِهِ أَنْ يُطْلَعَ عَلَى الضَّائِرِ ، الْخَافِضِ الرَّافِعِ ، وَالْمُعْطِي الْمَنَاحِ ، فَالِيهِ الْأَمْرُ وَالنَّذِيرُ ، الْمُقِيطُ الْجَامِعُ : (وَإِنْ يَمْسُكَ اللَّهُ يَضُرَّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسُكَ يَخْبِرُ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

أَحْمَدُ هَذَا يَقْبِضُ لِلْعِبَادَةِ بِالتَّيْسِيرِ ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا يُسَهِّلُ مِنَ الْمَأْرَبِ الْقَسِيرِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ سُبْحَانَهُ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ، وَجَعَلَهُ لِلْأُمَّةِ خَيْرَ نَبِيٍّ وَنَذِيرٍ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَوَحَّيَاتِهِ تَهَادَةً يَحْمِلُ الْفُطُورَ بِهَا جَنَّةٌ (يَحْمِلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنْ كَانَ عَارِفًا بِأَحْكَامِ الشَّرْعِ ، مُتَيَقِّنًا لِنَيْلِ دَرَجَاتِهَا الرَّبِيعَةِ ، مُسْتَعِدًّا إِلَى بَيْتِ مَشْكُورٍ ، وَقَدِيرٌ مَوْفُورٌ ، فَقَدْ الْأَحْكَامَ الدِّينِيَّةِ ، لِيَعْمَلَ فِيهَا بِالشَّرِيعَةِ الْحَمِيدَةِ .

وَلَمَّا عَلِمْنَا فَلَانَ بْنِ فَلَانَ بْنِ فَلَانَ الْفُلَانِيَّ، قَلَدْنَاهُ كَذَا وَكَذَا .

فَبَاشَرْنَاكَ اللَّهُ : مُحَافِظًا عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الَّذِي إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَصِيرُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ . وَأَسْتَشِيرُ خِيفَةَ اللَّهِ وَأَجْعَلُهَا نُصَبَ عَيْنِكَ، وَتَمَسَّكَ بِالْحَقِّ وَأَجْعَلْهُ حِجَابًا بَيْنَ النَّارِ وَبَيْنَكَ؛ وَأَتَتَّصِبُ لَتَنْفِيزِ الْأَحْكَامِ أَتَتَّصِبَ مِنْ يَرَأُقِبَ اللَّهُ وَيَتَشَاءُ ، وَحَاسِبَ تَقَسُّكَ مُحَاسِبَةً مِنْ يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ يَطْلُعُ عَلَيْهِ وَرَاهُ؛ وَأُبْذِلُ فِي إِنْصَافِ الْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ وَتُسَمَّكَ، وَرَحْبَ لَتَعَاكِينَ ذَرْعَكَ؛ وَأَنْظُرُ فِي أَمْرِ الشُّهُودِ وَحَدِّثِهِمْ أَنْ يَزُوجُوا عَنِ الْحَقِّ، وَحَاسِبِهِمْ فِيمَا جَلَّ وَدَقَّ؛ وَلَا تُرَخِّصْ لَهُمْ، وَأَلْزِمِهِمْ أَنْ يَتَّخِذُوا الصَّدَقَ مُتَطَلِّقَهُمْ؛ وَأَتَهَمُّ عَنْ التَّسَمُّعِ فِيهَا، وَعَرِّفُهُمُ الْحَزَنَ عَمَّا يُوَدِّي مِنَ التَّهْمَةِ وَالطُّرُقِ إِلَيْهَا؛ وَأَنْظُرُ فِي أَمْرِ الْمُتَصَرِّفِينَ بِيَابِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ نَظَرًا يُوَدِّي إِلَى صَلَاحِهِمْ ، وَلَا تُعَوِّلُ فِي النِّيَابَةِ عَنَّا إِلَّا عَلَى مَنْ تَحْتَارُهُ وَتَرْتَفِئُهُ، وَلَا تُعْرِجْ إِلَى مَنْ هُوَ مُسْتَنَدٌ إِلَى غَايَةٍ وَلَا تَمِيلُ إِلَيْهِ؛ وَأَنْظُرُ فِي أَمْرِ الْأَحْبَاسِ نَظَرًا يَحْفَظُ أَصُولَهَا، وَلَا تُرَاجِعْ فِي اسْتِخْلَاصِ مَا يَتَعَيَّنُّ لَهَا كَبِيرًا وَلَا صَغِيرًا، وَلَا تُعَامِلْ فِيهَا إِلَّا ذَوِي الْوَقَاءِ وَالْيَسَارِ، وَأَرْفُضْ مَعَامَلَةً مِنْ يَسْتَنِدُ إِلَى الْعُدْمِ وَالْإِعْسَارِ؛ وَأَقْفَلْ مَا يَفْعَلُهُ مِثْلُكَ مِنَ الْحُكَامِ، مِنْ إِنْشَاءِ الْعَدَالَةِ وَالْقِسْخِ وَالْإِنْكَاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ قَلَدْنَاكَ هَذِهِ الْأَحْكَامَ؛ فَإِنْ عَمِلْتَ فِيهَا بِتَقْوَى اللَّهِ حَلَالًا؛ وَطَاعَتِهِ يُبِينُكَ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِنْ عَمِلْتَ غَيْرَ ذَلِكَ فَانْتَ وَاللَّهُ هَالِكٌ ثُمَّ هَالِكٌ؛ وَأَسْتَمِيعُ نَيْصِيحَتِي، وَأَقْفَلْ مَا تَبَرَّدَ بِهِ جِلْدَتَكَ وَجِلْدَتِي؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قلت : ^(١) وَرُبَّمَا كُتِبَ التَّقْلِيدُ بِصِغَةِ كِتَابٍ، مِثْلُ أَنْ يُكْتَبَ إِلَى الَّذِي يَتَوَلَّى عَلَى قَدْرِ مَرَاتِبِهِ، مِنْ : «صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكْتُبَةُ» أَوْ : «هَذِهِ الْمَكْتُبَةُ» ثُمَّ يَقَالُ :

(١) هذه هي المرتبة الثانية وإن لم يأت لها عنوان في الأصل .

«تَنْصَحُنْ إِعْلَامَهُ أَنَّ الْبَيْتَ الْغُلَاقِيَّ» بَلَقِيهِ، وَيُدْعَى لَهُ: «لَمَّا عَلِمْنَا مِنْ حَالِهِ كَذَا وَكَذَا - اسْتَحَرْنَا اللَّهَ تَعَالَى وَفَرَضْنَا إِلَيْهِ الْحُكْمَ وَالْقَضَاءَ بِمَكَانٍ كَذَا، فَنِيَا شَرَّ ذَكَ» عَلَى نَحْوِ مَا تَحَقَّقَ فِي التَّغْلِيدِ الَّذِي قَبْلَهُ .

الصنف الثاني

(إيجالات العدالة)

قَدْ بَرَّحَتِ الْعَادَةُ أَنَّ أَبْنَاءَ السُّلْطَانِ وَالرُّؤَسَاءِ تَتَبَتِ عِدَالَتُهُمْ عَلَى الْحُكَّامِ، وَيُسَبَّلُ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَيَحْكُمُ الْحَاكِمُ بِعِدَالَةٍ مِنْ تَتَبَتِ عِدَالَتُهُ لَدَيْهِ، وَيُنْبَهُدُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ، وَيَكْتُبُ لَهُ بِذَلِكَ فِي دَرَجٍ عَرِيضٍ، إِمَّا فِي قَطْعِ فَرْخَةِ الشَّامِيِّ الْكَامِلَةِ، وَإِمَّا فِي نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْوَرَقِ الْبَلَدِيِّ، وَتَكُونُ كَاتِبَتُهُ بِقَلَمِ الرَّقَاعِ وَأَسْطُرُهُ مُتَوَالِيَةً، يَنْ كُلُّ سَطْرَيْنِ تَقْدِيرِ عَرَضٍ أَصْبَحَ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .

قُلْتُ: وَهَذِهِ نُسخةٌ مِمَّا أَنشَأْتُهُ، كُتِبَ بِهِ لَوْلَدِي تَجَمُّعُ الدِّينِ أَبِي الْفَتْحِ مُحَمَّدٍ، وَكُتِبَ لَهُ بِهَا عِنْدَ ثُبُوتِ عِدَالَتِهِ، عَلَى الشَّيْخِ الْعَلَامَةِ وَلِيِّ الدِّينِ أَحْمَدَ، ابْنِ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْحَافِظِ زَيْنِ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحِيمِ الْعِرَاقِيِّ، حَلِيفَةِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ بِمِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ الْهَرُوسِيِّينَ، فِي شَهْرِ سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةٍ وَثَمَانِمِائَةٍ، وَهِيَ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَوَّلَعَ تَجَمُّعَ الْعِدَالَةِ مِنْ سَمَاءِ الْفَضَائِلِ فِي أَفْقِ مَعَالِيهَا، وَأَثَارَ بَدْرِ أَيْدِي السُّلْطَانِ مِنْ حَتَائِصِ الْجَهْلَةِ مُنْذَلِمٍ لِيَالِيهَا، وَكُلَّ عُقُودِ النِّجَابَةِ مِنْ نُجَبَاءِ الْإِبْنَاءِ بِأَعْلَى جَوَاهِرِهَا وَأَنْفُسِ لَأَلِيهَا؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةُ تَرَقَّى قَائِلُهَا إِلَى أَرْضِ الثَّرَاءِ، وَيَتَمَتَّعُ بِمُتَعِهَا صَوْنَةَ الثَّرَاءِ؛ وَإِنَّا لَتَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا؛ وَأَشْهَدُ أَنَّ عَمَّا عِندَهُ وَرَسُولَهُ الْمُخْصُوصُ بِحَامِسِ الشَّيْمِ، وَالْمَوْصُوفُ بِكَرَمِ الْمَآثِرِ وَمَا يَرْجَى الْكَرَمَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ تَسْكُونُوا مِنْ عُرَا الدِّينِ بِالْبَيْتِ

الأقوى، وسلَكُوا جَادَةَ الْهِدَايَةِ فَصَلُّوا مِنْ أَمْعَى مُنْيَاهَا عَلَى النَّيَايَةِ الْقُصْوَى؛
وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد، فلما كانت العدالة هي أسس الشريعة وعمادها، ودُرُكُهَا الْأَعْظَمُ فِي الْأَسْتِنَادِ
إِلَى الصَّوَابِ وَسِتَادَهَا؛ لَا تُقْبَلُ دُونَهَا شَهَادَةٌ وَلَا رَوَايَةٌ، وَلَا يَصِحُّ مَعَ عَدَمِهَا إِسْتِنَادُ
أَمْرٍ وَلَا وِلَايَةٌ - فَقَدْ بُدِيتِ الشَّرِيعَةُ الْمُطَهَّرَةُ عَلَى أَرْكَانِهَا، وَاعْتَمَدَ الرُّوَاةُ فِي صِحَّةِ
الْأَخْبَارِ عَلَى أَصُولٍ وَتَطَلَّتِ الْحُكُومُ فِي قَبُولِ الشَّهَادَةِ بِأَخْصَانِهَا؛ إِذْ هِيَ الْمَلَكَةُ
الْحَامِلَةُ عَلَى مِلَازِمَةِ التَّقْوَى، وَالْحَفِيزَةُ الْمَانِعَةُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي هَوَايَةِ الْبَدَنِ الْمُتَمَسِّكُ
بَسَبَبِهَا الْأَقْوَى؛ وَالْحَكْمَةُ الثَّانِيَّةُ عَنِ الْجُلُوحِ إِلَى أَرْكَانِ الْكِبَارِ، وَالْعِنَانُ الْعَارِفُ
عَنِ الْجَنُوحِ إِلَى الْإِصْرَارِ عَلَى الضُّعْفَاتِ؛ وَالزَّيْمَانُ الْقَائِدُ إِلَى صَلَاحِ أَعْمَالِ الظَّوَاهِرِ
وَسَلَامَةِ عَقَائِدِ الضُّبَاهِرِ .

ولما كان مجلسُ الْقَاضِي الْأَجَلِّ، الْفَقِيهِ، الْفَاضِلِ، الْمَشْتَغَلِ، الْمُحَصِّلِ،
الْأَصِيلِ، نَيْمِ الدِّينِ، سَلِيلِ الْعُلَمَاءِ، أَبُو الْقَتَنِجِ مُحَمَّدُ بْنُ فُلَانِ الْقَلْقَشَنْدِيُّ الْقَزَّازِيُّ،
الشَّافِعِيُّ، خَلِيفَةُ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ بِالْقَاهِرَةِ الْمَحْرُوسَةِ وَالِدُهُ، وَالْحَاكِمُ بِالْمَمْلُوكِ الْفَلَاحِيُّ
وَمَامِعُهُمَا: أَيْدِ اللَّهِ تَعَالَى أَحْكَامَهُ، وَأَقْرَبَ عَيْنَهُ بَوْلَدِهِ - هُوَ الَّذِي وُلِدَ عَلَى فِرَاشِ الدِّيَانَةِ،
وظَهَرَتْ عَلَيْهِ فِي الطُّفُولَةِ آثَارُهَا، وَنَشَأَ فِي أَحْيَاءِ الصِّيَانَةِ، فَرُوِّتَ عَنْهُ بِالسُّنْدِ
الصَّحِيحِ أَخْبَارُهَا؛ وَأَرْتَضَعَ قَدَى الْعِلْمِ حِينَ بُزُوغِ نَجْمِهِ، وَغَذَّيَهُ مَعَ لَبَانِ أُمِّهِ فَأَمْتَرَجَ
بَدَنِهِ وَنَجَّهَ وَعَظَّمَهُ؛ وَأَعْلَنَ مُنَادِي نَسَائِهِ بِجَمِيلِ الذِّكْرِ فَاعْتَمَدَ فِيهِ عَنِ الْأَسْتِخْبَارِ،
وَلَا حَتَّ عَلَيْهِ لَوَائِحُ النَّجَابَةِ فَقَضَى لَهُ بِالْكَامِلِ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَرْنَهُ زَمَنَ الْإِبْدَارِ؛
فَلَمْ يَرِدْ مَثَلُ التَّكْلِيفِ إِلَّا وَقَدْ تَرَنَّ مِنْ مَحَاسِنِ الْفَضَائِلِ بِأَكْلِ زَيْنٍ، وَلَمْ يَبْلُغْ مَبْلَغَ
الْعِلْمِ حَتَّى صَارَ لَوَالِدِهِ - وَهُوَ الْحَدُّ - قُرَّةَ عَيْنٍ - رُفِعَتْ قِصَّةُ غُبَرَةٍ عَنْ حَالِهِ فِيهَا مِنْ
مُضْمُونِ السُّؤَالِ طَلَبُ الْإِذْنِ الْكَرِيمِ بِسِيَاحِ بَيْتَةِ الْمَذْكُورِ، وَكَاتِبَةِ إِجْمَالِ مَدَائِلِهِ .

فَسَمِعَهَا الْخَطُّ الْكَرِيمُ الْعَالِي ، الْمَوْلِيُّ ، الْقَاضِي ، الْإِمَامِيُّ ، الْعَالِمِيُّ ، الْعَامِلِيُّ ،
 الْعَلَّامِيُّ ، الشَّيْخِيُّ ، الْمُحَدِّثِيُّ ، الْحَافِظِيُّ ، الْحَبْرِيُّ ، الْمُجْتَهِدِيُّ ، الْمُحَقِّقِيُّ ، الْمَدَقِّقِيُّ ،
 الْوَحِيدِيُّ ، الْفَرِيدِيُّ ، الْجَبِّيُّ ، الْمُجَبِّيُّ ، الْأَنْطَلِيبِيُّ ، الْبَلْبَنِيُّ ، الْحَاكِمِيُّ ، الْحَلَالِيُّ ،
 الْكَافِّيُّ ، الْبَلْبَنِيُّ ، الشَّافِعِيُّ ، شَيْخُ الْإِسْلَامِ ، النَّاطِرُ فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بِالْبَيْتِ
 الْمَصْرِيِّ ، وَالْمَالِكِ الشَّرِيفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ : أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى أَيْامَهُ ، وَأَعَزَّ أَحْكَامَهُ ،
 وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ ، وَأَسَخَّ نِعَمَهُ فِي الدَّارَيْنِ عَلَيْهِ - لَسَيِّدِنَا الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ،
 الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَالِمِ ، الْحَافِظِ ، وَلِيِّ الدِّينِ ، شَرَفِ الْمُلْكَ ، أَوْحَدِ الْفَضْلَاءِ ،
 مُقَيِّ الْمُسْلِمِينَ ، أَبِي زُرْعَةَ أَحْمَدَ ابْنَ سَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى زَيْنِ الدِّينِ ،
 شَيْخِ الْإِسْلَامِ ، قَاضِي الْمُسْلِمِينَ ، أَبِي الْفَضْلِ عَبْدِ الرَّحِيمِ ، ابْنَ سَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ
 إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِدَرِّ الدِّينِ ، شَرَفِ الْمُلْكَ ، أَوْحَدِ الْفَضْلَاءِ ، مُقَيِّ الْمُسْلِمِينَ ،
 أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنِ الرَّاقِقِ الشَّافِعِيِّ ، خَلِيفَةِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ بِالْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ
 الْمَحْرُوسِينَ ، وَالْحَاكِمِ بِالْأَعْمَالِ الْمُتَوَفِّيَّةِ ، وَمُقَيِّ دَارِ الْعَدْلِ الشَّرِيفِ بِالْبَيْتِ الْمَصْرِيِّ :
 أَيْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَحْكَامَهُ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ بِالْغُلُوفِ فِي ذَلِكَ عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ .

فَإِذَا سَمِعَ سَيِّدِنَا الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الشَّيْخَ الْإِمَامَ ، الْعَالِمَ ، الْحَافِظَ ،
 وَلِيِّ الدِّينِ ، الْحَاكِمَ الْمَشَارُ إِلَيْهِ : أَحْسَنَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ - الْيَتَّةَ بِتَرْكِتِهِ ، وَصَرَّحَتْ
 لَهُ بِالشَّهَادَةِ بِدَلَالَتِهِ ، وَقِيلَ لَهَا الْقَبُولُ الشَّرْعِيُّ السَّاتِعَ فِي مِثْلِهِ .

ثُمَّ أَشْعَدَ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ مَنْ حَضَرَ مَجْلِسَ حُكْمِهِ وَقَضَائِهِ ، وَهُوَ نَافِذُ الْقَضَاءِ
 وَالْحُكْمِ مَاضِيَهُمَا ، وَذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الْمُبَارَكِ يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ
 رَجَبِ الْفَرْدِ سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةِ وَثَمَانِمِائَةٍ - أَنَّهُ تَبَتَّ عَنْدهُ وَحَقُّ لَدَيْهِ : أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ -
 عَلَى الْوَضْعِ الْمَحْتَرَمِ الشَّرْعِيِّ ، وَالْقَانُونِ الْمُحَرَّرِ الْمَرْغِيِّ ، بِالْبَيْتِ الْعَادِلَةِ الْمَوْضِعِيَّةِ ، الَّتِي

تثبت بمنها الحقوق الشرعية - عدالة القاضي الأجل: السهل، الرضى، نعم الدين محمد المسعى أعلاه: زاده الله تعالى توفيقاً، وسهل له إلى الخير طريقاً، وما أشغل عليه من صفاتها، وعلى به من أدواتها، ثبوتاً صحيحاً معتبراً، مستوفى الشرائط محرراً. وأنه - أيد الله تعالى أحكامه، وسدد نقضه وإبرامه - حكم بمذالته - وقبول شهادته؛ حكماً تاماً وجرماً، وقضى فيه قضاءً أبرماً؛ وأذن له - أيد الله تعالى أحكامه - في تجلّ الشهادة وأدائها، وبسط قلبه في سائر أئديتها وأزجائها؛ وأجراه - أئيرى الله تعالى الخيرات على يديه - مجرى أمثاله من الصدول، ونظمه في سلك الشهداء أهل القبول؛ ونصبه بين الناس شاهداً عدلاً، إذ كان صالحاً لذلك وأهلاً. فليسط بالشهادة قلبه، وليؤلف على شروط أدائها قلبه؛ وليحمد الله تعالى على ما منحه من ملايسها الجميلة، وأتاله من الترقى لرتبتها الجليلة؛ وليتق الله تعالى في موارده ومصابيره، وليسلك مسالك التقوى في أول أمره وآخره؛ وليعلم أن من سلك الحق نجماً، ومن يتق الله يحصل له محرماً. أوزعه الله تعالى شكر هذه الرتبة عليه، والمثيرة السنية.

وتقدم أمر سيدنا السيد الفقير إلى الله تعالى الشيخ الإمام، العالم، الحافظ، ولي الدين، الحاكم المذكور، وقاه الله تعالى كل محذور؛ بكتابة هذا الإجمال، فكتب عن إذنه الكريم، متضمناً لذلك مسئولاً فيه، مستوفياً شرائطه الشرعية. وأشهد على نفسه الكريمة بذلك في التاريخ المقدم ذكره بأعاليه، المكتوب بخطه الكريم - شرفه الله تعالى، حسبنا الله ونعم الوكيل.

قلت: والবাদة أن يعلم فيه الحاكم علامة تلو البسملة، ويكتب التاريخ في الوسط، والحسبة في الآخر، كل ذلك بخطه، ويثبت عليه فيه من يشهد عليه من كتاب الحكم وغيرهم، كما في سائر الإجماليات الحكيمة.

الصفحة الثالث

(الكُتُب إلى الثَّوَاب وما في معناها)

وأعلم أنَّ الكُتُبَ التي تُكْتَبُ عن القضاة الفاضلة رسالةً، لا جُنُوح فيها إلى فن
البلاغة والسجع إلا في القليل النادر

وهذه نسخة كتاب كُتِبَ به عن قاضي القضاة تَغْرَايُ الدِّين الشافعي، إلى الحُكَّام
بالمملكة، وهو :

أدام الله فضائل الجنابات العالمة والمجالس العالية، وجعلهم قادة يقتدى بهم
في القول والعمل، وو^(١) الأخصال من يعنى بأمره ويحتفل، ولا سيما
من سارت طريقته فضيلة المثل في الآفاق مِثْلَ المثل، ولا زال عَرُفُ معروفهم على
قوى الفضائل يَفُوح، وحياد جودهم تَفْدُو في ميدان الإحسان وتُرُوح، وينبئ نيلهم
يسرى إلى القضاة فيحمد سره عند الغيوب كما يحمد سره عند الصُّبُوح .

هذه المكتبة إليهم تَهْرِيْم سَلاماً أَلْطَف من النسيم، وتَهْدِي سَلاماً مَرَّاج
كاتبه من تَسْنِيم، وتَهْدِي لعلومهم الكريمة أن الجناب الكريم، العالي، الشَّجِي،
الإمامي، الفاضل، البارعي، الأوحدي، الأكلبي، البليبي، المقدسي، الخطيبي،
البهائي، أُوحد الفضلاء، تَغْرَاي العلماء، زَيْن الخطباء، قِبْلَةَ الأدياء، قُدْوَةُ البُلَّاء،
صَفْوَةُ الملوك والصلطين، خَطِيبُ المَوْصِل - أدام الله المسرة به، ووصل الخير
بسببه، وفع بوائده فضله وأدبه - ورد علينا بطرأ بئس المحروسة، فحصلت المسرة
بذلك الورود، وتجدد بخدمة ما خدم من وتيق العهود، وأبدى لنا من نظره الفائق
الريق، وإنشائه المعنى عن تَبَسُّوَةِ الرِّيح، وكَتَبَتْهُ التي هي السَّحَرُ الحلال على

التحقيق ؛ ما تزه الأضمار وشئت الأسباع ، وقطع من قوسان الأدب أشباب
الأطاع ؛ فزال عن القلب الكتيب فكرا ، وأنجمل من الروض الأنيق زهرا ،
وأنجل من المسك السحيق عطرا ؛ وكيف لا ؟ وهو التقيس الذي جمع فيه قديم
الأدب وحديثه ، والجليل الذي لا ينسأ كلامه ولا يمل حديثه ؛ لله آياتها غيا
يُسديهِ من الأدب تحريفاً ولا غلط ، وفاضلاً لو لم يكن بحرًا لما كان الدر من فيه
يلتقط ؛ يمينه وفطنته الكرمان ذواتا أفنان ، فهذه إن رقت طرباً فروح وريحان ،
أو بثلت راء فمينان تجريان ؛ وهذه إن نظمت شعراً فاقوت ومرجان ، أو نثرت
تبراً فتمين الدر ألوان ؛ ما برح الفضلاء إلى لقاءه يسارعون ، وحق لهم أن يسارعوا
ومن أبواب معرفته يقتبسون ؛ وكيف لا ؟ وهو الشهاب الساطع ، والجليل
الذي لم تزل تُشير إليه بالأصابع ، والنيل الذي تجرى لفراقه من عبون الليب
المدامع ، والتزيل الذي ينشده العارف عند وداعه :

* بعيشك خبرني متى أنت راجع *

يعرف المحسن إحسانه فيشرله من الشاء لواء ، ويجعل في مدح صفاته
ونموته الإنشاء إن شاء ؛ ويجزل في ذم مستحق الذم منه الهباء ، فأكرم به مداحاً
وأعظم به هباء ؛ العلماء لحضوره يرقبون ، وإليه يتقربون ؛ والفضلاء بفضله
يعتفرون ، ومن يحرمه يعتفرون ؛ والأدباء إليه يستيقنون ، ومنه يقتبسون ؛ والطلبة
بأذبال فضله يتمسكون ، وينشر أئنيته يتمسكون ؛ وإخوانه في الله بوجوده
يعتفرون ، وإلى جوده يفتفرون ؛ كلما عرّضت لهم حاجة تمسكوا بإثاره ، وكلما
عاندكم الدهر سألوه الإمداد بأنصاره ؛ فيجود في خدمتهم بيان بئانه ، ويجود
في نصرتهم سيف لسانه .

ثم من قبل أن يبلغ منه الوطر، ومن دون أن يكثف منه السمع والبصر، عرفنا أنه قصد التوجه إلى البلاد الساحلية، والأعمال الطرابلسية، فيملي على أهلها من فضائل البحيرة الباسقة، وألفاظه التي هي كاللدر المتناسقة، ويملئهم غرائس الأفكار من أفكاره، ويمنحهم غرائس الأثمار من أشجار عليه، ويريم المدينة البديعة، والقوافي المحيية المطيعة.

فلتقدم الجماعة - أيدم الله تعالى - بإكرامه إكرام الأهل والأصحاب، وتلقيه بالبشر والطلاقة والترحاب، وإحلاله من الإحسان محلاً سامياً، وإزاله من الإفضال منزلاً عالياً، والاحتناء الوافر بأمره، واستجلاب بث حمده وشكره، وإلقاط دُرر قرائمه، واكتساب غرر قرائمه، والإصفاء إلى المنشور والمنظوم من أقواله، والتعجب من حسن بدايته وسرعة أريجائه.

وليتفضل كل يوم بخدمته غاية الاحتفال، ويعتن بأمره اعتناء لا يُسارِكه تقصير ولا إهمال، ويرع له حق الضيف الجليل، والقادم الذي إذا رجع عن بلده أبى له بها الذكر الجميل، ويساعد على ما توجه به بصدده كل ساعة يعود نفعها عليه، ويبقى مما آناه الله ويحسن كما أحسن الله إليه.

ونحن نؤكد على الجماعة - أيدم الله - في ذلك كل التأكيد، ونبلغ فيه مبالغة ماعلياً من مزيد، ونحذرهم من الإهمال والتسويف والتقصير، ومن مقابلة جنابه الكريم بالتردد الحقيق والتقدير اليسير، فإن زأماً هذا الرجل ليس كأكرام من لم يسر بسيره، وما هو إلا لعلبه وفضله وخيره، وقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

«ليس من يكرم نفسه كالذي يكرم لغيره».

فلتستظموه كل التعظيم وتخلوه منزلة تليق بأهل الفضل والإفضال، وترفعوا له المقام وتحفظوا له المقال، ليمود محقق الآمال مبلغ المقاصد، فاشراً الوية الشاء.

والْحَمْدُ ، مَشْمُولًا بِجَبِيلِ الصَّلَاةِ وَالْعَائِدِ ، وَتَحَنُّنِ مَنظُورِينَ مَا يَرُدُّ عَنْهُ مِنْ مَكَاتِبَاتِهِ
الْكِرَامَةِ بِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ ... (١) ... الْحَسَنَةِ .

وَفِيهِمْ الْعَلِيَّةُ ، وَمَكَارِمُهُمُ السَّيِّئَةُ ، مَا يُفْنِي عَنْ التَّكْيِيدِ بِسَيِّئِهِ وَالْوَصِيَّةُ ،
وَاللَّهُ تَعَالَى يُدِيمُ عَلَيْهِمْ مَا يَخِغِ الْإِفْضَالَ وَالْإِنْعَامَ ، وَيُجَمِّلُ بَوْجُودَهُمْ وَجُودَهُمُ الْأَحْكَامَ
وَالْحُكْمَ ، بِحَسَنَةِ وَكْرَمِهِ .

الصنف الرابع

(مَا يُكْتَبُ فِي أَفْتَاحَاتِ الْكُتُبِ)

فَإِنَّ ذَلِكَ مَا يُكْتَبُ فِي أَوَائِلِ كُتُبِ الْأَوْقَافِ .

وهذه نسخة خطبة في ابتداء كتاب وقف على مسجد ، وهي :

الْحَمْدُ لِلَّهِ جَامِعِ النَّاسِ لَيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ، وَتَأْوِيلُ الدِّينِ الْمُحَمَّدِيُّ
بِنَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ الْكَرَامِ الْأَنْجَادَ ، وَمُتَشَرِّفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْأَيْمَةِ وَالْجَمْعَةِ
وَالْجَمَاعَاتِ مِنْ أَهْلِ الرَّشَادِ ، وَجَاعِلِ مِنْ أَرْقَضَاهُ مِنْ أَرْبَابِ سُنةٍ نَبِيَّةٍ الْخِتَارِ مِنْ
عِبَادِهِ الْعِبَادَ ، وَمُهَيِّمِ الْقُرْبَانِ إِلَيْهِ لِأَهْلِ السَّدَادِ ، وَمُرِيدِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ
يَمُنْ أَخْلَصَهُ بِالطَّاعَاتِ وَمَزِيدِ الْإِرْفَادِ ، وَمُفَضِّلِ الْأَوْقَافِ عَلَى أَفْضَلِ وُجُوهِ الْبَرِّ
مَنْ جَعَلَهُ لِقَرِيبِ أَهْلًا بِالنَّفْعِ الْمُتَمَدِّدِ وَكَثْرَةِ الْأَمْدَادِ ، وَمُعَظِّمِ الْأَجْرِ لِمَنْ بَخَى بِتَائِبَةٍ
بِنَةِ خَلْقِهِ مِنَ الرِّيَاءِ وَالْعِنَادِ ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ بَخَى
مَسْجِدًا اللَّهُ وَلَوْ كَفَتْ حَصَصَ قِطَاعًا بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِهِ قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ " وَنَزَّجُو مِنْ كَرَمِ اللَّهِ
الْأَزْدِيَادَ .

(١) يبايض بالأصل ولله : من المنازل الحسنة الطاهرة ما أشبه .

أحمد على مَوَادِّ نِيمِهِ التي جَلَّتْ عن التَّسَدَادِ ، وأشكركم شكرًا وإيفاء وإفرا بجملة
ذخيرة ليوم التَّادِ ، وأسئِدُّ من اللُّطْفِ لَوَازِمِ الْفَضْلِ الْخَلْقِيِّ وهو الْكَرِيمُ الْجَوَادُ ،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنَّ عَمَّا عَيْدُهُ ورسوله انْطَلَمَ الْحَقُّ عَلَى
حَوْضِهِ الْوَرْدِ ، صلَّ الله عليه وعلى آله وصحبه ما أُمْنِئَ إِلَى الذِّكْرِ وَأُجِيبَ كُلُّ دَاجٍ
من حَاضِرٍ أَوْ بَادٍ .

وبعدُ ، فلما كانتِ الثُّلُوبَاتُ مَضْمُونَةً الْأَجْرِ عِنْدَ الْكَرِيمِ ، وَالْإِحْصَالُ مَتَمِّدَةً
فِي التَّقْدِيمِ ؛ وكان بُيُوتُ الْمَسَاجِدِ وَإِفْرَاءُ أَجْرَا ، لَمَّا أَقَامَ بِوَأَجِبِ بَيْنَانِ الظَّنِّ الْجَمِيلِ
وَسَلَّدَ إِلَى الْخَلِيفَاتِ سَيْرًا ، وقد قال تعالى : « أَنَا عِنْدَ حُسْنٍ عِلَى عَبْدِي فِي ظِلِّقُنْ
بِي خَيْرًا » . ورأى الْمُقْلَاءُ أَنَّ الْأَوْقَافَ عَلَى الْمَسَاجِدِ وَالْجَوَامِعِ مِنْ أَفْهَسِ قَوَائِدِ
الدِّينِ وَأَعْلَى - فَلَذَلِكَ قِيلَ فِي هَذَا الْإِسْجَالِ الْمُبَارَكِ :

هَذَا مَا وَقَفَهُ وَحَبَّه ، وَسَبَّهَ وَأَبْدَه فَلَان . وَقَفَ وَحَبَّسَ رَغْبَةً فِي مَزِيدِ الثُّوَابِ ،
وَرَجَّاهُ فِي تَهْوِيلِ يَوْمِ الْحِسَابِ ، وَأَخْتِطَامًا لِلْأَجْرِ الْجَزِيلِ مِنَ الْكَرِيمِ الْوَهَّابِ ؛
لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ الْمَبْرُورَةِ : (مَنْ قَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَبَضَاعَتِهِ لَهُ
أَضَاعًا كَثِيرَةً) . وَقَفَ بِنِيَّةٍ خَالِصَةٍ ، وَمِزْنَةٍ صَالِحَةٍ ، وَنِيَّةٍ صَادِقَةٍ ، مَا هُوَ لَهُ
وَفِي مِلْكِهِ ، وَحُوزِهِ وَيَدِهِ وَتَصَرُّفِهِ ، مِنْ غَيْرِ مُتَكَلِّفٍ لَهُ فِي ذَلِكَ وَلَا شَرِيكَ ،
(ثم يَذْكُرُ الْوَقْفَ) .

الفصل السادس

في العُمَرَاءِ الَّتِي تَكْتُبُ لِلْحَاجِّ

وهذه نسخة عُمره أعضمها أبو بكر بن محمد الأنصاري الخزرجي، عند مجاورته
بمكة المشرفة في سنة سبع، وستة ثمان، وستة تسع، وستة عشر وسبعائة، للسلطان
الملك الناصر «محمد بن قلاوون»، وهي :

الحمد لله الذي جعل البيت مثابة للناس وأماناً، وأمن من فيه بالقيام بأمر الله ومن
هو للإسلام والمسلمين خير ناصر، وجعله بيعة مباركة، ووضع الإصر بمن كثرت منه
ومن سبقه الكريم على الطائفين والمالكين الأواصر، وعقد لواء الملك بغير ملك
وهو واحد في الجود ألف في الوعى : ففى حاليه تُعقد عليه الخناصر، وأطاب المقام
فى حرم الله تعالى ورحم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن يستحق السلطنة
بذاته الشريفة وشرف المناصر، وسهل الطريق، إلى حج بيته النبي، من المشارق
والمغارب فى دولة من أجمع الصلوب على محبته وورث الملك كآراء عن كآبر،
وأطلق الأليسة باللهاء له من كل وأيد إلى بيته الحرام على اختلاف لغاتهم وأهنت
لوصف مناقبه المناير.

أحمد على ما بلغ من جزيل إناييه، وأشكره شكرًا استريد به من فضليه ونواله
وإكراميه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له نعم الذخيرة لصاحبها يوم لقاءه
وعند قيامه، وأقول خالصاً مخلصاً وإخوًز من كانت أير كلاميه، وأشهد أن سيدنا
محمداً عبده ورسوله أشرف مبعوث إلى الحق دعى بقاء بأشرف مله، يقال صلى الله
عليه وسلم : «عمره فى رمضان تبدل سمه» صلى الله عليه وعلى جميع آله وأصحابه

خُصُوصاً عَلَى خَلِيفَتِهِ فِي أَمْتِهِ الْمُخْصُوصِ بِالسَّبْقِ وَالْمُؤَاوَزَةِ وَالصَّدِيقِ ، مَوْلَانَا أُمِّي بَكْرُ الصَّدِيقِ ، وَعَلَى مُظْهِرِ الْأَذَانِ وَمُصَدِّقِ الْخُطَابِ ، مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخُطَّابِ ، وَعَلَى مَنْ جَمَعَ عَلَى الْأُمَّةِ آيَاتِ الْقُرْآنِ ، مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ، وَعَلَى ابْنِ عَمِّهِ ، وَارِثِ عَلَيْهِ الْجَمَاعِ لِجَمِيعِ الْمَآثِرِ وَالْمَنَاقِبِ ، مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، وَعَلَى قِيَّةِ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ ، سَادَاتِ الدُّنْيَا وَمُلُوكِ الْآخِرَةِ ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَالِكُ الْمُلْكِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَاخْتِيرَ بِيَدِهِ يُفِضُهُ عَلَى خَلْفِهِ فِي أَرْضِهِ وَيَلِدُهُ ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى بِعِبَادِهِ خَيْرًا نَصَرَ نَاصِرَهُمْ وَرَفَعَ عَنْهُمْ النَّفْلَ ، وَدَفَعَ عَنْهُمْ اللَّعْنَ ، وَوَلَّى عَلَيْهِمْ خِيَارَهُمْ ، فَيُقِيمُهُ مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، لِيُنْجِبَ عَنْهُمْ الضَّرَرَ وَيُزِيلَ عَنْهُمْ الْبَاسَ ، وَيَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُصَيِّفُ الْمَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ وَيَقِيمَ مَنَارَ الشَّرْعِ الْمُطَهَّرِ .

وَلَمَّا كَانَتْ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْأَعْظَمُ ، وَالشَّاهِنشَاهُ الْمُعَظَّمُ ، الْمَلِكُ النَّاصِرُ - خَلَدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - قَدْ جَمَعَ فِي التَّحْتِدِ بَيْنَ حَلَاوِيهِ وَتَالِدِ ، وَوَرِثَ الْمُلْكَ عَنْ أَشْرَفِ أَيْحٍ وَأَعْظَمِ وَالِدٍ ، وَقَامَتْ عَلَى آسِحِقَاقِهِ السُّلْطَنَةُ الدَّلَائِلُ ، وَأَلْفَهُ سِرُّ الْمُلْكِ وَعَرَفَ فِيهِ مِنْ وَالِدِهِ وَمِنْ أَخِيهِ - رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى - الشَّمَائِلُ ، فَهُوَ الْمَالِكُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ الْمُلْكُ بِهِ أَهْلًا وَلَمْ يَزَلْ لَهُ أَهْلًا ، وَالسَّيِّدُ الَّذِي لَيْسَ حُلَّةُ الْفَخَارِ قَلَمٌ تَجِدُ لَهُ فِي السُّؤْدُدِ وَالْفَخَارِ مِثْلًا . وَالْمَلِكُ الَّذِي مَا بَدَأَ لِرَأْيِهِ إِلَّا قَبِيلَ : بَحْرٌ طَمَى أَوْ بَدْرٌ تَجَلَّى ، وَالْمُؤَيَّدُ الَّذِي خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمُلُوكَاتِهِ وَأَرْقَانِهِ ، وَلَمْ يَرْضَ مَرَاقِدَ الْفَرَاقِدِ لَعَلِّيَّاهُ ، وَالكَرِيمُ الَّذِي سَادَ الْأَوَائِلَ وَالْآخِرِينَ ، وَأَضْفَيْتَ عَلَيْهِ حُلُلَ الْمَفَاسِرِ ، وَالْمَنْصُورُ الَّذِي أُعْطِيَ عَلَى الْأَعْدَاءِ قُوَّةً وَنَصْرًا ، وَالنَّاصِرُ الَّذِي أَسْعَجَ مَجَالَ نَصْرِهِ فَاخَذَ الْكُفَّارَ حَصْرًا ، وَحَكَمَتْ سُبُوفُهُ الْقَوَاصِبُ قَوَضَتْ عَنِ الْأَوْلِيَاءِ إِصْرًا ، قَدْ خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْمَرْ وَالنَّصِيرِ كَرَّةً

بعد كره، وقضاه على سائر ملوك الإسلام بالحق وزيادة النبي صلى الله عليه وسلم
مرة بعد مرة، ومرة أخرى إن شاء الله تعالى ومرة ومرة !!! كم سلك سنن
والديه وأخيه - رحمهما الله تعالى - بالنزاة فكان له كل مشهد مذكور، وعرف
تقدمه وإقامته فكان أعظم ناصر وأشرق منصور، يحمد الله تعالى والناس عن
جميل ذبه عن الإسلام وحيد فله، وأستقل الجزيل فينبئ الجميل لمن أم الأبوة
الشريفة فلا يستكثر هذا من مثله، ما حلت رأياته الشريفة كتيبة إلا نصرت،
ولا وقف بوجهه الكريم في دفع طائفة الكفر إلا كثرت، ولا جهز صاكره
المنصورة إلى قلعة إلا نزل أهلها من صياصيم، ولا حاصروا قرا للکفار إلا أخذوا
بنواصيم، ولا سير سيرة لمواجهة محارب إلا نزل على رغبة، ولا تلقى لسان الحمد
للجاهد أو سار الشاهد إلا وقف الحمد على قوله وأسميه، فاختاره الله تعالى على علم على
العالمين، وأجابه للذب عن الإسلام والمسلمين، وجعله لسلطانه وأرثا، وفي الملك
ما يكتا، وللقمرين نالنا، ولأموره سدادا، ولتفوق بلاد الإسلام سدادا، وتووض إليه
القيام بمصالح الإسلام، والنظر في مصالح الخاص والعام، وعلق به أمور الممالك
والأملاك، وأطلع بسعاده أئمة البروج في أثبت الأملك، وحي الإسلام
والمسلمين من كل جانب شرقا وغربا، وملأ بمهاجسه البلاد والبياد رعبا وحبا،
وبسط في البسيطة حكمه وعدله، ونشر على الخلائق حكمه وقضاه، وقرض طاعته
على جميع الأمم، وجعله سيدا ملوك العرب والجم، وأمن بمهاجته كل حاضير وباد،
ونوم سكان الحرمين الشريفين من كنفه في أوطن مهدد، وسكن خواطر المجاورين
من جميع الخافض، وصان بالمقام في مكة الطائيف والمأكف، قد حسن مع الله
تعالى سيرة وسيرا، وذللت أيامه الشريفة أنه خير ملك أراد الله تعالى برعيته خيرا،
ورأى الله فيها رحي، ونسى في مصالح الإسلام علما أن ليس للإنسان إلا ما سعى.

قد ملأ آصين الرأيا بالطمأنينة والمُجروح، وأنتم في أيامه الشريفة بالرُخاء من الخوف والجوع، وجمع لهم بين سادة الدنيا والأخرى، وسهل لهم الدخول إلى بيته الحرام برأ وبجرا، وفتح الله تعالى على يديه - خلقه الله تعالى سلطانه - جميع الأمصار، وملأ من مهابته جميع الأمصار :

فسارت ميسر الشمس في كل ليلة * وعبث هبوب الريح في القرب والبعد !

فوجب على العالمين أن يدعوا لثوقته الشريفة المباركة بطول البقاء، و[دوام] الملو والارقاء، ووجب على كل من الواصلين إلى بيته الحرام وحضرة نفسه، أن يتنهل بالبقاء له قبل أن يدعوا نفسه، فكيف من هو مملوكه وابن مملوكه وأرث عبوديته، ومن لم يزل هو ووالده وإخوته في صدقات وإليه الشيد - رحمه الله تعالى - وحميم نعمته، البعد الفقير إلى الله تعالى أبو بكر بن محمد بن الحكم الأصبary الخرجي، فإنه لم يزل مدة أيامه مبتهلاً بصالح دعوته، متوسلاً إلى الله تعالى بدوام نصيره وطول حياته، طامعاً عند مقامه الشريف حول بيته الحرام، والمشاير المظلم .

وأحب أن يُحْفَظَ بأشرف العبادة فلم يجز أجل مقداراً ولا أعظم أجراً، من عمرة بتمرها عنه وحدي ثوابها لصحاته الشريفة ويزيد بذلك نخراً؛ فقام عنه بممرتين شريقتين أعتمرها عنه في رمضان، مكثتين بإحراميهما وتبتيتهما، وطوآفيهما وسعيهما، يتقرب بذلك إلى أبواب الشريفة، ويسأل الله تعالى ويسال صدقاته الشريفة أن ينم عليه بنصف مملوك صدقة عليه، وينصفه لأولاده : ليقضى بقية عمره في الثلاثة المساجد، ويخصه بجزيل البقاء من كل راحة وساجد، وأن يكون ذلك مستمراً عليه مدة حياته، وعلى ذريته ونسبه وعقبه بعد وقته، لتشمل صدقت مولانا السلطان - خلقه الله تعالى ملكه - الأخياء والأموات، وطيب لظلماته

في أيامه الشرفه المات ؛ جَعلَ الله تعالى مَوْلانا السلطانَ وَأَرَبَتِ الأعمارُ ،
وَأَجْرَى بَنَواَمِ أَيْمِهِ الشَّرِيفَةِ المَقْدارَ ؛ وَجَعلَ كَلِمَةَ المُلْكِ باقِيَةً في حَقِّهِ ، وَبَلَّغَهُ
مِنَ النُّصْرَةِ وَالظُّفْرِ وَالْأَجْرِ غَايَةَ أَرْبِهِ ؛ وَجَعلَ أَيْامَهُ كُلَّهَا مَسَارًا وَبَشِيرًا ، وَدَوَّلَتِهِ نَسْرًا
التَّوَاطُرَ ، وَسَعَادَتَهُ لَيْسَ لَهَا آخِرُ ؛ وَهَيْئَتُهُ بِمَا قَدَّ أَمَّهُ اللهُ لَهُ مِنْ مُلْكٍ وَاللهُ الشَّهِيدُ
رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى :

[أَهْنَيْكَ] بِالْمُلْكِ بِأَخِيرِ مَنْ * أَجَارَ السَّيِّئِينَ وَمَنْ مَارَهَا ،
وَمَنْ لَيْسَ لِلْأَرْضِ مُلْكٌ سِوَاهُ * تُحِيلُ لَهُ الْخَلْقُ أَبْصَارَهَا !
وَأَنْتَ الَّذِي تَمْلِكُ انْتِصَافَيْنِ ^(١) * وَإِعْصَارَهَا ،
وَتَمْلِكُ سَهْبَ تَكْفُورِهَا * وَتَرْكَبُ بِالْجَيْشِ أَوْتَارَهَا ،
وَتَحْكُمُ فِي الْمَرْءِ حُكْمَ الْمُلُوكِ * وَتُنْشِدُ فِي التَّخْتِ أَشْعَارَهَا ،
وَتَقْتَحِبُ بَقْدَادَ دَارَ السَّلَامِ * وَتَنْجِي بِمُلْكِكَ أَكْدَارَهَا ،
وَتَأْخُذُ بِالنَّسْرِ النَّاصِرِيَّ * قُصُودُ انْخِلَافَةِ أَوْتَارَهَا ،
وَيَأْمُنُ فِي ذَلِكَ الْعَالَمُونَ * وَتُجِي الْأُسُودَ وَأَوْكَارَهَا ،
وَتَنْجِي إِلَى أَنْتَ نَعْمَ الْبِلَادَ * بِنُعْمَى تَنْبِيعِ إِذْرَارَهَا ،
وَيَبْلُغُ مُلْكُكَ أَقْصَى الْبِلَادِ * وَتُجْرِي الْبِلَادَ وَأَوْطَارَهَا ،
وَيَنْظُمُ سِيرَتَكَ النَّاطِلُونَ * وَتُحِي مَفَازِكَ سَمَارَهَا ،

[وَانْهَ يَنْقِصُهُ ^(١)] بَعْدَمَا دَائِمًا نَاصِرَ الدُّنْيَا وَالْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ ، كَمَا سَمَّاهُ وَاللهُ
نَاصِرَ الدُّنْيَا وَالدِّينِ ؛ إِنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ، وَبِالإِجَابَةِ جَدِيرٌ ، وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

الباب الثاني

من المقالة العاشرة في المزيّات^(١)

أعلم أنه رُبما أَخَذَتِ الملوكة بَعْضُهُ فاقْتَرَحَتْ عَلَى كُتْلِبِهَا إِشْأَةً شَيْءٌ مِنَ الْأُمُورِ
الْمَزِيَّةِ، فَيَحْتَاجُونَ إِلَى الْإِثْبَانِ بِهَا عَلَى وَفْقِ غَرَضِ ذَلِكَ الْمَلِكِ . كما وَقَعَ لِمُعِينِ الدَّوْلَةِ
أَبْنِ بُوَيْهِ الدَّيْلَمِيِّ فِي أَقْرَابِهِ عَلَى أَبِي إِسْحَاقِ الصَّابِيِّ كَاتِبَهُ عَهْدَ الْتَطْفُلِ، لِرَجُلٍ كَانَ
عِنْدَهُ اسْمُهُ عَلِيكَ، يُنْسَبُ إِلَى التَّطْفُلِ، وَيَسْخَرُ مِنْهُ السُّلْطَانُ بِسَبَبِ ذَلِكَ .

وهذه نسخة عَهْدِ الْتَطْفُلِ، الَّتِي أَنْشَأَهَا أَبُو إِسْحَاقِ الصَّابِيُّ لِعَلِيكَ الْمَذْكُورِ :

هَذَا مَا عَهِدَ عَلَى بَنِ أَحْمَدَ الْمَعْرُوفُ بِعَلِيكَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ عُرْسِ الْمُتَوَصِّلِ، حِينَ
اسْتَنْطَقَهُ عَلَى إِحْيَاءِ سُنَّتِهِ، وَأَسْتَنْبَاهُ فِي حِفْظِ رُسُومِهِ، مِنَ التَّطْفُلِ عَلَى أَهْلِ مَدِينَةِ
السَّلَامِ وَمَا يَتِمُّ بِهَا مِنْ أَرْيَاضِهَا وَأَكْثَافِهَا، وَيَتَجَرَّى مَعَهَا فِي سَوَادِهَا وَأَطْرَافِهَا؛
لِمَا تَوَسَّعَ فِيهِ مِنْ قِلَّةِ الْحَيَاءِ، وَشِدَّةِ الْقَاءِ، وَكَثْرَةِ اللَّقْمِ، وَجَوْدَةِ الْحَضَمِ؛ وَرَأَى
أَهْلًا لَهُ مِنْ سِدِّ مَكَانِهِ، وَالرَّقَاعَةِ الْمُهْمَلَةِ الَّتِي فَطَنَ لَهَا، وَالرَّقَاعَةَ الْمُطْرَحَةَ الَّتِي اخْتَدَى
الْيَا، وَالنِّعَمَ الْعَائِدَةَ عَلَى لَا يَسِيهَا بِمِلَادِ الطُّغُومِ، وَخَضِبَ الْجُسُومِ؛ وَرَدًّا عَلَى مَنْ
اتَّسَمَتْ حَالُهُ، وَأَقْدَرَهُ اللَّهُ عَلَى غَرَائِبِ الْمَأْكُولَاتِ، وَأَعْلَفَهُ بِدَائِعِ الطَّيِّبَاتِ؛ إِعْدَا
مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ بِنَيْصِيبِ الشَّرِيبِ الْمُنَاصِفِ، وَضَارِبًا فِيهِ بِنَمِّ الْخَلِيطِ الْمُنَافِضِ؛
وَسَمْعًا لِلدَّخْلِ اللَّطِيفِ عَلَيْهِ، وَالْمُتَوَجِّعِ السَّجِيبِ إِلَيْهِ؛ وَالْأَنْشَابِ الَّتِي سَتَفَرَحُ
فِي مَوَاضِعِهَا مِنْ أَوَامِرِ هَذَا الْكُتْلِبِ، وَتُسَوِّقُ الدَّلَالَةَ عَلَى مَا فِيهَا مِنْ رَشَادٍ وَصَوَابٍ؛
وَاللَّهُ التَّوْفِيقُ وَعَلَيْهِ التَّوَكُّلُ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

(١) ذكر المؤلف في بيان محرمات الكُتْلِبِ في الجزء الأول (ص ٣٢) أَنَّ الْبَابَ الثَّانِي فِي الْمَزِيَّاتِ

يَشْتَلِ عَلَى صُلْبَيْنِ : الفصل الأولُ فِي أَخَذَتِ الْمُلُوكُ بَعْضُهُ . الفصل الثاني فِي سَائِرِ أَنْوَاعِ الْمَزَلِ، وَلَكِنَّهُ
يُكْرَهُ أَنْ يَنْصَلَ الثَّانِي، فَتَجَنَّبَهُ .

أمره بتقوى الله التي هي الجانبُ العزيز، والحيزُ الحريز، والركنُ المتيع، والظودُ الرُفيع، والعصمةُ الكائنة، والجنةُ الواقية، والزادُ النافع يوم المبدأ، وحيثُ الأمانة من الأزواد؛ وأن يستشعر خيفته في سره وجهه، ويرأيه في قوله وفعله؛ ويعمل رضاه مطلبه، وتوابعه مكسبه، والقربة منه أربه، والزلفى لديه سرهه، ولا يخالفه في مسعاة قدم، ولا يتعرض عنه لعاقبة قدم؛ ولا يقيد على ما كرهه وأنكره، ولا يتقاعس عما أحب وأمره.

وأمره أن يتأدب بأدبه فيما يأتي ويذر، ويقف على حُلوه فيما أباح وحظر؛ فإنه إذا كان ذلك عجيبراً وديته، وجرى عليه منهاجه وسنته؛ تكفل الله له بالنجاح والصلاح، وأفضى به إلى الرشاد والقلاح؛ وأظفره بكل بُفيه، وأوصله إلى كل منتهى؛ ولم يخله من القوز بما يرصد، والحويز بما يقصد؛ بذلك وعد، وكذلك يفعل، وما توفيقنا إلا بالله، ولا مرجعنا إلا إليه.

وأمره أن يتأمل اسمَ الطفيل ومعناه، ويعرف مغزاه ومعناه؛ ويتصفحه تصفح الباحث عن حظه بمحموده، غير الغافل فيه بتسليمه وتقليده؛ فإن كثيراً من الناس قد استنجمه من فصله، وكرهه لمن استعمله؛ ونسبه فيه إلى الشره والنهم، وحمله منه على التفقه والقرم؛ ففهم من غلط في استدلاله، فأساء في مقاله؛ ومنهم من شخ على ماله، فدافع عنه بأحباله؛ وكل الفريقين مئوم، وجميعهما مئوم؛ لا يتعلقان بعثر واضح، ولا يتريان من لباس فاضح؛ ومنهم الطائفة التي ترى فيها شركة العنان؛ فهي تتكلم إذا كان لها، وتتدلى طيه إذا كان لغيرها؛ وترى أن الميتة في المنظم لهاجم الآكل، وفي المشرّب للوارد الواعل، وهي أحق بالحريه، وأحق بالتحريره؛ وأمرى بالمرؤه، وأولى بالفتوه؛ وقد عرفت بالطفيل، ولا عار فيه عند ذوي التحصيل،

لأنه مشتق من الغفل وهو وقت المساء، وأوان المساء؛ فلما كثر استعمال في صدر النهار ونجسه، وأوله وآخره، كما قيل للشمس والقمر: قرآن وأحدهما القمر، ولأبي بكر وعمر: العمران وأحدهما عمر، وقد سبق إيماننا ببيان رحمة الله عليه إلى هذا الأمر سبقاً أوجب له خلود الذكر، فهو باق بقضاء الدهر، ومُتَجَدِّدٌ في كُلِّ عَصْرٍ؛ وما نعرف أحداً نال من الدنيا حظاً من حطوطها فبقِيَ له منه أثرٌ يخلفه، وصيَّتْ يَسْتَدِ بِهِ إلا هو وحده، فَيَكُنْ رِضْوَانُ الله عليه يُدْكَرُ بِتَطْفِيلِهِ كما تُدْكَرُ الملوكُ جَسِيرِهَا، فَمَنْ بَلَغَ إِلَى نِهَاجِهِ، أَوْ جَرَى إِلَى غَايَتِهِ، سَعِدَ بِقَضَائِهِ عَيْشِهِ فِي رُؤْيَاهُ، وَتَبَاهَى ذِكْرُهُ فِي عَمَدِهِ، جَعَلَهُ اللهُ جَبِيماً مِنَ السَّاجِدِينَ إِلَى مَدَاهُ، وَالْمَذْكُورِينَ كَذِكْرَاهُ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَمَدَّ مَوَائِدُ الْكِبَرَاءِ وَالْعُقَلَاءِ بِفَرَائِيهِ، وَمُتَمَطِّاتِ الْأَمْرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ بِسَرَائِيهِ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ مِنْهَا بِالْفَيْئَةِ الْبَارِدَةِ، وَيَصِلُ عَلَيْهَا إِلَى الْفَرِيَةِ الْبَادِرَةِ؛ وَإِذَا اسْتَقْرَاهَا وَجَدَ فِيهَا مِنْ طَرَائِفِ الْأَلْوَانِ، الْمَلَيَّةِ لِسَانٍ، وَبَدَائِعِ الطُّعُومِ، السَّائِغَةِ فِي الْحَقُومِ؛ مَا لَا يَجِدُهُ عِنْدَ غَيْرِهِمْ، وَلَا يَنَالُهُ إِلَّا لَتَيْهِمْ؛ لِحَذِيقِ صِنَاعَتِهِمْ، وَجُودَةِ أَدْوَانِهِمْ، وَأَنْزِجَاجِ عَالِمِهِمْ، وَكَثْرَةِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ؛ وَاللهُ يُوقِرُ مِنْ ذَلِكَ حَقَّنَا، وَيُسَدِّدُ نَحْوَهُ لِحَقَّنَا؛ وَيُوضِّحُ عَلَيْهِ دَلِيلَنَا، وَيُسَهِّلُ إِلَيْهِ سَبِيلَنَا .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَّبِعَ مَا يَمْرِضُ لِمُوسِرِي الثُّجَارِ، وَيُجَهِّزِي الْأَمْصَارِ؛ مِنْ وَكْرَةِ الدَّارِ، وَالشُّرْسِ وَالْإِغْذَارِ؛ فَإِنَّهُمْ يُوسِّمُونَ عَلَى نَفْسِهِمْ فِي النَّوَابِ، بِحَسَبِ تَفْصِيلِهِمْ عَلَيْهَا فِي الرَّائِبِ؛ وَرُبَّمَا صَبَرُوا عَلَى تَطْفِيلِ الْمُتَطَفِّلِينَ، وَأَغْضَوْا عَلَى تَهْمِ الْوَاعِلِينَ؛ لِيَتَمَدَّنُوا بِذَلِكَ فِي عَمَائِهِمُ الرِّقْلَ، وَيَعُدُّوه فِي مَكَارِمِ أَخْلَاقِهِمُ النَّقْلَ؛ وَيَقُولُ قَائِلُهُمُ الْبَاجُ بِأَسَاعِ طَعَامِهِ، الْمَسَامِي بِكَثْرَةِ حُطَائِمِهِ؛ : إِنِّي كُنْتُ أَرَى الْجُوعَ الْفَرِيَّةَ فَطَعَمْتُهَا، وَالْأَيْدِيَ الْمُتَمَدِّدَةَ فَأَمَلْتُهَا . وَهَذِهِ طَائِفَةٌ لَمْ تُرَدِّ بِمَا فَتَنَهُ الْكَرَمُ وَالسَّعَمُ،

وإنما أرادت المنّ والسّمعة ؛ فلذا أهدى الأريب إلى طرائجها وصل إلى بغيته
من إعلان قضيتها ، وفاز بمراجه من ذخائر حسنها ، إن شاء الله .

وأمره أن يصادق قهّارمة الدور ومدبرها ، ويرافق وكلاء المطايغ ومحالها ، فلم
يملكون من أصحابهم أزيمة مطاعهم ومشاربهم ، وبضعونها بحيث يميّون من أهل
موداتهم ومعارفهم ؛ وإذا عذت هذه الطائفة أحدا من الناس خيلا من خلانها ،
واخذته أختا من إخوانها ؛ سجد بمراقبتها ، وصل إلى محابة من جهاتها ، وأمره
في جنابها .

وأمره أن يتعهد أسواق المسوقين ، ومواسم المتبايعين ؛ فلذا رأى وظيفة قد زيد
فيها ، وأطعمته قد أحتشد مشربها ؛ أتبعها إلى المقصد بها ، وشيها إلى المتزل
الحاري لها ؛ وأستعلم ميقات الدعو ، ومن يحضرها من أهل الشبان والروء ؛
فإنه لا يخلو فيهم من طريف به يراعي وقت مصيره إليها لينبه ، ويكن له ليصحبه
ويدخل معه ؛ وإن خلا من ذلك أختلط بزمر الداخلين ، وعصّب الراحلين ؛
فما هو إلا أن يتجاوز عتب الأبواب ، ويخرج من سلطان البوابين والمجتاب ؛ حتى
يحصّل حصولا قل ما حصل [عليه] أحد قبله فانصرف عنه إلا ضليعا من الطعام ،
برقا من المدام ؛ إن شاء الله .

وأمره أن يتصب الأرصاد على منازل المفتيات والمفتين ، ومواطن الأليات (؟)
والفتين ؛ فلذا أناه خبر بجمع يفسهم ، ومأذبة تهمهم ؛ ضرب إليها أعتاق إليه ؛
وأفضى نحوها مطايا خيله ؛ وحمل عليها حملة الحوت الملتقم ، والشبان المقتسم ؛
والثبيت الماصر ، واللقاب الكاسر ؛ إن شاء الله .

وأمره أن يقتتب مجاميع السوام المقلين ، ومعاظ الرماع المقتيرين ؛ وأن لا يتنل
إليها قدما ، ولا يعثر لما كلفها قسا ؛ ولا يلقي في عتب دورها كؤسا ، ولا يعد الرجل

منها إنساناً ؛ فإنها عَصَابَةٌ يَجْتَمِعُ لها ضَيْقُ النُّفُوسِ والأَحْلامِ ، وَقَلَّةُ الإِحْكَامِ والأُمُوالِ ؛
وفى التَّطْفِيلِ عليها إِخْخَافٌ بها يُوسَمُ ، وإِزْدَارٌهُ بِمُرُوءَةِ الْمُتَعَفِّلِ يَوْمَ ، والتَّجَنُّبُ لها
أَحْرَى ، والأَزْوَارُ عنها أَجْمَى ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَحْزَرَ الْخِلَافَ إِذَا وُضِعَ ، والطَّعَامَ إِذَا نُحِلَ ؛ حَتَّى يَعْرِفَ بِالْحَدْسِ
والتَّغَرُّبِ ، وَالبَحْثِ والتَّغْيِبِ ؛ مَدَدَ الْأَلْوَانِ فِي الْكَثْرَةِ وَالْقَلَّةِ ، وَأَقْبَاتِنَا فِي الطَّيِّبِ
وَاللَّذَّةِ ؛ فَيَقْدِرُ لِنَفْسِهِ أَنْ يَتَّبِعَ مع آخِرِهَا ، وَيَتَّيَّ بِهَا عِنْدَ أَنْتَاهَا ؛ وَلَا يَهْوَتْهُ
النَّصِيبُ مِنْ كَثِيرِهَا وَقَلِيلِهَا ، وَلَا يَحْطِئُهُ الْحِطُّ مِنْ دَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا . وَمَتَى أَحَسَّ بِقَلَّةِ
الطَّعَامِ ؛ وَتَحْزَرَهُ عَنِ الْأَنْوَامِ ؛ أَمَنَّ فِي أَوَّلِهِ إِمْعَانَ الْكَيْسِ فِي سَمْعِهِ ، الرَّيْثِيذِ أَمْرِهِ ،
الْمَالِ لِبَطْنِهِ ؛ مِنْ كُلِّ حَارٍّ وَبَارِدٍ ، وَخَيْثٍ وَطَيِّبٍ ؛ فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ مَسَلِمٌ مِنْ
عَوَاقِبِ الْأَعْمَارِ الَّذِينَ يَكْفُونُ تَطَرُّفًا ، وَيُحْلُونُ تَأْدِبًا ؛ وَيُظَنُّونَ أَنَّ الْمَادَّةَ تُلْغِمُهُمْ
فِي آخِرِ أَمْرِهِمْ ، وَتَنْتَهِي بِهِمْ إِلَى غَايَةِ سَمْعِهِمْ ؛ فَلَا يَلْبِتُوا أَنْ يَتَّحِلُوا تَهْلِيلَ الرَّايِثِ ،
وَيَتَقَلَّبُوا بِحُسْرَةِ الْخِلَابِ ؛ أَعَاذَنَا اللهُ مِنْ مِثْلِ مَقَامِهِمْ ، وَعَصَمَنَا مِنْ شَقَاءِ جُنُودِهِمْ ؛
إِنْ شَاءَ اللهُ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَرُوضَ نَفْسَهُ ، وَيُخَالِطَ حِسَّهُ ؛ وَيَضْرِبَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يُلْقِيهِ صَفْعًا ،
وَيَطْوِي دُونَهُ كَشْعًا ، وَيَسْتَحِينَ الصَّمَمَ عَنِ الْفَحْشَا ؛ وَإِنْ أَتَتْهُ اللَّكْزَةُ فِي حَقِّهِ ،
صَبَرَ عَلَيْهَا فِي الْوُصُولِ إِلَى حَقِّهِ ؛ وَإِنْ وَقَعَتْ بِهِ الصَّفْعَةُ فِي رَأْسِهِ ، صَبَرَ عَلَيْهَا لِمَوْقِعِ
أُضْرَاسِهِ ، وَإِنْ لَقِيَهِ لَاقٍ بِالْخَفَاءِ ، قَابَلَهُ بِالطُّفِّ وَالصَّفَاءِ ؛ إِذْ كَانَ قَدْ رَجَعَ الْأَبْوَابُ ،
وَخَالَطَ الْأَسْبَابَ ؛ وَجَلَسَ مع الْخُضُورِ ، وَأَمْتَرَجَ بِالْمُجْهُورِ ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يُلْقَاهُ الْمُتَكِرُ
لَأَمْرِهِ ، وَيَمْرُ بهِ الْمُسْتَفْرِبُ لَوَجْهِهِ ؛ فَإِنْ كَانَ حَرًّا حَيًّا أَمْسَكَ وَيَتَذَمَّرُ ، وَإِنْ كَانَ قَطًّا
غَلِيظًا مَهْمٌ وَتَكَلَّمَ ، وَتَجَنَّبَ عِنْدَ ذَلِكَ الْخَاشَتَةَ ، وَاسْتَعْمَلَ مع الْخَاطِبِ لَهُ الْمَلَابِتَةَ ؛
لِيُبْرِدَ غَيْظَهُ ، وَيَهْلَ حِدَّةً ؛ وَيَكْتَفِ غَرَبَهُ ، وَيَأْمَنَ شَفْغَهُ ؛ ثُمَّ إِذَا طَالَ الْمَدَى

تكررت الإلحاط عليه فُرف ، وأَنتِست النفوس به فأُلف ؛ وبأل من الحال التجميع عليها ، مثأل من حُثم وسأل القهاب إليها .

وقد بلغنا أن رجلاً من العصابة كان ذا فهم ودراية ، وعقل وحصافة ؛ فلق على وليمة ، لرجل ذي حال عظيمه ؛ فومقته فيها من القوم العيون ، وصيرت بهم فيه الطنون ؛ فقال له قائل منهم : من تكون أعزك الله ؟ فقال : أنا أول من دعى إلى هذا الحق . قيل له : وكيف ذاك ونحن لا نعرفك ؟ فقال : إذا رأيت صاحب الدار عرقني وعرقته نفسي . فحى به إليه ، فلما رآه بدأه بأن قال له : هل قلت لطباخك : أن يصنع طعامك زائماً على عدد الحاضرين ، ومقدار حاجة المدعوين ؛ قال : نعم ! قال : فائماً تلك الزيادة لى ولائى ، وبها يستظهر لى جبرى مجراى ، وهى رزق لنا أنزله الله على يدك وىك ، فقال له : كرامة ورجبا ، وأهلاً وقرباً ، والله لا جلست إلا مع علية الناس ووجوه الجلساء ، إذ أظرفت فى قولك ، وفتنت فى فلك . فليكن ذلك الرجل إماماً يقتدى به ، ويقتنى طريقه ، إن شاء الله .

وأمره بأن يكثر من تعاهد الجوارشات المتقدة للسدد ، الموقية للمعد ؛ المشبهة للطعام ، المسهلة لسبل الأنضام ؛ فإنها عماد أمره وقوامه ، وبها انتظامه وألئامه ؛ إذ كانت تبين على عمل الدعوتين ، وتنبض فى اليوم الواحد الأكتين ؛ وهو يتناولها كذا كالكتاب الذى يقط أقلامه ، والجندى الذى يصقل حسامه ؛ والصانع الذى يحدد آتته ، والماهر الذى يصلح أدواته ، إن شاء الله .

هذا عهد عليك بن أحمد إليك ، ومحبته لكّ عليك ، لم يالك فيه إرشاداً وتوفيقاً ، وتنبهياً وتيقفاً ، وبتاً وتبصيراً ، وحثاً وتذكيراً ؛ فكن بأوامره مؤتمراً ، وبزواجره مُزْجراً ، ولوسومه مُتّبياً ، وحفظها مُصْطلياً ؛ إن شاء الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

الخاتمة

في ذكرِ أمورٍ تتعلق بديوان الانشاء غير أمور الكتابة ،

وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في الكلام على البريد ، وفيه فصلان

الفصل الأول

في مقدمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها ، ويتعلق الفرض

من ذلك بثلاثة أمور

الأمر الأول

(معرفة معنى لفظ البريد لفظةً وأصطلاحاً)

أما معناه لفظةً ، فالمراد منه رسالة مطبوعة مُقدَّرةً بأعلى عشر ميلاً ، واحتج له
الجهنزي بقول مُزَيد يمدح عرابة الأوسى :

فَدَتَكَ عَرَابَ الْيَوْمِ أُمِّي وَعَلَّتِي ، وَتَأْتِي النَّاحِي إِلَيْكَ بِرِيدِهَا !

يُرِيدُ سَيْرَهَا فِي الْبَرِيدِ . وقد قدره الفقهاء وعلما المسالك والممالك بأنه أربعة
فراخ ، والفرخ ثلاثة أميال ، والميل ثلاثة آلاف ذراع بالمناخية ، وهو أربعة
وعشرون أصبعا ، كُلُّ أَصْبَحٍ سِتُّ شُعْرَاتٍ مُعْتَرِضَاتٍ ، ظهر إحداها لبطن الأخرى ،
والشعيرة سبع شعرات معترضات من قَنَبٍ بَقِيلٍ أَوْ رَقُونٍ .

قال الجوهري : ويقال أيضا على البريد : المرَبُّ ، يقال : حُلَّ فلانٌ على البريد .
قال : ويطلق أيضا على الرسول بريدٌ .

ثم اختلف فيه قليل : إنه عربيٌّ . وعلى هذا ذهب الخليل إلى أنه مشتق من
بردت الحديد إذا أرسلت ما يخرج منه . وقيل : من أبردهته إذا أرسلته . وقيل : من برد
إذا تبت ، لأنه يأتي بما تستقر عليه الأخبار ، يقال : « اليوم يوم باردٌ سمومه »
أي تأيئت .

وذهب آخرون إلى أنه فارسيٌّ معربٌ . قال أبو السعادات بن الأثير في كتابه
« النهاية في غريب الحديث » : وأصله بالفارسية بريد دم ، ومعناه مقصود
الذهب . وذلك أن ملوك الفرس كانت من عادتهم أنهم إذا أقاموا بطلا في البريد قصوا
ذنبه ، ليكون ذلك علامة لكونه من بقال البريد . وأشد الجوهري لأمرئ القيس :
على كل مقصود الذنابي معاويد . بريد السرى بالليل من خيل بربرا .

الأمر الثاني

(أول من وضع البريد وما آل إليه أمره إلى الآن)

أما في الجمليّة ، فقد ذكر في « التعريف » : أن البريد كان موجودا في عهد
الأكسرة من ملوك الفرس ، والقيصرة ملوك الروم . قال : ولكن لا أعرف هل
كان على البريد تحرير أو كانت مقاديرُه متفاوتة كما هو الآن ؟ . ثم قال : ولا أعلمه
إلا على التقدير المحذور ، إذ كانت حكومتهم تأبى إلا ذلك .

وأما في الإسلام فقد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه « الأوائل » : أن أول من
وضعه في الإسلام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما . قال في « التعريف » :

وذلك حين استقرت له الخلافة، ومات أمير المؤمنين على رضى الله عنه، وسلم له ابنه الحسن عليه السلام، وخلا من المتنازع، فوضع البريد لتسريع إليه أخبار بلاده من جميع أطرافها، فآمر بإحضار رجال من شعائير القيس وأهل أعمال الروم وعرفهم ما يريد، فوضوا له البريد. قال: وقيل: إنما قيل ذلك زمن عبد الملك ابن مروان حين خلا وجهه من الخوارج عليه: كتمرو بن سعيد الأشدق، وعبد الله بن الزبير، ومصعب بن الزبير، والختار بن أبي عبيد.

والذى ذكره العسكرى: أن عبد الملك إنما أحكمه. وذكر عنه أنه قال لأبن الغديعة: وليتك ماحضري أبى إلا أريته: المؤذن، فإنه داعى الله تعالى فلا حجاب عليه. وطارق الليل، فشر ما أتى به ولو وجد خيراً لنام. والبريد، فتى جاء من ليل أو نهار فلا تتجبه، فربما أفسد على القدم سنة حبسهم البريد ساعة. والطعام إذا أدرك، فافتح الباب وأرفع الجلب وبخل بين الناس وبين الدخول. ثم قال: ويذكر هذا الكلام عن زياد أيضا.

قال في "التعريف": وكان الوليد بن عبد الملك يحمل عليه الفسيفساء وهى الفص المذهب من القسطنطينية إلى دمشق، حتى صفع منه جيطان المسجد الجامع بها، ومساجد مكة والمدينة والقدس.

قال: ثم لم يزل البريد قائماً، والعمل عليه دائماً، حتى آن لبناء الدولة المروانية أن ينقض، ولحقها أن يتحكمت، فاطلع ما بين خراسان وال عراق، لانصراف الرجوع إلى الشيعة القائمة بالدولة العباسية. ودام الأمر على ذلك حتى انقضت أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، ومالك السفاح، ثم المنصور، ثم المهدي، والبريد لا يسد له سرج، ولا تلجم له ذابئة. ثم إن المهدي أغزى ابنه مروان الرشيد الروم، وأحب أن لا يزال على علم قريب من خبره، فرتب فيما بينه وبين

مُصْعَرُ أَيْبِهِ بَرْدًا كَانَتْ تَأْتِيهِ بِأَخْبَارِهِ، وَتُرِيهِ مُتَجَلِّدَاتِ أَيَّامِهِ . فَلَمَّا قَتَلَ الرَّشِيدُ قَطْعَ الْمُهْدِيِّ تِلْكَ الْبَرْدَ ، وَدَامَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا بَاقِي مَدَّتِهِ وَمُدَّةِ خِلَافَةِ مُوسَى الْهَلْدِيِّ بَعْدَهُ . فَلَمَّا كَانَتْ خِلَافَةُ هُرُوفِ الرَّشِيدِ، ذَكَرَ يَوْمًا حُسْنَ صَنِيعِ أَيْبِهِ فِي الْبَرْدِ عَلَى جَعْلِهَا بَيْنَهُمَا، فَقَالَ لَهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : لَوْ أَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِإِجْرَاءِ الْبَرِيدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ، كَانَ صَلَاحًا لِلْمَلِكِ . فَأَمَرَهُ بِهِ فَتَرَدَّدَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ، وَرَتَّبَهُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ أَيَّامَ بَنِي أُمَيَّةَ، وَجَمَلَ الْبَغَالُ فِي الْمَرَكَزِ، وَكَانَ لَا يُجَهِّزُ عَلَيْهِ إِلَّا الْخَلِيفَةُ أَوْ صَاحِبُ الْخَبَرِ، ثُمَّ اسْتَمَرَّ عَلَى هَذَا . فَلَمَّا دَخَلَ الْمَأمُونُ بِلَادَ الرُّومِ وَنَزَلَ عَلَى نَهْرِ الْبَرْقُوقِ وَكَانَ الزَّمَانُ حَرًّا، وَالْفَصْلُ صَيْفًا، قَعَدَ عَلَى النَّهْرِ وَدَلَّى رَجُلُهُ فِيهِ وَشَرِبَ مَاءَهُ، فَحَسَبَتْهُ وَأَسْتَبَدَّه وَأَسْتَطَابَهُ، وَقَالَ لِمَنْ كَانَ مَعَهُ : مَا أَطْيَبُ مَا شَرِبَ عَلَيْهِ هَذَا الْمَاءُ؟ فَقَالَ كُلُّ رَجُلٍ بِرَأْيِهِ . قَالَ هُوَ : أَطْيَبُ مَا شَرِبَ عَلَيْهِ هَذَا الْمَاءُ رُطْبُ الْإِزَازِ، فَقَالُوا لَهُ : يَبِيشُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يَأْتِيَ الْعِرَاقَ وَيَأْكُلَ مِنْ رُكْبَتِهَا الْإِزَازَ، فَمَا اسْتَمْتَمُوا كَلَامَهُمْ حَتَّى أَقْبَلَتْ بَغَالُ الْبَرِيدِ تَحْمِلُ الْطَلْعًا فِيهَا رُطْبُ الْإِزَازِ، فَأَتَى الْمَأمُونُ بِهَا فَأَكَلَ مِنْهَا وَأَمْعَنَ وَشَرِبَ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ . فَكَثُرَ تَجَسُّبُ الْحَاضِرِينَ مِنْهُ لِسَعَادَتِهِ . أَنَّهُ لَمْ يَقُمْ مِنْ مَقَامِهِ حَتَّى يَبْلُغَ أَمْنِيَّتَهُ، عَلَى مَا كَانَ يُكَلِّنُ مِنْ تَعَسُّرِهَا . فَلَمْ يَقُمْ الْمَأمُونُ مِنْ مَقَامِهِ حَتَّى تُمْحَى حَادَّةُ كَانَتْ فِيهَا مَنِيَّتُهُ .

ثُمَّ قَطَعَ بَنُو بُوَيْهِ الْبَرِيدَ حِينَ عَلَوْا عَلَى الْخِلَافَةِ وَعَلَبُوا عَلَيْهِا، لِيَخْفَى عَلَى الْخَلِيفَةِ مَا يَكُونُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ أحيانًا قَصِيدِمَ بَقْدَادَ، وَكَانَ الْخَلِيفَةُ لَا يَزَالُ يَأْسُدُ بِهِ عَلَى بَقْتَةِ .

ثُمَّ جَاءَتْ مَلُوكُ السَّلَاجِقَةِ عَلَى هَذَا، وَأَمَّ مَلُوكُ الْإِسْلَامِ أَخْيَالَ ذَاتَ بَيْنِهِمْ وَتَنَازَعُوهُمْ، فَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ إِلَّا الرُّسُلُ عَلَى الْخَيْلِ وَالْبِغَالِ، فِي كُلِّ أَرْضٍ بِحَسَبِهَا .

فلما جاءت الدولة الزنكية أقامت تلك التبابة ، وأعدت له التَّجَبَّ الْمُتَّحِبَةَ .
ودام ذلك مُدَّةَ زَمَانٍ ثُمَّ زَمَانٌ بَنَى أَيُّوبُ إِلَى آخِرَاضِ دَوْلَتِهِمْ . وَبِعَمَلِهَا عَلَى ذَلِكَ
أَوَّاهِلُ الدَّوْلَةِ التُّرْكِيَّةِ ، حَتَّى صَارَ الْمُلْكُ إِلَى الْمَلِكِ الظَّاهِرِ بِيْرُوسَ رَحِمَهُ اللهُ ، وَاجْتَمَعَ لَهُ
مُلْكٌ مِصْرَ وَالشَّامِ وَحَلَبَ إِلَى الْقُرَاتِ ، وَأَرَادَ تَجْهِيْزَ دَوْلَتِهِ إِلَى دِمَشْقَ فَمِنْ لَهَا نَائِبًا ،
وَوَزِيْرًا ، وَقَضِيًّا ، وَكَلِيًّا لِلْأَنْشَاءِ .

قال : وكان عَمَى الصَّاحِبُ شَرْفُ الدِّينِ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْوَهَّابِ رَحِمَهُ اللهُ هُوَ كَاتِبُ
الْإِنْشَاءِ ، فَلَمَّا مَثَلَ إِلَيْهِ لِيُودِعَهُ ، أَوْصَاهُ وَصَايَا كَثِيرَةً ، أَكَّدَهَا مُوَاصَلَتَهُ بِالْأَخْبَارِ
وَمَا يَجْتَدُّ مِنْ أَخْبَارِ النَّارِ وَالْقَرَنَجِ ، وَقَالَ لَهُ : إِنْ قَدَّرْتَ أَنْ لَا تُبَيِّضَ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَّا عَلَى
خَيْرٍ [وَلَا تُصَبِّحَنِي إِلَّا عَلَى خَيْرٍ ^(١)] فَاقْضُ ، فَمَرَضَ لَهُ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْبَرِيدُ فِي الزَّمَانِ
الْأَوَّلِ وَأَيَّامِ الْخُلَفَاءِ ، وَعَرَضَهُ عَلَيْهِ لِحَسَنِ مَوْفَعِهِ مِنْهُ وَأَمْرِهِ . قَالَ عَمَى : فَكُنْتُ أَنَا
الْمُقَرَّرُ لَهُ قُدَّامَهُ وَبَيْنَ يَدَيْهِ . ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ بَاقِيًا عَلَى ذَلِكَ إِلَى آيَاتِهِ . ثُمَّ قَالَ :
وَهُوَ جَنَاحُ الْإِسْلَامِ الَّذِي لَا يُحْصَى ، وَلَطَرُفُ قَادِيَتِهِ الَّتِي لَا تُحْصَى .

قلت : ولم يَزَلْ الْبَرِيدُ بِعَدَ ذَلِكَ مُسْتَقَرًّا بِالْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَالْمَمَالِكِ الشَّامِيَّةِ إِلَى أَنْ
غَشِيَ الْبِلَادَ الشَّامِيَّةَ بِمَرْتَلَنُكَ صَاحِبُ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ ، وَفَتَحَ دِمَشْقَ وَخَرَّبَهَا وَحَرَّقَهَا
فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَمَانِمِائَةٍ ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِحَصْرِ جَنَاحِ الْبَرِيدِ وَطُلَاثِهِ مِنْ سَائِرِ
الْمَمَالِكِ الشَّامِيَّةِ . ثُمَّ سَرَعَ هَذَا السُّمُّ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ فَالْحَقَهَا بِالْمَهْمَلِ ، وَرَمَاهَا
بِءَدِ الْحُلِيِّ بِالْعَطَلِ ، فَتَعَبَتْ تَعَالِيمُ الْبَرِيدِ مِنْ مِصْرَ وَالشَّامِ ، وَفَقَتْ آثَارَهُ ، وَصَارَ إِذَا
عَرَضَ أَمْرٌ مِنَ الْأُمُورِ السُّلْطَانِيَّةِ فِي بَعْضِ نَوَاحِي الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ أَوِ الْمَمَالِكِ الشَّامِيَّةِ ،
رَكِبَ الْبَرِيدِيُّ عَلَى قَرْمِيسٍ لَهُ ، يَسِيرُ بِهَا الْهَوْنِيًّا سَيْرَ الْمُسَافِرِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يُرِيدُهُ ،
ثُمَّ يَبْعُدُ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ ، فَيَحْصُلُ بِوَاسِطَةِ ذَلِكَ الْإِبْطَاءُ فِي التَّحَابِ وَالْإِيَّابِ .

الأمير الثالث

(يَلْتُ مَعَالِمُ الْبَرِيدِ)

إِظْمَأْ أَنَّهُ كَانَ فِيَا تَهْدَمُ فِي زَمَنِ الْخُلَفَاءِ لِلْبَرِيدِ تَخَصُّصٌ مَخْصُوصٌ يَتَوَلَّى أَمْرَهُ بِتَقْيِيدِ مَا يَصْدُرُ وَيَتَلَفَّى مَا يَرِدُ، يُسَمِّعُهُ بِ«صَاحِبِ الْبَرِيدِ» . وَعَمِنَ تَعَرُّضٍ إِلَى ذِكْرِ ذَلِكَ أَبُو جَعْفَرٍ النَّعَّاسُ فِي كِتَابِهِ «مَنْعَةُ الْكُتُبِ» فِي الْكَلَامِ عَلَى أَرْبَابِ الْوُظَائِفِ ، وَاشْتِقَاقِ أَسْمَائِهِمْ . وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ الْجَوْهَرِيُّ فِي صَحَاحِهِ أَيْضًا فَقَالَ : وَيُقَالُ أَرْدَ صَاحِبُ الْبَرِيدِ إِلَى الْأَمِيرِ فَهُوَ مُبْرَدٌ بِمَعْنَى أُرْسِلَ إِلَيْهِ الْبَرِيدُ .

ثُمَّ قَدْ تَهَدَّمُ فِي مُقَدِّمَةِ الْكِتَابِ فِي الْكَلَامِ عَلَى صَاحِبِ دِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ وَمَالِهِ التَّعَلُّقُ عَلَيْهِ - أَنَّ صَاحِبَ دِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ بِالْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ هُوَ الْمُتَوَلَّى لِأَمْرِ الْبَرِيدِ وَتَقْيِيدُ أُمُورِهِ فِي الْإِرَادِ وَالْإِصْدَارِ . وَكَانَ لِلْبَرِيدِ الْوُحُوفُ مِنْ قِصَّةِ مُخَلَّدَةِ دِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ تَحْتَ أَمْرِ كَاتِبِ السَّرِّ بِالْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ، مَقْشُوفٌ عَلَى وَجْهِهِ الْوُحُوفُ تَقْشَأُ مُزْدَوِجًا مَا صُوِّرَتْ : «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» أَرْسَلَهُ بِالْمَدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ . ضُرِبَ بِالْقَاهِرَةِ الْمَحْرُوسَةِ . وَعَلَى الْوَجْهِ الْآخَرِ مَا صُوِّرَتْ : «عِزُّ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْفَلَائِي : فَلَانِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ» ، سُلْطَانِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، فَلَانِ ، أَبْنِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ الْمَلِكِ الْفَلَائِي فَلَانِ ، خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ . . وَفِي ذَلِكَ الْوُحُوفِ تَقَبُّ مَعْلُوقٌ بِهِ شُرَابَةٌ مِنْ حَرِيرٍ أَصْفَرُ ذَاتَ بَنْدَيْنِ ، يَحْمِلُهَا الْبَرِيدِيُّ فِي عُنُقِهِ ، بِإِدْخَالِهِ رَأْسَهُ بَيْنَ الْبَنْدَيْنِ ، وَيَصِيرُ الْوُحُوفُ أَمَامَهُ تَحْتَ ثِيَابِهِ ، وَالثَّرَابَةُ خَلْفَهُ مِنْ فَوْقِ ثِيَابِهِ . فَلَمَّا نَزَجَ بَرِيدِيٌّ إِلَى جِهَةِ مِنَ الْجِهَاتِ ، أُعْطِيَ لَوْحًا مِنْ تِلْكَ الْأَلْوَابِ ، يُسْقِئُهُ فِي عُنُقِهِ ، عَلَى مَا تَهَدَّمُ ذِكْرُهُ ، وَيَذْهَبُ إِلَى جِهَةِ قَصْدِهِ ، فَكُلُّ مَنْ رَأَى تِلْكَ الثَّرَابَةَ خَلَّفَ ظَهْرَهُ عَلِمَ أَنَّهُ بَرِيدِيٌّ . وَبِوَسَاطَةِ

فذلك تُكَيِّنُ له أربابُ المَرَآكِ بِتَسْلِيمِ خَيْلِ الْبَرِيدِ . ولا يزالُ كذلكَ حَتَّى يَلْقَبَ
وَصُودُ ، فَيُعِيدُ ذلكَ اللُّوحَ إِلَى دِيوانِ الْإِنشاءِ .

وكذلكَ الْحُكْمُ فِي دِواوِينِ الْإِنشاءِ بِمَشَقِّ وَطَبَ وَغِيْرَها مِنْ المَمالِكِ الشَّامِيَةِ ،
لا يَخْتَلِفُ الْحُكْمُ فِي ذلكَ إِلَّا فِي الْكُتَّابَةِ بِحَلِّ ضَرْبِ اللُّوحِ . فإنْ كانَ بِمَشَقِّ
كُتِبَ : «ضَرْبَ الشَّامِ» . وإنْ كانَ بِطَبِّ كُتِبَ : «ضَرْبَ طَبِّ المَحْرُوسَةِ»
وكذلكَ باقِي المَمالِكِ .

الفصل الثاني

من الباب الأول من الخاتمة في ذكر مَرَآكِ الْبَرِيدِ

وهي الْأَمَارِكُ الَّتِي تَحْتَفُ فِيها خَيْلُ الْبَرِيدِ لِتَغْيِرَ خَيْلَ الْبَرِيدِيَّةِ فِيها قَرَسًا بَعْدَ
قَرَسٍ . قالَ في «التعريف» : وليستْ على الْمَقْدَارِ الْمُقَدَّرِ فِي الْبَرِيدِ الْمُحَرَّرِ ، بل هي
مُتَقَاوِمَةُ الْأَبْصَادِ ، إِذْ أُلْجِئَتْ الضَّرُورَةُ إِلَى ذلكَ : تَارَةً لِبُعْدِ مَاءِ ، وَتَارَةً لِلأُنْسِ بَقَرِيَّةٍ ،
حَتَّى إِنَّكَ لَتَرَى فِي [ههنا] الْمَرَآكِ الْبَرِيدِ الْوَاحِدَ بِقَدْرِ بَرِيدَيْنِ . ولو كانتْ على
التَّحْريْرِ [الَّذِي عَلَيْهِ الْأَعْمَالُ] لَمَا كانَ تَقَاوُؤٌ . وقد ذَكَرْنا مِنْها الْمُقَرَّرَ الشَّاهِدَ بِنِ
فَضَّلَ اللهُ رَحِمَهُ اللهُ فِي «التعريف» مَا أُرِيْنَا فِي ذلكَ عَلَى الْمَقْصُودِ وَزَادَ ، وَهُوَ بِذلكَ
أَدْرَأُ وَأَذْرُبُ . وَهَنا أَذْكَرُ مَا ذَكَرَهُ ، فَوَجَّهْنا لِمَا يَحْتَاجُ مِنْهُ إِلَى التَّوَضُّيْحِ ، مع
الزِيَادَةِ عَلَيْهِ وَتَحْريْبِ التَّرتِيبِ .

وَيَشْتَمِلُ عَلَى سِتَّةِ مَقاصِدَ :

المقصود الأول

(في مَرْكَرِ قَلْعَةِ الْجَبَلِ المحروسة بالديار المصرية التي هي قَاعَةُ الْمَلِكِ، وما يتفرع عنهم من المَرَآكِرِ، وما تنبئ إلى مَرْكَرِ كُلِّ جِهَةٍ)

اعلم أن الذي يتفرع عن مَرْكَرِ القلعة وينشعب منه أربع جهات، وهي: جهة قُورَس من الوجه القبطي وما يتصل بذلك من أسوان وما يليها من بلاد النوبة، وعبداب وما يليها من سواكن. وجهة الإسكندرية من الوجه البحري. وجهة دمياط من الوجه البحري أيضا، وما يتفرع عنها من جهة غرة من البلاد الشامية.

فاما مَرْكَرِ قُورَس وما يليها: فن مَرْكَرِ قَلْعَةِ الْجَبَلِ المحروسة، ومنها إلى مَدِينَةِ الْحَبَّة. وهي قاعدة الأعمال الجيزة، وقد تقدم الكلام عليها في الكلام على بلاد المملكة في المقالة الثانية. ثم منها إلى زَاوِيَةِ أُمِّ حُسَيْن، وهي قُبْرَةُ من عمل الجيزة. قال في "التعريف": والمَرْكَرِ الآنُ بِمَدِينَةِ الْقَائِدِ وهي على القُرْبِ من زاوية أُمِّ حُسَيْنِ المذكورة، ثم منها إلى وَا وهي بَلَدٌ من عمل الْبَهْتِيِّ؛ ثم منها إلى دَعْرُوط وهي بَلَدٌ من عمل الْبَهْتِيِّ أيضا. ثم منها إلى أَفْلُوسْنَا، وهي بَلَدٌ من عمل الْأَشْمُونِيِّينَ. ثم منها إلى مَدِينَةِ بَنِي خَصِيبٍ، وهي مَدِينَةُ من عمل الْأَشْمُونِيِّينَ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية. ثم منها إلى مَدِينَةِ الْأَشْمُونِيِّينَ، وهي قاعدة بِلَادِيهَا، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية. ثم منها إلى ذِرْوَةِ مَرْبَاتٍ وهي بَلَدٌ من عمل الْأَشْمُونِيِّينَ على قَمْعِ الْخَلِيجِ الْيُوسُفِيِّ: الْوَاصِلِ مِنَ النَّيْلِ إِلَى الْقَيُْومِ، وتعرف بِذِرْوَةِ الشَّرِيفِ، إضافة إلى الشَّرِيفِ نَاصِرِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ تَغْلِبِ الَّذِي كَانَ عَصَى بِهَا فِي زَمَنِ الظَّاهِرِيِّينَ، وَتَمَتَّتْ نَفْسُهُ إِلَى الْمَلِكِ حَتَّى كَلَدَهُ الظَّاهِرُ وَقَبِضَ عَلَيْهِ وَشَنَنَهُ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ، وَبِهَا

دِيَارُهُ وَقُصُورُهُ وَلِبَاسُ الْعَرَبِ أَتَشَاءُ بِهَا إِلَى الْآنَ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ مَغْلُوطَ ، وَهِيَ قَاعَةُ الْأَعْمَالِ الْمُتَغْلُوطِيَّةُ الَّتِي هِيَ أَجَلٌ خَاصٌّ لِلْإِمْلَاقِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ أُسْيُوطَ ، وَهِيَ قَاعَةُ الْأَعْمَالِ الْأُسْيُوطِيَّةُ ، وَمَقَرُّ نَائِبِ الْوَيْلِيِّ الْقَبِيلِ الْآنَ ، وَقَدْ تَهْتَمُّ ذِكْرُهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى طَلَا ، وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ عَمَلِ أُسْيُوطَ الْمُقَدَّمَةِ الذَّكَرُ عَلَى صَفَةِ النَّيْلِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْمَرَافَةِ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ إِنْجِيمَ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَرُبَّمَا سُمِّيَتْ الْمَرَافَةُ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بَلْسُورَةَ وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ إِنْجِيمَ أَيْضًا . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَرُبَّمَا قِيلَ بِزُرُورَةَ بِإِبْدَالِ السَّيْنِ زَايَا . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى جَرْجَا ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ الْعَمَلِ الْمَذْكُورِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْبَلْبَنَةِ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ قُوصَ ، وَيُقَالُ فِيهَا الْبَلْبَنَةُ بِإِبْدَالِ الْمَاءِ أَفَّا . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى هَوَ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ قُوصَ أَيْضًا ، قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَلِهَا الْكُؤُمُ الْأَحْمَرُ ، وَهِيَ مِنْ خَاصِّ السُّلْطَانِ ، وَعِنْدَهُمَا يَنْتَظِعُ الرَّفُّ فِي الْبَرِّ الْفَرَسِ ، وَيَكُونُ الرِّمْلُ الْمُتَّصِلُ بِتَنْدَرِي وَيُسَمَّى حَانَ تَنْدَرِي ، وَقَدْ تَهْتَمُّ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مُسَوِّقًا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ . وَمِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ قُوصَ قَاعَةُ الْأَعْمَالِ الْقُوصِيَّةِ ، وَقَدْ تَهْتَمُّ الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ .

ثُمَّ مِنْ قُوصَ تَنْتَظِعُ مَرَكَزُ الْبَرِيدِ ، وَيَتَشَعَّبُ الطَّرِيقُ إِلَى جِهَةِ أَسْوَانَ وَبِلَادِ الثُّوبَةِ ، وَجِهَةِ عَيْدَابَ وَسَوَاكِنَ .

فَمَنْ أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى جِهَةِ أَسْوَانَ رَكِبَ الْمُجَنَّ مِنْ قُوصَ إِلَى أَسْوَانَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ الثُّوبَةِ .

وَمَنْ أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى عَيْدَابَ سَارَ مِنْ قُوصَ إِلَى كِيَانٍ فَقَطَّ عَلَى الْقُرْبِ مِنْ قُوصَ .

قُلْتُ : ثُمَّ يَسِيرُ فِي قَفَارٍ وَجِبَالٍ ، مِنْ كِيَانٍ فَقَطَّ إِلَى مَاءٍ يُسَمَّى لِبَطَةً عَلَى مَرَحَلَةٍ مِنَ الْكِيَانِ ، بِهَ عَيْنٌ تَنْبَعُ وَلَيْسَتْ جَارِيَةً ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَاءٍ يُسَمَّى الْبَرِيحِ عَلَى الْقُرْبِ

من مَقْدَن الزُّمُرْد ، به عَيْنٌ صَغِيرَةٌ يُسْتَقَى مِنْهَا مِنَ الْمَاءِ مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَهِيَ لَا تَرِيدُ وَلَا تَنْقُصُ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى حُمَيْقَةَ حَيْثُ قَبْرِ سَيِّدِي أَبِي الْحَسَنِ الشَّاذِلِيِّ ، وَهُنَاكَ عَيْنٌ مَاءٌ يُسْتَقَى مِنْهَا . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى عَيْنَابَ ، وَهِيَ قَرْيَةٌ صَغِيرَةٌ عَلَى ضَفَةِ بَحْرِ الْعُلْمُومِ فِي الشِّمَالِ إِلَى الْقُرْبِ ، وَعَلَى الْقُرْبِ مِنْهَا عَيْنٌ يُسْتَقَى مِنْهَا .

وَيَقْدِرُ جَمِيعُ الْمَسَافَةِ مِنَ الْيَكِيَانِ إِلَى عَيْنَابَ نَحْوَ عَشْرَةِ أَيَّامٍ بِسَيْرِ الْأَهْقَالِ . عَلَى أَنَّهُ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" قَدْ ذَكَرَ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى عَيْنَابَ مِنْ شُعْبَةٍ عَلَى الْقُرْبِ مِنْ أُسْوَانَ ، ثُمَّ يَسِيرُ مِنْهَا فِي بِلَادِ حَرَبٍ يُسَمُّونَ بَنِي حَاصِرٍ إِلَى سَوَاكِزَ ، وَهِيَ قَرْيَةٌ حَاضِرَةُ الْبَحْرِ صَاحِبُهَا مِنَ الْعَرَبِ ، وَكُتِبَ السُّلْطَانُ تَتَمَّى إِلَيْهِ ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْمَكَاتِبَاتِ .



وَأَمَّا الْإِسْكََنْدَرِيَّةُ فَالْمَرَاكِرُ الْمَوْصَلَةُ بِهَا فِي طَرَفَيْنِ :

الطَّرِيقُ الْأَوَّلَى : الْآخِذَةُ عَلَى الْجَبَلِ الْقَرْبِيِّ وَيُسَمَّى طَرِيقَ الْحَاجِرِ . وَالْمَسِيرُ فِيهَا مِنْ مَرْكَرِ الْقَلْعَةِ الْمَقْدَمِ ذِكْرُهُ إِلَى مَدِينَةِ الْجَزِيرَةِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى جَزِيرَةِ الْقِطِّ ، وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ آخِرِ عَمَلِ الْجَزِيرَةِ مِنَ الْجِهَةِ الْبَحْرِيَّةِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى وَرْدَانَ ، وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ عَمَلِ الْبُحَيْرَةِ . [ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الطَّرَائِفِ ^(١)] . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى طَبْلَاسَ وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ الْبُحَيْرَةِ أَيْضًا وَتَعْرَفُ بِزَاوِيَةِ مُبَارَك . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَأَهْلُ ذَلِكَ الْبَلَادِ يَقُولُونَ : أَنْبَارَكَ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ دَمَنْهَوْرٍ وَتَعْرَفُ بِدَمَنْهَوْرِ الْوَحْشِ ، وَهِيَ قَاعَةٌ أَعْمَالِ الْبُحَيْرَةِ ، وَهِيَ مَقَامُ نَائِبِ السُّلْطَنَةِ بِالْوَجْهِ الْبَحْرِيِّ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى لُوفِينَ وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ عَمَلِ الْبُحَيْرَةِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ .

الطَّرِيقُ الثَّانِيَةُ : الْآخِذَةُ فِي وَسْطِ الْعُمَرَانَ ، وَتَعْرَفُ بِالْوُسْطَى .

وهي من مَرْكُ القلعة إلى مدينة قَلْيُوب قاعدة الأعمال القلُوبية ، وقد هتَمَّ
الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى مدينة مَنُوف العُلُيا ، وهي قاعدةُ الأعمال
المَنُوفية ، وقد هتَمَّ الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى مدينة الحِلَّة المعروفة
بالحِلَّة الخُويّ ، وهي قاعدة الأعمال القُريّة ، وقد هتَمَّ الكلام عليها في المقالة
الثانية . وقد وُجِدَ في "التحريف" فيها حِلَّة المَرْحُوم بلدةٌ من بلاد القُريّة
غيرها . ثم منها إلى النُحَيْريّة ، وهي مدينةٌ من عَمَل القُريّة . ثم منها إلى
الإسكَنْدِيّة .



وأما الطريق إلى دِيْبَاطَ وغَزَّة ، فمن مَرْكُ القلعة إلى سِرْيَاقُوس ، وهي بلدةٌ
من ضَوَاهِي القَاهِرَة ، وليس المَرْكُ في قَيسِ البَلَد ، بل بالقُريّة المُسْتَجِدَّة بِجَوَارِ
الغَزَاةِ النَاصِرِيّة الَّتِي أَتَاهَا السُلْطَانُ الْمَلِكُ النَاصِرُ مُحَمَّدُ بْنُ قَلَاوُونَ عَلَى الْقُرْبِ مِنْ
سِرْيَاقُوس قَالَ فِي "التحريف" : وَكَانَ قَبْلَ هَذَا بِالشَّيْءِ ، وَكَانَ طَوِيلَ الْمَدَى
فِي مَكَانٍ مُتَطَعٍ ، وَكَانَتِ الْبَرِيدِيَّةُ لَا تَزَالُ تَنْشَكُّ مِنْهُ ، فَصَلَحَ بِتَقْلِهِ ، وَحَصَلَ بِهِ الرِّفْقُ
لَأُمُورٍ لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهَا إِلَّا قُرْبُهُ مِنَ الْأَسْوَاقِ الْمَجَاوِرَةِ لِحَاجَاتِهِ النَاصِرِيَّة وَمَا يَوْجَدُ فِيهَا ،
وَأَنَّهُ بِمَا حَوْلَهَا [لِكُنْفٍ] . ثم منها إلى بَدْرِ الْبَيْضَاءِ ، وهي مَرْكُ بَرِيدِ مُتَقَرِّدٍ لَيْسَ
حَوْلَهُ مَا كُنُونَ . ثم منها إلى مدينة بَلْبَاسِ قاعدة الأعمال الشَّرقِيّة ، وقد هتَمَّ
الكلام عليها في المقالة الثانية . قَالَ فِي "التحريف" : وهي آخِرُ الْمَرَكَازِ السُلْطَانِيَّةِ ،
وهي الَّتِي تُسَمَّى خَيْلَهَا مِنَ الْأَمْوَالِ السُلْطَانِيَّةِ وَيُقَامُ لَهَا السُّوَأْسُ وَتَصْرَفُ لَهَا
الْمَعْلُوفَاتُ . ثم منها إلى السَّعِيدِيَّة . ثم من السَّعِيدِيَّةِ إِلَى أَهْمُومِ الزَّمَانِ قَاعِدَةِ بِلَادِ
الدَّقِيقَةِ وَالْمُرْتَحِيَّةِ ، وَقَدْ هتَمَّ ذِكْرُهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ . وَمِنْهَا إِلَى دِيْبَاطَ وَمَنْ أَرَادَ
غَزَّةً ، وَقَدْ هتَمَّ أَنَّ مَدِينَةَ بَلْبَاسِ هِيَ آخِرُ الْمَرَكَازِ السُلْطَانِيَّةِ . ثم السَّعِيدِيَّةُ وَمَا بَعْدَهَا

إلى انطروية تُعرف بالشَّهارة، خَيْلُ الْبَرِيدِ بِهَا مَقْزُورَةٌ عَلَى عُزْرِيَانِ ذَوِي إِقْطَاعَاتٍ، عَلَيْهِمْ خِيُولٌ مُوَلَّغَةٌ يَحْضُرُ بِهَا أَرْبَابُهَا عِنْدَ هَلَالِ كُلِّ شَهْرٍ إِلَى الْمَرَارِ، وَتَسْتَعِينُهَا فِي آخِرِ الشَّهْرِ وَيَأْتِيْ غَيْرُهَا، وَمِنْ هُنَاكَ تُمَيِّتُ الشَّهَارَةُ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَعَلَيْهِمْ وَلَّاءٌ مِنْ قِبَلِ السُّلْطَانِ يَسْتَعْرِضُ فِي رَأْسِ كُلِّ شَهْرٍ خَيْلَ أَصْحَابِ التَّوْبَةِ وَيُدَوِّعُهَا بِالْبُلَاغِ السُّلْطَانِيِّ . قَالَ : وَمَا دَامَتْ تَسْتَجِدُّ فِيهِ قَائِمَةٌ ، وَمَتَى أَكْتَرَتْ أَهْلُ نَوْبَةٍ مِنْ قَبْلِهِمْ فَسَلَّتِ الْمَرَارُ ، لِأَنَّ الشَّهْرَ لَا يَبْلُغُ فِي خَيْلِ الْمُسْلِيخِ قُوَّةً ، لَا سِيَّامًا وَالْعَرَبُ قَلِيلَةُ الْعَلَفِ .

وَأَوَّلُ هَذِهِ الْمَرَارِ السَّعِيدِيَّةُ الْمَقْدُمُ ذِكْرُهَا ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْخَطَّارَةِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْقَبَةِ الْوَالِي . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَقَدْ اسْتَجِدَّ بِهِ أُبَيَّةٌ وَأَسْوَأُ وَبَسَاتِينُ حَتَّى صَارَ كَأَنَّهُ قَرْيَةٌ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الصَّالِحِيَّةِ ، وَهِيَ قَرْيَةٌ لَطِيفَةٌ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَهِيَ آخِرُ مَعْمُورِ الدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بَرْعَزَى ، وَإِلَى هَذَا الْمَرْكَزِ يَجْلِبُ الْمَاءُ مِنْ بَرْعَزَاهُ . وَمِنْهَا إِلَى الْقُصَيْرِ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَقَدْ كَانَ كَرِيمُ الدِّينِ وَكَيْلُ الْخِلَاصِ بَنَى بِهَا خَانًا وَمَسْجِدًا وَمِثْدَنَةً ، وَعَمِلَ سَاقِيَّةً ، فَتَهْدَمُ ذَلِكَ كُلُّهُ ، وَلَمْ يَوْجَدْ لَهُ مِنْ يَحْدُدُهُ ، وَيَقِيَّتُ الْمِثْدَنَةَ خَاصَّةً ، وَرَتَّبَ بِهَا زَيْتٌ لِلتَّنَوُّرِ . قَالَ : وَهَذَا الْقُصَيْرُ يَقَارِبُ الْمَرْكَزَ الْقَدِيمَ الْمَعْرُوفَ بِالْمَاقُولَةِ الْمُقَارِبَ لِقَنْطَرَةِ الْجَسْرِ الْجَارِي تَحْتَهَا قَوَاضِلُ مَاءِ النَّيْلِ أَوَّانَ زِيَادَتِهِ إِذَا نَجَحَ إِلَى الزَّيْلِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى حَبُورَةَ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ وَلَا بَنَاءٌ ، وَإِنَّمَا هِيَ مَوْقِفٌ يَقِفُ بِهِ خَيْلُ الْعَرَبِ الشَّهَارَةَ ، وَيُجْلِبُ الْمَاءَ إِلَيْهَا مِنْ بَرْعَزَاهَا . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْغُرَابِيِّ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى قَطِيَا ، وَهِيَ قَرْيَةٌ صَغِيرَةٌ بِهَا تَوَخُّذُ الْمُرتَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ مِنَ التُّجَّارِ الْوَارِدِينَ إِلَى مِصْرَ وَالصَّادِرِينَ عَنْهَا ،

وهناك رسول بالطريق يُنم في الليل ويحفظ ما حوله بالمرئان ، حتى لا يمتز أحد
 ليلاً . فيكون من القاهرة إلى قطيا أنسا عشر يريدا . ثم منها إلى صبيحة نخلة
 متن . قال في " التعريف " : ومن الناس من يقتصر على إحدى هذه الكلمات
 في تسميتها ، ثم منها إلى المطيب ، ثم منها إلى السوداء . قال في " التعريف " :
 وقد حوت عن مكانها فصار المسافر لا يحتاج إلى تفرج إليها . ثم منها إلى الورداء ،
 قال في " التعريف " : وهي قرية صغيرة بها مسجد على قاعة الطريق ، بناء
 الملك الأشرف « خليل » بن المنصور قلاوون تملكه الله برحمته ، حصل به الرثق
 بميت السفارة به . قال : وقد كان نقر الدين كاتب المال كبقا إلى جانيه خاناً
 فيبع بعده . ثم منها إلى إثر القاضي . قال في " التعريف " : والمدى بينهما يبد
 جدا يمل السالك . ومنها إلى العريش . قال في " التعريف " : وقد أحسن كريم
 الدين رحمه الله بعمل ساقية سبيل به وبناء خان حصين فيه بأوى إليه من الماء
 المساء ، وبناء فيه أمنا من طوارق القرعج . ثم منها إلى الخروبة ، وبها ساقية
 وخان ، بناها نقر الدين كاتب المال ك ، حصل به من الرثق والأمن ما بالعريش .
 قال في " التعريف " : وهذا آخر مراكر العرب الشهارة . ثم مما يليها خيل السلطان
 ذوات الإصطبلات والخدم تُشترى بمال السلطان وتُلف منه ، وأولى الزعقة ،
 ثم منها إلى رغب ، ثم منها إلى السلقة . قال في " التعريف " : وكان قبل هذا المركز
 يتر طوطاي حيث الجميز ويسمى سطر . قال : وكانت في قلبه إلى السلقة
 المصلحة . ثم منها إلى الداروم ، ثم منها إلى غزة . يكون من قطيا إلى غزة
 أحد عشر مرسرا .

المقصود الثاني

(في مَرَاكِزِ غَزَّة وما يتفرع عنه من البلاد الشامية)

والذي يتفرع عنه مَرَاكِزُ ثَلَاثِ جِهَاتٍ، وهي : الكَرْكُ، ودمشقُ، وصفدُ .

فأما الطريق إلى الكَرْك : فن غَزَّة إلى ملاس وهو مَرَكُزُ بَرِيدٍ ، ثم منها إلى بلد الخليل عليه السلام ، ثم منها إلى جنبا ، ثم منها إلى الصَّافِيَّة ، ثم منها إلى الكَرْك .

وأما مَرَاكِزُ دِمَشق : فن غَزَّة إلى الحِمْيَن ، وهو مَرَكُزُ بَرِيدٍ، ومنها إلى بَيْت دَارِس، والناس يقولون : تدارس ، وبها خانُ بَنَاهِ نَاصِرُ الدِّينِ نَزْدَارِ شَكْر . قال في "التعريف" : وكان قديمًا بياسور، وكان قريبَ المدى فُنُقِلَ وَكَانَتِ الْمَصْلُحَةُ فِي قَلْبِهِ ، ثم منها إلى قطرى . قال في "التعريف" : وهو مَرَكُزُ مُسْتَجِدٍّ كَانَ الْمُشِيرُ بِهِ طَاجِرُ الدُّوَادَارِ النَّاصِرِيَّ ، وبه بَرْسَبِيلٌ وَأَتَارُ لَهُ . قال : وقد حصل به رِفْقٌ عَظِيمٌ لِبَعْدِ مَا بَيْنَ [لُدٍّ وَبَيْتِ دَارِس] ^(١) أَوْ يَاسُورَ ، ثم منها إلى لُدٍّ ، ثم منها إلى المَوْجَاء . قال في "التعريف" : وهي زَوْرَاءُ عَنِ الطَّرِيقِ ، وَلَوْ قُلْتُ مِنْهُ لَكَانَ أَرْفَقَ ، ثم منها إلى الطَّيْرَةِ . قال في "التعريف" : وبها خانٌ كَانَ قَدْ شَرَعَ فِي بِنَائِهِ نَاصِرُ الدِّينِ دُوَادَارِ شَكْرَ ثُمَّ كُلُّ بَيْدٍ غَيْرِهِ . ثم منها إلى قَاقُون ، ثم منها إلى حَقْمَةِ (ثم منها إلى جِينِينَ) ^(١) . قال في "التعريف" : وهي على صَفَدٍ ، مَعْنَى التَّيَامُ بِهِ ، وبه خانٌ لَطَاجِرُ الدُّوَادَارِ ، حَسَنُ الْبِنَاءِ جَلِيلُ التَّقَع ، ليس على الطريقِ أَحْصَى مِنْهُ وَلَا أَحْصَنُ ، وَلَا أَزِيدُ نَقْمًا مِنْهُ وَلَا أَزِيدُ .

(١) يابض بأصله والتصحيح من التعريف (ص ١٩١) .

ومن أراد دِمَشْقَ وما يليها سَارَ مِنْ جَبِينٍ إِلَى قُدْسٍ . قال في "التعريف" :
ومنها ينزل على مَن جَالُوت ، وهو مَرْكَزٌ مُسْتَجِدٌ حصل به أعظم الرِّقِّ والرَّاحة من
العَقَبَةِ الَّتِي كَانَ [تُسَلِّكُ] ^(١) عليها بين جَبِينٍ وَيَسَانَ مع طُولِ المَدَى . ثم منها إلى
يَسَانَ ، ثم منها إلى المَجَامِعِ . قال في "التعريف" : وهو مَرْكَزٌ مُسْتَجِدٌ عِنْدَ جَبْرِ
سَامَةِ . كُنْتُ أَنَا المَشِيرَ بِهِ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِينَ ، وَحَصَلْ بِهِ الرِّقُّ لِعَدِّ
مَا كَانَ بَيْنَ يَسَانَ وَزَحْرٍ . قال : وقد كَانَ الطَّرِيقُ قَدِيمًا مِنْ يَسَانَ عَلَى طَبِيعَةِ اسْمٍ ،
ثُمَّ إِلَى أَرْبَدَ ، وَكَانَتْ غَايَةُ فِي المَشَقَّةِ ، إِذْ كَانَ المَسَافِرُ مَا بَيْنَ يَسَانَ وَطَبِيعَةِ اسْمٍ يَحْتَاجُ
إِلَى خَوْضِ الشَّرِيعَةِ ، وَبِهَا مَعْقِبَةُ القَارِيسِ دُونَ القَرَسِ ، وَإِنَّمَا يَبْعَثُ فِيهَا القَرَسُ
سَبَاحَةً ، وَكَانَ فِي هَذَا مِنَ المَشَقَّةِ مَا لَا يُوصَفُ ، لَا سِيَّمَا أَيَّامَ زِيَادَةِ الشَّرِيعَةِ وَكَلْبِ
الْبَرْدِ : تَقْلُوعُ المَاءِ وَمُعَانَاةُ العِقَابِ الَّتِي لَا يَسْقُهَا جَنَاحُ العُقَابِ . وَلَكِنْ الأَمِيرُ
الطَّبِيعَا كَافِلُ الشَّامِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَتَلَ هَذِهِ الطَّرِيقَ وَجَعَلَهَا عَلَى القَصِيرِ حَيْثُ هِيَ الْيَوْمَ ،
وَقَتَلَ المَرْكَزَ مِنَ الطَّبِيعَةِ إِلَى زَحْرَيْنِ غَيْرَ قِ بَعْضِ البَرِيدَةِ الْجَلِيلَيْنِ بِالشَّرِيعَةِ . ثُمَّ مِنْ
المَجَامِعِ المَذْكُورَةِ إِلَى زَحْرٍ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى أَرْبَدَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى طَفَسٍ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى المَجَامِعِ .
قال في "التعريف" : وَكَانَ قَدِيمًا فِي المَكَانِ المَسْمُومِ بِرَأْسِ المَاءِ ، فَلَمَّا مَلَكَه الأَمِيرُ
الكَبِيرُ تَشَكَّرَ كَافِلُ الشَّامِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَتَلَ المَرْكَزَ مِنْهُ إِلَى هَذَا المَجَامِعِ ، فَتَقَرَّبَ بِهِ المَدَى
فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ طَفَسٍ ، وَكَانَ بَعِيدًا فَمَا جَاءَ إِلَّا حَسَنًا . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الصَّغْمَيْنِ ، ثُمَّ مِنْهَا
إِلَى عَبَّاسٍ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الكُشُورَةِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى دِمَشْقِ المَهْرُوسَةِ .

وَأَمَّا الطَّرِيقُ المَوْصَلَةُ إِلَى صَفَدٍ : فَهِيَ جَبِينِ المَقْدَمِ وَكَرَّهَا إِلَى يَبِينِ ، ثُمَّ مِنْهَا
إِلَى [حَطِينِ] ^(٢) وَبِهَا قَبْرُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى صَفَدٍ .

(١) ياض بالأمل والتصحيح من التعريف (ص ١٩٢) .

المقصود الثالث

(في ذكر مركز دِمَشْق وما يتفرع عنه من المراكز الموصلة
إلى حمص وحماة وحلب، وإلى الرحبة، وإلى طرابلس، وإلى جعبر، ومصياف
ويروت وصيدا وبعلبك والكرك وأذريعات)

فأما طريق حلب : فقال في " التعريف " : من دِمَشْق إلى القَصِير . والذي
رأيناه في بعض المسافرين أنه من دِمَشْق إلى خانٍ لاجين ، ثم إلى القَصِير . قال
في " التعريف " : ثم من القَصِير إلى القطيفة ، ثم منها إلى القسطل . ورأيتُ
في الدستور المذكور أن من القَصِير إلى خان الوالي ، ثم إلى خان العروس ، ثم إلى
القسطل ، ثم منها إلى قارا ، ثم منها إلى بريح العَطَش ويقال فيه البرج أيضا .
قال في " التعريف " : وقد كان مَقَطع طريق ، ومَوْضِع خَوْف ، فَبَيَّ به فاضى
القضاة نَجْم الدين أبو العباس أحمد بن صصرى رحمه الله مَسْجِدًا وَبِرْكَةً ، وأجرى
الماء إلى البركة من مَلِك كان له هُناك وَقْفه على هذا السيل ، فَبَدَلَ الخَوْف أمانًا ،
والوَحْشَةَ أمانًا ، أتابه الله على ذلك . ثم منها إلى الفسولة ، ثم منها إلى شُيخين ،
ثم منها إلى حمص ، ثم منها إلى الرستن . ثم منها إلى حماة ، ثم منها إلى لطمين ،
ثم منها إلى طرابلس ، ثم منها إلى المعرة ، ثم منها إلى أقراتا ، ثم منها إلى إداي ، ثم منها
إلى قَمِيرين ، ثم منها إلى حلب .

وأما طريق الرحبة : فمن القطيفة المَقَمَّة الذَّكْر إلى العطنة . قال في " التعريف " :
وليس بها مَرْكَز ، وإنما بها خانٌ تُفَرَّق به صَدَقَةٌ من الخُبْز والاحذية ونحو الدُّوَاب
إلى جُبَيْل ، ثم منها إلى المصنع ، ثم منها إلى القريتين ، ثم منها إلى الحسبر ، ثم منها
إلى البيضاء ، ثم منها إلى تَدْمُر ، ثم منها إلى أَرَك ، ثم منها إلى السُّحْتة ، ثم منها إلى

قَبَابٍ، ثم منها إلى كَوَائِلَ . قال في "التعريف" : وهو اليوم عطل . ثم منها إلى الرَّجَبَةِ وهي حد هذه المملكة .

وأما طريق طَرَابُلُسَ : فمن القَسْوَلَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ [إلى القصب ، ثم منها إلى قَدَس] إلى أَقَار، ثم منها إلى الشَّعْرَاءِ، ثم منها إلى عرقاء، ثم منها إلى طَرَابُلُسَ .

وأما طريق جَبَبَر وما يليها : فمن حِمَصِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ إلى سَامِيَةِ ، ثم منها إلى بُغْدِيدَ، ثم منها إلى سُورِيَا، ثم منها إلى الحص، ثم منها إلى جَبَبَر، إلى عَيْنِ بَذَال، ثم منها إلى صهلان، ثم منها إلى التَّلَابُور، ثم منها إلى رَأْسِ عَيْنِ .

وأما طريق مِصْيَافَ : فمن حِمَصِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ إلى مِصْيَافَ .

وأما طريق صَفَدَ : فمن دِمَشْقَ إلى بَرِجِ القلوس، ومنه إلى أُرَيْبَةَ، ومنها إلى لغران، ومنها إلى صَفَدَ .

وأما طريق يَبْرُوتَ : فمن دِمَشْقَ إلى خَانَ مِيسْلُون، ومنها إلى رُبْدَانَ، ومنها إلى الحَصِينِ، ومنها إلى يَبْرُوتَ .

وأما طريق صَيْدَاءَ : فمن دِمَشْقَ إلى خَانَ مِيسْلُونِ الْمُقَدِّمِ الذِّكْرُ، إلى جَزِيرَةَ صَيْدَاءَ، إلى كَرْكِ نُوحَ، ثم منه إلى بَلْبَكَ . قال في "التعريف" : وأعلم أنَّ من صَيْدَاءَ إلى يَبْرُوتَ قَدَرُ مَرَكَا .

وأما بَلْبَكَ ، فلها طريقان : إحداهما من خَانَ مِيسْلُونِ الْمُقَدِّمِ الذِّكْرِ إلى كَرْكِ نُوحَ إلى بَلْبَكَ . والثانية من دِمَشْقَ إلى الزُّبْدَانِيَّ إلى بَلْبَكَ .

ومن أراد من بَلْبَكِ حِمَصَ ، توجه منها إلى القَصَبِ ، ثم إلى القَسْوَلَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرِ، وبعدها تَحْمِينِ ، ثم حِمَصُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ .

وأما طريق الكرك : فن دِمَشْق - فالمرآك المذكورة في الوُصُول من غَزَّة إلى دِمَشْق - على عَكْس ما هُتَم ، إلى طُفُس ، ومنها إلى القنينة ، ومنها إلى البُرْج الأبيض ، ومنها إلى حُصْبَات ، ومنها إلى [دِيلَاج] ومنها إلى [اكرية] ومنها إلى الكرك .

وأما طريق أُنْدُرِعَات ، مَقَرَّ وِلَايَةِ الْوَلَاةِ بِالصَّفْقَةِ الْقَبِيلَةِ : فن طُفُس المُقَدِّمَةِ الذِّكْر إلى أُنْدُرِعَات . قال في " التعريف " : فهذه جلة مَرَاكِرِ دِمَشْق إلى كل جِهَةٍ .

قال : فاما مقدار الولايات ، فن كل واحدة إلى ما يليها ، حتى يتوصَّل المسافر على البريد إلى حيث أراد .

المقصود الرابع

(في مَرَكِ حَلَب وما يتفرع عنه من المراكز الواقعة إلى البيرة وبهتني وما يليهما ، وقلة المسلمين المعروفة بقلة الروم ، وآياس مدينة الفتوحات الجاهانية ، وجعبر)

فاما الطريق الموصلة إلى البيرة : فن حَلَب إلى الباب ، ثم منها إلى السَّاجُور : ثم منها إلى كُنْكَاس ^(١) ، ثم منها إلى البيرة ، وهي في البر الشرقي من القُرَات . قال في " التعريف " : وهي آجَلٌ تُغَوَّرُهَا ^(٢) .

(١) بياض بالأصل ، والنصح من التعريف (ص ١٩٤) .

(٢) لم يذكرها التعريف .

(٣) عبارة التعريف : « واليرة أجَل فلاح الاسلام ، ومقاتل المماليك لم يخرج على طول الأيام » نقل ما رواه عن نسخة أخرى وقتت بيد المؤلف (أنظر ص ١٩٣) .

وأما طريق بَهْشَى وما يليها : فن حَلَب إلى السموقة ، ثم منها إلى مسندرا ،
[ثم منها إلى بيت الفار ^(١)] ثم منها إلى عَيْنَاب ، ثم منها إلى بَهْشَى .

ثم منها يُدْخَل إلى جهة قَيْسَارِيَّة والبلاد المعروفة الآن ببلاد الروم وهي بلاد
الدُّرُوب . قال في "التعريف" : وقد اسْتَضَفْنَا نَحْنُ (يعني أهل هذه المملكة)
في هذا الحِيزِ القريب إلينا منها : قَيْسَارِيَّة ودرندة ، وإنما اسْتَقَرَّ المعروفُ أنَّ
آخرَ حدِّ الممالك الإسلامية من هذه الجهة - بَهْشَى .

وأما طريق قلعة المسلمين وما يليها : فن عَيْنَابِ المقدمة المذكور إليها ، وهي وسط
الْقُرَات ، وهو خُلُجَانٌ دائِرَةٌ عليها . ثم من قلعة المسلمين إلى جسر الحجر ، ثم إلى
الكُفْتَا ، وهي آخر الحدِّ من الطَّرَفِ الآخر .

وأما طريق آيَاس : فن حَلَب إلى أَرطَاب ، ثم منها إلى بَيْرِينَ ، ثم منها إلى بَرَاء ،
ثم منها إلى بَرَّاس ، قال في "التعريف" : وهي كانت آخرَ الحدِّ مما يلي بلاد
الأَرَمَن . قال : وقد اسْتَضَفْنَا نَحْنُ في هذا الحِيزِ ما اسْتَضَفْنَا ، فصار من بَرَّاس
إلى بَايَاقس ، وهي أقلُّ جِيلِ الأَرَمَن ، ثم من بَايَاس إلى آيَاس .

وأما طريق جَعْبَر : فن حَلَب إلى الجُبُول ، ثم منها إلى بَالِس ، ثم منها إلى جَعْبَر .
قال في "التعريف" : هذه جُمْلَةٌ مراكر حَلَب . أما بقايا القلاع ومقارِّ الولايات ،
فن شَعَبَ هذه الطَّرُق ، أو من واحدة إلى أخرى .

(١) في التعريف سندر .

(٢) الزيادة من التعريف (ص ١٩٥) .

المقصود الخامس

(في مركز طرابلس وما يتفرع عنه من المراكز الموصلة إلى جهاتها)

فاما طريق اللاذقية : فن طرابلس إلى مرقية ، ثم منها إلى يلباس ، ثم منها إلى اللاذقية ، ثم منها إلى صبيون ، وهي قلعة جليلة كانت دار ملك . ثم منها إلى بلاطس . قال في "التعريف" : ومن شاء فن صبيون إلى برزيه ، وهو حصن سمي باسم من عمره أو عرف بملكه ، ومن شاء فن بلاطس إلى العليقة أول قلاع الدعوة مما يلي بلاطس ، ثم منها إلى الكهف ، ثم منها إلى القندوس ، ثم منها إلى الخوابي ، ثم منها إلى الرصافة ، ثم منها إلى مضاياف . قال في "التعريف" : فهذه جملة مراكز طرابلس . فاما مقام الولايات فن واحدة إلى آخرى ، ثم ذكر جميع مراكز البريد بالممالك المحروسة .

قال : فاما من اطراف حمايكا إلى حضرة الأردن ، حيث هو ملك بني هولاءو ، فلهم مراكز تدعى خيل الأولاق وخيل الياح يحمل عليها ، لا تشتري بمال السلطان ولا يكلف قمتها ، وإنما هي على أهل تلك الأرض ، نحو مراكز العرب في رمل مصر ونحو ذلك .

المقصود السادس

(في معرفة مراحل الجمار الموصلة إلى مكة المشرفة والمدينة النبوية من ما كانها

سيدنا محمد أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام ، إذ كانت من

نخبة الطرق الموصلة إلى بعض أقطار المملكة)

وكما ضبطت تلك المراكز قد ضبطت هذه بالمرآجل . وعادة الجمع أنهم يقطعون في كل يوم وليلة منها مرحلتين بسير الأثقال ، وديب الإقدام ، [ويقطعونها

كلها] في شهر، بما فيه من أيام الإقامة بالعقبة والينع نحو ستة أيام . أما من يسافر على التجب محققا مع الحد في السير فإنه يقطعها في نحو أحد عشر .

ثم أول مصيرهم من القاهرة إلى البركة المعروفة ببركة الحاج، ثم منها إلى البويب، ثم منها إلى الطليحات، ثم منها إلى المدرج، ثم منها إلى مراكم موسى، ثم منها إلى مجرود، وبها بئر ومصنع ماء متسع بلا منها . ثم منها إلى المنصرف، ثم منها إلى وادي القياب، وهو كثير الرمل . ثم منها إلى أول تيه بنى إسرائيل، وهو وادي أفصح متسع . ثم منها إلى العنق، ثم منها إلى نخيل، وبها ماء طيب . ثم منها إلى جسد الحى، ثم منها إلى بئر بيدرا، ثم منها إلى تمد الحصا، ثم منها إلى ظهر العقبة، ثم منها إلى سطح العقبة، وهو عرقوب البقلة على جانب طرف بحر القلزم، وفيها ماء طيب من حفاتر . ثم منها إلى حفن على جانب طرف بحر القلزم، وفيها ماء طيب من الحفاتر . ثم منها إلى عش الرأب، ثم منها إلى آثر الشرفة، ثم منها إلى مغارة شبيب، وبها ماء ومصنع . ثم منها إلى وادي عقان، ثم منها إلى ذات الرخيم، ثم منها إلى عيون القصب، وبه ماء نابع وأجمه قصب نائسة فيها . ثم منها إلى الموليعة، وبها ماء في آبار . ثم منها إلى المدرج، ثم منها إلى سلمى مجاور بحر القلزم، وبها ماء ملح . ثم منها إلى الأخيالات، ثم منها إلى الأزتم، والناس يقولون: الأزتم باللام بدل النون، وبه آبار بها ماء ردي يطلى بطن من شربه، لا يسقى منه غالباً إلا الجمال، وهي نصف الطريق . ثم منها إلى رأس وادي عترة . ثم منها إلى الوجه، وبه آبار قليلة الماء، وما هو داخل الوادي يزرع الماء فيه غالباً ولا يوجد فيه إلا حفاتر، ويقال : إنه إذا طلعت الشمس عليه نضب مأؤه، وفيه يقول بعض من حج من الشعراء وعمر عليه وجود الماء فيه :

إِذَا قَلَّ مَاءُ "الْوَجْهِ" قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَلَا خَيْرُ "وَجْهِ" بِتَرْحِيَاءِ!

ثم منه إلى المحاطب . ثم منها إلى أكرا ، ثم منها إلى رأس القاع الصغير ، ثم منه إلى قبر القروى ، ثم منه إلى كلفا ، ثم منها إلى آخر القاع الصغير ، ثم منه إلى الحوراء ، وبها ماء غير صالح . ثم منها إلى العقيق بضم العين تصغير عقيق بفتحها ، وهو مضيق صعب . ثم منها إلى مغارة نبط ، وبها ماء عذب ليس بطريق الحجاز أطيب منه . ثم منها إلى وادى الثور ، ثم منها إلى قبر أحمد الأعرج الدليل ، ثم منها إلى آخر وادى الثور ، ثم منه إلى رأس السبع وعمرات ، ثم منها إلى دار البقر ، ثم منها إلى البليغ ، وهى النصف والرُبع من الطريق ، وبها تقع الإقامة ثلاثة أيام أو نحوها ، وبها يؤدع الحجاج ما ثقل عليهم إلى حين العود ، ويستميرون منها مما يصل إليها من الديار المصرية في سفن بحر القلزم . ثم منها إلى المحاطب فى الوعر . ثم منها إلى رأس وادى بدر ، وهى منزلة حسنة بها عيون تجرى وحدائق . ثم منها إلى رأس قاع البزوة ، ثم منه إلى وسط قاع البزوة ، ثم منه إلى راينج ، وهو مقابل الجحفة التى هى مبات الإحرام لأهل مصر ، وبها يحرم الحجاج ولا يفتشون الجحفة ، إذ قد دعا النبي صلى الله عليه وسلم بقل حى المدينة إليها بقوله : «وأقل حمأها إلى الجحفة» فلو مر بها طائر لم . ثم منها إلى قديد بضم القاف . ثم منه إلى عفة السويق . ثم منها إلى خليس ، وبه مصنع ماء . ثم منها إلى عسقان ، ثم منها إلى ملزج على ، وهو كثير الوعر . ثم منه إلى بطن مر ، والعامية يقولون : مرؤ ، بزيادة واو ، وبه عيون تجرى وحدائق . ثم منه إلى مكة المشرفة شرفها الله تعالى وعظمتها ، ثم من مكة إلى منى ، وبها ماء طيب من آبار تحفر ، ثم منها إلى المشعر الحرام والمزدلفة ، ثم منها إلى عرفة وهى الموقف ، وإليها ينتهى سفر الحجاج .

ثم العود فى المنازل المتقدمة الذكر إلى وادى بدر على عكس ما تقدم .

الطريق إلى المدينة النبوية
(على ساكنها أفضل الصلاة والسلام)

من مِصر في المَرَايِلِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ ، إلى وَاْدِي بَدْرِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ ، إلى رَأْسِ
وَاْدِي الصَّفْرَاءِ ، وبِهِ عَيُونٌ تَجْرِي وَحِدَائِقُ وَأَشْجَارٌ . ثمَّ مِنْهَا إلى وَاْدِي بَنِي سَالِمٍ ،
ثمَّ مِنْهُ إلى وَاْدِي الْغَزَالَةِ ، ثمَّ مِنْهُ إلى الْقَرْشِ ، ثمَّ مِنْهُ إلى بَرْعَلٍ ، وبِهَا مَاءٌ طَيِّبٌ .
ثمَّ مِنْهَا إلى الْمَدِينَةِ الشَّرِيفَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى سَاكِنِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ وَالتَّحِيَّةِ
وَالْأَكْرَامِ .

وَمِنْ شَاءَ فَهَبْ إِلَيْهَا مِنَ الْبَيْعِ إِلَى رَأْسِ قَبِيبٍ عَلَى عِنْدِ طَرَفِ الْجَبَلِ ، ثُمَّ إِلَى
وَاْدِي الصَّفْرَاءِ ، ثُمَّ فِي الْمَرَايِلِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ إِلَى الْمَدِينَةِ . وَهِيَ أَقْرَبُ الطَّرِيقَيْنِ
لِلنَّاهِبِ مِنْ مِصْرَ ، وَتِلْكَ أَقْرَبُ الْعَاكِدِ مِنْ مَكَّةَ .

الباب الثاني

من الخاتمة في مطارَاتِ الحمامِ الرِّسَالِيّ، وذكرِ أبراجِها المقرَّرة بطُرُقِ
الديارِ المصريّة والبلادِ الشَّاميّة، وفيه فصلان

الفصل الأول

في مطارَاتِه

قد تقدّم في الكلام على أوصافِ الحمامِ - عند ذكر ما يحتاج إلى وصفِه في أوامرِ
مقاصِدِ المكتبات من المقالة الرَّابِعة - أنَّ الحمامَ أتمُّ جُذُوبٍ يقع على هذا الحمامِ
المتعارف بين الناس، وعلى الحمامِ والدَّباسِ والقارِي والقواخِيتِ وغيرها، وأنَّ التَّبادِرَ
إلى فهمِ السامع عند ذكرِ الحمامِ هو هذا النوعُ المختصُّ، وأنَّ أغلَاهُ قيمةً وأعلاهُ
رُتبةً الحمامُ الرِّسَالِيّ، وهو الذي يَقْنَعُهُ الملوْكُ لحَمْلِ المكتبات، ويُسَبِّحُ عنه به المهدى». .
وتقدّم هناك الكلام على ذكرِ ألوانِها على اختلافِها، وعدَدِ الرِّيشِ المتعبدة فيها، وهي
رِيشُ أجنَحَتِها وأذنابِها، وبيانُ الفرقِ بين الذَّكَرِ والأنثى، ووصفُ الطائرِ القارِي،
والقِرَاسَةِ في نجاتِه في حالِ صغَرِه، والزَّمانِ والمكانِ اللاتينِ بالإفراجِ، وما يجري
يجزى ذلك مما يحتاج إليه الكاتب عند وصفِه لبيانِ التَّجِيبِ منه من غيره، فأغنى
عن ذكرِه هنا .

والمتخصُّص منه بهذا المكانِ ذكرُ الاعتناء بهذا الحمامِ، وأوَّلُ من أهتمَّ بشأنِه،
واعتنى بأمرِه، ومن قام به من الملوْك، ومسافاتِ طيرانِه، وما يجري هذا
المجسرُ .

فأما الاعتناء به والأهتمام بشأنه - فقد أعنى به في القديم خلفاء بني العباس :
 كالمهدي ثالث خلفائهم ، والناصر منهم . وتتأقس فيه رؤساء الناس في العراق لا سيما
 بالبصرة . فقد ذكر صاحب "الروض المعمار" أنهم تتأقسوا في أعتنائه ، ولمعجوا
 بذكره ، وبأنوا في أهتمامه ، حتى بلغ عن الطائر الفأريه منها سبعمائة دينار . ثم قال :
 ويقال : إنه بلغ ممن طائر منها جاء من خليج القسطنطينية ألف دينار . قال :
 وكانت تباع بيضتا الطائر المشهور بالقراءة بعشرين ديناراً ، وأنه كان عندهم دقائر
 بأنساب الحمام كأنساب العرب ، وأنه كانت لا يمتنع الرجل الخليل ولا الفقيه
 ولا السد من اتخاذ الحمام ، والمناقبة فيه ، والإخبار عنها ، والوصف لأثرها ،
 والتعب لمشهورها ، حتى وجه أهل البصرة إلى بكار بن شيبة البكراني قاضي مصر ،
 (وكان في فضله وعقله ودينه وورعه على ما لم يكن عليه قاض) بحمايات لهم مع
 نقات ، وكتبوا إليه يبالونه أن يتولى إرسالها بنفسه ، ففعل . وكان الحمام عندهم
 متجراً من المتاجر ، لا يرون بذلك بأساً .

وذكر المقرئ الشهابي بن فضل الله في "التعريف" أن الحمام أول ما نشأ بالديار
 المصرية والبلاد الشامية من الموصل ، وأن أول من أعنى به من الملوك [وقله]^(١)
 من الموصل الشهيد نور الدين بن زنكي صاحب الشام رحمه الله ، في سنة خمس
 وستين وخمسة . وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر ، وبأنوا حتى أفردوا له
 ديواناً وجرأته بأنساب الحمام . وصنف فيه القاضي محي الدين بن عبد الظاهر كتاباً
 سماه : "تسليم الحمام" .

قلت : وقد سبقه إلى التصنيف في ذلك - أبو الحسن بن ملاح القوارس
 البغدادي ، فصنف فيه كتاباً للناصر لدين الله الخليفة العباسي ببغداد ، وذكر فيه

أسماء أعضاء الطائر ورأسه ، والوشوم التي تُوسم في كل عضو ، وأنوان الطيور وما يُستحسن من صفاتها ، وكيفية إفراخها . وبعد المسافات التي أرسلت فيها ، وذكر شيء من نوادرها وحكاياتها ، وما يجري هذا المجرى . وأظن أن كاتب القاضى محي الدين بن عبد الظاهر تَبِعَهُ عن مُقَدِّمِهِ .

وأما مسافات طَيْرَانِهِ ، فقد تَقَمَّ أن الطائر الذى يَبِعَ بِألف دينار طائر من السُّلْطَنِيَّةِ إلى البصرة ، وأن الحمام أُرسِلَ من مِصرَ إلى البصرة بِحَضْرَةِ القاضى بَكَّارِ قاضى مصر .

وذكر ابن سَعيد في كتابه "حَيَا المَخلُ وَجَنَى النَخل" أَنَّ العَزِيزَ ثَانِي خُلَفَاءِ الفاطِمِيَّينَ بِمِصرَ ، ذَكَرَ لَوَازِيرِهِ يَمْقُوبَ بنَ كَلَسَ أَنَّهُ مَارَى القَرَّاصِيَّةَ البَلْبَكِيَّةَ ، وَأَنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يَرَاهَا . وَكَانَ بِدِمَشْقَ حَمَامٌ مِنْ مِصرَ وَبِمِصرَ حَمَامٌ مِنْ دِمَشْقَ ، فَكُتِبَ الِوَزِيرُ لَوْحَتِهِ بِطَاقَةٍ يَأْمُرُ فِيهَا مَنْ هُوَ تَحْتَ أَمْرِهِ بِدِمَشْقَ أَنْ يَجْعَ مَا بَهَا مِنَ الحَمَامِ المِصرِيِّ ، وَيَعْلُقَ فِي كُلِّ طَائِرٍ حَبَاتٍ مِنَ القَرَّاصِيَّةِ البَلْبَكِيَّةِ ، وَيُرْسِلَهَا إِلَى مِصرَ ، ففعل ذلك ، فلم يَمُضِ النَّهَارُ حَتَّى حَضَرَتْ تِلْكَ الحَمَامُ بِمَا عُلِّقَ عَلَيْهَا مِنَ القَرَّاصِيَّةِ ، فَجَمَعَهُ الِوَزِيرُ يَمْقُوبُ بنَ كَلَسَ وَطَلَعَ بِهِ إِلَى العَزِيزِ فِي يَوْمِهِ ، فَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَغْرِبِ الغَرَائِبِ لَدَيْهِ .

وذكر أيضًا في كتابه "المُغْرِبُ فِي حُلَى المَغْرِبِ" أَنَّ الِوَزِيرَ البَاذُورِيَّ المَغْرِبِيَّ ، وَزِيرَ المِستَصرِّ باللهِ الفاطِمِيَّ وَجَّهَ الحَمَامَ مِنْ تُونِسَ مِنْ أَفْرِيقِيَّةِ مِنْ بِلَادِ المَغْرِبِ بِخَاءٍ إِلَى مِصرَ ، وَالمُهْدَةَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ .

الفصل الثاني

من الباب الثاني من الخاتمة في أبراج الحمام المقررة لإطاريتها
بالديار المصرية والبلاد الشامية

وهي من القواعد والطرق، على ما تقدم في البريد .

أما في المسافات فلها تختلف، فإن مطارات الحمام ربما زادت على مرارة
البريد .

الأبراج الآخذة من قلعة الجبل المحروسة

إلى جهات الديار المصرية

قال في "التعريف" : وأعلم أن الحمام قد أقطع تدريجه من مصر إلى قوص
وأسوان وعيناب . وهذا ظاهر في أن الحمام كان يدرج إلى هذه الأماكن ،
ثم أهمل تدريجه بعد ذلك . قال : ولم يبق منه الآن إلا ما هو من القاهرة إلى
الإسكندرية ، ومن القاهرة إلى دمياط ، ومن القاهرة إلى السويس من طريق
الحاج ، ومن القاهرة إلى بلبيس متصلاً بالشام .

قلت : وأهل هذه الأبراج كلها يرجع قلعة الجبل المحروسة، ومنها التدرج إلى
سائر الجهات .

ثم لم يذكر في "التعريف" : الأبراج الموصلة إلى أسوان وعيناب والإسكندرية
ودمياط .

الأبراج الآخذة من قلعة الجبل إلى غزة .

من بروج قلعة الجبل — إلى بلبيس ، ثم منها إلى الصالحية ، ثم منها إلى قطيا ،
منها إلى الوردية ، ثم منها إلى غزة .

الأبراج الآخذة من غزّة وما يتفرّع عنها

إعلم أن الأبراج من غزّة تنشعبُ فيها مساريحُ الحماة إلى غير جهة دمشق وإلى جهتها .

فأما غير جهة دمشق، فمن غزّة إلى بلد الخليل عليه السلام، ومن غزّة إلى القدس الشريف، ومن غزّة إلى نابلس .

وأما جهة الشام : فمن غزّة إلى لد، ومن لد إلى قاقون، ومن قاقون إلى جبين . ومن جبين تنشعبُ المساريحُ إلى غير جهة دمشق وإلى جهتها .

فأما ما إلى غير جهة دمشق : فمن جبين إلى صفد . وأما ما إلى جهة دمشق : فمن جبين إلى بيسان، ومن بيسان إلى أربد، ومن أربد إلى طفس، ومن طفس إلى الصنمين، ومن الصنمين إلى دمشق .

قال في "التعريف" : ومن كلّ واحد من هذه المراكز إلى ما جاور ذلك من المشاهير : مثل من بيسان إلى أنطاكية مقر ولاية الولاية بالصفقة القبلية، ومن طفس إليها - لإشعار وإلى الولاية .

الأبراج الآخذة من دمشق وما يتفرّع عنها

تنشعبُ مساريحُ الحماة من دمشق إلى غير جهة حلب، وإلى جهتها .

فأما إلى غير جهة حلب : فقسر من دمشق إلى بعلبك، ومن دمشق إلى القريتين .

وأما ما هو إلى جهة حلب : فقسر من دمشق إلى قارا، ثم من قارا إلى حصص^(١)، ثم من حصص إلى حماة، ثم من حماة إلى المعرة، ثم من المعرة إلى حلب .

(١) سماها في رسم البلدان : قارة بالهاء .

الأبراج الاخذة من حلب وما يتفرع عنها

بُرجُ الحمام من حلب إلى البيرة ، ومن حلب إلى قلعة المسلمين ، ومن حلب إلى بَسنّ . قال في " التعريف " : وإلى بقية [ماله شأنت^(١)] مما حوّلها [ثم من القرّيتين إلى تدمر ، ومنها إلى السخنة ، ومنها إلى قُبّاقب ، ومنها إلى الرّحبة . وقد تطلّ الآن تدرجُ السخنة إلى قُبّاقب ، وإنما صار يسوق بيّطائيقي تدمر الواقعة بالسخنة منها إلى قُبّاقب ، ثم يُسرح على الجناح من قُبّاقب إلى الرّحبة^(٢)] . قال : وبما ذكرتم ذكرُ مراكي الحمام في سائر المسالك الإسلامية .

قلت : وقد تطلّ تدرجُ الحمام الآن .

(٢) انظر زيادة من التعريف لبيّن الكلام .

الباب الثالث

من الخاتمة في ذكر هجن التلج والمراكب المعلقة لمل التلج الذي يحمل
من الشام إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية،
وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول

في نقل التلج

إعلم أن ماء نيل مصر لما كان من الحلاوة واللطافة على ما لا يساويه فيه نهر من
الأشهار، على ما تقدم ذكره في الكلام على الديار المصرية في المقالة الثانية، مع شدة
القيظ بها في زمن الصيف، ومخونة الهواء الذي قد لا يتأق معه تبريد الماء، وكان
التلج غير موجود بها، وكانت الملوك قد اعتادت الرفاهية مع اقتدارها على تحصيل
الأشياء العزيرة، ولوعيم يحملها من الأماكن البعيدة - إكمالاً لحال الرفاهية،
وإظهاراً لأبهة الملوك - دعاهم كمال الرفاهية والأبهة إلى جلب التلج من الشام إلى
مصر: لتبريد الماء به في زمن الحر. على أن ذلك كان في غيرهم من الملوك التي
لا تلج بمحاضرتهم.

وقد ذكر أبو هلال السكري في كتابه "الأوائل" أن أول من حمل إليه التلج
الحجاج بن يوسف بالعراق. ثم لاعتناء ملوك مصر بالتلج قرروا له هجناً تحمله في البر
وسفنًا تحمله في البحر، حتى يصل إلى القلعة المحروسة.

الفصل الثاني

من الباب الثالث من الخاتمة في المراكب المعدة لنقل التلج من الشام
قد ذكر في "التعريف" أنها كانت في أيام الملك الظاهر «بيبرس» قعده الله
برحمته ثلاث مراكب في السنة، لا تزيد على ذلك . قال : ودامت على أيام سلطاننا
(يعني الملك الناصر «محمد بن قلاوون») في السلطنة الثالثة، وقيمت صدراً منها،
ثم أخذت في الترييد إلى أن بلغت أحد عشر مركباً في ملكي الشام وطرابلس،
موربماً زادت على ذلك . قال : وآخر عهدى بها من السبعة إلى الثمانية تطلب
من الشام ولا تكلف طرابلس إلا المساعدة، وكل ذلك بحسب اختلاف الأوقات
ودواعي الضرورات .

قال : والمراكب تأتي دمياط في البحر، ثم يخرج التلج في النيل إلى ساحل
بولاق، فينقل منه على البغال السلطانية، ويحمل إلى الشرايخانة الشريفة، على
ما تقدم ذكره .

وقد جرت العادة أن المراكب إذا سقرت سقر معها من يتدرجها من ثلاثين
لمداراتها . ثم الواصلون بها في البحر يودون على البريد في البر .

الفصل الثالث

من الباب الثالث من الخاتمة في المهن المعدة لنقل ذلك

قد ذكر في "التعريف" أنه مما حدث في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون»
وآسئره . وقد كان قبل ذلك لا يُحمل إلا في البحر خاصة . ثم ذكر أن هذه المراكب
من دمشق إلى الصنمين، ثم منها إلى بانياس، ثم منها إلى أربد، ثم منها إلى بيسان،

ثم منها إلى جينين ، ثم منها إلى قلقون ، ثم منها إلى لدة ، ثم منها إلى فزة ، ثم منها إلى العريش ، ثم منها إلى الورادة ، ثم منها إلى المطلب ، ثم منها إلى قليا ، ثم منها إلى القصير ، ثم منها إلى الصالحية ، ثم منها إلى بلبس ، ثم منها إلى القلعة .

قال : والمستقر في كل مركز يستحق : خمسة لأحمال ، وخمسين للهجان ، تكون كل قلعة خمسة أحمال . وهذه الخمسين من الشام إلى العريش على المملكة الشامية ، خلا جينين فإنها على صفد . ومن الورادة إلى القلعة خمسين من المناخل السلطانية ، والكلفة على مال مصر . ولا تستقر هذه الخمس بهذه المراكز إلا أوان حمل التلج ، وهي : حريران وثميرن الثاني . وعدة قلاته إحدى وسبعون قلعة ، متقارب مدد ما بينها ، ثم صار يزيد على ذلك . ويجهز مع كل قلعة بريلة يتداركها ، ويجهز معه ثلاث خيول بحمله ومداراته ، يحمل على فرس يزيد ثمان . قال : واستقر في وقت أن يحمل التلج على خيل الولاية .

وأعلم أن التلج إذا وصل على المراكب والمجن حتى انتهى إلى القلعة ، نزل بالشرابجات السلطانية . قال في "التعريف" : ومذقور أن يحمل من التلج على الظهر ما يحمل ، استقر منه خاص المشروب ، لأنه يصل أنظف وأمن عاقبة ، على أن المستقرين يأخذون الجاشي منه بحضور أمير مجلس وشاد الشرابجات السلطانية وتزايها . أما المتقول في البحر فلما عدا ذلك . قال : وللمجهزين به من التلج رسوم الإنعام رسوم مستقرة ، وعوائد مستمرة .

قلت : وقد جرت العادة أن وأصل التلج في كل قلعة في البر والبحر تكتب به ربعة من ديوان الإنشاء ، وهذا هو وجه تعلقه بديوان الإنشاء .

الباب الرابع

من الخاتمة في المناور والمحرقات ، وفيه فصلان

الفصل الأول

في المناور

قال في "التعريف" وهي مواضع يُرفع النار في الليل والدخان في النهار .

وذلك أن مملكة إيران لما كانت بيد هؤلاء من النار ، وكانت الحروب بينهم وبين أهل هذه المملكة ، كان من جملة احتياطات أهل هذه المملكة أن جعلوا أماكن مرفوعة من رؤوس الجبال يُوقد فيها النار ليلاً ويُثار الدخان نهاراً ، للإعلام بحركة النار إذا قصدوا دخول البلاد لحرب أو إغارة . وهذه المناور تارة تكون على رؤوس الجبال ، وتارة تكون في أبنية عالية ، ومواضعها معروفة تعرف بها أكثر السفارة ، وهي من أقصى ثغور الإسلام كالبيرة والرحبة ، وإلى حضرة السلطان بقعة الجبل ، حتى إن المتجند بالقرات إن كان بكرة علم به عشاء ، وإن كان عشاء علم به بكرة . ولم يرفع من هذه النيران ، أو يدخن من هذا الدخان أدلة يعرف بها اختلاف حالات رؤية العدو والخبر به باختلاف حالاتها ، تارة في السد ، وتارة في غير ذلك .

وقد أُرصد في كل منور الديابذ والنظارة ، لرؤية ما وراءهم وإبراء ما أمامهم ، ولم على ذلك جوامع مقررّة كانت لا تزال دائرة . قال : وكان يسور بمدينة عانة من تلك المملكة قوم من التصاح بمجة أمير سوى التنوير ، ويستريح عليهم أهل البلد حباً للوفا ، فترى [ناره أو دخانه بحرية الروم و بالحرف أيضاً ، ويُرفع فيهما أو في إحداهما فيرى^(١)]

من كلّ منهما بواكى الميكل، ويرفع فيه فيرى [بالقناطر، ويرفع بالقناطر فيرى بالرجبة
وقاها الله، ويرفع بها فيرى في كوايتل، ويرفع فيها فيرى في منطرة قباقب، ويرفع
فيها فيرى في حفير أسيد الدين، ويرفع بها فيرى^(١) بالسحنة، فيرفع فيها فيرى بمنطرة
أرك، فيرفع فيها فيرى بالبويب وهو قنطرة [بين أرك] وتدمر، فيرفع فيها فيرى
بمنطرة تدمر، فيرفع فيها فيرى بمنطرة البيضاء، فيرفع فيها فيرى بالخير، فيرفع فيها
فيرى بيطيل، فيرفع فيها فيرى بالقريتين، فيرفع فيها فيرى بالعطنة، فيرفع فيها فيرى
بثنية المقاب، فيرفع فيها فيرى بمذنة العروس، فيرفع فيها ليا حولها، إنذارا للرعايا
وحننا للأطراف، فيرفع حول دمشق بالجبل المطل على برزة فيرى بالمناخ، فيرفع به
فيرى بتل قرية الكتبية، ثم يرفع فيها فيرى بالطرة، ثم يرفع فيرى بجبل أربد وبجبل
عجلون، ثم يرفع بهما فيرى بجبل طيبة أسم، ثم يرفع بها فيرى بالمتور الممول بازاء
البر الذي برأس الجبل المنحدر إلى يسار المعروف بقبة البريد، لا عدول بطريق
البريد الآن عنه، ويرى منه أطراف أعمال نابلس [نحو جبال أزيق وما حولها،
ويرفع من هذا المتور الذي برأس عقبة البريد فيرى بالجبل المعروف بقرية جينين،
ثم يرفع منه فيرى بجبل حكمة، ثم يرفع منه فيرى بشرفة قاقون، ثم يرفع منه فيرى
بأطراف أعمال نابلس] ويرى على قصد الطريق بذرورة الجبل المصايب لجبل بابا،
فيرفع منه فيرى بمرتكو يامور المعدول بالبريد الآن عنه، ثم يرفع منه فيرى بالجبال
المطلّة على غزّة، فيرفع بمنزة على أعالي الحذب المعروف بحذب غزّة، ثم [لا متور]^(٢) ولا
أخبار بسان التار إلا على الجناح والبريد .

(١) الزيادة من الصريف (ص ٢٠٠ - ٢٠١) .

(٢) القى في الصريف : وقد عدل الآن طريق الخ ضنه .

قال : ثم أعلم أن جميع ما ذكرناه مناورٌ تنقسم إلى ما تخرج عن جادة الطريق إلى البلاد الآخذة على جنبٍ جنوباً وشمالاً ، شرقاً وغرباً . أما منذُ أصلح الله بين الفتيين ، وأمنَ جانبَ الجهتين ؛ فقد قلَّ بذلك الاحتفال ، وصُرفَ عن البال . وهذه المناورُ رسومٌ قد عَفَتْ ، وجُسُومٌ [أَكَلَتْ شُعْلُ النَّارِ أَرْوَاحَهَا] ^(١) فَانْطَلَقَتْ .

على أنه قد نَصَّ في "التعريف" على مناورِ طريقِ البيرة ، ومناورِ طريقِ الرُّجَّة ؛ وهما من قِصصِ المملكة .

قلتُ : وهذه المناورُ مأخوذةٌ من ملوكِ الهند . فقد رأيتُ في بعضِ الكتبِ أنَّ ببلادهم مناورٌ على جبالٍ مرتفعةٍ ، تُرى النارُ فيها على بُعدٍ أكثرَ من هذه .

على أن مُرتبها بهذه المملكة أولاً أتى بحِكْمَةٍ ملوكيةٍ لا تُساوَى مقدارا ، إذ قد ترقى في سُرعة بلوغِ الأخبارِ إلى الغاية القصوى . وذلك أن البريدَ يأتي من سُرعة الخَبَرِ بما لم يأت به غيبه ، والחסامُ يأتي من الخَبَرِ بما هو أسرعُ في البريدِ ، والمناورُ تأتي من الخَبَرِ بما هو أسرعُ من الحسام . ونالِيك أن يظهرَ عنوانُ الخَبَرِ في الفُراتِ بمصر في مَسَافَةِ يَوْمٍ وَبَلِيلَةٍ .

الفصل الثاني

من الباب الرابع من الخاتمة في المحرقات

قال في "التعريف": وهي مواضع مما على بلادنا من حد الشرق داخله في تلك المملكة (بني مملكة بني هولاكو من التار) يُجهز إليها رجالٌ قُصُوفٌ زُرْعُها كَأَرْضِ البُقعة والترتار والقينة، وباشرة، والختاخ، ومشهد ابن حمر، والمولبع، وبلاد يينوي من بر الموصل التي يقال، إن يُرْس طيه السلام بُعِثَ إلى أهلها، والوادي، والميدان، والباب، والصومعة، والمرج المعروف ببني زيد، والمرج الحترق، ومنازل الأورباتية، وهي أطراف هذه المواضع إلى جبل الأكراد. ويلاذ سنجار. انطلق والمنظرة والمزينة، وتحت الجبال عند التيللات، وكذلك التارات، وأعلى جبل سنجار وما إلى ذلك.

وذلك أنه كان من عادة التراتهم لا يكفون علوة خيلهم بل يكفونها إلى ما تبثت الأرض، فإذا كانت تلك الأرض عُصبة سلكوها، وإذا كانت عُصبة تجببوها، وكانت أرض هذه البلاد المتقدمة الذكر أرضاً عُصبة، فهو يكفاية خيل القوم إذا قصدوا بلادنا، فإذا أحرقوا زرعها وبناتها ضَعُفُوا عن قصد بلادنا وحصل بذلك جميع الرقي، والنفع عن مباغثة الأطراف ومهاجمة الثغور.

وكان طريقهم في إحراقها أن يُجهزوا إليهم الرجال ومعهم الثعالب الوحشية وكلاب الصيد، فيكثرون عند أمتاء النضاح في كهوف الجبال ويكون الأودية، ويرقبون يوماً تكون ريحها ماصفة وهوائه زعزع، تملأ النار موهمة في أذهاب تلك الثعالب والكلاب، ثم تطلق الثعالب، والكلاب في أثرها وقد جوعت، فتجده

الغالب في العدو، والكلاب في الطلب، تصغر ما شرت به من الزرع والنبات، وتعلق الريح النار منه فيما جاوره، مع ما يقيه الرجال بأبيهم في الليل المظلم، وحشاه الأيام المضممة. وكان يتفق في نظير هذا الإحراق من خزانة دمشق بحمل من الأموال. قال: وكان الاهتمام بذلك في أول الأمر قبل أن يقطعوا بقصد التحريق، ثم تبهم على ذلك أهل اللدابة، فصاروا يرطون عليها الطرقي، ويمسكون منها بالأطراف، ويحل عبيد من الرجال بسبها، وأحرقوهم بأشد من ناراها.

وذكر أن مما كان يختب تحريقه - أرض الجبال، من حيث إنها بلاد يقية السلف الصالح من ذرية شيخ الإسلام الإمام الكبير العارف بالله وعبد القادر الجيلاني المعروف بالكلاني، نفع الله تعالى بركاته، لتعليمهم من الجهتين، مع ما لم عند ملوكنا من المكائنة المليّة: قديم سلفهم، وحميم شرفهم، وليا للإسلام وأهله من إسماهم بما تصل إليه القدرة ويبلغه الإمكان.

قلت: ويتم القول في هذا الطرف قد تم ما كنت أحاوله من التاليف، وأتم به من الجمع، وبالله التوفيق، وإليه الرغبة، وهو حسي ونيم الوكيل.

وأعلم أن المصنفات تتفاوت في المخطوط إقبالا وإذبارا: فمن مرغوب فيه، ومرغوب عنه، ومتوسط بين ذلك. على أنه قل أن يتفق تأليف في حياة مؤلفه، أو يروج تصنيف على القرب من زمان مصنفه.

قال المسعودي في كتابه "التبيين والإشراف" وقد تشترك الخواطر، وتتفق الضمائر، وربما كان الآخرا أحسن تأليفا، وأتم تصنيفا، لحكمة التجارب، وخشية التبع، والاحتراز من موانع المضار. ومن هاهنا صارت العلوم أممية، غير متناهية، لوجود الآخرا لا يحسد الأول، وذلك إلى غير غاية محصورة، ولا نهاية محدودة.

على أن من شيم كثير من الناس إطرء المتقدمين، وتعظيم كتب السالعين،
ومدح الماشي، وذم الباقي، وإن كان في كتب المتقدمين ما هو أعظم قائده،
وأكثر عائده.

ثم حكى عن الجاحظ - على جلالة قدره - أنه قال: كنت أولف الكتاب الكبير
المعاني، الحسن النظم، وأنسبه إلى نفسي، فلا أرى الاستماع تُصني إليه،
ولا الإرادات تقيم حموه، ثم أولف ما هو أنقص منه رتبة، وأقل فائدة، وأصله
عبد الله بن المقفع، أو سهل بن هرون، أو غيرهما من المتقدمين، ممن صارت
أسمائهم في المصنفين، فيقولون على كتبها، ويسارعون إلى نسخها، لا لشيء
إلا لسمعتها للتقدمين، ولما يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم،
ومنافسته على المتأقب التي عني بشييدها.

قال: وهذه طائفة لا يباها بكار الناس، وإنما العمل على أهل النظر والتأمل
الذين أعطوا كل شيء حقه من القول، ووقوه قسطه من الحق، فلم يرقموا المتقدم
إذا كان ناقصاً، ولم ينقصوا المتأخر إذا كان زائداً، فليشمل هؤلاء تصنف العلوم،
وتدون الكتب.

وإذا كان هذا ثقل المسعودي عن الجاحظ الذي هو رأس المصنفين، وعين
أعيانهم، فما ظنك بغيره؟

ليكني أحمد الله تعالى على رواج سوق تأليفي، وتفاق سيلته، والمسارة إلى
استجابه قبل انقضائه تأليفه، حتى إن قلبي التأليف والنسخ يتسابقان في ميدان
الطرس إلى آ كتابته، ومزجبت نجاهه للاستساج يساهمهما في ارتقابه. فضلاً من
الله ونعمته، (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم).

قال المؤلف : تَجَزَّتْ تَالِيفُهُ فِي الْيَوْمِ الْمُبَارَكِ ، يَوْمَ الْجُمُعَةِ الثَّمَنِينَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ شَوَّالٍ ، سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ وَثَمَانِمِائَةٍ .

وَتَجَزَّتْ هَذِهِ النُّسخة فِي يَوْمِ السَّبْتِ الْمُبَارَكِ الْتَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ صَفَرٍ الْخَمْسَةِ ، سَنَةِ ثَمَانِ وَثَمَانِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ .

فَرَّغَ مِنْهُ كِتَابُهُ وَسَيِّدُهُ قَبْلَهُ ، فَقَدِيرُ رَحْمَةِ رَبِّهِ الْغَنِيُّ الْفَاتِحُ ، عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ
أَبْنِ مُحَمَّدٍ النَّاسِخِ الشَّافِعِيِّ ، تَزِيلُ الصَّالِحِيَّةِ النَّجْمِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالسَّادَةِ الْحَنَابِلِيَّةِ ، بِمَنْحَطِ
بَيْنِ الْقَصْرَيْنِ : غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ ، وَسَتَرَ عُيُوبَهُ ، وَخَتَمَ لَهُ وَالسَّامِعِينَ بِحُجْرَةِ آمِينَ

وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ
وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ : سُبْحَانَ رَبِّكَ
رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

مطابع کوستاس ماس وشرکاء
۵ شارع وقف انجمن مدرس الطاهر ج ۲
اسٹیفون ۹۰۰۵۸ ص ۱۱: ۶۴

